

مَشْرُوحٌ

مَهْجُ الْبَلَاغَةِ

لَاِبْنِ أَبِي الْحَسَنِ

مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ

كَانَ الْكَتَابُ لِلْفَرَجِ
بَشَادَ



حقوق الطباعة محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م



دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

خليفت (٢٠١١/٢ - ٢٠١٥/٢) - تلفاكس: ٨٠٠-٧٢٦٤٠٨

<http://www.Dar-ALamira.com>
email: info@dar-alamira.com



دار الكتاب العربي

بغداد - شارع الحسيني

تلفون: (٤١٥٤٥٦١ - ٧٩٠١٤١٩٣٧٥)

مكتبة الخواصر العظمى

مؤسسة السيد محمد باقر الصدر

الطبعة الأولى
الطبعة الثانية - ١٩٦٠ - ١٩٦١
مطبعة الحكمة - العراق

شركة تجارت البترول

ابن أبي الحَكَم

تحقيق

محمّد بن عبد الله

المجلد الثاني

٣ - ٤



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد العدل الكريم

واعلم أن الذي ذكره المرتضى رحمه الله تعالى، وأورده على قاضي القضاة جيد ولازم، متى ادعى قاضي القضاة أن العدالة إذا ثبتت ظناً أو قطعاً لم يجز العدول عنها والتبرؤ إلا بما يوجب القطع، ويُعلم به علماً يقينياً زوالها، فأما إذا ادعى أن المعلوم لا يزول إلا بما يوجب العلم، فلا يرد عليه ما ذكره المرتضى رحمه الله تعالى.

وله أن يقول: قد ثبتت بالإجماع إمامة عثمان، والإجماع دليل قطعي عند أصحابنا، وكل من ثبتت إمامته ثبتت عدالته بالطريق التي بها ثبتت إمامته، لأنه يجوز أن تكون إمامته معلومة وشرائعها مظنونة، لأن الموقوف على المظنون مظنون، فتكون إمامته مظنونة، وقد فرضناها معلومة، وهذا خلف ومحال. وإذا كانت عدالته معلومة لم يجز القول بانتفاها وزوالها إلا بامر معلوم.

والأخبار التي رويت في أحداثه أخباراً آحاد لا تفيد العلم، فلا يجوز العدول عن المعلوم بها، فهذا الكلام إذا رتب هذا الترتيب اندفع به ما اعترض به المرتضى رحمه الله تعالى.

عود على بدء: بقية رد المرتضى

فأما كلام المرتضى رحمه الله تعالى على الفصل الثاني من كلام قاضي القضاة، وهو الفصل المحكي عن شيخنا أبي علي رحمه الله تعالى، فنحن نورده. قال رحمه الله تعالى:

أما قوله: لو كان ذكر من الأحداث قادحاً لوجب من الوقت الذي ظهرت الأحداث فيه أن يطلبوا رجلاً ينصبونه في الإمامة لأن ظهور الحدث كموته، فلما رأيناهم طلبوا إماماً بعد قتله دل على بطلان ما أضافوه إليه من الأحداث. فليس بشيء معتمد، لأن تلك الأحداث وإن كانت مزيلة عندهم لإمامته، وفاسخة لها، ومقتضية لأن يعقدوا لغيره الإمامة، إلا أنهم لم يكونوا قادرين على أن يتفقوا على نصب غيره، مع تشبته بالأمر، خوفاً من الفتنة والتنازع والتجاذب، وأرادوا أن يخلع نفسه، حتى تزول الشبهة، وينشط من يصلح للأمر لقبول العقد والتكفل بالأمر. وليس يجري ذلك مجرى موته، لأن موته يخيم الطمع في استمرار ولايته، ولا تبقى شبهة في خلق الزمان من إمام. وليس كذلك حدثه الذي يسوغ فيه التأويل على بعده، وتبقى معه شبهة في استمرار أمره. وليس نقول: إنهم لم يتمكنوا من ذلك كما سأل نفسه، بل الوجه في عدولهم ما ذكرناه من إرادتهم حسم المواد وإزالة الشبهة وقطع أسباب الفتنة.

قال: فاما قوله: إنه معلوم من حال هذه الأحداث أنها لم تحصل أجمع في الأيام التي حُصر فيها وقُتل، بل كانت تقع حالاً بعد حال، فلو كانت توجبُ الخلع والبراءة، لما تأخر من المسلمين الإنكارُ عليه، ولكان المقيمون من الصحابة بالمدينة أولى بذلك من الواردين من البلاد، فلا شك أن الأحداث لم تحصل في وقت واحد إلا أنه غير منكر أن يكون نكيرهم إنما تأخر لأنهم تأولوا ما ورد عليهم من أفعاله على أجمل الوجوه، حتى زاد الأمر وتفاقم، وبعُد التأويل، وتعذر التخريج، ولم يبق للظن الجميل طريق، فحينئذ أنكروا، وهذا مستمر على ما قدمنا ذكره، من أن العدالة والطريقة الجميلة يتأول لها في الفعل والأفعال القليلة، بحسب ما تقدم من حُسن الظن به، ثم ينتهي الأمر بعد ذلك إلى بُعْد التأويل، والعمل على الظاهر القبيح.

قال: على أن الوجه الصحيح في هذا الباب أن أهل الحق كانوا معتقدين بخلعه من أول حدث، بل معتقدين أن إمامته لم تثبت وقتاً من الأوقات، وإنما منعهم من إظهار ما في نفوسهم ما قدمناه من أسباب الخوف والتقية، لأن الاعتذار بالوجل كان عامّاً، فلما تبين أمره حالاً بعد حال، وأعرضت الوجوه عنه، وقلّ العذار له، قويت الكلمة في خلعه. وهذا إنما كان في آخر الأمر دون أوله. فليس يقتضي الإمساك عنه إلى الوقت الذي وقع الكلام فيه نسبة الخطأ إلى الجميع، على ما ظنه.

قال: فاما دفعه بأن تكون الأمة أجمعت على خلعه بخروجه نفسه وخروج من كان في حيزه عن القوم، فليس بشيء، لأنه إذا ثبت أن من عداه وعدا عبيده والرقيق من فجار أهله وفساقهم، كمروان ومن جرى مجراه، كانوا مجمعين على خلعه، فلا شبهة في أن الحق في غير حيزه؛ لأنه لا يجوز أن يكون هو المصيب، وجميع الأمة مبطل، وإنما يدعى أنه على الحق لمن ينازع في إجماع من عداه، فاما مع التسليم لذلك، فليس يبقى شبهة، وما نجد مخالفينا يعتبرون في باب الإجماع بإجماع الشذاذ والنفر القليل الخارجين من الإجماع، ألا ترى أنهم لا يحفلون بخلاف سعد وأهله وولده في بيعة أبي بكر لقتلهم وكثرة من بإزائهم، ولذلك لا يعتلون بخلاف من امتنع من بيعة أمير المؤمنين عليه السلام، ويجعلونه شاذاً، لا تأثير بخلافة، فكيف فارقوا هذه الطريقة في خلع عثمان! وهل هذا إلا قلب وتلون!

قلت: أما إذا احتج أصحابنا على إمامة أبي بكر بالإجماع، فاعتراض حجتهم بخلاف سعد وولده وأهله اعتراض جيد، وليس يقول أصحابنا في جوابه: هؤلاء شذاذ فلا نحفل بخلافهم، وإنما المعتبر بالكثرة التي بإزائهم. وكيف يقولون هذا، وحجتهم الإجماع ولا إجماع! ولكنهم يُجيبون عن ذلك بأن سعداً مات في خلافة عمر، فلم يبق من يخالف في خلافة عمر، فانهقد الإجماع عليها، ويابح ولد سعد وأهله من قبل، وإذا صحت خلافة عمر صحت خلافة أبي

بكر، لأنها فرع عليها، ومحال أن يصح الفرع، ويكون الأصل فاسداً، فهكذا يجب أصحابنا عن الاعتراض بخلاف سعد إذا احتجوا بالإجماع، فأمّا إذا احتجوا بالاختيار فلا يتوجه نحوهم الاعتراض بخلاف سعد وأهله وولده، لأنه ليس من شرط ثبوت الإمامة بالاختيار إجماع الأمة على الاختيار، وإنما يكفي فيه بيعة خمسة من أهل الحل والعقد على الترتيب الذي يرتب أصحابنا الدلالة عليه، وبهذا الطريق يثبت عندهم إمامة علي عليه السلام، ولم يُخفَل بخلاف معاوية وأهل الشام فيها.

قال رحمه الله تعالى: فأمّا قوله: إنّ الصحابة كانت بين فريقين: من نصره كزيد بن ثابت وابن عمر وفلان وفلان، والباقيون ممتنعون انتظاراً لزوال العارض ولأنه ما ضيق عليهم الأمر في الدفع عنه، فعجيب، لأن الظاهر أن أنصاره هم الذين كانوا معه في الدار، يقاتلون عنه، ويدفعون الهاجمين عليه.

فأمّا من كان في منزله ما أغنى عنه قليلاً، فلا يُعدّ ناصراً، وكيف يجوز ممن أراد نصرتَه، وكان معتقداً لصوابه، وخطأ المطالبين له بالخلع، أن يتوقف عن النصرة طلباً لزوال العارض! وهل تُراد النصرة إلا لدفع العارض، ويُعدّ زواله لا حاجة إليها! وليس يحتاج في نصرتَه إلى أن يضيق هو عليهم الأمر فيها، بل من كان معتقداً لها لا يحتاج حملة إلى إذنه فيها، ولا يُخفَل بنهيها عنها؛ لأن المنكر مما قد تقدّم أمر الله تعالى بالنهي عنه، فليس يحتاج في إنكاره إلى أمر غيره.

قال: فأمّا زيد بن ثابت، فقد روي ميله إلى عثمان، وما يغني ذلك ويزاؤه جميع المهاجرين والأنصارا ولميله إليه سبب معروف، فإن الواقدي روى في «كتاب الدار» أن مروان بن الحكم لما حصر عثمان الحضر الأخير أتى زيد بن ثابت فاستصحبه إلى عائشة ليكلّمها في هذا الأمر، فمضيا إليها وهي عازمة على الحج، فكلّماها في أن تُقيم وتذّب عنه، فأقبلت على زيد بن ثابت، فقالت: وما منعك يا بن ثابت ولك الأشراف قد اقتطعكها عثمان، ولك كذا وكذا، وأعطاك عثمان من بيت المال عشرة آلاف ديناراً قال زيد: فلم أزعج عليها حرفاً واحداً، وأشارت إلى مروان بالقيام، فقام مروان وهو يقول:

حَرَقَ قَيْسٌ عَلَيَّ الْبَلَا دَ حَتَّى إِذَا اضْطَرَمْتُ أَجْذَمًا^(١)

فنادته عائشة، وقد خرج من العتبة: يا بن الحكم، أعلني ثمّل الأشعارا قد والله سمعتُ ما قلت، أتراني في شك من صاحبك! والذي نفسي بيده لوددت أنه الآن في غرارة من غرائري مَخِيط عليه، فألقه في البحر الأخضر، قال زيد بن ثابت: فخرجنا من عندها على اليأس منها.

(١) الإجذام: الإقلاع عن الشيء. اللسان، مادة (جذم).

وَرَوَى الْوَاقِدِيُّ أَنَّ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ عَصَابَةُ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى نُصْرَةِ
عُثْمَانَ فَوْقَ عَلَيْهِ جَبَلَةٌ بَنَ عَمْرُو بْنُ حَبَّةَ الْمَازَنِيِّ، فَقَالَ لَهُ: وَمَا يَمْنَعُكَ يَا زَيْدُ أَنْ تَذُبَّ عَنْهُ؟
أَعْطَاكَ عَشْرَةُ آلَافٍ دِينَارٍ وَحِدَاقٍ مِنْ نَخْلٍ لَمْ تَرِثْ عَنْ أَبِيكَ مِثْلَ حَدِيقَةٍ مِنْهَا.
فَأَمَّا ابْنُ عَمْرٍو فَإِنَّ الْوَاقِدِيَّ رَوَى أَيْضاً عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: وَاللَّهِ مَا كَانَ فِينَا إِلَّا خَاذِلٌ أَوْ قَاتِلٌ.
وَالْأَمْرُ عَلَى هَذَا أَوْضَحُ مِنْ أَنْ يَخْفَى.

فَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ مِنْ إِنْغَازِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فَإِنَّمَا أَنْفَذَهُمَا
- إِنْ كَانَ أَنْفَذَهُمَا - لِيَمْنَعَا مِنْ انْتِهَاكِ حَرِيمِهِ وَتَعَمُّدِ قَتْلِهِ، وَمَنْعِ حُرْمِهِ وَنِسَائِهِ مِنَ الطَّعَامِ
وَالشَّرَابِ، وَلَمْ يُنْفَذْهُمَا لِيَمْنَعَا مِنْ مَطَالِبَتِهِ بِالْخَلْعِ، وَكَيْفَ وَهُوَ عليه السلام مُصْرَحٌ بِأَنَّهُ يَسْتَحِقُّ
بِأَخْذَائِهِ الْخَلْعَ، وَالْقَوْمُ الَّذِينَ سَعَوْا فِي ذَلِكَ إِلَيْهِ كَانُوا يَغْدُونَ وَيُرْوَحُونَ، وَمَعْلُومٌ مِنْهُ ضَرُورَةُ أَنَّهُ
كَانَ مُسَاعِداً عَلَى خَلْعِهِ وَنَقْضِ أَمْرِهِ، لَا سِيَّما فِي الْمَرَّةِ الْأَخِيرَةِ.
فَأَمَّا ادِّعَاؤُهُ أَنَّهُ عليه السلام لَعَنَ قَتْلَهُ، فَهُوَ يَعْلَمُ مَا فِي هَذَا مِنَ الرِّوَايَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ الَّتِي هِيَ أَظْهَرُ
مِنْ هَذِهِ الرِّوَايَةِ، وَإِنْ صَحَّتْ فَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مَحْمُولَةً عَلَى لَعْنِ مَنْ قَتَلَهُ مُتَعَمِّداً قَتْلَهُ، قَاصِداً
إِلَيْهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ.

فَأَمَّا ادِّعَاؤُهُ أَنَّ طَلْحَةَ رَجَعَ لَمَّا نَاشَدَهُ عُثْمَانُ يَوْمَ الدَّارِ، فَظَاهِرُ الْبَطْلَانِ وَغَيْرُ مَعْرُوفٍ فِي
الرِّوَايَةِ، وَالظَّاهِرُ الْمَعْرُوفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَلَى عُثْمَانَ أَشَدَّ مِنْ طَلْحَةَ، وَلَا أَغْلَظَ مِنْهُ.
قَالَ: وَلَوْ حَكَيْتُنَا مِنْ كَلَامِهِ فِيهِ مَا قَدْ رُوِيَ لِأَفْنِيَا قِطْعَةً كَثِيرَةً مِنْ هَذَا الْكِتَابِ، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ
عُثْمَانَ كَانَ يَقُولُ يَوْمَ الدَّارِ: اللَّهُمَّ اكْفِنِي طَلْحَةَ، وَيَكْرُرُ ذَلِكَ، عَلَماً بِأَنَّهُ أَشَدُّ الْقَوْمِ عَلَيْهِ. وَرُوِيَ
أَنَّ طَلْحَةَ كَانَ عَلَيْهِ يَوْمَ الدَّارِ دِرْعٌ وَهُوَ يُرَامِي النَّاسَ، وَلَمْ يَتَزَعْزَعْ عَنِ الْقِتَالِ حَتَّى قَتَلَ الرَّجُلَ.
فَأَمَّا ادِّعَاؤُهُ الرِّوَايَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «سَتَكُونُ فِتْنَةٌ، وَإِنَّ عُثْمَانَ وَأَصْحَابَهُ
يَوْمُنْذَ عَلَى الْهَدْيِ»^(١)، فَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الرِّوَايَةَ الشَّاذَّةُ لَا تَكُونُ فِي مِقَابِلَةِ الْمَعْلُومِ ضَرُورَةٍ مِنْ
إِجْمَاعِ الْأُمَّةِ عَلَى خَلْعِهِ وَخَذْلِهِ، وَكَلَامِ وَجْهِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ فِيهِ، وَبِإِزَاءِ هَذِهِ الرِّوَايَةِ مَا
يَمْلَأُ الطُّرُوسَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَغَيْرِهِ، مِمَّا يَتَضَمَّنُ مَا تَضَمَّنَتْهُ. وَلَوْ كَانَتْ هَذِهِ
الرِّوَايَةُ مَعْرُوفَةً لَكَانَ عُثْمَانُ أَوَّلَى النَّاسِ بِالْإِحْتِجَاجِ بِهَا يَوْمَ الدَّارِ، وَقَدْ احْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِكُلِّ غَيْثٍ
وَسَمِينٍ، وَقَبْلَ ذَلِكَ لَمَّا خُوصِمَ وَطُولِبَ بِأَنْ يَخْلَعَ نَفْسَهُ، وَلَا احْتِجَّ بِهَا عَنْهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ
وَأَنْصَارِهِ، وَفِي عِلْمِنَا بِأَنْ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ، دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهَا مَصْنُوعَةٌ مُوضُوعَةٌ.
فَأَمَّا مَا رَوَاهُ عَنْ عَائِشَةَ مِنْ قَوْلِهَا: «قُتِلَ وَاللَّهِ مَظْلُوماً» فَأَقْوَالُ عَائِشَةَ فِيهِ مَعْرُوفَةٌ وَمَعْلُومَةٌ،
وَإِخْرَاجُهَا قَمِيصَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَهِيَ تَقُولُ: «هَذَا قَمِيصُهُ لَمْ يَيْلَ، وَقَدْ أَبْلَى
عُثْمَانُ سِتَّهُ»، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا يُحْصَى كَثْرَةُ.

فأما مدحها له وثناؤها عليه، فإنما كانا عقيب علمها بانتقال الأمر إلى من انتقل إليه، والسبب فيه معروف، وقد وقفت عليه، وقُوبل بين كلامها فيه متقدماً ومتأخراً.

فأما قوله: لا يمتنع أن يتعلق بأخبار الأحاد في ذلك؛ لأنها في مقابلة ما يدعونه مما طريقه أيضاً الأحاد، فواضح البطلان؛ لأن إطباق الصحابة وأهل المدينة - إلا من كان في الدار معه على خلافه، فإنهم كانوا بين مجاهد ومقاتل مبارز، وبين متقاعد خاذل - معلوم ضرورة لكل من سمع الأخبار، وكيف يدعي أنها من جهة الأحاد حتى يعارض بأخبار شاذة نادرة! وهل هذا إلا مكابرة ظاهرة!

فأما قوله: إنا لا نعدل عن ولايته بأمر محتملة، فقد مضى الكلام في هذا المعنى، وقلنا إن المحتمل هو ما لا ظاهر له، ويتجاذبه أمور محتملة، فأما ما له ظاهر فلا يستمى محتملاً وإن سماه بهذه التسمية، فقد بينا أنه مما يُعَدَّل من أجله عن الولاية، وفصلنا ذلك تفصيلاً بيناً.

وأما قوله: إن للإمام أن يجتهد برأيه في الأمور الموثوقة به، ويكون مصيباً وإن أفضت إلى عاقبة مذمومة، فأول ما فيه أنه ليس للإمام ولا غيره أن يجتهد في الأحكام، ولا يجوز أن يعمل فيها إلا على النص، ثم إذا سلمنا الاجتهاد، فلا شك أن هاهنا أموراً لا يسوغ فيها الاجتهاد، حتى يكون من خبرنا عنه بأنه اجتهد فيها غير مصوب، وتفصيل هذه الجملة يبين عند الكلام على ما تعاطاه من الأعذار عن إحداثه على جهة التفصيل.

قلت: الكلام في هذا الموضع على سبيل الاستقصاء إنما يكون في الكتب الكلامية المبسوطة في مسألة الإمامة، وليس هذا موضع ذاك، ولكن يكفي قاضي القضاء أن يقول: قد ثبت بالإجماع صحة إمامة عثمان، فلا يجوز الرجوع عن هذا الإجماع إلا بإجماع معلوم على خلعه وإباحة قتله، ولم يُجمع المسلمون على ذلك؛ لأنه قد كان بالمدينة من يُنكر ذلك وإن قُلُوا، وقد كان أهل الأمصار يُنكرون ذلك، كالشام والبصرة والحجاز واليمن ومكة وخراسان، وكثير من أهل الكوفة، وهؤلاء مسلمون، فيجب أن تُعتبر أقوالهم في الإجماع، فإذا لم يدخلوا فيمن أجلب عليه لم ينعقد الإجماع على خلعه ولا على إباحة دمه فوجب البقاء على ما اقتضاه الإجماع الأول.

المطاعن على عثمان والرد عليها

فأما الكلام في المطاعن المفضلة التي طعن بها فيه، فنحن نذكرها، ونحكي ما ذكره قاضي القضاة وما اعترضه به المرتضى رحمه الله تعالى.

الطعن الأول: قال قاضي القضاة في «المغني»: فمما طعن به عليه قولهم: إنه ولي أمور المسلمين من لا يصلح لذلك ولا يؤتمن عليه، ومن ظهر منه الفسق والفساد، ومن لا علم عنده، مراعاة منه لحرمة القرابة، وعدولاً عن مراعاة حرمة الدين والنظر للمسلمين، حتى ظهر

ذلك منه وتكرّر، وقد كان عمرُ حَذْرِهِ من ذلك، حيث وصفه بأنه كَلِفٌ بأقاربه، وقال له: إذا وُلِّيتَ هذا الأمرَ فلا تسلطَ بني أبي مُعَيْطٍ على رقاب الناس. فوقع منه ما حَذَرَهُ إياه، وعُوتِبَ في ذلك فلم ينفع العتبُ، وذلك نحو استعماله الوليد بن عُقْبَةَ، وتقليده إياه، حتى ظهر منه شربُ الخمر، واستعماله سعيد بن العاص حتى ظهرت منه الأمور التي عندها أخرجَه أهل الكوفة، وتوليته عبد الله بن أبي سَرْح، وعبد الله بن عامر بن كُرَيْز، حتى رُوِيَ عنه في أمر ابن أبي سَرْح أنه لما تظلمَ منه أهلُ مصر وصرفَه عنهم بمحمد بن أبي بكر كاتبه بأن يستمر على ولايته، فأبطن خلافَ ما أظهر، ففعل من غرضه خلاف الدين. ويقال: إنه كاتبه بقتل محمد بن أبي بكر وغيره ممن يرد عليه، وظفر بذلك الكتاب، ولذلك عَظُمَ التظلم من بعد، وكثر الجمع، وكان سبب الحصار والقتل، حتى كان من أمر مَرْوان وتسلطه عليه وعلى أموره ما قُتل بسببه، وذلك ظاهر لا يمكن دَفْعُهُ.

قال رحمه الله تعالى: وجوابنا عن ذلك أن نقول: أمّا ما ذُكِرَ من تُولِيته مَنْ لا يجوز أن يُستعمل، فقد علمنا أنه لا يمكنُ أن يُدعى أنه حين استعمالهم عَلِمَ من أحوالهم خلافَ الستر والصلاح، لأن الذي ثبت عنهم من الأمور القبيحة حَدَثَ من بعد، ولا يمتنع كونهم في الأول مستورين في الحقيقة أو مستورين عنده، وإنما كان يجب تخطيطه لو استعمالهم، وهم في الحال لا يصلحون لذلك.

فإن قيل، فلما علم بحالهم كان يجب أن يعزلهم!

قيل: كذلك فَعَلَ، لأنه إنما استعمل الوليد بن عُقْبَةَ قبل ظهور شرب الخمر عنه فلما شُهِدَ عليه بذلك جَلَدَهُ الحَدَّ وصرفَه. وقد رُوِيَ مثله عن عمر، فإنه ولى قُدَامَةَ بن مَظْعُون بعض أعماله، فشهدوا عليه بشرب الخمر، أشخصه وجَلَدَهُ الحَدَّ فإذا عُدَّ ذلك في فضائل عمر لم يجرُ أن يعدَّ ما ذكروه في الوليد من معائب عثمان. ويقال: إنه لما أشخصه أقام عليه الحَدَّ بمشهد أمير المؤمنين عليه السلام.

وقد اعتذر من عزله سعد بن أبي وقاص بالوليد، بأن سعداً شكاه أهل الكوفة، فأذاه اجتهدَه إلى عزله بالوليد.

فأمّا سعيد بن العاص فإنه عزله عن الكوفة وولى مكانه أبا موسى، وكذلك عبد الله بن أبي سَرْح عزله وولى مكانه محمد بن أبي بكر، ولم يظهر له من مَرْوان ما يوجب أن يصرفَه عَمَّا كان مستعملاً فيه، ولو كان ذلك طَعْنًا لوجب مثله في كل مَنْ ولى، وقد علمنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليه وآله ولى الوليد بن عُقْبَةَ، فحدث منه ما حدث. وَحَدَّثَ من بعض أمراء أمير المؤمنين عليه السلام الخيانة، كالقَعْقَاع بن شُور؛ لأنه ولاه على مَيْسَانَ فأخذ مالها ولحق بمعاوية، وكذلك فعل الأشعث بن قيس بعمال أذَرِيعَجان. وولى أبا موسى الحُكْم، فكان منه ما كان، ولا

يجب أن يُعاب أحد بفعل غيره، وإذا لم يلحقه عيب في ابتداء ولايته فقد زال العيب فيما بعده.
وقولهم: إنه قَسَمَ أكثر الولايات في أقاربه، وزال عن طريقة الاحتياط للمسلمين، وقد كان
عمر حذره من ذلك، فليس بعيب، لأن تولية الأقارب كتولية الأبعد، في أن يحسن إذا كانوا
على صفات مخصوصة. ولو قيل إن تقديمهم أولى لم يمتنع، إذا كان المولى لهم أشد تمكناً من
عزلهم، والاستبدال بهم، وقد ولي أمير المؤمنين عليه السلام عبد الله بن العباس البصرة، وعُيِّد الله بن
العباس اليمن، وقُتِمَ بن العباس مكة، حتى قال مالك الأشتر عند ذلك: عَلَى ماذا قتلنا الشيخ
أمرأ فيما يُروى، ولم يكن ذلك بعيب إذا أدى ما وجب عليه في اجتهاده.

فأما قولهم: إنه كتب إلى ابن أبي سرح حيث ولي محمد بن أبي بكر بأنه يقتله ويقتل
أصحابه، فقد أنكر ذلك أشد إنكار، حتى حلف عليه، وبين أن الكتاب الذي ظهر ليس كتابه
ولا الغلام غلامه ولا الراحلة راحلته، وكان في جملة مَنْ خاطبه في ذلك أمير المؤمنين عليه السلام،
فقبل عذره. وذلك بين، لأن قول كل أحد مقبول في مثل ذلك، وقد علم أن الكتاب يجوز فيه
التزوير، فهو بمنزلة الخبر الذي يجوز فيه الكذب.

فإن قيل: فقد علم أن مروان هو الذي زور الكتاب؛ لأنه هو الذي كان يكتب عنه، فهلاً
أقام فيه الحد!

قيل: ليس يجب بهذا القدر أن يُقَطَّع على أن مروان هو الذي فعل ذلك؛ لأنه وإن غلب
ذلك في الظن، فلا يجوز أن يحكم به، وقد كان القوم يسومونه تسليم مروان إليهم، وذلك ظلم
لأن الواجب على الإمام أن يُقيم الحدَّ على مَنْ يستحقه أو التأديب، ولا يحل له تسليمه إلى
غيره، فقد كان الواجب أن يُثبِتُوا عنده ما يوجب في مروان الحدَّ والتأديب ليفعله به، وكان إذا
لم يفعل والحال هذه يستحق التعنيف، وقد ذكر الفقهاء في كتبهم أن الأمر بالقتل لا يوجب قوداً
ولا دية ولا حداً، فلو ثبت في مروان ما ذكره لم يستحق القتل وإن استحق التعزير، لكنه عدل
عن تعزيره، لأنه لم يثبت، وقد يجوز أن يكون عثمان ظنَّ أن هذا الفعل فعل بعض من يعادي
مروان تقيحاً لأمره، لأن ذلك يجوز، كما يجوز أن يكون من فعله، ولا يعلم كيف كان اجتهاده
وظنه! وبعد فإن هذا الحدث من أجل ما نَقَمُوا عليه، فإن كان شيء من ذلك يُوجب خلع عثمان
وقتله، فليس إلا هذا، وقد علمنا أن هذا الأمر لو ثبت ما كان يُوجب القتل، لأن الأمر بالقتل
لا يوجب القتل، سيما قبل وقوع القتل المأمور به، فنقول لهم: لو ثبت ذلك على عثمان أكان
يجب قتله! فلا يمكنهم ادعاء ذلك؛ لأنه بخلاف الدين، ولا بد أن يقولوا: إن قتله ظلم،
وكذلك حبسه في الدار، ومنعه من الماء، فقد كان يجب أن يدفع القوم عن كل ذلك، وأن
يقال: إن من لم يدفعهم وينكر عليهم يكون مخطئاً.

وفي القول بأن الصحابة اجتمعوا على ذلك كلهم تخطئة لجميع أصحاب رسول الله صلى الله

عليه وآله، وذلك غير جائز، وقد عُلِمَ أيضاً أَنَّ المستحق للقتل والخلع لا يحل أن يمنع الطعام والشراب، وعُلِمَ أَنَّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يمنع أهل الشام من الماء في صيفين، وقد تمكن من منعهم، وكل ذلك يدل على كَوْن عثمان مظلوماً، وَأَنَّ ذلك من صنْع الجهال، وَأَنَّ أعيان الصحابة كانوا كارهين لذلك. وأيضاً فَإِنَّ قتله لو وجب لم يَجُزْ أن يتولاه العوام من الناس، ولا شبهة أَنَّ الذين أقدموا على قتله كانوا بهذه الصفة، وإذا صَحَّ أن قتله لم يكن لهم، فمنعهم والتكبير عليهم واجب.

وأيضاً فقد عُلِمَ أنه لم يكن من عثمان ما يستحق به القتل، من كُفْرٍ بعد إيمان، أو زنى بعد إحسان، أو قتل نفس بغير حق، وأنه لو كان منه مَا يوجب القتل لكان الواجب أن يتولاه الإمام، فقتله على كل حال منكر، وإنكار المنكر واجب.

وليس لأحد أن يقول: إنه أباح قتل نفسه، من حيث امتنع من دفع الظلم عنهم؛ لأنه لم يمتنع من ذلك، بل أنصفهم، ونظر في حالهم، ولأنه لو لم يفعل ذلك لم يحل لهم قتله، لأنه يمتنع من ذلك، بل أنصفهم، ونظر في حالهم، ولأنه لو لم يفعل ذلك لم يحل لهم قتله، لأنه إما يحل قتل الظالم إذا كان على وجه الدفع، والمروى أنهم أحرقوا بابه، وهجموا عليه في منزله، وبَعَجُوهُ بالسيف والمشاقص^(١)، وضربوا يد زوجته لما وقعت عليه، وانتهبوا متاع داره، ومثل هذه القِثلة لا تحل في الكافر والمرتد، فكيف يُظَنُّ أَنَّ الصحابة لم ينكروا ذلك، ولم يعدوه ظلماً، حتى يقال إنه مستحق من حيث لم يدفع القوم عنه! وقد تظاهر الخبر بما جرى من تجتمع القوم عليه، وتوسط أمير المؤمنين عليه السلام لأمرهم، وأنه بذل لهم ما أرادوه، وأعتبهم وأشهد على نفسه بذلك، وإن الكتاب الموجود بعد ذلك المتضمن لقتل القوم، ووقف عليه - وممن أوقفه عليه أمير المؤمنين عليه السلام - فحلفت أنه ما كتبه، ولا أمر به، فقال له: فمن تتهم؟ قال: ما أتهم أحداً، وإن للناس لحيلاً.

والرواية ظاهرة أيضاً بقوله: إن كنت أخطأت أو تعمدت فلاني تائب ومستغفر، فكيف يجوز والحال هذه أن تُهتَكَ فيه حرمة الإسلام وحرمة البلد الحرام! ولا شبهة في أَنَّ القتل على وجه الغيلة لا يحل فيمن يستحق القتل، فكيف فيمن لا يستحقه! ولولا أنه كان يمنع من محاربة القوم ظناً منه أَنَّ ذلك يؤدي إلى القتل التريخ لكثير أنصاره.

وقد جاء في الرواية أن الأنصار بدأت معونته ونصرتة، وَأَنَّ أمير المؤمنين عليه السلام قد بعث إليه ابنه الحسن عليه السلام، فقال له: قل لأبيك فلتأتني، فأراد أمير المؤمنين عليه السلام المسير إليه، فمنعه من ذلك محمد ابنه، واستعان بالنساء عليه، حتى جاء الصريخ بقتل عثمان، فمد يده إلى القبلة، وقال: اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان. فإن قالوا: إنهم اعتقدوا أنه من المفسدين في الأرض، وأنه داخل تحت آية المحاريين.

(١) المشاقص: جمع مشقص وهو السهم العريض النصل. اللسان، مادة (شقص).

قيل : فقد كان يجب أن يتولى الإمام هذا الفعل ؛ لأن ذلك يجري مجرى الحد ، وكيف يُدعى ذلك ، والمشهور عنه أنه كان يمنع من مقاتلتهم ، حتى روي أنه قال لعبيده ومواليه ، وقد هموا بالقتال : مَنْ أَعْمَدَ سَيْفَهُ فَهُوَ حُرٌّ ! ولقد كان مؤثراً لنكير ذلك الأمر بما لا يؤدي إلى إراقة الدماء والفتنة ، ولذلك لم يستعين بأصحاب الرسول الله ﷺ وإن كان لما اشتد الأمر أعانه مَنْ أعان ؛ لأنَّ عند ذلك تَجِبُ النُّصْرَةُ والمَعُونَةُ ، فحيث كانت الحال متماسكة ، وكان ينهى عن إنجاده وإعانه بالحرب امتنعوا وتوقفوا ، وحيث اشتد الأمر أعانه ونصره مَنْ أدركه ، دون من لم يغلب ذلك في ظنه .

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، فقال : أما قوله : لم يكن عالماً بحال الفسقة الذين ولّاهم قبل الولاية ، فلا تعويل عليه ، لأنه لم يول هؤلاء النفر إلا وحالهم مشهورة في الخلاعة والمجانة والتجرّم والتهتك ، ولم يختلف اثنان في أن الوليد بن عُقْبَةَ لم يستأنف التظاهر بشرب الخمر والاستخفاف بالذين على استقبال ولايته للكوفة ، بل هذه كانت سنته والعادة المعروفة منه ، وكيف يخفى على عثمان - وهو قريبه ولصيقه وأخوه لأمه - مِنْ حاله ما لا يخفى على الأجانب الأبعدا ولهذا قال له سعد بن أبي وقاص - في رواية الواقدي ، وقد دخل الكوفة - : يا أبا وهب ، أمير أم زائر ؟ قال : بل أمير ، فقال سعد : ما أدري أحمقت بعدك أم كسبت بعدي ؟ قال : ما كسبت بعدي ولا كسبت بعدك ، ولكن القوم ملكوا فاستأثروا ، فقال سعد : ما أراك إلا صادقا .

وفي رواية أبي مخنف لوط بن يحيى الأزدي أن الوليد لما دخل الكوفة مرّ على مجلس عمرو بن زُرارة النخعي ، فوقف ، فقال عمرو : يا معشر بني أسد ، بشما استقبلنا به أخوكم ابنُ عَفَّان ! أمِنْ عدله أن ينزع عنا ابن أبي وقاص ، الهين اللين السهل القريب ، ويبعث بذلك أخاه الوليد ، الأحقق الماجن الفاجر قديماً وحديثاً ! واستعظم الناس مقدّمه ، وعزل سعد به ، وقالوا : أراد عثمان كرامة أخيه بهوان أمة محمد ﷺ ! وهذا تحقيق ما ذكرناه من أن حاله كانت مشهورة قبل الولاية ، لا ريب فيها عند أحد ، فكيف يقال : إنه كان مستوراً حتى ظهر منه ما ظهر ! وفي الوليد نزل قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوِينَ ﴾ ^(١) ، فالمؤمن ها هنا أمير المؤمنين عليه السلام ، والفاسق الوليد ، على ما ذكره أهل التأويل . وفيه نزل قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ جَاءَهُمْ قَائِمٌ بِإِثْمٍ فَاصْبِرْ لَهُمْ قَوْلَهُمْ مَا فَعَلْتُمْ تَدْمِينٌ ﴾ ^(٢) ، والسبب في ذلك أنه كذب على بني المصطلق عند رسول الله ﷺ ، وادّعى أنهم

(١) سورة السجدة ، الآية : (١٨) .

(٢) سورة الحجرات ، الآية : (٦) .

منعوه الصَّدَقَةُ. ولو قصصنا مخازيه المتقدمة ومساوياً لطلال بها الشرح.
وأما شربه الخمر بالكوفة وسكره، حتى دخل عليه مَنْ دخل وأخذ خاتمه من إصبغه، وهو لا يعلم، فظاهر، وقد سارت به الركبان. وكذلك كلامه في الصلاة، والتفاتة إلى مَنْ يقتدي به فيها وهو سكران، وقوله لهم: أزيدكم؟ فقالوا: لا، قد قَصِينَا صلواتنا، حتى قال الحطيفة في ذلك:

شَهِدَ الْحُطَيْيَّةُ يَوْمَ يَلْقَى رَبَّهُ أَنْ الْوَلِيدَ أَحَقُّ بِالْمُذِرِ
نَادَى وَقَدْ نَفَذَتْ صَلَاتُهُمْ أَزِيدُكُمْ - ثَمَلًا - وَمَا يَدْرِي
لِيَزِيدَهُمْ خَيْرًا وَلَوْ قِيلُوا مِنْهُ لِقَادَهُمْ عَلَى عَشْرِ
فَابْزُوا أَبَا وَهْبٍ وَلَوْ فَعَلُوا لِقَرْنَتَ بَيْنِ الشُّفْعِ وَالْوَثْرِ
حَبَسُوا عِنَانِكَ إِذَا جَرَيْتَ وَلَوْ تَخَلَّوْا عِنَانِكَ لَمْ تَزَلْ تَجْرِي
وقال فيه أيضاً:

تَكَلَّمَ فِي الصَّلَاةِ وَزَادَ فِيهَا عَلَانِيَةً وَجَاهَرًا بِالنَّفَاقِ
وَمَجَّخَ الْخَمْرَ فِي سَنَنِ الْمَصَلَّى وَنَادَى وَالْجَمِيعُ إِلَى افْتِرَاقِ
أَزِيدُكُمْ عَلَى أَنْ تَحْمَدُونِي فَمَا لَكُمْ وَمَا لِي مِنْ خَلَاقِ
وأما قوله: إنه جلده الحدَّ وعزله، فبعد أي شيء كان ذلك، ولم يعزله إلا بعد أن دافع
ومانع، واحتج عنه وناضل! ولو لم يقهره أمير المؤمنين عليه السلام على رأيه لما عزله، ولا أمكن
من جلده.

وقد روى الواقدي أن عثمان لما جاءه الشهود يشهدون على الوليد يشرب الخمر أو عدهم
وتهددهم.

قال الواقدي: ويقال إنه ضرب بعض الشهود أيضاً أسواطاً، فأتوا أمير المؤمنين عليه السلام،
فشكوا إليه، فأتى عثمان، فقال: عطلت الحدود، وضربت قوماً شهدوا على أخيك، فقلبت
الحُكْمَ، وقد قال لك عمر: لا تحمل بني أمية وآل أبي مُعَيْطٍ على رقاب الناس! قال: فما
تري؟ قال: أرى أن تعزله ولا توليه شيئاً من أمور المسلمين. وأن تسأل عن الشهود، فإن لم
يكونوا أهل ظنة ولا عداوة أقمت على صاحبك الحدَّ، وتكلم في مثل ذلك طلحة والزبير
وعائشة، وقالوا أقوالاً شديدة، وأخذته الألسن من كل جانب، فحينئذ عزله، ومكن من إقامة
الحدِّ عليه^(١).

(١) انظر الغدير للعلامة الأميني: ١٢٠/٨.

وقد روى الواقدي أن الشهود لما شهدوا عليه في وجهه، وأراد عثمان أن يحذه البسه جبة خز، وأدخله بيتاً، فجعل إذا بعث إليه رجلاً من قريش ليضربه، قال له الوليد: أنشدك الله أن تقطع رحمي وتغضب أمير المؤمنين! فلما رأى علي عليه السلام ذلك، أخذ السوط ودخل عليه، فجلده به. فأي عذر لعثمان في عزله وجلده بعد هذه الممانعة الطويلة، والمدافعة الشديدة!

وقصة الوليد - مع الساحر الذي كان يلعب بين يديه، ويغتر الناس بمكره وخديعته، وأن جندب بن عبد الله الأزدي امتعض من ذلك ودخل عليه فقتله، وقال له: أحي نفسك إن كنت صادقاً، وأن الوليد أراد أن يقتل جندباً بالساحر، حتى أنكر الأزدي ذلك عليه، فحبسه وطال حبسه حتى هرب من السجن - معروفة مشهورة.

فإن قيل: فقد ولي رسول الله صلى الله عليه وسلم الوليد بن عتبة هذا صدقة بني المضطلق، وولاه عمر صدقة تغلب، فكيف تدعون أن حاله في أنه لا يصلح للولاية ظاهرة!

قلنا: لا جرم، إنه غر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذب على القوم حتى نزلت فيه الآية التي قدمنا ذكرها، فعزله. وليس خطب ولاية الصدقة مثل خطب ولاية الكوفة، فاما عمر فإنه لما بلغه قوله:

إذا ما شددت الرأس مني بمشوذ فويلك مني تغلب ابنة وائل^(١)
عزله.

وأما عزل أمير المؤمنين عليه السلام بعض أمرائه لما ظهر من الحدث كالفقاع بن شور وغيره، وكذلك عزل عمر قدامة بن مظعون لما شهد عليه بشرب الخمر، وجلده له، فإنه لا يشبه ما تقدم، لأن كل واحد ممن ذكرناه لم يول إلا من هو حسن الظاهر عنده وعند الناس، غير معروف باللعب ولا مشهور بالفساد. ثم لما ظهر منه ما ظهر لم يحام عنه ولا كذب الشهود عليه وكأبرهم، بل عزله مختاراً غير مضطر، وكل هذا لم يجر في أمراء عثمان، وقد بينا كيف كان عزل الوليد وإقامة الحد عليه.

فأما أبو موسى فإن أمير المؤمنين عليه السلام لم يول الحكم مختاراً، لكنه غلب على رأيه وقهر على أمره، ولا رأي لمقهور.

فأما قوله: إن ولاية الأقارب كولاية الأبعد، بل الأقارب أولى، من حيث كان التمكن من عزلهم أشد. وذكر تولية أمير المؤمنين عليه السلام أولاد العباس رحمه الله تعالى وغيرهم - فليس بشيء، لأن عثمان لم ينتقم عليه تولية الأقارب من حيث كانوا أقارب، بل من حيث كانوا أهل بيت الظنة والتهمة، ولهذا حذره عمر وأشعر بأنه يحملهم على رقاب الناس. وأمير

(١) المشوذ: العمامة. القاموس، (مادة شوذ).

المؤمنين عليهم السلام لم يولّ من أقاربه متهما ولا ظليفاً، وحين أحس من ابن العباس ببعض الريبة لم يمهله ولا احتمله، وكاتبه بما هو شائع ظاهر، ولو لم يجب على عثمان أن يعدل عن ولاية أقاربه إلا من حيث جعل عمر ذلك سبب عدوله عن النص عليه، وشرط عليه يوم الشورى ألا يحمل أقاربه على رقاب الناس، ولا يؤثرهم لمكان القرابة بما لا يؤثر به غيرهم - لكان صارفاً قوياً، فضلاً عن أن ينضاف إلى ذلك ما انضاف من خصالهم الذميمة وطرائقهم القبيحة.

فأما سعيد بن أبي العاص، فإنه قال في الكوفة: إنما السواد بستان لقريش، تأخذ منه ما شاءت وتترك، حتى قالوا له: أتجعل ما أفاء الله علينا بستاناً لك ولقومك! ونابدوه، وأفضى الأمر إلى تسييره من سائر عن الكوفة، والقصة مشهورة، ثم انتهى الأمر إلى منع أهل الكوفة سعيداً من دخولها، وتكلموا فيه وفي عثمان كلاماً ظاهراً، حتى كادوا يخلعون عثمان، فاضطر حينئذ إلى إجابتهم إلى ولاية أبي موسى، فلم يصرف سعيداً مختاراً، بل ما صرفه جُملة، وإنما صرفه أهل الكوفة عنهم.

فأما قوله: إنه أنكر الكتاب المتضمن لقتل محمد بن أبي بكر وأصحابه، وحلف على أن الكتاب ليس بكتابه، ولا الغلام غلامه، ولا الراحلة راحلته، وأن أمير المؤمنين عليه السلام قيل عذره، فأول ما فيه أنه حكى القصة بخلاف ما جرت عليه، لأن جميع من يروي هذه القصة ذكر أنه اعترف بالخاتم والغلام والراحلة، وإنما أنكر أن يكون أمر بالكتابة، لأنه روى أن القوم لما ظفروا بالكتاب قديموا المدينة، فجمعوا أمير المؤمنين عليه السلام وطلحة والزبير وسعداً وجماعة الأصحاب، ثم فكوا الكتاب بمحضر منهم، وأخبروهم بقصة الغلام، فدخلوا على عثمان والكتاب مع أمير المؤمنين، فقال له: أهذا الغلام غلامك؟ قال: نعم، قال: والبعير بعيرك؟ قال: نعم، قال: أفأنت كتبت هذا الكتاب؟ قال: لا، وحلف بالله أنه ما كتب الكتاب، ولا أمر به، فقال له: فالخاتم خاتمك؟ قال: نعم، قال: فكيف يخرج غلامك على بعيرك بكتاب عليه خاتمك، ولا تعلم به^(١)!

وفي رواية أخرى أنه لما واقفه عليه، قال عثمان: أما الخط فخط كاتب، وأما الخاتم فعلى خاتمي، قال: فمن تتهم؟ قال: أتتهمك وأتهم كاتب، فخرج أمير المؤمنين عليه السلام مغضباً، وهو يقول: بل بأمرك، ولزم داره، ويعد عن توسط أمره، حتى جرى عليه ما جرى.

وأعجب الأمور قوله لأمير المؤمنين عليه السلام: «إني أتهمك» وتظاهره بذلك وتلقيه إياه في وجهه بهذا القول، مع بعده من التهمة والظنة في كل شيء، وفي أمره خاصة، فإن القوم في الدفعة الأولى أرادوا أن يعجلوا له ما أخبروه، حتى قام أمير المؤمنين عليه السلام بأمره وتوسط

(١) انظر الثقات لابن حبان: ٢٥٩/٢، وتاريخ المدينة لابن شبة: ١١٦٠/٤.

وأصلحه، وأشار عليه بأن يقاربهم ويعينهم، حتى انصرفوا عنه، وهذا فعل النصيح المشفق الحبيب^(١) المتحنن، ولو كان عليه السلام - وحوشي من ذلك - متهماً عليه لما كان للتهمة عليه مجال في أمر الكتاب خاصة، لأن الكتاب بخط عدوه مروان، وفي يد غلام عثمان، ومحمول على بعيره، ومختوم بخاتمه، فأي ظن تعلق بأمر المؤمنين عليه السلام في هذا المكان، لولا العداوة وقلة الشكر للنعمة!

ولقد قال له المصريون لما جحد أن يكون الكتاب كتابه شيئاً لا زيادة عليه في باب الحجة؛ لأنهم قالوا له: إذا كنت ما كتبت ولا أمرت به، فأنت ضعيف، من حيث تم عليك أن تكتب كاتبك بما تختمه بخاتمك، وتنفذه بيد غلامك وعلى بعيرك بغير أمرك، ومن تم عليه ذلك لا يصلح أن يكون والياً على أمور المسلمين. فاختلج عن الخلافة على كل حال.

قال: ولقد كان يجب على صاحب «المغني» أن يستحي من قوله: إن أمير المؤمنين عليه السلام قبل عذره، وكيف يقبل عذر من يتهمة ويستغثه، وهو له ناصح! وما قاله أمير المؤمنين عليه السلام بعد سماع هذا القول منه معروف.

وقوله: إن الكتاب يجوز فيه التزوير، ليس بشيء، لأنه لا يجوز التزوير في الكتاب والغلام والبعير، وهذه الأمور إذا انضاف بعضها إلى بعض بعد فيها التزوير، وقد كان يجب على كل حال أن يبحث عن القصة وعمن زور الكتاب، وأنفذ الرسول، ولا ينال على ذلك، حتى يعرف من أين دُهي، وكيف تمت الحيلة عليه، فيحترز من مثلها، ولا يفضي عن ذلك إغضاء سائر له، خائف من بحثه وكشفه.

فأما قوله: إنه وإن غلب على الظن أن مروان كتب الكتاب، فإن الحكم بالظن لا يجوز، وتسليمه إلى القوم على ما سألوه إياه ظلم؛ لأن الحد والأدب إذا وجب عليه، فالإمام يقيمه دونهم، فتعلل بما لا يجدي؛ لأننا لا نعمل إلا على قوله في أنه لم يعلم أن مروان هو الذي كتب الكتاب، وإنما غلب على ظنه، أما كان يستحق مروان بهذا الظن بعض التعنيف والزجر والتهديد! أو ما كان يجب مع وقوع التهمة عليه، وقوة الأمارات في أنه جالب الفتنة وسبب الفرقة أن يُبعده عنه، ويطرده من داره ويسلبه ما كان يخصه به من إكرامه! وما في هذه الأمور أظهر من أن يتنبه له.

فأما قوله: إن الأمر بالقتل لا يوجب قوداً ولا دية، سيما قبل وقوع القتل المأمور به، فهب

(١) الحبيب: المشفق والمتعطف. اللسان، مادة (حذب).

أن ذلك على ما قال، أما أوجب الله تعالى على الأمر بقتل المسلمين تأديباً ولا تعزيراً ولا طرداً ولا إبعاداً!

وقوله: لم يثبت ذلك، قد مضى ما فيه، ويبين أنه لم يستعمل فيه ما يجب استعماله من البحث والكشف، وتهديد المتهم وطرده وإبعاده والتبرؤ من التهمة بما يُتبرأ به من مثلها.

فأما قوله: إن قتله ظلم وكذلك حبسه في الدار، ومنعه من الماء، وأنه لو استحق القتل أو الخلع لا يحل أن يُمنع الطعام والشراب، وقوله: إن من لم يدفع عن ذلك من الصحابة يجب أن يكون مخطئاً، وقوله: إن قتله لو وجب لم يجز أن يتولاه العوام من الناس، فباطل؛ لأن الذين قتلوه غير منكر أن يكونوا تعمّدوا قتله، وإنما طالبوه بأن يخلع نفسه لما ظهر لهم من إخطائه، ويعتزل عن الأمر اعتزالاً يتمكّنون معه من إقامة غيره، فليج وصم على الامتناع، وأقام على أمر واحد، فقصد القوم بحضره أن يلجئوه إلى خلع نفسه، فاعتصم بداره، واجتمع إليه نفر من أوباش بني أمية، يدفعون عنه، ويرمون من دنا إلى الدار، فانتهى الأمر إلى القتال بتدريج، ثم إلى القتل، ولم يكن القتال ولا القتل مقصودين في الأصل، وإنما أفضى الأمر إليهما على ترتيب، وجرى ذلك مجرى ظالم غلب إنساناً على رَحْله أو متاعه، فالواجب على المغلوب أن يُمانعه ويدافعه ليخلص ماله من يده، ولا يقصد إلى إتلافه ولا قتله، فإن أفضى الأمر إلى ذلك بلا قصد كان معذوراً، وإنما خاف القوم - في الثاني به، والصبر عليه، إلى أن يخلع نفسه - من كُتبه التي طارت في الآفاق، يستنصر عليهم ويستقدم الجيوش إليهم، ولم يأمّنوا أن يردّ بعض من يدفع عنه فيؤدي ذلك إلى الفتنة الكبرى والبليّة العظمى.

وأما منع الماء والطعام فما فُعل ذلك إلا تضييقاً عليه، ليخرج ويحوج إلى الخلع الواجب عليه. وقد يستعمل في الشريعة مثل ذلك فيمن لجأ إلى الحرم من ذوي الجنايات، وتعذر إقامة الحد عليه لمكان الحرم. على أن أمير المؤمنين عليه السلام قد أنكر منع الماء والطعام، وأنفذ من مكن من حمل ذلك؛ لأنه قد كان في الدار من الحرم والنسوان والصبيان من لا يحلّ منعه من الطعام والشراب. ولو كان حكم المطالبة بالخلع والتجمع عليه والتضايف فيه حكم منع الطعام والشراب في القُبْح والمنكر لأنكره أمير المؤمنين عليه السلام، ومنع منه كما منع من غيره، فقد روي عنه عليه السلام أنه لما بلغه أن القوم قد منعوا الدار من الماء، قال: لا أرى ذلك، إن في الدار صبياناً وعيالاً، لا أرى أن يُقتل هؤلاء عطشاً يُجرّم عثمان. فصرح بالمعنى الذي ذكرناه، ومعلوم أن أمير المؤمنين عليه السلام ما أنكر المطالبة بالخلع، بل كان مساعداً على ذلك ومشاوراً فيه.

فأما قوله: إن قتل الظالم إنما يحل على سبيل الدفع، فقد بينا أنه لا ينكر أن يكون قتله وقع على ذلك الوجه؛ لأنه في تمسكه بالولاية عليهم وهو لا يستحقها، في حكم الظالم لهم، فمدافعتهم واجبة.

وأما قصة الكتاب الموجود، فلم يحكيها على الوجه، وقد شرحنا نحن الرواية الواردة بها.
وأما قوله: إنه قال: إن كنت أخطأت أو تعمدت، فإني تائب مستغفر، فقد أجابته القوم عن هذا، وقالوا: هكذا قلت في المرة الأولى، وخطبت على المنبر بالتوبة والاستغفار، ثم وجدنا كتابك بما يقتضي الإصرار على أقبح ما عتبنا منه، فكيف نثق بتوبتك واستغفارك!
فأما قوله: إن القتل على وجه الغيلة لا يحل فيمن يستحق القتل، فكيف فيمن لا يستحقه! فقد بينا أنه لم يكن على سبيل الغيلة، وأنه لا يمتنع أن يكون إنما وقع على سبيل المدافعة.

فأما ادعاؤه أنه منع من نصرته، وأقسم على عيده بترك القتال، فقد كان ذلك لعمرى في ابتداء الأمر ظناً منه أن الأمر ينصلح، والقوم يرجعون عما هموا به، فلما اشتد الأمر، ووقع اليأس من الرجوع والنزوع، لم يمنع أحداً من نصرته والمحاربة عنه، وكيف يمنع من ذلك، وقد بعث إلى أمير المؤمنين عليه السلام يستنصره ويستصرخه!

والذي يدل على أنه لم يمنع في الابتداء من محاربتهم إلا للوجه الذي ذكرناه دون غيره، أنه لا خلاف بين أهل الرواية في أن كتبه تفرقت في الآفاق يستنصر ويستدعي الجيوش، فكيف يرغب عن نصرة الحاضر من يستدعي نصرة الغائب!

فأما قوله: إن أمير المؤمنين عليه السلام أراد أن يأتيه، حتى منعه ابنه محمد، فقول بعيد مما جاءت به الرواية جداً، لأنه لا إشكال في أن أمير المؤمنين عليه السلام لما واجهه عثمان بأنه يتهمه ويستغشه، انصرف مغضباً عامداً، على أنه لا يأتيه أبداً، قائلاً فيه ما يستحقه من الأقوال.

فأما قوله في جواب سؤال من قال: إنهم اعتقدوا فيه أنه من المفسدين في الأرض، وأن آية المحاربة تتناوله، وأنه قد كان يجب أن يتولى الإمام ذلك الفعل بنفسه، لأن ذلك يجري مجرى الحد، فطريف، لأن الإمام يتولى ما يجري هذا المجرى إذا كان منصوباً ثابتاً، ولم يكن على مذهب القوم هناك إمام يجوز أن يتولى ما يجري مجرى الحدود، ومتى لم يكن إمام يقوم بالدفع عن الدين والذب عن الأمة، جاز أن تتولى الأمة ذلك بنفسها.

قال: وما رأيت أعجب من ادعاء مخالفينا أن أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله كانوا كارهين لما جرى على عثمان، وأنهم كانوا يعتقدونه منكراً وظلماً، وهذا يجري عند من تأمله مجرى دفع الضرورات قبل النظر في الأخبار، وسماع ما ورد من شرح هذه القصة، لأنه معلوم أن ما يكرهه جميع الصحابة أو أكثرهم في دار عزهم، ويحيث ينفذ أمرهم ونهيهم لا يجوز أن يتم. ومعلوم أن نفراً من أهل مصر لا يجوز أن يقدموا المدينة فيغلبوا جميع المسلمين على آرائهم، ويفعلوا بإمامهم ما يكرهونه بمرأى منهم ومسمع، وهذا معلوم بطلانه بالبداهة والضرورات قبل تصفح الأخبار وتأملها.

وقد رَوَى الواقدي عن ابن أبي الزناد، عن أبي جعفر القاري مولى بني مخزوم، قال: كان المصريون الذي حَصَرُوا عثمان ستمائة، عليهم عبد الرحمن بن عديس البلوي، وكنانة بن بشر الكندي، وعمرو بن الحِمْق الخُزاعي. والذين قدموا المدينة من الكوفة مائتين، عليهم مالك الأشتر النخعي. والذين قَدِمُوا من البصرة مائة رجل، رئيسهم حكيم بن جبل العبدي، وكان أصحابُ النبي ﷺ الذين خذلوه لا يرون أن الأمر يبلغ به القتل، ولعمري لو قام بعضهم فحشا التراب في وجوه أولئك لانصرفوا، وهذه الرواية تضمنت من عدد القوم الواقديين في هذا الباب أكثر مما تضمنه غيرها.

وروى شعبة بن الحجاج عن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، قال: قلت له: كيف لم يمنع أصحاب رسول الله ﷺ عَنْ عثمان؟ فقال: إنما قَتَلَهُ أصحابُ رسول الله ﷺ. ورَوَى عن أبي سعيد الخُدري، أنه سُئِلَ عن مقتل عثمان: هل شهد أحد من أصحاب رسول الله ﷺ؟ فقال: نعم، شهد ثمانمائة^(١).

وكيف يقال: إن القوم كانوا كارهين، وهؤلاء المصريون كانوا يَغْدُونَ إلى كل واحد منهم، ويروحون ويشاورونه فيما يصنعونه! وهذا عبد الرحمن بن عوف وهو عاقِدُ الأمر لعثمان، وجالبه إليه، ومُصَيِّرُهُ في يده، يقول - على ما رواه الواقدي، وقد ذُكِرَ له عثمانُ في مرضه الذي مات فيه - : عاجلوه قبل أن يتمادى في ملكه، فبلغ ذلك عثمان فبعث إلى بثر كان عبد الرحمن يسقي منها نَعْمَةً، فمنع منها، ووصى عبدُ الرحمن ألا يصلي عليه عثمان، فصلى عليه الزبير - أو سعد بن أبي وقاص - وقد كان حَلَفَ لما تابعت أحداثُ عثمان ألا يكلمه أبداً.

وروى الواقدي، قال: لما تُوفِّي أبو ذرٍّ بالربذة تذاكر أمير المؤمنين ﷺ وعبدُ الرحمن فعلَ عثمان، فقال أمير المؤمنين ﷺ له: هذا عملُك! فقال عبدُ الرحمن: فإذا شئت فخذ سيفك وأخذ سيفي، إنه خالف ما أعطاني.

فأما محمد بن مسلمة، فإنه أرسل إليه عثمان يقول له عند قدوم المصريين في الدفعة الثانية: أَرُدُّ عَنِّي، فقال: لا والله لا أكذبُ الله في سنة مرتين، وإنما عَنِّي بذلك أنه كان أحد من كلم المصريين في الدفعة الأولى، وضمن لهم عن عثمان الرضا.

وفي رواية الواقدي أن محمد بن مسلمة، كان يموت وعثمان محصور، فيقال له: عثمان مقتول، فيقول: هو قَتَلَ نفسه.

فأما كلامُ أمير المؤمنين ﷺ، وطلحة والزبير وعائشة، وجميع الصحابة واحداً واحداً، فلو تعاطينا ذكره لطلال به الشرح، ومن أراد أن يقف على أقوالهم مفصلة، وما صرَّحوا به من خلعه والإجلاب عليه، فعليه بكتاب الواقدي، فقد ذكر هو وغيره من ذلك ما لا زيادة عليه.

(١) رواه ابن شبه في تاريخ المدينة: ١١٧٥/٤.

الطعن الثاني: كونه ردّ الحَكَم بن أبي العاص إلى المدينة، وقد كان رسول الله ﷺ طَرَدَهُ، وامتنع أبو بكر من رَدِّهِ، فصار بذلك مخالفاً للسنة ولسيره مَنْ تَقَدَّمَ، مدَّعيّاً على رسول الله ﷺ، وعاملاً بدعواه من غير بيّنة.

قال قاضي القضاة رحمه الله: وجوابنا عن ذلك أنّ المرويّ في الأخبار أنّه لما عُوتِبَ في ذلك ذكر أنّه استأذن رسول الله ﷺ فيه، وإنما لم يقبل أبو بكر وعمر قوله لأنه شاهد واحد، وكذلك روى عنهما، فكانهما جعلاً ذلك بمنزلة الحقوق التي تختصّ، فلم يقبلّا فيه خبر الواحد، وأجرباه مَجْرى الشهادة، فلما صار الأمر إليه حَكَم بعلمه، لأنّه للحاكم أن يحكّم بعلمه في هذا الباب وفي غيره عند شيخنا، ولا يفصلان بين حدّ وحق، ولا بين أن يكون العلم قبل الولاية أو حال الولاية، ويقولان: إنه أقوى من البيّنة والإقرار.

وقال شيخنا أبو عليّ رحمه الله تعالى: إنّهُ لا وجه يقطع به على كذب روايته في إذن النبي ﷺ في رَدِّهِ، ولا بدّ من تجويز كونه صادقاً، وفي تجويز ذلك كونه معذوراً.

فإن قيل: الحاكم إنما يحكم بعلمه مع زوال التهمة، وقد كانت التهمة في ردّ الحكم قوية لقربته!

قيل: الواجب على غيره ألاّ يتهمه، إذا كان لفعله وجه يصحّ عليه، لأنه قد نصب منصباً يقتضي زوال التهمة عنه، وحُمِلَ أفعال على الصّحة، ومتى طرقنا عليه التهمة أدّى إلى بطلان كثير من الأحكام. وقد قال الشيخ أبو الحسين الخياط رحمه الله تعالى: إنه لو لم يكن في رَدِّهِ إذن من رسول الله ﷺ لجاز أن يكون طريقه الاجتهاد، لأن النفي إذا كان صلاحاً في الحال لا يمتنع أن يتغيّر حكمه باختلاف الأوقات وتغيّر حال المنفي، وإذا كان لأبي بكر أن يستردّ عمر من جيش أسامة للحاجة إليه - وإن كان قد أمر رسول الله ﷺ بنفوذه - من حيث تغيّرت الحال، فغير ممتنع مثله في الحكم.

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى على هذا، فقال: أمّا دعواه أنّ عثمان ادّعى أنّ رسول الله ﷺ أذن في ردّ الحَكَم فشيء لم يُسمع إلا من قاضي القضاة، ولا يُدْرَى من أين نقله، ولا في أيّ كتاب وجدناه والذي رواه الناس كلّهم خلاف ذلك، روى الواقديّ من طرق مختلفة وغيره أنّ الحَكَم بن أبي العاص لما قَدِمَ المدينة بعد الفتح، أخرجّه النبي ﷺ إلى الطائف، وقال: لا تساكنتي في بلد أبداً، فجاءه عثمان فكلّمه فأبى، ثم كان أبي بكر مثل ذلك، ثم كان من عمر مثل ذلك، فلما قام عثمان أدخله ووصله وأكرمه، فمشى في ذلك عليّ والزبير وطلحة وسعد وعبد الرحمن بن عوف وعمار بن ياسر، حتى دخلوا على عثمان فقالوا له: إنك قد أخلت هؤلاء القوم - يعنون الحَكَم ومن معه - وقد كان النبي ﷺ أخرجهم، وإنا نذكرك الله والإسلام ومَعادك، فإن لك معاداً ومُنْقَلَباً، وقد أبت ذلك الولاية قبلك، ولم يطمع أحد أن

يكلّمها فيهم، وهذا شيء نخاف الله فيه عليك. فقال عثمان: إنّ قرابتهم منّي ما تعلمون، وقد كان رسول الله ﷺ حيثُ كلّمته أطمعني في أن يأذن لهم، وإنما أخرجهم لكلّمة بلغته عن الحكم، ولم يضركم مكانهم شيئاً، وفي الناس من هو شرّ منهم. فقال عليّ عليه السلام: لا أجدُ شراً منه ولا منهم، ثم قال: هل تعلم عمر يقول: والله ليحملنّ بني أبي مُعيط على رقاب الناس! والله إن فعل ليقتلنّه، فقال عثمان: ما كان منكم أحد ليكون بينه وبينه من القرابة ما بيني وبينه، وينال من المقدرة ما نلت إلا قد كان سيّدخله، وفي الناس من هو شرّ منه. قال: فغضب عليّ عليه السلام. وقال: والله لتأتينا بشرّ من هذا إن سلمت، وسترى يا عثمان غيب ما تفعله! ثم خرجوا من عنده.

وهذا كما ترى خلاف ما ادّعاء صاحب «المغني»؛ لأنّ الرجل لما احتفل ادّعى أنّ رسول الله ﷺ كان أطمعه في رده، ثم صرح بأنّ رعايته فيه القرابة هي الموجبة لرده ومخالفة الرسول ﷺ. وقد روى من طرق مختلفة أنّ عثمان لما كلم أبا بكر وعمر في ردّ الحكم أغلظا له وزيراه^(١)، وقال له عمر: يخرجك رسول الله ﷺ وتأمرنني أن أدخله! والله لو أدخلته لم آمن أن يقول قائل: غير عهد رسول الله ﷺ، والله لأنّ أشقّ باثنتين كما تُشقّ الأبلّمة^(٢) أحبّ إليّ من أن أخالف لرسول الله أمراً، وإياك يا بن عفان أن تعاودني فيه بعد اليوم، وما رأينا عثمان قال في جواب هذا التعنيف والتوبيخ من أبي بكر وعمر: إنّ عندي عهداً من رسول الله ﷺ فيه، لا أستحقّ معه عتاباً ولا تهجيناً، وكيف تطيب نفس مسلم موقر لرسول الله ﷺ معظّم له أن يأتي إلى عدوّ رسول الله ﷺ مصرّح بعداوته والوقية فيه، حتّى بلغ به الأمر إلى أن كان يحكي مشيئته، طرده رسول الله ﷺ، وأبعده ولعته، حتّى صار مشهوراً بأنّه طريد رسول الله ﷺ، فيكرمه ويرده إلى حيث أخرج منه، ويصلّه بالماء العظيم: إما من مال المسلمين أو من ماله! إنّ هذا لعظيم كبير قبل التصفّح والتأمل والتعلّل بالتأويل الباطل!

فأمّا قول صاحب «المغني»: إنّ أبا بكر وعمر لم يقبلا قوله لأنّه شاهد واحد، وجعل ذلك بمنزلة الحقوق التي تخصّ، فأول ما فيه أنّه لم يشهد عندهما شيء واحد في باب الحكم على ما رواه جميع الناس، ثم ليس هذا من باب الذي يُحتاج فيه إلى الشاهدين، بل هو بمنزلة كلّ ما يقبل فيه أخبار الأحاد. وكيف يجوز أن يُجرى أبو بكر وعمر مجرى الحقوق ما ليس منها! وقوله: لا بدّ من تجويز كونه صادقاً في روايته، لأنّ القطع على كذب روايته لا سبيل إليه ليس بشيء، لأنّا قد بينّا أنّه لم يرو عن الرسول ﷺ إذناً، إنّما ادّعى أنّه أطمعه في ذلك. وإذا جوّزنا كونه صادقاً في هذه الرواية، بل قطعنا على صدقه لم يكن معذوراً.

(١) زيره: نهاه وانتهره. اللسان، (مادة زير).

(٢) الأبلّمة: خوصة المقل. القاموس، مادة (بلم).

فأما قوله: الواجب على غيره ألا يتهمه إذا كان لفعله وجه يصح عليه، لانتصابه منصباً يُزيل التهمة، فأول ما فيه أن الحاكم لا يجوز أن يحكم بعلمه مع التهمة، والتهمة قد تكون لها أمارات وعلامات، فما وقع منها عن أمارات وأسباب تهم في العادة كان مؤثراً، وما لم يكن كذلك فلا تأثير له، والحكم هو عم عثمان، وقريبه ونسيبه، ومن قد تكلم في رده مرة بعد أخرى، ولوال بعد وال، وهذه كلها أسباب التهمة، فقد كان يجب أن يتجنب الحكم بعلمه في هذا الباب خاصة، لتطرق التهمة إليه.

فأما ما حكاه عن أبي الحسين الخياط من أن الرسول ﷺ لو لم يأذن في رده لجاز أن يرده إذا أداه اجتهاده إلى ذلك، لأن الأحوال قد تتغير - فظاهر البطلان -، لأن الرسول ﷺ إذا حذر شيئاً أو أباحه لم يكن لأحد أن يجتهد في إباحة المحظور أو حظر المباح، ومن يجوز الاجتهاد في الشريعة لا يقدم على مثل هذا، لأنه إنما يجوز عندهم فيما لا نص فيه. ولو سوغنا الاجتهاد في مخالفة ما تناوله النص لم يؤمن أن يؤدي اجتهاد مجتهد إلى تحليل الخمر وإسقاط الصلاة، بأن تتغير الحال، وهذا هدم للشريعة. فأما الاستشهاد باسترداد عمر من جيش أسامة فالكلام في الأمرين واحد.

الطعن الثالث: أنه كان يؤثر أهل بيته بالأموال العظيمة التي هي غدة المسلمين، نحو ما روي أنه دفع إلى أربعة أنفس من قريش زوجهم بناته أربعمئة ألف دينار، وأعطى مروان مائة ألف عند فتح إفريقية، ويروي خمس إفريقية، وغير ذلك، وهذا بخلاف سيرة من تقدمه في القسمة على الناس بقدر الاستحقاق، وإيثار الأبعد على الأقارب.

قال قاضي القضاة: وجوابنا عن ذلك أن من الظاهر المشهور أن عثمان كان عظيم اليسار، كثير المال، فلا يمتنع أن يكون إنما أعطى أهل بيته من ماله، وإذا احتمل ذلك وجب حملُه على الصحة.

وقد قال شيخنا أبو علي رحمه الله تعالى: إن الذي روي من دفعه إلى ثلاثة نفر من قريش زوجهم بناته، إلى كل واحد منهم مائة ألف دينار، إنما هو من ماله، ولا رواية تصح أنه أعطاهم ذلك من بيت المال، ولو صح ذلك لكان لا يمتنع أن يكون أعطاهم من بيت المال ليرد عوضه من ماله، لأن للإمام عند الحاجة أن يفعل ذلك، كما له أن يقرض غيره.

وقال شيخنا أبو علي أيضاً: إن ما روي من دفعه خمس إفريقية لما فتحت إلى مروان، ليس بمحفوظ ولا منقول على وجه يجب قبوله، وإنما يزويه من يقصد التشنيع. وقد قال الشيخ أبو الحسين الخياط: إن ابن أبي سرح لما غزا البحر، ومعه مروان في الجيش، ففتح الله عليهم،

وغنموا غنيمةً عظيمةً، اشترى مروان من ابن أبي سرح الخمس بمائة ألف، وأعطاه أكثرها، ثم قدم على عثمان بشيراً بالفتح، وقد كانت قلوب المسلمين تعلقت بأمر ذلك الجيش: فرأى عثمان أن يهب له ما بقى عليه من المال، وللإمام فعلٌ مثل ذلك، ترغيباً في مثل هذه الأمور.

قال: وهذا الصنيع كان منه في السنة الأولى من إمامته، ولم يبرأ أحد منه فيها، فلا وجه للتعلق بذلك.

وذكر أبو الحسين الخياط أيضاً فيما أعطاه أقاربه أنه وصلهم لحاجتهم، فلا يمتنع مثله في الإمام إذا رآه صلاحاً. وذكر في إقطاعه القطائع لبني أمية، أن الأئمة قد تحصل في أيديهم الضياع لا مالك لها، ويعلمون أنها لا بد فيها ممن يقوم بإصلاحها وعمارتها، ويؤدي عنها ما يجب من الحق، فله أن يصرف من ذلك إلى من يقوم به، وله أيضاً أن يهد بعضها على بعض بحسب ما يعلم من الصلاح والتألف، وطريق ذلك الاجتهاد.

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام، فقال: أما قوله: يجوز أن يكون إنما أعطاهم من ماله، فالرواية بخلاف ذلك، وقد صرح الرجل بأنه كان يعطي من بيت المال صلةً لرحمه، ولما عوتب على ذلك لم يعتذر عنه بهذا الضرب من العذر، ولا قال: إن هذه العطايا من مالي، فلا اعتراض لأحد فيها. روى الواقدي بإسناده عن المشور بن عتبة، قال: سمعت عثمان يقول: إن أبا بكر وعمر كانا يتأولان في هذا المال ظلفاً^(١) أنفسهما وذوي أرحامهما، وإنني تأولت فيها صلةً رحي.

وروي عنه أيضاً أنه كان بحضرته زياد بن عبيد، مولى الحارث بن كلفة الثقفي، وقد بعث إليه أبو موسى بمالٍ عظيم من البصرة، فجعل عثمان يقسمه بين ولده وأهله بالصُّحاف، فبكى زياد، فقال: لا تبك، فإن عمر كان يمنع أهله وذوي قرابته ابتغاء وجه الله، وأنا أعطي أهلي وولدي وقرابتي ابتغاء وجه الله.

وقد روي هذا المعنى عنه من عدة طرق بالفاظٍ مختلفة.

وروى الواقدي أيضاً بإسناده، قال: قَدِمْتُ إِبِلَ من إبل الصدقة على عثمان، فوهبها للحارث بن الحكم بن أبي العاص.

وروى أبو مخنف والواقدي أنه ولى الحكم بن أبي العاص صدقات قضاة، فبلغت ثلاثمائة ألف فوهبها له حين أتاه بها.

(١) الظلف: الشدة والغلظ في المعيشة من ذلك. اللسان، مادة (ظلف).

وروى أبو مخنف والواقدي أن الناس أنكروا على عثمان إعطاء سعيد بن العاص مائة ألف، وكلمه علي والزبير وطلحة وسعد وعبد الرحمن في ذلك، فقال: إن له قرابةً ورجماً، قالوا: فما كان لأبي بكر وعمر قرابة وذو رحم؟ فقال: إن أبا بكر وعمر كان يحتسبان في منع قرابتهما، وأنا احتسب في إعطاء قرابتي، قالوا: فهذه هما - والله - أحب إلينا من هذين.

وروى أبو مخنف أن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العيص بن أمية، قدم على عثمان من مكة، ومعه ناس، فأمر لعبد الله بثلاثمائة ألف، ولكل واحد من القوم بمائة ألف وصك بذلك على عبد الله بن الأرقم - وكان خازن بيت المال - فاستكثره ورد الصك به. ويقال: إنه سأل عثمان أن يكتب عليه بذلك كتاباً، فأبى وامتنع ابن الأرقم أن يدفع المال إلى القوم، فقال له عثمان: إنما أنت خازن لنا، فما حملك على ما فعلت؟ فقال ابن الأرقم: كنت أراني خازن المسلمين، وإنما خازنك غلامك، والله لا ألي لك بيت المال أبداً، وجاء بالمفاتيح فعلقها على المنبر، ويقال: بل ألقاها إلى عثمان، فرفعها إلى نائل مولاه.

وروى الواقدي أن عثمان أمر زيد بن ثابت أن يحول من بيت مال المسلمين إلى عبد الله بن الأرقم في عقيب هذا الفعل ثلاثمائة ألف درهم، فلما دخل بها عليه، قال له: يا أبا محمد، إن أمير المؤمنين أرسل إليك يقول: إنا قد شغلناك عن التجارة، ولك ذوو رحم أهل حاجة، ففرق هذا المال فيهم، واستعن به على عيالك، فقال عبد الله بن الأرقم: مالي إليه حاجة، وما عملت لأن يثيبني عثمان، والله إن كان هذا من بيت مال المسلمين ما بلغ قدر عملي أن أعطي ثلاثمائة ألف، ولئن كان من مال عثمان ما أحب أن أرزاه^(١) من ماله شيئاً. وما في هذه الأمور أوضح من أن يشار إليه ويُنَبَّه عليه.

فأما قوله: ولو صح أنه أعطاهم من بيت المال لجاز أن يكون ذلك على طريق القرض، فليس بشيء، لأن الروايات أولاً تخالف ما ذكره، وقد كان يجب لما نقم عليه وجوه الصحابة إعطاء أقاربه من بيت المال، أن يقول لهم: هذا على سبيل القرض، وأنا أرد عوضه، ولا يقول ما تقدم ذكره، من أنني أصبل به رحي، على أنه ليس للإمام أن يقترض من بيت مال المسلمين إلا ما ينصرف في مصلحة لهم مهمة، يعود عليهم نفعها، أو في سد خلّة وفاقة لا يتمكنون من القيام بالأمر معها: فأما أن يقترض المال ليتسع به، ويمرّح فيه مترفي بني أمية وفساقهم فلا أحد يجيز ذلك.

فأما قوله حاكياً عن أبي علي: إن دفعه خمس إفريقية إلى مروان ليس بمحفوظ ولا منقول - فباطل -، لأن العلم بذلك يجري مجرى العلم بسائر ما تقدم، ومن قرأ الأخبار علم ذلك على وجه لا يعترض فيه شك، كما يعلم نظائره.

(١) أرزاه من ماله: أصاب منه شيئاً. القاموس، مادة (رزأ).

روى الواقدي عن أسامة بن زيد، عن نافع مولى الزبير، عن عبد الله بن الزبير، قال: أغزانا عثمان سنة سبع وعشرين إفريقية، فأصاب عبد الله بن سعد بن أبي سرح غنائم جليلة، فأعطى عثمان مروان بن الحكم تلك الغنائم. وهذا كما ترى يتضمن الزيادة عن إعطاء الخمس، ويتجاوزها إلى إعطاء الأصل.

وروى الواقدي، عن عبد الله بن جعفر، عن أم بكر بنت المشور، قالت: لما بنى مروان داره بالمدينة، دعا الناس إلى طعامه، وكان المشور ممن دعاه، فقال مروان وهو يحدثهم: والله ما أنفقت في داري هذا من مال المسلمين درهمًا فما فوقه، فقال المشور: لو أكلت طعامك وسكت كان خيرًا لك. لقد غزوت معنا إفريقية، وإنك لأقلنا مالاً ورقيقاً وأعواناً، وأخفنا ثقلًا، فأعطاك ابن عمك خمس إفريقية، وعملت على الصدقات، فأخذت أموال المسلمين.

وروى الكلبي عن أبيه، عن أبي مخنف أن مروان ابتاع خمس إفريقية بمائتي ألف درهم ومائتي ألف دينار، وكلم عثمان، فوهبها له، فأنكر الناس ذلك على عثمان. وهذا بعينه هو الذي اعترف به أبو الحسين الخياط واعتذر عنه بأن قلوب المسلمين تعلقت بأمر ذلك الجيش، فرأى عثمان أن يهب لمروان ثمن ما ابتاعه من الخمس لما جاءه بشيراً بالفتح على سبيل الترغيب. وهذا الاعتذار ليس بشيء، لأن الذي روينا من الأخبار في هذا الباب خالٍ من البشارة، وإنما يقتضي أنه سأل ترك ذلك عليه، فتركه وأبتدأ هو بصلته، ولو أتى بشيراً بالفتح كما ادَّعَوْا لما جاز أن يترك عليه خمس الغنيمة العائد نفعه على المسلمين؛ لأن تلك البشارة لا تبلغ إلى أن يستحق البشير بها مائتي ألف درهم، ولا اجتهد في مثل هذا، ولا فرق بين من جَوَّز أن يؤدي الاجتهاد إلى مثله ومن جَوَّز أن يؤدي الاجتهاد إلى دفع أصل الغنيمة إلى البشير بها، ومن ارتكب ذلك ألزم جواز أن يؤدي الاجتهاد إلى إعطاء هذا البشير جميع أموال المسلمين في الشرق والغرب.

فأما قوله: إنه وصل بني عمه لحاجتهم، ورأى في ذلك صلاحاً، فقد بينا أن صلته لهم كانت أكثر مما تقتضيه الخلّة والحاجة، وأنه كان يصل فيهم المياسير. ثم الصلاح الذي زعم أنه رآه: لا يخلو إما أن يكون عائداً على المسلمين، أو على أقاربه، فإن كان على المسلمين فمعلوم ضرورة أنه لا صلاح لأحد من المسلمين في إعطاء مروان مائتي ألف دينار، الحكم بن أبي العاص ثلاثمائة ألف درهم، وابن أبييد ثلاثمائة ألف درهم، إلى غير ما ذكرنا، بل على المسلمين في ذلك غاية الضرر. وإن أراد الصلاح الراجع إلى الأقارب فليس له أن يصلح أمر أقاربه بفساد أمر المسلمين، ويتفهم بما يضر به المسلمين.

وأما قوله: إن القطائع التي أقطعها بني أمية، إنما أقطعهم إياها لمصلحة تعود على المسلمين، لأن تلك الضياع كانت خراباً لا عامراً لها، فسلمها إلى من يعمرها ويؤدي الحق

عنه، فأول ما فيه أنه لو كان الأمر على ما ذكره، ولم تكن هذه القطائع على سبيل الصلة والمعونة لأقاربه لما خفي ذلك على الحاضرين، ولكانوا لا يعدّون ذلك من مثالبه، ولا يواقفونه عليه في جملة ما واقفوه عليه من إحدائه. ثم كان يجب لو فعلوا ذلك أن يكون جوابه بخلاف ما روى من جوابه، لأنه كان يجب أن يقول لهم: وأي منفعة في هذه القطائع عائدة على قرابتي حتى تعدّوا ذلك من جملة صلاتي لهم، وإيصالي المنافع إليهم! وإنما جعلتهم فيهما بمنزلة الأجرة الذين يُنتفع بهم أكثر من انتفاعهم أنفسهم، وما كان يجب أن يقول ما تقدّمت روايته، من أنني محتسب في إعطاء قرابتي، وأن ذلك على سبيل الصلة لرحمي، إلى غير ذلك مما هو خالٍ من المعنى الذي ذكره.

الطعن الرابع: أنه حمى الحمى عن المسلمين، مع أن رسول الله ﷺ جعلهم سواء في الماء والكلأ.

قال قاضي القضاة: وجوابنا عن ذلك أنه لم يحم الكلأ لنفسه، ولا استأثر به، لكنه حماه لإبل الصدقة التي منفعتها تعود على المسلمين. وقد روي عنه هذا الكلام بعينه، وأنه قال: إنما فعلت ذلك لإبل الصدقة، وقد أطلقته الآن، وأنا أستغفر الله، وليس في الاعتذار ما يزيد عن ذلك.

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام، فقال: أما أولاً فالمروي بخلاف ما ذكر، لأن الواقدي روى بإسناده، قال: كان عثمان يحمي الرُبذة والشرف والبقيع، فكان لا يدخل الحمى بعير له ولا فرس، ولا لبني أمية حتى كان آخر الزمان، فكان يحمي الشرف لإبله وكانت ألف بعير، ولإبل الحُكم بن أبي العاص، ويحمي الرُبذة لإبل الصدقة، ويحمي البقيع لخيل المسلمين وخيله وخيل بني أمية.

قال: على أنه لو كان إنما حماه لإبل الصدقة لم يكن بذلك مصيباً: لأن الله تعالى ورسوله أباحا الكلأ، وجعلاه مشتركاً، فليس لأحد أن يغيّر هذه الإباحة. ولو كان في هذا الفعل مُصيباً، وأنه إنما حماه لمصلحة تعود على المسلمين لما جاز أن يستغفر الله منه ويعتذر؛ لأن الاعتذار إنما يكون من الخطأ دون الصواب.

الطعن الخامس: أنه أعطى من بيت مال الصدقة المقاتلة وغيرها، وذلك مما لا يحل في الدين.

قال قاضي القضاة: وجوابنا عن ذلك أنه إنما جاز له ذلك لعلمه بحاجة المقاتلة، واستغناء

أهل الصدقة، ففعل ذلك على سبيل الإفراض، وقد فعل رسول الله ﷺ مثله، وللإمام في مثل هذه الأمور أن يفعل ما جرى هذا المجرى، لأنَّ عند الحاجة ريثما يجوز له أن يفترض من الناس، فإنَّ يجوز له أن يتناول من مالٍ في يده ليردَّ عوضه من الجبال الآخر أولى.

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام، فقال: إنَّ المال الذي جعل الله تعالى له جهة مخصوصة، لا يجوز أن يُعدَّل به عن جهته بالاجتهاد، ولو كانت المصلحة في ذلك موقوفة على الحاجة لشرطها الله تعالى في هذا الحكم؛ لأنه سبحانه أعلم بالمصالح واختلافها مِنَّا، ولكان لا يجعل لأهل الصدقة منها القسط مطلقاً.

وأما قوله: إنَّ الرسول ﷺ فَعَلَ مثله، فهي دَعْوَى مجرَّدة من برهان، وقد كان يجب أن يروي ما ذكر في ذلك. وأما ذكره من الاقتراض، فأين كان عثمان عن هذا العذر لَمَّا وُوقِفَ عليه!

الطعن السادس: أنَّه ضرب عبد الله بن مسعود حتى كسر بعض أضراسه.

قال قاضي القضاة: قال شيخنا أبو علي رحمه الله تعالى: لم يثبت عندنا ولا صحَّ عندنا ما يقال من طعن عبد الله عليه، وإكفاره له، والذي يصحَّ من ذلك أنَّ عبد الله كره منه جمعه الناس على قراءة زيد بن ثابت وإحراقه المصاحف، وثقل ذلك عليه كما يثقل على الواحد مِنَّا تقديم غيره عليه.

وقد قيل: إنَّ بعض موالي عثمان ضربه لَمَّا سمع منه الواقعة في عثمان، ولو صحَّ أنه أمر بضربه لم يكن بأنَّ يكون طعنًا في عثمان بأولى من أن يكون طعنًا في ابن مسعود، لأنَّ للإمام تأديب غيره، وليس لغيره الواقعة فيه إلا بعد البيان. وقد ذكر الشيخ أبو الحسين الخياط أنَّ ابن مسعود إنما عابه لعزله إياه، وقد رُوي أنَّ عثمان اعتذر إليه فلم يقبل عذره، ولما أحضره إليه عطاءه في مرضه، قال ابن مسعود: منعني إياه إذا كان ينفعني، وجئتني به عند الموت! لا أقبله. وأنه وسط أم حبيبة زوج النبي ﷺ ليزيل ما في نفسه فلم يجب، وهذا يوجب ذمَّ ابن مسعود إذ لم يقبل الندم، ويوجب براءة عثمان من هذا العيب، لو صحَّ ما صحَّ ما روه من ضربه.

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام، فقال: المعلوم المرويَّ خلاف ما ذكره أبو علي، ولا يختلف أهل النقل في طعن ابن مسعود على عثمان، وقوله فيه أشدَّ الأقوال

وأعظمها، والعلم بذلك كالعلم بكل ما يدعي فيه الضرورة، وقد رَوَى كُلُّ مَنْ رَوَى السيرة من أصحاب الحديث على اختلاف طُرُقهم أَنَّ ابن مسعود كان يقول: ليتني وعثمان برملي عالِج يحثو عليّ وأحثو عليه حتى يموت الأعجز مني ومنه.

رووا أنه كان يطعن عليه، فيقال له: ألا خرجتَ عليه، ليخرج معك! فيقول: لأن أزاوَل جَبَلًا راسياً أحبُّ إليّ من أن أزاوَل مُلْكاً مُوجِلاً.

وكان يقول كل يوم جمعة بالكوفة جاهراً معلناً: «إِنَّ أَصْدَقَ الْقَوْلِ كِتَابُ اللَّهِ، وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحَدَّثٍ بِذُعة، وَكُلُّ بِذُعة ضلالة، وَكُلُّ ضلالة في النار». وإنما كان يقول ذلك معرضاً بعثمان، حتى غضب الوليد بن عُقبة من استمرار تعريضه، ونهاه عن خطبته هذه، فأبى أن ينتهي، فكتب إلى عثمان فيه، فكتب عثمان يستقدمه عليه.

وروي أنه لما خرج عبدُ الله بن مسعود إلى المدينة مزعجاً عن الكوفة خرج الناس معه يشيعونه، وقالوا له: يا أبا عبد الرحمن، ارجع، فوالله لا نوصله إليك أبداً، فإننا لا نأمنه عليك، فقال: أمر سيكون، ولا أحب أن أكون أول مَنْ فتحه.

وقد روى عنه أيضاً من طرق لا تحصى كثرة أنه كان يقول: ما يزنُ عثمانُ عندَ الله جناح ذباب، وتعاطي ما روي عنه في هذا الباب بطول، وهو أظهر من أن يحتاج إلى الاستشهاد عليه، وإنه بلغ من إضرار عبد الله على مظاهرته بالعداوة أن قال لما حضره الموت: مَنْ يَتَقَبَّلُ مِنِّي وَصِيَّةً أَوْصِيه بها عليّ ما فيها فسكت القوم، وعرفوا الذي يريد، فأعادها، فقال عمار بن ياسر رحمه الله تعالى: أنا أقبلها، فقال ابن مسعود: ألا يصلي عليّ عثمان، قال: ذلك لك، فيقال: إنه لما دُفِن جاء عثمان منكراً لذلك، فقال له قائل: إن عماراً ولي الأمر، فقال لعمار: ما حملك عليّ أن لم تؤذني؟ فقال: عهد إليّ ألا أؤذنك، فوقف على قبره وأثنى عليه، ثم انصرف وهو يقول: رفعتُم والله أيديكم عن خيرٍ مَنْ بقي، فتمثل الزبير بقول الشاعر:

لَا الْفَيْئُكَ بَعْدَ الْمَوْتِ تَنْدُبُنِي وَفِي حَيَاتِي مَا زُوذْتُني زَادِي
ولما مَرَضَ ابنُ مسعود مرضه الذي مات فيه، أتاه عثمان عائداً، فقال: ما تشكي؟ فقال: ذنوبي، قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي، قال: ألا أدعوك طيباً؟ قال الطبيبُ أمرضني، قال: أفلا أمر لك بعطائك؟ قال: منعته وأنا محتاج إليه، وتُعطينيه وأنا مستغن عنه! قال: يكونُ لولدك، قال: رزقهم على الله تعالى، قال: استغفر لي يا أبا عبد الرحمن، قال: أسأل الله أن يأخذَ لي منك حَقِّي.

قال: وصاحبُ «المغني» قد حكى بعض هذا الخبر في آخر الفصل الذي حكاه من كلامه، وقال: هذا يوجب دَمَ ابن مسعود من حيث لم يقبل العذر وهذا منه طريف، لأن مذهبه لا يقتضي

قبول كل عذر ظاهر، وإنما يجب قبول العذر الصادق، الذي يغلب في الظن أن الباطن فيه كالظاهر، فمن أين لصاحب «المغني» أن اعتذار عثمان إلى ابن مسعود كان مستوفياً للشرائط التي يجب معها القبول وإذا جاز ما ذكرناه لم يكن على ابن مسعود لوم في الامتناع من قبول عذره.

فأما قوله: إن عثمان لم يضربه، وإنما ضربه بعض مواليه لما سمع وقيعته فيه، فالأمر بخلاف ذلك، وكل من قرأ الأخبار علم أن عثمان أمر بإخراجه عن المسجد على أعنف الوجوه، وبأمر يجرى ما جرى عليه، ولو لم يكن بأمره ورضاه لوجب أن ينكر على مولاة كسر ضلعه، ويعتذر إلى من عاتبه على فعله بابن مسعود بأن يقول: إني لم أمر بذلك، ولا رضيته من فاعله، وقد أنكرت عليه فعله.

وفي علمنا بأن ذلك لم يكن دليلاً على ما قلنا، وقد روى الواقدي بإسناده وغيره أن ابن مسعود لما استقدم المدينة، دخلها ليلة جمعة، فلما علم عثمان بدخوله، قال: أيها الناس، إنه قد طرقتكم الليلة دؤيبة، من تمشي على طعامه بقيء ويسلح^(١). فقال ابن مسعود: لست كذلك، ولكنني صاحب رسول الله ﷺ يوم بدر، وصاحبه يوم أحد، وصاحبه يوم بيعة الرضوان، وصاحبه يوم الخندق، وصاحبه يوم حنين. قال: وصاحت عائشة: يا عثمان! أتقول هذا لصاحب رسول الله ﷺ! فقال عثمان: اسكتي ثم قال لعبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن عبد العزى بن قصي: أخرجني إخراجاً عنيفاً، فأخذه ابن زمعة، فاحتمله حتى جاء به باب المسجد، فضرب به الأرض، فكسر ضلعاً من أضلاعه، فقال ابن مسعود: قتلني ابن زمعة الكافر بأمر عثمان.

وفي رواية أخرى إن ابن زمعة الذي فعل به ما فعل كان مولى لعثمان أسود مُسَدِّماً^(٢) طوالاً. وفي رواية أخرى: إن فاعل ذلك يَحْمُوم مولى عثمان. وفي رواية، إنه لما احتمله ليخرجه من المسجد ناداه عبد الله: أنشدك الله، ألا تخرجني من مسجد خيلي ﷺ.

قال الراوي: فكأنني أنظر إلى حُمُوشة^(٣) ساقى عبد الله بن مسعود ورجلاه تختلفان على عنق مولى عثمان حتى أخرج من المسجد، وهو الذي يقول فيه رسول الله ﷺ: «الساقا ابن أم عبد أثقل في الميزان يوم القيامة من جبل أحد»^(٤).

(١) سلح: راث. المعجم الوسيط، مادة (سلح).

(٢) الفحل المسدم: الهائج والممنوع من الضراب. اللسان، مادة (سدم).

(٣) حموشة الساق: دقتها. القاموس، مادة (حمش).

(٤) أخرج أحمد نحوه في مسند العشرة المبشرين بالجنة، باب: ومن مسند علي بن أبي طالب (٩٢٢)، والطبراني (٨٤٥٣) والهيتمي في «مجمع الزوائد» (٢٨٩/٩).

وقد روى محمد بن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي أن عثمان ضرب ابن مسعود أربعين سوطاً في دفنه أبا ذر. وهذه قصة أخرى، وذلك أن أبا ذر رحمه الله تعالى لما حضرته الوفاة بالرُبذة، وليس معه إلا امرأته وغلأمه عهد إليهما أن غسّلاني ثم كفّناي، ثم ضعاني على قارعة الطريق، فأول ركب يمرّون بكم قولوا لهم: هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ، فأعينونا على دفنه، فلما مات فعلوا ذلك، وأقبل ابن مسعود في ركب من العراق معتمرين، فلم يرغبهم إلا الجنّازة على قارعة الطريق، قد كادت الإبل تطوّها، فقام إليهم العبد، فقال: هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ، فأعينونا على دفنه، فانهلّ ابن مسعود باكياً، وقال: صدق رسول الله ﷺ، قال له: «تمشي وحدك، وتموت وحدك، وتُبعث وحدك»^(١)، ثم نزل هو وأصحابه، فواروه.

قال: فأما قوله إن ذلك ليس بأن يكون طعناً في عثمان بأولى من أن يكون طعناً في ابن مسعود، فواضح البطلان، وإنما كان طعناً في عثمان دون ابن مسعود، لأنه لا خلاف بين الأمة في طهارة ابن مسعود وفضله وإيمانه، ومدح رسول الله ﷺ، وثنائه عليه، وأنه مات على الجُملة المحمودة منه، وفي جميع هذا خلاف بين المسلمين في عثمان.

فأما قوله: إن ابن مسعود كره جمع عثمان الناس على قراءة زيد، وإحراقه المصاحف، فلا شك أن عبد الله كره ذلك، كما كرهه جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ، وتكلّموا فيه، وقد ذكر الرواة كلام كل واحد منهم في ذلك مفصلاً، وما كره عبد الله من ذلك إلا مكروهاً، وهو الذي يقول رسول الله ﷺ في حقه: «مَنْ سرّه أن يقرأ القرآن غُصّاً كما أنزل، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»^(٢). وروى عن ابن عباس رحمه الله تعالى أنه قال: «قراءة ابن أم عبد هي القراءة الأخيرة»^(٣)، إن رسول الله ﷺ كان يُعرض عليه القرآن في كلّ سنة من شهر رمضان، فلما كان العام الذي تُوفي فيه عُرض عليه دفعتين، فشهد عبد الله ما نُسِخ منه، وما صحّ فهي القراءة الأخيرة.

وروي عن الأعمش، قال: قال ابن مسعود: لقد أخذت القرآن من في رسول الله ﷺ، سبعين سورة، وإن زيد بن ثابت لغلّام في الكتاب، له ذؤابة.

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٢٣٥/٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب: فضل عبد الله بن مسعود (١٣٨) وأحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة، باب: مسند أبي بكر الصديق (٣٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٠٦٦)، والحاكم في «المستدرک» (٢٨٩٤).

(٣) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٢٥٦٢).

فأما حكايته عن أبي الحسين الخياط أن ابن مسعود إنما عاب عثمان لعزله إياه، فعبد الله عند كل من عرفه بخلاف هذه الصورة، وأنه لم يكن ممن يخرج على عثمان ويظعن في إمامته بأمر يعود إلى منفعة الدنيا، وإن كان عزله بما لا شبهة فيه في دين ولا أمانة عيباً لا شك فيه.

الظعن السابع: أنه جمع الناس على قراءة زيد بن ثابت خاصة، وأحرق المصاحف، وأبطل ما لا شك أنه نزل من القرآن، وأنه مأخوذ عن الرسول ﷺ، ولو كان ذلك مما يسوغ لسبق إليه رسول الله ﷺ، ولفعله أبو بكر وعمر.

قال قاضي القضاة: وجوابنا عن ذلك أن الوجة في جمع القرآن على قراءة واحدة تحصين القرآن وضبطه، وقطع المنازعة والاختلاف فيه. وقولهم: لو كان ذلك واجباً لفعله الرسول ﷺ غير لازم، لأن الإمام إذا فعله صار كأن الرسول ﷺ فعله، ولأن الأحوال في ذلك تختلف، وقد روي أن عمر كان عزم على ذلك فمات دونه. وليس لأحد أن يقول: إن إحراقه المصاحف اتسخفاً بالدين، وذلك لأنه إذا جاز من الرسول ﷺ أن يخرّب المسجد الذي بُني ضراراً وكفراً، فغير ممتنع إحراق المصاحف.

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام، فقال: إن اختلاف الناس في القراءة ليس بموجب لما صنعه، لأنهم يروون أن النبي ﷺ قال: «نزل القرآن على سبعة أحرف، كلها شاف كاف»^(١)، فهذا الاختلاف عندهم في القرآن مباح مسند عن الرسول الله ﷺ، فكيف يحظر عليهم عثمان من التوسع في الحروف ما هو مباح! فلو كان في القراءة الواحدة تحصين القرآن كما ادعى، لما أباح النبي ﷺ في الأصل إلا القراءة الواحدة، لأنه أعلم بوجوه المصالح من جميع أمته، من حيث كان مؤيداً بالوحي، موفقاً في كل ما يأتي ويذر. وليس له أن يقول: حدث من الاختلاف في أيام عثمان ما لم يكن في أيام الرسول ﷺ ولا ما أباحه، وذلك لأن الأمر لو كان على هذا لوجب أن ينهي عن القراءة الحادثة، والأمر المبتدع، ولا يحمله ما أحدث من القراءة على تحريم المتقدم بلا شبهة.

وقوله: إن الإمام إذا فعل ذلك، فكان الرسول ﷺ فعله تعلل بالباطل، وكيف يكون كما ادعى، وهذا الاختلاف بعينه قد كان موجوداً في أيام الرسول ﷺ، فلو كان سبب الانتشار الزيادة في القرآن، وفي قطعه تحصين له، لكان ﷺ بالنهي عن هذا الاختلاف أولى من غيره، اللهم إلا أن يقال: حدث اختلاف لم يكن، فقد قلنا فيه ما كفى.

(١) أخرج نحوه النسائي في الافتتاح، باب: جامع ما جاء في القرآن (٩٤٠)، وأبو داود في الصلاة، باب: أنزل القرآن على سبعة أحرف (١٤٧٧)، وأحمد في أول مسند البصريين، باب: حديث أبي بكر نفع بن الحارث بن كلدة (١٩٩١٢).

وأما قوله: إن عمر قد كان عزم على ذلك فمات دونه، فما سمعناه إلا منه، ولو فعل ذلك أي فاعل كان لكان منكراً.

فأما الاعتذار عن كون إحراق المصاحف لا يكون استخفافاً بالدين، بحمله إياه على تخريب مسجد الضرار، فيبين الأمرين بؤن بعيد، لأنّ البنيان إنما يكون مسجداً وبيتاً لله تعالى بنية الباني وقصده، ولولا ذلك لم يكن بعضُ البنيان بأن يكون مسجداً أولى من بعض، ولما كان قصد الباني لذلك الموضع غير القرية والعبادة، بل خلافها وضدّها من الفساد والمكيدة. لم يكن في الحقيقة مسجداً، وإن سمي بذلك مجازاً على ظاهر الأمر، فهذه لا حرج فيه، وليس كذلك ما بين الدفتين، لأنه كلام الله تعالى الموقر المعظم، الذي يجب صيانته عن البذلة والاستخفاف، فأي نسبة بين الأمرين!

الطعن الثامن: أنه أقدم على عمار بن ياسر بالضرب، حتى حَدَثَ به فتق، ولهذا صار أحد من ظاهر المتظلمين من أهل الأمصار على قتله، وكان يقول: قتلناه كافراً.

قال قاضي القضاة: وقد أجاب شيخنا أبو علي رحمه الله تعالى عن ذلك، فقال: إن ضرب عمار غير ثابت، ولو ثبت أنه ضربه للقول العظيم الذي كان يقوله لم يجب أن يكون طعناً عليه، لأنّ للإمام تأديب من يستحق التأديب. ومما يبعد صحة ذلك أنّ عماراً لا يجوز أن يكفره، ولما يقع منه ما يستوجب به الكفر، لأن الذي يكفر به الكافر معلوم، ولأنه لو كان قد وقع ذلك لكان غيره من الصحابة أولى بذلك، ولوجب أن يجتمعوا على خلعهم، ولوجب أن يكون قتله مباحاً لهم، بل كان يجب أن يقيموا إماماً ليقتله على ما قدمناه. وليس لأحد أن يقول: إنما كفره عمار من حيث وثب على الخلافة، ولم يكن لها أهلاً، لأنّا لا نينا القول في ذلك، ولأنه كان منصوباً لأبي بكر وعمر على ما تقدّم، وقد بينا أنّ صحة إمامتهما تقتضي صحة إمامة عثمان.

وقد روى أن عماراً نازع الحسن بن علي عليهما السلام في أمر عثمان فقال عمار: قتل عثمان كافراً، وقال الحسن عليه السلام: قتل مؤمناً، وتعلق بعضهما ببعض، فصارا إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: ماذا تريد من ابن أخيك؟ فقال: إني قُلْتُ كذا، وقال كذا، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: أتكفر برّب كان يؤمن به عثمان! فسكت عمار، وقد ذكر الشيخ أبو الحسين الخياط أن عثمان لما نُقِمَ عليه ضربه عماراً احتج لنفسه، فقال: جاءني سعد وعمار، فأرسلا إليّ أن اتنا، فلما نريد أن نذاكرك أشياء فعلتها، فأرسلت إليهما: إني مشغول، فأنصرفا، فمعدكما يوم كذا، فأنصرف سعد وأبى عمار أن ينصرف، فأعدت الرسول إليه فأبى أن ينصرف، فتناوله بغير أمري، ووالله ما أمرت به ولا رضيت، وها أنا، فليقتصر مني.

قال: وهذا من أنصف قول وأعدله.

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام، فقال: أما الدفع لضرب عمار، فهو كالإنكار لطلوع الشمس ظهوراً وانتشاراً، وكلّ من قرأ الأخبار، وتصفح السير، يعلم من هذا الأمر ما لا تشبهه عنه مكابرة ولا مدافعة، وهذا الفعل - أعني ضرب عمار - لم تختلف الرواة فيه، وإنما اختلفوا في سببه، فروى عباس بن هشام الكلبي عن أبي مخنف، في إسناده أنه كان في بيت المال بالمدينة سَفَطٌ^(١) فيه خُلي وجوهر، فأخذ منه عثمان ما حَلَى به بعض أهله، فأظهر الناس الطعن عليه في ذلك، وكلموه فيه بكلّ كلام شديد، حتى أغضبوه، فخطب فقال: لناخذن حاجتنا من هذا الشيء، وإن رَغِمَتْ به أنوف أقوام! فقال له عليّ عليه السلام: إِذْنُ تُمنَع من ذلك، ويحال بينك وبينه، فقال عمار: أشهد أن أنفي أول راحم من ذلك، فقال عثمان: أعلني يا بن ياسر تجترىء! خذوه، فأخذ، ودخل عثمان، فدعا به فضربه حتى خشي عليه، ثم أخرج فحمل حتى أتى به منزل أم سلمة رضي الله تعالى عنها، فلم يصل الظهر والعصر والمغرب، فلما أفاق توفهاً وصلى، وقال: الحمد لله، ليس هذا أول يوم أوفينا في الله تعالى! فقال هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي - وكان عمار حليفاً لبني مخزوم - : يا عثمان، أما علي فأتقته، وأما نحن فاجترأت علينا، وضربت أخانا حتى أشقيت^(٢) به على التلف، أما والله لئن مات لأقتلن به رجلاً من بني أمية عظيم الشأن! فقال عثمان: وإنك لها هنا يا بن القُسرية، قال: فإنهما قُسرِيَتان - وكانت أم هشام وجدته قُسرِيَتَيْنِ من بَجيلة - فشتمه عثمان، وأمر به فأخرج، فأتى به أم سلمة رضي الله تعالى عنها، فإذا هي قد خُصِبَت لعمار، وبلغ عائشة رضي الله تعالى عنها ما صنَّع بعمار، فغضبت أيضاً، وأخرجت شِعْراً من شعر رسول الله ﷺ، ونعلًا من نعاله، وثوبًا من ثيابه، وقالت: ما أسرع ما تركتم سنة نبيكم، وهذا شعره وثوبه ونعله لم يبل بعد!

وروى آخرون أن السبب في ذلك أن عثمان مرّ بقبر جديد، فسأل عنه، فقيل: عبد الله بن مسعود، فغضب على عمار لكتماينه إياه موته، إذ كان المتولي للصلاة عليه، والقيام بشأنه، فعندما وطىء عثمان عماراً حتى أصابه الفتق.

وروى آخرون أن المقداد وعماراً وطلحة والزبير وجدة من أصحاب رسول الله ﷺ كتبوا كتاباً حذدوا فيه أحداث عثمان، وخوفوه به، وأعلموه أنهم مؤثبوه إن لم يُقْلِع، فأخذ عمار الكتاب، فاتاه به. فقرأ منه صَئِراً، ثم قال له: أعلني تقدم من بينهم! فقال: لأنني أنصحهم لك،

(١) السفط: كالجوالق أو كالقفة. القاموس، مادة (سقط).

(٢) أشقى على الشيء: أشرف عليه. اللسان، مادة (شقي).

قال: كذبت يا بن سُمَيَّة! فقال: أنا والله ابن سُمَيَّة، وابن ياسراً فأمر عثمان غُلَماناً له، فمَدَّوا يديه ورجليه، ثم ضربه عثمان برجليه - وهي في الخَفَيْنِ - على مَذاكيره، فأصابه الفتق، وكان ضعيفاً كبيراً ففُشِيَ عليه.

قال: فضرِبُ عمار على ما ترى غيره مختلف فيه بين الرواة، وإنما اختلفوا في سببه، والخبر الذي رواه صاحب «المغني»، وحكاه عن أبي الحسين الخياط ما نعرفه، وكتبُ السيرة المعلومة خالية منه ومن نظيره، وقد كان يجب أن يُضَيِّفه إلى الموضع الذي أخذ منه، فإنَّ قوله وقول من أسند إليه ليس بحجة، ولو كان صحيحاً لكان يجب أن يقول بدل قوله: «ها أنا فليقتص مني» - إذا كان ما أمر بذلك، ولا رضي عنه، وإنما ضربه الغلام الجاني - «فليقتص منه»، فإنه أولى وأعدل.

وبعد، فلا تنافي بين الروایتين لو كان ما رواه معروفًا، لأنه يجوز أن يكون غلامه ضربه في حال، وضربه هو في حال أخرى، والروايات إذا لم تتعارض لم يجز إسقاط شيء منها.

فأما قوله: إن عماراً لا يجوز أن يكفره، ولم يقع منه ما يوجب الكفر، فإنَّ تكفيرَ عمار وغير عمار له معروف، وقد جاءت به الروايات، وقد رُوي من طرق مختلفة وبأسانيد كثيرة أنَّ عماراً كان يقول: ثلاثة يشهدون على عثمان بالكفر وأنا الرابع، وأنا شرُّ الأربعة، ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾^(١)، وأنا أشهد أنه قد حَكَمَ بغير ما أنزل الله.

وروي عن زيد بن أرقم من طرق مختلفة أنه قيل له: بأي شيء كفرتم عثمان؟ فقال: بثلاث: جعل المال دولةً بين الأغنياء، وجعل المهاجرين من أصحاب رسول الله ﷺ بمنزلة من حارب الله ورسوله، وعمل بغير كتاب الله.

وروي عن حذيفة أنه كان يقول: ما في عثمان بحمد الله أشك، ولكني أشك في قاتله، لا أدري أكافر قتل كافراً، أم مؤمن خاض إليه الفتنة حتى قُتل، وهو أفضل المؤمنين إيماناً! فأما ما رواه من منازعة الحسن عليه السلام عماراً في ذلك، وترافعهما إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فهو أولاً غيرُ دافع لكون عمار مكفراً له، بل شاهد بذلك من قوله عليه السلام. ثم إنَّ كان الخبر صحيحاً فالوجه فيه أنَّ عماراً كان يعلم من لُحْنِ كلام أمير المؤمنين عليه السلام، وعدوله عن أن يقضي بينهما بصريح من القول أنه متمسك بالتقية، فأمسك عمار متابعة لغرضه.

فأما قوله: لا يجوز أن يكفره من حيث وثب على الخلافة، لأنه كان مصوباً لأبي بكر وعمر لما تقدم من كلامه في ذلك، فإننا لا نسلم له أن عماراً كان مصوباً لهما، وما تقدم من كلامه قد تقدم كلامنا عليه.

فأما قوله عن أبي عليّ: إنه لو ثبت أنه ضربه للقول العظيم الذي كان يقوله فيه لم يكن طعناً، لأنّ للإمام تأديب من يستحق ذلك، فقد كان يجب أن يستوحش صاحب كتاب «المغني» أو من حكى كلامه من أبي عليّ وغيره من أن يعتذر - من ضرب عمار ووقّذه حتى لحقه من الغشي ما ترك له الصلاة، ووطئه بالأقدام امتهاناً واستخفافاً - بشيء من العذر، فلا عذر يُسمع من إيقاع نهاية المكروه بمن روي أن النبي ﷺ قال فيه: «عمار جلدة ما بين العين والأنف ومتى تُنكأ الجلدة يذم الأنف»^(١). وروي أنه قال ﷺ: «ما لهم ولعمارا يدعوهما إلى الجنة ويدهونه إلى النار»^(٢). وروي العوام بن حوشب عن سلمة بن كهيل عن علقمة عن خالد بن الوليد أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ هَادَى عَمَاراً هَادَاهُ اللَّهُ، وَمَنْ أَبْغَضَ عَمَاراً أَبْغَضَهُ اللَّهُ»^(٣)، وأيّ كلام غليظ سمعه عثمان من عمار يستحق به ذلك المكروه العظيم الذي يجاوز مقدار ما فرضه الله تعالى في الحدود وإنما كان عمار وغيره أثبتوا عليه أحداثه ومعايبه أحياناً على ما يظهر من سيّء أفعاله. وقد كان يجب عليه أحد أمرين: إما إن ينزع عَمَّا يواقف عليه من تلك الأفعال، أو يبين من عذره عنها وبراءته منها ما يظهر ويشتهر، فإن أقام مقيم بعد ذلك على توبيخه وتفسيقه زجره عن ذلك بوغظ أو غيره، ولا يُقدم على ما يفعله الجبابة والأكاسرة من شفاء الغيظ بغير ما أنزل الله تعالى وحكم به.

الطعن التاسع: إقدامه على أبي ذرّ مع تقدّمه في الإسلام، حتى سيّره إلى الرّبذة ونفاه، وقيل: إنه ضربه.

قال قاضي القضاة في الجواب عن ذلك: إنّ شيخنا أبا عليّ رحمه الله تعالى قال: إنّ الناس اختلفوا في أمر أبي ذرّ رحمه الله تعالى. وروى أنه قيل لأبي ذرّ: عثمان أنزلك الرّبذة؟ فقال: لا، بل اخترت لنفسي ذلك.

وروي أنّ معاوية كتب يشكّوه وهو بالشام، فكتب عثمان إليه أن حير إلى المدينة، فلما صار إليها قال: ما أخرجك إلى الشام؟ قال: لأنّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا بلغت حِمَارَةَ المدينة موضع كذا فاخرج عنها»^(٤)، فلذلك خرجتُ، فقال: فأيّ البلاد أحب إليك بعد الشام؟ قال: الرّبذة، فقال: حير إليها.

(١) انظر الغدير: ١٦٣/٩، وكشف الغمة: ٢٦٠/١.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٢٢٤٧) بلفظه، ونحوه البخاري في الصلاة، باب: التعاون في بناء المسجد (٤٤٧)، وأحمد في مسند المكثرين باب: مسند أبي سعيد الخدري (١١٤٥١).

(٣) أخرجه أحمد في مسند الشاميين، باب: حديث خالد بن الوليد (١٦٣٧٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٠٨١)، والنسائي في «الكبرى» (٨٢٦٩)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٢٢٥٢).

(٤) لم أجده.

قال: وإذا تكافأت الأخبار لم يكن لهم في ذلك حجة، ولو ثبت ذلك لكان لا يمتنع أن يُخرج إلى الرُبذة لصالح يرجع إلى الدين، فلا يكون ظُلماً لأبي ذرٍّ، بل يكون إشفاقاً عليه، وخوفاً من أن يناله من بعض أهل المدينة مكروه، فقد روي أنه كان يُغليظ في القول ويخشن الكلام، فيقول: لم يبق أصحاب محمد على ما عهد، ويُنْفَرُ^(١) بهذا القول، فرأى إخراجَه أصلح لما يرجع إليه وإليهم وإلى الدين، وقد روي أن عمر أخرج عن المدينة نصر بن الحجاج لما خاف ناحيته، وقد ندب الله سبحانه إلى خفض الجناح للمؤمنين، وإلى القول اللين للكافرين، ويبيّن للرسول ﷺ أنه لو استعمل الفظاظة لانفضوا من حوله، فلما رأى عثمان من خشونة كلام أبي ذرٍّ، وما كان يُورده مما يخشى منه التغير فَعَلَ ما فَعَلَ.

قال: وقد روي عن زيد بن وهب، قال: قلت لأبي ذرٍّ رحمه الله تعالى، وهو بالرُبذة: ما أنزلك هذا المنزل؟ قال: أخبرك، أني كنت بالشام في أيام معاوية، وقد ذكرت هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٢)، فقال معاوية: هذه في أهل الكتاب، فقلت: هي فيهم وفينا، فكتب معاوية إلى عثمان في ذلك، فكتب إليّ أن أقدم عليّ، فقدمت عليه، فانتال الناس إليّ كأنهم لم يعرفوني، فشكوت ذلك إلى عثمان، فخيرني وقال: انزل حيث شئت، فنزلت الرُبذة.

وقد ذكر الشيخ أبو الحسين الخياط قريباً مما تقدم، من أن إخراج أبي ذرٍّ إلى الرُبذة كان باختياره، وروي في ذلك خبراً، قال: وأقل ما في ذلك أن تختلف الأخبار فتطرح، ويُرجع إلى الأمر الأوّل في صحة إمامة عثمان وسلامة أحواله.

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام، فقال:

أما قول أبي عليّ إن الأخبار في سبب خروج أبي ذرٍّ إلى الرُبذة متكافئة، فمعاذ الله أن تتكافى في ذلك! بل المعروف والظاهر أنه نفاء أولاً إلى الشام، ثم استقدمه إلى المدينة لما شكاه منه معاوية، ثم نفاء من المدينة إلى الرُبذة. وقد روى جميع أهل السيرة على اختلاف طرقهم وأسانيدهم أن عثمان لما أعطى مروان بن الحكم ما أعطاه، وأعطى الحارث بن الحكم بن أبي العاص ثلاثمائة ألف درهم، وأعطى زيد بن ثابت مائة ألف درهم، جعل أبو ذرٍّ يقول: بَشِّرِ الْكَافِرِينَ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ، ويتلو قول الله تعالى: ﴿يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٣) فرفع ذلك مروان إلى عثمان، فأرسل إلى أبي ذرٍّ نائلاً

(١) نَفَر: غلا جوفه، وتَنَفَّرَ بها تنغيراً: صاح بها. القاموس، مادة (نفر).

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٤.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٣٤.

مولاه: أن انتہ عمّا يبلغني عنك، فقال: أينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله، وعَيَّب مَنْ ترك أمر الله! فوالله لأن أَرْضِيَّ الله بسَخَطِ عثمان أحبَّ إليَّ وخيرٌ لي من أن أَسْخَطَ الله برضاه. فأغضب عثمان ذلك وأحفظه فتصاير.

وقال يوماً: أيجوز للإمام أن يأخذَ من المال، فإذا أيسر قضي؟ فقال كعبُ الأحبار: لا بأس بذلك، فقال له أبو ذرٍّ: يا بن اليهوديين، اتعلمنا ديننا! فقال عثمان: قد كثر أذاك لي وتولعك بأصحابي، الحق بالشام. فأخرجه إليها، فكان أبو ذرٍّ يُنكر على معاوية أشياء يفعلها، فبعث إليه معاوية ثلاثمائة دينار، فقال أبو ذرٍّ: إن كانت هذه من عطائي الذي حرمتموني عامي هذا قبلتها، وإن كانت صلة فلا حاجة لي فيها، وردّها عليه.

وبنى معاوية الخضرَاءَ بدمشق، فقال أبو ذرٍّ: يا معاوية، إن كانت هذه من مال الله فهي الخيانة، وإن كانت من مالك فهو الإسراف.

وكان أبو ذرٍّ رحمه الله تعالى يقول: والله لقد حدثت أعمالاً ما أعرفها، والله ما هي في كتاب الله ولا سنة نبيه، والله إني لأرى حقاً يُظلم وباطلاً يُخيا، وصادقاً مكذباً، وأثرة بغير ثقی، وصالحاً مستأثراً عليه، فقال حبيب بن مسلمة الفهري لمعاوية: إن أبا ذرٍّ لَمُفْسِدٌ عليكم الشام، فتدارك أهله إن كانت لكم حاجة فيه. فكتب معاوية إلى عثمان فيه، فكتب عثمان إلى معاوية: أما بعد، فاحمل جُنْدباً إليّ على أخلط مَرْكَب وأوجره، فوجه به مع مَنْ سار به الليل والنهار، وحمله على شارف ليس عليها إلا قَتَبٌ^(١)، حتى قديم به المدينة، وقد سقط لحمٌ فَيَخَذِيهِ من الجهد، فلما قدم أبو ذرٍّ المدينة، بعث إليه عثمان أن الحق بأيّ أرضٍ شئت، فقال: بمكة؟ قال: لا، قال: فبيت المقدس؟ قال: لا، قال: فأحد المضربين؟ قال: لا، ولكني مسيرٌك إلى الرُبْدَةِ، فسيره إليها، فلم يزل بها حتى مات.

وفي رواية الواقدي أن أبا ذرٍّ لما دخل على عثمان، قال له: لا أنعم الله بك حيناً يا جُنْدِبُ! فقال أبو ذرٍّ: أنا جُنْدِبٌ وَسَمَانِي رسول الله ﷺ عبد الله، فاخترت اسم رسول الله الذي سَمَانِي به على اسمي، فقال عثمان: أنت الذي تزعم أنا نقول إن يد الله مغلولة، وإن الله فقير ونحن أغنياء! فقال أبو ذرٍّ: لو كنتم لا تزعمون لأنفقتم مال الله على عباده، ولكني أشهدُ لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً جعلوا مال الله دولاً، وعباد الله حَوَلاً، ودين الله دَخَلاً»^(٢)، فقال عثمان لِمَنْ حَضَرَهُ: أسمعتموها من نبي الله؟ فقالوا: ما سمعناه، فقال عثمان: ويلك يا أبا ذرٍّ! أتكذب على رسول الله! فقال أبو ذرٍّ لِمَنْ

(١) القتب: الجاف البعير. اللسان، مادة (قتب).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٨٤٧٩)، والطبراني في «المعجم الصغير» (١١٥٠)، وأبو يعلى في «مسنده» (٦٥٢٣).

حضر: أما تظنون أنني صدقتُ! قالوا: لا والله ما ندرى، فقال عثمان: ادعوا لي علياً، فدعى، فلما جاء قال عثمان لأبي ذرٍّ: اقضض عليه حديثك في بني أبي العاص، فحدثه، فقال عثمان لعليٍّ: هل سمعتَ هذا من رسول الله ﷺ؟ فقال عليٌّ عليه السلام: لا، وقد صدق أبو ذرٍّ، قال عثمان: بَمَ عرفتَ صدقه؟ قال: لأنني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما أظلتُ الخضرَاءُ ولا أقلتُ الخبراءُ من ذي لهجةٍ أصدق من أبي ذرٍّ»^(١)، فقال جميعُ مَنْ حَضَرَ من أصحاب النبي ﷺ: لقد صدق أبو ذرٍّ، فقال أبو ذرٍّ: أحذِّثكم أنني سمعتُ هذا من رسول الله ﷺ ثم تهمونني! ما كنت أظنُّ أنني أعيشُ حتى أسمعَ هذا من أصحاب محمد ﷺ!

وروى الواقدي في خبر آخر بإسناده عن صُهبان مولى الأسلميين، قال: رأيتُ أبا ذرٍّ يوم دُخِلَ به على عثمان، فقال له: أنت الذي فعلتَ وفعلتُ! فقال له أبو ذرٍّ: نصحتُكَ فاستغششتني، ونصحتُ صاحبك فاستغشني، فقال عثمان: كذبت، ولكنك تريد الفتنة وتحبها، قد أنغلتَ الشامَ علينا، فقال له أبو ذرٍّ: اتبعْ سُنَّةَ صَاحِبَيْكَ، لا يكن لأحدٍ عليك كلام، قال عثمان: مالك ذلك لا أم لك! قال أبو ذرٍّ: والله ما وجدتُ لي عذراً إلا الأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر، فغضب عثمان وقال: أشيروا عليَّ في هذا الشيخ الكذاب، إما أن أضربه أو أحبسهُ أو أقتله، فإنه قد فرَّق جماعة المسلمين، أو أنفيه من أرض الإسلام. فتكلم عليٌّ عليه السلام - وكان حاضراً - وقال: أشيرُ عليك بما قاله مؤمنُ آل فرعون: ﴿وَإِنْ يَكَذِّبُنَا فَعَلَيْنَا كَذِبَهُمْ وَلَنْ يَكُنْ صَادِقًا يُعِيبُكُمْ بَعْضُ الَّذِينَ يَوْدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾^(٢)، قال: فأجابه عثمان بجوابٍ غليظ، لا أحبُّ ذكره، وأجابه عليه السلام بمثله، قال: ثم إن عثمانَ حَظَرَ على الناس أن يقاعدوا أبا ذرٍّ، أو يكلموه، فمكثَ كذلك أياماً، ثم أمرَ أن يؤتى به، فلما أتِيَ به وقف بين يديه، قال: ويحك يا عثمان! أما رأيتَ رسول الله ﷺ ورأيتَ أبا بكر وعمر! هل رأيتَ هذا هديهم! إنك لتبطلُ بي بَطْشَ جبار، فقال: أخرجَ هَنا من بلادنا، فقال أبو ذرٍّ: ما أبغض إليَّ جوارك! فإلى أين أخرج؟ قال: حيث شئتَ، قال: فأخرج إلى الشام أرضَ الجهاد؟ قال: حيث شئتَ، قال أبو ذرٍّ: فهو إذن التعرُّب بعد الهجرة، أأخرجُ إلى نجد؟ فقال عثمان: الشرف الأبعدُ أقصَى فأقصى، أمضِ على وجهك هذا ولا تعدونَ الرُبنة.

فخرج إليها.

وروى الواقدي عن مالك بن أبي الرجال، عن موسى بن ميسرة أنَّ أبا الأسود الدؤليَّ،

(١) أخرجه الترمذي في المناقب، باب: مناقب أبي ذرٍّ (٣٨٠١)، وابن ماجه في المقدمة، باب: فضل أبي ذرٍّ (١٥٦) وأحمد في مسند المكثرين من الصحابة، باب: مسند عبد الله بن عمرو بن العاص (٦٤٨٣).

(٢) سورة خافر، الآية: ٢٨.

قال: كنت أحب لقاء أبي ذر لأسأله عن سبب خروجه، فنزلت الربيعة، فقلت له: ألا تخبرني؟ أخرجت من المدينة طائفاً أم أخرجت مكرهاً؟ فقال: كنت في ثغر من ثغور المسلمين، أغني عنهم، فأخرجت إلى مدينة الرسول ﷺ. فقلت: أصحابي ودار هجرتي، فأخرجت منها إلى ما ترى، ثم قال بينا أنا ذات ليلة نائم في المسجد إذ مرَّ بي رسول الله ﷺ، فضربني برجله وقال: «لا أراك نائماً في المسجد»، فقلت: بأبي أنت وأمي! غلبتني عيني، فتمت فيه، فقال: «كيف تصنع إذا أخرجوك منه؟» فقلت: إذن الحق بالشام، فإنها أرض مقدسة، وأرض بقية الإسلام، وأرض الجهاد، فقال: «فكيف تصنع إذا أخرجت منها؟» فقلت: أرجع إلى المسجد، قال: «فكيف تصنع إذا أخرجوك منه؟» قلت: آخذ سيفي فأضرب به، فقال ﷺ: «ألا أدلك على خير من ذلك، أنسق معهم حيث ساقوك، وتسمع وتطيع»^(١)، فسمعت وأطعت وأنا أسمع وأطيع، والله ليلقيَن الله عثمان وهو آثم في جَنبي.

وكان يقول بالربيعة: ما ترك الحق لي صديقاً. وكان يقول: فيها رذني عثمان بعد الهجرة أعرابياً.

والأخبار في هذا الباب أكثر من أن تحصر وأوسع من أن نذكرها. وما يحيل نفسه على ادعاء أن أبا ذر خرج مختاراً إلى الربيعة إلا مكابر. ولنا نكر أن يكون ما أورده صاحب كتاب «المغني» من أنه خرج مختاراً قد روي، إلا أنه من الشاذ النادر. وبإزاء هذه الرواية القذة كل الروايات التي تتضمن خلافها، ومن تصفح الأخبار علم أنها غير متكافئة على ما ظن صاحب المغني، وكيف يجوز خروجه عن اختياره وإنما أشخص من الشام على الوجه الذي أشخص عليه: من خشونة المركب وقبح السير به للموجدة عليه. ثم لما قدم مُنِع الناس من كلامه، وأغلظ له في القول، وكل هذا لا يشبه أن يكون خروجه إلى الربيعة باختياره. وكيف يظن عاقل أن أبا ذر يختار الربيعة منزلاً مع جذبها وقحطها ويُعدها عن الخيرات، ولم تكن بمنزل مثله!

فأما قوله: إنه أشفق عليه من أن يناله بعض أهل المدينة بمكروه من حيث كان يُغلظ لهم القول، فليس بشيء، لأنه لم يكن في أهل المدينة إلا من كان راضياً بقوله، عاتياً بمثل عثبه، إلا أنهم كانوا بين مجاهر بما في نفسه، ومخفٍ ما عنده، وما في أهل المدينة إلا من رآى لأبي ذر مما حدث عليه، ومن استفظعه، ومن رجع إلى كتب السيرة عرف ما ذكرناه.

فأما قوله: إن عمر أخرج من المدينة نصر بن حجاج، فيا بُغْد ما بين الأمرين! وما كنا نظن أن أحداً يسوي بين أبي ذر وهو وَجْه الصحابة وعينهم، ومن أجمع المسلمون على توقيره.

(١) أخرج نحوه أحمد في مسند القبائل، باب: من حديث أسماء بن يزيد (٢٧٠٤١)، والهيثم في «مجمع الزوائد» (٢٢٣/٥).

وتعظيمه، وأن رسول الله ﷺ مدحه من صدق اللهجة بما لم يمدح به أحداً، وبين نصر بن الحجاج الحدث الذي كان خاف عمر من افتتان النساء بشبابه، ولا حظ له في فضل ولا دين! على أن عمر قد دُم بإخراجه نصر بن الحجاج من غير ذنب كان منه، فإذا كان من أخرج نصر بن حجاج مذموماً، فكيف من أخرج أبا ذرّاً

فأما قوله: إن الله تعالى والرسول قد ندبا إلى خفض الجناح، ولين القول للمؤمن والكافر، فهو كما قال، إلا أن هذا أدب كان ينبغي أن يتأدب به عثمان في أبي ذر، ولا يقابله بالتكذيب، وقد قطع رسول الله صلى الله عليه وآله على صدقه، ولا يسمعه مكروء الكلام، فإنما نصح له، وأهدى إليه عيوبه، وعاتبه على ما لو نزع عنه لكان خيراً له في الدنيا والآخرة.

الطعن العاشر: تعطيله الحد الواجب على عبيد الله بن عمر بن الخطاب، فإنه قتل الهرمزان مسلماً فلم يقدّه به، وقد كان أمير المؤمنين عليه السلام يطلبه لذلك.

قال قاضي القضاة في الجواب عن ذلك: إن شيخنا أبا علي رحمه الله تعالى قال: إنه لم يكن للهرمزان ولي يطلب بدمه، والإمام ولي من لا ولي له، وللولي أن يعفو كما له أن يقتل، وقد روي أنه سأل المسلمين أن يعفوا عنه، فأجابوا عنه إلى ذلك.

قال: وإنما أراد عثمان بالعفو عنه ما يعود إلى عز الدين، لأنه خاف أن يبلغ العدو قتله، فقال: قتلوا إمامهم وقتلوا ولده ولا يعرفون الحال في ذلك فيكون فيه شماتة، وقد قال الشيخ أبو الحسين الخياط: إن عامة المهاجرين أجمعوا على أنه لا يُقاد بالهرمزان، وقالوا لعثمان: هذا دم سفك في غير ولايتك، وليس له ولي يطلب به، وأمره إلى الإمام، فأقبل منه الدية، فذلك صلاح للمسلمين.

قال: ولم يثبت أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يطلبه ليقته بالهرمزان، لأنه لا يجوز قتل من عفا عنه ولي المقتول، وإنما كان يطلبه ليضع من قدره، ويصغر من شأنه.

قال: ويجوز أن يكون ما روي عن علي عليه السلام من أنه قال: لو كنت بديل عثمان لقتلته، يعني أنه كان يرى ذلك أقوى في الاجتهاد، وأقرب إلى التشدد في معاملة الجاني.

وقد استدل السيد محمد بن الحسين

اعتراض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام، قال:

أما قوله: لم يكن للهرمزان ولي يطلب بدمه، فالإمام يكون وليه، وله أن يعفو عنه، كما له أن يقتصر، فليس بمعتد، لأن الهرمزان رجل من أهل فارس، ولم يكن له ولي حاضر يطالب بدمه، وقد كان الواجب أن يبذل الإنصاف لأوليائه ويؤمنوا متى حضروا، حتى إنه لو كان له

ولّي يريد المطالبة حضر وطالب. ثم لو لم يكن له ولي لم يكن عثمان وليّ دمه، لأنه قتل في أيام عمر، فصار عمر وليّ دمه، وقد أوصى عمر علي ما جاءت به الروايات الظاهرة بقتل ابنه عبيد الله إن لم تقم البيّنة العادلة على الهُرمزان وجُفينة، أنهما أمرا أبا لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة بقتله، وكانت وصيته بذلك إلى أهل الشورى، فقال: أيكم وليّ هذا الأمر فليفعل كذا وكذا مما ذكرناه، فلما مات عمر، طلب المسلمون إلى عثمان إمضاء الوصية في عبيد الله بن عمر، فدافع عن ذلك وعلمهم، ولو كان هو وليّ الدم على ما ذكروا لم يكن له أن يعفو وأن يُبطل حدًا من حدود الله تعالى، وأي شماعة للعدو في إقامة حدّ من حدود الله تعالى وإنما الشماعة كلّها من أهداء الإسلام في تعطيل الحدود. وأي خرج في الجمع بين قتل الإمام وابنه، حتى يقال: كره أن يتشر الخبر بأن الإمام وابنه قُتلا، وإنما قُتل أحدهما ظلماً، والآخر عدلاً، أو أحدهما بغير أمر الله، والآخر بأمره سبحانه!

وقد روى زياد بن عبد الله البكائي عن محمد بن إسحاق عن أبيان بن صالح أن أمير المؤمنين عليه السلام أتى عثمان بعدما استخلف، فكلّمه في عبيد الله ولم يكلّمه أحد غيره، فقال: اقتل هذا الفاسق الخبيث الذي قتل أميراً مسلماً، فقال عثمان: قتلوا أباه بالأمس، وأقتله اليوم وإنما هو رجل من أهل الأرض، فلما أبى عليه مَرَّ عبيد الله على علي عليه السلام، فقال له: إيو يا فساق! أما والله لئن ظفرت بك يوماً من الدهر لأضربن عنقك، فلذلك خرج مع معاوية عليه السلام^(١). وروى القناد، عن الحسن بن عيسى بن زيد، عن أبيه، أن المسلمين لما قال عثمان: إنّي قد عفوت عن عبيد الله بن عمر، قالوا: ليس لك أن تعفو عنه، قال: بلى إنه ليس لجفينة والهَرمزان قرابة من أهل الإسلام، وأنا وليّ أمر المسلمين، وأنا أولى بهما، وقد عفوت، فقال علي عليه السلام: إنه ليس كما تقول، إنما أنت في أمرهما بمنزلة أقصى المسلمين، إنه قتلها في إمرة غيرك، وقد حكم الوالي الذي قُتلا في إمارته بقتله، ولو كان قتلها في إمارتك لم يكن لك العفو عنه، فاتق الله، فإن الله سائلك عن هذا! فلما رأى عثمان أن المسلمين قد أبوا إلا قتل عبيد الله، أمره فارتحل إلى الكوفة، وأقطعه بها داراً وأرضاً، وهي التي يقال لها: كُوَيْفَة ابن عمر، فعظم ذلك عند المسلمين وأكبروه، وكثر كلامهم فيه.

وروي عن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: أمسى عثمان يومَ وليّ حتى نَقَموا عليه في أمر عبيد الله بن عمر، حيث لم يقتله بالهَرمزان^(٢). فأما قوله: إن أمير المؤمنين عليه السلام لم يطلبه ليقتله، بل ليضع من قدره، فهو بخلاف ما صرح به عليه السلام من أنه إن تمكن ليضربن عنقه.

(١) انظر مجمع النورين للمرندي: ٢٣٥، والغدير للأميني: ١٣٢/٨.

(٢) رواه الدينوري في الأخبار الطوال: ١٦١.

ويعد: فإن وليّ الدم إذا عفا عنه على ما ادّعوا لم يكن لأحد أن يستخف به، ولا يضع من قدره كما ليس له أن يقتله.

وأما قوله: إن أمير المؤمنين عليه السلام لا يجوز أن يتوقّعه مع عفو الإمام عنه، فإنما يكون صحيحاً لو كان ذلك العفو مؤثراً وقد بينا أنه غير مؤثر.

وأما قوله: يجوز أن يكون عليه السلام رأى أن قتله أقوى في الاجتهاد، وأقرب إلى التشدد في دين الله، فلا شك أنه كذلك، وهذا بناء منه على أن كل مجتهد مصيب، وقد بينا أن الأمر بخلاف ذلك وإذا كان اجتهاد أمير المؤمنين عليه السلام يقتضي قتله، فهو الذي لا يسوغ خلافه.

الطعن الحادي عشر: وهو إجمالي، قالوا: وجدنا أحوال الصحابة دالة على تصديقهم المطاعين فيه، وبراءتهم منه، والدليل على ذلك أنهم تركوه بعد قتله ثلاثة أيام لم يدفنوه، ولا أنكروا على من أجلب عليه من أهل الأمصار، بل أسلموه ولم يدفعوا عنه، ولكنهم أهانوا عليه، ولم يمنعوا من حضره ولا من منع الماء عنه، ولا من قتله، مع تمكنهم من خلاف ذلك، وهذا ما أقوى الدلائل على ما قلناه. ولو لم يدل على أمره عندهم إلا ما روي عن علي عليه السلام أنه قال: الله قتله وأنه كان في أصحابه عليه السلام من يصرّح بأنه قتل عثمان، ومع ذلك لا يقيدهم بل ولا ينكر عليهم، وكان أهل الشام يصرّحون بأن مع أمير المؤمنين قتلة عثمان، ويجعلون ذلك من أوكد الشبه، ولا ينكر ذلك عليهم، مع أننا نعلم أن أمير المؤمنين عليه السلام لو أراد أن يتعاضد هو وأصحابه على المنع لما وقع في حقه ما وقع، فصار كفّه وكف غيره عن ذلك من أدلّ الدلائل على أنهم صدّقوا عليه ما نسب إليه من الأحداث، وأنهم لم يقبلوا منه ما جعله علواً. وأجاب قاضي القضاة عن هذا، فقال:

أما تركه بعد القتل ثلاثة أيام لم يدفن عليه فليس بثابت، ولو صحّ لكان طعناً على من لزمه القيام به، وقد قال شيخنا أبو علي رحمه الله تعالى: إنه لا يمتنع أن يشتغلوا بإبرام البيعة لأمر المؤمنين عليه السلام خوفاً على الإسلام من الفتنة، فيؤخروا دفنه.

قال: ويعيد مع حضور قريش وقبائل العرب وسائر بني أمية ومواليهم أن يترك عثمان ولا يدفن هذه المدة، ويعيد أن يكون أمير المؤمنين عليه السلام لا يتقدم بدفنه، ولو مات في جواره يهودي أو نصراني ولم يكن له من يواريه ما تركه أمير المؤمنين ألا يدفن، فكيف يجوز مثل ذلك في عثمان، وقد روي أنه دفن في تلك الليلة، وهذا هو الأولى.

فأما التعلّق بأن الصحابة لم تنكر على القوم، ولا دفعت عنه، فقد سبق القول في ذلك، والصحيح عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه تبرأ من قتل عثمان، ولعن قتله في البر والبحر والسهل

، وإنما كان يجري من جيشه هذا القول منه على جهة المجاز، لأننا نعلم أن جميع من
ول: نحن قتلناه لم يقتله، لأن في الخبر أن العدد الكثير كانوا يصرحون بذلك، والذين
عليه وقتلوه اثنان أو ثلاثة، وإنما كانوا يقصدون بهذا القول، أي أحسبوا أننا قتلناه فما
وذلك أن الإمام هو الذي يقول بأمر القود، وليس للخارج عليه أن يطالب بذلك، ولم
أمير المؤمنين عليه السلام أن يقتل قتله لو عرفهم بيته أو إقرار، وميزهم من غيرهم إلا عند
ولي الدم، والذين كانوا أولياء الدم لم يكونوا يطالبونه، ولا كانت صفتهم صفة من
، لأنهم كانوا كلهم أو بعضهم يدعون أن علياً عليه السلام ليس بإمام، ولا يحل لولي الدم مع
اعتقاد أن يطالب القود، فلذلك لم يقتلهم عليه السلام، هذا لو صح أنه كان يميزهم، فكيف
غير صحيح.

ما ما روي عنه من قوله عليه السلام: «قتله الله وأنا معه» فإن صح فمعناه مستقيم، يريد أن الله
سيميتني وسائر العباد.

قال سائلاً نفسه: كيف يقول ذلك وعثمان مات مقتولاً من جهة المكلفين! وأجاب بأنه
، فالإماتة من قبل الله تعالى. ويجوز أن يكون ما ناله من الجراح لا يوجب انتفاء الحياة
له، فإذا مات صحت الإمامة على طريق الحقيقة.

رض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام فقال:

تضعيفه أن يكون عثمان ترك بعد القتل ثلاثة أيام لم يُدفن، فليس بحجة، لأن ذلك قد
ماعة الرواة، وليس يخالف في مثله أحد يعرف بالرواية، وقد ذكر ذلك الواقدي وغيره،
ن أهل المدينة منعوا الصلاة عليه، حتى حُبل بين المغرب والعَتَمَة، ولم يشهد جنازته
ان وثلاثة من مواليه، ولما أحسوا بذلك رمَوْه بالحجارة وذكروه بأسوأ الذكر، ولم يقع
من دفنه إلا بعد أن أنكر أمير المؤمنين عليه السلام المنع من دفنه، وأمر أهله بتولي ذلك منه.

أقوله: إن ذلك إن صح كان طعناً على من لزمه القيام بأمره، فليس الأمر على ما ظنه،
طعناً على عثمان من حيث لا يجوز أن يمنع أهل المدينة - وفيها وجوه الصحابة - من
صلاة عليه إلا لاعتقاد قبيح، أو لأن أكثرهم وجُمهورهم يعتقد ذلك، وهذا طعن لا
، واستبعاد صاحب «المغني» لذلك، مع ظهور الرواية به لا يلتفت إليه، فأما أمير
ن عليه السلام واستبعاد صاحب «المغني» منه ألا يتقدم بدفنه، فقد بينا أنه تقدم بذلك بعد
ومراوضة. وأعجب من كل شيء قول صاحب «المغني»: إنهم أخرجوا دفنه تشاغلاً
أمير المؤمنين عليه السلام، وأي شغل في البيعة لأمير المؤمنين يمنع من دفنه، والدفن فرض

على الكفاية، لو قام به البعض وتشاغل الباقون بالبيعة لجازا وليس الدفن ولا البيعة أيضاً مفتقرة إلى تشاغل جميع أهل المدينة بها.

فأما قوله: إنه قد روي أن عثمان دفن تلك الليلة، فما تُعرف هذه الرواية، وقد كان يجب أن يُسندها ويُعزّوها إلى راويها، أو الكتاب الذي أخذها منه، فالذي ظهر في الرواية هو ما ذكرناه.

فأما إحالته على ما تقدّم في معنى الإنكار من الصحابة على القوم المنجليين على عثمان فقد سبق القول ذلك.

فأما روايته عن أمير المؤمنين عليه السلام تبرؤه من قتل عثمان، ولعنه قتله في البر والبحر، والسهل والجبل، فلا شك في أنه عليه السلام كان بريئاً من قتله، وقد روى عنه عليه السلام أنه قال: والله ما قتل عثمان، ولا مالات في قتله، والممالة هي المعاونة والموازة، وقد صدق عليه السلام في أنه ما قتل ولا أزر على القتل.

فأما لعنه قتله فضعيف في الرواية، وإن كان قد روي، فأظهر منه ما رواه الواقدي، عن الحكم بن الصلت، عن محمد بن عمار بن ياسر، عن أبيه، قال: رأيت علياً عليه السلام على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله حين قتل، وهو يقول: ما أحببت قتله ولا كرهته، ولا أمرت به، ولا نهيت عنه. وقد روى محمد بن سعد، عن عَفَّان بن جرير بن بشير، عن أبي جلد، أنه سمع علياً عليه السلام يقول وهو يخطب، فذكر عثمان، وقال: والله الذي لا إله إلا هو، ما قتلته ولا مالات على قتله ولا ساءني.

وروى ابن بشير، عن عُبَيْدة السلماني، قال: سمعت علياً عليه السلام يقول: مَنْ كان سائلي عن دم عثمان، فإن الله قتله وأنا معه. وقد روي هذا اللفظ من طرق كثيرة. وقد روى شعبة عن أبي حمزة الضبي، قال: قلت لابن عباس: إن أبي أخبرني أنه سمع علياً، يقول: ألا مَنْ كان سائلي عن دم عثمان، فإن الله قتله وأنا معه - فقال: صدق أبوك، هل تدري ما معنى قوله! إنما عني: الله قتله وأنا مع الله.

قال: فإن قيل: كيف يصح الجمع بين معاني هذه الأخبار؟

قلنا: لا تنافي بينها؛ لأنه عليه السلام تبرأ من مباشرة قتله والموازة عليه، ثم قال: ما أمرت بذلك ولا نهيت عنه، يريد أن قاتليه لم يرجعوا إليّ، ولم يكن مني قول في ذلك بأمر ولا نهى. فأما قوله: «الله قتله وأنا معه»، فيجوز أن يكون المراد به: الله حكم بقتله وأوجه وأنا كذلك، لأن من المعلوم أن الله تعالى لم يقتله على الحقيقة، فإضافة القتل إليه لا تكون إلا بمعنى الحكم والرضا، وليس يمتنع أن يكون مما حكم الله تعالى به ما لم يتولّه بنفسه، ولا أزر عليه، ولا شايع فيه.

فإن قال قائل: هذا ينافي ما روي عنه من قوله: «ما أحببت قتله، ولا كرهته»، وكيف يكون من حكم الله وحكمه أن يقتل وهو لا يحب قتله!

قلنا: يجوز أن يريد بقوله: «ما أحببت قتله ولا كرهته» أن ذلك لم يكن مني على سبيل التفصيل، ولا خطر لي ببال وإن كان على سبيل الجملة يجب قتل من غلب المسلمين على أمورهم، وطالبوه بأن يعتزل؛ لأنه مستول عليهم بغير حق فامتنع من ذلك، ويكون فائدة هذا الكلام التبرؤ من مباشرة قتله، والأمر به على سبيل التفصيل أو النهي عنه. ويجوز أن يريد أنني ما أحببت قتله إن كانوا تعمّدوا القتل، ولم يقع على سبيل الممانعة وهو غير مقصود. ويريد بقوله: «ما كرهته» أنني لم أكرهه على كل حال، ومن كل وجه.

فأما لعنه قتلته فقد بينا أنه ليس بظاهر ظهور ما ذكرناه، وإن صحّ فهو مشروط بوقوع القتل على الوجه بشير الشجيب، وسودان بن حمران المرادي، وما منهما من كان غرضه صحيحاً في القتل، ولا له أن يقدم عليه، فهو ملعون به. فأما محمد بن أبي بكر فما تولى قتله، وإنما روي أنه لما جثا بين يديه قابضاً على لحيته قال له: يا بن أخي، دغّ لحيّتي، فإن أباك لو كان حياً لم تمعد مني هذا المقعد، فقال محمد: إن أبي لو كان حياً ثم يراك تفعل ما تفعل لأنكره عليك، ثم وجاء بجماعة قدّاح كانت في يده فخرّت في جلده ولم تقطع، وبأدبه من ذكرناه في قتله بما نال فيه قتله.

فأما تأويله قول أمير المؤمنين عليه السلام: «قتله الله وأنا معه»، على أن المراد به، والله أماته سيّمتني فبعد من الصواب، لأن لفظة «أنا» لا تكون كناية عن المفعول، وإنما تكون كناية عن الفاعل، ولو أراد ما ذكره لكان يقول: «ولياي معه»، وليس له أن يقول: «إننا نجعل قوله: «وأنا معه» مبتدأ محذوف الخبر، ويكون تقدير الكلام: «وأنا معه مقتول»، وذلك لأن هذا ترك لظاهر وإحالة على ما ليس فيه، والكلام إذا أمكن حملُه على معنى مستقلّ ظاهره به من غير تقدير وحذف كان أولى مما يتعلق بمحذوف، على أنهم إذا جعلوه مبتدأ وقدّروا خبراً لم يكونوا أن يقدّروا ما يوافق مذهبهم بأولى من تقدير خلافه، ويجعل بدلاً من لفظة «المقتول» المحذوفة لفظة «مُعِين» أو «ظهير». وإذا تكافأ القولان في التقدير وتعارضاً سقطا، ووجب الرجوع إلى ظاهر الخبر، على أن عثمان مضي مقتولاً، فكيف يقال: إن الله تعالى أماته، والقتل كافٍ في انتفاء الحياة، وليس يحتاج معه إلى نافي للحياة يسمى موتاً.

وقول صاحب «المغني»: يجوز أن يكون ما ناله من الجراح لا يوجب انتفاء الحياة، ليس شيء، لأن المروي أنه ضرب على رأسه بعمود عظيم من حديد، وأن أحد قتلته قال: جلست على صدره فوجأته تسع طعنات، علمت أنه مات في ثلاث، ووجأته الست الآخر لما كان في نسي عليه من الحق.

وبعد: فإذا كان جائزاً، فمن أين علمه أمير المؤمنين عليه السلام حتى يقول: إن الله أماته؟ وإن الحياة لم تنتف بما فعله القاتلون، وإنما انتفت بشيء زاد على فعلهم من قبل الله تعالى مما لا يعلمه على سبيل التفصيل إلا علام الغيوب سبحانه.

والجواب من هذه المطاعن على وجهين، إجمالاً وتفصيلاً:

أما الوجه الإجمالي، فهو أننا لا ننكر أن عثمان أحدنا أنكرها كثير من المسلمين، ولكننا ندعي مع ذلك أنها لم تبلغ درجة الفسق، ولا أحبطت ثوابه وأنها من الصفات التي وقعت مكفرة، وذلك لأننا قد علمنا أنه مغفور له، وأنه من أهل الجنة لثلاثة أوجه:

أحدها: أنه من أهل بدر، وقد قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَلَمَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اأْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غُفِرَتْ لَكُمْ»^(١)، ولا يقال: إن عثمان لم يشهد بدرًا، لأننا نقول: صدقتم، إنه لم يشهد بها، ولكنه تخلف على رقية بنت رسول الله ﷺ بالمدينة لمرضها، وضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجره باتفاق سائر الناس.

وثانيها: أنه من أهل بيعة الرضوان الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾^(٢). ولا يقال: إنه لم يشهد البيعة تحت الشجرة، لأننا نقول: صدقتم، إنه لم يشهد بها، ولكنه كان رسول الله ﷺ أرسله إلى أهل مكة، ولأجله كانت بيعة الرضوان، حيث أُرْجِفَ بأن قريشاً قتلت عثمان، فقال رسول الله ﷺ: «إِنْ كَانُوا قَتَلُوهُ، لَأُضْرِمَنَّاهُمْ نَارًا»^(٣)، ثم جلس تحت الشجرة، وبايع الناس على الموت، ثم قال: «إِنْ كَانَ عِثْمَانُ حَيًّا فَأَنَا أَبَايَعُ عَنْهُ»^(٤)، فصفع بشماله على يمينه، وقال: «شِمَالِي خَيْرٌ مِنْ يَمِينِي عِثْمَانُ» روى ذلك جميع أرباب أهل السيرة متفقاً عليه.

وثالثها: أنه من جملة العشرة الذين تظاهرت الأخبار بأنهم من أهل الجنة.

وإذا كانت الوجوه الثلاثة دالة على أنه مغفور له، وأن الله تعالى قد رضي عنه، وهو من أهل الجنة، بطل أن يكون فاسقاً، لأن الفاسق يخرج عندنا من الإيمان، ويحبط ثوابه، ويحكم له بالنار ولا يُغفر له، ولا يُرضى عنه، ولا يرى الجنة ولا يدخلها، فاقترضت هذه الوجوه

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب: الجاسوس (٣٠٠٧)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب: من فضائل أهل بدر (٢٤٩٤)، والترمذي في تفسير القرآن، باب: سورة الممتحنة (٣٣٠٥) وأبو داود في الجهاد باب: حكم الجاسوس إذا كان مسلماً (٢٦٥٠).

(٢) سورة الفتح، الآية: ١٨.

(٣) لم أجده.

(٤) لم أجده.

الصحيحة الثابتة أن يُحكّم بأن كلّ ما وقع منه فهو من باب الصّغائر المكفّرة، توفيقاً بين هذه الوجوه، وبين روايات الأحداث المذكورة.

وأما الوجه التفصيلي فهو مذكور في كتب أصحابنا المطوّلة في الإمامة، فليُطلب من مظانّه، فإنهم قد استقصّوا في الجواب عن هذه المطاعن استقصاء لا مزيد عليه.

أخبار جرير بن عبد الله البجلي وبيعته لعلي عليه السلام

فأما خبر جرير بن عبد الله البجلي، وبعث أمير المؤمنين عليه السلام إياه إلى معاوية، فنحن نذكره نقلاً من «كتاب صفين» لنصر بن مزاحم بن بشار المنقري، ونذكر حال أمير المؤمنين عليه السلام منذ قديم الكوفة بعد وقعة الجمل، ومراسلته معاوية وغيره، ومراسلة معاوية له ولغيره، وما كان من ذلك في مبدأ حالتهما إلى أن سار علي عليه السلام إلى صفين.

قال نصر: حدّثني محمد بن عبيد الله عن الجرجاني، قال: لما قديم علي عليه السلام الكوفة بعد انقضاء أمر الجمل، كاتب العتال، فكتب إلى جرير بن عبد الله البجلي مع زحر بن قيس الجعفي - وكان جرير عاملاً لعثمان على ثغر همدان -:

أما بعد، ف ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ﴾ (١). ولاني أخبرك عن نبيٍّ من سرنا إليه من جموع طلحة والزبير، عند نكثهم بيعتي، وما صنعوا بعاملي عثمان بن حنيف. إني نهضت من المدينة بالمهاجرين والأنصار، حتى إذا كنت بالعذيب بعثت إلى أهل الكوفة الحسن بن علي، وعبد الله بن عباس، وعمار بن ياسر، وقيس بن عباد، فاستنفرتهم فأجابوا، فسيرت بهم حتى نزلت بظهر البصرة، فأعذرت في الدعاء وأقلّلت العثرة، وناشدتهم عهد بيعتهم، فأبوا إلا قتالي، فاستعنت الله عليهم، فقتل من قتل، وولّوا مدبرين إلى مصرهم، وسألوني ما كنت دعوتهم إليه قبل اللقاء، فقبلت العافية، ورفعتُ السيف، واستعملت عليهم عبد الله بن العباس، وسرّثُ إلى الكوفة، وقد بعثت إليك زحر بن قيس، فأسأله عَمَّا بدا لك. والسلام.

قال: فلما قرأ جرير الكتاب، قام فقال: أيها الناس، هذا كتاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو المأمون على الدين والدنيا، وقد كان من أمره وأمر عدوّه ما نحمد الله عليه، وقد بايعه الناس الأولون من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، ولو جعل هذا الأمر شوري بين المسلمين كان أحقّهم بها. ألا وإنّ البقاء في الجماعة، والفناء في الفرقة، وإنّ علياً حاملكم على الحق ما استقمتم، فإن ملتم أقام ميّلكم. فقال الناس: سمعاً وطاعة، رضيّا رضيّا.

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.

فكتب جرير إلى علي عليه السلام جواب كتابه بالطاعة.

قال نصر: كان مع علي رجل من طيء، ابن أخت لجرير، فحمل زحر بن قيس شعراً له إلى خاله جرير، وهو:

جرير بن عبد الله لا تردّد الهدى
فإن علياً خيراً من وطىء الحصى
ودع عنك قول التاكثين فإنما
وبايغ إذا بايعته بنصيحة
فإنك إن تطلب بها الدين تُعطه
وإن قلت عثمان بن عفان حقه
فحق علي إذ وليك كحقه
وإن قلت لا أرضى علياً إمامنا
أبى الله إلا أنه خير دفره

وبايغ علياً إنني لك ناصح
سوى أحمد، والموت غاد ورائح
أولاك - أبا عمرو - كلاب نوابح
ولا يك منها في ضميرك قاذح
وإن تطلب الدنيا فإنك رابح
علي عظيم والشكور مناصح
وشكر ما أوليت في الناس صالح
فدع عنك بحرأ ضل فيه السوابح
وأفضل من ضمت عليه الأباطح

قال نصر: ثم إن جريراً قام في أهل همدان خطيباً، فقال: الحمد لله الذي اختار لنفسه الحمد، وتولاه دون خلقه، لا شريك له في الحمد، ولا نظير له في المجد، ولا إله إلا الله وخذّه، الدائم القائم، إله السماء والأرض، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالنور الواضح، والحق الناطق، داعياً إلى الخير، وقائداً إلى الهدى، ثم قال: أيها الناس، إن علياً قد كتب إليكم كتاباً لا يقال بعده إلا ربيع من القول، ولكن لا بد من ردّ الكلام. إن الناس بايعوا علياً بالمدينة عن غير محابة له ببيعتهم، لعلمه بكتاب الله وسنن الحق، وإن طلحة والزبير نقضا بيعته على غير محابة حدثت، وألبا عليه الناس، ثم لم يرضيا حتى نصبا له الحرب، وأخرجوا أم المؤمنين، فلقبهما فاعذر في الدعاء، وأحسن في البقية، وحمل الناس على ما يعرفون، فهذا عيان ما غاب عنكم، وإن سألتكم الزيادة زدناكم، ولا قوة إلا بالله، ثم قال:

أنا كتاب علي فلم
ولم نغص ما فيه لما أتى
ونحن ولاه على قمرنا
نساقبهم الموت عند اللقاء
فصلى الإله على أحمد

نرد الكتاب بأرض العجم
ولما نذم ولما نلّم
نضيم العزيز ونخمي الذم
بكأس المنايا ونشفي القرم^(١)
رسول المليك تمام النعم

(١) القرم: شدة شهوة اللحم. اللسان، مادة (قرم).

رسول الملّيك ومن بعده
عليّاً عنيت وصيّ النبي
له الفضل والسبق والمكرّمات
قال نصر: فسرّ الناس بخطبة جرير وشعره.

وقال ابن الأزور القسريّ في جرير يمدحه بذلك:

لَعَمْرُ أَبِيكَ وَالْأَنْبَاءُ تُنَمِّي
وَقَالَ مَقَالَةٌ جَدَعَتْ رِجَالاً
بَدَا بِكَ قَبْلَ أَمْتِهِ عَلِيّ
أَتَاكَ بِأَمْرِهِ زَخْرِبْنُ قُنَيْسٍ
فَكُنْتَ لِمَا أَتَاكَ بِهِ سَمِيْعاً
فَأَنْتَ بِمَا سَعَدْتَ بِهِ وَلِيّ
وَأَحْرَزْتَ الثُّرُوبَ وَرُبَّ حَادٍ
لَقَدْ جَلَى بِخَطْبَتِهِ جَرِيرٌ
مِنَ الْحَبِيبِينَ خَطْبَتُهُمْ كَبِيرٌ
وَمُحْكُكَ إِنْ رَدَدْتَ الْحَقَّ رِيْرٌ^(١)
وَزَخْرِبُ بَالْتِي خَدَعْتُ خَبِيرٌ
وَكَدْتُ إِلَيْهِ مِنْ قَرْحٍ تَطِيرُ
وَأَنْتَ لِمَا تُعَذِّلُهُ نَصِيرُ
حَدَا بِالرَّكْبِ لَيْسَ لَهُ بَعِيرُ

بيعة الأشعث لعلي

قال نصر: وكتب عليّ عليه السلام إلى الأشعث - وكان عامل عثمان على أذربيجان - يدعوه إلى البيعة والطاعة، وكتب جرير بن عبد الله البجليّ إلى الأشعث، يحضّيه على طاعة أمير المؤمنين عليه السلام، وقبول كتابه: أما بعد، فلاني أثني ببيعة عليّ، فقبلتها ولم أجذ إلى دفعها سبيلاً، لأنني نظرت فيما غاب عني من أمر عثمان، فلم أجذه يلزمني، وقد شهد المهاجرون والأنصار فكان أوفق أمرهم فيه الوقوف، فاقبل بيعة، فإنك لا تنقلب إلى خير منه، واعلم أنّ بيعة عليّ خير من مصارع أهل البصرة. والسلام.

قال نصر: فقبل الأشعث البيعة، وسيع وأطاع، وأقبل جرير سائراً من ثغر همدان حتى ورد عليّ عليه السلام والكوفة فبايعه، ودخل فيما دخل فيه الناس من طاعته ولزوم أمره.

بين عليّ عليه السلام ومعاوية

قال نصر: فلما أراد عليّ عليه السلام أن يبعث إلى معاوية رسولاً، قال له جرير: ابعثني يا أمير المؤمنين إليه، فإنه لم يزل لي مستخضاً ووذاً، آتية فادعوه عليّ أن يسلم لك هذا الأمر، ويجمعك على الحق، على أن يكون أميراً من أمرائك، وعاملاً من عمالك، ما عمل بطاعة

(١) الرير: الذائب من المخ. القاموس، مادة (رير).

الله، واتبع ما في كتاب الله، وادعوا أهل الشام إلى طاعتك وولايتك، فجلبهم قومي وأهل بلادِي، وقد رجوت ألا يعصوني.

فقال له الأشر: لا تبعته ولا تصدّقه، فوالله إني لأظنّ هواهُ هواهم، ونيته نيتهم.

فقال له علي عليه السلام: دفعه حتى ننظر ما يرجع به إلينا فبعثه علي عليه السلام، وقال له عليه السلام حين أراد أن يبعثه: إنّ حولي من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل الرأي والدين من قد رأيت، وقد اخترتك عليهم لقول رسول الله فيك: «إنك من خير ذي يمين»^(١)، انت معاوية بكتابي، فإن دخل فيما دخل فيه المسلمون، وإلا فأنبذ إليه وأعلمه أنّي لا أرضى به أميراً، وأنّ العامة لا ترضى به خليفة.

فانطلق جرير حتى أتى الشام، ونزل بمعاوية، فلما دخل عليه حميد الله وأثنى عليه، وقال: أما بعد يا معاوية، فإنه قد اجتمع لابن عمك أهل الحرمين، وأهل المضرين، وأهل الحجاز، وأهل اليمن، وأهل مضر، وأهل العروض - والعروض عُمان - وأهل البحرين واليمامة، فلم يبق إلا هذه الحصون التي أنت فيها، لو سال عليها سيل من أوديته غرقها، وقد أتيتك أدهوك إلى ما يرشدك ويهديك إلى مبايعة هذا الرجل. ودفع إليه كتاب علي عليه السلام، وفيه:

أبما بعد، فإن بيعتي بالمدينة لزمك وأنت بالشام؛ لأنّه بايعني القوم الذي بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، على ما بُويعوا عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يردّ، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، إذا اجتمعوا على رجل فسوّوه إماماً، وكان ذلك لله رضاء، فإن خرج من أمرهم خارج بطعن أو رغبة ردّوه إلى ما خرج منه، فإن أبى قاتلوه على اتباع سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى، ويصليه جهنم وساءت مصيراً. وإنّ طلحة والزبير بايعاني ثم نقضا بيعتي، فكان نقضهما كبريئتهما، فجاهدتكما على ذلك، حتى جاء الحق، وظهر أمر الله وهم كارهون، فادخل فيما دخل فيه المسلمون، فإن أحبّ الأمور إليّ فيك العافية، إلا أن تتعرض للبلاء، فإن تعرضت له قاتلتك، واستعنت بالله عليك.

وقد أكثر في قتل عثمان، فادخل فيما دخل فيه الناس، ثم حاكم القوم إليّ أحملك وإياهم على كتاب الله، فأما تلك التي تريدونها فخذة الصبي عن اللبن. ولعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني أبرأ قريش من دم عثمان. وأعلم أنّك من الطلقاء الذين لا يحلّ لهم الخلافة، ولا تعرض فيهم الشورى. وقد أرسلت إليك وإلى من قبلك جرير بن عبد الله البجلي، وهو من أهل الإيمان والهجرة، فبايع، ولا قوة إلا بالله.

(١) أخرجه أحمد في أول مسند الكوفيين، باب: ومن حديث جرير بن عبد الله (١٨٦٩٨)، والحاكم في «المستدرک» (١٠٥٣)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٥٦٣٤)، والنسائي في «الكبرى» (٨٣٠٢).

فلما قرأ الكتاب، قام جرير فخطب، فقال:

الحمد لله المحمود بالعوائد، والمأمول منه الزوائد، المرتجى منه الثواب، المستعان على النوائب، أحمدته وأستعينه في الأمور التي تحير دونها الألباب، وتضمحل عندها الأسباب، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه ترجعون. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بعد فترة من الرسل الماضية، والقرون الخالية، والأبدان البالية، والجبلة الطاغية فبلغ الرسالة، ونصح الأمة، وأدى الحق الذي استودعه الله، وأمره بأدائه إلى أمته ﷺ، من رسول ومبعث ومتجيب.

أيها الناس، إن أمر عثمان قد أعيان من شهبه، فكيف بمن غاب عنه! وإن الناس بايعوا علياً غير واثق ولا متور، وكان طلحة والزبير يمتن بايعاه ثم نكثا بيعته على غير حدث، ألا وإن هذا الدين لا يحتمل الفتن، ألا وإن العرب لا تحتمل الفتن، وقد كانت بالبصرة أمس روعة ملحمة إن يشفع البلاء بمثلها فلا بقاء للناس. وقد بايعت الأمة علياً، ولو ملكنا والله الأمور، لم نختر لها غيره ومن خالف هذا استعيب فادخل يا معاوية فيما دخل فيه الناس.

فإن قلت: استعملني عثمان ثم لم يعزلني، فإن هذا قول لو جاز لم يقر الله دين، وكان لكل امرئ ما في يديه، ولكن الله جعل للآخر من الولاة حق الأول، وجعل الأمور موطأ ينسج بعضها بعضاً. ثم قعد.

قال نصر: فقال معاوية: انظر وتنظر واستطلع رأي أهل الشام.

فمضت أيام، وأمر معاوية منادياً ينادي: الصلاة جامعة! فلما اجتمع الناس صعد المنبر، ثم قال:

الحمد لله الذي جعل الدعائم للإسلام أركاناً، والشرائع للإيمان برهاناً، يتوقد قبسه في الأرض المقدسة، جعلها الله محل الأنبياء والصالحين من عباده، فأحلهم أرض الشام، ورضيهم لها، ورضيها لهم، لما سبق في مكنون علمه من طاعتهم ومناصحتهم خلفاءه، والقوام بأمره، والذابين عن دينه وحرماته، ثم جعلهم لهذه الأمة نظاماً، وفي سبيل الخيرات أعلاماً، يردع الله بهم الناكثين، ويجمع بهم ألفة المؤمنين، والله نستعين على ما تشعب من أمر المسلمين بعد الالتئام، وتباعد بعد القرب. اللهم انصرنا على أقوام يوقظون نائمنا، ويخيفون آمننا، ويريدون إراقة دمائنا، وإخافة سبلنا. وقد علم الله أنا لا نريد لهم عقاباً، ولا نهتك لهم حجاباً، ولا نوطنهم زلقاً، غير أن الله الحميد كسانا من الكرامة ثوباً لن ننزعه طوعاً ما جاوب الصدى، وسقط الندى، وعرف الهدى حملهم على ذلك البغي والحسد، فنستعين بالله عليهم.

أيها الناس، قد علمتم أنني خليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وخليفة أمير المؤمنين عثمان بن عفان عليكم، وأنا لم أقم رجلاً منكم على خزاية قط، وأني ولي عثمان، وقد قُتل مظلوماً، والله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾^(١)، وأنا أحب أن تعلموني ذات أنفسكم في قتل عثمان.

فقام أهل الشام بأجمعهم، فأجابوا إلى الطلب بدم عثمان، وبأيعوه على ذلك، وأوثقوا له على أن يبذلوا بين يديه أموالهم وأنفسهم، حتى يدركوا بثأره أو تلتحق أرواحهم بالله.

قال نصر: فلما أمسى معاوية اغتم بما هو فيه، وجته الليل وعنده أهل بيته، فقال:

تَطَاوَلَ لَيْلِي وَاعْتَرَتْني وَسَاوِسِي
أتاني جريرٌ والحوادثُ جَمَّةٌ
أكأيذهُ والسيفُ بيني وبينه
إنَّ الشَّامَ أعطت طاعةً يَمْنِيَّةً
فإنْ يَفْعَلُوا أضدِمَ علياً بجَنْبِهِ
وإني لأرجو خير ما نال نائلُ
قلت: الجبهة هاهنا: الخيل، ومنه قول النبي الله ﷺ: «ليس في الجبهة صدقة»^(٢)، أي
زكاة.

قال نصر: فاستحته جرير بالبيعة، فقال: يا جرير، إنها ليست بخلسة، وإنه أمر له ما بعده، فأبلغني ربي حتى أنظر، ودعا ثقاته، فأشار عليه أخوه بعمر بن العاص، وقال له: إنه من قد عرفت، وقد اعتزل عثمان في حياته، وهو لأمرك أشد اعتزالاً إلا أن يشتم له دينه.

وقد ذكرنا فيما تقدم خبر استدعائه عمراً، وما شرط له من ولاية مصر، واستقدمه شرحبيل بن السمط رئيس اليمانية وشيخها والمقدم عليها، وتدسيس الرجال إليه يغرونه بعلي عليه السلام، ويشهدون عنده أنه قتل عثمان، حتى ملؤوا صدره وقلبه حقداً وبرة وإحنة على علي عليه السلام وأصحابه بما لا حاجة إلى إعادته.

قال نصر: فحدثني محمد بن عبيد الله عن الجرجاني، قال:

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٣.

(٢) الترهات البساس: هي الباطل. اللسان، مادة (بس).

(٣) أخرجه الدارقطني في «السنن» (٩٤/٢)، والبيهقي نحوه في «السنن الكبرى» (٧٢٠١).

جاء شُرَحْبِيلُ إِلَى خُصَيْنِ بْنِ نُمَيْرٍ، فَقَالَ: ابْعَثْ إِلَى جَرِيرِ فُلَيَّاتِنَا، فَبَعَثَ خُصَيْنُ بْنُ نُمَيْرٍ إِلَى جَرِيرٍ: أَنْ زُرْنَا فَعِنْدَنَا شُرَحْبِيلُ، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ خُصَيْنٍ، فَتَكَلَّمَ شُرَحْبِيلُ، فَقَالَ: يَا جَرِيرُ أَتَيْتَنَا أَمَلٌ مَلْفَقٌ لِيُثْلِقِينَا فِي لَهَوَاتِ الْأَسَدِ، وَأَرَدْتَ أَنْ تَخْلِطَ الشَّامَ بِالْعِرَاقِ، وَأُظْهِرْتَ عَلِيًّا، وَهُوَ أَتَلُ عُثْمَانَ، وَاللَّهِ سَأُثْلِقُكَ عَمَّا قُلْتَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ جَرِيرٌ وَقَالَ: يَا شُرَحْبِيلُ، أَمَا قَوْلُكَ: إِنِّي جِئْتُ بِأَمْرِ مَلْفَقٍ، فَكَيْفَ يَكُونُ مَلْفَقًا قَدْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ، وَقُتِلَ عَلَى رَدِّهِ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ! وَأَمَا قَوْلُكَ: إِنِّي أَلْقَيْتُكَ فِي لَهَوَاتِ الْأَسَدِ، فَفِي لَهَوَاتِهَا أَلْقَيْتَ نَفْسَكَ.

وَأَمَا خَلَطَ أَهْلَ الشَّامِ بِأَهْلِ الْعِرَاقِ، فَخَلَطَهُمَا عَلَى حَقِّ خَيْرٍ مِنْ قُرَّتِهِمَا عَلَى بَاطِلٍ.

وَأَمَا قَوْلُكَ: إِنَّ عَلِيًّا قَتَلَ عُثْمَانَ، فَوَاللَّهِ مَا فِي يَدَيْكَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا الْقَذْفُ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ مَيْدٍ، وَلَكِنَّكَ مِلْتَ إِلَى الدُّنْيَا، وَشَيْءٌ كَانَ فِي نَفْسِكَ عَلَى زَمَنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ.

فَبَلَغَ مَا قَالَاهُ إِلَى مُعَاوِيَةَ، فَبَعَثَ إِلَى جَرِيرٍ فزجره. قَالَ نَصْرٌ: وَكُتِبَ إِلَى شُرَحْبِيلِ كِتَابٌ لَا مَرَفَ كَاتِبُهُ فِيهِ:

فَمَا لَكَ فِي الدُّنْيَا مِنَ الدِّينِ مِنْ بَدَلٍ
فَقَدْ خُرِّقَ السُّرْبَالُ وَاسْتَنَوَقَ الْجَمَلُ
تَرَوُّمٌ بِهَا مَا رُمْتَ وَاقْطَعْ لَهُ الْأَمَلَ
فَكُنْ فِيهِ مَامُونٌ الْأَدِيمُ مِنَ النَّقْلِ^(١)
عَلَيْكَ، وَلَا تَعْجَلْ، فَلَا خَيْرَ فِي الْعَجَلِ
وَاللَّهُ فِي صَدْرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَجَلٌ^(٢)
بِقَوْلٍ، وَلَا مَالًا عَلَيْهِ وَلَا قَتْلًا
إِلَى أَنْ أَتَى عُثْمَانَ فِي دَارِهِ الْأَجَلَ
مِنَ الزُّورِ وَالْبَهْتَانِ بَعْضُ الَّذِي اخْتَمَلَ
وَمَنْ بِأَسْمِهِ فِي فَضْلِهِ يُضْرَبُ الْمَثَلُ

شُرَحْبِيلُ يَا بَنَ السُّمَطِ: لَا تَتَّبِعِ الْهَوَى
وَلَا تَكُ كَالْمُجْرَى إِلَى شَرِّ غَايَةٍ
وَقُلْ لِبَنِ حَرْبٍ: مَالِكَ الْيَوْمِ خَلَّةٌ
شُرَحْبِيلُ: إِنَّ الْحَقَّ قَدْ جَدَّ جَدُّهُ
وَأَزِيدُ وَلَا تُفَرِّطْ بِشَيْءٍ نَخَافُهُ
مَقَالَ ابْنِ هَنْدٍ فِي عَلِيٍّ عَضِيهَةٌ
وَمَا مِنْ عَلِيٍّ فِي ابْنِ عِفَانَ سَقَطَةٌ
وَمَا كَانَ إِلَّا لِأَزْمَاءٍ قَسَرَ بَيْتُهُ
فَمَنْ قَالَ قَوْلًا غَيْرَ هَذَا فَحَسْبُهُ
وَصِي رَسُولِ اللَّهِ مِنْ دُونِ أَهْلِهِ

قَالَ نَصْرٌ: فَلَمَّا قَرَأَ شُرَحْبِيلُ الْكِتَابَ دُهِرَ وَفَكَّرَ، وَقَالَ: هَذِهِ نَصِيحَةٌ لِي فِي دِينِي، وَلَا وَاللَّهِ
أَعْجَلُ فِي هَذَا الْأَمْرِ بِشَيْءٍ وَفِي نَفْسٍ مِنْهُ حَاجَةٌ، وَكَادَ يَحُولُ عَنْ نَصْرِ مُعَاوِيَةَ وَيَتَوَقَّفُ، فَلَفَّقَ
مُعَاوِيَةُ الرِّجَالَ يَدْخُلُونَ إِلَيْهِ وَيَخْرُجُونَ، وَيَعْظُمُونَ عِنْدَهُ قَتْلَ عُثْمَانَ، وَيَرْمُونَ بِهِ عَلِيًّا،
يَقِيمُونَ الشَّهَادَةَ الْبَاطِلَةَ، وَالْكِتَابَ الْمَخْتَلَفَ حَتَّى أَحَادُوا رَأْيَهُ، وَشَحَذُوا عِزْمَهُ.

(١) النَّقْلُ: فَسَادُ الْأَدِيمِ فِي دَبَاغِهِ إِذَا تَرَفَّتْ وَتَفَتَّتْ. اللِّسَانُ، مَادَّةُ (نَقْل).

(٢) الْعَضِيهَةُ: الْبَهِيَّةُ، وَهِيَ الْإِفْكَ وَالْبَهْتَانُ وَالنَّمِيمَةُ. اللِّسَانُ، مَادَّةُ (عَض).

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد بإسناده قال: بعث معاوية إلى شُرَحْبِيل بن السَّمُط: إنه قد كان من إجابتك إلى الحق، وما وقع فيه أجرك على الله، وقبلة عنك صلحاء الناس ما علمت، وإن هذا الأمر الذي نحن فيه لا يتم إلا برضا العامة، فيسر في مدائن الشام، وناو فيهم بأن علياً قتل عثمان، وأنه يجب على المسلمين أن يطلبو بدمه.

فسار شُرَحْبِيل، فبدأ بأهل جنص، فقام فيهم خطيباً - وكان مأموناً في أهل الشام ناسكاً متألهاً، فقال:

أيها الناس، إن علياً قتل عثمان، فغضب له قوم من أصحاب رسول الله ﷺ فلقبهم فهزم الجمع، وقتل صلحاءهم وغلب على الأرض، فلم يبق إلا الشام، وهو واضح سيفه على عاتقه، ثم خائض غمرات الموت، حتى يأتاكم أو يحدث الله أمراً، ولا نجد أحداً أقوى على قتاله من معاوية، فجدوا وانهضوا.

فأجابه الناس كلهم إلا نساكاً من أهل جنص، فإنهم قالوا له: بيوتنا قبورنا ومساجدنا، وأنت أعلم بما ترى.

قال: وجعل شُرَحْبِيل يستنهض مدائن الشام حتى استفرغها، لا يأتي على قوم إلا قبلوا ما أتاهم به، فبعث إليه النجاشي بن الحارث - وكان له صديقاً:

شُرَحْبِيلُ مَا لِلذِّينَ فَارَقْتَ دِينَنَا	وَلَكِنْ لِبُغْضِ الْمَالِكِيِّ جَرِيرِ
وَشَخْنَاءَ دَبَّتْ بَيْنَ سَعْدٍ وَيَمِينَةٍ	فَأَصْبَحَتْ كَالْحَادِي بِغَيْرِ بَعِيرِ
وَمَا أَنْتَ إِذْ كَانَتْ بِجِيلَةِ عَاتِبَتْ	قَرِينَتَا فَيَا لَوْ بَغْدَنْصِيرِ
أَتَفْصِلُ أَمْرًا غَبَّتْ عَنْهُ بِشَبْهَةٍ	وَقَدْ حَارَ فِيهِ عَقْلُ كُلِّ بَصِيرِ
بِقَوْلِ رَجَالٍ لَمْ يَكُونُوا أُنْمَةً	وَلَا لَلَّتِي لَقَوُوكَهَا بِحُضُورِ
وَمَا قَوْلُ قَوْمٍ غَائِبِينَ تَقَاذِفُوا	مِنَ الْغَيْبِ مَا دَلَّاهُمْ بِفُرُورِ
وَتَتْرَكَ أَنَّ النَّاسَ أَهْطَوْا عَهْدَهُمْ	عَلِيًّا عَلَى أَنْسٍ بِهِ وَسُرُورِ
إِذَا قِيلَ هَاتُوا وَاحِدًا يَفْتَدِي بِهِ	نَظِيرًا لَهُ لَمْ يُفْصِحُوا بِنَظِيرِ
لَعَلَّكَ أَنْ تَشْفِيَ الْبَغْدَادَ بِحَرِيرِهِ	فَلَيْسَ الَّذِي قَدْ جَنَّتَهُ بِصَفِيرِ

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد عن ثُمَيْر بن وعله، عن الشعبي، أن شُرَحْبِيل بن السَّمُط بن الأسود بن جَبَلَةَ الكندي دخل على معاوية، فقال له: أنت حامل أمير المؤمنين وابن عمه، ونحن المؤمنون، فإن كنت رجلاً تُجاهد علياً وقتله عثمان حتى ندرك ثأرنا أو تذهب أرواحنا استعملناك علينا، وإلا عزلناك واستعملنا غيرك ممن نريد، ثم جاهدنا معه حتى ندرك بدم عثمان أو نهلك.

فقال جرير بن عبد الله - وكان حاضراً: - مهلاً يا سُرحَيْيل، فإن الله قد حَقَّن الدِّماء، وَلَمْ
الشعث، وَجَمَعَ أمر الأمة، ودَنَا من هذه الأمة سكون، فإياك أَنْ تُفْسِدَ بين الناس، وَأَمْسِكْ عن
هذا القول قبل أَنْ يَشِيْعَ ويظهر عنك قول لا تستطيع رَدُّه، فقال: لا والله لا أسره أبداً. ثم قام
فتكلم به، فقال الناس: صدق صدق، القول ما قال، والرأي ما رأى. فأيس جرير عند ذلك مِنْ
معاوية ومن عوام أهل الشام.

قال نصر، وحدثني محمد بن عبيد الله، عن الجرجاني، قال: كان معاوية قد أتى جريراً قبل
ذلك في منزله، فقال له: يا جرير، إني قد رأيت رأياً، قال: هاته، قال: اكتب إلي صاحبك
يجعل لي الشام ومصر جباية، فإذا حضرته الوفاة لم يجعل لأحد بعده في عنقي بيعة، أسلم له
هذا الأمر، واكتب إليه بالخلافة. فقال جرير: اكتب ما أردت اكتب معك.

فكتب معاوية بذلك إلى علي، فكتب علي عليه السلام إلى جرير:

أما بعد، فإنما أراد معاوية ألا يكون لي في عنقه بيعة، وأن يختار من أمره ما أحب، وأراد
أَنْ يُرِيْشَكَ وَيُبْطِطَكَ حتى يذوق أهل الشام وإن المغيرة بن شعبة قد كان أشار علي أن أستعمل
معاوية على الشام، وأنا حينئذ بالمدينة، فأبيت ذلك عليه، ولم يكن ليراني أتخذ المضللين
عُصْداً، فإن بايعك الرجل وإلا فأقبل، والسلام.

قال نصر: وفشا كتاب معاوية في العرب، فبعث إليه الوليد بن عُقبة:

معاوي إن الشام شامك فاعصم	بشامك لا تُذخِلْ عليك الأفاعيا
وحام عليها بالصوارم والقنا	ولاتك موهون الذراعين وإنيا
وإن علياً ناظر ما تجيبه	فأهد له حزياً تُشيب الشواصيا
وإلا فسلم إن في السلم راحة	لمن لا يريد الحرب فاختر معاويا
وإن كتاباً يا بن حرب كتبته	على طمع، يُزجي إليك الذواهيا
سألت علياً فيه ما لن تناله	ولو نلتته لم يبق إلا لياليا
ومؤف ترى منه التي ليس بعدها	بقاء، فلا تكثر عليك الأمازيا
أمثل عليّ تعتريه بخذعة	وقد كان ما جرئت من قبل كافيا!

قال: وكتب الوليد بن عُقبة إلى معاوية أيضاً يوقظه ويشير عليه بالحرب، وألا يكتب جواب

جرير:

معاوي إن المُلْك قد جُبَّ غَارِيَّة
 اتاك كتاب من علي بخطبة
 فلا ترجُ عند الواترين مَوَدَّة
 وحاربه إن حاربت حرب ابن حُرَّة
 فإن علياً غيرُ صاحب ذيلِهِ
 ولا قابلي ما لا يريدُ وهذه
 فلا تدعُ المملِك والأمرُ مُقبلُ
 فإن كنت تنوي أن تُجيب كتابه
 وإن كنت تنوي أن تردَّ كتابه
 فأتق إلى الحيِّ اليمانيِّ كَلِمَةً
 تقول: أميرُ المؤمنين أصابه
 أفانينٌ منهم قائلٌ ومُحرِّضٌ
 وكنْتُ أميراً قبلُ بالشام فيكمُ
 فجيئوا، ومن أرسى ثبيراً مكانه
 فأقلل وأكثُر ما لها اليوم صاحبُ

وأنت بما في كفك اليوم صاحبُ
 هي الفضلُ فاخترْ سِلْمَةً أو تُحَارِيَّة
 ولا تَأْمَن اليومَ الذي أنت رَاهِبُهُ
 ولا قَسِيْلَم لا تدب عَقَارِيَّهُ
 على خُدعةٍ ما سَوَّغ الماءُ شَارِيَّة
 يقوم بها يوماً عليه نواديه
 وتطلب ما أعيت عليك مَذاهِبُهُ
 فقبَّح مُنْملِيه وقُبَّح كَاتِبُهُ
 وأنت بأمرٍ لا محالة رَاكِبُهُ
 تنالُ بها الأمرَ الذي أنت طَالِبُهُ
 عدوٌ ومالاهم عليه أَقَارِيَّة
 بلا تِرَّة كانت، وآخرُ سَالِبُهُ^(١)
 فحسبي وإياكم من الحق واجِبُهُ
 تُدافع بحرّاً لا تُردَّ غَوَارِيَّة^(٢)
 سواك، فصرُخ لستُ ممن تُوَارِيَّة

قال نصر: وخرج جرير يوماً يتجسس الأخبار، فإذا هو بغلام يتغنى على قعود له، وهو يقول:

حُكَيْمٌ وَعَمَّارُ الشُّجَا ومحمدُ
 وقد كان فيها للزبير عِجَاجَةٌ
 فأما علي فاستجارَ ببيته
 فقل في جميع الناس ما شئتَ بَعْدَهُ
 وإن قلت: عَم القومُ فيه بِفِثْنَةٍ
 فقولاً لأصحابِ النبي محمدٍ
 أَيْقَتَلُ عثمان بن عفانَ بَيْنَكُم
 فلا نوم حتى نستبيحَ حَرِيمَكُم

واشترُ والمكشوح جَرُوا الدَّوَاهِيَا
 وصاحبه الأدنى أثاروا السدواهيَا
 فلا أمرٌ فيها ولم يك ناهيَا
 فلو قلت: أخطأ الناسُ لم تَك خاطيَا
 فحسبُك من الذي كان كافيا
 وتخصا الرجال الأقربين الأدانيَا:
 على غير شيء ليس إلا تعاميا
 ونخضب من أهل الشنآن العواليَا

(١) الترة: الظلم في الثأر. اللسان، مادة (وتر).

(٢) ثير: جبل بمكة. اللسان، مادة (ثير).

فقال جرير: يا بن أخي، مَنْ أنت؟ فقال: غلام من قريش، وأصلي من ثقيف، أنا ابن المغيرة بن الأخنس بن شريق، قُتِلَ أبي مع عثمان يوم الدار. فعجب جرير من شعره وقوله، وكتب بذلك إلى عليّ عليه السلام، فقال عليّ: والله ما أخطأ الغلام شيئاً.

قال نصر: وفي حديث صالح بن صدقة، قال: أبطأ جريرٌ عند معاوية حتى اتهمه الناس، وقال عليّ عليه السلام: قد وُقْتُ لجرير وقتاً لا يُقيم بعده إلا مخدوعاً أو عاصياً وأبطأ عليّ حتى أيس منه.

قال: وفي حديث محمد وصالح بن صدقة، قالوا: فكتب عليّ عليه السلام إلى جرير بعد ذلك: إذا أتاك كتابي هذا فاحمل معاوية على الفضل، ثم خيِّره وخذه بالجواب بين حربٍ مُخزية أو سلمٍ مُحظية، فإن اختار الحرب فابذ إليه، وإن اختار السلم فخذه ببيعته. والسلام.

قال: فلما انتهى الكتابُ إلى جرير أتى معاوية، فأقرأه الكتاب، وقال له: يا معاوية، إنه لا يطبع على قلب إلا بذنب، ولا يُشرح صدر إلا بتوبة، ولا أظن قلبك إلا مطبوعاً عليه، أراك قد وقفت بين الحق والباطل، كأنك تنتظر شيئاً في يد غيرك.

فقال معاوية: ألقاك بالفضل في أول مجلس إن شاء الله.

فلما بايع معاوية أهل الشام بعد أن ذاقهم، قال: يا جرير الحق بصاحبك، وكتب إليه بالحرب، وكتب في أسفل الكتاب شعر كعب بن جُعيل:

أَرَى الشَّامَ تَكُونُ أَهْلَ الْعِرَاقِ وَأَهْلَ الْعِصْرَ لَهُمُ كَارِهُونَا
وقد ذكرنا هذا الشعر فيما تقدم.

وقال أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد في كتاب «الكامل»^(١): إن علياً عليه السلام لما أراد أن يبعث جريراً إلى معاوية، قال: والله يا أمير المؤمنين ما أدخرك من نُصرتي شيئاً، وما أطمع لك في معاوية. فقال عليّ عليه السلام: إنما قصدي حُجّة أقيمها عليه. فلما أتى جرير معاوية دافعه بالبيعة، فقال له جرير: إن المنافق لا يصلي حتى لا يجد من الصلاة بُدّاً. فقال معاوية: إنها ليست بخُذعة الصبي عن اللبن، فأبلغني ربي، إنه أمر له ما بعده.

قال: وكتب مع جرير إلى عليّ عليه السلام جواباً عن كتابه إليه: من معاوية بن صخر إلى عليّ بن

(١) «الكامل في اللغة»: لأبي العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرّد النحوي، المتوفى سنة (٣٨٥هـ)، «كشف الظنون» (٢/١٣٨٢).

أبي طالب، أما بعد، فلعمري لو بايعك القوم الذين بايعوك وأنت بريء من دم عثمان كنت كأبي بكر وعمر وعثمان، ولكنك أغريت بعثمان المهاجرين، وخذلت عنه الأنصار، فأطاعك الجاهل، وقوي بك الضعيف، وقد أبى أهل الشام إلا قتالك، حتى تدفع إليهم قتلة عثمان، فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين، ولعمري ليس حُجَّتُكَ عليّ كحججك على طلحة والزبير؛ لأنهما بايعاك ولم أبائعاك، وما حججتك على أهل الشام كحججتك على أهل البصرة، لأن أهل البصرة أطاعوك ولم يُطعك أهل الشام. فأما شرفك في الإسلام، وقرابتك من النبي ﷺ وموضعك من قریش، فلست أدفعه.

ثم كتب في آخر الكتاب شعر كعب بن جعيل الذي أوله:

أَرَى الشَّامَ تَكْرَهُ أَهْلَ الْعِرَاقِ وَأَهْلَ الْعِرَاقِ لَهُمْ كَارِهُونَا

قال أبو العباس المبرّد رحمه الله تعالى: فكتب إليه عليّ عليه السلام جواباً عن كتابه هذا:

من أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب إلى معاوية بن صخر بن حرب:

أما بعد، فإنه أتاني منك كتابٌ امرىء ليس له بصَرٌ يهديه، ولا قائدٌ يرشده، دعاه الهوى فأجابه، وقاده الضلال فأتبعه، زعمت أنك إنما أفسد عليك يثعتي خطيبتي في عثمان، ولعمري ما كنت إلا رجلاً من المهاجرين، أوردت كما أوردوا، وأصدرت كما أصدروا، وما كان الله ليجمعهم على الضلال، ولا ليضربهم بالعمى. وبعد، فما أنت وعثمان! إنما أنت رجل من بني أمية، وبنو عثمان أولى بمطالبة قومه، فإن زعمت أنك أقوى على ذلك، فادخل فيما دخل فيه المسلمون، ثم حاكم القوم إليّ. وأما تمييزك بينك وبين طلحة والزبير، وبين أهل الشام وأهل البصرة، فلعمري ما الأمر فيما هناك إلا سواء، لأنها بيعة شاملة لا يستثنى فيها الخيار، ولا يستأنف فيها النظرة. وأما شرفي في الإسلام وقرابتي من رسول الله ﷺ، وموضعي من قریش، فلعمري لو استطعت دفعه لدفعته.

قال: ثم دعا النجاشي أحد بني الحارث بن كعب، فقال له: إن ابن جعيل شاعر أهل الشام، وأنت شاعر أهل العراق، فأجب الرجل. فقال: يا أمير المؤمنين، أسمعني قوله، قال: إذن أسمعك شِعْرَ شاعر، ثم أسمع، فقال النجاشي ينجيه:

دعاً يا مُعَاوِيَ مَا لَنْ يَكُونَا	فَقَدْ حَقَّقَ اللَّهُ مَا تَحَذَرُونَا
أَتَأْتُمُ عَلِيَّ بِأَهْلِ الْعِرَاقِ	وَأَهْلَ الْحِجَازِ فَمَا تَصْنَعُونَا!
عَلَى كُلِّ جَرْدَاءٍ خَيْفَانَةٌ	وَأَشْعَثُ نَهْدٍ يَسُرُّ الْعُيُونَا
عَلَيْهَا قَوَارِسُ مَخَشِيَّةٍ	كَأَسَدِ الْعَرِينِ حَمِيْنُ الْعَرِينَا
يَرَوْنَ الطَّعَانَ خِلَالَ الْعَجَاجِ	وَضَرْبَ الْقَوَارِسِ فِي النَّفْعِ دِينَا

هُمْ هَزَمُوا الْجَمْعَ جَمَعَ الزُبَيْرِ
وَأَلَوْا يَمِيناً عَلَى خَلْفَةٍ
تُشِيبُ الثَّوَاهِدَ قَبْلَ الْمُشِيبِ
فَإِنْ تَكْرَهُوا الْمُلْكَ مُلْكَ الْعِرَاقِ
فَقُلْ لِلْمُضَلَّلِ مِنْ وَائِلٍ
جَعَلْتُمْ عَلِيّاً وَأَشْيَاعَهُ
إِلَى أَفْضَلِ النَّاسِ بَعْدَ الرَّسُولِ
وَصِيْرَ الرَّسُولِ وَمَنْ مِثْلُهُ
قُلْتُ: آيَاتُ كَعْبِ بْنِ جُعَيْلٍ خَيْرٌ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ، وَأَخْبِثُ مَقْصِداً وَأَدْمَى وَأَحْسَنَ.

وزاد نصر بن مزاحم في هذه الرسالة بعد قوله: «ولا ليضر بهم بالعمى»: «وما ألبت فتلزميني خطيئة الأمر، ولا قتلت فيجب عليّ القصاص». وأما قولك إن أهل الشام هم الحكام على أهل الحجاز، فهات رجلأ من أهل الشام يقبل في الشورى، أو تحل له الخلافة، فإن زعمت ذلك كذبتك المهاجرون والأنصار، وإلا أتيتك به من قريش الحجاز. وأما ولوعك بي في أمر عثمان، فما قلت ذلك عن حق العيان، ولا يقين الخبر.

وهذه الزيادة التي ذكرها نصر بن مزاحم تقتضي أنه كان في كتاب معاوية إليه عليه السلام أن أهل الشام هم الحكام على أهل الحجاز، وما وجدنا هذا الكلام في كتابه.

متفرقات

وروى نصر بن مزاحم، قال: لما قُتِلَ عثمانُ ضَرَبَتِ الرِّكْبَانُ إِلَى الشَّامِ بِقَتْلِهِ، فَبَيْنَا مَعَاوِيَةُ يَوْمًا إِذَا أَقْبَلَ رَجُلٌ مُتَلَفِّفٌ، فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ، وَقَالَ لِمَعَاوِيَةَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَتَعْرِفْنِي؟ قَالَ: نَعَمْ، أَنْتَ الْحِجَاجُ بْنُ خَزِيمَةَ بْنِ الصُّمَّةِ، فَأَيْنَ تَرِيدُ؟ قَالَ إِلَيْكَ الْقُرْبَانُ، أَنْتَ ابْنُ عَفَانَ، ثُمَّ قَالَ:

إِنْ بَنِي عَمُّكَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ
وَأَنْتَ أَوْلَى النَّاسِ بِالْوُثْبِ فِثْبِ
وَمِيرُ بَنِي سَيْرِ الْجَرِيرِ الْمُتَلَبِّ
هُمْ قَتَلُوا شَيْخَكُمْ غَيْرَ كَذِبِ
وَإِغْضَبَ مَعَاوِيَةَ لِلَّهِ وَاجْتَسَبَ
وَأَنهَضَ بِأَهْلِ الشَّامِ تَرْشُدَ وَتُصَبِّ
ثُمَّ أَهْزَرَ الصُّعْدَةَ لِلشَّاسِ الشَّغْبِ

قال: يعني علياً عليه السلام.

(١) حرب زيون: يدفع بعضها بعضاً كثرة. القاموس، مادة (زين).

قلت: المتلثب المستقيم المقرد، يقال: هذا قِيَّاسٌ متلثب، أي مستمرٌ مقرد. ويقال: مكان شأس، أي غليظ صلب. والشغب: الهائج للشر، ومن رواه: «الشاسي» بالياء فأصله «الشاصي» بالصاد، وهو المرتفع، يقال: شصا السحاب إذا ارتفع، فأبدل الصاد سيناً، ومراده هنا نسبة علي عليه السلام إلى التيه والترفع عن الناس.

قال نصر: فقال له معاوية: أفيك مهز؟ فقال: نعم، فقال أخير الناس، فقال الحجاج: يا أمير المؤمنين - ولم يخاطب معاوية بـ «أمير المؤمنين» قبلها - إني كنت فيمن خرج مع يزيد بن أسد القسري، مغنياً لعثمان، فقدمت أنا وزفر بن الحارث، فلقينا رجلاً زعم أنه يمتن قتل عثمان، فقتلناه، وإني أخبرك يا أمير المؤمنين أنك لتقوى علي بدون ما يقوى به عليك، لأن معك قوماً لا يقولون إذا قلت، ولا يسألون إذا أمرت، وإن مع علي قوماً يقولون إذا قال، ويسألون إذا أمر، فقليل ممن معك خير من كثير ممن معه. واعلم أنه لا يرضى علي إلا بالرضا، وأن رضاه سخطك، ولست وعلي سواء، علي لا يرضى بالعراق دون الشام، أنت ترضى بالشام دون العراق.

قال نصر: فضاق معاوية صدرأ بما أتاه، وتذم علي خذلان عثمان وقال:

أتاني أمر فيه للنفس غمة
وفيه فناء شامل وخزاية
مصائب أمير المؤمنين وفدة
فالله عينا من رأى مثل هالك
تذاعت عليه بالمدينة غضبة
دعاهم فصموا عنه عند دُعائه
نذمت علي ما كان من تبعي الهوى
سأبغي أبا عمرو بكل مُشَقَّف
تركك للقوم الذين هم هم
فلسك مقيماً ما حيث ببلدة
فلا نوم حتى تشجر الخيل بالقنا
ونظحتهم طحن الرخا بشغالها
فأما التي فيها مودة بيننا
سألفحها حرباً عواناً ملحاً

وفيه بكاء للميون طويل
وفيه اجتداع للأنوف أصيل
تكاد لها صم الجبال تزو
أصيب بلا ذنب وذاك جليل
فريقان منهم قاتل وخذول
وذاك على ما في النفوس دليل
وقضري فيه خسارة وعويل
ويضي لها في الدار عين صليل
شجأك فماذا بعد ذاك أقول
أجر بها ذليلي وأنت قتيل
يشفى من القوم الغواة غليل
وذاك بما أشدوا إليك قليل
فليس إليها ما حيث سبيل
وإني بها من عامنا لكفيل

قال نصر: وافتخر الحجاج على أهل الشام بما كان من تسليمه علي معاوية بإمرة المؤمنين.

قال نصر: وحدثنا صالح بن صدقة، عن ابن إسحاق، عن خالد الحُزاعي وغيره ممن لا يَتَّهِمُ، أن عثمان لما قُتِلَ وَأَتَى معاوية بكتاب علي عليه السلام بعزله عن الشام، صعد المنبر ونادى في الناس أن يحضروا، فحضروا، فخطبهم. فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على رسوله، ثم قال: يا أهل الشام، قد علمتم أنني خليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وخليفة عثمان، وقد قُتِلَ وأنا ابن عمه ووليّه، والله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَهُ سُلْطَانًا﴾^(١) وأنا أحب أن تُعَلِّمُونِي ما في نفوسكم من قتل خليفتم.

فقام مرة بن كعب، وفي المسجد يومئذ أربعمئة رجل من أصحاب النبي الله ﷺ أو نحوها، فقال: والله لقد قمْتُ مقامِي هذا، وإني لأعلمُ أن فيكم مَنْ هو أقدمُ صحبةً لرسول الله ﷺ مِنِّي ولكني شهدت رسول الله ﷺ نصف النهار في يوم شديد الحر وهو يقول: «التكونن فتنة حاضرة»^(٢) فمرَّ رجل مُقَنَّع، فقال رسول الله: «وهذا المقنع يومئذ على الهدى»، فقمْتُ فأخذت بمنكبه، وحَسَرْتُ عن رأسه، فإذا عثمان، فأقبلتُ بوجهه على رسول الله ﷺ، وقلت: هذا يا رسول الله؟ فقال: «نعم».

فأصفق أهل الشام مع معاوية حينئذ، وبايعوه على الطلب بدم عثمان أميراً لا يطمع في الخلافة ثم الأمر شورى.

وروى إبراهيم بن الحسن بن ديزيل في كتاب «صفين» عن أبي بكر بن عبد الله الهذلي أن الوليد بن عقبة كتب إلى معاوية يستبطئه في الطلب بدم عثمان، ويعرضه وينهاه عن قطع الوقت بالمكاتبة:

ألا أبلغ معاوية بن خُزَيمٍ	فلأنك من أخي ثقةٍ مُلِيمٍ
قطعت الدهر كالسديم المعنى	ثهدرُ في دمشق ولا تريمٍ
فلأنك والكتاب إلى علي	كدابغة وقد حلنم الأديم
لك الوبلات أجمعها عليهم	فخير الطالبني الثرة الغشوم

قال: فكتب معاوية إليه الجواب بيتاً من شعر أوس بن حجر:

وَمُسْتَعْجِبٌ مِمَّا يَرَى مِنْ أُنَاتِنَا وَلَوْ زَيْنَتْهُ الْحَرْبُ لَمْ يَتَرَمَّرَمْ^(٣)

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٣.

(٢) ذكره نعيم بن حماد في «الفتن» (٤٦١).

(٣) زبته: صدمته. اللسان، مادة (زبن). ترمرم: حرك فاه للكلام. اللسان، مادة (رمم).

وروى ابن ديزيل قال: لما حَزَمَ عليّ عليه السلام على المسير إلى الشام، دعا رجلاً، فأمره أن يتجهز ويسير إلى دمشق، فإذا دخل أناخ راحلته بباب المسجد، ولا يُلقِي من ثياب سفره شيئاً: فإن الناس إذا رأوه عليه آثار الغربة سألوه، فليقل لهم: تركتُ علياً لله نَهْدَ إليكم بأهل العراق. فانظر ما يكون من أمرهم.

ففعل الرجل ذلك، فاجتمع الناس وسألوه، فقال لهم، فكثروا عليه يسألونه فأرسل إليه معاوية بالأهول السلمي يسأله، فاتاه فسأله، فقال له، فأتى معاوية فأخبره، فنادى: الصلاة جامعة، ثم قام فخطب الناس، وقال لهم إنَّ علياً قد نَهْدَ إليكم في أهل العراق، فما ترون؟ فضرب الناس بأذقانهم على صدورهم لا يتكلمون، فقام ذو الكلاع الحميري فقال: عليك أم رأيي وعلينا أم فعال، وهي خمير.

فتنزل، وناذى في الناس بالخروج إلى معسكرهم، وعاد إلى عليّ عليه السلام، فأخبره فنادى: الصلاة جامعة، ثم قام فخطب الناس، فأخبرهم أنه قديم عليه رسول كان بعثه إلى الشام، وأخبره أن معاوية قد نَهْدَ إلى العراق في أهل الشام، فما الرأي؟

قال: فاضطرب أهل المسجد، هذا يقول: الرأي كذا، وهذا يقول: الرأي كذا، وكثر اللُغَطُ واللَّجَبُ، لم يفهم عليّ عليه السلام من كلامهم شيئاً، ولم يذَرِ المصِيبَ من المخطيء، فنزل عن المنبر، وهو يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون! ذهب بها ابن أُمِّ أَلَّةٍ الأَكْبَاد - يعني معاوية.

وروى ابن ديزيل عن عُقْبَةَ بن مَكْرَمٍ، عن يونس بن بكير، عن الأعمش، قال: كان أبو مَرْيَمَ صديقاً لعليّ عليه السلام، فسمع بما كان فيه عليّ عليه السلام من اختلاف أصحابه عليه، فجاءه، فلم يَرُغْ علياً عليه السلام إلا وهو قائم على رأسه بالعراق، فقال له: أبا مريم، ما جاء بك نحوي؟ قال: ما جاء بي غيرك، عهدي بك لو وليت أمر الأمة كفيئتهم، ثم سمعت بما أنت فيه من الاختلاف! فقال: يا أبا مريم، إني مُنِيتُ بِشَرَارِ خَلْقِ اللَّهِ، أريدُهم على الأمر الذي هو الرأي، فلا يتبعونني.

وروى ابن ديزيل عن عبد الله بن عمر، عن زيد بن الحُبَابِ، عن علاء بن جرير العنبري، عن الحكم بن عمير الثمالي - وكانت أمه بنت أبي سفيان بن حرب - قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه ذات يوم: «كيف بك يا أبا بكر إذا وليت؟» قال: لا يكونُ ذلك أبداً، قال: «فكيف بك يا عُمَرُ إذا وليت؟» فقال: آكل حَجَرًا، لقد لقيت إذْناً شراً، قال: «فكيف بك يا عثمان إذا وليت؟» قال: آكلُ وأطعمُ وأقسُمُ ولا أظلمُ، قال: «فكيف بك يا علي إذا وليت؟» قال: آكلُ

القوت وأحمي الجَمْرَةَ، وأقسَم التمرة، وأخفي الصورة - قال: أي العورة - فقال ﷺ: «أما إنكم كلَّكم سَيِّلي وسيرى الله أعمالكم»، ثم قال: «يا معاوية، كيف بك إذا وليت؟» قال: الله ورسوله أعلم فقال: «أنت رأس الحُطَم، ومفتاح الظلم، حصباً وحقياً، تتخذ الحسن قبيحاً، والسيئة حسنة يربو فيها الصغير، ويهرم فيها الكبير، أجلك يسير، وظلمك عظيم».

وروى ابن ديزيل أيضاً عن عمر بن عون، عن هشيم، عن أبي فلج، عن عمرو بن ميمون، قال: قال عبد الله بن مسعود: كيف أنتم إذا لقيتكم فتنة يهرم فيها الكبير، ويربو فيها الصغير، تجري بين الناس، ويتخذونها سنة، فإذا غيَّرت قيل: هذا منكراً

وروى ابن ديزيل، قال: حدثنا الحسن بن الربيع البجلي، عن أبي إسحاق الفزاري عن حميد الطويل، عن أنس بن مالك، في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا تَذَهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَفِعُونَ﴾ (١) أو تُرِينَاكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ (٢). قال: أكرم الله تعالى نبيه ﷺ أن يريه في أمته ما يكره رفعه إليه، وبقيت النعمة.

قال ابن ديزيل: حدثنا عبد الله بن عمر، قال: حدثنا عمرو بن محمد، قال: أخبرنا أسباط، عن السدي، عن أبي المنهال، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ وآله: «سألت ربي لأمتي ثلاث خلال، فأعطاني اثنين، ومنعني واحدة: سأله ألا تكفر أمتي صفة واحدة فأعطانيها، وسأله ألا يعذبهم بما عذب به الأمم قبلهم فأعطانيها، وسأله ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها» (٣).

قال ابن ديزيل: وحدثنا يحيى بن عبد الله الكرابيسي، قال: حدثنا أبو غريب، قال: حدثنا أبو معاوية، عن عمار بن زريق، عن عمار الدهني، عن سالم بن أبي الجعد قال: جاء رجل إلى عبد الله بن مسعود، فقال: إن الله تعالى قد آمننا أن يظلمنا، ولم يؤمننا أن يفتننا، أرايت إذا أنزلت فتنة، كيف أصنع؟ فقال: عليك كتاب الله تعالى، قال: أفرأيت إن جاء قوم كلهم يدعو

(١) سورة الزخرف، الآيتان: (٤١، ٤٢).

(٢) أخرج نحوه مسلم في الفتن وأشراط الساعة باب: هلاك هذه الأمة بعضهم بعضاً (٢٨٩٠)، وأحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة، باب: مسند أبي إسحاق يعبد بن أبي وقاص (١٥١٩)، والهيتمي في «مجمع الزوائد» (٧/٢٢٢).

إلى كتاب الله تعالى؟ فقال ابن مسعود: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا اختلف الناس كان ابن سمية مع الحق»^(١)، يعني عمّاراً.

وروى ابن ديزيل، قال: حدثنا يحيى بن زكريا، قال: حدثنا علي بن القاسم، عن سعيد بن طارق، عن عثمان بن القاسم، عن زيد بن أرقم، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أدلكم على ما إن نساء لتم عليه لم تهلكوا؟ إن وليكم الله، وإن إمامكم علي بن أبي طالب، فناصره وصدقوه، فإن جبريل أخبرني بذلك»^(٢).

فإن قلت: هذا نص صريح في الإمامة، فما الذي تصنع المعتزلة بذلك؟ قلت: يجوز أن يريد أنه أمامهم في الفتاوى والأحكام الشرعية، لا في الخلافة وأيضاً فإننا قد شرحنا من قول شيوخنا البغداديين ما حصله: إن الإمامة كانت لعلي عليه السلام إن رغب فيه ونازع عليها، وإن أقرها في غيره وسكت عنها تولينا ذلك الغير، وقلنا بصحة خلافته، وأمير المؤمنين عليه السلام لم ينزع الأئمة الثلاثة، ولا جرد السيف، ولا استنجد بالناس عليهم، فدل ذلك على إقراره لهم على ما كانوا فيه، فلذلك توليناهم، وقلنا فيهم بالطهارة والخير والصلاح، ولو حاربهم وجرد السيف عليهم، واستصرخ العرب على حربهم لقلنا فيهم ما قلناه فيمن عامله هذه العاملة من التسيق والتضليل.

قال ابن ديزيل: وحدثنا عمرو بن الربيع، قال: حدثنا السري بن شيبان، عن عبد الكريم، أن عمر بن الخطاب قال لما طعن: يا أصحاب محمد تناصحوا، فإنكم إن لم تفعلوا غلبكم عليها عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان.

قلت: إن محمد بن النعمان المعروف بالمفيد أحد الإمامية قال في بعض كتبه: إنما أراد عمر بهذا القول إغراء معاوية وعمرو بن العاص بطلب الخلافة وإطماعهما فيها؛ لأن معاوية كان عامله وأميره على الشام، وعمرو بن العاص عامله وأميره على مصر، وخاف أن يضعف عثمان عنها، وأن تصير إلى علي عليه السلام، فألقى هذا الكلمة إلى الناس لتنتقل إليهما - وهما بمصر والشام - فيتغلبا على هذين الإقليمين إن أفضت إلى علي عليه السلام.

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠٠٧١)، والديلمي في «الفردوس» (١٢٩١)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٤٣/٧).

(٢) رواه الطبري في المسترشد: ٦٣٢، والحسكاني في الشواهد: ٢٢٥/٢.

وهذا عندي من باب الاستنباطات التي يُوجبها الشنآن والحق^(١)، وعمر كان أثقى لله من أن يخطر له هذا، ولكنه من فراسته الصادقة التي كان يعلم بها كثيراً من الأمور المستقبلية، كما قال عبد الله بن عباس في وصفه: والله ما كان أوس بن حَجَر عَنِّي أحداً سواه بقوله:

الْأَمْعَى الَّذِي يَظُنُّ بِكَ الظَّنَّ كَانَ قَدْ رَأَى وَقَدْ سَمِعَا

وروى ابن ديزيل، عن عَفَّان بن مسلم، عن وهب بن خالد، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن أبي الأشعث، عن مرة بن كعب، قال: ذكر رسول الله ﷺ فتنة فقربها، فمرَّ رجل ■ تقنّع بثوبه، فقال ﷺ: «هذا وأصحابه يومئذ على الحق»، فقامت إليه فأخذت بمنكبه، فقلت: هو هذا؟ فقال: «نعم»، فإذا هو عثمان بن عفان^(٢).

قلت: هذا الحديث قد رواه كثيراً من محققي أصحاب الحديث، ورواه محمد بن إسماعيل البخاري في «تاريخه الكبير» بعدة روايات. وليس لقائل أن يقول: فهذا الحديث إذا صحّحتوه كان حجة للسفّانية، لأننا نقول: الخبر يتضمن أن عثمان وأصحابه على الحق، وهذا مذهبنا؛ لأننا نذهب إلى أن عثمان قتل مظلوماً، وأنه وناصريه يوم الدار على الحق، وأن القوم الذين قتلوه لم يكونوا على الحق، فاما معاوية وأهل الشام الذين حاربوا علياً عليه السلام بصفيين فليسوا بداخلين في الخبر، ولا في الفاظ الخبر لفظ عموم يتعلق به، ألا ترى أنه ليس فيه كل من أظهر الانتصار لعثمان في حياته وبعد وفاته فهو على الحق، وإنما خلاصته أنه ستقوم فتنة، يكون عثمان فيها وأصحابه الحق، ونحن لا نأبى ذلك، بل هو مذهبنا.

وروى نصر بن مزاحم في كتاب «صفيين»^(٣) قال: لما قدم عبيد الله بن عمر بن الخطاب على معاوية بالشام، أرسل معاوية إلى عمرو بن العاص: إن الله قد أحيا لك عمر بن الخطاب بالشام بقوم عبيد الله بن عمر، وقد رأيت أن أقيم خطيباً يشهد على علي بقتل عثمان، وينال منه، فقال: الرأي ما رأيك، إليه، فاتاه، فقال له معاوية: يا بن أخي، إن لك اسم يبك فانظر بملء عينيك، وانطق بملء فمك، فانت المأمون المصدق، فاصعد المنبر واشتم علياً، واشهد عليه أنه قتل عثمان.

فقال: أيها الأمير، أما شتمه، فإن أباه أبو طالب، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم، فما

(١) الحق: الغيظ. القاموس، مادة (حق).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده: ٢٣٥/٤. وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه: ٤٨٧/٧.

(٣) صفيين: للإمام أبي الفضل نصر بن مزاحم بن سيار المنقري المؤرخ، المتوفى سنة (٢١٢هـ). الأعلام للزركلي (٢٨/٨).

عسى أن أقول في حسبه! وأما بأشبه فهو الشجاع المطرق، وأما أيامه فما قد عرفت، ولكني ملزمه دم عثمان، فقال عمرو بن العاص: قد وأيك إذن نكأت القرحة^(١).

فلما خرج عبيد الله بن عمر، قال معاوية: أما والله لولا قتله الهُرمزان، ومخافته علياً على نفسه ما أتانا أبداً، ألا ترى إلى تقرظه علياً! فقال عمرو: يا معاوية إن لم تغلب فاخلب، قال: وخرج حديثهما إلى عبيد الله، فلما قام خطيباً تكلم بحاجته، فلما أنتهى إلى أمر علي أمسك ولم يقل شيئاً، فلما نزلت بعث إليه معاوية: يا بن أخي، إنك بين عتي وخيانة، فبعث إليه: إني كرهت أن أقطع الشهادة على رجل لم يقتل عثمان، وعرفت أن الناس محتملوها عني فتركها.

قال: فهجره معاوية واستخفت به وفسقه، فقال عبيد الله:

مُعَاوِيَ لَمْ أُخْرِضْ بِخُطْبَةٍ خَاطِبٍ
وَلَكِنِّي زَاوَلْتُ نَفْساً أَبِيَّةً
وَقَذَفِي عَلِيّاً بَابِنَ عَفَّانَ جَهْرَةً
وَلَكِنَّهُ قَدْ قَرَّبَ الْقَوْمَ جُهْدَهُ
فَمَا قَالَ: أَخَسَنْتُمْ وَلَا قَدْ أَسَأْتُمْ
فَأَمَّا ابْنُ عَفَّانٍ فَأَشْهَدُ أَنَّهُ
وَقَدْ كَانَ فِيهَا لِلزَّبِيرِ عَجَاجَةٌ
وَقَدْ أَظْهَرَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ تَوْبَةً
وَلَمْ أَكْ عَبِيّاً فِي لُؤْيٍ بِنِ غَالِبٍ
عَلَى قَذْفِ شَيْخٍ بِالْعِرَاقِينَ غَائِبٍ
كِذَابٌ، وَمَا طَبَّي سَجَايَا الْمُكَاذِبِ
وَدَبُّوا حَوَالِيهِ دَبِيبَ الْعَقَارِبِ
وَأَطْرَقَ إِطْرَاقُ الشُّجَاعِ الْمَوَائِبِ
أَصِيبَ بَرِيئاً لَا بَساً ثَوْبَ تَائِبٍ
وَطَلَحَةُ فِيهَا جَاهِدٌ غَيْرُ لَاصِبٍ
فِيَالَيْتِ شِغْرِي مَا هُمَا فِي الْعَوَاقِبِ
قَالَ: فَلَمَّا بَلَغَ مُعَاوِيَةَ شَعْرَهُ بَعَثَ إِلَيْهِ فَأَرْضَاهُ، وَقَالَ: حَسْبِيَ هَذَا مِنْكَ.

وروى نصر، عن عبيد الله بن موسى، قال: سمعتُ سُفْيَانَ بْنَ سَعِيدٍ الْمَعْرُوفَ بِسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، يَقُولُ: مَا أَشْكُ أَنَّ طَلْحَةَ وَالزَّبِيرَ بَايَعَا عَلِيّاً، وَمَا نَقَمَا عَلَيْهِ جَوْرًا فِي حُكْمٍ وَلَا اسْتِثَارًا بَغْيًا، وَمَا قَاتَلَ عَلِيّاً أَحَدٌ إِلَّا وَعَلِيٌّ أَوْلَى بِالْحَقِّ مِنْهُ.

وروى نصر بن مزاحم أنَّ عَلِيّاً عليه السلام قَدِمَ مِنَ الْبَصْرَةِ فِي غُرَّةِ شَهْرِ رَجَبٍ مِنْ سَنَةِ سِتٍّ وَثَلَاثِينَ إِلَى الْكُوفَةِ، وَأَقَامَ بِهَا سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، تَجْرِي الْكُتُبُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُعَاوِيَةَ وَعَمْرُو بْنِ الْعَاصِ، حَتَّى سَارَ إِلَى الشَّامِ.

قال نصر: وَقَدْ رُوِيَ مِنْ طَرِيقِ أَبِي الْكَنْدُودِ وَغَيْرِهِ أَنَّهُ قَدِمَ الْكُوفَةَ بَعْدَ وَقْعَةِ الْجَمَلِ، لَاثْنَتَيْ عَشْرَةَ لَيْلَةً خَلَّتْ مِنْ شَهْرِ رَجَبٍ سَنَةِ سِتٍّ وَثَلَاثِينَ.

(١) القرحة: الجراحة. اللسان، مادة (قرح).

قال نصر: فدخل الكوفة ومع أشراف الناس من أهل البصرة وغيرهم، فاستقبله أهل الكوفة، وفيهم قرآؤهم وأشرافهم، فدعوا له بالبركة، وقالوا: يا أمير المؤمنين، أين تنزل؟ أنزل القصر؟ قال: لا، ولكني أنزل الرحبة، فنزلها وأقبل حتى دخل المسجد الأعظم، فصلّى فيه ركعتين، ثم صعد المنبر فحمد الله، وأثنى عليه وصلى على رسوله، ثم قال:

أما بعد يا أهل الكوفة، فإنّ لكم في الإسلام فضلاً ما لم تبدّلوا وتغيّروا، دعوتكم إلى الحق فأجبتكم، وبدأتكم بالمنكر فغيّرتكم، ألا إنّ فضلكم فيما بينكم وبين الله، فأما في الأحكام والقسم فأنتم أسوة غيركم ممن أجابكم، ودخل فيما دخلتم فيه. ألا إنّ أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى، وطول الأمل، أما اتباع الهوى فيصدّ عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة، ألا إنّ الدنيا قد ترخّلت مدبرة، وإن الآخرة قد ترخّلت مقبلة، ولكلّ واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة. اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل، الحمد لله الذي نصّر وليه، وخدّل عدوه، وأعزّ الصادق المحق، وأذلّ الناكث المبطل.

عليكم بتقوى الله وطاعة من أطاع الله من أهل بيت نبيكم، الذين هم أولى بطاعتكم فيما أطاعوا الله فيه من المستحلّين المذّعين المقابلين إلينا، يتفضلون بفضلنا، ويجاهدوننا أمرنا، وينازعوننا حقنا، ويّباعدوننا عنه، فقد ذاقوا وبّال ما اجتروحوا فسوف يلقون عيّا. ألا إنه قد قعد عن نصرتي رجال منكم، وأنا عليهم عاتب زار^(١)، فاهجروهم واسمعوهم ما يكرهون، حتى يُعتبوا ليعرف بذلك حزب الله عند الفرقة.

فقام إليه مالك بن حبيب اليربوعي - وكان صاحب شرطته - فقال: والله إني لأرى الهجر وسماع المكروه لهم قليلاً، والله لو أمرتنا لنقتلنهم. فقال علي عليه السلام: سبحان الله يا مال! أجزت المدي، وعدّوت الحدّ، فأغرقت في التزع. فقال: يا أمير المؤمنين، لبغض الغشم أبلغ في أمر ينوبك من مهادة الأعداء، فقال علي عليه السلام: ليس هكذا قضى الله، يا مال، قال سبحانه: ﴿النَّفْسُ بِالنَّفْسِ﴾^(٢) فما بال ذكّر الغشم! وقال تعالى: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِرَؤُسِهِ سُلْطٰنًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ﴾^(٣). والإسراف في القتل أن تقتل غير قاتلك، فقد نهى الله عنه، وذاك هو الغشم.

فقام إليه أبو بريدة بن عوف الأزدي - وكان ممن تخلف عنه - فقال: يا أمير المؤمنين، أرايت القتلى حول عائشة وطلحة والزبير، علام قُتلوا؟ - أو قال: بسم قتلوا؟ - فقال علي عليه السلام: قُتلوا بما قُتلوا شييعتي وعُمالي، وقتلوا أخا ربيعة الغبدي في عصابة من المسلمين،

(١) زار: عاتب ساخط غير راض. اللسان، مادة (زري).

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٥. (٣) سورة الإسراء، الآية: ٣٣.

قالوا: إنا لا ننكث كما نكثتم، ولا نغدير كما غدرتم، فوثبوا عليهم فقتلوهم، فسألتهم أن يدفعوا إلي قتل إخواني أقتلهم بهم، ثم كتاب الله حكم بيني وبينهم، فأبوا علي، وقاتلوني - وفي أعناقهم يتي، ودعاء قريب من ألف رجل من شيعة - فقتلتهم، أفي شك أنت من ذلك؟ فقال: قد كنت في شك، فأما الآن فقد عرفت، واستبان لي خطأ القوم، وإنك المهتدي المصيب.

قال نصر: وكان أشياخ الحن يذكرون أنه كان عثمانياً، وقد شهد على ذلك صفيين مع علي عليه السلام، ولكنه بعدما رجع كان يكاتب معاوية، فلما ظهر معاوية أقطعه قطيعة بالفلوجة، وكان عليه كريماً.

قال: ثم إن علياً عليه السلام نهياً لينزل، وقام رجال ليتكلموا، فلما رأوه نزل جلسوا وسكتوا.

قال: ونزل علي عليه السلام بالكوفة على جعدة بن هيرة المخزومي.

قلت: جعدة ابن اخته أم هانئ بنت أبي طالب، كانت تحت هيرة بن أبي وهب المخزومي، فأولدها جعدة، وكان شريفاً.

قال نصر: ولما قدم علي عليه السلام إلى الكوفة نزل على باب المسجد، فدخل فصلّى، ثم تحول فجلس إليه الناس، فسأل عن رجل من الصحابة كان نزل الكوفة، فقال قائل: استأثر الله به، فقال علي عليه السلام: إن الله تبارك وتعالى لا يستأثر بأحد من خلقه، إنما أراد الله جلّ ذكره بالموت إعزازاً لنفسه، وإذلالاً لخلق، وقرأ ﴿وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُبَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُخَيِّبُكُمْ﴾^(١)، قال نصر: فلما لحقه عليه السلام ثقله قالوا: أنزل القصر؟ فقال: قصر الخبال، لا تنزلوا فيه.

قال نصر: ودخل سليمان بن صرد الخزاعي على علي عليه السلام، مرجعه من البصرة فعاتبه وعذله، وقال له: ارتبث وترتبت وراغوت، وقد كنت من أوثق الناس في نفسي، وأسرعهم فيما أظن إلى نصرتي، فما قعد بك عن أهل بيت نبيك؟ وما زهدك في نصرتهم؟

فقال: يا أمير المؤمنين، لا تردن الأمور على أعقابها، ولا تؤنّبني بما مضى منها، واستبق مودتي تخلص لك نصيحتي، فقد بقيت أمور تعرف فيها عدوك من وليك.

فسكت عنه، وجلس سليمان قليلاً، ثم نهض، فخرج إلى الحسن بن علي عليه السلام، وهو قاعد في باب المسجد، فقال: ألا أعجبك من أمير المؤمنين، وما لقيت منه من التوبيخ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨.

والتبكي؟ فقال الحسن: إنما يعاتب مَنْ تُرجى مودته ونصيحته، فقال: لقد وثبت أمور ستنشر فيها القنا، وتنتفى فيها السيوف، ويحتاج فيها إلى أشباهي، فلا تستغثوا عني، ولا تتهموا نصحي.

فقال الحسن: رحمك الله، ما أنت عندك بقلنين.

قال نصر: ودخل عليه سعيد بن قيس الأزدي، فسلم عليه، فقال: وعليك السلام وإن كنت من المتربصين! قال: حاش لله يا أمير المؤمنين! فإني لست من أولئك. فقال: لعل الله فعل ذلك.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، قال: حدثنا يحيى بن سعيد، عن محمد بن مخنف، قال: دخلت مع أبي علي عليه السلام، مقدمه من البصرة، وهو عام بلغت الحلم، فإذا بيت يديه رجال يؤنبهم، ويقول لهم: ما أبطأ بكم عني، وأنتم أشراف قومكم! والله إن كان من ضعف النية وتقصير البصيرة إنكم لبور^(١)، وإن كان من شك في فضلي ومظاهرة علي، إنكم لعدو.

فقالوا: حاش لله يا أمير المؤمنين! نحن سيلمك وحزب عدوك. ثم اعتذر القوم فمنهم من ذكر عذراً ومنهم من اعتل بمرض، ومنهم من ذكر غيبة، فنظرت إليهم فعرفتهم، فإذا عبد الله المعتم العبسي، وحنظلة بن الربيع التميمي، وكلاهما كانت له صحبة، وإذا أبو بريدة بن عوف الأزدي، وإذا غريب بن شرحبيل الهمداني.

قال: ونظر علي عليه السلام إلى أبي، فقال: ولكن مخنف بن مسلم وقومه لم يتخلفوا، ولم يكن مثلهم كمثل القوم الذي قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَا يَنْفَعُ لِمَنْ يُبْلَغُ فَإِنْ أَصَابَتْكُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَتَمَّ اللَّهُ عَلَىٰ إِذْ لَرَأَىٰ أَمْرَهُمْ شَهِيدًا ۖ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ يَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلْبَسْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^(٢).

قال نصر: ثم إن علياً عليه السلام مكث بالكوفة، فقال الشنقي في ذلك، شن بن عبد القيس: قُلْ لِهَذَا الْإِمَامِ قَدْ خَبَتِ الْحَزْبُ وَفَزَعْنَا مِنْ حَزْبٍ مِّنْ نَّقْضِ الْعَهْدِ تَنَفَّتِ السَّمُّ مَا لِمَنْ نَهَشَتْهُ إِنَّهُ وَالَّذِي يَحْجُ لُهُ النَّا بٌ وَتَمَّتْ بِذَلِكَ النُّعْمَاءُ وَبِالشَّامِ حَيَّةٌ صُمَاءُ - فَارْمَاهَا قَبْلَ أَنْ تَعَضَّ - شِفَاءُ سٌ وَمِنْ دُونِ بَيْتِهِ الْبَيْدَاءُ

(١) بور: هلكى. اللسان، مادة (بور).

(٢) سورة النساء، الآيةان: ٧٢، ٧٣.

لَضَعِيفُ الثُّخَاعِ إِنَّ رُؤْيَى الْيَوْمِ
تَتَبَارَى بِكُلِّ أَصِيدٍ كَالْفَخْرِ
إِنْ تَذَرُهُ فَمَا مَعَاوِيَةُ الدَّفْعِ
وَلَنْ يُنِيلَ السَّمَاءُ أَقْرَبُ مِنْ ذَا
كَ وَنَجْمُ الْعَيْتُوقِ وَالْعَوَاءُ^(١)
لَيْسَ وَاللَّهِ خَيْرَ ذَاكَ دَوَاءً^(٢)

قال نصر: وأتمم علي عليه السلام صلاته يوم دخل الكوفة، فلما كانت الجمعة خطب الناس، فقال:

الحمد لله الذي أحمدته وأستعينه وأستهديه، وأعوذ بالله من الضلالة، مَنْ يَهْدِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضِلِّ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، انتجبه لأمره، واختصه بنبوته. أكرم خلقه عليه، وأحبهم إليه، فبلغ رسالة ربه، ونصح لأمته، وأدى الذي عليه.

أوصيكم بتقوى الله، فإن تقوى الله خيراً ما تواصى به عباد الله، وأقرب به إلى رضوان الله، وخير في عواقب الأمور عند الله، ويتقوى الله أمرئكم، وللإحسان والطاعة خلقتكم، فاحذروا من الله ما حذركم من نفسه، فإنه حذر بأساً شديداً، واخشوا خشية ليست بتعذير واعملوا في غير رياء ولا سُنْعة، فإنه من عمل لغير الله وكُله الله إلى ما عمل له، ومن عمل لله مخلصاً تولى الله أجره. أشفقوا من عذاب الله، فإنه لم يخلقكم عبثاً، ولم يترك شيئاً من أمركم سدى، قد سعى آثاركم، وعلم أعمالكم، وكتب آجالكم، فلا تغتروا بالدنيا فإنها غرارة لأهلها، مغرور من اغتر بها، وإلى فناء ما هي، وإن الآخرة هي دار الحيوان لو كان يعلمون. أسأل الله منازل الشهداء، ومرافقة الأنبياء، ومعيشة السعداء، فإنما نحن به وله.

قال نصر: ثم استعمل علي عليه السلام العمال وفرقهم في البلاد، وكتب إلى معاوية مع جرير بن عبد الله البجلي ما تقدم ذكره.

قال نصر: وقال معاوية لعمر بن العاص، أيام كان جرير عنده ينتظر جوابه: إني قد رأيت أن نلقي إلى أهل مكة وأهل المدينة كتاباً، نذكر فيه أمر عثمان، فلما أن نذكر به حاجتنا، أو نكف القوم عنا، فقال له عمرو: إنما تكتب إلى ثلاثة نفر: رجل راضٍ بعلي فلا يزيدك كتابك إلا بصيرة فيه، أو رجل يهوى عثمان، فلن يزيدك كتابك على ما هو عليه، أو رجل معتزل، فلست في نفسه بأوثق من علي.

(١) العيتوق: فحم مضيء في طرق المجرة الأيمن يتلو الثريا لا يتقدمه. اللسام، مادة (عوق).

(٢) العواء: منزل للقمر خمسة كواكب أو أربعة كأنها كتابة ألف. القاموس، مادة (عوي).

قال: عليّ ذاك، فكتبنا:

أما بعد، فإنه مهما غابَ عَنَّا من الأمور فلم يغب عَنَّا أن علياً قتل عثمان، والدليلُ على ذلك مكانُ قتلته منه، وإنّما نطلب قتلته، حتى يُدفعوا إلينا، فنقتلهم بكتاب الله عزّ وجلّ، فإن دفعهم عليّ إلينا كفّفنا عنه، وجعلناها شوري بين المسلمين على ما جعلها عليه عمر بن الخطاب. فأما الخلافة فلسنا نطلبها، فأعينونا على أمرنا هذا، وانهضوا من ناحيتكم، فإن أيدينا وأيديكم إذا اجتمعت على أمر واحد هاب عليّ ما هو فيه، والسلام.

فكتب إليهما عبد الله بن عمر:

أما بعد، فلعمري لقد أخطأتما موضع النصرة وتناولتماها من مكان بعيد، وما زاد الله من شك في هذا الأمر بكتابكما إلا شكاً، وما أنتما والمشورة، وما أنتما والخلافة! أما أنت يا معاوية فطليق، وأما أنت يا عمرو فظنين، ألا فكفّا أنفسكما، فليس لكم فينا ولي ولا نصير. والسلام.

قال نصر: وكتب رجل من الأنصار إليهما مع كتاب عبد الله بن عمر:

مُعَاوِيَ إِنَّ الْحَقَّ أَبْلَجُ وَاضِحٌ
نصبت ابن عفان لنا اليوم خذعة
ليس بما رِيضت أنت ولا عمرو
كما نصب الشيخان إذ قضي الأمر
- يعني طلحة والزبير رحمهما الله -

فَهَذَا كَهَذَا الْبَلَاءُ خَذَوْ نَعْلَهُ
رَمَيْتُمْ عَلِيّاً بِالَّذِي لَا يَضِيرُهُ
وما ذنبه إن نال عثمان معشر
فشار إليه المسلمون بببيعة
وببيعة الشيخان ثم تحملاً
فكان الذي قد كان مما اقتصاصه
وما أنثما والنصر منّا وأنثما
وما أنثما لله ذر أبيكما
سواء كَرَفَرَاقي يُغَرُّ بِهِ السُّفَرُ
وإن عَظُمَتْ فِيهِ الْمَكِيدَةُ وَالْمَكْرُ
أتوه من الأخياء تجمعهم مضر
علانية ما كان فيها لهم قنر
إلى العُمرة العُظْمَى وَيَاطْنُهَا الْعَذْرُ
يطول، فيالله ما أخذت الدفر
بعيثاً حُرُوب ما يبوخ لها جمر^(١)
وذكركما الشورى وقد وضخ الفجر

قال نصر: وقام عدي بن حاتم الطائي إلى عليّ عليه السلام، فقال: يا أمير المؤمنين، إن عندي رجلاً لا يوازي به رجل، وهو يريد أن يزور ابن عمه حابس بن سعد الطائي بالشام، فلو أمرناه

(١) يبوخ: يسكن. اللسان، مادة (بوخ).

أن يلقي معاوية لعله أن يكسره ويكسر أهل الشام، فقال علي عليه السلام: نعم، فأمره عدي بذلك - وكان اسم الرجل خُفاف بن عبد الله.

فقدم على ابن عمه حابس بن سعد بالشام - وحابس سيد طيء بها - فحدث خُفاف حابساً أنه شهد عثمان بالمدينة، وسار مع علي إلى الكوفة، وكان لخُفاف لسان وهيئة وشعر، فغدا حابس بخُفاف إلى معاوية، فقال: إن هذا ابن عم لي، قدم الكوفة مع علي، وشهد عثمان بالمدينة، وهو ثقة. فقال له معاوية: هات، حدثنا عن عثمان، فقال: نعم حصره المكشوح وحُكِّم فيه حُكيم، ووليه عمار، وتجرد في أمره ثلاثة نفر: عدي بن حاتم والأشتر النخعي، وعمر بن الحمق، وجد في أمره رجُلان وطلحة والزبير، وأبرأ الناس منه علي. قال: ثم مَه، قال: ثم تهاقَّت الناس على علي بالبيعة تهاقَّت الفُراش، حتى ضاعت النعل وسقط الرداء، ووُطِئَ الشيخ. ولم يذكر عثمان ولم يُذكر له، ثم تهيأ للمسير، وخفت معه المهاجرون والأنصار، وكره القتال معه ثلاثة نفر: سعد بن مالك، وعبد الله بن عمر، ومحمد بن مسلمة، فلم يتسكروا أحداً، واستغنى بمن خُف معه عَمَّن ثَقُل. ثم سار حتى أتى جبل طيء، فأتته منّا جماعة كان ضارباً بهم الناس، حتى إذا كان ببعض الطريق أتاه مسير طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة، فسرح رجل إلى الكوفة يدعونهم، فأجابوا دعوته، فسار إلى البصرة، فإذا هي في كَفه، ثم قدم الكوفة فحول إليه الصبي، ودبت إليه العجوز، وخرجت إليه العروس فرحاً به وشوقاً إليه، وتركته وليس له همة إلا الشام.

فذعر معاوية من قوله، وقال حابس: أيها الأمير، لقد أسمعني شعراً غير به حالي في عثمان، وعظم به علياً عندي.

فقال معاوية: أسمعني يا خُفاف، فأنشده شعراً أوله:

قُلْتُ وَاللَّيْلِ سَاقِطُ الْأَكْنَفِ وَلِجَنَّبِي عَنِ الْفِرَاشِ تَجَافِ

- يذكر فيه حال عثمان وقلته، وفيه إطالة عدلنا عن ذكره... ومن جملته:

قَدْ مَضَى مَا مَضَى وَمَرَّ بِهِ الدَّفَرُ كَمَا مَرَّ ذَاهِبُ الْأَسْلَافِ

إِنْسِي وَالَّذِي يَحُجُّ لَه النَّا سِ عَلَى لُغَيِّ الْبُطُونِ عَجَافِ

تَبَارَى مِثْلَ الْقَيْسِ مِنَ النَّبِيعِ بِشَغَبِ مِثْلِ السُّهَامِ نَحَافِ

ارْهَبَ الْيَوْمَ إِنْ أَتَاكُمْ عَلِيٌّ صَنِيعَةً مِثْلَ صَنِيعَةِ الْأَحْقَافِ

إِنَّهُ اللَّيْثُ غَادِيًا وَشُجَاعٌ مُطَرِّقٌ نَافَتْ بِسَمِّ زُعَافٍ^(١)

(١) سَمُّ زُعَافٍ: قَاتِلُ. اللسان، مادة (زعف).

واضعُ السيفِ فوق عاتقة الأيـ
سَوِّمَ الخيلَ ثم قال لقوم
استعدوا لحربِ طاغية الشا
ثم قالوا أنتَ الجناح لك الرـ
فانظر اليوم قبل بادرة القـ
قال: فانكسر معاوية، وقال: يا حابس، إني لأظن هذا عينا لعلي، وأخرجه عنك لئلا يُفسد
علينا أهل الشام.

قال نصر: وحدثنا عطية بن عَنِّي، عن زياد بن رستم، قال: كتب معاوية إلى عبد الله بن
عمر خاضة، وإلى سعد بن أبي وقاص، وإلى محمد بن مسلمة، دُونَ كتابه إلى أهل المدينة،
فكان كتابه إلى عبد الله بن عمر:

أما بعد، فإنه لم يكن أحدٌ من قريش أحبَّ إليَّ أن يجتمعَ عليه الناس بعد قتل عثمان منك،
ثم ذكرتُ خذلك إياه، وطعنك على أنصاره، فتغيرتُ لك، وقد هَوَّنَ ذلك عليَّ خلافتك على
عليّ، ومحا عنك بعض ما كان منك فأعنا - رحمك الله - على حقِّ هذا الخليفة المظلوم، فإني
لست أريد الإمارة عليك، ولكني أريدُها لك، فإن آيتَ كانت شوري بين المسلمين.
فأجابه عبد الله بن عمر:

أما بعد، فإن الرأي الذي أطمعك في، هو الذي صبرك إلي ما صبرك إليه، أترك عليا في
المهاجرين والأنصار، وطلحة والزبير وعائشة أم المؤمنين، وأتبعك! وأما زعمك أني طعنتُ
على عليّ، فلمعري ما أنا كعليّ في الإيمان والهجرة، ومكانه من رسول الله ﷺ، ونكايته في
المشركين، ولكني عهد إليّ في هذا الأمر عهداً، ففرغت فيه إلى الوقوف وقلت: إن كان هذا
هُدًى ففضلُ تركته، وإن كان ضلالاً فشرُّ نجوت منه، فأغني عَنَّا نفسك. والسلام.

قال: وكان كتاب معاوية إلى سعد:

أما بعد، فإن أحقَّ الناس بنصر عثمان أهلُ الشورى من قريش، الذين أثبتوا حقه واختاروه
على غيره، وقد نصره طلحة والزبير، وهما شريكان في الأمر، ونظيراك في الإسلام، وخفت
لذلك أم المؤمنين، فلا تكرهنَّ ما رضوا، ولا تردنَّ ما قبلوا، فإننا نردّها شوري بين المسلمين.
فأجابه سعد:

أما بعد، فإن عمر لم يُدخل في الشورى إلا مَنْ تَحِلَّ له الخلافة من قريش، فلم يكن أحد

(١) شؤون القحاف: الشعب التي تجمع بين قبائل الرأس وهي أربعة شؤون. اللسان، مادة (شان).

منا أحق بها من صاحبه إلا بإجماعنا عليه، ألا إن علياً كان فيه ما فينا، ولم يكن فينا ما فيه، وهذا أمر قد كرهت أوله، وكرهت آخره، فأما طلحة والزبير فلو لزمنا بيوتهما لكان خيراً لهما، والله يغفر لآم المؤمنين ما أتت. والسلام.

قال: وكان كتاب معاوية إلى محمد بن مسلمة:

أما بعد، فإني لم أكتب إليك وأنا أرجو مبايعتك، ولكنني أردت أن أذكرك النعمة التي خرجت منها، والشك الذي صرت إليه، إنك فارس الأنصار، وعدة المهاجرين، وقد ادّعت على رسول الله ﷺ أمراً لم تستطع إلا أن تمضي عليه، وهو أنه نهاك عن قتال أهل القبلة، أفلا نهيت أهل القبلة عن قتال بعضهم بعضاً فقد كان عليك أن تكره لهم ما كره رسول الله ﷺ، ألم تر عثمان وأهل الدار من أهل القبلة! فأما قومك فقد عصوا الله، وخذلوا عثمان، والله سائلهم وسائلك عما كان يوم القيامة. والسلام.

قال: فكتب إليه محمد بن مسلمة:

أما بعد، فقد اعتزل هذا الأمر من ليس في يده من رسول الله ﷺ مثل الذي في يده، قد أخبرني رسول الله ﷺ بالذي هو كائن قبل أن يكون، فلما كان كسرث سيفي، وجلست في بيتي، واتهمت الرأي على الذين، إذ لم يصح لي معروف أمر به، ولا منكر أنهى عنه. وأما أنت فلعمري ما طلبت إلى الدنيا، ولا اتبعت إلا الهوى وإن تنصر عثمان ميتاً فقد خذلت حياً، والسلام.

جرير البجلي يفارق علياً عليه السلام

قد أتينا على ما أردنا ذكره من حال أمير المؤمنين عليه السلام، مذ قدم من حرب البصرة إلى الكوفة، وما جرى بينه وبين معاوية من المراسلات، وما جرى بين معاوية وبين غيره من الصحابة من الاستنجاد والاستصراخ، وما أجابوه به، ونحن نذكر الآن ما جرى لجرير بن عبد الله عند عودته إلى أمير المؤمنين من تهمة الشيعة له بممالة معاوية عليهم، ومفارقتهم جنة أمير المؤمنين.

قال نصر بن مزاحم: حدثنا صالح بن صدقة، بإسناده، قال: قال لما رجع جرير إلى علي عليه السلام، كثر قول الناس في التهمة لجرير في أمر معاوية، فاجتمع جرير والأشتر عند علي عليه السلام، فقال الأشتر: أما والله يا أمير المؤمنين، أن لو كنت أرسلتني إلى معاوية، لكنت خيراً لك من هذا الذي أرخى خنافة، وأقام عنده، حتى لم يدع باباً يرجو فتحه إلا فتنه، ولا باباً يخاف أمره إلا سده.

فقال جرير: لو كنت والله أتيتهم لقتلوك - وخوفه بعمره، وذو الكلاع، وخوشب - وقال: إنهم يزعمون أنك من قتلة عثمان.

فقال الأشر: والله لو أتيتهم يا جرير لم يُعيني جوابها، ولم يثقل عليّ مَحْمَلُهَا، ولحملت معاوية على خُطّة أعجله فيها عن الفِكر.

قال: فائتهم إذاً. قال: الآن وقد أفسدتهم ووقع بينهم الشر!

وروى نصر، عن ثُمير بن وعله، عن الشعبي قال: اجتمع جرير والأشر عند عليّ عليه السلام، فقال الأشر: أليس قد نهيتك يا أمير المؤمنين أن تبعث جريراً، وأخبرتُك بعداوتَه وغلّه! وأقبل الأشر يشتمه، ويقول: يا أخا بَجيلة، إنّ عثمان اشترى منك دينك بهمدان، والله ما أنت بأهل أن تُترك تمشي فوق الأرض، إنما أتيتهم لتتخذَ عندهم يداً بمسيرك إليهم، ثم رجعت إلينا من عندهم، تهددنا بهم، وأنت والله منهم، ولا أرى سعيك إلا لهم، لئن أطاعني فيك أمير المؤمنين ليحبسَنَّك وأشباهك في حبس لا تخرجون منه حتى تُستَتمَ هذه الأمور، ويُهلك الله الظالمين.

قال جرير: وددت والله أن لو كنت مكاني بُعثت، إذن والله لم ترجع.

قال: فلما سمع جرير مثل ذلك من قوله، فارق عليّاً عليه السلام، فليق بقُرّ قيسياء ولحق به ناس من قُسر من قومه، فلم يشهد صِفّين من قُسر غير تسعة عشر رجلاً، ولكن شهدا من أحس سبعمائة رجل.

قال نصر: وقال الأشر فيما كان من تخويف من جرير إياه بعمرو وحوشب وذو الكلاع:

لعمرك يا جريرُ لَقولَ عمرو	وصاحبه معاويَ بالشام
وذو كَلعٍ وحوشبٍ ذي قُلُوبٍ	أخفّ عليّ من ريش النعام
إذا اجتمعوا عليّ فخلّ عنهم	وعن بازٍ مَخالبه دوامي
ولستُ بخائفٍ ما خوّفوني	وكيف أخاف أحلام النيام
وَقَمَّهم الذي حائموا عليه	من التّنيا، وَهَمّي ما أمامي
وإن أسلّم أعتهم بحرب	يُشيب لَهولها رأسُ الغلام
فإن أهلك فقد قتلتُ أمراً	أفوز بقلّجه يَوْمَ الخصام
وقد زادوا عليّ وأوعَدوني	وَمَنْ ذا مات من خَوْفِ الكلام!

وذكر ابن قتيبة في «المعارف»^(١)، أن جريراً قَدِمَ على رسول الله ﷺ سنة عشر من الهجرة في شهر رمضان، فبايعه وأسلم، وكان جريرٌ صبيح الوجه جميلاً، قال رسول الله ﷺ: «كَانَ

(١) «المعارف في التاريخ»: للإمام ابن قتيبة أبي محمد عبد الله بن مسلم الدينوري، المتوفى سنة (٢٦٧هـ). «كشف الظنون» (٢/١٧٢٤).

على وجهه مسحة ملك^(١). وكان عمر يقول: جرير يوسف هذه الأمة. وكان طوالاً يقتل في فزوة البعير من طوله، وكانت نعله ذراعاً، وكان يخضب لحيته بالزعفران من الليل ويغسلها إذا أصبح، فتخرج مثل لون التبر. واعتزل علياً عليه السلام ومعاوية، وأقام بالجزيرة ونواحيها حتى توفي بالشراة سنة أربع وخمسين في ولاية الضحاك بن قيس على الكوفة.

فأما نسبه فقد ذكره ابن الكلبي في «جمهرة الأنساب»^(٢)، فقال: هو جرير بن عبد الله بن جابر بن مالك بن نضر بن ثعلب بن جشم بن عوف بن حرب بن علي بن مالك بن سعد بن بدير بن قنسر واسمه ملك بن عبقر بن أنمار بن أراش بن عمرو بن الغوث بن ثبّت بن زيد بن كهلان.

ويذكر أهل السير أن علياً عليه السلام هدم دار جرير ودور قوم ممن خرج معه، حيث فارق علياً عليه السلام، منهم أبو أراكة بن مالك بن عامر القسري، كان تحتة على ابنته، وموضع داره بالكوفة كان يعرف بدار أبي أراكة قديماً، ولعله اليوم نسي ذلك الاسم.

٤٤ - ومن كلام له عليه السلام لما هرب مصقلة بن هبيرة الشيباني إلى معاوية، وكان قد ابتاع سبي بني ناجية من عامل أمير المؤمنين عليه السلام واعتقه، فلما طالبه بالمال خاس به وهرب إلى الشام، فقال:

الأصل: تَبَعَ اللَّهُ مَصْقَلَةً فَعَلَ فَعَلَ السَّادَةَ، وَفَرَّارَ الْعَيْدِ، فَمَا أَنْطَقَ مَا وَحَهُ حَتَّى أَسْكَنَهُ، وَلَا صَدَّقَ وَاصِفَهُ، حَتَّى بَكَنَهُ، وَلَوْ أَقَامَ لَأَخَذْنَا مَيْسُورَهُ، وَانْتَقَرْنَا بِمَالِهِ وَفُورَهُ.

الشرح: خاس به يخس ويخوس: أي هدر به، وخاس فلان بالعهد: أي نكث. وتبع الله فلاناً: أي نهاه عن الخير، فهو مقبوح.

والتبكيث، كالتقريع والتعنيف. والوفور. مصدر وفر المال: أي تم، ويجيء متعدياً. ويروى «موفوره»، والموفور: التام، وقد أخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال:

(١) أخرجه أحمد في أول مسند الكوفيين، باب: ومن حديث جرير بن عبد الله (١٨٩٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٧١٩٩)، والحاكم في «المستدرک» (١٠٥٣) والنسائي في «الكبرى» (٨٣٠٢).
(٢) «جمهرة الأنساب»: للإمام أبي محمد هشام بن محمد بن السائب الكلبي، المتوفى سنة (٢٠٤هـ). «كشف الظنون» (٦٠٥/١).

يَا مَنْ مَدَّخَنَا فَأَكْذَبْنَا بِفَعَالِهِ وَأَثَابَنَا خَجَلًا
بُرْدًا قَشِيبًا مِنْ مَدَائِحِنَا سُرَيْلَتَ فَارْدَقَهُ لَنَا سَمَلًا^(١)
إِنَّ التَّجَارِبَ تَهْتِكُ الْمُسْتَوْرَ مِنْ أَبْنَائِهَا وَتُبْهَرُجُ الرَّجُلَا^(٢)

من هم بنو ناجية؟

فأما القول في نسب بني ناجية، فإنهم ينسبون أنفسهم إلى سامة بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن في كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. وقريش تدفعهم عن هذا النسب، ويسمّونهم بني ناجية - وهي أمهم، وهي امرأة سامة بن لؤي ابن غالب، ويقولون: إن سامة خرج إلى ناحية البحرين مُغَاخِبًا لأخيه كعب بن لؤي في مُمَاطة^(٣) كانت بينهما، فطأطأت ناقته رأسها لتأخذ العُشب، فعَلِقَ بِمِشْقَرِهَا أَفْعَى، ثم عطفت على قَتْبِهَا فَحَكَّتْهُ بِهِ، فَدَبَّتِ الْأَفْعَى عَلَى الْقَتْبِ حَتَّى نَهَشَ سَاقَ سَامَةَ فَقَتَلَهُ، فَقَالَ أَخُوهُ كَعْبُ بْنُ لُؤْيٍ يَرِثُهُ:

عَيْنُ جُودِي لِسَامَةَ بْنِ لُؤْيٍ عَلِقَتْ سَاقَ سَامَةَ الْعَلَاةُ
رُبَّ كَاسٍ هَرَقَتْهَا ابْنُ لُؤْيٍ حَذَرَ الْمَوْتِ لَمْ تَكُنْ مُهَرَّاقَةً

قالوا: وكانت معه امرأته ناجية، فلما مات تزوّجت رجلاً في البحرين، فولدت منه الحارث، ومات أبوه وهو صغير، فلما ترعرع طبعته أمه أن تُلَحِّقَهُ بِقُرَيْشٍ، فَأَخْبَرَتْهُ أَنَّهُ ابْنُ سَامَةَ بْنِ لُؤْيٍ بْنِ غَالِبٍ، فَرَحَلَ مِنَ الْبَحْرَيْنِ إِلَى مَكَّةَ وَمَعَهُ أُمُّهُ، فَأَخْبَرَ كَعْبُ بْنُ لُؤْيٍ أَنَّهُ ابْنُ أَخِيهِ سَامَةَ، فَعَرَفَ كَعْبُ أُمَّهُ نَاجِيَةَ، فَظَنَّ أَنَّهُ صَادِقٌ فِي دَعْوَاهُ، فَقَبِلَهُ وَمَكَثَ عِنْدَهُ مَدَّةً، حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ رَكْبٌ مِنَ الْبَحْرَيْنِ، فَرَأَوْا الْحَارِثَ، فَسَلَّمُوا عَلَيْهِ، وَحَادِثُوهُ، فَسَأَلَهُمْ كَعْبُ بْنُ لُؤْيٍ، مِنْ أَيْنَ يَعْرِفُونَهُ؟ فَقَالُوا: هَذَا ابْنُ رَجُلٍ مِنْ بَلَدِنَا يُعْرَفُ بِفُلَانٍ، وَشَرَحُوا لَهُ خَبْرَهُ، فَغَفَا كَعْبُ عَنْ مَكَّةَ وَنَفَى أُمَّهُ، فَجَعَا إِلَى الْبَحْرَيْنِ، فَكَانَا هُنَاكَ، وَتَزَوَّجَ الْحَارِثُ، فَأَعْقَبَ هَذَا الْعَقْبُ.

وقال هؤلاء: إِنَّهُ رَوَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «هَتَمِي سَامَةَ لَمْ يُعَقِّبْ»^(٤).

وزعم ابن الكلبي أن سامة بن لؤي ولد غالب بن سامة، والحارث بن سامة - وأم غالب بن سامة ناجية - ثم هلك سامة، فخلف عليها ابنه الحارث بن سامة، نكاح مَقت، ثم هلك ابنها

(١) السمل: الخلق من الثياب. اللسان، مادة (سمل).

(٢) تبهرج: تبيح. اللسان، مادة (بهرج).

(٣) الممطرة: المخاصمة والمشاقة. اللسان، مادة (مضط).

(٤) رواه الثقيفي في الغارات: ٧٧٣/٢. والزيدي في تاج العروس: ٣٥١/٨.

سامة ولم يُعقبا، وإن قوماً من بني ناجية بن جَرْم بن رَيَّان بن عِلَاف، ادَّعوا أنهم بنوا سامة بن لُؤي، وأنَّ أمهم ناجية هذه، ونسبوها هذا النسب، وانتموا إلى الحارث بن سامة، وهم الذين باعهم علي عليه السلام على مصقلة بن هيرة. وهذا هو قول الهيثم بن عدي. كل هذا ذكره أبو الفرج الأصفهاني في كتاب «الأغاني الكبيرة»^(١).

ووجدت أنا في «جمهرة النسب» لابن الكلبي كلاماً قد صرح فيه بأنَّ سامة بن لُؤي أعقب، فقال: وَلَدَ سامة بن لُؤي الحارث وأمه هند بنت تميم - وغالب بن سامة - وأمه ناجية بنت جَرْم بن رَيَّان، من قُضاة، فهلك غالب بعد أبيه، وهو ابن اثنتي عشرة سنة، فولد الحارث بن سامة لُويّاً وعبيدة وربيعة وسعداً، وأمهم سَلَمَى بنت تميم بن شَيْبان بن محارب بن فهر وعبد البيت، وأمه ناجية بنت جَرْم، تخلف عليها الحارث بعد أبيه بنكاح مَقْت، فهم الذين قتلهم علي عليه السلام.

قال أبو الفرج الأصفهاني: أما الزبير بن بكار، فإنه أدخلهم في قريش، وهم قريش العازية، قال: وإنما سُموا العازية، لأنهم عَزَبوا عن قومهم فُسَبوا إلى أمهم ناجية بنت جَرْم بن رَيَّان بن عِلَاف، وهو أول من اتخذ الرِّحال العِلَافِيَّة، فنسبت إليه، واسم ناجية ليلي، وإنما سميت ناجية، لأنها سارت مع سامة في مفازة، فعطشت، فاستسقت، فقال لها: الماء بين يديك، وهو يُريها السراب، حتى أتت إلى الماء فشربت، فسميت ناجية.

قال أبو الفرج: وللزبير بن بكار في إدخالهم في قريش مذهب، وهو مخالفة أمير المؤمنين علي عليه السلام، وميله إليهم، لإجماعهم على بُغضه عليه السلام، حسب المشهور المأثور من مذهب الزبير في ذلك.

أخبار علي بن الجهم

ومن المنتسبين إلى سامة بن لُؤي علي بن الجهم الشاعر، وهو علي بن الجهم بن بدر بن جهم بن مسعود بن أسيد بن أذينة بن كَرَّاز بن كعب بن جابر بن مالك بن عُثبة بن الحارث بن عبد البيت بن سامة بن لُؤي بن غالب.

هكذا ينسب نفسه، وكان مبغضاً لعلي عليه السلام، ينحو نحو مروان بن أبي حفصة في هجاء الطالبين وذم الشيعة، وهو القاتل:

وَرَأَيْتُ تَقُولُ بِشُعْبٍ رَضَوِي: إمام، خاب ذلك من إمام

(١) «الأغاني»: لأبي الفرج علي بن الحسين الأصبهاني، المتوفى سنة (٣٥٦هـ)، وهو كتاب لم يؤلف مثله اتفاقاً. «كشف الظنون» (١/١٢٩).

إمام من له عشرون ألفاً وقد هجاء أبو عبادة البحتري، فقال فيه:

إذا ما حُصِّلَتْ عَلَيَا قُرَيْشٍ
وَلَوْ أَعْطَاكَ رَبُّكَ مَا تَمَنَّى
وما الجَهَنَّمُ بِنُ بَذْرِ حِينَ يُغْزَى
عَلَامَ هَجَوْتُ مَجْتَهِداً عَلِيّاً
أَمَالِكَ فِي إِسْتِكَ الْوَجْعَاءِ شُغْلُ
يَكْفُكَ عَنْ أَدَى أَهْلِ الثُّبُورِ

وسمع أبو العيْناءِ علي بن الجهم يوماً يَطْعَنُ علي أمير المؤمنين، فقال له: أنا أدري لم طعن لي أمير المؤمنين! فقال: أتعني قصّة يَتَّعِ أَهْلِي مِنْ مَصْقَلَةِ بْنِ هُبَيْرَةَ؟ قال: لا، أنت أَوْضَعُ مِنْ لَكَ، وَلَكِنَّهُ قَتَلَ الْفَاعِلَ مِنْ قَوْمِ لَوْطٍ، وَالْمَفْعُولَ بِهِ، وَأَنْتَ أَسْفَلُهُمَا.

ومن شعر علي بن الجهم لما حبسه المتوكل:

أَلَمْ تَرَمْ ظَهْرِيْنَ عَلَيَّ هَتَباً
فَلَمَّا أَنْ بُلِيْتُ هَدَوَا وَرَاخُوا
أَبَتْ أَخْطَارُهُمْ أَنْ يَنْصُرُونِي
وَخَافُوا أَنْ يَقَالَ لَهُمْ: خَدَلْتُمْ
تَضَافَرَتِ الرُّوَافِضُ وَالنَّصَارَى
وَعَابُونِي وَمَا ذَنْبِي إِلَيْهِمْ

يعني بالروافض: نجاح بن مسلمة، والنصارى بختيشوع، وأهل الاعتزال علي بن يحيى بن منجّم.

قال أبو الفرج: وكان علي بن الجهم من الحَشَوِيَّةِ، شديد التُّنُوبِ عَدُوًّا لِلتَّوْحِيدِ وَالْعَدْلِ، مَا سَخِطَ الْمُتَوَكِّلُ عَلَى أَحْمَدَ بْنِ أَبِي دَوَادٍ وَكَفَّاهُ، شَمِتَ بِهِ عَلِي بن الجهم، فهجاء، وقال:

يَا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دَوَادٍ دَعْوَةٌ
مَا هَذِهِ الْبِدْعُ الَّتِي سَمِيَتْهَا
أَفْسَدَتْ أَمْرَ الدِّينِ حِينَ وَلِيَتْهُ
- أَبُو الْوَلِيدِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي دَوَادٍ، وَكَانَ رَقَبَةً قَاضِيًا -

لَا مُخَكَّمًا جَلْدًا وَلَا مُسْتَظَرَفًا
كَهَلًا وَلَا مُسْتَعْدَثًا مَحْمُودًا

شَرها إِذا ذُكِرَ المِكارِمْ والعُلا
وَيَوَدُّ لو مُسِخَتْ رِبيعةٌ كُلُّها
وَإِذا تَرَبَّعَ في المِجالِسِ خِلَّتْهُ
وَإِذا تَبَسَّمَ ضاحِكاً شَبَّهَتْهُ
لَا أَضْبَحَتْ بِالخَيْرِ عَيْنٌ أَبْصَرَتْ
وقال يهجوهُ لما قُلِجَ :

لَمْ يَبْقَ مِنْكَ سِوَى خِبالِكَ لَما
فَرَحْتَ بِمِضْرَعِكَ البَرِّيةَ كُلُّها
كَمَ مِجالِسٍ لَكَ قَدْ عَظُمَتْ
وَلَكُم مِصابيحُ لَنا أَظْفاءُها
وَلَكُم كَريمةٌ مَفْشَرِ أَرْمَلَتِها
إِنَّ الأَساري في الشُّجُونِ تَفَرَّجُوا
وَعَذا لِمِصرَعِكَ الطَّبيبُ فَلَم يَجِدْ
فَلَقِيَ الهِوانَ مَعْجَلاً ومُوجِلاً
لَا زال قائلُكَ الَّذي بِكَ دائِماً

ذَكَرَ القَلالِيا مُبَدِّلاً ومَعِيداً
وَيَنوُ إِبادِ صَخْفَةً وَثَرِيداً
ضَبُماً وَخِلَتْ بَنِي أَبيهِ قُروداً
شَرِفاً تَعَجَّلَ شَرِيَّةُ مَرْدوداً
بَلْكَ المَنّاخِرَ والثَّنايا السُّوداً

فَوقَ الفِراشِ مُمَهِّداً بِوَسادِ
مَنْ كانَ مِنْهُم مُوقِناً بِمَعادِ
كَي لا يَحْدُثَ فيهِ بِالإِشْنادِ
حَتَّى نَحِيدَ عَنِ الطَّرِيقِ الهادِي
وَمُحَدِّثِ أوثَقَتْ في الأَقْبادِ
لَمّا أَتَتْكَ مَواكِبُ العُودِ
لِدَواءِ دائِكَ جِيلةَ المَرْتادِ
واللَّهِ رَبُّ العَرشِ بِالمِرْصادِ
وَقُجِفَتْ قَبْلَ المَوتِ بِالأولادِ

وروى أبو الفرج الأصفهاني في كتاب «الأغاني» في ترجمة مروان بن أبي حفصة الأصغر أن علي بن الجهم خطب امرأة من قریش، فلم يزوجه، وبلغ المتوكل ذلك، فسأل عن السبب، فحدث بقصة بني سامة بن لؤي، وأن أبا بكر وعمر لم يَدْخِلاه في قریش، وأن عثمان أدخلهم فيها، وأن علياً عليه السلام أخرجهم منها، فارتدوا، وأنه قتل من ارتد منهم، وسبى بقيتهم، فباعهم من مصقلة بن هيرة، فضحك المتوكل، وبعث إلى علي بن الجهم فأحضره، وأخبره بما قال القوم، وكان فيهم مروان بن أبي حفصة المكنى أبا السمط وهو مروان الأصغر، وكان المتوكل يفره به علي بن الجهم، ويضعه على هجائه وتلبيه، فيضحك منهما، فقال مروان:

إِنْ جَهِنماً حِينَ تُنْشَبُ
لَجَّ في شُئْمي بَلّا سَبَبِ
مِنْ أناسٍ يَدْعَوْنَ أبا

فغضب علي بن الجهم، ولم يجبه، لأنه كان يستحقه، فأوما إليه المتوكل أن يزيده، فقال:
أَنتُم يا بَنَ جَهِمٍ مِنْ قُرَيشِ
أَترجوا أن تَكْأِثَرنا جِهاراً
وقد باعوكم مَمَّن تُريدُ
بأضليلكم وقد بيع الجُدودُ

فلم يجبه ابن الجهم، فقال فيه أيضاً:

عَلَيَّ تَعَرَّضْتَ لِي ضَلَّةً لَجَهْلِكَ بِالشُّعْرِيَا مَائِقُ^(١)
تَرُومُ قُرَيْشاً وَأَنْسَابَهَا وَأَنْتَ لَأَنْسَابِهَا سَارِقُ
فَإِنْ كَانَ سَامَةً جَدًّا لَكُمْ فَأَنْتَ مِنْنِي إِذَا طَالِقُ

نسب مصقلة وخبر بني ناجية مع علي عليه السلام

فَأَمَّا نَسَبُ مَصْقَلَةَ بْنِ هُبَيْرَةَ، فَإِنَّ ابْنَ الْكَلْبِيِّ، قَدْ ذَكَرَهُ فِي «جُمُهِرَةِ النِّسَبِ» فَقَالَ: هُوَ مَصْقَلَةُ بْنُ هُبَيْرَةَ بْنِ شَيْبَلٍ بْنِ يَثْرِبِيِّ بْنِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ بْنِ رِبْعَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ شَيْبَانَ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ حُكَّابَةَ بْنِ صَعْبٍ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ بَكْرِ بْنِ وَاثِلٍ بْنِ قَاسِطٍ بْنِ هَنْبٍ بْنِ أَقْصَى بْنِ دُعَيْمٍ بْنِ جَدِيلَةَ بْنِ أَسَدٍ بْنِ رِبْعَةَ بْنِ نَزَارٍ بْنِ مَعَدٍّ بْنِ عَدْنَانَ.

وَأَمَّا خَبَرُ بَنِي نَاجِيَةٍ مَعَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، فَقَدْ ذَكَرَهُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ هَلَالٍ الثَّقَفِيُّ فِي كِتَابِ «الْغَارَاتِ» قَالَ:

حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَثْمَانَ، عَنْ نَصْرِ بْنِ مَزَاحِمٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ حَدِّثِهِ مِمَّنْ أَدْرَكَ أَمْرَ بَنِي نَاجِيَةٍ، قَالَ: لَمَّا بَايَعَ أَهْلُ الْبَصْرَةِ عَلِيًّا بَعْدَ الْهَزِيمَةِ، دَخَلُوا فِي الطَّاعَةِ غَيْرَ بَنِي نَاجِيَةٍ، فَإِنَّهُمْ عَسَكُرُوا، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ عَلِيٌّ عليه السلام رِجَالًا مِنْ أَصْحَابِهِ فِي خَيْلٍ لِيَقَاتِلَهُمْ، فَأَتَاهُمْ، فَقَالَ: مَا بِالْكُمْ عَسَكُرْتُمْ، وَقَدْ دَخَلَ النَّاسُ فِي الطَّاعَةِ غَيْرَكُمْ! فَافْتَرَقُوا ثَلَاثَ فُرُقٍ: فَرَقَةٌ قَالُوا: كُنَّا نَصَارَى فَأَسْلَمْنَا، وَدَخَلْنَا فِيمَا دَخَلَ النَّاسُ فِيهِ مِنَ الْفِتْنَةِ، وَنَحْنُ نَبَايِعُ كَمَا بَايَعَ النَّاسُ فَأَمَرَهُمْ فَاعْتَزَلُوا. وَفَرَقَةٌ قَالُوا: كُنَّا نَصَارَى فَلَمْ نَسْلَمْ، وَخَرَجْنَا مَعَ الْقَوْمِ الَّذِي كَانُوا خَرَجُوا، قَهَرُونَا فَأَخْرَجُونَا كَرْهًا، فَخَرَجْنَا مَعَهُمْ فَهَزَمُوا، فَنَحْنُ نَدْخُلُ فِيمَا دَخَلَ النَّاسُ فِيهِ، وَنُعْطِيكُمُ الْجِزْيَةَ كَمَا أُعْطِينَاهُمْ، فَقَالَ: اعْتَزَلُوا فَاعْتَزَلُوا. وَفَرَقَةٌ قَالُوا: كُنَّا نَصَارَى فَأَسْلَمْنَا فَلَمْ يُعْجِبْنَا الْإِسْلَامَ، فَرَجَعْنَا إِلَى النِّصْرَانِيَّةِ، فَنَحْنُ نُعْطِيكُمُ الْجِزْيَةَ كَمَا أُعْطَاكُمُ النَّصَارَى. فَقَالَ لَهُمْ: تَوْبُوا وَارْجِعُوا إِلَى الْإِسْلَامِ، فَأَبَوْا، فَفَقُلْتُ مَقَاتِلَتَهُمْ وَسَبَى فِرَارِيهِمْ، وَقَدِمَ بِهِمْ عَلَيَّ عَلِيٌّ عليه السلام^(٢).

أخبار الخريت بن راشد الناجي

قَالَ ابْنُ هَلَالٍ الثَّقَفِيُّ: وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَثْمَانَ، عَنْ أَبِي سَيْفٍ، عَنْ الْحَارِثِ بْنِ كَعْبِ الْأَزْدِيِّ، عَنْ عَمِّهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قُعَيْنِ الْأَزْدِيِّ، قَالَ: كَانَ الْخَرِيتُ بْنُ رَاشِدِ النَّاجِيِّ، أَحَدَ

(١) المائق: الأحقق الغبي. اللسان، مادة (موق).

(٢) رواه الثَّقَفِيُّ فِي الْغَارَاتِ: ٣٣١/١.

بني ناجية، قد شهد مع علي عليه السلام صفين، فجاء إلى علي عليه السلام بعد انقضاء صفين، وبعد تحكيم الحكمين في ثلاثين من أصحابه، يمشي بينهم حتى قام بين يديه، فقال: لا والله لا أطيع أمرك، ولا أصلي خلفك، وإني غداً لمفارق لك. فقال له: ثكلتك أمك! إذا تنقض عهدك، وتغيب ريتك، ولا تضر إلا نفسك، أخبرني لم تفعل ذلك! قال: لأنك حكمت في الكتاب، وضعفت عن الحق إذا جد الجد، وركنت إلى القوم الذي ظلموا أنفسهم، فأنا عليك راد، وعليهم ناقد، ولكم جميعاً مباين.

فقال له علي عليه السلام: ونحك! هلم إلي أدارسك وأناظرك في السنن، وأفانحك أموراً من الحق أنا أعلم بها منك، فلعلك تعرف ما أنت الآن له منك، وتبصر ما أنت الآن عنه عم وبه جاهل، فقال الخريت: فإني غاد عليك غداً. فقال علي عليه السلام: اغد ولا يستهوينك الشيطان، ولا يتقحمن بك رأيي السوء، ولا يستخفنك الجهلاء الذين لا يعلمون، فوالله إن استرشدتني واستصحتني وقبلت مني لأهديتك سبيل الرشاد. فخرج الخريت من عنده منصرفاً إلى أهله.

قال عبد الله بن قعين: فعجلت في أثره مشرعاً، وكان لي من بني عمه صديق، فأردت أن ألقى ابن عمه في ذلك، فأعلمه بما كان من قوله لأمر المؤمنين، وأمر ابن عمه أن يشتد بلسانه عليه، وأن يأمره بطاعة أمير المؤمنين ومناصحته، ويخبره أن ذلك خير له في عاجل الدنيا وأجل الآخرة.

قال: فخرجت حتى انتهيت إلى منزله - وقد سبقني - فقامت عند باب دار فيها رجال من أصحابه، لم يكونوا شهدوا معه دخوله على أمير المؤمنين عليه السلام، فوالله ما رجعت ولا نديم علي ما قال لأمر المؤمنين وما رآه عليه، ولكنه قال لهم: يا هؤلاء، إنني قد رأيت أن أفارق هذا الرجل، وقد فارقت علي أن أرجع إليه من غد، ولا أرى إلا المفارقة، فقال له أكثر أصحابه: لا تفعل حتى تأتيه، فإن أذاك بأمر تعرفه قبلت منه، وإن كانت الأخرى فما أقدرك على فراقه! قال لهم: نعم ما رأيتم، قال: فاستأذنت عليهم فأذنوا لي، فأقبلت على ابن عمه - وهو مدرك بن الرئان الناجي، وكان من كبراء العرب - فقلت له: إن لك علي حقاً لإحسانك وودك وحق المسلم على المسلم. إن ابن عمك كان منه ما قد ذكر لك، فاخل به فاردد عليه رأيه وعظم عليه ما أتى، واعلم أنني خائف إن فارق أمير المؤمنين أن يقتلك ونفسه وعشيرته فقال: جزاك الله خيراً من أخ! إن أراد فراق أمير المؤمنين عليه السلام ففي ذلك هلاكه، وإن اختار مناصحته والإقامة معه ففي ذلك حظه ورشده.

قال: فأردت الرجوع إلى علي عليه السلام، لأعلمه الذي كان، ثم أطمأننت إلى قول صاحبي، فرجعت إلى منزلي، فبت ثم أصبحت، فلما ارتفع النهار أتيت أمير المؤمنين عليه السلام، فجلست

عنده ساعة، وأنا أريد أن أحدثه بالذي كان على خلوة، فأطلعت الجلوس، ولا يزداد الناس إلا كثرة، فدنوت منه، فجلست وراءه، فأصغى إليّ برأسه، فأخبرته بما سمعته من الخريت، وما قلت لابن عمه وما رد عليّ، فقال عليه السلام: دعه، فإن قيل الحق ورجع عرفنا له ذلك وقبلناه منه، فقلت: يا أمير المؤمنين فلم لا تأخذه الآن فتستوثق منه؟ فقال: إنا لو فعلنا هذا بكل من يتهم من الناس ملأنا السجون منهم، ولا أراني يسعني الوثوب بالناس والحبس لهم وعقوبتهم حتى يظهروا لي الخلاف.

قال: فسكت عنه وتنحيت، فجلست مع أصحابي هنيئة، فقال لي عليه السلام: أدن مِنِّي، فدنوت، فقال لي مُسرّاً: اذهب إلى منزل الرجل فاعلم، ما فعل، فإنه قلّ يوم لم يكن يأتيني فيه قبل هذه الساعة، فأتيت إلى منزله، فإذا ليس في منزله منهم دينار، فنزّلت على أبواب دور أخرى، كان فيها طائفة من أصحابه، فإذا ليس فيها دأع ولا مجيب فأقبلت إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فقال لي حين رأيته: أوطنوا فأقاموا، أم جبنوا فظعنوا؟ قلت: لا بل ظعنوا، فقال: أبعدهم الله كما بعت ثموداً أما والله لو قد أشرعت لهم الآية، وضبت على هامهم السيوف لقد نديموا، إن الشيطان قد استهواهم وأضلهم، وهو غداً متبرئ منهم، ومُخل عنهم. فقام إليه زياد بن خَصَفَة، فقال: يا أمير المؤمنين، إنه لو لم يكن من مَضَرَة هؤلاء إلا فراقهم إيانا لم يعظم فقدم علينا، فإنهم قلما يزيدون في عددنا لو أقاموا معنا، وقلما ينقصون من عددنا بخروجهم منا، ولكننا نخاف أن يُفسدوا علينا جماعة كثيرة ممن يقدمون عليهم من أهل طاعتك، فائذن لي في اتباعهم حتى أردمهم عليك إن شاء الله.

فقال له عليه السلام: فاخرج في آثارهم واشدأ، فلما ذهب ليخرج قال له: وهل تدري أين توجه القوم؟ قال: لا والله، ولكني أخرج فأسأل وأتبع الأثر، فقال: أخرج رحمك الله حتى تنزل فيز أبي موسى ثم لا تبرح حتى يأتيك أمري، فإنهم إن كانوا خرجوا ظاهرين بارزين للناس في جماعة، فإن عمالي سكتب إليّ بذلك، وإن كانوا متفرقين مستخفين فذلك أخفى لهم، وسأكتب إلى من حولي من عمالي فيهم.

فكتب نسخة واحدة وأخرجها إلى العمال:

من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى من قرىء عليه كتابي هذا من العمال، أما بعد، فإن رجالاً لنا عندهم تبعه، خرجوا هرباً نظنهم خرجوا نحو بلاد البصرة، فأسأل عنهم أهل بلادك، واجعل عليهم العيون في كل ناحية من أرضك، ثم اكتب إليّ بما ينتهي إليك عنهم. والسلام.

فخرج زياد بن خَصَفَة حتى أتى داره، وجمع أصحابه فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: يا معشر بكر بن وائل، إن أمير المؤمنين ندبني لأمر من أموره مهم له، وأمرني بالانكماش فيه بالعشيرة، حتى أتى أمره، وأنتم شيعته وأنصاره، وأوثق حي من أحياء العرب في نفسه، فانتدبوا

معي الساعة، وعجلوا. فوالله ما كان إلا ساعة حتى اجتمع إليه مائة وثلاثون رجلاً، فقال: اكتفينا لا نريد أكثر من هؤلاء، فخرج حتى قطع الجسر، ثم أتى دير أبي موسى فنزله، فأقام به بقية يومها ذلك، ينتظر أمر أمير المؤمنين عليه السلام.

قال إبراهيم بن هلال: فحدثني محمد بن عبد الله، عن ابن أبي سيف، عن أبي الصلت التيمي، عن أبي سعد، عن عبد الله بن وائل التيمي، قال: إني لعند أمير المؤمنين، إذا فيج^(١) قد جاءه يسعى بكتاب من قرظة بن كعب بن عمرو والأنصاري - وكان أحد عماله - فيه:

لعبد الله علي أمير المؤمنين من قرظة بن كعب، سلام عليك، فلاني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد:

فلاني أخبر أمير المؤمنين، أن خيلاً مرّت من قبيل الكوفة متوجهة نحو نقر وأن رجلاً من دهاقين أسفل الفرات قد أسلم وصلى، يقال له زاذان فروخ، أقبل من عند أحوال له فلقوه، فقالوا له: أمسلم أنت أم كافر؟ قال: بل مسلم، قالوا: فما تقول في علي؟ قال: أقول فيه خيراً، أقول: إنه أمير المؤمنين عليه السلام وسيد البشر ووصي رسول الله صلى الله عليه وآله. فقالوا: كفرت يا عدو الله! ثم حملت عليه عصاة منهم، فقطعوه بأسياقهم، وأخذوا معه رجلاً من أهل الذمة يهودياً، فقالوا له: ما دينك؟ قال: يهودي، فقالوا: خلّوا سبيل هذا، لا سبيل لكم عليه، فأقبل إلينا ذلك الذمي، فأخبرنا الخبر، وقد سألت عنهم، فلم يخبرني أحد عنهم بشيء، فليكتب إلي أمير المؤمنين فيهم برأي أنته إليه، إن شاء الله.

أما بعد، فقد فهمت ما ذكرت من أمر العصابة التي مرّت بعملك، فقتلت البرّ المسلم، وأمن عندهم المخالف المشرك، وإن أولئك قوم استهواهم الشيطان فضلّوا، كالذين حسبوا ألا تكون فتنة فعصّوا وصمّوا، فاسمع بهم وأبصر يوم تُخبر أعمالهم! فالزم عملك وأقبل على خراجك، فإنك كما ذكرت في طاعتك ونصيحتك، والسلام.

قال: فكتب علي عليه السلام إلى زياد بن خضفة، مع عبد الله بن وائل التيمي، كتاباً نسخته:

أما بعد، فقد كنت أمرتك أن تنزل دير أبي موسى حتى يأتيك أمري، وذلك أتني لم أكن علمت أين توجه القوم، وقد بلغني أنهم أخذوا نحو قرية من قرى السواد، فاتبع آثارهم وسل عنهم. فإنهم قد قتلوا رجلاً من أهل السواد مسلماً مصلّياً، فإذا أنت لحقت بهم فارددهم إلي، فإن أبوا فتأجزهم، واستعين بالله عليهم، فإنهم قد فارقوا الحق، وسفكوا الدم الحرام، وأخافوا السبيل. والسلام.

(١) الفيح: رسول السلطان على رجله، فارسي معرب، وقيل: هو الذي يسعى بالكتب. اللسان، مادة (فيح).

قال عبد الله بن وائل: فأخذت الكتاب منه عليه السلام - وأنا يومئذ شاب - فمضيت به غير بعيد ثم رجعت إليه، فقلت: يا أمير المؤمنين، ألا أمضي مع زياد بن خصفة إلى عدوك، إذا دفعت إليه كتابك؟ فقال: يا بن أخي، افعل، فوالله إني لأرجو أن تكون من أعواني على الحق وأنصاري على القوم الظالمين قال: فوالله ما أحب أن لي بمقاتلته تلك حُمر النعم، فقلت له: يا أمير المؤمنين، أنا والله كذلك من أولئك، أنا والله حيث تحب.

ثم مضيت إلى زياد بالكتاب، وأنا على فرس رائع كريم، وعليّ السلاح، فقال لي زياد: يا ابن أخي، والله ما لي عنك من غنى، وإني أحب أن تكون معي في وجهي هذا، فقلت: إني قد استأذنت أمير المؤمنين في ذلك فأذن لي، فسُرّ بذلك، ثم خرجنا حتى أتينا الموضع الذي كانوا فيه، فسألنا عنهم، فقيل: أخذوا نحو المدائن فلحقناهم، وهم نزول بالمدائن، وقد أقاموا بها يوماً وليلة، وقد استراحوا وعلفوا خيولهم، فهم جاثون مريحون، وأتيناهم وقد تقطعنا ولغينا^(١) ونصبنا، فلما رأونا وثبوا على خيولهم، فاستولوا عليها، فجتنا حتى انتهينا إليهم، فنادى الخريت بن راشد: يا عريان القلوب والأبصار، أمع الله وكتابه أنتم أم مع القوم الظالمين؟ فقال له زياد بن خصفة: بل مع الله وكتابه وسنة رسوله، ومع من الله ورسوله وكتابه أثره من الدنيا ثواباً ولو أنها منذ يوم خلقت إلى يوم تفتنى لأثر الله عليها. أيها العُني الأبصار، الصم الأسماع!

فقال الخريت: فأخبرونا ما تريدون؟ فقال له زياد - وكان مجرباً رفيقاً: قد ترى ما بنا من النصب واللغوب، والذي جئنا له لا يصلح فيه الكلام علانية على رؤوس أصحابك، ولكن تنزلون ونزل، ثم نخلو جميعاً، فنذكركم أمرنا وننظر فيه، فإن رأيت فيما جئنا له حظاً لنفسك قبلته، وإن رأيت فيما أسمع منك أمراً أرجو فيه العافية لنا ولك لم أردّه عليك.

فقال الخريت: انزل، فنزل، فأقبل إلينا زياد، فقال: انزلوا على هذا الماء، فأقبلنا انتهينا إلى الماء، فنزلنا به، فما هو إلا أن نزلنا فضرقتنا، فتحلقتنا عشرة وتسعة وثمانية وسبعة، تضع كل حلقة طعامها بين أيديها، لتأكل ثم تقوم إلى الماء فتشرب.

وقال لنا زياد: علقوا على خيولكم، فعلقنا عليها مخاليها، ووقف زياد في خمسة فوارس، أحدهم عبد الله بن وائل بيننا وبين القوم، وانطلق القوم فتنحوا، فنزلوا وأقبل إلينا زياد، فلما رأى تفرقتنا وتحلقتنا، قال: سبحان الله! أنتم أصحاب حرب! والله لو أن هؤلاء جاؤكم الساعة على هذه الحالة ما أرادوا من غرتكم أفضل من أعمالكم التي أنتم عليها عجّلوا، قوموا إلى خيولكم. فأسرعنا فمنا من يتوضأ، ومنا من يشرب، ومنا من يسقي فرسه، حتى إذا فرغنا من

(١) لغب: أعبأ أشد الإعياء. القاموس، مادة (لغب).

ذلك أتينا زياداً، وإن في يده لَعَرَقاً ينهسه، فنهس منه نهستين أو ثلاثة، ثم أتى بإداوة فيها ماء، فشرب ثم ألقى العَرَق من يده، وقال: يا هؤلاء، إنا قد لَقِينَا العدو، وإن القوم لفي عُدَّتكم، ولقد خَزَرْتُهُمْ فما أظنَّ أحدَ الفريقين يزيد على الآخر خمسة نفر، فلأني أرى أمركم وأمرهم سيصير إلى القتال، فإن كان ذلك فلا تكونوا أعجزَ الفريقين.

ثم قال: لياخذ كلُّ رجلٍ منكم بعنان فرسه، فإذا دنوتُ منهم وكَلِمْتُ صاحبَهُم، فإن تابَعَنِي على ما أريد، وإلاَّ فإذا دعوتُكم فاستَوُوا على مُثُونِ خيلكم، ثم أقبلوا معاً غيرَ متفرِّقين. ثم استَقَدَّم أماننا وأنا معه، فسمعتُ رجلاً من القوم يقول: جاءكم القومُ وهم كاللُّون مُغيون، وأنتم جامون مُريحون، فتركتموهم حتى نَزَلُوا فأكلوا وشربوا، وأراحوا دوابَّهُم، هذا والله الرأي.

قال: ودعاء زيادَ صاحبِهِم الخِزَيت، فقال له: اعتزلْ ننظر في أمرنا، فأقبل إليه في خمسة نفر، فقلتُ لزياد: ادعوك ثلاثة نفر من أصحابنا، حتى نلقاهم في عَدَدِهِمْ؟ فقال: ادع مَنْ أَحَبَّ. فعدوت له ثلاثة، فكنا خمسة وهم خمسة.

فقال له زياد: ما الذي نَقَمْتَ على أمير المؤمنين وعلينا حتى فارقتنا؟ فقال: لم أرض صاحبكم إماماً، ولم أرض بسيرتكم سيرة، فرأيتُ أن اعتزل، وأكون مع مَنْ يدعو إلى الشورى بين الناس، فإذا اجتمع الناسُ على رجل هو لجميع الأمة رِضاً منهُ مع الناس. فقال زياد: ويحك! وهل يجتمع الناس على رجل يُداني علياً عالماً بالله ويكتابه وسنة رسوله، مع قرابته وسابقته في الإسلام! فقال الخِزَيت: هو ما أقول لك، فقال: فقيم قتلتم الرجل المسلم؟ فقال الخِزَيت: ما أنا قتلته، قتلته طائفة من أصحابي، قال: فادفعهم إلينا قال: ما إلى ذلك من سبيل، قال: أو هكذا أنت فاعل! قال: هو ما تسمع.

قال: فدعونا أصحابنا، ودعا الخِزَيت أصحابه، ثم اقتتلنا، فوالله ما رأيت قتالاً مثله منذ خلقني الله، لقد تطاعنا بالرماح حتى لم يبق في أيدينا رُمح، ثم اضطربنا بالسيوف حتى انحنت، وعُقرت عامة خيلنا وخيلهم، وكثرت الجراح فيما بيننا وبينهم، وقُتل مِنَّا رجلان: مولى لزياد كانت معه رايته يدعى سويداً، ورجل من الأبناء يدعى واقد بن بكر، وصُرع منهم خمسة نفر، وحال الليل بيننا وبينهم، وقد والله كَرِهُونَا وكَرِهْنَاهُمْ، وَهَرُونَا^(١) وَهَرَزْنَاهُمْ، وقد جرح زياد وجُرِحت. ثم إنا بثنا في جانب وتنحوا فمكثوا ساعة من الليل ثم مضوا، فذهبوا وأصبَحْنَا، فوجدناهم قد ذهبوا، فوالله ما كَرِهْنَا ذلك، فمضينا حتى أتينا البَصْرَةَ، وبلغنا أنهم أتوا الأهواز، فنزلوا في جانب منها، وتلاحق بهم ناسٌ من أصحابهم نحو مائتين كانوا معهم بالكوفة، لم يكن لهم من القوة ما ينهضون به معهم حين نهضوا، فاتبعوهم من بُعد لحوقهم بالأهواز، فأقاموا معهم.

(١) هَرَّه: كَرِهَه. اللسان، مادة (هرر).

قال: وكتب زياد بن خصفة إلى علي عليه السلام:

أما بعد، فإننا لقينا عدو الله الناجي وأصحابه بالمدائن، فدعوناهم إلى الهدى والحق وكلمة السواء، فتولوا عن الحق وأخذتهم العزة بالإثم، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل، فقصدونا وصمدنا صمدهم، فاقتلنا قتالاً شديداً ما بين قائم الظهر إلى أن دلت الشمس، واستشهد منا رجلان صالحان، وأصيب منهم خمسة نفر، وخلوا لنا المعركة، وقد فشت فينا وفيهم الجراح. ثم إن القوم لما أدركوا الليل خرجوا من تحتهم متنگرين إلى أرض الأهواز، وقد بلغني أنهم نزلوا من الأهواز جانباً. ونحن بالبصرة نداوي جراحنا، وننتظر أمرك رحمك الله. والسلام.

فلما أتاه الكتاب، قرأه على الناس، فقام إليه معقل بن قيس الرياحي، فقال: أصلحك الله يا أمير المؤمنين! إنما كان ينبغي أن يكون مكان كل رجل من هؤلاء الذين بعثتهم في طلبهم عشرة من المسلمين، فإذا لحقوهم استأصلوا شأفتهم^(١)، وقطعوا دابرهم، فأما أن تلقاهم بأعدادهم فلعمري ليصبرن لهم، فإنهم قوم عرب، والعدة تصبر للعدة، فيقاتلون كل القتال.

قال: فقال عليه السلام له: تجهز يا معقل إليهم، ونذب معه ألفين من أهل الكوفة، فيهم يزيد بن معقل، وكتب إلى عبد الله بن العباس بالبصرة رحمه الله تعالى:

أما بعد، فابعث رجلاً من قبلك صليلاً شجاعاً، معروفاً بالصلاح في أئمة رجل من أهل البصرة، فليتبّع معقل بن قيس، فإذا خرج من أرض البصرة، فهو أمير أصحابه حتى يلقى معقلاً، فإذا لقيه فمعقل أمير الفريقين، فليسمع منه وليطعنه ولا يخالفه، ومُرّ زياد بن خصفة فليقبل إلينا، فنعم المرء زياد، ونعم القليل قبيله والسلام.

قال: وكتب عليه السلام إلى زياد بن خصفة:

أما بعد، فقد بلغني كتابك، وفهمت ما ذكرت به الناجي وأصحابه، الذين طبع الله على قلوبهم، وزين لهم الشيطان أعمالهم، فهم خيارى عمون، يخسبون أنهم يحسنون صنعا، ووصفت ما بلغ بك وبهم الأمر، فأما أنت وأصحابك فله سعيكم وعليه جزاؤكم! وأيسر ثواب الله للمؤمن خير له من الدنيا التي يقبل الجاهلون بأنفسهم عليها، ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢): وأما عدوكم الذين لقيتم فحسبهم خروجهم من الهدى، وارتكاسهم في الضلالة، ورقمهم الحق، وجماعهم التيه، فذرهم وما يفترون، ودعهم في طغيانهم يعمهون، فاسمع بهم وابصر، فكأنك بهم عن قليل بين أسير

(١) الشافة: الأصل. القاموس، مادة (شأف).

(٢) سورة النحل، الآية: ٩٦.

وقُتِل، فَأَقْبِلَ إِلَيْنَا أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ مَا جُورِينَ، فَقَدْ أَطَعْتُمْ وَسَمِعْتُمْ، وَأَحْسَنْتُمْ الْبَلَاءَ. وَالسَّلَامُ.
قال: ونزل الناجي جانباً من الأهواز، واجتمع إليه علوج كثير من أهلها، ممن أراد كسر
الخراج ومن اللصوص، وطائفة أخرى من الأعراب ترى رآيه.

قال إبراهيم بن هلال: فحدثنا محمد بن عبد الله، قال: حدثني ابن أبي سيف، عن
الحارث بن كعب، عن عبد الله بن قُعين، قال: كنت أنا وأخي كعب بن قُعين في ذلك الجيش
مع معقل بن قيس، فلما أراد الخروج أتى أمير المؤمنين عليه السلام يودعه، فقال: يا معقل بن قيس،
اتق الله ما استطعت، فإنه وصية الله للمؤمنين، لا تبغ على أهل القبلة، ولا تظلم أهل الذمة ولا
تتكبر، فإن الله لا يحب المتكبرين. فقال معقل: الله المستعان، فقال: خير مستعان.

ثم قام فخرج، وخرجنا معه، حتى نزل الأهواز، فأقمنا ننتظر بعث البصرة، فأبطأ علينا،
فقام معقل فقال: أيها الناس، إنا قد انتظرنا أهل البصرة، وقد أبطلوا علينا، وليس بنا بحمد الله
قلة ولا وخشة إلى الناس، فسيروا بنا إلى هذا العدو القليل الذليل، فإني أرجو أن ينصركم الله
ويهلكهم. فقام إليه أخي كعب بن قُعين فقال: أصبت إن شاء الله رأينا رأيك، وإني لأرجو أن
ينصرنا الله عليهم، وإن كانت الأخرى، فإن في الموت على الحق لتعزية عن الدنيا. فقال:
سيروا على بركة الله. فسيرنا، فوالله ما زال معقل بن قيس لي ولأخي مكرماً واداً، ما يعدل بنا
أحداً من الجند، ولا يزال يقول لأخي: كيف قلت: إن في الموت على الحق لتعزية عن الدنيا
صدقت والله وأحسن، ووفقت وفقك الله قال: فوالله ما سيرنا يوماً، وإذا بفيج يشتد بصحيفة
في يده.

من عبد الله بن عباس إلى معقل بن قيس، أما بعد، فإن أدركك رسولي بالمكان الذي كنت
مقيماً به، أو أدركك وقد شخضت منه، فلا تبرحن من المكان الذي ينتهي إليك رسولي وأنت
فيه، حتى يقدم عليك بعثنا الذي وجهناه إليك، فقد وجهت إليك خالد بن معدان الطائي، وهو
من أهل الدين والصلاح والنجدة، فاسمع منه واعرف ذلك له إن شاء الله. والسلام.

قال: فقرأ معقل بن قيس على أصحابه. فسرؤا به، وحمدوا الله، وقد كان ذلك الوجه
مألهم. وأقمنا حتى قدم علينا خالد بن معدان الطائي، وجاءنا حتى دخل على صاحبنا، فسلم
عليه بالإمرة، واجتمعنا جميعاً في عسكر واحد، ثم خرجنا إلى الناجي وأصحابه، فأخذوا
يرتفعون نحو جبال رامهرمز، يريدون قلعة حصينة، وجاءنا أهل البلد، فأخبرونا بذلك، فخرجنا
في آثارهم فلحقناهم، وقد دنوا من الجبل، فصففنا لهم، ثم أقبلنا نحوهم، فجعل معقل على
ميمنته يزيد بن المعقل الأزدي، وعلى ميسرته منجاب بن راشد الضبي، ووقف الخريت بن
راشد الناجي بمن معه من العرب، فكانوا ميمنة، وجعل أهل البلد والعلوج ومن أراد كسر
الخراج وجماعة من الأكراد ميسرة.

قال: وسار فينا مَعْقِل يَحْرَضُنَا، ويقول: يا عباد الله، لا تبدؤوا القوم، وَغَضُّوا الأبصار، وأَقْلَوْا الكلام، ووطنوا أنفسكم على الطعن والضرب، وأبشروا في قتالهم بالأجر العظيم. إنما تقاتلون مَارَقَةً مَرَقَتْ وَعَلُوجاً مَنْعُوا الخراج، ولصوصاً وأكراداً، فما تنتظرون! فإذا حملت فشدوا شِدَّةَ رجل واحد.

قال: فمر في الصف يكلمهم، يقول هذه المقالة، حتى إذا مرَّ بالناس كلهم أقبل فوقف وسط الصف في القلب، ونظرنا إليه ما يصنع، فحرك رأسه تحريكين، ثم حَمَلَ في الثالثة، وَحَمَلْنَا معه جميعاً، فوالله ما صَبَرُوا لنا ساعة حتى ولَّوا وانهزموا، وقتلنا سبعين عَرَبِيًّا من بني ناجية، ومن بعض من اتبعه من العرب، ونحو ثلاثمائة من العلوج والأكراد.

قال كعب: ونظرتُ، فإذا صديقي مدرك بن الريان قتيلاً، وخرج الخريت منهزماً، حتى لحق بسيف من أسياف البحر، وبها جماعة من قومه كثير، فما زال يسيرُ فيهم ويدعوهم إلى خلاف عليٍّ عليه السلام، ويزين لهم فراقه، ويخبرهم أن الهدى في حربه ومخالفته، حتى اتبعه منهم ناس كثير.

وأقام معقل بن قيس بأرض الأهواز، وكتب إلى أمير المؤمنين عليه السلام بالفتح، وكنت أنا الذي قَدِمَ بالكتاب عليه، وكان في الكتاب:

لعبد الله عليٍّ أمير المؤمنين، من معقل بن قيس. سلام عليك، فإني أحمَدُ إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعدُ، فإنَّا لقينا المارقين، وقد استظهروا علينا بالمشركين، فقتلنا منهم ناساً كثيراً ولم نَعُدْ فيهم سيرتك فلم نقتلْ منهم مُذْبِراً ولا أسيراً، ولم نُذَفْ منهم على جريح، وقد نصرَكَ الله والمسلمين، والحمد لله رب العالمين.

قال: فلما قدمتُ بالكتاب على عليٍّ عليه السلام، قرأه على أصحاب، واستشارهم في الرأي، فاجتمع رأيُ عامتهم على قول واحد. قالوا: نرى أن تكتبَ إلى معقل بن قيس، يتبع آثارهم، ولا يزال في طلبهم حتى يقتلهم أو ينفيهم من أرض الإسلام، فإننا لا نأمن أن يُفْسِدُوا عليك الناس.

قال: فردني إليه، وكتب معي:

أما بعد، فالحمدُ لله على تأييده أوليائه، وَخَذْلِهِ أعداءه، جزاك الله والمسلمين خيراً، فقد أحسنتم البلاء، وقضيتُم ما عليكم، فاسأل عن أخي بني ناجية، فإن بَلَغَكَ أنه استقرَّ في بلدٍ من البلدان، فسرَّ إليه حتى تقتله أو تنفيه، فإنه لم يزل للمسلمين عدواً، وللغاسقين ولياً، والسلام.

قال: فسأل معقل عن مسيره والمكان الذي انتهى إليه، فنبئ بمكان بسيف البحر بفارس، وأنه قد ردَّ قومه عن طاعة عليٍّ عليه السلام، وأفسد مَنْ قَبْلَهُ من عبد القيس، وَمَنْ والاهم من سائر العرب، وكان قومه قد منعوا الصدقة عام صيفين، ومنعوها في ذلك العام أيضاً، فسار إليهم

معقل بن قيس في ذلك الجيش من أهل الكوفة والبصرة، فأخذوا على أرض فارس، حتى انتهوا إلى أسياف البحر، فلما سمع الخريث بن راشد بمسيره، أقبل على من كان معه من أصحابه، ممن يرى رأي الخوارج، فأسر إليهم: إني أرى رأيكم، وإن علياً ما كان ينبغي له أن يُحكّم الرجال في دين الله، وقال لمن يرى رأي عثمان وأصحابه: إنا على رأيكم، وإن عثمان قتل مظلوماً معقولاً. وقال لمن منع الصدقة: شدوا أيديكم على صداقتكم. ثم صلّوا بها أرحامكم، وعودوا إن شئتم على فقرائكم، فأرضى كل طائفة بضرب من القول، وكان فيهم نصارى كثير، وقد كانوا أسلموا، فلما رأوا ذلك الاختلاف، قالوا: والله لديننا الذي خرجنا منه خير وأهدى من دين هؤلاء الذين لا ينهاهم دينهم عن سفك الدماء، وإخافة السبل، فرجعوا إلى دينهم.

فلقي الخريث أولئك، فقال: ونحكّم! إنه لا يُنّجيكُم من القتل إلا الصبر لهؤلاء القوم ولقتالهم، أتدرون ما حُكّم عليّ فيمن أسلم من النصارى ثم رجع إلى النصرانية؟ لا والله لا يسمع له قولاً، ولا يرى له عذراً، ولا يقبل منه توبة، ولا يدعو إليها، وإنّ حكمه فيه أن يُضرب عنقه ساعة يُستمكن منه، فما زال حتى خدعهم وجاءهم من كان من بني ناجية في تلك الناحية ومن غيرهم، فاجتمع إليه ناس كثير، وكان منكراً داهياً.

قال: فلما رجع معقل، قرأ على أصحابه كتاباً من علي عليه السلام فيها:

من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى من قرىء عليه كتابي هذا، من المسلمين والمؤمنين والمارقين والنصارى والمرتدين. سلامٌ على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وكتابه، والبعث بعد الموت وافياً بعهد الله، ولم يكن من الخائنين، أما بعدُ فلاني أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه، وأن أعمل فيكم بالحق وبما أمر الله تعالى في كتابه، فمن رجع منكم إلى رخله وكف يده، واعتزل هذا المارق الهالك المحارب، الذي حارب الله ورسوله والمسلمين، وسعى في الأرض فساداً، فله الأمان على ماله ودمه. ومن تابعه على حربنا والخروج من طاعتنا، استعنا بالله عليه، وجعلناه بيننا وبينه، وكفى بالله ولياً. والسلام.

قال: فأخرج معقل راية أمان فنصبها، وقال: من أتانا من الناس فهو آمن إلا الخريث وأصحابه الذين نابذوا أول مرة، فتفرق عن الخريث كل من كان معه من غير قومه، وعَبَا معقل بن قيس أصحابه، ثم زحف بهم نحوه، وقد خضر مع الخريث جميع قومه! مسلمهم ونصرانيهم، وما نعى الصدقة منهم، فجعل مسلميهم يُمّنة، والنصارى وما نعى الصدقة يَشْرة، وجعل يقول لقومه: امنعوا اليوم حريمكم، وقاتلوا عن نساءكم وأولادكم، والله لئن ظهرنا عليهم ليقْتلنكم وليُسْلِبنكم.

فقال له رجل من قومه: هذا والله ما جرّته علينا يدك ولسانك، فقال لهم: قاتلوا فقد سبق السيف العذل.

قال: وسار معقل بن قيس يحرض أصحابه فيما بين الميمنة والميسرة، ويقول: أيها الناس، ما تدرون ما سيق إليكم في هذا الموقف ممن الأجر العظيم! إن الله ساقكم إلى قوم منعوا الصدقة، وارتدوا عن الإسلام، ونكثوا البيعة ظلماً وعدواناً، إني شهيد لمن قُتل منكم بالجنة، ومن عاش بأن الله يُقر عينه بالفتح والغنيمة، ففعل ذلك حتى مرّ بالناس أجمعين، ثم وقف في القلب برايته، وبعث إلى يزيد بن المعقل الأزدي، وهو في الميمنة، أن أحمل عليهم، فحمل، فثبتوا له، فقاتل طويلاً وقتلوه، ثم رجع حتى وقف موقفه الذي كان فيه من الميمنة، ثم بعث إلى المنجاب بن راشد الضبي، وهو في الميسرة: أن أحمل عليهم، فحمل فثبتوا له، فقاتل طويلاً وقتلوه، ثم رجع حتى وقف موقفه الذي كان في الميسرة، ثم بعث معقل إلى ميمنته وميسرته: إذا حملت فاحملوا جميعاً. ثم أجرى فرسه وضربها، وحمل أصحابه، فصبروا لهم ساعة.

ثم إن النعمان بن صهبان الراسبي بصر بالخرّيت، فحمل عليه، فصرعه عن فرسه، ثم نزل إليه وقد جرحه، فاختلفا بينهما ضربتين، فقتله النعمان وقُتل معه في المعركة سبعون ومائة، وذهب الباقيون في الأرض يميناً وشمالاً، وبعث معقل الخيل إلى رجالهم، فسبي من أدرك فيها رجالاً ونساءً وصبياناً، ثم نظر فيهم، فَمَنْ كان مسلماً خلاه وأخذ بيعته، وخلق سبيل عياله، وَمَنْ كان ارتدّ عن الإسلام عرّض عليه الرجوع إلى الإسلام وإلا القتل، فأسلموا. فخلق سبيلهم، وسبيل عيالاتهم، إلا شيخاً منهم نصرانياً يقال له: الرماحس بن منصور، فإنه قال: والله ما زلت مصيباً من ديني دين الصدق، إلى دينكم، دين البسوء، لا والله لا أدع ديني ولا أقرب دينكم ما حييت.

فقدّمه معقل فضرب عنقه، وجمع الناس، فقال: أدوا ما عليكم في هذه السنين من الصدقة، فأخذ من المسلمين عقالين، وحمّد إلى النصارى وعيالاتهم فاحتملهم معه، وأقبل المسلمون الذين كانوا معهم يشيعونهم، فأمر معقل يردّهم، فلما ذهبوا لينصرفوا، تصايحوا ودعا الرجال والنساء بعضهم إلى بعض.

أما بعد، فإني أخبر أمير المؤمنين عن جُنْدِهِ وعن عدوه أننا دفعنا إلى عدونا بأسياف البحر، فوجدنا بها قبائل ذات حدّ وعدد، وقد جمعوا لنا، فدعوناهم إلى الجماعة والطاعة، وإلى حكم الكتاب والسنة، وقرأنا عليهم كتاب أمير المؤمنين عليه السلام، ورفعنا لهم راية أمان، فمالت إلينا طائفة منهم، وثبتت طائفة أخرى، فقبلنا أمر التي أقبلت، وصمدنا إلى التي أدبرت، فضرب الله وجوههم، ونصّرنا عليهم، فأما مَنْ كان مسلماً، فإنّا منّا عليه، وأخذنا بيعته لأمر المؤمنين، وأخذنا منهم الصدقة التي كانت عليهم، وأما مَنْ ارتدّ فعرضنا عليهم الرجوع إلى الإسلام، وإلا قتلناهم، فرجعوا إلى الإسلام، غير رجل واحد فقتلناه، وأما النصارى، فإنّا سبيّناهم وأقبلنا

بهم، ليكونوا نكالا لمن بعدهم من أهل الذمة، كي لا يمنعوا الجزية، ولا يجتروا على قتال أهل القبلة، وهم للصغار والذلة أهل. رحمك الله يا أمير المؤمنين، وعليك الصلاة والسلام، وأوجب لك جنات النعيم. والسلام.

قال: ثم أقبل الأساري حتى مرّ على مصقلة بن هيرة الشيباني، وهو عامل لعلي عليه السلام على أردشير خيرة وهم خمسمائة إنسان، فبكى إليه النساء والصبيان، وتصابيح الرجال: يا أبا الفضل، يا حامل الثقل، يا مؤوي الضعيف، وفكاك العصاة، امن علينا فاشترنا وأعتقنا. فقال مصقلة: أقسم بالله لا تصدقن عليهم، إن الله يجزي المتصدقين. فبلغ قوله معقل بن قيس، فقال: والله لو أعلمه قالها توجعاً لهم وإزراء علي لضربت عنقه، وإن كان في ذلك فناء بني تميم ويكر بن وائل.

ثم إن مصقلة بعث ذهل بن الحارث الذهلي إلى معقل، فقال: بعثني نصاري ناجية، فقال: أبيعكم بألف ألف درهم، فأبى عليه، فلم يزل يراوده حتى باعه إياهم بخمسمائة ألف درهم، ودفعهم إليه، وقال: عجل بالمال إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فقال مصقلة: أنا باعته الآن بصذر منه، ثم أتبعك بصذر آخر، ثم كذلك حتى لا يبقى منه شيء. وأقبل معقل إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فأخبره بما كان من الأمر، فقال له: أحسنت وأصبت ووقفت.

وانتظر علي عليه السلام مصقلة أن يبعث بالمال، فأبطأ به. وبلغ عليا عليه السلام أن مصقلة خلّى الأسارى ولم يسألهم أن يُعينوه في فكاك أنفسهم بشيء، فقال: ما أرى مصقلة إلا قد حمل حمالة، ولا أراكم إلا سترونه عن قريب مُبلدحاً^(١)، ثم كتب إليه:

أما بعد، فإن من أعظم الخيانة خيانة الأمة، وأعظم الفش على أهل المضر فُش الإمام، وعندك من حق المسلمين خمسمائة ألف درهم، فأبعث بها إلي حين يأتيك رسولي، وإلا فأقبل إلي حين تنظر في كتابي، فإني قد تقدمت إلى رسولي ألا يدعك ساعة واحدة تقيم بعد قدومه عليك، إلا أن تبعث بالمال. والسلام.

وكان الرسول أبو جرة الحنفي، فقال له أبو جرة: إن تبعث بهذا المال وإلا فاشخص معي إلى أمير المؤمنين. فلما قرأ كتابه أقبل حتى نزل البصرة، وكان العمال يحملون المال من كور البصرة إلى ابن عباس، فيكون ابن عباس هو الذي يبعث به إلى أمير المؤمنين عليه السلام، ثم أقبل من البصرة حتى أتى عليا عليه السلام بالكوفة، فأقره أياماً لم يذكر له شيئاً، ثم سأله المال، فأدى إليه مائتي ألف درهم، وعجز عن الباقي.

(١) بلدح الرجل: أحياناً ويُلدح. اللسان، مادة (بلدح).

قال: فروى ابن أبي سيف، عن أبي الصلت، عن ذهل بن الحارث، قال دعاني مصقلة إلى رَحْلِهِ، فَقَدَّمْ عِشَاءَ فَطَعَمْنَا مِنْهُ، ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام يَسْأَلُنِي هَذَا الْمَالُ، وَاللَّهِ مَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ لَهُ: لَوْ شِئْتُ لَمْ يَمُضْ عَلَيْكَ جُمُعَةٌ حَتَّى تَجْمَعَ هَذَا الْمَالُ، فَقَالَ: مَا كُنْتُ لِأَحْمِلَهَا قَوْمِي، وَلَا أَطْلُبُ فِيهَا إِلَى أَحَدٍ.

ثم قال: والله لو أن ابن هند مطالبي بها، أو ابن عقان لتركها لي. ألم تر إلى عثمان كيف أعطى الأشعثَ مائة ألف درهم من خراج أذربيجان في كل سنة! فقلت: إن هذا لا يرى ذلك الرأي، وما هو بتارك لك شيئاً. فسكت ساعة، وسكت عنه، فما مكث ليلة واحدة بعد هذا الكلام حتى لحق بمعاوية.

فبلغ ذلك علياً عليه السلام فقال: مَا لَهُ تَرَّخَهُ اللَّهُ! فَعَلَ فِعْلَ السَّيِّدِ وَفَرَّ فِرَارَ الْعَبْدِ، وَخَانَ خِيَانَةَ الْفَاجِرِ، أَمَا إِنَّهُ لَوْ أَقَامَ فَعَجَزَ مَا زَدْنَا عَلَى حَبْسِهِ، فَإِنْ وَجَدْنَا لَهُ شَيْئاً أَخَذْنَاهُ، وَإِنْ لَمْ نَجِدْ لَهُ مَالاً تَرَكْنَاهُ. ثُمَّ سَارَ عَلِيٌّ عليه السلام إِلَى دَارِهِ فَهَدَمَهَا.

وكان أخوه نعيم بن هبيرة الشيباني شيعاً لعلّي عليه السلام، مناصحاً، فكتب إليه مصقلة من الشام مع رجل من نصارى تغلب، يقال له حُلُوان:

أما بعد، فلاني كلمت معاوية فيك، فوعدك الكرامة، ومَنَّاكَ الْإِمَارَةَ، فَأَقْبِلْ سَاعَةَ تَلْقَى رَسُولِي. والسلام.

فأخذه مالك بن كعب الأرحبي فسرّح به إلى علي عليه السلام، فأخذ كتابه فقراه ثم قدمه فقطع يده، فمات. وكتب نعيم إلى أخيه مصقلة شعراً لم يرده عليه:

لَا تَرْمِيَنَّ هَذَاكَ اللَّهُ مَعْتَرِضاً	بِالظَّنِّ مِنْكَ فَمَا بَالِي وَحُلُوانَا
ذَاكَ الْحَرِيصُ عَلَى مَا نَالَ مِنْ طَمَعٍ	وَهُوَ الْبَعِيدُ فَلَا يُورِثُكَ أَحْزَانَا
مَاذَا أَرَدْتَ إِلَى إِسَالِهِ سَفْهاً	تَرْجُو مِقْطَاطَ امْرِئٍ لَمْ يُلَفَّ وَشَنَانَا
عَرَضْتَهُ لِعَلِيٍّ إِنَّهُ أَسَدٌ	يَمْشِي الْعِرْضَةَ مِنْ آسَادِ خَفَانَا
قَدْ كُنْتَ فِي خَيْرِ مُصْطَافٍ وَمُرْتَبِعٍ	تَحْمِي الْعِرَاقَ وَتُدْعَى خَيْرَ شَيْبَانَا
حَتَّى تَفْخَمْتَ أَمراً كُنْتَ تَكْرَهُهُ	لِلرَّائِبِينَ لَهُ سِرّاً وَإِغْلَانَا
لَوْ كُنْتَ أَذِنْتَ مَالِ اللَّهِ مِصْطَبِراً	لِلْحَقِّ زَكَّيْتَ أَخْيَانَا وَمَوْتَانَا
لَكِنْ لَحِقْتَ بِأَهْلِ الشَّامِ مَلْتَمِساً	فَضَلَ ابْنَ هِنْدٍ قَذَاكَ الرَّأْيُ أَشْجَانَا
فَالْيَوْمَ تَقْرَعُ مِنَ الْعَجْزِ مِنْ نَدَمٍ	مَاذَا تَقُولُ وَقَدْ كَانَ الَّذِينَ كَانَا!
أَضْبَحْتَ تُبْغِضُكَ الْأَحْيَاءُ قَاطِبَةً	لَمْ يَرْقِعِ اللَّهُ بِالْعُضَيَّانِ إِنْسَانَا
فَلَمَّا بَلَغَ الْكِتَابُ إِلَيْهِ عِلْمُ أَنَّ النُّصْرَانِيَّ قَدْ هَلَكَ، وَلَمْ يَلْبَثِ التَّغْلِييُونَ إِلَّا قَلِيلاً حَتَّى بَلَغَهُمْ	

هلاك أصحابهم، فاتوا مصقلة، فقالوا: أنت أهلكنا، فإما أن تجيئنا به، وإما أن تديته، فقال: أما أن أجيء به، فليست أستطيع ذلك، وأما أن أديه فتعم، فوداه.

قال إبراهيم: وحدثني ابن أبي سيف، عن عبد الرحمن بن جندب، عن أبيه، قال: قيل لعلّي عليه السلام حين هرب مصقلة: اردد الذين سبوا ولم تستوف أثمانهم في الرق، فقال: ليس ذلك في القضاء بحق، قد عتقوا إذ أعتقهم الذي اشتراهم، وصار مالي ديناً على الذي اشتراهم.

وروى إبراهيم أيضاً، عن إبراهيم بن ميمون، عن عمرو بن القاسم بن حبيب الثمار، عن عمار الدهني، قال: لما هرب مصقلة قال أصحاب علي عليه السلام له: يا أمير المؤمنين، فيئنا! قال: إنه قد صار علي غريم من الغرماء، فاطلبوه.

وقال ظبيان بن عمار، أحد بني سعد بن زيد مناة في بني ناجية:

فَلَا صَبَرْتُ لِلْقِرَاعِ نَاجِيَا وَالْمَرْهَقَاتِ تَخْتَلِي الْهَوَادِيَا
وَالطُّغْنِ فِي نُحُورِكُمْ تَوَالِيَا وَصَائِبَاتِ الْأَسْهَمِ الْقَوَاضِيَا
وقال ظبيان أيضاً:

أَلَا فَاصْبِرُوا لِلطُّغْنِ وَالضَّرْبِ نَاجِيَا وَلِلْمَرْهَقَاتِ يَخْتَلِي الْهَوَادِيَا
فَقَدْ صَبَّ رَبُّ النَّاسِ خِزْيَا عَلَيْكُمْ وَصَبَّرَكُمْ مِنْ بَغْدِ عِزِّ مَوَالِيَا
سَمَّا لَكُمْ بِالْخَيْلِ جُرْدَا عَوَادِيَا أَخْوَثُفَةً لَا يَبْرَحُ الدَّمَرُ غَازِيَا
فَصَبَّحَكُمْ فِي رَحْلِكُمْ وَخَيْوَلِكُمْ بِضَرْبٍ يُرَى مِنْهُ الْمَذْجُجُ هَاوِيَا
فَأَضْبَحْتُمْ مِنْ بَعْدِ عِزٍّ وَكَثْرَةٍ حَبِيدَ الْعَصَا لَا تَمْنَعُونَ الذَّرَارِيَا

قال إبراهيم بن هلال: وروى عبد الرحمن بن حبيب، عن أبيه، أنه لما بلغ علياً عليه السلام مصاب بني ناجية، وقتل أصحابهم، قال: هوث أمه! ما كان أنقص عقله وأجراً! إنه جاءني مرة فقال: إن في أصحابك رجالاً قد خشيت أن يفارقوك، فما ترى فيهم؟ فقلت: إني لا آخذ على التهمة، ولا أعاقب على الظن، ولا أقاتل إلا من خالفني وناصبني، وأظهر العداوة لي، ثم لست مقاتله حتى أدعوه وأعذر إليه، فإن تاب ورجع قبلنا منه، وإن أبى إلا الاعتزام على حربنا استعنا بالله عليه، وناجزناه. فكفت عني ما شاء الله، ثم جاءني مرة أخرى فقال لي: إني قد خشيت أن يفسد عليك عبد الله بن وهب وزيد بن حصين الطائي، إني سمعتهما يذكرانك بأشياء لو سمعتهما لم تفارقهما حتى تقتلهما أو توثقهما، فلا يزالان بمحبسك أبداً فقلت له: إني مستشيرك فيهما، فماذا تأمرني به؟ قال: إني أمرك أن تدعوه بهما فتضرب رقابهما، فعلمت أنه لا ورع له ولا عقل. فقلت له: والله ما أظن لك ورعاً ولا عقلاً، لقد كان ينبغي لك أن تعلم أنني

لا أقتل مَنْ لم يقاتلني، ولم يظهر لي عداوته للذي كنت أعلمتُكَه من رأيي، حيث جثتني في المرة الأولى، ولقد كان ينبغي لك لو أردت قتلهم أن تقول لي: اتق الله؛ بم تستحل قتلهم، ولم يقتلوا أحداً، ولم ينادوك، ولم يخرجوا من طاعتك!

فأما ما يقوله الفقهاء في مثل هذا السُّبني، فقبل أن نذكر ذلك نقول: إن الرواية قد اختلفت في المرتدين من بني ناجية، فالرواية الأولى التي رواها محمد بن عبد الله بن عثمان، عن نصر بن مزاحم، تتضمن أن الأمير الذي من قبل علي عليه السلام قتل مقاتلة المرتدين منهم بعد امتناعهم من العودة إلى الإسلام، وسبى ذراريهم، فقدم بها على علي عليه السلام، فعلى هذه الرواية يكون الذين اشتراهم مصقلة ذراري أهل الردة.

والرواية الثانية التي رواها محمد بن عبد الله، عن ابن أبي سيف، تتضمن أن معقل بن قيس، الأمير من قبل علي عليه السلام لم يقتل من المرتدين من بني ناجية إلا رجلاً واحداً، وأما الباقيون فرجعوا إلى الإسلام، والاسترقاق إنما كان للنصارى الذين ساعدوا في الحرب وشهروا السيف على جيش الإمام، وليسوا مرتدين، بل نصارى في الأصل، وهم الذين اشتراهم مصقلة.

فإن كانت الرواية الأولى هي الصحيحة ففيها إشكال، لأن المرتدين لا يجوز عند الفقهاء استرقاقهم، ولا أعرف خلافاً في هذه المسألة، ولا أظن الإمامية أيضاً تخالف فيها، وإنما ذهب أبو حنيفة إلى أن المرأة المرتدة إذا لحقت بدار الحرب جاز استرقاقها، وسائر الفقهاء على خلافه، ولم يختلفوا في أن الذكور البالغين من المرتدين لا يجوز استرقاقهم فلا أعلم كيف وقع استرقاق المرتدين من بني ناجية على هذه الرواية، على أنني أرى أن الرواية المذكورة لم يصرح بها في استرقاقهم، ولا بأنهم بيعوا على مصقلة، لأن لفظ الراوي: «فأبوا، فقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم فقدم بهم على علي عليه السلام»، وليس في الرواية ذكر استرقاقهم ولا يتبعهم على مصقلة، بل فيها ما ينافي يتبعهم على مصقلة. وهو قوله: «فقدم بهم على علي عليه السلام»، فإن مصقلة ابتاع السُّبني من الطريق في أزدشير خوة قبل قدومه على علي عليه السلام، ولفظ الخبر: «فقدم بهم على علي عليه السلام».

وإنما يبقى الإشكال على هذه الرواية أن يقال: إذا كان قد قدم بهم على علي عليه السلام، فمصقلة من اشترى! ولا يمكن دفع كون مصقلة اشترى قوماً في الجملة، فإن الخبر بذلك مشهور جداً يكاد يكون متواتراً.

فإن قيل: فما قولكم فيما إذا ارتد البالغون من الرجال والنساء، ثم أولدوا ذرية صغار بعد الردة، هل يجوز استرقاق الأولاد؟ فإن كان يجوز، فهلا حملتم الخبر عليه!

قيل : إذا ارتد الزوجان فحملت منه في حال الرقة وأنت بولد كان محكوماً بكفره، لأنه ولد بين كافرين .

وهل يجوز استرقاقه؟ فيه للشافعي قولان، وأما أبو حنيفة فقال : إن ولد في دار الإسلام لم يجز استرقاقه، وإن ولد في دار الحرب جاز استرقاقه، فإن كان استرقاقاً هؤلاء الذرية موافقاً لأحد قولي الشافعي، فلعلة ذلك .

وأما الرواية الثانية، فإن كانت هي الصحيحة - وهو الأولى - فالفقه في المسألة أن الذمي إذا حارب المسلمين فقد نقض عهده، فصار كالمشركين الذين في دار الحرب، فإذا ظفر به الإمام جاز استرقاقه ويبيعه، وكذلك إذا امتنع من أداء الجزية أو امتنع من التزام أحكام الإسلام .

واختلف الفقهاء في أمور سبعة : هل ينتقض بها عهدهم، ويجوز استرقاقهم أم لا ؟ وهي أن يزني الذمي بمسلمة، أو يصيبها باسم نكاح، أو يفتن مسلماً عن دينه، أو يقطع الطريق على المسلمين، أو يؤوي للكفار عيناً، أو يدل على عورات المسلمين، أو يقتل مسلماً .

فأصحاب الشافعي يقولون : إن شرط عليهم في عقد الذمة الكف عن ذلك، فهل ينتقض عهدهم بفعله؟ فيه وجهان . وإن لم يشترط ذلك في عقد الذمة، لم ينتقض عهدهم بذلك .

وقال الطحاوي من أصحاب أبي حنيفة : ينتقض عهدهم بذلك، سواء شريطة أو الكف عنه في عقد الذمة، أو لم يشارطوا عليه .

فنصارى بني ناجية على هذه الرواية قد انتقض عهدهم بحرب المسلمين، فأبيحت دماؤهم، وجاز للإمام قتلهم وجزاز له استرقاقهم كالمشركين الأصليين في دار الحرب، وأما استرقاق أبي بكر بن أبي قحافة لأهل الردة وسبيهم، فإن صح كان مخالفاً لما يقول الفقهاء من تحريم استرقاق المرتدين، إلا أن يقولوا إنه لم يسب المرتدين، وإنما سب من ساعدتهم وأعانهم في الحرب من المشركين الأصليين . وفي هذا الموضع نظر .

٤٥ - ومن خطبة له عليه السلام في الزهد وتعظيم الله

الأصل : الْحَمْدُ لِلَّهِ غَيْرَ مَقْنُوطٍ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَلَا مَخْلُوفٍ مِنْ نِعَمَتِهِ، وَلَا مَأْيُوسٍ مِنْ مَغْفِرَتِهِ، وَلَا مُسْتَكْفٍ عَنْ حَبَادَتِهِ، الَّذِي لَا تَبْرَحُ مِنْهُ رَحْمَةٌ، وَلَا تُفْقَدُ لَهُ نِعْمَةٌ .

وَالدُّنْيَا دَارٌ مُنِي لَهَا الْفَنَاءُ، وَلِأَهْلِهَا مِنْهَا الْجَلَاءُ، وَهِيَ حُلُوءَةٌ خَصِيرَةٌ، وَقَدْ عَجَلَتْ لِلطَّالِبِ، وَالتَّبَسَّتْ بِقَلْبِ النََّاظِرِ . فَارْتَحِلُوا مِنْهَا بِأَحْسَنِ مَا يَحْضُرِيكُمْ مِنَ الزَّادِ، وَلَا تَسْأَلُوا فِيهَا فَوْقَ الْكَفَافِ، وَلَا تَطْلُبُوا مِنْهَا أَكْثَرَ مِنَ الْبَلَاحِ .

الشرح: مُني لها الفناء، أي قُدر. والجلاء، بفتح الجيم: الخروج عن الوطن، قال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ﴾^(١).

وحلوة خضرة، مأخوذ من قول رسول الله ﷺ: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون»^(٢).

والكفاف من الرزق: قُدر القوت، وهو ما كَفَّ عن الناس، أي: أغنى.
والبلاغ والبُلغة من العيش: ما يُتَبَلَّغ به.

واعلم أن هذا الفصل يشتمل على فصلين من كلام أمير المؤمنين عليه السلام: أحدهما حمد الله والثناء عليه إلى قوله: «ولا تُفَقِّدْ له نعمة». والفصل الثاني ذكر الدنيا إلى آخر الكلام. وأحدهما غير مختلط بالآخر ولا منسُوق عليه، ولكن الرضوي رحمه الله تعالى يلتقط كلام أمير المؤمنين عليه السلام التقاطاً، ولا يقف مع الكلام المتوالي، لأن غرضه ذكر فصاحته عليه السلام لا غير، ولو أتى بخطبه كلها على وجهها لكانت أضعاف كتابه الذي جمعه.

الموازنة والسجع

فأما الفصل الأول، فمشمول من علم البيان على باب كبير يعرف بالموازنة، وذلك «غير مقنوط» فإن وازنه في الفقرة الثانية بقوله: «ولا مخلو». ألا ترى أن كل واحدة منهما على وزن «مفعول»، ثم قال في الفقرة الثالثة: «ولا مأْيوس»، فجاء بها على وزن «مفعول» أيضاً، ولم يمكنه في الفقرة الرابعة ما أمكنه في الأولى، فقال: «ولا مستنكف» فجاء به على وزن «مستفعل» وهو وإن كان خارجاً عن الوزن، فإنه غير خارج عن المفعولية؛ لأن «مستفعل» «مفعول» في الحقيقة، كقولك: زيد مستحسن، ألا ترى أن «مستحسناً» من استحسنته، فهو أيضاً غير خارج عن المفعولية.

ثم وازن عليه السلام بين قوله: «لا تبرح» وقوله: «لا تفقد»، وبين «رحمة» و«نعمة»، فأعطت هذه الموازنات الكلام من الظلاوة والصنعة ما لا تجده عليه لو قال: «الحمد لله غير مخلو من نعمته، ولا مبعّد من رحمته»؛ لأن «مبعّد» بوزن «مفعول»، وهو غير مطابق ولا مماثل لمفعول، بل هو بناء آخر.

(١) سورة الحشر، الآية: ٣.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء، باب: أكثر أهل الجنة الفقراء (٢٧٤٢)، والترمذي في الفتن، باب: ما أخبر النبي ﷺ أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة (٢١٩١)، وابن ماجه في الفتن، باب: فتنة النساء (٤٠٠٠)، وأحمد في باقي مسند المكثرين، باب: مسند أبي سعيد الخدري (١٠٧٥٩).

وكذلك لو قال: «لا تزول منه رحمة»، فإن «تزول» ليست في المماثلة والموازنة لـ «تفقد» كـ «تبرح» ألا ترى أنها معتلة، وتلك صحيحة! وكذلك لو قال: «لا تبرح منه رحمة ولا يفقد له إنعام» فإن «إنعاماً» ليس في وزن «رحمة»، والموازنة مطلوبة في الكلام الذي يقصد فيه الفصاحة، لأجل الاعتدال الذي هو مطلوب الطبع في جميع الأشياء. والموازنة أعم من السجع؛ لأن السجع تماثل أجزاء الفواصل لو أوردتها على حرف واحد، نحو القريب، والغريب، والنسيب، وما أشبه ذلك. وأما الموازنة فنحو القريب والشديد، والجليل، وما كان على هذا الوزن وإن لم يكن الحرف الآخر بعينه واحداً، وكلّ سجع موازنة، وليس كل موازنة سجعاً، ومثال الموازنة في الكتاب العزيز: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يُغْنِي عَنْهُمْ وَالَّذِينَ هُمْ يُغْنِي عَنْهُمْ﴾ (١٧٧) وَهَذِهِمَا الصِّرَاطُ السَّيِّئُ (١٧٨) ﴿١﴾، وقوله تعالى: ﴿يَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾، ثم قال: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾، ثم قال: ﴿تَوَزَّهُمْ أَزًّا﴾ ثم قال: ﴿نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ (٢) فهذه الموازنة.

ومما جاء من المثال في الشعر قوله:

بأشدّهم بأساً على أعدائهم وأعزهم فقداً على الأصحاب
فقوله: «وأعزهم» بإزاء «أشدّهم»، وقوله: «فقداً» بإزاء «بأساً».

والموازنة كثيرة في الكلام وهي في كتابه الله تعالى أكثر.

التحذير من مفاتن الدنيا

فأما الفصل الثاني فيشتمل على التحذير من الدنيا، وعلى الأمر بالقناعة، والرضا بالكفاف، فأما التحذير من الدنيا فقد ذكرنا ونذكر منه ما يحضرنا، وأما القناعة فقد ورد فيها شيء كثير.

قال رسول الله ﷺ لأخوين من الأنصار: «لا تيشا من روح الله ما تهزّمزث رؤوسكما، فإن أحدكم يولد لا قشر عليه، ثم يكسوه الله ويرزقه» (٣).

وعنه عليه السلام - ويُعزى إلى أمير المؤمنين عليه السلام - : «القناعة كنز لا يفقد» (٤).

وما يقال إنه من كلام لقمان الحكيم: «كفى بالقناعة عزّاً، ويطيب النفس نعيماً» ومن كلام عيسى عليه السلام: اتخذوا البيوت منازل، والمساجد مساكن، وكلوا من بقل البرية، واشربوا من

(١) سورة الصافات، الآيتان: ١١٧، ١٨.

(٢) سورة مريم، الآيتان: ٨١ - ٨٤.

(٣) أخرجه نحوه الطبراني في «الكبير» (٣٤٨٠)، والبيهقي في «الشعب» (١٣٤٩)، وابن عبد البر في «الاستيعاب» (١١٤٨).

(٤) أخرجه البيهقي في «الزهد الكبير» (٨٨/٢) بلفظ: لا يفنى، والعجلوني في «كشف الخفاء» (١٩٠٠).

الماء القراح، واخرجوا من الدنيا بسلام. لعمرى لقد انقطعتم إلى غير الله فما ضيَعكم،
أفتخافون الضيعة إذا انقطعتم إليه!

وفي بعض الكتب الإلهية القديمة: يقول الله تعالى: يا بن آدم، أتخاف أن أقتلك بطاعتي
هزلاً، وأنت تفتق بمعصيتي ميمناً!

قال أبو وائل: ذهبتُ أنا وصاحب لي إلى سلمان الفارسي، فجلسنا عنده، فقال: لولا أن
رسول الله ﷺ نهى عن التكلف لتكلف لكُم، ثم جاء بخبز وملح ساذج لا أبزار عليه، فقال
صاحبي: لو كان لنا في ملحنا هذا سَعتر^(١)! فبعث سلمان بمظهرته، فرهنها على سَعتر، فلما
أكلنا قال صاحبي: الحمد لله الذي قنَعنا بما رزقنا، فقال سلمان: لو قنَعْتُ بما رزقك لم تكن
مظهرتي مرهونة!

عباد بن منصور: لقد كان بالبصرة مَنْ هو أفقر من عمرو بن عُبيد وأفصح، ولكنه كان
أصبرهم عن الدينار والدرهم، فسادَ أهل البصرة.

قال خالد بن صفوان لعمرو بن عبيد: لم لا تأخذ مِنِّي؟ فقال: لا يأخذ أحدٌ من أحدٍ إلا ذل
له، وأنا أكره أن أذلَّ لغير الله.

كان معاشُ عمرو بن عُبيد من دارٍ ورثها، كان يأخذ أجرتها في كل شهر ديناراً واحداً فيتبلغ
به.

الخليل بن أحمد: كان الناس يكتسبون الرغائب بعلمه، وهو بين أخصاص البصرة، لا
يلتفت إلى الدنيا ولا يطلبها.

وهب بن منبه: أَرَمْتُ مرّةً حتى كدت أقتط، فأتاني آتٍ في المنام ومعه شبه لوزة، فقال:
افضض، ففضضتها، فإذا حريرة فيها ثلاثة أسطر: لا ينبغي لمن عقل عن الله أمره، وعرف لله
عدله، أن يستبطيء الله في رزقه، فقنعت وصبرت، ثم أعطاني الله فأكثرت.

قيل للحسن عليه السلام: إن أبا ذرٍّ كان يقول: الفقرُ أحبُّ إليَّ من الغنى، والسَّقمُ أحبُّ إليَّ من
الصحة، فقال: رحم الله أبا ذرٍّ، أما أنا فأقول: من أتكل إلى حُسْن الاختيار من الله لم يتمنَّ
أنه في غير الحال التي اختارها الله له، لعمرى يا بن آدم، الطير لا تأكل رَغداً، ولا تنخبأ لغد،
وأنت تأكل رَغداً، وتنخبأ لغد، فالطيرُ أحسنُ ظناً منك بالله عزَّ وجلَّ.

حبس عمر بن عبد العزيز الغدَاء عن مَسْلَمَة، حتى برَّح به الجُوع، ثم دعا بسويق فسقاه،
فلما فرَغ منه لم يقدِرْ على الأكل، فقال: يا مسلمة، إذا كفاك من الدنيا ما رأيت، فعلامَ
التهافت في النار!

(١) السَعتر: نبت. اللسان، مادة (سَعتر).

عبد الواحد بن زيد: ما أحسب شيئاً من الأعمال يتقدم الصبر إلا الرضا والقناعة، ولا أعلم درجة أرفع من الرضا، وهو رأس المحبة.

قال ابن شبرمة في محمد بن واسع: لو أن إنساناً اكتفى بالتراب لاكتفى به.

يقال من جملة ما أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: قل لعبادي المستسخطين لرزقي: إياكم أن أغضب فأبسط عليكم الدنيا.

كان لبعض الملوك نديم، فسكير، ففاته الصلاة، فجاءت جارية له بجمر نار، فوضعتها على رجله، فانتبه مذعوراً، فقالت: إنك لم تصبر على نار الدنيا، فكيف تصبر على نار الآخرة! فترك الدنيا وانقطع إلى العبادة، وقعد يبيع البقل، فدخل عليه الفضيل وابن عيينة، فإذا تحت رأسه لبنة، وليس تحت جنبه حصير، فقالا له: إنا رَوَيْنَا أَنَّهُ لَمْ يَدْغْ أَحَدٌ شَيْئاً لِلَّهِ إِلَّا عَوَّضَهُ خَيْراً مِنْهُ، فما عَوَّضُكَ؟ قال: القناعة والرضا بما أنا فيه.

أصاب داود الطائي ضائقة شديدة، فجاء حماد بن أبي حنيفة بأربعمائة درهم من تركة أبيه، فقال داود: هي لعمرى من مال رجل ما أقدم عليه أحداً في زهده وورعه وطيب كسبه، ولو كنت قابلاً من أحد شيئاً لقبلتها إعظاماً للميت، وإيجاباً للحَيِّ، ولكني أحب أن أعيش في عز القناعة.

سفيان الثوري: ما أكلت طعام أحدٍ قط إلا هُنت عليه.

مسعر بن كدام: مَنْ صَبَرَ عَلَى الْخَلِّ وَالْبَقْلِ لَمْ يُسْتَعْبَدْ.

فضيل: أصلُ الزهد الرضا بما رزقك الله، ألا تراه كيف يصنع بَعْبُدِهِ ما تصنع الوالدة الشفيقة بولدها! تطعمه مرة خيصة، ومرة صبراً، تريد بذلك ما هو أصلح له.

المسيح عليه السلام: أنا الذي كبيت الدنيا على وجهها، وقدرتها بقدرها، ليس لي ولد يموت، ولا بيت يخرَّب، وسادي الحجر، وفراشي المَدَر، وسراجي القمر.

أمير المؤمنين عليه السلام: أكل تمر دقل، ثم شرب عليه ماء، ومسح بطنه، وقال: من أدخلته بطنه النار، فأبعده الله، ثم أنشد:

فإِنَّكَ إِنْ أَغْطَيْتَ بَطْنَكَ سُؤْلَهُ وَفَرَجَكَ نَالاً مُنْتَهَى الدَّمِ أَجْمَعَا

في الحديث الصحيح المرفوع: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمَلَ رِزْقَهَا، فَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ»^(١).

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧٦٩٤)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٣٣٢)، والبزار في «المسند» (٢٩١٤)، والبيهقي في «الشعب» (١١٨٥).

من كلام الحكماء: من ظفر بالقناعة فقد ظفر بالكيماة الأعظم.

الحسن: الحريص الراغب، والقانع الزاهد، كلاهما مستوفٍ أجله، مستكمل أثله، غير مُزداد ولا منتقصٍ بما قُدِّر له، فعلام التقمُّم في النار!

ابن مسعود، رفعه: «إنه ليس أحد بأخيس من أحد، قد كُتِبَ النصيب والأجل، وقُسمَت المعيشة والعمل، والناس يجرُّون منهما إلى متهى معلوم».

المسيح ﷺ: انظروا إلى طير السماء تغدو وتروح، ليس معها شيء من أرزاقها، لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها، فإن زعمتم أنكم أوسع بطوناً من الطير، فهذه الوحوش من البقر والحُمُر، لا تحرث ولا تحصد، والله يرزقها.

سويد بن غفلة: كان إذا قيل له: قد ولي فلان، يقول: حسبي كسرتي وملحي.

وفد حروة بن أذينة. على هشام بن عبد الملك فشكا إليه خلته، فقال له: ألسن القائل:

لَقَدْ عَلِمْتُ وَمَا الْإِشْرَافُ مِنْ خُلُقِي أَنْ الَّذِي هُوَ رِزْقِي سَوْفَ يَأْتِينِي
أَسْعَى لَهُ فَيَعْتِنِي تَطَلُّبُهُ وَلَوْ قَعَدْتُ أَتَانِي لَا يُعْتِنِي

فكيف خرجت من الحجاز إلى الشام تطلب الرزق! ثم اشتغل عنه، فخرج وقعد على ناقته ونصّها راجعاً إلى الحجاز، فذكره هشام في الليل، فسأل عنه فقبل: إنه رَجَعَ إلى الحجاز، فتذمّر ونَدِم، وقال: رجل قال حِكْمَةً، ووفد عليّ مستجدياً، فجبته، ورددته! ثم وجه إليه ألفي درهم، فجاء الرسول وهو بالمدينة، فدفعها إليه، فقال له: قل لأمير المؤمنين، كيف رأيتا سعيّ فأكذبت، وقعدت في منزلي فأتاني رزقي.

عمر بن الخطاب: تعلّم أن الطمع فقر، وأن اليأس غنى، ومن يش من شيء استغنى عنه.

أهدي لرسول الله ﷺ طائران، فأكل أحدهما عشيّة، فلما أصبح طلب غداء، فأتته بعض أزواجه بالطائر الآخر، فقال: «ألم أنهك أن ترفعي شيئاً لغد، فإن من خلق الغد خلق رزقه»^(١).

وفي الحديث المرفوع: «قد أفلح من رزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه»^(٢).

من حكمة سليمان عليه السلام: قد جَرَيْنَا لَيْنَ الْعَيْشِ وَشِدَّتِهِ، فوجدنا أهنا أدناه.

(١) أخرجه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٤١/١٠)، وابن أبي شيبة في «المصنف» نحوه (٣٤٤٠١)، وأبو يعلى في «مسنده» (٤٢٢٣).

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة، باب: في الكفاف والطاعة (١٠٥٤)، والترمذي في «الزهد»، باب ما جاء في الكفاف والصبر عليه (٢٣٤٨) وأحمد في مسند المكثرين، باب: مسند عبد الله بن عمرو بن العاص (٦٥٣٦).

وهب، في قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾^(١)، قال: القناعة.
بعض حكماء الشعراء:

فَلَا تَجْزَعْ إِذَا اغْسَرْتَ يَوْمًا فَقَدْ أَيْسَرْتَ فِي الذَّهْرِ الطَّوِيلِ
وَلَا تَظُنُّنَّ بِرَبِّكَ ظَنًّا سَوِيًّا فَإِنَّ اللَّهَ أَوْلَى بِالْجَمِيلِ
وَأَنَّ الْمُسْرِيَ تَتَّبِعُهُ يَسَارٌ وَقِيلَ اللَّهُ أَضْدَقُ كُلِّ قَبِيلِ
وَلَوْ أَنَّ الْعَقُولَ تَجُرُّ رِزْقًا لَكَانَ الْمَالُ عِنْدَ ذَوِي الْعُقُولِ

عائشة: قال لي رسول الله ﷺ: «إِنْ أَرَدْتَ اللَّحُوقَ بِي فَيَكْفِيكَ مِنَ الدُّنْيَا زَادُ الرَّكَّابِ، وَلَا تُخْلِقِي ثَوْبًا حَتَّى تَرْقُمِيهِ، وَإِيَّاكَ وَمَجَالِسَةَ الْأَخْنِيَاءِ». يقال: إِنَّ جِبْرَائِيلَ عليه السلام جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمِفَاتِيحِ خَزَائِنِ الدُّنْيَا، فَقَالَ: «لَا حَاجَةَ لِي فِيهَا، بَلْ جُوعَتَانِ وَشُبْعَةٌ»^(٢).
وُجِدَ مَكْتُوبًا عَلَى صَخْرَةٍ عَادِيَّةٍ: يَا بَنَ آدَمَ، لَسْتَ بِبَالِغِ أَمَلِكَ، وَلَا سَابِقِ أَجَلِكَ، وَلَا مَغْلُوبٍ عَلَى رِزْقٍ، وَلَا مَرْزُوقٍ مَا لَيْسَ لَكَ، فَعَلَامَ تَقْتُلُ نَفْسَكَ!
الحسين بن الضحَّاك:

يَا رَوْحُ مَنْ عَظُمَتْ قَنَاعَتُهُ حَسَمَ الْمَطَامِعَ مِنْ غَدٍ وَعَدٍ
مَنْ لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ مُتَّهِمًا لَمْ يُنْسِ مُخْتِاجًا إِلَى أَحَدٍ
أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى بَعْضِ أَنْبِيَائِهِ: أَتَدْرِي لَمْ رَزَقْتُ الْأَحْمَقُ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: لِيَعْلَمِ الْعَاقِلُ
أَنْ طَلَبَ الرِّزْقَ لَيْسَ بِالْإِحْتِيَالِ.

قَطَطَ يَوْسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ عليه السلام فِي الْجُبِّ لَجُوعٍ اعْتَرَاهُ، فَأَوْحَى إِلَيْهِ: انْظُرْ إِلَى حَائِطِ الْبَيْتِ،
فَنَظَرَ فَانْفَرَجَ الْحَائِطُ عَنْ ذَرَّةٍ عَلَى صَخْرَةٍ، مَعَهَا طَعَامُهَا، فَقِيلَ لَهُ: أَتَرَانِي لَا أَغْفُلُ عَنْ هَذِهِ
الدَّرَّةِ، وَأَغْفُلُ عَنْكَ، وَأَنْتَ نَبِيٌّ ابْنُ نَبِيٍّ!

دَخَلَ عَلِيٌّ عليه السلام الْمَسْجِدَ، وَقَالَ لِرَجُلٍ: أَمْسِكْ عَلَيَّ بِغَلَّتِي، فَخَلَعَ لِحَامَهَا، وَذَهَبَ بِهِ،
فَخَرَجَ عَلَيٌّ عليه السلام بَعْدَ مَا قَضَى صَلَاتَهُ. وَبِيَدِهِ دَرَاهِمَانِ لِيَذْعَهُمَا إِلَيْهِ مَكَافَأَةً لَهُ، فَوَجَدَ الْبَغْلَةَ
عُظْلًا^(٣)، فَدَفَعَ إِلَى أَحَدِ غُلَامَانِهِ الدَّرَاهِمَيْنِ، لِيَشْتَرِيَ بِهِمَا لِحَامًا، فَصَادَفَ الْغُلَامُ اللَّجَامَ
الْمَسْرُوقَ فِي السُّوقِ، قَدْ بَاعَهُ الرَّجُلُ بِدَرَاهِمَيْنِ، فَأَخَذَهُ بِالدَّرَاهِمَيْنِ وَعَادَ إِلَى مَوْلَاهُ، فَقَالَ
عَلِيٌّ عليه السلام: «إِنَّ الْعَبْدَ لِيَحْرِمُ نَفْسَهُ الرِّزْقَ الْحَلَالَ بِتَرْكِ الصَّبْرِ، وَلَا يَزَادُ عَلَى مَا قُدِّرَ لَهُ.

(١) سورة النحل، الآية: ٩٧.

(٢) المروي: أجوع يوماً وأشبع يوماً، انظر البداية والنهاية: ٣٢١/٦.

(٣) الأعطال من الخيل والإبل: التي لا قلائد عليها ولا أرسان لها والتي لا سمة عليها. القاموس، مادة (عطل).

سليمان بن المهاجر البجلي:

كَسَوْتُ جَمِيلَ الصَّبْرِ وَجْهِي فَصَانَهُ بِإِذْنِ اللَّهِ عَنْ غَشِيَانِ كُلِّ بَخِيلٍ
فَلَمْ يَتَبَذَّلْنِي الْبَخِيلُ وَلَمْ أَقْمِ عَلَى بَابِهِ يَوْمًا مَقَامَ ذَلِيلٍ
وَأَنْ قَلِيلًا يَسْتُرُ الْوَجْهَ أَنْ يُرَى إِلَى النَّاسِ مَبْذُولًا لَغَيْرِ قَلِيلٍ

وقف بعض الملوك على سُقْرَاط وهو في المَشْرِقَة، فقال له: سَلْ حاجتك، قال: حاجتي أن تُزِيلَ عَنِّي ظِلُّكَ، فقد منعني الرِّقْقُ بالشمس، فأحضَرَ له ذهباً وكُسوةً دِيْبَاج، فقال: إنه لا حاجة بسُقْرَاط إلى حجارة الأرض ولُعَابِ الدود، إنما حاجته إلى أمر يصحبه حيثما توجه.

صلى معروف الكرخي خَلْفَ إمام، فلما انفتل سأل ذلك الإمام معروفاً: من أين تأكل؟ قال: اضِبر عليّ حتّى أعيذَ ما صليته خَلْفَكَ، قال: لماذا؟ قال: لأنَّ مَنْ شَكَّ في الرزق شكَّ في الرازق، قال الشاعر:

وَلَا تُهْلِكَنَّ النَّفْسَ وَجَدًّا وَحَسْرَةً عَلَى الشَّيْءِ أَسَدَاهُ لَغَيْرِكَ قَادِرَةٌ
وَلَا تَبْأَسَنَّ مِنْ صَالِحٍ أَنْ تَنَالَهُ وَإِنْ كَانَ نَهَبًا بَيْنَ أَيْدٍ تُبَادِرُهُ
فإنَّكَ لَا تُعْطِي أَمْرًا حَظُّ نَفْسِهِ وَلَا تَمْنَعُ الشَّقَّ الَّذِي الْغَيْثُ نَاصِرُهُ

قال عمر بن الخطاب لعلي بن أبي طالب عليه السلام: قد ملكتُ الناسَ، وأحببتُ أن أُلْحَقَ بصاحبي، فقال: إن سَرَّكَ اللُّحُوقُ بهما فقَصِّرْ أَمْلَكَ، وكُلْ دُونَ الشَّبَعِ، واخْصِفِ الثَّغْلَ وَكُنْ كَيْشَ الْإِزَارِ، مَرْقُوعِ الْقَمِيصِ، تُلْحَقُ بِهِمَا.

وقال بعض شعراء العجم:

عَلَا السَّغَرُ فِي بَغْدَادَ مِنْ بَغْدِ رُحْبِهِ وَإِنِّي فِي الْحَالَيْنِ بِاللَّهِ وَائِقُ
فَلَسْتُ أَخَافُ الضَّيْقَ وَاللَّهَ وَاسِعَ غِنَاهُ، وَلَا الْجِرْمَانَ وَاللَّهَ رَازِقُ
قِيلَ لِعَلِيِّ عليه السلام: لو سَدَّ عَلَى رَجُلٍ بَابُ بَيْتٍ وَتَرِكَ فِيهِ، مَنْ أَيْنَ كَانَ يَأْتِيهِ رِزْقُهُ؟ قال: مِنْ حَيْثُ كَانَ يَأْتِيهِ أَجَلُهُ.

قال بعض الشعراء:

صَبَرْتُ السَّنْفَسَ لَا أَجْزَ عَ مِنْ حَادِثَةِ الدَّمْرِ
رَأَيْتُ الرِّزْقَ لَا يُكْسَرُ بِِ بِالْمُحَرِّفِ وَلَا النُّكْرِ
وَلَا بِالسَّيْلِ الْأَمْنِ لِي أَهْلُ الْفَضْلِ وَالذُّكْرِ
وَلَا بِالسُّمْرِ اللَّذَنِ وَلَا بِالْعُذْمِ الْبُشْرِ
وَلَا بِالسَّقْلِ وَالذِّينِ وَلَا الْجَنَاءِ وَلَا الْقُنْدَرِ

وَلَا يُذْرِكُ بِالطَّيِّشِ وَلَا الْجَهْلِ وَلَا الْهَذْرِ
وَلَكِنْ قَسَمٌ تَجْرِي بِمَا نَذِرِي وَلَا نَذِرِي
جاء فتح بن شخرف إلى منزله بعد العشاء، فلم يجد عندهم ما يتعشى به، ولا وجد دهنًا
للسراج وهم في الظلمة، فجلس ليلة يبكي من الفرح، ويقول: بأي يد قد كانت مني، بأي طاعة
تنعم عليّ بأن أترك على مثل هذه الحال!

لقي هرم بن حيان أويساً القرني، فقال: السلام عليك يا أويس بن عامر! فقال: وعليك
السلام يا هرم بن حيان، فقال هرم: أما إني عرفتُك بالصفة، فكيف عرفتني؟ قال: إن أرواح
المؤمنين لشام كما تشام الخيل، فيعرف بعضها بعضاً. قال: أوصني، قال: عليك بسيف
البحر، قل: فمن أين المعاش؟ قال: أف لك! خالطت الشك الموعظة، أتفر إلى الله بدينك
وتهمه في رزقك!

منصور الفقيه:

الْمَوْتُ أَهْلٌ عِنْدِي بَيْنَ الْقَنَاءِ وَالْأَسِنَّةِ
وَالْخَيْلُ تَجْرِي مِرَاعاً مَقْطَعَاتِ الْأَعْنَةِ
مَنْ أَنْ يَكُونُ لِنَذْلِ عَالِي فَضْلٍ وَمِنَّةِ
أعرابي:

أَتَيْنَسُ أَنْ يَقَارِنَكَ النَّجَاحُ فَايْنِ اللَّهَ وَالْقَدْرُ الْمُتَنَاحُ
قال رجل لرسول الله ﷺ: أوصني، قال: «إياك والطمع، فإنه فقر حاضر، وعليك
باليأس مما في أيدي الناس»^(١).

حكيم: أحسن الأحوال حال يغبطك بها من دونك، ولا يحقرُك لها من فوقك.

أبو العلاء المعري:

فَإِنْ كُنْتَ تَهْوَى الْعِيشَ فَاغْ تَوْشَطَا فَعِنْدَ التَّنَاهِي يَقْصُرُ الْمُسْتَطَاوِلُ
تَوْقَى الْبَدُورُ النُّقْصَ وَهِيَ أَهْلَةُ وَيُذْرِكُهَا النُّقْصَانُ، وَهِيَ كَوَامِلُ
خالد بن صفوان: كن أحسن ما تكون في الظاهر حالاً، أقل ما تكون في الباطن مآلاً، فإن
الكریم مَنْ كَرُمَتْ عِنْدَ الْحَاجَةِ خُلَّتْ، وَاللَّيْمُ مَنْ لَوُمْتُ عِنْدَ الْفَاقَةِ طَعَمَتْ.
شعر:

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٣١٢)، والبيهقي في «الزهد الكبير» (١٠١)، والهيتمي في «مجمع
الزوائد» (٢٢١/٤).

وَكَمْ مَلِكٍ جَانِبُهُ مِنْ كَرَاهَةٍ لِإِغْلَاقِ بَابٍ أَوْ لِتَشْدِيدِ حَاجِبٍ
وَلِي فِي غَنَى نَفْسِي مَرَادٌ وَمَذْهَبٌ إِذَا أَبْهَمْتُ دُونِي وَجُوهَ الْمَذَاهِبِ
بعض الحكماء: ينبغي للعاقل أن يكون في دنياه كالمدعو إلى الوليمة، إن أتته صفحة
تناولها، وإن جازته لم يرصدها ولم يطلبها.

٤٦ - ومن كلام له عليه السلام عند عزمه على المسير إلى الشام

الأصل: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَغَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ، وَسُوءِ الْمَنْظَرِ، فِي الْأَهْلِ
وَالْمَالِ وَالْوَلَدِ. اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَأَنْتَ الْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ»^(١)،
وَلَا يَجْمَعُهُمَا غَيْرُكَ لِأَنَّ الْمُسْتَخْلَفَ لَا يَكُونُ مُسْتَضْحَبًا، وَالْمُسْتَضْحَبُ لَا يَكُونُ مُسْتَخْلَفًا.

قال الرضوي رحمه الله: وابتداء هذا الكلام مروي عن رسول الله ﷺ، وقد فُفاه أميرُ
المؤمنين عليه السلام بأبلغ كلام، وتَمَمَهُ بأحسن تمام، من قوله: «وَلَا يَجْمَعُهُمَا غَيْرُكَ»، إلى آخر
الفصل.

الشرح: وَغَاءِ السَّفَرِ: مشقته، وأصل الوَغَتْ المكان السَّهْلَ الكثير الدَّهْسِ، تَغِيْبُ فِيهِ
الْأَقْدَامُ، وَيَشْقَى عَلَى مَنْ يَمْشِي فِيهِ، أَوْغَتْ الْقَوْمَ، أَيِ وَقَعُوا فِي الْوَعَثِ. وَالْكَآبَةُ:
الْحُزْنُ. وَالْمُنْقَلَبُ، مُصَدَّرٌ مِنْ انْقَلَبَ مُنْقَلَبًا، أَيِ رَجَعَ، وَسُوءُ الْمَنْظَرِ: قُبْحُ الْمَرَأَى.

وصدر الكلام مروي عن رسول الله ﷺ في المسانيد الصحيحة، وَخَتَمَهُ أميرُ
المؤمنين عليه السلام وتَمَمَهُ يَقُولُ: «وَلَا يَجْمَعُهُمَا غَيْرُكَ»، وَهُوَ الصَّحِيحُ، لِأَنَّ مَنْ يُسْتَضْحَبُ لَا
يَكُونُ مُسْتَخْلَفًا، فَإِنَّهُ مُسْتَحِيلٌ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ الْوَاحِدُ فِي الْمَكَانَيْنِ مَقِيمًا وَسَائِرًا، وَإِنَّمَا تَصِيحُ
هَذِهِ الْقَضِيَّةُ فِي الْأَجْسَامِ، لِأَنَّ الْجِسْمَ الْوَاحِدَ لَا يَكُونُ فِي جِهَتَيْنِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ.

فَأَمَّا مَا لَيْسَ بِجِسْمٍ وَهُوَ الْبَارِئُ سُبْحَانَهُ، فَإِنَّهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، لَا عَلَى مَعْنَى أَنَّ ذَاتَهُ لَيْسَتْ
مَكَانِيَّةً، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ عِلْمُهُ وَإِحَاطَتُهُ وَنَفُوذُ حُكْمِهِ وَقَضَائِهِ وَقُدْرَتُهُ، فَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِ السلامُ أَنَّهُ
الْمُسْتَخْلَفُ وَأَنَّهُ الْمُسْتَضْحَبُ، وَأَنَّ الْأَمْرَيْنِ مُجْتَمِعَانِ لَهُ جَلَّ اسْمُهُ.

(١) أخرجه النسائي في الاستعانة، باب: الاستعانة من كآبة المنقلب (٥٥٠١)، وأبو داود في
الجهاد، باب: ما يقول الرجل إذا سافر (٢٥٩٨)، وأحمد في باقي مسند المكثرين، باب: باقي
المسند (٩٣١٦).

وهذا الدعاء دَعَا به أمير المؤمنين عليه السلام بعد وَضَع رِجله في الركاب، من منزله بالكوفة متوجّهاً إلى الشام لحرب معاوية وأصحابه، ذكره نصر بن مزاحم في كتاب «صفين» وذكره غيره أيضاً من رواة السيرة.

ما قاله علي عليه السلام يوم خروجه من الكوفة

ال نصر: لما وَضَعَ علي عليه السلام رِجله في رِكاب دابّته يوم خرج من الكوفة إلى صفين، قال: بسم الله، فلما جلس على ظهرها، قال: «سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ»^(١) اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَغْثَاءِ السَّفَرِ... إلى آخر الفصل. وزاد فيه نصر: «وَمِنْ الْحَيْرَةِ بَعْدَ الْيَقِينِ». قال: ثم خرج أمامه الحرّ بن سهم بن طريف، وهو يرتجز ويقول:
يَا فَرَسِي سِيرِي وَأُمِّي الشَّامَا وَقَطَمِي الْحُزُونَ وَالْأَعْلَامَا
وَنَابِلِي مَنْ خَالَفَ الْإِمَامَا إِنِّي لَأَزْجُو إِنْ لَقِينَا الْقَامَا
جَمَعَ بَنِي أُمَيَّةَ الظُّغَامَا أَنْ نَقْتُلَ الْعَاصِي وَالْهُمَامَا
وَأَنْ تُزِيلَ مِنْ رِجَالِ قَامَا

قال: وقال حبيب بن مالك، وهو على شُرْطَةِ علي عليه السلام، وهو آخِذٌ بِعَنَانٍ دَابَّتْهُ: يا أمير المؤمنين، أُنْخَرِجُ بِالْمُسْلِمِينَ فَيُصِيبُوا أَجْرَ الْجِهَادِ بِالْقِتَالِ، وَتُخَلَّفَنِي بِالْكُوفَةِ لِحَشْرِ الرِّجَالِ! فقال عليه السلام: إِنَّهُمْ لَنْ يُصِيبُوا مِنَ الْأَجْرِ شَيْئاً إِلَّا كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فِيهِ، وَأَنْتَ هَاهُنَا أَعْظَمُ غِنَاءٍ عَنْهُمْ مِنْكَ لَوْ كُنْتُ مَعَهُمْ. فخرج علي عليه السلام، حتى إِذَا حَاذَى الْكُوفَةَ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ^(٢).

قال: وحدثنا عمرو بن خالد، عن أبي الحسين زيد بن علي عليه السلام، عن آبائه: أَنَّ عَلِيّاً عليه السلام خَرَجَ وهو يريد صفين، حتى إِذَا قَطَعَ النَّهْرَ، أَمَرَ مُنَادِيَهُ، فَنَادَى بِالصَّلَاةِ، فَتَقَدَّمَ فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ، حتى إِذَا قَضَى الصَّلَاةَ، أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا مَنْ كَانَ مُشِيعاً أَوْ مُقِيماً فَلْيَنْتَمِ الصَّلَاةَ، فَإِنَّا قَوْمٌ سَفَرٌ، أَلَا وَمَنْ صَحِبَنَا فَلَا يَصُومَنَّ الْمَفْرُوضِ. وَالصَّلَاةُ الْمَفْرُوضَةُ رَكَعَتَانِ.

قال نصر: ثم خرج حتى نزل دير أبي موسى - وهو من الكوفة على فرسخين - فصلى به العصر، فلما انصرف من الصلاة، قال: سبحان الله ذي الطُّلُوعِ وَالنَّعَمِ! سبحان الله ذي الْقُدْرَةِ وَالْإِفْضَالِ، أَسْأَلُ اللَّهَ الرِّضَا بِقَضَائِهِ، وَالْعَمَلَ بِطَاعَتِهِ، وَالْإِنَابَةَ إِلَى أَمْرِهِ، إِنَّهُ سَمِيعُ الدُّعَاءِ.

قال نصر: ثم خَرَجَ عليه السلام حتى نزل على شاطئ نهر - بين موضع حَمَامِ أَبِي بُرْدَةَ وَحَمَامِ عَمْرِو - فصلى بالناس المَغْرِبَ، فلما انصرف، قال: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ،

(٢) انظر وقعة صفين لابن مزاحم: ١٣٣.

(١) سورة الزخرف، الآيتان: ١٣، ١٤.

ويولج النهار في الليل، والحمد لله كلما وَقَبَ ليل وغَسَقَ، والحمد لله كلما لاح نجم وخَفَقَ.
ثم أقام حتى صلى الغداة، ثم شخص حتى بلغ إلى قبة قُبَيْنَ، وفيها نخل طَوال إلى جانب
البيعة من وراء النهر، فلما رآها، قال: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾^(١). ثم أقحم دابته
النهر، فعبر إلى تلك البيعة فنزلها، ومكث قَدْرَ الغداء.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، عن محمد بن مَخْتَفٍ بن سليم قال: إني لأنظر إلى أبي
وهو يسير علياً عليه السلام، وعليّ يقول له: إِنَّ بَابِلَ أَرْضٌ قَدْ تُخِيفُ بِهَا، فحرك دابتك لعلنا نصلي
العصر خارجاً منها. فحرك دابته، وحرك الناس دوابهم في أثره، فلما جاز جسر الفرات، نزل
فصلى بالناس العصر.

قال: حدثني عمر بن عبد الله بن يعلى بن مرة الثقفي، عن أبيه، عن عبد خير، قال: كنت
مع عليّ أسير في أرض بابل، قال: وحضرت الصلاة صلاة العصر، قال: فجعلنا لا نأتي مكاناً
إلا رأينا أُنْبَحَ من الآخر، قال: حتى أتينا على مكان أحسن ما رأينا، وقد كادت الشمس أن
تغيب. قال: فنزل عليّ عليه السلام، فنزلت معه، قال: فدعا الله، فرجعت الشمس كمقدارها من
صلاة العصر. قال: فصليت العصر، ثم غابت الشمس، ثم خرج حتى أتى دير كعب، ثم خرج
منه فبات بساباط، فأتاه دهاقينها يعرضون عليه التزُّل والطعام، فقال: لا، ليس ذلك لنا عليكم.
فلما أصبح وهو بمُظْلَمِ ساباط، قرأ: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَبْنُونَ﴾^(٢).

قال نصر: ويبلغ عمرو بن العاص مسيره فقال:

لَا تُخَسِّبْنِي يَا عَلِيُّ غَافِلًا لِأُورِدَنَّ الْكَرْفَةَ الْقَنَائِلًا

بِجَنَمِي الْعَمَامِ وَجَنَمِي قَائِلًا

فبلغ ذلك علياً عليه السلام فقال:

لَأُورِدَنَّ الْعَاصِي ابْنَ الْعَاصِي سَبْعِينَ أَلْفًا عَاقِدِي النُّوَاصِي

مُسْتَخَفِّبِينَ خَلْقَ الدَّلَاصِ قَدْ جَنَّبُوا الْخَيْلَ مَعَ الْقِلَاصِ^(٣)

أَسْوَدَ غَيْلٍ حِينَ لَا مَنَاصِ

علي عليه السلام في كربلاء: واهاً لك يا قرية

قال نصر: وحدثنا منصور بن سلام التميمي، قال: حدثنا حيان التميمي، عن أبي عبيدة، عن
هرثمة بن سليم، قال: غزونا مع عليّ عليه السلام صَفَيْنَ، فلما نزل بكربلاء صلى بنا، فلما سلّم رفع
إليه من تربتها فشمها، ثم قال: واهاً لك يا قرية! لِيُحْشَرَنَّ مِنْكَ قَوْمٌ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢٨.

(١) سورة ق، الآية: ١٠.

(٣) الدلاص: الأملس. اللسان، مادة (دلس).

قال: فلما رجع هَرثمة من غزاته إلى امرأته جَرْداء بنت سمير - وكانت من شيعة علي عليه السلام - حدثها هَرثمة فيما حدث، فقال لها: ألا أعجبك من صديقك أبي حسن! قال: لما نزلنا كَرْبلاء، وقد أخذ حَفَنَةً مِنْ ثَرَبِهَا فَشَمَّهَا، وقال: واهاً لك أيتها الثربة! لِيُحْشَرَنَّ مِنْكَ قَوْمٌ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ: وما عَلِمَهُ بِالْغَيْبِ؟ فقالت المرأة له: دَغْنَا مِنْكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ، فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام لَمْ يَقُلْ إِلَّا حَقًّا.

قال: فلما بَعَثَ عُبيد الله بن زياد الْبَغْتِ الَّذِي بَعَثَهُ إِلَى الْحُسَيْنِ عليه السلام، كُنْتُ فِي الْخَيْلِ الَّتِي بَعَثَ إِلَيْهِمْ. فلما انتهيت إلى الْحُسَيْنِ عليه السلام وأصحابه، عَرَفْتُ الْمَنْزَلَ الَّذِي نَزَلْنَا فِيهِ مَعَ عَلِيٍّ عليه السلام، وَالْبُقْعَةَ الَّتِي رَفَعَ إِلَيْهِ مِنْ ثَرَبِهَا وَالْقَوْلَ الَّذِي قَالَ، فَكِرِهْتُ مَسِيرِي، فَأَقْبَلْتُ عَلَى قَرِيبِي حَتَّى وَقَفْتُ عَلَى الْحُسَيْنِ عليه السلام فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، وَحَدَّثْتُهُ بِالَّذِي سَمِعْتُ مِنْ أَبِيهِ فِي هَذَا الْمَنْزَلِ، فَقَالَ الْحُسَيْنُ: أَمَعْنَا أَمْ عَلَيْنَا؟ فَقُلْتُ: يَا بْنَ رَسُولِ اللَّهِ، لَا مَعَكَ وَلَا عَلَيْكَ، تَرَكْتُ وَلَدِي وَعِيَالِي أَخَافُ عَلَيْهِمْ مِنْ ابْنِ زِيَادٍ، فَقَالَ الْحُسَيْنُ عليه السلام: فَوَلُّ هَرَبًا حَتَّى لَا تَرَى مَقْتَلَنَا، فَوَالَّذِي نَفْسُ حُسَيْنٍ بِيَدِهِ لَا يَرَى الْيَوْمَ مَقْتَلَنَا أَحَدًا ثُمَّ لَا يَعِيشُنَا إِلَّا دَخَلَ النَّارَ.

قال: فَأَقْبَلْتُ فِي الْأَرْضِ أَشَدَّ هَرَبًا، حَتَّى خَفِيَ عَلَيَّ مَقْتَلُهُمْ.

قال نصر: وَحَدَّثَنَا مُصْعَبٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا الْأَجْلَحُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْكِنْدِيُّ عَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ، قَالَ: جَاءَ عُروَةُ الْبَارِقِيُّ إِلَى سَعْدِ بْنِ وَهَبٍ، فَسَأَلَهُ فَقَالَ: حَدِيثُ حَدَّثْتَنَاهُ عَنْ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، قَالَ: نَعَمْ، بَعَثَنِي مَخْتَفٍ إِلَى سَلِيمِ بْنِ عَلِيٍّ عِنْدَ تَوَجُّهِهِ إِلَى صِفِّينَ، فَأَتَيْتُهُ بِكَرْبَلَاءَ، فَوَجَدْتُهُ يُشِيرُ بِيَدِهِ، وَيَقُولُ: هَاهُنَا! فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَمَا ذَاكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَقَالَ: ثَقُلَ لَالُ مُحَمَّدٍ يَنْزِلُ هَاهُنَا، فَوَيْلٌ لَهُمْ مِنْكُمْ، وَوَيْلٌ لَكُمْ مِنْهُمْ! فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: مَا مَعْنَى هَذَا الْكَلَامِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: وَيْلٌ لَهُمْ مِنْكُمْ تَقْتُلُونَهُمْ، وَوَيْلٌ لَكُمْ مِنْهُمْ يَدْخُلُكُمْ اللَّهُ بِقَتْلِهِمُ النَّارَ.

قال نصر: وَقَدْ رَوَى هَذَا الْكَلَامَ عَلَى وَجْهِ آخَرَ، أَنَّهُ عليه السلام قَالَ: «فَوَيْلٌ لَكُمْ مِنْهُمْ، وَوَيْلٌ لَكُمْ عَلَيْهِمْ»، فَقَالَ الرَّجُلُ أَمَّا «وَيْلٌ لَنَا مِنْهُمْ»، فَقَدْ عَرَفْنَاهُ، فَوَيْلٌ لَنَا عَلَيْهِمْ، مَا مَعْنَاهُ! فَقَالَ: تَرَوْنَهُمْ يَقْتُلُونَ لَا تَسْتَطِيعُونَ نُصْرَتَهُمْ.

قال نصر: وَحَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ حَكِيمٍ الْعَبْسِيُّ، عَنْ الْحَسَنِ بْنِ كَثِيرٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ عَلِيًّا عليه السلام أَتَى كَرْبَلَاءَ، فَوَقَفَ بِهَا، فَقِيلَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، هَذِهِ كَرْبَلَاءُ، فَقَالَ: «ذَاتُ كَرْبٍ وَبِلَاءٍ»، ثُمَّ أَوَّاهُ بِيَدِهِ إِلَى مَكَانٍ، آخَرَ، فَقَالَ: هَاهُنَا مَرَّاقُ دِمَائِهِمْ، ثُمَّ مَضَى إِلَى سَابَاطٍ.

مفارقة علي عليه السلام والمسير إلى الشام

وينبغي أن نذكرها هنا ابتداء عزمه على مفارقة الكوفة، والمسير إلى الشام وما خاطب به أصحابه، وما خاطبوه به، وما كاتب به العمال وكاتبوه جواباً عن كتبه، وجميع ذلك منقول من كتاب نصر بن مزاحم.

قال نصر: حدثنا عمر بن سعد، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن عبد الرحمن بن عبيد أبي الكنود، قال: لما أراد عليّ عليه السلام المسير إلى الشام، دعا مَنْ كان معه من المهاجرين والأنصار، فجمعهم. ثم حمّد الله وأثنى عليه، وقال: أما بعد، فإنكم ميامين الرأي، مَراجيح الحِلْم، مباركو الأمر، ومقاويل بالحق، وقد عَزَمْنَا عَلَى المسير إلى عَدُوّنَا وعدوّكم، فأشيروا علينا برأيكم.

فقام هشام بن عتبة بن أبي وقاص، فحمّد الله وأثنى عليه، وقال: أما بعد يا أمير المؤمنين، فأنا بالقوم جدّ خبير، هم لك ولاشياعك أعداء، وهم لمن يَغْلِب حَزَب الدنيا أولياء، وهم مقاتلوك ومجادلوك الجُهل جَهْدًا، مشاحّة على الدنيا، وضنًا بما في أيديهم منها. ليس لهم إزبة غيرها، إلا ما يخدعون به الجُهل من طلب دم ابن عقان، كذبوا ليس لدمه ينفرون، ولكنّ الدنيا يطلبون، انهض بنا إليهم، فإن أجابوا إلى الحقّ فليس بعد الحقّ إلا الضلال، وإن أبوا إلا الشقاق فذاك ظني بهم، والله ما أراهم يُبايعون وقد بَقِيَ فيهم أحد ممّن يُطاع إذا نهى، ويُسمع إذا أمر.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، عن الحارث بن حصيرة، عن عبد الرحمن بن عبيد عن أبي الكنود أنّ عمار بن ياسر قام فحمّد الله وأثنى عليه، وقال: يا أمير المؤمنين، إن استطعت ألا تُقيم يوماً واحداً فافعل، اشخص بنا قبل استعار نار الفَجْرة، واجتماع رأيهم على الصدود والفرقة، واذعهم إلى حَظّهم ورشدهم فإن قَبِلُوا سَعِدُوا وإن أبوا إلا حربنا، فوالله إن سَفَكَ دمائهم، والجَدّ في جهادهم لقرية عند الله، وكرامة منه.

ثم قام قيس بن سعد بن عبادة، فحمّد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا أمير المؤمنين، انكوش بنا إلى عدوّنا ولا تعرج، فوالله لَجَاهِدُهم أخبّ إليّ من جهاد الترك والروم، لادهانهم في دين الله، واستذلّالهم أولياء الله من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله، من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان. إذا غَضِبُوا على رجل حَبَسُوهُ وضربوه وحرّموه وسَيَرُوهُ، وفيئنا لهم في أنفسهم حلال، ونحن لهم فيما يزعمون قَطين - قال: يعني رقيق.

فقال أشياخ الأنصار، منهم خُزيمة بن ثابت وأبو أيوب وغيرهما: لِمَ تقدّمت أشياخ قومك وبدأتهم بالكلام يا قيس؟ فقال: أما إنني عارف بفضلكم، معظّم لشأنكم، ولكنّي وجدت في نفسي الضغن الذي في صدوركم جاش حين ذكرت الأحزاب.

فقال بعضهم لبعض: لِيَقْمَ رجلٌ منكم فليُجِبَ أمير المؤمنين عن جماعتكم، فقام سهل بن حنيف، فحمّد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا أمير المؤمنين، نحن سِلْمٌ لمن سَأَلْت، وحَرْبٌ لمن حَارَبت، ورأينا رأيك، ونحن يمينك، وقد رأينا أن تقوم بهذا الأمر في أهل الكوفة فتأمرهم بالشُخوص، وتخبرهم بما صنع لهم في ذلك من الفضل، فإنهم أهل البلد وهم الناس، فإن

استقاموا لك استقام لك الذي تُريد وتطلب، فأما نحن فليس عليك خلاف مِنّا، متى دعوتنا أجبناك، ومتى أمرتنا أطعناك.

قال نصر: فحدثنا عمر بن سعد، عن أبي مخنف، عن زكريا بن الحارث، عن أبي خُشيش، عن مَعْبِد، قال: قام عليٌّ عليه السلام خطيباً على منبره، فكنتُ تحت المنبر، اسمع تحريضه الناس وأمره لهم بالمسير إلى صِيقين لقتال أهل الشام، فسمعتَه يقول: سيروا إلى أعداء الله، سيروا إلى أعداء القرآن والسُنن، سيروا إلى بقية الأحزاب وقَتلة المهاجرين والأنصار. فقام رجل من بني فزارة، فقال له: أتريد أن تسير بنا إلى إخواننا من أهل الشام فنقتلهم لك، كما سرت بنا إلى إخواننا من أهل البصرة فقتلتهم! كلا، ما الله إذا لا نفعل ذلك.

فقام الأشر، فقال: مَنْ هذا المارق؟

فهرب الفزاري، واشتدَّ الناس على إثره، فلحق في مكانٍ من السوق تُباع فيه البراذين، فوطؤه بأرجلهم، وضربوه بأيديهم ونعال سيوفهم حتى قُتل، فأتى عليٌّ عليه السلام، فقيل له: يا أمير المؤمنين، قُتل الرجل، قال: وَمَنْ قَتَلَهُ؟ قالوا: قتلته هَمْدان ومعه شوب من الناس، فقال: قَتيلٌ عِمِّيَّة، لا يُذَرى مَنْ قَتَلَهُ دِيته من بيت مال المسلمين. فقال بعض بني تميم اللات بن ثعلبة:

أعوذُ برؤي أن تكونَ مَنيئتي كما ماتَ في سوقي البراذين أريدُ
تَعَاوَرَهُ هَمْدَانُ خَفَقَ نَعَالِهِمْ إذا رُفِعَتْ عنه يدٌ وُضِعَتْ يَدُ

فقام الأشر، فقال: يا أمير المؤمنين، لا يهذُنك ما رأيت، ولا يُؤيِسُكَ مِنْ نصرنا ما سمعت من مقالة هذا الشقي الخائن، إنَّ جميعَ مَنْ ترى من الناس شيعتك، لا يرغبون بأنفسهم عن نفسك، ولا يحبّون البقاء بعدك، فإن شئتَ فسير بنا إلى عدوك، فوالله ما ينجو من الموت مَنْ خافه، ولا يعطى البقاء مَنْ أحبه، وإنا لَعَلَى يَمِينَةٍ مِن رِيثنا، وإنَّ أنفُسَنَا لَن تَمُوتَ حتى يَأْتِيَ أَجْلُهَا. وكيف لا نقاتلُ قوماً هم كما وصف أمير المؤمنين، وقد وثبت عصابة منهم على طائفة من المسلمين بالأمس، وياعوا خلاقهم بَعَرَضٍ من الدنيا يسيرا!

فقال عليٌّ عليه السلام: الطريق مُشْتَرَك، والناس في الحق سواء، وَمَنْ اجتهد رأيه في نصيحة العامة فقد قضى ما عليه. ثم نزل فدخل منزله.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، قال: حدثني أبو زهير العبسي، عن النضر بن صالح أن عبد الله بن المعتَم العبسي وحنظلة بن الربيع التميمي، لما أمر عليٌّ عليه السلام الناس بالمسير إلى الشام دَخَلَا عليه في رجال كثير من غَطَفَان وبني تميم، فقال له حنظلة: يا أمير المؤمنين، إنا قد

مشينا إليك في نصيحة فاقبلها، ورأيتنا لك رأياً فلا ترقته علينا، فإننا نظرنا لك ولمن معك، أقم وكاتب هذا الرجل، ولا تعجل إلى قتال أهل الشام، فإننا والله ما نذري ولا تدري لمن تكون الغلبة إذا التقيتم، ولا على من تكون الدبرة!

وقال ابن المعتم مثل قوله، وتكلم القوم الذين دخلوا معهما بمثل كلامهما، فحمد علي عليه السلام الله وأثنى، ثم قال:

أما بعد فإن الله وارث العباد والبلاد، ورب السموات السبع، والأرضين السبع، وإليه ترجعون، يؤتي الملك من يشاء، ويتزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء. أما الدبرة، فإنها على الضالين العاصين ظفروا أو ظفروا بهم، وإيم الله إني لأسمع كلام قوم ما أراهم يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً.

فقام إليه مغل بن قيس الرياحي، فقال: يا أمير المؤمنين، إن هؤلاء والله ما أثروك بنضح، ولا دخلوا عليك إلا بغش، فاحذرهم فإنهم أدنى العدو.

وقال له مالك بن حبيب: إنه بلغني يا أمير المؤمنين أن حنظلة هذا يكاتب معاوية، فادفعه إلينا نحسبه حتى تنقضي غزاتك، وتنصرف.

وقام من بني عبس قائد بن بكير وعياش بن ربيعة العبسيان، فقالا: يا أمير المؤمنين إن صاحبنا عبد الله بن المعتم قد بلغنا أنه يكاتب معاوية، فاحسبه أو مكنا من حسبه، حتى تنقضي غزاتك ثم تنصرف.

فقالا: هذا جزاء لمن نظر لكم، وأشار عليكم بالرأي فيما بينكم وبين عدوكم.

فقال لهما علي عليه السلام: الله بيني وبينكم، وإليه أكلكم، وبه أستظهر عليكم، اذهبوا حيث شئتم.

قال نصر: ويعث علي عليه السلام إلى حنظلة بن الربيع المعروف بحنظلة الكاتب - وهو من الصحابة - فقال له: يا حنظلة، أنت علي أم لي؟ فقال: لا لك ولا عليك. قال: فما تريد؟ قال: أشخص إلى الرها، فإنه فرج من الفروج، اصود له حتى ينقضي هذا الأمر.

فغضب من قوله خيار بن عمرو بن تميم وهم رهطه، فقال: إنكم والله لا تغروني من ديني، دعوني فانا أعلم منكم، فقالوا: والله إن لم تخرج مع هذا الرجل لا ندع فلانة تخرج معك - لأم ولده - ولا ولدها، ولئن أردت ذلك لنقتلك.

فأعانه ناس من قومه واختلطوا سيوفهم، فقال: أجلونني حتى أنظر. ودخل منزله وأغلق بابه، حتى إذا أمسى هرب إلى معاوية، وخرج من بعده إليه من قومه رجال كثير، وهرب ابن المعتم أيضاً، حتى أتى معاوية في أحد عشر رجلاً من قومه.

وأما حنظلة فخرج إلى معاوية في ثلاثة وعشرين رجلاً من قومه، لكنهما لم يقاتلا مع معاوية، واعتزلا الفريقين جميعاً.

وقال: وأمر علي عليه السلام بهدم دار حنظلة، فهدمت، هدمها عريقهم شيبث بن ربيعة وبكر بن تميم. فقال حنظلة يهجوها:

أيا راكباً إما عَرَضْتَ قَبْلُغْنَ مُقْلَغَلَةً عَنِّي سَرَاةَ بَنِي عَمْرٍو
فَأَوْصِيكُمْ بِاللَّهِ وَالْبِرِّ وَالتَّقِي وَلَا تَنْظُرُوا فِي النَّائِبَاتِ إِلَى بَكْرِ
وَلَا شَبَبْتُ ذِي الْمَنْحَرَيْنِ كَأَنَّهُ أَزَبَ جِمَالٍ قَدْ رَغَا لَيْلَةَ النَّفَرِ
وقال أيضاً يحرض معاوية بن أبي سفيان:
أبلغ معاوية بن حرب خُطَّةً وَلِكُلِّ سَائِلَةٍ تَسِيلُ قَرَارُ
لَا تُقْبَلَنَّ دَنِيَّةٌ تَرْضَوْنَهَا فِي الْأَمْرِ حَتَّى تُقْتَلَ الْأَنْصَارُ
وَكَمَا تَبَوَّءَ دِمَائُهُمْ بِدِمَائِكُمْ وَكَمَا تُهْذَمُ بِالذُّيَارِ دِيَارُ
وَتُرى نَسَائُهُمْ يَجْلَنَ حَوَائِرُ وَلَهُنَّ مِنْ ثُكُلِ الرِّجَالِ جُؤَارُ^(١)

قال نصر: حدثنا عمر بن سعد، عن سعد بن طريف، عن أبي المجاهد، عن المحل بن خليفة، قال: قام عدي بن حاتم الطائي بين يدي علي عليه السلام، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: يا أمير المؤمنين، ما قلت إلا بعلم، ولا دعوت إلا إلى حق، ولا أمرت إلا برشد، ولكن إذا رأيت أن تستاني هؤلاء القوم وتستديهم - حتى تأتيهم كتبك، ويقدم عليهم رُسُلك - فعلت. فإن قبلوا يصيبوا رُشدَهم، والعافية أوسع لنا ولهم، وإن يتمادوا في الشقاق ولا ينزعوا عن الغي فسر إليهم. وقد قلنا إليهم العذر، ودعوناهم إلى ما في أيدينا من الحق، فوالله لهم من الحق أبعد، وعلى الله أهون من قوم قاتلناهم أمس بناحية البصرة لما دعوناهم إلى الحق فتركوه، ناوَجناهم بُراكاء^(٢) القتال، حتى بلغنا منهم ما نحب، وبلغ الله منهم رضاه.

فقام زيد بن حصين الطائي - وكان من أصحاب البرانس المجتهدين - فقال: الحمد لله حتى يرضى، ولا إله إلا الله ربنا، أما بعد: فوالله إن كنا في شك من قتال مَنْ خالفنا، ولا تصلح لنا النية في قتالهم حتى نستديهم ونستأنهم - ما الأعمال إلا في تباب، ولا السعي إلا في ضلال، والله تعالى يقول: ﴿وَأَمَّا يَنْفَعُ رَيْكَ فَحَدِّثْ﴾^(٣)، إنا والله ما ارتبنا طرفة عين فيمن يتبعونه، فكيف باتباعه القاسية قلوبهم، القليل من الإسلام حطَّهم، أعوان الظلمة وأصحاب الجور والعدوان ليسوا من المهاجرين ولا الأنصار، ولا التابعين بإحسان.

(١) الجؤار: رفع الصوت مع تضرع واستغاثة. اللسان، مادة (جار).

(٢) البراءة: سامة القتال. اللسان، مادة (برك). (٣) سورة الضحى، الآية: ١١.

فقام رجل من طييء فقال: يا زيد بن حصين، أكلام سيدنا عدي بن حاتم تهجن! فقال: زيد: ما أنتم بأعرف بحق عدي مني، ولكني لا أدع القول بالحق وإن سخط الناس.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، عن الحارث بن حصين قال: دخل أبو زينب بن عوف، على علي عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين، لئن كنا على الحق لانت أهدانا سيلاً، وأعظمنا في الخير نصيباً، ولئن كنا على ضلال، إنك لأثقلنا ظهراً وأعظمنا وزراً، قد أمرتنا بالمسير إلى هذا العدو، وقد قطعنا ما بيننا وبينهم من الولاية، وأظهرنا لهم العداوة، نريد بذلك ما يعلمه الله تعالى من طاعتك، أليس الذي نحن عليه هو الحق المبين، والذي عليه عدونا هو الحوب الكبير؟

فقال عليه السلام: بلى، شهدت أنك إن مضيت معنا ناصراً لدعوتنا، صحيح النية في نصرنا، قد قطعنا منهم الولاية، وأظهرت لهم العداوة كما زعمت، فإنك ولي الله، تسبح في رضوانه، وتركض في طاعته، فأبشر أبا زينب.

وقال له عمار بن ياسر: اثبت أبا زينب، ولا تشك في الأحزاب، أعداء الله ورسوله. فقال أبو زينب: ما أحب أن لي شاهدين من هذه الأمة شهدا لي عما سألت من هذا الأمر الذي أهمني مكانكما.

قال: وخرج عمار بن ياسر، وهو يقول:

سِيرُوا إِلَى الْأَحْزَابِ أَعْدَاءِ النَّبِيِّ سِيرُوا فَخَيْرُ النَّاسِ أَتْبَاعُ عَلِيٍّ
هَذَا أَوَانُ طَابَ سَلُ الْمَشْرِفِي وَقُوْدُنَا الْخَيْلُ وَهَزُّ السَّمْهَرِي

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، عن أبي روق، قال: دخل يزيد بن قيس الأرحبي على علي عليه السلام، فقال: يا أمير المؤمنين، نحن أولوا جهاز وعدة، وأكثر الناس أهل قوة، ومن ليس به ضعف ولا علة، فمر مناديتك فليناد الناس يخرجوا إلى معسكرهم بالنخيلة، فإن أخا الحرب ليس بالسؤوم ولا التؤوم، ولا من إذا أمكنه الفرص أجلها، واستشار فيها، ولا من يؤخر عمل الحرب في اليوم لغد وبعد غد.

فقال زياد بن النضر: لقد نصح لك يزيد بن قيس يا أمير المؤمنين، وقال ما يعرف، فتوكل على الله، وثق به، واشخص بنا إلى هذا العدو راشداً معاناً، فإن يرد الله بهم خيراً لا يتركوك رغبة عنك إلى من ليس له مثل سابقتك وقدمك، وإلا يئيبوا ويقبلوا ويأبوا إلا حربنا نجد حربهم علينا هيئاً، ونرجو أن يصرعهم الله مصارع إخوانهم بالأمس.

ثم قام عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي، فقال: يا أمير المؤمنين، إن القوم لو كانوا الله يريدون، والله يعملون، ما خالفونا، ولكن القوم إنما يقاتلوننا فراراً من الأسوة وحباً للأثرة،

وَضُنَّا بِسُلْطَانِهِمْ، وَكُفْرَهُمْ لِفِرَاقِ دُنْيَاهُمْ الَّتِي فِي أَيْدِيهِمْ، وَعَلَى إِحْسَنِ^(١) فِي نَفْسِهِمْ، وَعَدَاوَةِ يَجْدُونَهَا فِي صُدُورِهِمْ لَوْ قَائِعٍ أَوْ قَعْتَهَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ قَدِيمَةً، قَتَلْتَ فِيهَا آبَاءَهُمْ وَأَعْوَانَهُمْ. ثُمَّ التَفْتُ إِلَى النَّاسِ، فَقَالَ: كَيْفَ يُبَايِعُ مَعَاوِيَةَ عَلِيًّا، وَقَدْ قَتَلَ أَخَاهُ حَنْظَلَةَ، وَخَالَه الْوَلِيدَ، وَجَدَّه عُثْبَةَ فِي مَوْقِفٍ وَاحِدٍ، وَاللَّهِ مَا أَظَنَّهُمْ يَفْعَلُونَ، وَلَنْ يَسْتَقِيمُوا لَكُمْ دُونَ أَنْ تُقْصَفَ فِيهِمْ قَنَا الْمُرَّانِ، وَتَقْطَعَ عَلَى هَامِهِمُ السُّيُوفُ، وَتَشْتَرَّ حَوَاجِبُهُمْ بِعَمَدِ الْحَدِيدِ، وَتَكُونَ أُمُورُ جَمَّةٍ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد عن الحارث بن حصين عن عبد الله بن شريك، قال: خرج حُجْرُ بْنُ عَدِيٍّ وَعَمْرُو بْنُ الْحَمِقِ، يُظْهِرَانِ الْبِرَاءَةَ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، فَأَرْسَلَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَيْهِمَا أَنْ كُفَّا عَمَّا يَبْلُغْنِي عَنْكُمَا، فَأَتِيَاهُ، فَقَالَا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَلَسْنَا مُحَقِّقِينَ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَا: أَوْ لَيْسُوا مُبْطِلِينَ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَا: فَلِمَ مَنَعْتَنَا مِنْ شَتْمِهِمْ؟ قَالَ: كَرِهْتُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا لِعَانِينَ شَتَّامِينَ تَشْتِمُونَ وَتَتَبَرَّؤُونَ، وَلَكِنْ لَوْ وَصَفْتُمْ مَسَاوِيءَ أَعْمَالِهِمْ فَقُلْتُمْ: مِنْ سِيرَتِهِمْ كَذَا وَكَذَا، وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ كَذَا وَكَذَا، كَانَ أَصُوبٌ فِي الْقَوْلِ، وَأَبْلَغُ فِي الْعَذْرِ، وَقُلْتُمْ مَكَانَ لَعْنِكُمْ إِيَّاهُمْ، وَبِرَاءَتِكُمْ مِنْهُمْ: اللَّهُمَّ أَحْقِنِ دِمَاءَهُمْ وَدِمَاءَنَا، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِهِمْ وَبَيْنَنَا، وَاهْدِهِمْ مِنْ ضَلَالَتِهِمْ حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ مِنْهُمْ مَنْ جَهْلُهُ، وَيَرْعُوِيَّ عَنِ الْغَيِّ وَالْعُدْوَانِ مِنْهُمْ مَنْ لَهَجَ بِهِ، لَكَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ وَخَيْرًا لَكُمْ.

فَقَالَا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، نَقَبَلُ عِظَتَكَ، وَنَتَأَدَّبُ بِأَدَبِكَ.

قال نصر: وقال له عمرو بن الحمق يومئذ: والله يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنِّي مَا أَحْبَبْتُكَ وَلَا بَايَعْتُكَ عَلَى قَرَابَةٍ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَلَا إِرَادَةَ مَالٍ تُؤْتِينِيهِ، وَلَا التَّمَّاسِ سُلْطَانٍ تَرْفَعُ ذِكْرِي بِهِ، وَلَكِنِّي أَحْبَبْتُكَ بِخِصَالِ خَمْسٍ: أَنْكَ ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَوَصِيُّهُ، وَأَبُو الذَّرِيَّةِ الَّتِي بَقِيََتْ فِيْنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَسْبَقُ النَّاسِ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَعْظَمُ الْمُهَاجِرِينَ سَهْمًا فِي الْجِهَادِ، فَلَوْ أَنِّي كَلَّفْتُ نَقْلَ الْجِبَالِ الرُّوَاسِي، وَنَزَحَ الْبُحُورِ الطَّوَامِي، حَتَّى يَأْتِيَ عَلِيٌّ يَوْمِي فِي أَمْرِ أَقْوَى بِهِ وَلَيْكَ، وَاهِينٌ عَدُوكَ، مَا رَأَيْتُ أَنِّي قَدْ أَقْبَيْتُ فِيهِ كُلَّ الَّذِي يَحِقُّ عَلَيَّ مِنْ حَقِّكَ.

فَقَالَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: اللَّهُمَّ نَوِّرْ قَلْبَهُ بِالتَّقَى، وَاهْدِهِ إِلَى صِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمِ، لَيْتَ أَنَّ فِي جُنْدِي مِائَةَ مِثْلِكَ، فَقَالَ حُجْرُ بْنُ عَدِيٍّ: إِذَا وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، صَخَّ جَنْدُكَ، وَقَلَّ فِيهِمْ مَنْ يَغْشَاكَ.

قال نصر: وقام حجر بن عدي فقال: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ نَحْنُ بَنُو الْحَرْبِ وَأَهْلُهَا الَّذِينَ نَلْقَحُهَا وَنَنْتِجُهَا، قَدْ ضَارَسْنَا وَضَارَسَنَا، وَلَنَا أَعْوَانٌ وَعَشِيرَةٌ ذَاتُ عَدَدٍ وَرَأْيٍ مُجَرَّبٍ، وَبِأَسْ مُحَمَّدٍ، وَأَزْمَتُنَا مَنَاقِدَةٌ لَكَ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فَإِنْ شَرَقَتْ شَرْقُنَا. وَإِنْ غَرَبَتْ غَرْبُنَا، وَمَا أَمْرُنَا

(١) الإحْسَنُ: الْحَقْدُ، اللَّسَانُ، مَادَّةُ (أَحَن).

به من أمر فعلنا . فقال علي عليه السلام : أكل قومك يرى مثل رأيك؟ قال : ما رأيث منهم إلا حسناً ، وهذه يدي عنهم بالسمع والطاعة وحسن الإجابة . فقال له علي عليه السلام خيراً .

قال نصر : حدثنا عمر بن سعد ، قال : كتب علي عليه السلام إلى عماله حينئذ يستفزهم ، فكتب إلى مخنف بن سليم :

سلام عليك ، فإني أحمّد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإنّ جهاد من صدّف عن الحقّ رغبة عنه ، وعبّ في نّعاس العمى والضلال ، اختياراً له - فريضة على العارفين . إنّ الله يرضى عمن أرضاه ، ويسخط على من عصاه ، وإنا قد هممنا بالسّير إلى هؤلاء القوم الذين عمّلوا في عباد الله بغير ما أنزل الله ، واستأثروا بالفيء ، وعطلوا الحدود ، وأماتوا الحق ، وأظهروا في الأرض الفساد ، واتخذوا الفاسقين وليجة من دون المؤمنين ، فإذا وليّ الله أعظم أحداثهم أبغضوه وأقصوه وحرّموه ، وإذا ظالم ساعدهم على ظلمهم أحبوه ، وأدنّوه وبرّوه ، فقد أصرّوا على الظلم ، وأجمعوا على الخلاف ، وقديماً ما صدّوا عن الحق ، وتعاونوا على الإثم ، وكانوا ظالمين .

فإذا أتيت بكتابي هذا ، فاستخلف على عمّلك أوثق أصحابك في نفسك ، وأقبل إلينا ، لعلك تلقى معنا هذا العدو المّحجّل ، فتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتجامع الحق ، وتباين الباطل ، فإنه لا غناء بنا ولا بك عن أجر الجهاد ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وكتبه عبيد الله بن أبي رافع في سنة سبع وثلاثين .

قال : فاستعمل مخنف على أصبهان الحارث بن أبي الحارث بن الربيع ، واستعمل على همدان سعيد بن وهب ، وكلاهما من قومه ، وأقبل حتى شهد مع علي عليه السلام صفين .

قال نصر : وكتب عبد الله بن العباس من البصرة إلى علي عليه السلام يذكر له اختلاف أهل البصرة ، فكتب إليه علي عليه السلام : من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى عبد الله بن عباس .

أما بعد ، فقد قدّم علي رسولك ، وقرأت كتابك ، تذكّر فيه حال أهل البصرة واختلافهم بعد انصرافي عنهم ، وسأخبرك عن القوم ، وهم بين مقيم لرغبة يرجوها ، أو خائف من عقوبة يخشاها ، فأزغب راغبهم بالعدل عليه ، والإنصاف له والأحسان إليه ، واحلّل عقدة الخوف عن قلوبهم ، وائته إلى أمري ولا تعدّه ، وأحسين إلى هذا الحي من ريعة وكل من قبلك فأحسن إليه ما استطعت إن شاء الله .

قال نصر : وكتب إلى أمراء أعماله كلّهم بنحو ما كتب به إلى مخنف بن سليم ، وأقام ينتظرهم .

قال : فحدثنا عمر بن سعد ، عن أبي روق ، قال : قال زياد بن النضر الحارثي لعبد الله بن

بُذِل: إن يومنا اليوم عَصَبُصَب^(١) ما يصبر عليه إلا كل مشيع القلب، الصادق النية، رابط الجأش. وإيم الله ما أظن ذلك اليوم يبقى منهم، ولا منا إلا الرذال.

فقال عبد الله بن بُذيل: أنا والله أظن ذلك. فبلغ كلامهما علياً عليه السلام، فقال لهما: ليكن هذا الكلام مخزوناً في صدوركما لا تظهراه ولا يسمعه منكما سامع، إن الله كتب القتل على قوم والموت على آخرين، وكل آية منيته كما كتب الله له، فطوبى للمجاهدين في سبيله، والمقتولين في طاعته!

قال نصر: فلما سمع هاشم بن عُتبة ما قالاه، أتى علياً عليه السلام، فقال: سر بنا يا أمير المؤمنين إلى هؤلاء القوم، القاسية قلوبهم، الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، وعملوا في عباد الله بغير رضا الله، فأحلوا حرامه، وحرّموا حلاله، واستوى بهم الشيطان، ووعدهم الأباطيل، ومناههم الأمانى، حتى أزاغهم عن الهدى، وقصد بهم قصد الردى، وحبب إليهم الدنيا فهم يقاتلون على دنياهم رغبة فيها، كرغبنا في الآخرة وابتجاز موعد ربنا. وأنت يا أمير المؤمنين أقرب الناس من رسول الله ﷺ رجماً، وأفضل الناس سابقة وقُدماً، وهم يا أمير المؤمنين يعلمون منك مثل الذي نعلم، ولكن كتب عليهم الشقاء، ومالت بهم الأهواء، وكانوا ظالمين، فأيدينا مبسوطة لك بالسمع والطاعة، وقلوبنا منشرحة لك ببذل النصيحة، وأنفسنا تنصرك على من خالفك، وتولى الأمر دونك جَذَلَةً، والله ما أحب أن لي ما على الأرض مما أقلت، ولا ما تحت السماء مما أظلت، وأني واليُّ عدواً لك، أو عاديُّ ولياً لك.

فقال عليه السلام: اللهم ارزقه الشهادة في سبيلك، والمرافقة لنيك.

قال نصر: ثم إن علياً عليه السلام صعد المنبر فخطب الناس، ودعاهم إلى الجهاد، فبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم قال:

إن الله قد أكرمكم بدينه، وخلقكم لعبادته، فأنصبوا أنفسكم في أداء حقه، وتنجزوا موعوده، واعلموا أن الله جعل أمّراس^(٢) الإسلام متينة، وعراه وثيقة، ثم جعل الطاعة حفظ الأنفس ورضا الرب، وغنيمة الأكياس عند تفريط العجزة، وقد حُمِلت أمر أسودها وأحمرها، ولا قوة إلا بالله. ونحن سائرون إن شاء الله إلا من سَفِه نفسه، وتناول ما ليس له وما لا يدركه معاوية وجنده، الفئة الطاغية الباغية، يقودهم إبليس، ويبرق لهم ببارق تسويفه، ويدليهم بغروره، وأنتم أعلم الناس بالحلال والحرام، فاستغنوا بما علمتم، واحذروا ما حذركم الله من الشيطان وارضوا بما عنده من الأجر والكرامة، واعلموا أن المسلوب من سلب دينه وأمانته،

(١) يوم عصبصب: شديدة. اللسان، مادة (عصب).

(٢) الأمراس: جمع مَرَس، وهو جمع مرسة: وهي الحبل. القاموس، مادة (مرس).

والمغرور من أثر الضلالة على الهدى، فلا أعرفن أحداً منكم تقاعس عني، وقال: في غيري كفاية، فإن الذود إلى الذود إيل، ومن لا يذذ عن حوضه يتهدم. ثم إني آمركم بالشدة في الأمر، والجهاد في سبيل الله، وألاً تغتابوا مسلماً، وانتظروا للنصر العاجل من الله إن شاء الله.

قال نصر: ثم قام ابنه الحسن بن عليّ عليهما السلام، فقال: الحمد لله لا إله غيره ولا شريك له.

ثم قال: إن مما عظم الله عليكم من حقه، وأسبغ عليكم من نعمه ما لا يحصى ذكره، ولا يؤدي شكره، ولا يبلغه قول ولا صفة، ونحن إنما غضبنا لله ولكم، إنه لم يجتمع قوم قط على أمر واحد إلا اشتد أمرهم، واستحكمت عقبتهم. فاحتشدوا في قتال عدوكم معاوية وجنوده، ولا تخاذلوا، فإن الخذلان يقطع نياط القلوب، وإن الإقدام على الأسيئة نخوة وعزيمة، لم يتمنع قوم قط إلا رفع الله عنهم العلة وكفاهم جوائح الذلة، وهداهم إلى معالم العلة، ثم أنشد:

والمُصلحُ تأخذُ منه ما رُضيَتْ والحربُ يكفِيكَ من أنفاسها جُرْعُ

ثم قام الحسين بن عليّ عليه السلام، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: يا أهل الكوفة، أنتم الأجبة الكرماء، والشعار دون الدثار، جدوا في إطفاء ما دثر بينكم، وتسهيل ما توعر عليكم. ألا إن الحرب شرها ذريع وطعمها فظيع، فمن أخذ لها أهبتها، واستعد لها عدتها، ولم يالم كلومها قبل حلولها فذاك صاحبها. ومن عاجلها قبل أوان فرصتها، واستبصار سعيه فيها، فذاك قمن ألا ينفع قومه، وأن يهلك نفسه، نسأل الله بقوته أن يذعمكم بالفيئة ثم نزل.

قال نصر: فأجاب علياً عليه السلام إلى السير جل الناس، إلا أن أصحاب عبد الله بن مسعود أتوه، فيهم غيبة السلماني وأصحابه، فقالوا له: إنا نخرج معكم، ولا نترك عسكركم ونعسكر على جدة، حتى ننظر في أمركم وأمر أهل الشام، فمن رأينا أراد ما لا يحل له أو بدا لنا منه بغي كنا عليه. فقال لهم عليّ عليه السلام: مَرَحَباً وأهلاً، هذا هو الفقه في الدين والعلم بالسنة، من لم يرض بهذا فهو خائن جبار.

وأما آخرون من أصحاب عبد الله بن مسعود، منهم الربيع بن خثيم، وهم يومئذ أربعمائة رجل، فقالوا: يا أمير المؤمنين، إنا قد شككنا في هذا القتال، على معرفتها بفضلك، ولا غناء بنا ولا بك ولا بالمسلمين عمن يقاتل العدو، فولنا بعض هذه الثغور نكمن ثم نقاتل عن أهله، فوجه عليّ عليه السلام بالربيع بن خثيم على ثغر الرّي، فكان أول لواء عقده عليه السلام بالكوفة لواء الربيع بن خثيم.

قال نصر: وحدثني عمر بن سعد، عن يوسف بن يزيد، عن عبد الله بن عوف بن الأحمر، أن علياً عليه السلام لم يبرح النخيلة، حتى قدم عليه ابن عباس بأهل البصرة. قال: وكان كتاب عليّ عليه السلام إلى ابن عباس:

أما بعد، فاشخص إليّ بمن قبلك من المسلمين والمؤمنين، وذكّرهم بلائي عندهم، وعفوي عنهم في الحرب، وأعلمهم الذي لهم في ذلك من الفضل. والسلام.

قال: فلما وصل كتابه إلى ابن عباس بالبصرة، قام في الناس، فقرأ عليهم الكتاب، وحيد الله وأثنى عليه، وقال:

أيها الناس، استعدّوا للشخص إلى إمامكم، وانفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم، فإنكم تقاتلون المحلّين القاسطين، الذين لا يقرؤون القرآن، ولا يعرفون حكم الكتاب، ولا يدينون دين الحق مع أمير المؤمنين، وابن عم رسول الله، الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصادق بالحق والقيم بالهدى، والحاكم بحكم الكتاب، الذي لا يرتشي في الحكم، ولا يذمّ الفجار، ولا تأخذ في الله لومة لائم.

فقام إليه الأحنف بن قيس، فقال: نعم والله لنجيبتك، ولنخرجن معك على العسر واليسر، والرضا والكفر، نحسب في ذلك الأجر، ونأمل به من الله العظيم حسن الثواب. وقام خالد بن المعمر السدوسي فقال: سمعنا وأطعنا، فمتى استغفرتنا نقرنا، ومتى دعوتنا أجبتنا.

وقام عمرو بن مرجوم العبدي، فقال: وفق الله أمير المؤمنين، وجمع له أمر المسلمين، ولعن المحلّين القاسطين، لا يقرؤون القرآن، نحن والله عليهم حنقون^(١)، ولهم في الله مفارقون، فمتى أردتنا صحبك خيلنا ورجائنا إن شاء الله.

قال: وأجاب الناس إلى المسير، ونشطوا وخفّوا، فاستعمل ابن عباس على البصرة أبا الأسود الدؤلي وخرج حتى قدم على علي عليه السلام بالنخيلة.

بين محمد بن أبي بكر ومعاوية

قال نصر: وكتب محمد بن أبي بكر إلى معاوية:

من محمد بن أبي بكر إلى الغاوي معاوية بن صخر، سلام على أهل طاعة الله بمن هو سلم لأهل ولاية الله. أما بعد فإن الله بجلاله وعظمته وسلطانه وقدرته، خلق خلقاً بلا عيب ولا ضعف في قوته، لا حاجة به إلى خلقهم، ولكنه خلقهم عبيداً، وجعل منهم شقياً وسعيداً، وغيبوا ورشيداً، ثم اختارهم على غيره، فاصطفى وانتخب منهم محمداً عليه السلام، فاختصه برسالته، واختاره لوحيه، واثتمنه على أمره، وبعثه رسولاً مصدقاً لما بين يديه من الكتب، ودليلاً على الشرائع، فدعا إلى سبيل أمره بالحكمة والموعظة الحسنة، فكان أول من أجاب وأجاب، وصدق ووافق فأسلم وسلم أخوه وابن عمه - علي بن أبي طالب عليه السلام - فصدقة بالغيب

(١) الحنق: الغيظ. القاموس، مادة (حنق).

المكتوم، وآثره على كل حميم، ووقاه كل هؤل، وواساه بنفسه في كل خوف. فحارب حربه، وسالم سلمه، فلم يبرح مبتذلاً لنفسه في ساعات الأزل، ومقامات الرّوع، حتى برز سابقاً لا نظير له في جهاده، ولا مقارب له في فعله.

وقد رأيتك تساميه وأنت أنت، وهو هو السابق المبرز في كل خير، أول الناس إسلاماً، وأصدق الناس نيّة، وأطيب الناس ذرّيّة، وأفضل الناس زوجة، وخير الناس ابن عم. وأنت اللعين ابن اللعين، لم تزل أنت وأبوك تبغيان لدين الله الغوائل، وتجتهدان على إطفاء نور الله، وتجمعان على ذلك الجموع، وتبذلان فيه المال، وتحالفان في ذلك القبائل، على هذا مات أبوك، وعلى ذلك خلقتك والشاهد عليك بذلك من يأوي ويلجأ إليك من بقية الأحزاب ورؤوس النفاق والشقاق لرسول الله ﷺ.

والشاهد لعليّ مع فضله وسابقته القديمة أنصاره الذين ذكرهم الله تعالى في القرآن، ففضلهم وأثنى عليهم من المهاجرين والأنصار، فهم معه كتائب وعصائب، يجالدون حوله بأسياقهم، ويهريقون دماءهم دونه، يرون الفضل في اتباعه والشقاق والعصيان في خلافه، فكيف - يا لك الويل - تعدل نفسك بعليّ، وهو وارث رسول الله ﷺ ووصيه وأبو ولده، وأول الناس له اتباعاً، وآخرهم به عهداً، يخبره بسرّه، ويشاركه في أمره، وأنت عدوّه وابن عدوّه، فتمتّع ما استطعت بباطلك، وليمدد لك ابن العاص في غوايتك، فكان أجلك قد انقضى، وكيدك قد وهى، وسوف تستبين لمن تكون العاقبة العليا. واعلم أنك إنما تكايد ريك الذي قد أمّنت كيدك، وأيسّت من روحه، وهؤلّك بالمرصاد، وأنت منه في غرور. وبالله وبأهل بيت رسوله عنك الغناء والسلام على من اتبع الهدى.

فكتب إليه معاوية:

من معاوية بن أبي سفيان، إلى الزاري على أبيه محمد بن أبي بكر. سلام على أهل طاعة الله، أما بعد، فقد أتاني كتابك تذكر فيه ما الله أهله في قدرته وسلطانه، وما أصفى به نيّته مع كلام ألفته ووضعت لرأيك فيه تضعيف، ولأبيك فيه تعنيف، ذكرت حق ابن أبي طالب وقديم سابقته، وقربته من نبي ﷺ ونصرتّه له، ومواساته إياه في كل خوف وهؤل، واحتجاجك عليّ، وفخرك بفضل غيرك لا بفضلك. فاحمد إلهاً صرف ذلك الفضل عنك، وجعله لغيرك، فقد كُنا وأبوك معنا في حياة نبينا، نرى حق ابن أبي طالب لازماً لنا، وفضله مبرزاً علينا. فلما اختار الله لنيّته ما عنده، وأتم له ما وعده، وأظهر دعوته، وأفلج حجّته، قبضه الله إليه، فكان أبوك وفاروقه، أول من ابتزّه وخالفه، على ذلك اتفقا واتسقا، ثم دعوا إلى أنفسهما فأبطأ عنهما، وتلكا عليهما، فهما به الهموم، وأرادا به العظيم، فبايعهما وسلم لهما، لا يشركانه في أمرهما، ولا يطلعانه على سرهما، حتى قبضا وانقضى أمرهما. ثم أقاما بعدهما ثالثهما

عثمان بن عفان، يهتدي بهديهما، ويسير بسيرتهما، فعبته أبت وصاحبك، حتى طمع فيه الأفاصي من أهل المعاصي، وبطنتما وظهرتما، وكشفتما له عداوتكما وغلكتما، حتى بلغت ما منه مناكما، فخذ حذرَكَ يا بن أبي بكر، فترى وبال أمرَكَ، وقس شبرَكَ بفترَكَ، تقصُر عن أن تساوي أو توازي مَنْ يَزُنُ الجبال حلمه، ولا تلين على قسر قنائه ولا يُدرك ذو مَدَى أناته، أبوك مهْدَ له مهَادَة وبني مُلكه وشاده، فإن يكن ما نحن فيه صواباً فأبوك أوله، وإن يكن جوراً فأبوك أمه ونحن شركاؤه، فبهذيه أخذنا، وبفعله اقتدينا، رأينا أباك فعل ما فعل، فاحتذينا مثاله، واقتدينا بفعاله، فعب أباك بما بدا لك، أو دغ. والسلام على من أناب، ورجع من غوايته وناب.

قال: وأمر علي عليه السلام الحارث الأعور أن ينادي في الناس: اخرجوا إلى معسكركم بالنخيلة، فنادى الحارث في الناس بذلك، وبعث إلى مالك بن حبيب اليربوعي صاحب شرطته، يأمره أن يحشُر الناس إلى المعسكر، ودعا عُقبة بن عمرو الأنصاري، فاستخلفه على الكوفة - وكان أصغر أصحاب العقبة السبعين - ثم خرج عليه السلام، وخرج الناس معه.

قال نصر: ودعا علي عليه السلام زياد بن النضر وشرح بن هانيء - وكانا على مذبح والأشعرين - فقال: يا زياد، اتق الله في كل مُنسى ومُضبح، وخف على نفسك الدنيا الغرور، ولا تأمنها على حال. واعلم أنك إن لم تَزغها^(١) عن كثير مما تحب مخافة مكروهه، سمّت بك الأهواء إلى كثير من الضرر، فكن لنفسك مانعاً وازعاً من البغي والظلم والعدوان، فإني قد وليتك هذا الجُند، فلا تستطيلن عليهم، إن خيركم عند الله أتقاكم، تعلم من عالمهم، وعلم جاهلهم، واحلم عن سفيهم، فإنك إنما تدرك الخير الحلم وكف الأذى والجهل.

فقال زياد: أوصيت يا أمير المؤمنين حافظاً لو صيتك، مؤدياً لأريك، يرى الرشد في نفاذ أمركَ، والقي في تضييع عهدك.

فأمرهما أن يأخذا في طريق واحد ولا يختلفا، وبعثهما في اثني عشر ألفاً على مقدمته، وكل واحد منهما على جماعة من ذلك الجيش، فأخذ شريح يعتزل بمن معه من أصحابه على حدة، ولا يقرب زياداً، فكتب زياد إلى علي عليه السلام مع مولى له يقال له شوذب:

لعبد الله علي أمير المؤمنين، من زياد بن النضر:

سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإنك وليتني أمر الناس،

(١) تزغها: تكفها. القاموس، مادة (وزع).

وإن شريحاً لا يرى لي عليه طاعة ولا حقاً، وذلك من فعله بين استخفاف بأمرك، وترك لعهدك، والسلام.

وكتب شريح بن هانئ إلى علي عليه السلام: لعبد الله علي أمير المؤمنين من شريح بن هانئ، سلام عليك، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإن زياد بن النضر حين أشركته في أمرك، وولّيته جنداً من جنودك، طغى واستكبر، ومال به العُجب والخُيلاء والزُّهو إلى ما لا يَرْضَى الله تعالى به من القول والفعل، فإن رأى أمير المؤمنين عليه السلام أن يعزله عنا ويبعث مكانه مَنْ يحبّ ليفعل، فإننا له كارهون.

والسلام فكتب علي عليه السلام إليهما: من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى زياد بن النضر وشريح بن هانئ. سلامٌ عليكما، فإني أحمد إليكما الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإني قد وليتُ مقدمتي زياد بن النضر، وأمرته عليها، وشريح بن هانئ على طائفة منها أمير، فإن انتهى جمعكما إلى بأس، فزياد بن النضر على الناس كلهم، وإن افرقتما فكل واحد منكما أمير الطائفة التي وليناه أمرها، واعلما أن مقدمة القوم حيوتهم، وعيون المقدمة طلائعهم، فإذا أنتمَا خرَجْتُمَا من بلادكما فلا تساما من توجّيه القلائع، ومن نفض الشعاب والشجر والخمر في كل جانب، كي لا يفتركما عدو، أو يكون لهم كمين. ولا تسيرون الكتائب والقبائل من لَدُن الصُّباح إلى المساء إلا على تعبئة، فإن دهمكم عدو أو غشيكم مكروه، كنتم قد تقدمتم في التعبئة، فإذا نزلتم بعدو أو نزل بكم فليكن معسكركما في قُبُل الأشراف أو سفاح الجبال وأثناء الأنهار، كيما يكون ذلك لكم رِداءً، وتكون مقاتلتكم من وَجْهِ واحد أو اثنين، واجعلوا رقباءكما في صياصي الجبال وبأهالي الأشراف، ومناكب الأنهار يروون لكم، كي لا يأتيكم عدو من مكان مخافة أو أمن.

وليّاكم والتفرّق، فإذا نزلتم فانزلوا جميعاً وإذا رحلتم فارحلوا جميعاً، فإذا غشيكم الليل فنزلتم فحفوا معسكركم بالرماح والثّرس، ولتكن رماثكم من وراء ترسيكم ورماحكم يُلُونهم. وما أقمتُم فكذلك فافعلوا كي لا تصاب لكم غفلة، ولا تُلقَى لكم غرة، فما قوم يحفون معسكرهم برماحهم ويترسّتهم من ليل أو نهار إلا كانوا كأنهم في حصون. واحرّسا معسكركما بأنفسكما، ولياكما أن تذوقا نوماً حتى تُصبحا إلا غرّاراً أو مضمضة. ثم ليكن ذلك شأنكما ودأبكما حتى تنتهيا إلى عدوكم، وليكن كل يوم عندي خبركما ورسولٌ من قبيلكما. فإني - ولا شيء إلا ما شاء الله - حيثُ السّير في أثركما. عليكما في جزيكما بالثّودة، ولياكما والعجلة، إلا أن تمكّنكما فرصة بعد الإعذار والحجّة، ولياكما أن تقاتلا حتى أقدم عليكما إلا أن تُبدآ، أو يأتيكما أمرى، إن شاء الله.

قال نصر: وكتب علي عليه السلام إلى أمراء الأجناد - وكان قد قسم عسكره أسباعاً - فجعل

على كل شئ أميراً، فجعل سعد بن مسعود الثقفي على قيس وعبد القيس، ومعقل بن قيس اليربوعي على تميم وضبة والرباب وقريش وكنانة وأسد، ومخنف بن سليم على الأزد ونجيلة وخثعم والأنصار وخزاعة، وخنجر بن عدي الكندي على كندة وخضرموت وقضاعة، وزباد بن النضر على مذحج والأشعرين، وسعيد بن مرجة الهمداني على همدان ومن معهم من حمير، وعدي بن حاتم الطائي على طيء، تجمعهم الدعوة مع مذحج، وتختلف الرايتان: راية مذحج مع زياد بن النضر، وراية طيء مع عدي بن حاتم، هذه عساكر الكوفة. وأما عساكر البصرة فخالد بن معمر السدوسي على بكر بن وائل، وعمرو بن مرجوم العبدي على عبد القيس، وابن شيمان الأزدي على الأزد، والأحنف على تميم وضبة والرباب، وشريك بن الأعور الحارثي على أهل العالية.

أما بعد، فإني أبرا إليكم من معة الجنود إلا من جوعة إلى شبعة، ومن فقر إلى غنى، أو عنى إلى هدى، فإن ذلك عليهم. فأغربوا الناس عن الظلم والعُدوان، وخذوا على أيدي سفهائكم، واحترسوا أن تعملوا أعمالاً لا يرضى الله بها عتاً فبردة بها علينا وعليكم دعاءنا، فإنه تعالى يقول: ﴿مَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّي شَيْءٌ لَوْ أَن دُعَاؤُكُمْ﴾^(١).

وإن الله إذا مَقَّت قوماً من السماء هلكوا في الأرض، فلا تألوا أنفسكم خيراً، ولا الجند حسن سيرة، ولا الرعية معونة ولا دين الله قوة، وأبلوا في سبيله ما استوجب عليكم، فإن الله قد اصطنع عندنا وعندكم ما يجب علينا أن نشكره بجهدنا، وأن ننصره ما بلغت قوتنا ولا قوة إلا بالله.

قال: وكتب عليه السلام إلى جنوده يخبرهم بالذي لهم وعليهم: أما بعد، فإن الله جعلكم في الحق جميعاً سواء، أسودكم وأحمركم، وجعلكم من الوالي وجعل الوالي منكم بمنزلة الوالد من الولد، وبمنزلة الولد من الوالد، الذي لا يكفيه منعه إياهم طلب عدوه والتهمة به، ما سمعتم وأطعتم وقضيتهم الذي عليكم. فحقكم عليهم إنصافكم والتعديل بينكم، والكف عن فينكم، فإذا فعل معكم ذلك، وجبت عليكم طاعته فيما وافق الحق، ونصرته والدفع عن سلطان الله، فإنكم وزعة^(٢) الله في الأرض، فكونوا له أعواناً، ولدينه أنصاراً، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، إن الله لا يحب المفسدين.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، قال: حدثنا سعد بن طريف، عن الأصمغ بن نباتة، قال: قال علي عليه السلام: ما يقول الناس في هذا القبر؟ - وفي النخيلة، وبالنخيلة قبر عظيم يدفن اليهود

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧.

(٢) الوزعة: الولاة المانعون من محارم الله. القاموس، مادة (وزع).

موتاهم حوله - فقال الحسن بن علي عليه السلام : يقولون هذا قبر هود لما عصاه قومه، جاء فمات هاهنا، فقال: كذبوا، لانا أعلم به منهم، هذا قبر يهودا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، بكر يعقوب، ثم قال: أهاهنا أحد من مَهْرَة؟ فأتني بشيخ كبير، فقال: أين منزلُك؟ قال: على شاطئ البحر، قال: أين أنت من الجبل؟ قال: أنا قريب منه، قال: فما يقول قومك فيه؟ قال: يقولون: إن فيه قبر ساحر، قال: كذبوا، ذاك قبر هود النبي عليه السلام، وهذا قبر يهودا بن يعقوب. ثم قال عليه السلام : يُحْشَر من ظهر الكوفة سبعون ألفاً على غرة الشمس، يدخلون الجنة بغير حساب.

قال نصر: فلما نزل علي عليه السلام النخيلة متوجّهاً إلى الشام، وبلغ معاوية خبره، وهو يومئذ بدمشق، قد البس منبر دمشق قميص عثمان مختضباً بالدم، وحول المنبر سبعون ألف شيخ يبيكون حوله، لا تجف دموعهم على عثمان، خطبهم، وقال:

يا أهل الشام، قد كنتم تكذبونني في علي، وقد استبان لكم أمره، والله ما قتل خليفتك غيره وهو أمر بقتله، وألب الناس عليه، وآوى قتلته، وهم جنده وأنصاره وأخوانه، وقد خرج بهم قاصداً بلادكم ودياركم لإبادتكم. يا أهل الشام، الله الله في دم عثمان! فانا وليه وأحق من طلب بدمه، وقد جعل الله لولي المقتول ظلماً سلطاناً، فانصروا خليفتك المظلوم، فقد صنع القوم به ما تعلمون، قتلوه ظُلماً وبغياً، وقد أمر الله تعالى بقتال الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله. ثم نزل. قال نصر: فأعطوه الطاعة وانقدوا له، وجمع إليه أطرافه، واستعد للقاء علي عليه السلام.

٤٧ - ومن كلام له عليه السلام في ذكر الكوفة

الأصل: كَأَنِّي بِكَ يَا كُوفَةُ تُمَدِّينَ مَدَّ الْأَيْمِ الْعُكَاظِي، تُعَرِّكِينَ بِالنَّوَارِزِ، وَتُزَكِّينَ بِالزَّلَازِلِ، وَإِنِّي لَا أَعْلَمُ أَنَّهُ مَا أَرَادَ بِكَ جَبَّارٌ سَوْءًا إِلَّا ابْتِلَاءُ اللَّهِ بِشَاغِلٍ أَوْ رَمَاهُ بِقَاتِلٍ.

الشرح: عُكَاظ: اسم سوق للعرب بناحية مكة، كانوا يجتمعون بها في كل سنة، يقيمون شهراً ويتبايعون ويتناشدون شعراً ويتفاخرون، قال أبو ذؤيب:

إِذَا بُنِيَ الْقِبَابُ عَلَى عُكَاظٍ وَقَامَ الْبَيْعُ وَاجْتَمَعَ الْأَلُوفُ

فلما جاء الإسلام هدم ذلك، وأكثر ما كان يُباع الأديم بها، فنسب إليهما.

والأديم واحد والجمع أديم، كما قالوا: أفیق للجلد الذي لم تَتِمَّ دباغته، وجمعه أفق. وقد يجمع أديم على آدِمة، كما قالوا: رغيف وأرغفة.

والزلازل هاهنا: الأمور المزعجة، والمخطوب المحركة.

وقوله عليه السلام: «تَمْدِين مَدَّ الْأَدِيم»، استعارة لما ينالها من العسف والمخبط.

وقوله: «تَغْرِكِينَ»، من عَرَكَتِ الْقَوْمَ الْحَرْبَ إِذَا مَارَسْتَهُمْ حَتَّى أَتَعَبْتَهُمْ.

الكوفة في نظر علي عليه السلام وجعفر بن محمد

وقد جاء في فضل الكوفة عن أهل البيت عليه السلام شيء كثير، نحو قول أمير المؤمنين عليه السلام: نعمت المدرة.

وقوله عليه السلام: إنه يُحْشَرُ مِنْ ظَهَرِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعُونَ أَلْفًا، وجوهُهم عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ.

وقوله عليه السلام: هَذِهِ مَدِينَتُنَا وَمَحَلَّتُنَا، وَمَقَرُّ شِيعَتِنَا.

وقوله جعفر بن محمد عليه السلام: اللَّهُمَّ ارْزُقْ مِنْ رَمَاهَا، وَعَادِ مَنْ عَادَهَا.

وقوله عليه السلام: تَرَبُّةٌ تَحِبُّنَا وَنُحِبُّهَا.

فَأَمَّا مَا هَمَّ بِهِ الْمُلُوكُ وَأَرْيَابُ السُّلْطَانِ فِيهَا مِنَ السُّوءِ، وَدِفَاعُ اللَّهِ تَعَالَى عَنْهُمْ فَكَثِيرٌ.

قال المنصور لجعفر بن محمد عليه السلام: إِنِّي قَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَبْعَثَ إِلَى الْكُوفَةِ مَنْ يَنْقُضُ مَنَازِلَهَا، وَيُجَمِّرُ نَخْلَهَا، وَيَسْتَصْفِي أَمْوَالَهَا، وَيَقْتُلُ أَهْلَ الرِّبَا مِنْهَا، فَأَشِيرُ عَلَيْكَ. فقال: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنْ الْمَرْءَ لِيَقْتُلِي بِسَلْفِهِ، وَلَكَ أَسْلَافٌ ثَلَاثَةٌ: سُلَيْمَانُ أُغْطِيَ فِشْكَرًا، وَأَيُّوبُ ابْتُلِيَ فَصَبْرًا، وَيُوسُفُ قَدَّرَ فَغَفَرَ، فَاقْتَدِ بِأَيِّهِمْ شِئْتَ. فَصَمْتُ قَلِيلًا، ثُمَّ قَالَ: قَدْ غُفِرَتْ.

وروى أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي في كتاب «المنتظم»^(١) أن زياداً لما حَصَبَهُ أَهْلُ الْكُوفَةِ، وَهُوَ يَخْطُبُ عَلَى الْمِنْبَرِ، قَطَعَ أَيْدِي ثَمَانِينَ مِنْهُمْ، وَهَمَّ أَنْ يَخْرُبَ دَوْرَهُمْ، وَيُجَمِّرَ نَخْلَهُمْ، فَجَمَعَهُمْ حَتَّى مَلَأَ بِهِمُ الْمَسْجِدَ وَالرَّحْبَةَ، يَعْزِضُهُمْ عَلَى الْبَرَاءَةِ مِنْ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَعَلِمَ أَنَّهُمْ سَيَمْتَنِعُونَ، فَيَحْتَاجُ بِذَلِكَ عَلَى اسْتِصَالِهِمْ، وَإِخْرَابِ بِلَدِهِمْ.

قال عبد الرحمن بن السائب الأنصاري: فَإِنِّي لَمَعَ نَفَرٌ مِنْ قَوْمِي، وَالنَّاسُ يَوْمَئِذٍ فِي أَمْرٍ عَظِيمٍ، إِذْ هَوِّمَتْ تَهْوِيمَةً، فَرَأَيْتُ شَيْئًا أَقْبَلَ، طَوِيلَ الْعُنُقِ، مِثْلَ عُتُقِ الْبَعِيرِ أَهْدَرُ أَهْدَلٍ، فَقُلْتُ: مَا أَنْتَ؟ فَقَالَ: أَنَا النَّقَّادُ ذُو الرِّقْبَةِ، بُعِثْتُ إِلَى صَاحِبِ هَذَا الْقَصْرِ، فَاسْتَيْقِظْتُ فَرَعًا، فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي: هَلْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُمْ؟ قَالُوا: لَا، فَأَخْبَرْتُهُمْ، وَخَرَجَ عَلَيْنَا خَارِجٌ مِنَ الْقَصْرِ، فَقَالَ: انْصَرَفُوا، فَإِنَّ الْأَمِيرَ يَقُولُ لَكُمْ: إِنِّي عَنْكُمْ الْيَوْمَ مَشْغُولٌ، وَإِذَا بِالطَّاعُونَ قَدْ ضَرَبَهُ، فَكَانَ

(١) «المنتظم في التاريخ الأم»: لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي البغدادي، المتوفى سنة (٥٩٧هـ)، من الهجرة إلى الخلافة المستعين على ترتيب السنين. «كشف الظنون» (٢/١٨٥٠).

يقول: إني لأجد في النصف من جسدي حرّ النار حتى مات، فقال عبد الرحمن بن السائب: مَا كَانَ مُنْتَهِيًا عَمَّا أَرَادَ بِنَا حَتَّى تَنَاوَلَهُ الشَّقَاءُ ذُو الرُّقْبَةِ فَأَثَبَتِ الْمَشَقُّ مِنْهُ ضَرْبَةً عَظُمَتْ كَمَا تَنَاوَلَ ظُلُمًا صَاحِبَ الرَّحْبَةِ قلت: قد يظن ظان أن قوله: «صاحب الرحبة» يمكن أن يحتج به من قال: إن قبر أمير المؤمنين عليه السلام في رَحْبَةِ المسجد بالكوفة، ولا حجة في ذلك، لأن أمير المؤمنين كان يجلس معظم زمانه في رَحْبَةِ المسجد، يحكم بين الناس، فجاز أن ينسب إليه بهذا الاعتبار.

٤٨ - ومن خطبة له عليه السلام عند المسير إلى الشام

الأصل: الْحَمْدُ لِلَّهِ كُلَّمَا وَقَبَ لَيْلٌ وَخَسَقَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كُلَّمَا لَاحَ نَجْمٌ وَخَفَقَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ غَيْرَ مَفْقُودِ الْإِنْعَامِ، وَلَا مُكَافَا الْإِفْضَالِ. أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَعَثْتُ مُقَدِّمِي، وَأَمَرْتُهُمْ بِلُزُومِ هَذَا الْمِلْطَاطِ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرِي، وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَقْطَعَ هَذِهِ النُّظْفَةَ إِلَى شِرْذِمَةٍ مِنْكُمْ، مُوَاطِنِينَ أَكْثَافَ دَجَلَةٍ، فَأَنْهَضَهُمْ مَعَكُمْ إِلَى عَدُوِّكُمْ، وَأَجْعَلَهُمْ مِنْ أَمْدَادِ الْقُوَّةِ لَكُمْ. قال الرضوي رحمه الله: يعني عليه السلام بِالْمِلْطَاطِ هَاهُنَا: السَّمَتُ الَّذِي أَمَرَهُمْ بِلُزُومِهِ، وَهُوَ شَاطِئُ الْفُرَاتِ، وَيُقَالُ ذَلِكَ أَنْبَاطًا لِشَاطِئِ الْبَحْرِ، وَأَضْلَهُ مَا اسْتَوَى مِنَ الْأَرْضِ، وَيَعْنِي بِالنُّظْفَةِ مَاءَ الْفُرَاتِ، وَهُوَ مِنْ غَرِيبِ الْعِبَارَاتِ وَجَبَّيْهَا.

الشرح: وَقَبَ اللَّيْلِ، أَي دَخَلَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾^(١). وَخَسَقَ، أَي أَظْلَمَ. وَخَفَقَ النِّجْمُ، أَي غَابَ.

وَمُقَدِّمَةُ الْجَيْشِ، بِكَسْرِ الدَّالِ: أَوَّلُهُ وَمَا يَتَقَدَّمُ مِنْهُ عَلَى جُمْهُورِ الْعَسْكَرِ، وَمُقَدِّمَةُ الْإِنْسَانِ، بِفَتْحِ الدَّالِ: صَدْرُهُ. وَالْمِلْطَاطُ: حَاقَّةُ الْوَادِي وَشَفِيرُهُ، وَسَاحِلُ الْبَحْرِ، قَالَ رُوَيْبَةُ:

نَحْنُ جَمْعُنَا النَّاسَ بِالْمِلْطَاطِ

قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: يَعْنِي بِهِ سَاحِلَ الْبَحْرِ، وَقَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ: هَذَا الْمِلْطَاطُ طَرِيقُ بَقِيَّةِ الْمُؤْمِنِينَ، مُرَابًا مِنَ الدَّجَالِ، يَعْنِي بِهِ شَاطِئُ الْفُرَاتِ.

فَأَمَّا قَوْلُ الرُّضِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «الْمِلْطَاطُ»: السَّمَتُ الَّذِي أَمَرَهُمْ بِلُزُومِهِ وَهُوَ شَاطِئُ

(١) سورة الفلق، الآية: ٣.

الفرات، ويقال ذلك لشاطئ البحر، فلا معنى له، لأنه لا فرق بين شاطئ الفرات وشاطئ البحر، وكلاهما أمر واحد، وكان الواجب أن يقول: المِلْطَاط: السميت في الأرض، ويقال أيضاً لشاطئ البحر.

والشُرْذمة: نفر قليلون.

وموطنين أكتاف دجلة، أي قد جعلوا أكتافها وِطْناً، [من] أوطنت البقعة.

والأكتاف: الجوانب، واحدها كَتَف. والأمداد جمع مدد، وهو ما يمد به الجيش تقوية له.

وهذه الخطبة خطب بها أمير المؤمنين عليه السلام وهو بالنخيلة خارجاً من الكوفة ومتوجّهاً إلى صفين لخمس بقين من شوال سنة سبع وثلاثين. وذكرها جماعة من أصحاب السير، وزادوا فيها: «وقد أمرت على البضر عتبة بن عمرو الأنصاري، ولم ألكم ولا نفسي، فإياكم والتخلف والترتبص، فإني قد خلفت مالك بن حبيب البريقي، وأمرته ألا يترك متخلفاً إلا الحق بهكم عاجلاً، إن شاء الله». وروى نصر بن مزاحم عوض قوله: «فأنهضهم معكم إلى عدوكم» «فأنهضهم معكم إلى عدو الله».

قال نصر: فقام إليه مغل بن قيس الرياحي، فقال: يا أمير المؤمنين، والله ما يتخلف عنك إلا ظنين، ولا يترتبص بك إلا منافق، فمُر مالك بن حبيب فليضرب أعناق المتخلفين. فقال: قد أمرته بأمرى، وليس بمقصر إن شاء الله.

في الطريق إلى صفين

قال نصر بن مزاحم: ثم سار عليه السلام حتى انتهى إلى مدينة بَهْرَسِير، وإذا رجل من أصحابه يقال له حُر بن سهم بن طريف، من بني ربيعة بن مالك، ينظر إلى آثار كسرى، ويتمثل بقول الأسود بن يَغْفَر:

جَرَّتِ الرِّيحُ عَلَى مَحَلِّ دِيَارِهِمْ فَكَأَنَّمَا كَانُوا عَلَى مِيعَادٍ
فَقَالَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَلَا قُلْتَ: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَفُتِنُوا بِمَا كَانُوا عَلَىٰ مِيعَادٍ﴾ (٢٥) وَدُفِعَ وَمَقَارِ كَرِيمٍ (٢٦) وَتَقَمُّوا كَانُوا فِيهَا نَكِيهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩) (١)، إِنَّ هَؤُلَاءِ كَانُوا وَارَثِينَ فَاُصْبَحُوا مَوْرَثِينَ، وَلَمْ يَشْكُرُوا النِّعْمَةَ، فَسَلِبُوا دَنِيَاهُمْ بِالْمَعْصِيَةِ. إِيَّاكُمْ وَكُفِّرَ النَّعَمَ، لَا تَحِلَّ بِكُمْ النَّقْمُ، انْزَلُوا بِهِذِهِ الْفَجْوةَ.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، عن مسلم الأعور عن حبة العرنبي، قال: أمر علي عليه السلام الحارث الأعور، فصاح في أهل المدائن: مَنْ كَانَ مِنَ الْمُقَاتِلَةِ فَلْيُؤَافِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

(١) سورة الدخان، الآيات: ٢٥ - ٢٩.

صلاة العصر. فوافوه في تلك الساعة، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإنني قد تعجبت من تخلفكم عن دَعْوَتكم، وانقطاعكم عن أهل مَضْرَكم في هذه المساكن الظالم أهلها، الهالك أكثر ساكنيها، لا معروف يأمرون به، ولا منكر ينهون عنه.

قالوا: يا أمير المؤمنين، إنا ننتظر أمرَك، مُرْنَا بما أحبيت، فسارَ وخلفَ عليهم عدي بن حاتم، فأقام عليهم ثلاثاً ثم خرج في ثمانمائة رجل منهم، وخلف ابنه زيداً بعده، فلاحقه في أربعمائة رجل منهم.

وجاء عليٌّ عليه السلام حتى مر بالأنبار، فاستقبله بنو خُشْنُوشَك، دهاقينها.

- قال نصر: الكلمة فارسية، أصلها «خُشْن» أي الطيب -.

قال: فلما استقبلوه نزلوا عن خيولهم، ثم جاؤوا يشتدون معه، وبين يديه ومعهم براذين قد أوقفوها في طريقه، فقال: ما هذه الدواب التي معكم، وما أردتم بهذا الذي صنعتُم؟ قالوا: أما هذا الذي صنعنا فهو خُلُق مِنَّا نعظم به الأمراء، وأما هذه البراذين فهديّة لك، وقد صنعنا للمسلمين طعاماً، وهبنا لدوابكم علفاً كثيراً.

فقال عليه السلام: أما هذا الذي زعمتم أنه فيكم خُلُق تعظمون به الأمراء فوالله ما ينفع ذلك الأمراء، وإنكم لتشفقون به على أنفسكم وأبدانكم، فلا تعودوا له. وأما دوابكم هذه، فإن أحببتُم أن أخذها منكم وأحسبها لكم من خراجكم أخذناها منكم. وأما طعامكم الذي صنعتُم لنا، فإننا نكره أن نأكل من أموالكم إلا بشئ. قالوا: يا أمير المؤمنين، نحن نقومه ثم نقبل ثمنه، قال: إذا لا تقومونه قيمته، نحن نكتفي بما هو دونه. قالوا: يا أمير المؤمنين، فإن لنا من العرب موالٍ ومعارف، أتمنعنا أن نُهديَ لهم أو تمنعهم أن يقبلوا منا؟ فقال: كلُّ العرب لكم موالٍ، وليس ينبغي لأحد من المسلمين أن يقبل هديتكم، وإن غصبتكم أحد فأعلمونا. قالوا: يا أمير المؤمنين، إنا نحب أن تُقبلَ هديتنا وكرامتنا. قال: وَيَحْكُم! فنحن أغنى منكم. وتركهم وسار.

قال نصر: وحدثنا عبد العزيز بن سياه، قال: حدثنا حبيب بن أبي ثابت، قال حدثنا أبو سعيد التيمي المعروف بعقيضي، قال: كُنَّا مع عليٍّ عليه السلام في مسيره إلى الشام، حتى إذا كُنَّا بظهر الكوفة من جانب هذا السواد، عطش الناس واحتاجوا إلى الماء، فانطلق بنا عليٌّ عليه السلام حتى أتى بنا إلى صخرة ضرس في الأرض، كأنها رُبْضَةٌ عترة، فأمرنا فاقتلعناها، فخرج لنا من تحتها ماء، فشرب الناس منه وارتووا. ثم أمرنا فأكفأناها عليه. وسار الناس حتى إذا مضى قليلاً، قال عليه السلام: أَمِنْكُمْ أَحَدٌ يَعْلَمُ مَكَانَ هَذَا الْمَاءِ الَّذِي شَرِبْتُم مِنْهُ؟ قالوا: نعم يا أمير المؤمنين، قال: فانطلقوا إليه، فانطلق مِنَّا رجالٌ ركبائاً ومشاة، فاقتصنا الطريق إليه، حتى انتهينا إلى المكان الذي نرى أنه فيه، فطلبناه، فلم نقدر على شيء، حتى إذا عِيلَ علينا انطلقنا

إلى دَيْرٍ قَرِيبٍ مِنَّا، فَسَأَلْنَاهُمْ: أَيْنَ هَذَا الْمَاءُ الَّذِي عِنْدَكُمْ؟ قَالُوا: لَيْسَ قُرْبَنَا مَاءٌ، فَقُلْنَا: بَلَى إِنَّا شَرَبْنَا مِنْهُ، قَالُوا: أَنْتُمْ شَرِبْتُمْ مِنْهُ؟ قُلْنَا: نَعَمْ، فَقَالَ صَاحِبُ الدَّيْرِ: وَاللَّهِ مَا بُنِيَ هَذَا الدَّيْرُ إِلَّا بِذَلِكَ الْمَاءِ، وَمَا اسْتَخْرَجَهُ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ وَصِيٌّ نَبِيٍّ.

قَالَ نَصْرٌ: ثُمَّ مَضَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى نَزَلَ بِأَرْضِ الْجَزِيرَةِ، فَاسْتَقْبَلَهُ بَنُو ثَغْلِبٍ وَالنَّمِرُ بْنُ قَاسِطٍ بَجَزُورٍ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِيَزِيدَ بْنِ قَيْسٍ الْأَرْحَبِيِّ: يَا يَزِيدُ، قَالَ: لَبَّيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: هَؤُلَاءِ قَوْمُكَ، مِنْ طَعَامِهِمْ فَأَطْعِمْ، وَمِنْ شَرَابِهِمْ فَاشْرَب.

قَالَ: ثُمَّ سَارَ حَتَّى أَتَى الرُّقَّةَ - وَجَلَّ أَهْلُهَا عِثْمَانِيَّةً، فَرَوَا مِنَ الْكُوفَةِ إِلَى مُعَاوِيَةَ - فَأَغْلَقُوا أَبْوَابَهَا دُونَهُ، وَتَحَصَّنُوا، وَكَانَ أَمِيرُهُمْ سِمَاكُ بْنُ مَخْرَقَةَ الْأَسَدِيِّ فِي طَاعَةِ مُعَاوِيَةَ، وَقَدْ كَانَ فَارِقَ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي نَحْوِ مِائَةِ رَجُلٍ مِنْ بَنِي أَسَدٍ، ثُمَّ كَاتَبَ مُعَاوِيَةَ، وَأَقَامَ الرُّقَّةَ حَتَّى لَحِقَ بِهِ سَبْعُمِائَةِ رَجُلٍ.

قَالَ نَصْرٌ: فَرَوَى حَبَّةُ أَنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا نَزَلَ عَلَى الرُّقَّةِ، نَزَلَ بِمَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ الْبَلِيخُ عَلَى جَانِبِ الْفُرَاتِ، فَتَزَلَّ رَاهِبٌ هُنَاكَ مِنْ صَوْمَعَتِهِ، فَقَالَ لِعَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ عِنْدَنَا كِتَابًا تَوَارَثْنَاهُ عَنْ آبَائِنَا، كَتَبَهُ أَصْحَابُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، أَعْرَضَهُ عَلَيْكَ؟ قَالَ: نَعَمْ فَقَرَأَ الرَّاهِبُ الْكِتَابَ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. الَّذِي قَضَى فِيمَا قَضَى، وَسَقَطَ فِيمَا كَتَبَ: أَنَّهُ بَاعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ، يَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَيُدْلِهِمْ عَلَى سَبِيلِ اللَّهِ، لَا فُظًّا وَلَا غَلِيظًا، وَلَا صَخَابًا فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَجْزِي بِالسَّيْئَةِ السَّيْئَةَ، بَلْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ، أُمَّتُهُ الْحَمَادُونَ الَّذِينَ يَحْمَدُونَ اللَّهَ عَلَى كُلِّ نَشْرٍ، وَفِي كُلِّ صَعُودٍ وَهَبُوطٍ، تَذِلُّ أَلْسِنَتُهُمُ بِالتَّكْبِيرِ وَالتَّهْلِيلِ وَالتَّسْبِيحِ، وَيَنْصَرُّهُ اللَّهُ عَلَى مَنْ نَاوَاهُ، فَإِذَا تَوَقَّاهُ اللَّهُ، اخْتَلَفَتْ أُمَّتُهُ مِنْ بَعْدِهِ، ثُمَّ اجْتَمَعَتْ، فَلَبِثَتْ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ اخْتَلَفَتْ، فَيَمِرُّ رَجَالٌ مِنْ أُمَّتِهِ بِشَاطِئِهِ هَذَا الْفُرَاتِ، يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيَقْضِي بِالْحَقِّ وَلَا يَرْكُسُ^(١) الْحَكْمَ، الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَيْهِ مِنَ الرَّمَادِ فِي يَوْمٍ عَصَفَتْ بِهِ الرِّيحُ، وَالْمَوْتُ أَهْوَنُ عَلَيْهِ مِنْ شُرْبِ الْمَاءِ عَلَى الظَّمْآنِ، يَخَافُ اللَّهَ فِي السِّرِّ، وَيَنْصَحُ لَهُ فِي الْعِلَانِيَةِ، لَا يَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ النَّبِيَّ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْبِلَادِ فَأَمَّنَ بِهِ كَانَ ثَوَابُهُ رِضْوَانِي وَالْجَنَّةَ، وَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ الْعَبْدَ الصَّالِحَ فَلْيَنْصَرِّهِ، فَإِنَّ الْقَتْلَ مَعَهُ شَهَادَةٌ.

ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَنَا مِصَاحِبُكَ، فَلَا أَفَارُقُكَ حَتَّى يَصِيبَنِي مَا أَصَابَكَ. فَبَكَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ أَكُنْ عِنْدَهُ مُنْسِيًّا، الْحَمْدُ لِلَّهِ ذَكَرَنِي عِنْدَهُ فِي كُتُبِ الْأَبْرَارِ.

فَمَضَى الرَّاهِبُ مَعَهُ، فَكَانَ فِيمَا ذَكَرُوا يَتَغَدَّى مَعَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَيَتَعَشَّى، حَتَّى أَصِيبَ يَوْمَ صَفِينٍ، فَلَمَّا خَرَجَ النَّاسُ يَدْفِنُونَ قَتْلَاهُمْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: اطْلُبُوهُ، فَلَمَّا وَجَدُوهُ صَلَّى عَلَيْهِ وَدَفَنَهُ. وَقَالَ: هَذَا مِنَّا أَهْلُ الْبَيْتِ، وَاسْتَغْفِرُ لَهُ مَرَارًا.

(١) الرُّكْسُ: رَدُّ الشَّيْءِ مَقْلُوبًا، وَقَلْبُ أَوَّلِهِ عَلَى آخِرِهِ. الْقَامُوسُ، مَادَّةُ (رُكْس).

روى هذا الخبر نصر بن مزاحم في كتاب «صفين» عن عزم بن سعد، عن مسلم الأعور، عن حبة الثرنى. ورواه أيضاً إبراهيم بن ديزيل الهمداني، بهذا الإسناد عن حبة أيضاً في كتاب صفين.

وروى ابن ديزيل في هذا الكتاب، قال: حدثني يحيى بن سليمان، قال: حدثني يحيى بن عبد الملك بن حميد بن عتيبة، عن أبيه، عن إسماعيل بن رجاء، عن أبيه ومحمد بن فضيل، عن الأعمش، عن إسماعيل بن رجاء، عن أبي سعيد الخدري، رحمه الله قال: كنا مع رسول الله ﷺ، فانقطع شئع نعله، فالتقاها إلى علي عليه السلام يصلحها، ثم قال: «إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن، كما قاتلت على تنزيله»، فقال أبو بكر الصديق: أنا هو يا رسول الله؟ فقال: «لا»، فقال عمر بن الخطاب: أنا هو يا رسول الله؟ قال: «لا»، ولكنه ذاكم خاضع النعل،^(١) - ويؤد علي عليه السلام على نعل النبي صلى الله عليه وآله يصلحها.

قال أبو سعيد: فأتيت علياً عليه السلام فبشرته بذلك فلم يحفل به، كأنه شيء قد كان علمه من قبل.

وروى ابن ديزيل في هذا الكتاب أيضاً، عن يحيى بن سليمان، عن إبراهيم الهجري، عن أبي صادق، قال: قديم علينا أبو أيوب الأنصاري العراقي، فأخذت له الأزد جزراً، فبعثوها معي، فدخلت إليه فسلمت عليه، وقلت له: يا أبا أيوب، قد كرمك الله عز وجل بصحبة نبيه ﷺ، ونزوله عليك، فمالي أراك تستقبل الناس بسيفك، تقاتلهم هؤلاء مرة وهؤلاء مرة! قال: إن رسول الله ﷺ عهد إلينا أن نقاتل مع علي الناكثين، فقد قاتلناهم، وعهد إلينا أن نقاتل معه القاسطين، فهذا وجهنا إليهم - يعني معاوية وأصحابه - وعهد إلينا أن نقاتل معه المارقين، ولم أرهم بعد.

وروى ابن ديزيل أيضاً في هذا الكتاب، عن يحيى، عن يعلى بن عبيد الحنفى، عن إسماعيل السدي، عن زيد بن أرقم، قال: كنا مع رسول الله ﷺ وهو في الحجرة يؤخى إليه ونحن ننتظره حتى اشتد الحر، فجاء علي بن أبي طالب ومعه فاطمة وحسن وحسين عليهما السلام، فقعدها في ظل حائط ينتظرونه، فلما خرج رسول الله ﷺ، رأهم فأتاهم ووقفنا نحن مكاننا، ثم جاء إلينا وهو يظلمهم بثوبه، ممسكاً بطرف الثوب، وعلي ممسكاً بطرفه الآخر، وهو

(١) أخرجه الترمذي في المناقب، باب: مناقب علي بن أبي طالب (٣٧١٥)، وأحمد في باقي مسند المكثرين، باب: مسند أبي سعيد الخدري (١٠٨٩٦).

يقول: «اللهم إني أحبتهم، فأحبتهم، اللهم إني سلم لمن سالمهم، وحرب لمن حاربهم»^(١)
قال: فقال ذلك ثلاث مرات.

قال إبراهيم في الكتاب المذكور: وحدثنا يحيى بن سليمان، قال: حدثنا ابن فضيل، قال: حدثنا الحسن بن الحكم النخعي، عن رباح بن الحارث النخعي، قال: كنت جالساً عند علي عليه السلام، إذ قدم عليه قوم متلثمون، فقالوا: السلام عليك يا مولانا، فقال لهم: أولستم قوماً عرباً؟ قالوا: بلى، ولكننا سمعنا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول يوم غدير خم: «مَنْ كُنْتَ مَوْلَاهُ فَعَلَيْ مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ، وَهَادِ مَنْ هَادَاهُ، وَانصِرْ مَنْ نصره، واخْذِلْ مَنْ خَذَلَهُ»^(٢)، قال: فلقد رأيتُ علياً عليه السلام ضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: أشهدوا.

ثم إن القوم مضوا إلى رحالهم فتبعتهم، فقلت لرجل منهم: مَنْ القوم؟ قالوا: نحن رَهْطٌ من الأنصار، وذاك - يعنون رجلاً منهم - أبو أيوب، صاحب منزل رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: فأنيته فصافحته.

قال نصر: وحدثني عمر بن سعد، عن نمير بن وعلة، عن أبي الوَذاك، أن علياً عليه السلام بعث من المدائن معقل بن قيس الرياحي، في ثلاث آلاف، وقال له: خُذْ عَلَى الموصِل، ثم نصيبين، ثم القني بالرقّة، فإني موافيهما. وسكّن الناس وأمنهم، ولا تقاتل إلا مَنْ قاتلك، وسير البردّين^(٣)، وغوّز بالناس. أقم الليل، ورفّه في السير، ولا تَسِرْ أَوَّلَ الليل، فإن الله جعله سكناً، أرخ فيه بدنك وجندك وظهرك، فإذا كان السحر، أو حين يتلجج الفجر فسر.

فسار حتى أتى الحديثة - وهي إذ ذاك منزل الناس، وإنما بنى مدينة الموصل بعد ذلك محمد بن مروان - فإذا بكبشين ينتطحان، ومع معقل بن قيس رجل من خثعم يقال له شداد بن أبي ربيعة - قتل بعد ذلك مع الحرورية - فأخذ يقول: إيه، إيه! فقال معقل: ما تقول؟ فجاء رجلان نحو الكبشين، فأخذ كل واحد منهما كبشاً وانصرفا، فقال الخثعمي لمعقل: لا تغلبون ولا تغلبون. فقال معقل: من أين علمت؟ قال: أما أبصرت الكبشين، أحدهما مشرق والآخر مغرب، التقيا فاقتتلا وانتطحا، فلم يزل كل واحد من صاحبه منتصباً، حتى أتى كل واحد منهما صاحبه فانطلق به، فقال معقل: أو يكون خيراً مما تقول يا أخا خثعم! ثم مضى حتى وافى علياً عليه السلام بالرقّة.

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٥٠٣٠ - ٥٠٣١).

(٢) أخرجه أحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة، باب: ومن مسند علي بن أبي طالب (٩٥٣) بلفظه والحاكم في «المستدرک» (٤٥٧٦)، والنسائي في «الكبرى» (٤٥/٥) دون الزيادة: «وانصر من نصره، واخذل من خذله».

(٣) البردان: الظل والفيء. اللسان، مادة (برد).

قال نصر: وقالت طائفة من أصحاب علي عليه السلام له: يا أمير المؤمنين، اكتب إلى معاوية ومن قبله من قومك، فإن الحجة لا تزداد عليهم بذلك إلا عظماً. فكتب إليهم عليه السلام: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى معاوية ومن قبله من قريش:

سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فإن لله عبداً آمنوا بالتنزيل، وعرفوا التأويل، وفقهوا في الدين، وبين الله فضلهم في القرآن الحكيم، وأنتم في ذلك الزمان أهداء للرسول، تكذبون بالكتاب، مجمعون على حرب المسلمين، من ثقتهم منهم حبستموه أو هذبتموه أو قتلتموه، حتى أراد الله تعالى إعزاز دينه، وإظهار أمره، فدخلت العرب في الدين أفواجا، وأسلمت له هذه الأمة طوعاً وكرهاً، فكتبت فيمن دخل في هذا الدين، إماماً رغبة وإماماً رهبة على حين فاز أهل السبق بسبقهم، وفاز المهاجرون الأولون بفضيلهم. ولا ينبغي لمن ليست له مثل سوابقهم في الدين، ولا فضائلهم في الإسلام أن ينازعهم الأمر الذي هو أهله وأولى به، فيجوز ويظلم، ولا ينبغي لمن كان له عقل أن يجهل قدره، ويعدو طوره، ويشقي نفسه بالتماس ما ليس بأهله، فإن أولى الناس بأمر هذه الأمة قديماً وحديثاً أقربها من الرسول، وأعلمها بالكتاب، وأفقهها في الدين، أولها إسلاماً، وأفضلها جهاداً، وأشدّها بما تحمله الأئمة من أمر الأمة اضطلاعاً. فاتقوا الله الذي ترجعون، ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون.

واعلموا أن خيار عباد الله الذين يعملون بما يعلمون، وأن شرارهم الجهال الذين ينازعون بالجهل أهل العلم، فإن للعالم بعلمه فضلاً، وإن الجاهل لا يزداد بمنازعة العالم إلا جهلاً. ألا وإني أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه، وحقق دعاء هذه الأمة، فإن قبلتم أصبحتم رُشدكم، واهتديتم لحظكم، وإن أبيتم إلا الفرقة وشق عصا هذه الأمة لم تزدادوا من الله إلا بعداً، ولا يزداد الرب عليكم إلا سخطاً والسلام.

فكتب إليه معاوية جواب هذا الكتاب سطرأ واحداً، وهو: أما بعد فإنه:

لَيْسَ بِيَنِي وَبَيْنَ قَيْسِ عِثَابٌ غَيْرَ طَغَى الْكُلَى وَخَرِبَ الرِّقَابُ

فقال علي عليه السلام لما أتاه هذا الجواب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(١).

قال نصر: وقال علي عليه السلام لأهل الرقة: جسّروا لي جسراً أعبر عليه من هذا المكان إلى الشام، فأبوا، وقد كانوا ضَمُّوا السفن إليهم، فنهض من عندهم ليعبر على جسر منبج، وخلف عليهم الأشر، فقال: يا أهل هذا الحصن، إني أقسم بالله إن مَضَى أمير المؤمنين عليه السلام ولم

(١) سورة القصص، الآية: ٥٦.

تجسرونا له عند مدينتكم حتى يَغْبِرَ منها، لأَجْرَدَنَ فيكم السيف، فلا قتلَنَ مقاتلكم، ولا خربَنَ أرضكم، ولا خذَنَ أموالكم.

فلقي بعضهم بعضاً، فقالوا: إنَّ الأَشرَ يعنِي بما حَلَفَ عليه، وإنما خَلَفَهُ عليٌّ عِندنا لِيَأْتِنَا بشرَ فَبِعَثُوا إِلَيْهِ: إِنَّا ناصِبُونَ لَكُمْ جِسْراً، فَأَقْبِلُوا. فَأرسلوا الأَشرَ إلى عليٍّ عليه السلام، فجاء، ونصبوا له الجسر، فعبر الأثقال والرجال، وأمر الأَشرَ فوقف في ثلاثة آلاف فارس: حتى لم يبق من الناس أحد إلا عَبَرَ، ثم عبر آخر الناس رجلاً.

قال نصر: وازدحمت الخيلُ حين عَبَرَت، فسقطت قَلْنُسُوة عبد الله بن أبي الحصين، فنزل فأخذها، وركب، ثم سقطت قَلْنُسُوة عبد الله بن الحجاج، فنزل فأخذها، ثم ركب فقال لصاحبه: فَإِنَّ يَكُ ظَنُّ الزَّاجِرِي الطَّيْرَ صادِقاً كما زعموا، أَقْتُلْ وشيكاً وتُقتل فقال عبد الله بن أبي الحصين: ما شيء أَحَبَّ إِلَيَّ مما ذَكَرْتَ، فقتلا معاً يوم صفين.

قال نصر: فلما قطع عليٌّ عليه السلام الفُرات، دعا زياد بن النضر وشُريح بن هانئ فسرَّحهما أمامه نحو معاوية، على حالهما الذي كانا عليه حين خرجا من الكوفة، في اثني عشر ألفاً، وقد كانا حيث سرحهما من الكوفة مقدَّمة له أخذاً على شاطئ الفرات من قِبَل البر، مما يلي الكوفة حتى بلغا عانات، فبلغهم أخذُ عليٍّ عليه السلام طريق الجزيرة، وعلموا أنَّ معاوية قد أقبل في جنود الشام من دمشق لاستقباله، فقالا: واللَّهِ ما هذا برأي، أن نسير وبيننا وبين أمير المؤمنين هذا البحر، وما لنا خيرٌ في أن نلقي جموعَ الشام في قَلَّة من العدد، منقطعين عن المدد. فذهبوا ليعبروا من عانات، فمنعهم أهلها، وحبسوا عنهم السفن، فأقبلوا راجعين حتى عَبَرُوا من هَيْت، وَلَحِقُوا عَلِيّاً عليه السلام بقرية دون قَرْقِيسِيَا، فلما لحقوا عَلِيّاً عليه السلام عَجِبَ، وقال: مقدَّمتي تأتي من ورائي فقام له زياد وشُريح، وأخبراه بالرأي الذي رأيا. فقال: قد أصبَّتما رُشدكما. فلما عَبَرُوا الفرات قدَّماهما أمامه نحو معاوية، فلما انتهيا إلى معاوية، لقيهما أبو الأعور السلمي في جنود من أهل الشام، وهو على مقدَّمة معاوية، فدعواه إلى الدُخول في طاعة أمير المؤمنين عليه السلام فأبى، فبعثوا إلى عليٍّ عليه السلام: إِنَّا قد لقينا أبا الأعور السلمي بسور الروم في جند من أهل الشام، فدعونا وأصحابه إلى الدُخول في طاعتك، فأبى علينا، فمرنا بأمرك.

فأرسل عليٌّ عليه السلام إلى الأَشرَ، فقال: يا مال، إن زياداً وشُريحاً أرسلَا إليَّ يعلماني أنهما لقيَا أبا الأعور السلمي في جند من أهل الشام بسور الروم، وتبَّاني الرسول أنه تركهم متواقفين، فالنَّجاء النجاء إلى أصحابك، فإذا أتيتهم فأنت عليهم، وإياك أن تبدأ القوم بقتال إن لم يبدؤوك، والفهم واسمع منهم، ولا يجرمنك شأنهم على قتالهم قبل دعائهم، والإعذار إليهم مرة بعد مرة، واجعل على ميمتك زياداً، وعلى ميسرتك شُريحاً، وقف من أصحابك وسطاً، ولا تدن منهم دنوٌّ مَنْ يريد أن يُنْشِبَ الحرب، ولا تتباعذ عنهم تباعد مَنْ يهاب الناس، حتى

أقدم عليك، فإني حيث السير إليك إن شاء الله.

قال: وكتب عليّ عليه السلام إليهما - وكان الرسول الحارث بن جهمان الجعفيّ أما بعد، فإني قد أمرتُ عليكما مالكا، فاسمعا له وأطيعا أمره، وهو ممن لا يُخاف رَهَقَهُ ولا سِقَاطَهُ^(١)، ولا بَطْوَهُ عَمَّا الإسراع إليه أحزم، ولا إسراعُه إلى ما البطء عنه أمثل، وقد أمرته بمثل الذي أمرتكما، ألا يبدأ القوم بقتال حتى يلقاهم ويدعوهم، ويُعذر إليهم إن شاء الله.

قال: فخرج الأشر حتى قديم على القوم، فاتبع ما أمره به علي عليه السلام، وكف عن القتال، فلم يزالوا متواقفين، حتى إذا كان عند المساء، حمل عليهم أبو الأعور فثبتوا له واضطربوا ساعة. ثم إن أهل الشام انصرفوا، ثم خرج هاشم بن عتبة في خيل ورجالٍ حَسَنٍ عُدَّتْهَا وعددها، فخرج إليهم أبو الأعور السلمي، فاقتتلوا يومهم ذلك، تحمل الخيل على الخيل، والرجال على الرجال، وصبر بعضهم لبعض، ثم انصرفوا. وبكر عليهم الأشر، فقتل من أهل الشام عبد الله بن المنذر التثوخي، قتله ظليان بن عمارة التميمي، وما هو يومئذ إلا فتى حديث السن. وإن كان الشامي لفارس أهل الشام، وأخذ الأشر يقول: ويحكم أروني أبا الأعور!

ثم إن أبا الأعور دعا الناس، فرجعوا نحوه فوقف على تلٍّ من وراء المكان الذي كان فيه أول مرة، وجاء الأشر حتى صَفَّ أصحابه في المكان الذي كان فيه أبو الأعور أول مرة، فقال الأشر لسنان بن مالك النخعي. انطلق إلى أبي الأعور، فادعه إلى المبارزة، فقال: إلى مبارزتي أم إلى مبارزتك؟ فقال: أولو أمرتُك بمبارزته فعلت؟ قال: نعم، والذي لا إله إلا هو، لو أمرتني أن اعترضه صفهم بسيفي لفعلتُ حتى أضربه بالسيف. فقال: يا بن أخي، أطال الله بقاءك، قد والله ازددتُ فيك رغبة، لا أمرتُك بمبارزته، إنما أمرتُك أن تدعوه لمبارزتي، فإنه لا يبارز - إن كان ذلك من شأنه - إلا ذوي الأسنان والكفاءة والشرف، وأنت بحمد الله من أهل الكفاءة والشرف، ولكنك حديث السن، وليس يبارز الأحداث، فاذهب فادعه إلى مبارزتي.

فأتاهم فقال: أنا رسول فأمثوني، فجاء حتى انتهى إلى أبي الأعور.

قال نصر: فحدثني عمر بن سعد، عن أبي زهير العبسي، عن صالح بن سنان، عن أبيه، قال: فقلت له: إن الأشر يدعوك إلى المبارزة، قال: فسكت عني طويلاً، ثم قال: إن خفة الأشر وسوء رأيه وهوانه دعاه إلى إجلاء عمال عثمان، واقتراه عليه، يقبَح محاسنه، ويجهل حقه، ويظهر عداوته. ومن خفة الأشر وسوء رأيه أنه سار إلى عثمان في داره وقراره، فقتله فيمن قتله، وأصبح متبعا بدمه، لا حاجة لي في مبارزته.

فقلت: إنك قد تكلمت فاسمع حتى أجيبك، فقال: لا حاجة لي في جوابك ولا الاستماع

(١) السقاط: الخطأ في الحساب والقول. القاموس، مادة (سقط).

منك، اذهب عني، وصاح بي أصحابه فانصرفت عنه، ولو سمع لأسمعته عذر صاحبي وحجته. فرجعت إلى الأشر، فأخبرته أنه قد أبى المبارزة، فقال: لنفسه نظر.
قال: فتواقفنا، فإذا هم قد انصرفوا. قال: وصحبنا علي عليه السلام غداة سائراً نحو معاوية، فإذا أبو الأعور قد سبق إلى سهولة الأرض وسعة المنزل، وشريعة الماء، مكان أفيح، وكان أبو الأعور على مقدمة معاوية، واسمه سفيان بن عمرو، وقد جعل على ساقته بُسر بن أرطاة العامري، وعلى الخيل عبيد الله بن عمر بن الخطاب، ودفع اللواء إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وجعل على ميمنته حبيب بن مسلمة الفهري، وعلى رجالته من الميمنة يزيد بن زحر الضبي، وعلى الميسرة عبد الله بن عمرو بن العاص، وعلى الرجال من الميسرة حابس بن سعيد الطائي، وعلى خيل دمشق الضحاك بن قيس الفهري، وعلى رجاله أهل دمشق يزيد بن أسد بن كرز البجلي، وعلى أهل جنص ذا الكلاع، وعلى أهل فلسطين مسلمة بن مخلد، وكان وصول علي عليه السلام إلى صفين لثمان بقين من المحرم من سنة سبع وثلاثين.

٤٩ - ومن خطبة له عليه السلام في تمجيد الله تعالى وتحميده

الأصل: الحمد لله الذي بطن خفيات الأمور، ودلت عليه أعلام الظهور، وامتنع على عين البصير، فلا عين من لم يره تنكره، ولا قلب من أثبتة يتصوره.
سبق في العلو فلا شيء أغلى منه، وقرب في الدنو فلا شيء أقرب منه، فلا استغلاؤه بأعده عن شيء من خلقه، ولا قرينة ساواهم في المكان به.
لم يطلع العقول على تحديد صفته، ولم يخجبها عن واجب معرفته، فهو الذي تشهد له أعلام الوجود، على إقرار قلب ذي الجحود، تعالى الله عما يقول المشبهون به والجاحدون له علواً كبيراً.

الشرح: بطن سر فلان، أي أخفيه. والأعلام: جمع علم، وهو المنار يهتدى به، ثم جعل لكل ما دل على شيء، فقليل لمعجزات الأنبياء أعلام، لدلالاتها على نبوتهم.
وقوله عليه السلام: «أعلام الظهور»، أي الأدلة الظاهرة الواضحة.

وقوله فيما بعد: «أعلام الوجود» أي الأدلة الموجودة، والدلالة هي الوجود نفسه، وسيأتي شرح ذلك.

وقوله: «وامتنع على عين البصير»، يقوله: إنه سبحانه ليس بمرئي بالعين، ومع ذلك فلا يمكن من لم يره بعينه أن ينكره، لدلالة كل شيء عليه، بل لدلالته سبحانه على نفسه.

ثم قال: «ولا قلب من أثبتة ببصره»، أي لا سبيل لمن أثبت وجوده أن يحيط علماً بجميع أحواله ومعلوماته ومصنوعاته، أو أراد أنه لا تعلم حقيقة ذاته، كما قاله قوم من المحققين.

وقد روي هذا الكلام على وجه آخر، قالوا في الخطبة: «فلا قلب من لم يره ينكره، ولا عين من أثبتة تبصره»، وهذا غير محتاج إلى تفسير لوضوحه.

وقوله **عليه السلام**: «فلا استعلاؤه بأعده»، أي ليس علوه ولا قربه كما نعقله من العلو والقرب المكانيين، بل هو علو وقرب خارج من ذلك، فليس علوه يقتضي بُعدَه بالمكان عن الأجسام، ولا قربه يقتضي مساواته إياها في الحاجة إلى المكان والجهة.

والباء في «به» متعلقة بـ «ساواهم»، معناه: ولا قربه ساواهم به في الحاجة إلى المكان، أي: لم يقتض قربه مماثلة ومساواته إياهم في ذلك.

مباحث من العلم الإلهي

وهذا الفصل يشتمل على عدة مباحث من العلم الإلهي:

أولها: كونه تعالى عالماً بالأمور الخفية. والثاني: كونه تعالى مدلولاً عليه بالأمور الظاهرة، يعني أفعاله. والثالث: أن هويته تعالى غير معلومة للبشر. والرابع: نفي تشبيهه بشيء من مخلوقاته. والخامس: بيان أن الجاحد لإثباته مكابر بلسانه، وعارف به بقلبه.

ونحن نذكر القول في جميع ذلك على سبيل اقتصاص المذاهب والأقوال، ونحيل في البرهان على الحق من ذلك وبطلان شبه المخالفين فيه، على ما هو مذكور في كتبنا الكلامية، إذ ليس هذا الكتاب موضوعاً لذلك، وإن كنا قد لا نخلي بعض فصوله من إشارة إلى الدليل موجزة، وتلويح إلى الشبهة لطيف، فنقول: أما.

الفصل الأول

وهو الكلام في كونه تعالى عالماً بالأمور الخفية

فاعلم أن أمير المؤمنين **عليه السلام** إنما قال: «بطن خفيات الأمور» وهذا القدر من الكلام يقتضي كونه تعالى عالماً، يعلم الأمور الخفية الباطنة، وهذا منقسم قسمين:

أحدهما: أن يعلم الأمور الخفية الحاضرة.

الثاني: أن يعلم الأمور الخفية المستقبلية.

والكلام من حيث إطلاقه يحتمل الأمرين، فنحمله عليهما معاً. فقد خالف في كل واحدة من المسألتين قوم، فمن الناس من نفى كونه عالماً بالمستقبلات، ومن الناس من نفى كونه عالماً بالأمور الحاضرة، سواء كانت خفية أو ظاهرة، وهذا يقتضينا أن نشرح أقوال العقلاء في هذا المسائل، فنقول: إن الناس فيها على أقوال:

القول الأول: قول جمهور المتكلمين، وهو أن الباري سبحانه يعلم كل معلوم: الماضي والحاضر والمستقبل، ظاهرها وباطنها، ومحسوسها وغير محسوسها، فهو تعالى العالم بما كان وما هو حاضر، وما سيكون وما لم يكن، أن لو كان كيف كان يكون، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾^(١)، فهذا علم بأمر مقدر على تقدير وقوع أصله الذي قد علم أنه لا يكون.

القول الثاني: قول من زعم أنه تعالى لا يعلم الأمور المستقبلية، وشبهوه بكونه مدركاً، قالوا: كما أنه لا يدرك المستقبلات، فكذلك لا يعلم المستقبلات. وهو قول هشام ابن الحكم.

القول الثالث: قول من زعم أنه لا يعلم الأمور الحاضرة، وهذا القول نقيض القول الثاني، وشبهوه بكونه قادراً، قالوا: كما أنه لا يقدر على الموجود، فكذلك لا يعلم الموجود، ونسب ابن الراوندي هذا القول إلى معمر بن عباد، أحد شيوخنا، وأصحابنا يكذبونه في ذلك، ويدفعون الحكاية عنه.

القول الرابع: قول من زعم أنه تعالى لا يعلم نفسه خاصة، ويعلم كل ما عدا ذاته، ونسب ابن الراوندي هذه المقالة إلى معمر أيضاً، وقال: إنه يقول: إن العالم غير المعلوم، والشيء لا يكون غير نفسه وأصحابنا يكذبون ابن الراوندي في هذه الحكاية وينزهون معمر عنها.

القول الخامس: قول من قال: إنه تعالى لم يكن فيما لم يزل عالماً بشيء أصلاً، وإنما أحدث لنفسه علماً به الأشياء، وهو قول جهم بن صفوان.

القول السادس: قول من قال إنه تعالى لا يعلم كل المعلومات على تفصيلها، وإنما يعلم ذلك إجمالاً وهؤلاء يسمون المسترسلية، لأنهم يقولون: يسترسل علمه على المعلومات إجمالاً لا تفصيلاً، وهو مذهب الجويني من متكلمي الأشعرية.

القول السابع: قول من قال إنه تعالى يعلم المعلومات المفصلة ما لم يفيض القول به إلى محال، وزعموا أن القول بأنه يعلم كل شيء يفيض إلى محال، وهو أن يعلم ويعلم أنه يعلم،

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢٨.

وهلم جراً إلى ما لا نهاية له، وكذلك المحال لازم إذا قيل إنه يعلم الفروع، وفروع الفروع ولوازمها ولوازم لوازمها إلى ما لا نهاية له. قالوا: ومحال اجتماع كل هذه العلوم غير المتناهية في الوجود، وهذا مذهب أبي البركات البغدادي صاحب المعتبر.

القول الثامن: قول من زعم أنه تعالى لا يعلم الشخصيات الجزئية، وإنما يعلم الكليات التي لا يجوز عليها التغيير، كالعلم بأن كل إنسان حيوان، ويعلم نفسه أيضاً، وهذا مذهب أرسطو وناصرى قوله من الفلاسفة كابن سينا وغيره.

القول التاسع: قول من زعم أنه تعالى لا يعلم شيئاً أصلاً، لا كلياً ولا جزئياً، وإنما وجد العالم عنه لخصوصية ذاته فقط من غير أن يعلمه، كما أن المغناطيس يجذب الحديد لقوة فيه من غير أن يعلم بال جذب، وهذا قول قوم من قدماء الفلاسفة. فهذا تفصيل المذاهب في هذه المسألة.

واعلم أن حجة المتكلمين على كونه عالماً بكل شيء، إنما تتضح بعد إثبات حدوث العالم، وأنه فعله بالاختيار، فحينئذ لا بد من كونه عالماً، لأنه لو لم يكن عالماً بشيء أصلاً لما صح أن يحدث العالم على طريق الاختيار، لأن الإحداث على طريق الاختيار إنما يكون بالغرض والداعي. وذلك يقتضي كونه عالماً، فإذا ثبت أنه عالم بشيء أفسدوا حينئذ أن يكون عالماً بمعنى اقتضى له العالمية، أو بامر خارج عن ذاته، مختاراً كان أو غير مختار.

فحينئذ ثبت لهم أنه إنما علم لأنه هذه الذات المخصوصة لا شيء أزيد منها، فإذا كان لهم ذلك وجب أن يكون عالماً بكل معلوم، لأن الأمر الذي أوجب كونه عالماً بامر ما هو ذاته يوجب كونه عالماً بغيره من الأمور، لأن نسبة ذاته إلى الكل نسبة واحدة.

فأما الجواب عن شبه المخالفين فمذكور في المواضع المختصة بذلك، فليطلب من كتبنا الكلامية.

الفصل الثاني

في تفسير قوله ﷺ: «وَدَلَّتْ عَلَيْهِ أَعْلَامُ الظُّهُورِ»

فنقول: إن الذي يستدل به على إثبات الصانع يمكن أن يكون من وجهين، وكلاهما يصدق عليه أنه أعلام الظهور أحدهما الوجود والثاني الموجود.

أما الاستدلال عليه بالوجود نفسه فهي طريقة المدققين من الفلاسفة، فإنهم استدلوا على أن مسمى الوجود مشترك، وأنه زائد على ماهيات الممكنات، وأن وجود الباري لا يصح أن يكون زائداً على ماهيته، فتكون ماهيته وجوداً، ولا يجوز أن تكون ماهيته عارية عن الوجود، فلم يبق إلا أن تكون ماهيته هي الوجود نفسه، وأثبتوا وجوب ذلك الوجود، واستحالة تطرق

العدم إليه بوجه ما، فلم يفتقروا في إثبات الباري إلى تأمل أمر غير نفس الوجود.
وأما الاستدلال عليه بالموجود لا بالوجود نفسه، فهو الاستدلال عليه بأفعاله، وهي طريقة المتكلمين. قالوا: كل ما لم يُعلم بالبدئية ولا بالحس فإنما يُعلم بآثاره الصادرة عنه، والباري تعالى كذلك، فالطريق إليه ليس إلا أفعاله: فاستدلوا عليه بالعالم، وقالوا تارة: العالم محدث وكل محدث له محدث. وقالوا تارة أخرى: العالم ممكن، فله مؤثر.

وقال ابن سينا: إن الطريقة الأولى وهي الاستدلال عليه بالوجود نفسه أغلى وأشرف، لأنه لم يحتج فيها إلى الاحتجاج بأمر خارج عن ذاته، واستنبط آية من الكتاب العزيز في هذا المعنى. وهي قوله تعالى: ﴿سَرُّهُمْ بَابُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَقٌّ يَبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾^(١).

قال ابن سينا: أقول: إن هذا حكم لقوم - يعني المتكلمين وغيرهم، ممن يستدل عليه تعالى بأفعاله، وتعمم الآية: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^(٢).

قال: هذا حكم الصديقين الذين يستشهدون به لا عليه، يعني الذين استدلوا عليه بنفس الوجود، ولم يفتقروا إلى التعلق بأفعاله في إثبات ربوبيته.

الفصل الثالث

في أن هويته تعالى غير هوية البشر

وذلك معنى قوله ﷺ: «وامتنع على عين البصير»، وقوله: «ولا قلب من أثبتة يبصر»، وقوله: «ولم يُطلع العقول على تحديد صفته»، فنقول: إن جمهور المتكلمين زعموا أن نعرف حقيقة ذات الإله، ولم يتحاشوا من القول بأنه تعالى لا يعلم من ذاته إلا ما نعلمه نحن منها.

وذهب ضرار بن عمرو: أن لله تعالى ماهية لا يعلمها إلا هو، وهذا هو مذهب الفلاسفة. وقد حكى عن أبي حنيفة وأصحابه أيضاً، وهو الظاهر من كلام أمير المؤمنين ﷺ في هذا الفصل.

الفصل الرابع

في نفي التشبيه عنه تعالى

وهو معنى قوله ﷺ: «بعد وقرب»، أي في حال واحدة، وذلك يقتضي نفي كونه تعالى جسماً؟ وكذلك قوله ﷺ: «فلا استعلاؤه باعدّه، ولا قرُبه ساواهم في المكان به»، فنقول: إن مذهب جمهور المتكلمين نفي التشبيه، وهذا القول يتنوع أنواعاً:

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

النوع الأول: نفي كونه تعالى جسماً مركباً، أو جوهرأ فردأ غير مركب، والمراد بالجوهر هاهنا الجرم والحجم. وهو قول المعتزلة، وأكثر محققي المتكلمين من سائر الفرق، وإليه ذهب الفلاسفة أيضاً.

وقال قوم من مستضعفي المتكلمين خلاف ذلك، فذهب هشام بن الحكم إلى أنه تعالى جسم مركب كهذه الأجسام، واختلفت الحكاية عنه، فروي عنه أنه قال: إنه يشبرُ نفسه سبعة أشبار. وروي عنه أنه قال: إنه على هيئة السبيكة. وروي عنه أنه قال: إنه على هيئة البلورة الصافية المستوية الاستدارة من حيث أتيها وأتيها على هيئة واحدة، وروي عنه أيضاً قال: إنه ذو صورة. وأصحابه من الشيعة يدفعون اليوم هذه الحكايات عنه، ويزعمون أنه لم يزد على قوله: إنه جسم لا كالأجسام، وإنه إنما أراد بإطلاق هذا اللفظ عليه إثباته.

وصدقوا عنه أنه كان يطلق عليه كونه نوراً، لقول الله سبحانه: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِ﴾^(١) وحكى عن محمد بن النعمان الأحول، المعروف بشيطان الطاق، وهشام بن سالم المعروف بالجواليقي، وأبي مالك بن الحضرمي، أنه نورٌ على صورة الإنسان، وأنكروا مع ذلك أن يكون جسماً، وهذه مناقضة ظاهرة.

وحكى عن علي بن ميثم مثله. وقد حكي عنه أنه كان يقول بالصورة والجسم.

وحكى عن مقاتل بن سليمان، وداود الجواربي، ونعيم بن حماد المصري، أنه في صورة الإنسان، وأنه لحم ودم، وله جوارح وأعضاء من يد ورجل ولسان ورأس وعينين، وهو مع ذلك لا يشبه غيره، ولا يشبهه غيره، وافقهم على ذلك جماعة من العامة ومن لا نظر له.

وحكى عن داود الجواربي أنه قال: افعنوني من الفرج واللحية وسلوني عما وراء ذلك. وحكى عنه أنه قال: هو أجوف من فيه إلى صدره، وما سوى ذلك مصمت.

وحكى أبو عيسى الوراق أن هشام بن سالم الجواليقي كان يقول: إن له وفرة سوداء.

وذهب جماعة من هؤلاء إلى القول بالمؤانسة والخلوة والمجالسة والمحادثة.

وسئل بعضهم عن معنى قوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ﴾^(٢)، فقال: يُقْعَدُ معه على سريريه ويغلفه بيده.

وقال بعضهم: سألت مُعَاذاً العنبري، فقلت: أله وجه؟ فقال: نعم، حتى عدت جميع الأعضاء من أنف وفم وصدر وبطن، واستحييت أن أذكر الفرج، فأومأت بيدي إلى فرجي، فقال: نعم، فقلت أذكر أم أنثى؟ فقال: ذكر.

(٢) سورة القمر، الآية: ٥٥.

(١) سورة النور، الآية: ٣٥.

ويقال: إن ابن خزيمة أشكل عليه القول في أنه: أذكر أم أنثى، فقال له بعض أصحابه: إن هذا مذکور في القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى﴾^(١)، فقال: أفدت وأجدت، وأودعه كتابه.

ودخل إنسان على معاذ بن معاذ يوم عيد، وبين يديه لحم في طيخ سكباج^(٢)، فسأله عن الباري تعالى في جملة ما سأله، فقال: هو والله مثل هذا الذي بين يدي، لحم ودم. وشهد بعض المعتزلة عند معاذ بن معاذ، فقال له: لقد هممت أن أسقطك، لولا أنني سمعتك تلحن حماد بن سلمة، فقال: أما حماد فلم ألعنه، ولكني ألعن من يقول: إنه سبحانه ينزل ليلة عرفة من السماء إلى الأرض على جمل أحمر في هودج من ذهب، فإن كان حماد يروي هذا أو يقوله فعليه لعنة الله. فقال: أخرجوه، فأخرج.

وقال بعضهم: خرجنا يوم عيد إلى المصلى، فإذا جماعة بين يدي أمير، والطبول تضرب والأعلام تخفق فقال واحد من خلفنا: اللهم لا طبل إلا طبلك، ف قيل له: لا تقل هكذا، فليس الله تعالى طبل، فبكى، وقال: رأيتم هو يجيء وحده ولا يضرب بين يديه طبل، ولا ينصب على رأسه علم، فإذا هو دون الأمير.

وروى بعضهم أنه تعالى أجرى خيلاً، فخلق نفسه من مثلها.

وروى قوم منهم أنه نظر في المرأة فرأى صورة نفسه، فخلق آدم عليها.

وروا أنه يضحك حتى تبدو نواجذه.

وروا أنه أمرد جعد ققط^(٣). في رجليه نعلان من ذهب، وأنه في روضة خضراء على كرسي تحمله الملائكة.

وروا أنه يضع رجلاً على رجل، ويستلقي فإنها جلست الرب.

وروا أنه خلق الملائكة من زغب^(٤) ذراعيه، وأنه اشتكى عينه فعادته الملائكة وأنه يتصور بصورة آدم ويحاسب الناس في القيامة، وله حجاب من الملائكة يحجبونه.

وروا عن النبي ﷺ أنه قال: «رأيت ربي في أحسن صورة، فسأله عما يختلف فيه الملا الأعلى، فوضع يده بين كتفي، فوجدت برزخها، فعلمت ما اختلفوا فيه»^(٥).

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٦.

(٢) السكباج: طعام يعمل من اللحم والخل مع توابل. المعجم الوسيط، مادة (سكج).

(٣) الققط: القصير الجعد من الشعر. القاموس، مادة (قطط).

(٤) الزغب: صغار الشعر والريش. القاموس، مادة (زغب).

(٥) أخرج الترمذي نحوه في تفسير القرآن، باب: ومن سورة ص (٣٢٣٤)، وأحمد في أول مسند المدنيين أجمعين، باب: حديث بعض أصحاب رسول الله ﷺ (١٦١٨٥)، والدارمي في الرويا، باب: في رؤية الرب تعالى في النوم (٢١٤٩).

وروا أنه ينزل إلى السماء الدنيا في نصف شعبان، وأنه جالس على العرش قد فضل منه أربع أصابع من كل جانب. وأنه يأتي الناس يوم القيامة، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، فيقول لهم: أفتعرفونه إن رأيتموه؟ فيقولون: بيننا وبينه علامة، فيكشف لهم عن ساقه، وقد تحوّل في الصورة التي يعرفونها، فيخرون له سجداً.

وروا أنه يأتي في غمام، فوقه هواء، وتحت هواء.

وكان بطبرستان قاص من المشبهة، يقص على الناس، فقال يوم في قصصه: إن يوم القيامة تجيء فاطمة بنت محمد، معها قميص الحسين ابنها تلمس القصاص من يزيد بن معاوية، فإذا رآها الله تعالى من بعيد، دعا يزيد وهو بين يديه، فقال له: ادخل تحت قوائم العرش، لا تظفر بك فاطمة، فدخل ويختبئ، وتحضر فاطمة، فتتظلم وتبكي، فيقول: سبحانه: انظري يا فاطمة إلى قدمي، ويخرجها إليها، وبه جرح من سهم نمرود، فيقول: هذا جرح نمرود في قدمي، وقد عفوت عنه، أفلا تعفين أنت عن يزيد! فتقول: هي: اشهد يا رب أني قد عفوت عنه.

وذهب بعض متكلمي المجسمة إلى أن الباري تعالى مركب من أعضاء على حروف المعجم.

وقال بعضهم: إنه ينزل على حمار في صورة غلام أمرد، في رجليه نعلان من ذهب، وعلى وجهه فراش من ذهب يتطاير.

وقال بعضهم: إنه في صورة غلام أمرد صبيح الوجه، عليه كساء أسود ملتحف به.

وسمعت أنا في عصري هذا من قال في قوله تعالى: ﴿وَرَى الْمَلَكَةَ حَافِيَةً مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾^(١): إنهم قيام على رأسه بسيوفهم وأسلحتهم، فقال له آخر على سبيل التهكم به: يحرسونه من المعتزلة أن يفتكوا به! فغضب وقال: هذا إلحاد.

وروا أن النار تزفر وتتغيظ تغيظاً شديداً، فلا تسكن حتى يضع قدمه فيها، فتقول: قَطْ قَطْ، أي: حسبي حسبي. ويرفعون هذا الخبر مسنداً. وقد ذكر شبيه به في الصّحاح.

وروي في الكتب الصّحاح أيضاً: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ»^(٢)، وقيل: إن في التوراة نحو ذلك في السّفر الأول.

واعلم أن أهل التوحيد يتأولون ما يحتمل التأويل من هذه الروايات على وجوه محتملة غير

(١) سورة الزمر، الآية: ٧٥.

(٢) أخرجه البخاري في الاستئذان، باب: بدء السلام (٦٢٢٧)، ومسلم في البر والصلة، باب: النهي عن ضرب الوجه (٢٦١٢)، وأحمد في باقي مسند المكثرين، باب: مسند أبي هريرة.

مستبعدة، وما لا يحتمل التأويل منها يقطعون ببطلانه، وبأنه موضوع، وللاستقصاء في هذا المعنى موضع غير هذا الموضع.

وحكى أبو إسحاق النظام ومحمد بن عيسى برغوث أن قوماً قالوا: إنه تعالى الفضاء نفسه، وليس بجسم، لأن الجسم يحتاج إلى مكان ونفسه مكان الأشياء.

وقال برغوث: وطائفة منهم يقولون: هو الفضاء نفسه، وهو جسم تحل الأشياء فيه، وليس بذى غاية ولا نهاية، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾^(١).

فأما من قال: إنه جسم لا كالأجسام، على معنى أنه بخلاف العرض الذي يستحيل أن يتوهم منه فعل، ونفوا عنه معنى الجسمية، وإنما أطلقوا هذه اللفظة لمعنى أنه شيء لا كالأشياء، وذات لا كالذوات، فأمرهم سهل، لأن خلافهم في العبارة، وهم: علي بن منصور، والسكاك، ويونس بن عبد الرحمن، والفضل بن شاذان، وكل هؤلاء من قدماء رجال الشيعة. وقد قال بهذا القول ابن كرام وأصحابه، وقالوا: معنى قولنا فيه سبحانه إنه جسم: إنه قائم بذاته لا بغيره.

والمتعصبون لهشام بن الحكم من الشيعة في وقتنا هذا يزعمون أنه لم يقل بالتجسيم المعنوي، وإنما قال إنه جسم لا كالأجسام، بالمعنى الذي ذكرناه عن يونس والسكاك وغيرهما، وإن كان الحسن بن موسى النوبختي - وهو من فضلاء الشيعة - قد روي عنه التجسيم المخفض في كتاب «الآراء والديانات»^(٢).

النوع الثاني: نفى الأعضاء والجوارح عنه سبحانه، فالذي يذهب إليه المعتزلة وسائر المحققين من المتكلمين نفى ذلك عنه، وقد تأولوا ما ورد في القرآن العزيز من ذلك، من نحو قوله تعالى: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بَدَنِي﴾^(٣)، وقوله سبحانه: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جُنْبِ اللَّهِ﴾^(٤). وغير ذلك، وحملوه على وجوه صحيحة جائزة في اللغة العربية.

وأطلقت الكرامية عليه سبحانه لفظ «اليدين والوجه»، وقالوا: لا نتجاوز الإطلاق، ولا نفسر ذلك ولا نتأوله، وإنما تقتصر على إطلاق ما ورد به النص.

(١) سورة الحج، الآية: ٧٨.

(٢) الآراء والديانات: للحسن بن موسى بن الحسن بن محمد النوبختي الفلكي، المتوفى سنة (٣١٠هـ). «الأعلام» للزركلي (٢/ ٢٢٤).

(٣) سورة ص، الآية: ٧٥.

(٤) سورة الزمر، الآية: ٥٦.

وأثبت الأشعريّ اليدين صفة قائمة بالباريء سبحانه، وكذلك الوجه من غير تجسيم.

وقالت المجسّمة: إنّ لله تعالى يدين، وهما عضوان له، وكذلك الوجه والعينين، وأثبتوا له رجلين قد فضّلنا عن عرشه، وساقطين يكشف عنهما يوم القيامة، وقدّما يضعهما في جهنم فتمتلي. وأثبتوا له ذلك معنى لا لفظاً، وحقيقة لا مجازاً.

فأما أحمد بن حنبل فلم يثبت عنه تشبيه ولا تجسيم أصلاً، وإنما كان يقول بترك التأويل فقط، ويطلق ما أطلقه الكتاب والسنة، ولا يخوض في تأويله، ويقف على قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾^(١)، وأكثر المحضّلين من أصحابه على هذا القول.

النوع الثالث: نفي الجهة عنه سبحانه، فالذي يذهب إليه المعتزلة وجمهور المتحقّقين من المتكلّمين أنه سبحانه ليس في جهة ولا مكان، وأنّ ذلك من توابع الجسمية أو العرضية اللاحقة بالجسيمة، فإذا انتفى عنه كونه جسماً وكونه عرضاً لم يكن في جهة أصلاً، وإلى هذا القول يذهب الفلاسفة.

وذهب الكرامية والحشوية إلى أنّ الله تعالى في جهة فوق، وإليه ذهب هشام بن الحكم، وعليّ بن منصور، ويونس بن عبد الرحمن، وهشام بن سالم الجواليقي، وكثير من أهل الحديث.

وذهب محمد بن الهيصم، متكلّم الكرامية إلى أنه تعالى ذات موجودة منفردة بنفسها عن سائر الموجودات، لا تحلّ شيئاً حلول الأعراض، ولا تمازج شيئاً ممازجة الأجسام بل هو مباين للمخلوقين، إلا أنّه في جهة فوق، وبينه وبين العرش بعد لا يتناهى.

هكذا يحكي المتكلمون عنه، ولم أره في شيء من تصانيفه وأحالوا ذلك، لأن ما لا يتناهى لا يكون محصوراً بين حاصرين. وأنا استبعد عنه هذه الحكاية، لأنّه كان أذكى من أن يذهب عليه فساد هذا القول. وحقيقة مذهب مثبتي المكان أنه سبحانه متمكن على العرش كما يتمكن الملك على سرير، فقليل لبعض هؤلاء: أهو أكبر من العرش، أم أصغر، أم مساوٍ له؟ فقال: بل أكبر من العرش، فقليل له: فكيف يحمله؟ فقال: كما تحمّل رجلاً الكرسيّ جسم الكرسيّ وجسمه أكبر من رجله. ومنهم من يجعله مساوياً للعرش في المقدار، ولا يمتنع كثير منهم من إطلاق القول بأن أطرافه تفضّل عن العرش، وقد سمعت أنا من قال منهم: إنه مستوٍ على عرشه كما أن مستوٍ على هذه الدكة ورجلاه على الكرسيّ الذي وسع السماوات والأرض، والكرسيّ تحت العرش، كما يجعله اليوم الناس تحت أسرّتهم كراسيّ يستريحون بوضع أرجلهم عليها.

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧.

وقال هؤلاء كلهم: إنه تعالى ينزل ويصعد حقيقة لا مجازاً، وإنه يتحرك وينزل، فمن ذلك نزوله إلى السماء الدنيا، كما ورد في الخبر، ومن ذلك إتيانه ومجيئه، كما نطق به الكتاب العزيز في قوله سبحانه: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾^(١)، وقوله: ﴿وَجَاءَ رُؤُكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾^(٢).

وأطلق ابن الهيصم عليه هذه الألفاظ اتباعاً لما ورد في الكتاب والسنة، وقال: لا أقول بمعانيها، ولا أعتقد حركته الحقيقية، وإنما أرسلها كما وردت. وأما غيره فاعتقد معانيها حقيقة. وقال ابن الهيصم في كتاب «المقالات»: إن أكثر الحشوية يُجيز عليه تعالى العذو والهرولة. وقال قوم منهم: إنه تعالى يجوز أن ينزل فيطوف البلدان، ويدور في السكك.

وقال بعض الأشعرين: إن سائلاً سأل السكك فقال: إذا أجزت عليه الحركة، فهلا أجزت عليه أن يطفرا فقال: لا يجوز عليه الطفر، لأن الطفر إنما يكون فراراً من ضد، أو اتصالاً بشكل. فقال له: فالحركة أيضاً كذلك! فلم يأت بفرق.

فأما القول بأنه تعالى في كل مكان، فإن المعتزلة يقولون ذلك، وتريد به أنه وإن لم يكن في مكان أصلاً، فإنه عالم بما في كل مكان، ومدبر لما في كل مكان، وكأنه موجود في جميع الأمكنة لإحاطته بالجميع.

وقال قوم من قدماء الفلاسفة: إن الباري تعالى روح شديد في غاية اللطافة، وفي غاية القوة، ينفذ في كل العالم. وهؤلاء يطلقون عليه أنه في كل مكان حقيقة لا تأويلاً، ومن هؤلاء من أوضح هذا القول، وقال: إنه تعالى سار في هذا العالم سريان نفس الواحد منا في بدنه، فكما أن كل بدن منا له نفس سارية فيه تدبره، كذلك الباري سبحانه هو نفس العالم، وسار في كل جزء من العالم، فهو إذاً في كل مكان بهذا الاعتبار؛ لأن النفس في كل جزء من البدن.

وحكى الحسن بن موسى النوبختي عن أهل الرواق من الفلاسفة أن الجوهر الإلهي سبحانه روح ناري عقلي، ليس له صورة، لكنه قادر على أن يتصور بأي صورة شاء، ويتشبه بالكل، وينفذ في الكل بذاته وقوته، لا بعلمه وتدبيره.

النوع الرابع: نفي كونه عرضاً حالاً في المحل، فالذي تذهب إليه المعتزلة وأكثر المسلمين والفلاسفة نفي ذلك القول باستحالته عليه سبحانه لوجوب وجوده، وكون كل حال في الأجسام ممكناً بل حادثاً.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٠.

(٢) سورة الفجر، الآية: ٢٢.

وذهبت الحُلُولية من أهل الملة وغيرها، إلى أنه تعالى يحلّ في بعض الأجسام دون بعض كما يشاء سبحانه، وإلى هذا القول ذهب أكثر الغلاة في أمير المؤمنين. ومنهم من قال بانتقاله من أمير المؤمنين عليه السلام إلى أولاده، ومنهم من قال بانتقاله من أولاده إلى قوم من شيعته وأوليائه واتبعهم على هذه المقالة قومٌ من المتصوفة كالحلاجية والبسطامية وغيرهم.

وذهبت النسطورية من النصارى إلى حلول الكلمة في بدن عيسى عليه السلام كحلول السواد في الجسم. فأما اليعقوبية من النصارى فلا تثبت الحلول، وإنما تثبت الاتحاد بين الجوهر الإلهي والجوهر الجسماني وهو أشدُّ بُعداً من الحلول.

النوع الخامس: في نفي كونه تعالى محلاً لشيء، ذهبت المعتزلة وأكثر أهل الملة والفلاسفة إلى نفي ذلك، والقول باستحالته على ذاته سبحانه.

وذهبت الكرامية إلى أن الحوادث تحلّ في ذاته، فإذا أحدث جسمًا أحدث معنى حالاً في ذاته، وهو الإحداث، فحدث ذلك الجسم مقارناً لذلك المعنى أو عقبيه، قالوا: وذلك المعنى هو قول «كن» وهو المسمى خَلْقًا، والخلق غير المخلوق، قال الله تعالى: ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾^(١)، قالوا: لكنّه قد أشهدنا ذواتها، فدلّ على أن خلقها غيرها.

وصرح ابن الهيثم في كتاب «المقالات» بقيام الحوادث بذات الباري فقال: إنه تعالى إذا أمر أو نهى، أو أراد شيئاً كان أمره ونهيه وإرادته كائنة بعد أن لم تكن، وهي قائمة به؛ لأنّ قوله منه يسمع، وكذلك إرادته منه توجد.

قال: وليس قيام الحوادث بذاته دليلاً على حدوثه، وإنما يدلّ على الحدوث تعاقب الأضداد التي لا يصحّ أن يتعطل منها، والباري تعالى لا تتعاقب عليه الأضداد.

وذهب أبو البركات البغدادي صاحب «المعتبر»^(٢) إلى أن الحوادث تقوم بذات الباري سبحانه، وأنه لا يصحّ إثبات الإلهية إلا بذلك. وقال: إنّ المتكلمين ينزهونه عن ذلك، والتنزيه عن هذا التنزيه هو الواجب.

وذهب أصحابنا وأكثر المتكلمين إلى أن ذلك لا يصحّ في حق واجب الوجود، وأنّه دليل على إمكان ذاته، بل على حدوثها. وأجازوا مع ذلك عليه أن يتجدّد له صفات - يعنون

(١) سورة الكهف، الآية: ٥١.

(٢) المعتبر في المنطق والحكمة: لأبي البركات هبة الله بن ملكا البغدادي، المتوفى سنة ٥٤٧هـ. «كشف الظنون» (٢/١٧٣١).

الأحوال لا المعاني - نحو كونه مدركاً بعد أن لم يكن. وكقول أبي الحسين: إنه يتجدد له عالمية بما وجد، وكان من قبل عالماً بأنه سيوجد، وإحدى هاتين الصفتين غير الأخرى.
قالوا: إن الصفات والأحوال قيل مفرد عن المعاني، والمحال إنما هو حلول المعاني في ذاته لا تجدد الصفات لذاته. وللکلام في هذا الباب موضع هو أليق به.

النوع السادس: في نفي اتحاده تعالى بغيره. ذهب أكثر العقلاء إلى استحالة ذلك، وذهبت اليعقوبية من النصاري إلى أن الكلمة اتحدت بعيسى، فصارت جوهراً من جوهرين: أحدهما إلهي، والآخر جسماني. وقد أجاز الاتحاد في نفس الأمر لا في ذات الباري قوم من قدماء الفلاسفة، منهم فرفوريوس، وأجازه أيضاً. منهم من ذهب إلى أن النفس إنما تعقل المعقولات، لاتحادها بالجواهر المفارقة المفيض للنفوس على الأبدان، وهو المسمى بالعقل الفعّال.

النوع السابع: في نفي الأعراض الجسمانية عنه من التعب والاستراحة، والألم واللذة، والغم والسرور، ونحو ذلك.
وذهب المعتزلة وأكثر العقلاء من أهل الملة وغيرهم إلى نفي ذلك، والقول باستحالة عليه سبحانه.

وذهبت الفلاسفة إلى جواز اللذة عليه، وقالوا: إنه يلتذ بإدراك ذاته وكمال له لأن إدراك الكمال هو اللذة أو سبب اللذة، وهو تعالى أكمل الموجودات، وإدراكه أكمل الإدراكات، وإلى هذا القول ذهب محمد الغزالي من الأشعرية.

وحكى ابن الرّاوندي عن الجاحظ أن أحد قدماء المعتزلة - ويعرف بأبي شعيب - وكان يجوّز عليه تعالى السرور والغم، والغيرة والأسف، ويذكر في ذلك ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا أحد أغير من الله»^(١)، «وأنه تعالى يفرح بتوبة عبده ويسرّ بها»^(٢). وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن، باب: قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ﴾ [الأعراف: ٣٣] (٤٦٣٧)، ومسلم في التوبة، باب: غيرة الله تعالى (٢٧٦٠)، والترمذي في الدعوات، باب: منه (٣٥٣٠) دون قوله: «وأنه تعالى... إلخ».

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات، باب: التوبة (٦٣٠٨) ومسلم في التوبة، باب: الحظ على التوبة، (٢٦٧٥)، والترمذي في صفة القيامة، باب: منه (٢٤٩٨)، وابن ماجه في الزهد، باب: التوبة (٤٢٤٧).

«أَسْفُونَا أَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ»^(١)، وقال مقال المتحسر على الشيء: «يَحْصِرُهُ عَلَى الْعِبَادِ»^(٢)، وحكي عنه أيضاً أنه يُجَوِّزُ عليه أن يتعب ويستريح، ويحتج بقوله: «وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُؤُوبٍ»^(٣).

وهذه الألفاظ كلها عند أصحابنا متأولة محمولة على محامل صحيحة، تشتمل على شرحها الكتب المبسوطة.

النوع الثامن: في أنه تعالى ليس بمتلون. لم يصرح أحد من العقلاء قاطبة بأن الله تعالى متلون، وإنما ذهب قوم من أهل التشبيه والتجسيم إلى أنه نور، فإذا أبصرته العيون وأدرجته أبصرت شخصاً ثورانياً مضيئاً، لم يزدوا على ذلك، ولم يصرحوا بإثبات اللون بهذه العبارة، وإن كان كل مضيء ملوناً.

النوع التاسع: في أنه تعالى لا يشتهي ولا ينفّر. ذهب شيوخنا المتكلمون إلى أنه سبحانه لا يصح عليه الشهوة والثفرة، لأنهما إنما يصحان على ما يقبل الزيادة والنقصان بطريق الاغتذاء، والنمو، والباريء سبحانه وتعالى يتعالى عن ذلك. وما عرفت لأحد من الناس خلافاً في ذلك، اللهم إلا أن يطلق هاتان اللفظتان على مستى الإرادة والكراهية على سبيل المجاز.

النوع العاشر: في أن الباري تعالى غير متناهي الذات. قالت المعتزلة: لما كان الباري تعالى ليس بجسم ولا جسماني، وكانت النهاية من لواحق الأشياء ذوات المقادير، يقال: هذا الجسم متناو، أي ذو طرف.

قلنا: إن ذات الباري تعالى غير متناهية، لا على معنى أن امتداد ذاته غير متناو، فإنه سبحانه ليس بذئ امتداد، بل بمعنى أن الموضوع الذي يصدق عليه النهاية ليس بمتحقق في حقه سبحانه، فقلنا: إن ذاته غير متناهية، كما يقول المهندس: إن النقطة غير متناهية، لا على معنى أن لها امتداد غير متناو، فإنها ليست بممتدة أصلاً: بل على معنى أن الأمر الذي تصدق عليه النهاية - وهو الامتداد - لا يصدق عليها، فإذا صدق عليها أنها غير متناهية. وهذا قول الفلاسفة وأكثر المحققين.

(٢) سورة يس، الآية: ٣٠.

(١) سورة الزخرف، الآية: ٥٥.

(٣) سورة ق، الآية: ٣٨.

وقالت الكرامية: الباري تعالى ذات واحدة منفردة عن العالم قائمة بنفسها، مباينة للموجودات، متناهية في ذاتها، وإن كنا لا نطلق عليها هذا اللفظ لما فيه من إيهام انقطاع وجودها، وتصرم بقائها.

وأطلق هشام بن الحكم وأصحابه عليه تعالى القول بأنه متناهي الذات، غير متناهي القدرة. وقال الجاحظ: إن لي قوماً زعموا أنه تعالى ذاهب في الجهات الست، التي لا نهاية لها.

النوع الحادي عشر: في أنه تعالى لا تصح رؤيته. قالت المعتزلة: رؤية الباري تعالى مستحيلة في الدنيا والآخرة، وإنما يصح أن يُرى المقابل ذو الجهة.

وقالت الكرامية والحنابلة والأشعرية: تصح رؤيته ويُرى الآخرة، يراه المؤمنون، ثم اختلفوا، فقالت الكرامية والحنابلة، يُرى في جهة فوق، وحكى عن مضر وكهمس وأحمد الجبي أنهم أجزوا رؤيته في الدنيا، وملاسته ومصافحته، وزعموا أن المخلصين يعانقون متى شاؤوا، ويسمّون الحية.

وحكى شيخنا أبو الحسين في «التصفح»^(١) عن أيوب السجستاني من المرجئة، أن الباري تعالى تصح رؤيته ولمسه.

وذهب قوم إلى أنهم لا يزالون يرون الله تعالى، وأن الناس كلهم كافرهم ومؤمنهم يرونه، ولكن لا يعرفونه.

وقال من ترفع عن هذه الطبقة منهم: لا يجوز أن يرى بعين خلقت للفناء، وإنما يرى في الآخرة بعين خلقت للبقاء.

وقال كثير من هؤلاء: إن محمداً ﷺ رأى ربه بعيني رأسه ليلة المعراج.

وروا عن كعب الأحبار أن الله تعالى قسم كلامه ورؤيته بين موسى ومحمد ﷺ.

وروا عن المبارك بن فضالة أن الحسن كان يحلف بالله: قد رأى محمد ربه.

وتعلق كثير منهم بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾^(٢)، وقالوا: كلمه موسى ﷺ مرتين، وراه محمد صلى الله عليه وآله مرتين.

(١) تصفح الأدلة في أصول الدين: لأبي الحسين محمد بن علي الطيب البصري، المتوفى سنة (٤٠٠هـ). «كشف الظنون» (١/٤١٣).

(٢) سورة النجم، الآية: ١٣.

وأنكر ابن الهيصم مع اعتقاده أقوال الكرامية ذلك، وقال: إن محمداً ﷺ لم يره، ولكنه سوف يراه في الآخرة.

قال: وإلى هذا القول ذهب عائشة وأبو ذر وقتادة، وقد روى مثله عن ابن عباس وابن مسعود.

واختلف من قال: إنه يرى في الآخرة، هل يجوز أن يراه الكافر؟ فقال أكثرهم: إن الكفار لا يرونه، لأن رؤيته كرامة، والكافر لا كرامة له. وقالت السالمية وبعض الحشوية: إن الكفار يرونه يوم القيامة، وهو قول محمد بن إسحاق بن خزيمة، ذكر ذلك عنه محمد بن الهيصم.

فأما الأشعري وأصحابه، فإنهم لم يقولوا كما قال هؤلاء: إنه يرى كما يرى الواحد منا بل قالوا: يرى، وليس فوقاً ولا تحتاً ولا يميناً ولا شمالاً ولا أماماً ولا وراء، ولا يرى كله ولا بعضه، ولا هو في مقابلة الرائي ولا منحرفاً عنه، ولا تصح الإشارة إليه إذا رُئي، وهو مع ذلك يرى ويبصر. وأجازوا أيضاً عليه أن تُسمع ذاته، وأن تشم وتذاق وتحس، لا على طريق الاتصال، بل تتعلق هذه الإدراكات كلها بذاته تعلقاً عارياً عن الاتصال.

وأنكرت الكرامية ذلك ولم يُجيزوا عليه إلا إدراك البصر وحده، وناقضهم شيخنا أبو الحسين في «التصريح» والزمهم أحد أمرين: إما نفي الجميع أو إثبات إدراك من جميع الجهات، كما يقول الأشعري.

وذهب ضرار بن عمرو، إلى أن الله تعالى يرى يوم القيامة بحاسة سادسة لا بهذا البصر. وقيل ذلك عن جماعة غيره.

وقال قوم: يجوز أن يحول الله تعالى قوة القلب إلى العين، فيعلم الله تعالى بها، فيكون ذلك الإدراك علماً باعتبار أنه بقوة القلب، ورؤية باعتبار أنه قد وقع بالمعنى الحال في العين.

فهذه الأنواع الأحد عشر هي الأقوال والمذاهب التي يشتمل قوله ﷺ بنفي التشبيه عليها. وسيأتي من كلامه ﷺ في نفي التشبيه ما هو أشدّ تصريحاً من الألفاظ التي نحن في شرحها.

الفصل الخامس

في بيان أن الجاحد له مكابر بلسانه ومثبت له بقلبه

وهو معنى قوله ﷺ: «فهو الذي تشهد له أعلام الوجود، على إقرار قلب ذي الحجود».

لا شبهة في أن العلم بافتقار المتغير إلى المتغير ضروري، والعلم بأن المتغير ليس هو المتغير إما أن يكون ضرورياً أو قريبا من الضروري، فإذا قد شهدت أعلام الوجود على أن الجاحد

لإثبات الصانع، إنما هو جاحد بلسانه لا بقلبه، لأنَّ العقلاء لا يجحدون الأوليات بقلوبهم، وإن كبروا بالاستهم. ولم يذهب أحدٌ من العقلاء إلى نفي الصانع سبحانه.

وأما القائلون بأنَّ العالم وجد عن طبيعة، وأنَّ الطبيعة هي المدبرة له، والقائلون بتصادم الأجزاء في الخلاء الذي لا نهاية له، حتى حَصَلَ منها هذا العلم. والقائلون بأنَّ أصل العالم وأساس بنيته هو النور والظلمة، والقائلون بأنَّ مبادئ العالم هي الأعداد المجردة، والقائلون بالهَيُولَى القديمة التي منها حَدَثَ العالم، والقائلون بِعَشَقِ النفس للهَيُولَى حتى تكونت منها هذه الأجسام، فكل هؤلاء أثبتوا الصانع، وإنما اختلفوا في ماهيته وكيفية فعله.

وقال قاضي القضاة: إنَّ أحدًا من العقلاء لم يذهب إلى نفي الصانع للعالم بالكلية، ولكن قوماً من الوراقين اجتمعوا ووضعوا بينهم مقالة، لم يذهب أحد إليها، وهي أن العالم قديم لم يزل على هيئته هذه، ولا إليه للعالم ولا صانع أصلاً، وإنما هو هكذا ما زال، ولا يزال من غير صانع ولا مؤثر.

قال: وأخذ ابن الراوندي هذه المقالة فنصرها في كتابه المعروف بكتاب «التاج» قال: فأما الفلاسفة القدماء والمتأخرون، فلم ينفوا الصانع، وإنما نفوا كونه فاعلاً بالاختيار، وتلك مسألة أخرى. قال: والقول بنفي الصانع قريب من القول بالسفسطة، بل هو هو بعينه، لأنَّ من شك في المحسوس أعذر ممَّن قال: إن المتحركات تتحرك من غير محرك حركها.

وقول قاضي القضاة، هذا هو محضُ كلام أمير المؤمنين ﷺ وعينه، وليس قول الجاحظ هو هذا؛ لأنَّ الجاحظ يذهب إلى أنَّ جميع المعارف والعلوم الإلهية ضرورية، ونحن ما ادَّعينا في هذا المقام إلا أن العلم بإثبات الصانع فقط هو الضروري، فإين أحد القولين من الآخر؟

الأصل: إِنَّمَا بَدَأَ وَقُوعَ الْفِتَنِ أَهْوَاءُ تَتَّبِعُ، وَأَحْكَامُ تُبْتَدَعُ، يُخَالَفُ فِيهَا كِتَابُ اللَّهِ، وَيَتَوَلَّى عَلَيْهَا رِجَالٌ رِجَالاً عَلَى غَيْرِ بَيْنِ اللَّهِ، فَلَوْ أَنَّ الْبَاطِلَ خَلَصَ مِنْ مِرَاجِ الْحَقِّ لَمْ يَخَفْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَلَوْ أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ مِنْ لَبْسِ الْبَاطِلِ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ الْمُعَانِدِينَ، وَلَكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا ضَعْفٌ وَمِنْ هَذَا ضَعْفٌ، فَيَمْرُجَانِ، فَهَذَاكَ يَسْتَوِلِي الشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ، وَيَنْجُو الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ الْحُسْنَى.

الشرح: المرتاد: الطالب. والضُّغْتُ من الحشيش: القبضة منه، قال الله تعالى: ﴿وَحَذِّ يَدَكَ ضِفْثًا﴾^(١).

يقول عليه السلام: إن المذاهب الباطلة والآراء الفاسدة التي يفتتن الناس بها، أصلها اتباع الأهواء، وابتداع الأحكام التي لم تعرف يخالف فيها الكتاب، وتحمل العصبية والهوى على تولي أقوام قالوا بها، على غير وثيقة من الدين. ومستند وقوع هذه الشبهات امتزاج الحق بالباطل في النظر الذي هو الطريق إلى استعلام المجهولات، فلو أن النظر تُخلص مقدماته وترتب قضاياها من قضايا باطلة، لكان الواقع عنه هو العلم المحض، وانقطع عنه السن المخالفين، وكذلك لو كان النظر تخلص مقدماته من قضايا صحيحة، بأن كان كله مبنياً على الفساد، لظهر فسادُه لطلبة الحق، وإنما يقع الاشتباه لامتزاج قضاياها الصادقة بالقضايا الكاذبة.

مثال ذلك احتجاج مَنْ أجاز الرؤية بأنَّ الباري تعالى ذاتٌ موجودة، وكلّ موجود يصح أن يرى، فإحدى المقدمتين حق، والأخرى باطل، فالتبس أمرُ النتيجة على كثير من الناس.

ومثال ما يكون المقدمتان جميعاً باطلتين، قول قوم من الباطنية: الباري لا موجود ولا معدوم، وكلّ ما لا يكون موجوداً ولا معدوماً يصح أن يكون حياً قادراً، فالباري تعالى صح أن يكون حياً قادراً. فهاتان المقدمتان جميعاً باطلتان. لا جرم أن هذه المقالة مرغوبٌ عنها عند العقلاء.

ومثال ما تكون مقدماته حقاً كلّها: العالم متغير، وكلّ متغير ممكن، فالعالم ممكن، فهذا مما لا خلاف فيه بين العقلاء.

فإن قيل: فما معنى قوله عليه السلام: «فهالك يستولي الشيطان على أوليائه، وينجو الذين سبق لهم من الله الحسنى»، أليس هذا إشعاراً بقول المجبرة وتلويحاً به؟

قيل: لا إشعار في ذلك بالجبر، ومراده عليه السلام أنه إذا امتزج في النظر الحق بالباطل، وتركبت المقدمات من قضايا صحيحة وفاسدة تمكّن الشيطان من الإضلال والإغواء، ووسوس إلى المكلف، وخيل له النتيجة الباطلة، وأماله إليها، وزينها عنده، بخلاف ما إذا كان المقدمات حقاً كلّها، فإنه لا يقدر الشيطان على أن يخيل له ما يخالف العقل الصريح، ولا يكون له مجال في تزوين الباطل عنده، ألا ترى أن الأوليات لا سبيل للإنسان إلى جحدها وإنكارها، لا بتخييل الشيطان ولا بغير ذلك!

ومعنى قوله: «على أوليائه»، أي على مَنْ عنده استعداد للجهل، وتمرن على اتباع الهوى،

وزهد تحقيق الأمور العقلية على وجهها، تقليداً للأسلاف، ومحبةً لاتباع المذهب المألوف، فذاك هو الذي يستولي عليه الشيطان ويضلّه، وينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنی، وهم الذين يتبعون محض العقل، ولا يركنون إلى التقاليد، ويسلكون مسلك التحقيق، وينظرون النظر الدقيق، يجتهدون في البحث عن مقدمات أنظارهم، وليس في هذا الكلام تصريح بالجبر، ولا إشعار به على وجه من الوجوه، وهذا واضح.

وحمل الراوندي قوله عليه السلام: «فلو أن الباطل نخلص...» إلى آخره، على أن المراد به نفي القياس في الشرع، قال: لأن القائسين يحملون المسكوت عنه على المنطوق، فيمتزج المجهول بالمعلوم، فيلتبس ويُظنّ؛ لامتزاج بعضه ببعض حقاً، وهذا غير مستقيم، لأن لفظ الخطبة أن الحق يمتزج بالباطل، وأصحاب القياس لا يسلمون أن استخراج العلة من الحكم المعلوم باطل، بل يقولون إنه حق، وإن الدليل الدال على ورود العبارة بالقياس قد أمّنهم من كونه باطلاً.

واعلم أن هذا الكلام الذي قاله عليه السلام حق إذا تأملته، وإن لم تفسره على ما قدمناه من التفسير، فإن الذين ضلّوا من مقلدة اليهود والنصارى وأرباب المقالات الفاسدة من أهل الملة الإسلامية وغيرها، إنما ضلّ أكثرهم بتقليد الأسلاف، ومن يحسن الظنّ فيه من الرؤساء وأرباب المذاهب، وإنما قلدهم الأتباع، لما شاهدوا من إصلاح ظواهرهم، ورفضهم الدنيا وزهدهم فيها، وإقبالهم على العبادة، وتمسكهم بالدين، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وشدّتهم في ذات الله، وجهادهم في سبيله، وقوتهم في مذاهبهم، وصلابتهم في عقائدهم، فاعتقد الأتباع والخلف والقرون التي جاءت بعدهم أن هؤلاء يجب اتباعهم، وتحرم مخالفتهم، وأن الحق معهم، وأن مخالفهم مبتدع ضالّ، فقلدوهم في جميع ما نقل إليهم عنهم، ووقع الضلال والغلط بذلك؛ لأن الباطل استتر وانغمر بما مازجه من الحق الغالب الظاهر المشاهد عياناً، أو الحكم الظاهر، ولولاه لما تروج الباطل، ولا كان له قبول أصلاً.

٥١ - ومن كلام له عليه السلام لما غلب أصحاب

معاوية أصحابه عليه السلام على شريعة الفرات بصفيين ومنعواهم من الماء

الأصل: قَدْ اسْتَظَعَمُوكُمُ الْقِتَالَ، فَأَقِرُّوا عَلَى مَذَلَّةٍ، وَتَأْخِيرِ مَحَلَّةٍ، أَوْ رَوْوا السَّيُوفَ مِنَ الدِّمَاءِ تَرَوْوا مِنَ الْمَاءِ، فَأَلَمَوْثُ فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ، وَالْحَيَاءُ فِي مَوْتِكُمْ قَاهِرِينَ. أَلَا وَإِنَّ مُعَاوِيَةَ قَادَ لُئْمَةً مِنَ الْغَوَاةِ، وَهَمَسَ عَلَيْهِمُ الْخَبَرَ، حَتَّى جَعَلُوا نُحُورَهُمْ أَغْرَاضَ الْمَنِيَّةِ.

الشرح: استطعموكم القتال، كلمة مجازية، ومعناها: طلبوا القتال منكم، كأنه جعل القتال شيئاً يُستطعم، أي يُطلب أكله، وفي الحديث: «إذا استطعمكم الإمام فأطعموه»^(١)، يعني إمام الصلاة، أي إذا أرتج فاستفتحكم عليه. وتقول: فلان يستطعمني الحديث أي: يستدعيه مني ويطلبه.

واللِّمَّة، بالتخفيف: جماعة قليلة.

وعَمَس عليهم الخبر، يجوز بالتشديد، ويجوز بالتخفيف، والتشديد يعطي الكثرة ويفيدها، ومعناه أبهم عليهم الخبر، وجعله مظلماً. ليلَ عَمَاس، أي مظلم، وقد عَمَس الليل نفسه بالكسر، إذا أظلم وعَمَسه غيره، وعَمَسَتْ عليه عَمَاساً، إذا أريته أنك لا تعرف الأمر وأنت به عارف.

والأغراض: جمع غَرَض وهو الهدف.

وقوله: «فاقرّوا على مذلة وتأخير مَحَلَّة»، أي أثبتوا على الذل وتأخر المرتبة والمنزلة، أو فافعلوا كذا وكذا.

ونحو قوله **عَلَيْهِ السَّلَام**: «فالموت في حياتكم مقهورين» قول أبي نصر بن ثبّابة: والحسينُ الذي رأى الموت في العِزِّ حياة، والعيش في الذلِّ قتلاً. وقال التّهامي:

وَمَنْ فَاتَهُ نَيْلُ الْعُلَا بِعُلُوبِهِ وَأَقْلَامِهِ فَلْيَبْنِفْهَا بِحُسَامِهِ
فَمَوْتُ الْفَتَى فِي الْعِزِّ مِثْلُ حَيَاتِهِ وَعِيشَتُهُ فِي الذَّلِّ مِثْلُ حِمَامِهِ

أشعار في الإباء والتحريض على الحرب

والأشعار في الإباء والأنف من احتمال الضيم والذل والتحريض على الحرب كثيرة ونحن نذكر منها ما هنا طرفاً، فمن ذلك قول عمرو بن بَرّاقة الهمداني:

وَكَيْفَ يَنَامُ اللَّيْلَ مَنْ جُلُّ مَالِهِ حُسَامٌ كُلُّونَ الْمَلَحِ أَبْيَضُ صَارِمُ
كَذَبْتُمْ وَبَيْتَ اللَّهِ لَا تَأْخُذُونَهَا مِرَاغِمَةٌ مَا دَامَ لِلْسَيْفِ قَائِمُ
وَمَنْ يَطْلُبُ الْمَالَ الْمَمْنَعُ بِالْقَنَا يَعِشُ مَا جَدّاً أَوْ تَخْتَرِمُهُ الْخَوَارِمُ
ومثله:

ومن يطلب المال الممنع بالقنا يعيش ما جَدّاً أو يؤذ فيما يُمارسُ

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٥٥٨٣)، والدارقطني (٤٠٠/١)، وابن عبد البر في «التمهيد» (١٠٨/٢١).

وقال حرب بن مسعر:

عَظَفْتُ عَلَيْهِ الْمُهْرَ عَظْفَةً بَاسِلٍ
فَأَوْجَرْتُهُ لَذَنَ الْكُغُوبِ مَثْقَفًا

وقال الحارث بن الأرقم:

وَمَا ضَاقَ صَدْرِي يَا سُلَيْمَى بِسُخْطِكُمْ
تَرُوكَ لِدَارِ الْخَسَفِ وَالضُّمَيْمِ، مِنْكَرٌ
إِذَا سَامَنِي السُّلْطَانُ ذُلًّا أَبَيْتُهُ

وقال العباس بن مرداس السلمي:

بِأَيِّ قَوَارِسَ لَا يَغْرَى صَوَاهِلَهَا
لَا وَالسَّيْفِ بِأَيْدِينَا مُجَرَّدَةٌ

وقال وهب بن الحارث:

لَا تَحْسَبْنِي كَأَقْوَامٍ عَبَثَتْ بِهِمْ
لَا تُعَلِّقْنِي قِذَاءَ لَسْتُ فَاعِلَهَا
فَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنِّي غَيْرُ مُنْتَضِمٍ

وقال المسيب بن علس:

أَبْلِغْ ضَبَّيْعَةً أَنَّ الْبِلَا
وَقَدْ يَقْعِدُ الْقَوْمُ فِي دَارِهِمْ
وَيَرْتَجِلُ الْقَوْمُ حِنْدَ الْهَوَا
وَقَدْ كَانَ سَامَةً فِي قَوْمِهِ
فَسَامُوهُ خَسَفًا فَلَمْ يَرْضَهُ

وقال آخر:

إِنَّ الْهَوَانَ حِمَارُ الْقَوْمِ يَغْرِفُهُ
وَلَا يُقِيمُ عَلَى خَسَفٍ يُرَادُّ بِهِ
هَذَا عَلَى الْخَسَفِ مَشْدُودٌ بِرُمْتِهِ
فَإِنْ أَقَمْتُمْ عَلَى ضَيْمٍ يُرَادُّ بِكُمْ

كَيْمِي وَمَنْ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ يُظْلَمِ
فَخَرَّ صَرِيحًا لِلْيَذِينَ وَلِلْفَمِ

وَلَكِنِّي فِي الْحَادِثَاتِ صَلِيبُ
بَصِيرٌ بِفَعْلِ الْمَكْرُمَاتِ أَرِيبُ
وَلَمْ أَعْطِ خَسَفًا مَا أَقَامَ عَسِيبُ

أَنْ يَقْبَلُوا الْخَسَفَ مِنْ مَلِكٍ وَإِنْ عَظُمَا
لَا كَانَ مِنَّا غَدَاةَ الرُّوعِ مِنْهَزِمَا

لَنْ يَأْنِفُوا الذُّلَّ حَتَّى تَأْنِفَ الْحُمُرُ
وَاحْذَرِ شَبَاتِي فَقَدِمًا يَنْفَعِ الْحَذَرُ^(١)
حَتَّى يَلُوحَ بِبَطْنِ الرَّاحَةِ الشُّعْرُ

دَفِيهَا لَذِي قُوَّةٍ مُفْضَبُ
إِذَا لَمْ يُضَامُوا وَإِنْ أَجْدَبُوا
نَ عَنْ دَارِهِمْ بَعْدَ مَا أَخْصَبُوا
لَهُ مَظْلَعٌ وَلَهُ مَشْرَبُ
وَفِي الْأَرْضِ عَنْ ضَيْمِهِمْ مَهْرَبُ

وَالْحَرُّ يَنْكُرُهُ وَالرَّسْلَةُ الْأَجْدُ
إِلَّا الْأَذْلَانِ غَيْرُ الْحَيِّ وَالْوَيْدُ
وَذَا يُشْجُ فَلَا يَأْوِي لَهُ أَحَدُ
فَإِنْ رَخِلِي لَهُ وَالِ وَمُفْتَمَدُ

(١) الشبابة: طرف السيف وحده. اللسان، مادة (شبو).

وفي البلاد إذا خفت بادرة
وقال بعض بني أسد:
إنني امرؤ من بني حزيمة لا
لست بمسقط ظلامة أبداً
دخل مويلك السدوسي إلى البصرة يبيع إبلاً، فأخذ عامل الصدقة بعضها فخرج إلى البادية
وقال:

ناق إنني أرى المقام على الضيم
قد أراني ولي من العامل النض
وقال يزيد بن مفرغ الحميري:

لا ذعرت السوام في قلق الضب
يوم أغطي من المخافة ضيماً
وقال آخر:

لا تحسبني يا أما
إنني إذا خفت الهوا
مثله قول عنترة:

ذل رگابی حيث شئت مشايحي
وقال آخر:

أخشية الموت دز دركم
إننا لعمر الإله نأبى الذي قا
نقبل ضيماً ونحن نغرقه
وقال آخر:

ورب يوم حبست النفس مكرهه
أبى وأنف من أشياء أخذها
مثله للشداخ:

أبيناً فلا نغطي مليكاً ظلامة
ولا حساماً بنهر العين لمحة
ولا شوقه إلا الوشيج المقوما
كصاعقة في عارض قد تبسما

(١) الأسل: الرماح والنبيل. القاموس، مادة (أسل).

من هم أباة الضيم؟

سيد أهل الإباء، الذي علم الناس الحمية والموت تحت ظلال السيوف، اختياراً له على الدنيا، أبو عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام، غرض عليه الأمان وأصحابه، فأيف من الذل، وخاف من ابن زياد أن يناله بنوع من الهوان إن لم يقتله، فاختار الموت على ذلك. وسمعت النقيب أبا زيد يحيى بن زيد العلوي البصري، يقول: كان أبيات أبي تمام في محمد بن حميد الطائي ما قلت إلا في الحسين عليه السلام:

وَقَدْ كَانَ قَوْتُ الْمَوْتِ سَهْلًا فَرْدَةً إِلَيْهِ الْحِفَاظُ الْمُرُّ وَالْخَلْقُ الْوَعْرُ
وَنَفْسٌ تَعَاظُ الضَّيْمَ حَتَّى كَانَتْ هُوَ الْكَفَرُ يَوْمَ الرُّوْعِ أَوْ دُونَهُ الْكُفَرُ
فَأَثَبَتْ فِي مُسْتَنْقِعِ الْمَوْتِ رِجْلَهُ وَقَالَ لَهَا: مَنْ تَحْتَ أَخْمَصِكَ الْحَشْرُ
تَرَدَّى ثِيَابَ الْمَوْتِ حُمْرًا فَمَا أَتَى لَهَا اللَّيْلُ إِلَّا وَهِيَ مِنْ سُندُسٍ خُضْرُ
لَمَّا فَرَّ أَصْحَابُ مَصْعَبَ عَنْهُ، وَتَخَلَّفَ فِي تَفْرِيسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، كَسَرَ جَفْنَ سَيْفِهِ، وَأَنشَدَ:
فَإِنَّ الْأَلَى بِالطُّفِّ مِنْ آلِ هَاشِمٍ تَأَسَّوْا فَسَنُوتُوا لِلْكَرَامِ الثَّاسِيَا
فَعَلِمَ أَصْحَابُهُ أَنَّهُ قَدْ اسْتَقْتَلَ.

ومن كلام الحسين عليه السلام يوم الطف، المنقول عنه، نقله عنه زين العابدين علي ابنه عليه السلام: «ألا وإن الدعي ابن الدعي، قد خيّرنا بين اثنتين: السّلة أو الذّلة، وهيهات مِنّا الذّلة! يا بى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون، وحجور طابث، وحجر طهّرت، وأنوف حمية، ونفوس أبية». وهذا نحو قول أبيه عليه السلام: «قد ذكرناه فيما تقدم: «إنّ امرأ أمكن عدواً من نفسه، يعرق لحمه، ويفري جلده، ويهشم عظمه، لعظيم عجزه، ضعيف ما ضمت عليه جوانح صدره، فكن أنت ذاك إن شئت، فأما أنا فدون أن أعطي ذلك ضرباً بالمشرفة تطير منه فراش الهام، وتطيح السواعد والأقدام».

وقال العباس بن مرداس السلمي:

مقال امرئ يهدي إليك نصيحة إذا معشر جادوا بعرضك فابخل
وإن بوؤوك منزلاً غير طائل غليظاً فلا تنزل به وتحول
ولا تظعن ما يعلفونك إنهم أتوك على قرباهم بالمشمل^(١)

(١) المشمل: السّم المقوى بالسلع وهو شجر مر. اللسان، مادة (ثمل).

أراك إذا قد صرت للقوم ناضحاً يقال له بالغرب أذير وأقبل
فخذها فليست للعزیز بخطّة وفيها مقام لامرئٍ مثذل
وله أيضاً:

فحارب فإن مولاك حارد نضره ففي السيف مولى نصره لا يحارده^(١)
وقال مالك بن حريم الهمداني:

وكننت إذا قوم غزوني غزوتهم فهل أنا في ذا يال همدان ظالم
متى تجمع القلب الذكي وصارماً وأنفاً حمياً تجتنبك المظالم
وقال رشيد بن رميض العتري:

باتوا نياما وابن هند لم ينم بات يقاسيها غلام كالزلم^(٢)
خدلج الساقين خفاق القدم قد لقا الليل بسواق حطم^(٣)
ليسع براعي إبل ولا غنم ولا بجزار على ظهر وضم
من يلقني يسود كما أودت إرم

وقال آخر:

ولست بمبتاع الحياة بسبة ولا مرقى من خشية الموت سلماً
ولما رأيت الود ليس بنافعي همدت إلى امرئ الذي كان أخزماً

ومن أباة الضيم يزيد بن المهلب، كان يزيد بن عبد الملك يشنؤه قبل خلافته، لأسباب ليس هذا موضع ذكرها، فلما أفضت إليه الخلافة، خلعه يزيد بن المهلب، ونزع يده من طاعته، وعلم أنه إن ظفر به قتله وناله من الهوان ما القتل دونه، فدخل البصرة ومكها عتوة، وحبس عدي بن أرطاة عامل يزيد بن عبد الملك عليها، فسرح إليه يزيد بن عبد الملك جيشاً كثيفاً، ويشتمل على ثمانين ألفاً من أهل الشام والجزيرة، وبعث مع الجيش أخاه مسلمة بن عبد الملك، وكان أعرف الناس بقيادة الجيوش وتديرها، وأيمن الناس نقيبة في الحرب، وضم إليه ابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك، فسار يزيد بن المهلب من البصرة، فقدم واسط، فأقام بها أياماً، ثم سار عنها فتزل العقر، واشتملت جريدة جيشه على مائة وعشرين ألفاً، وقدم مسلمة بجيوش الشام، فلما تراءى العسكران، وشبت الحرب، أمر مسلمة قائداً من

(١) حارد: متعج معتزل. القاموس، مادة (حرد).

(٢) الزلم: القدح الذي لا ريش عليه. اللسان، مادة (زلم).

(٣) خدلج الساقين: عظيمهما. اللسان، مادة (خدلج).

قَوَّاهُ أَنْ يَحْرِقَ الْجُسُورَ الَّتِي كَانَ عَقَّدَهَا يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ فَأَحْرَقَهَا، فَلَمَّا رَأَى أَهْلُ الْعِرَاقِ الدِّخَانَ قَدْ عَلَا انْهَزَمُوا، فَقِيلَ لِيَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ: قَدْ انْهَزَمَ النَّاسُ، قَالَ: وَمِمَّ انْهَزَمُوا؟ هَلْ كَانَ قِتَالُ يَنْهَزِمُ النَّاسُ مِنْ مِثْلِهِ؟ فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ مُسْلِمَةَ أَخْرَقَ الْجُسُورَ فَلَمْ يَشْتَوْا، فَقَالَ: قَبِّحَهُمُ اللَّهُ! بَقِيَ دُخْنٌ عَلَيْهِ فُطَارًا ثُمَّ وَقَفَ وَمَعَهُ أَصْحَابُ، فَقَالَ: اضْرِبُوا وَجُوهَ الْمُنْهَزِمِينَ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ حَتَّى كَثُرُوا عَلَيْهِ، وَاسْتَقْبَلَهُ مِنْهُمْ أَمْثَالُ الْجِبَالِ، فَقَالَ: دَعُوهُمْ قَبِّحَهُمُ اللَّهُ! غَنَمٌ عَدَا فِي نَوَاحِيهَا الذُّئْبُ. وَكَانَ يَزِيدٌ لَا يَحْدِثُ نَفْسَهُ بِالْفِرَارِ، وَقَدْ كَانَ أَتَاهُ يَزِيدُ بْنُ الْحَكَمِ بْنِ أَبِي الْعَاصِ الثَّقَفِيُّ بِوَسْطٍ، فَقَالَ لَهُ:

فَعِشْ مَلِكًا أَوْ مِثْ كَرِيمًا فَإِنْ تَمَتَّ وَسَيْفُكَ مَشْهُورٌ بِكَفِّكَ تُغْذِرُ
فَقَالَ: مَا شَعَرْتُ، فَقَالَ:

إِنْ بَنِي مِرْوَانَ قَدْ بَادَ مَلِكُهُمْ فَإِنْ كُنْتَ لَمْ تَشْعُرْ بِذَلِكَ فَاشْعُرْ
فَقَالَ: إِمَّا هَذَا فَعَسَى. فَلَمَّا رَأَى يَزِيدُ انْهَزَامَ أَصْحَابِهِ، نَزَلَ عَنْ فَرَسِهِ، وَكَسَرَ جَنْفَ سَيْفِهِ وَاسْتَقْتَلَ. فَأَتَاهُ آتٍ فَقَالَ: إِنْ أَخَاكَ حَيًّا قَدْ قُتِلَ، فَزَادَهُ ذَلِكَ بَصِيرَةً فِي تَوَطُّبِهِ نَفْسَهُ عَلَى الْقَتْلِ، وَقَالَ: لَا خَيْرَ فِي الْعِيشِ بَعْدَ حَيِّبٍ، وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ أَبْغَضُ الْحَيَاةَ بَعْدَ الْهَزِيمَةِ، وَقَدْ أَزْدَدْتُ لَهَا بَغْضًا، امْضُوا قُدُّمًا. فَعَلِمَ أَصْحَابُهُ أَنَّهُ مَسْتَمِيتٌ، فَتَسَلَّلَ عَنْهُ مَنْ يَكْرَهُ الْقِتَالَ، وَبَقِيَ مَعَهُ جَمَاعَةٌ خَشِيَّةٌ، فَهُوَ يَتَقَدَّمُ كُلَّمَا مَرَّ بِخَيْلٍ كَشَفَهَا، وَهُوَ يَقْصِدُ مُسْلِمَةَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ لَا يَرِيدُ غَيْرَهُ، فَلَمَّا دَنَا مِنْهُ، أَدْنَى مُسْلِمَةُ فَرَسَهُ لِيَرْكَبَ، وَحَالَتْ خَيْوَلُ أَهْلِ الشَّامِ بَيْنَهُمَا، وَعَظِفَتْ عَلَى يَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ، فَجَالَدَهُمُ بِالسَّيْفِ مُصَلَّتًا حَتَّى قَتَلَ وَخِيلَ رَأْسَهُ إِلَى مُسْلِمَةَ، وَقَتَلَ مَعَهُ أَخُوهُ مُحَمَّدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ. وَكَانَ أَخُوهُمَا الْمَفْضِلُ بْنُ الْمُهَلَّبِ يُقَاتِلُ أَهْلَ الشَّامِ فِي جِهَةٍ أُخْرَى، وَلَا يَعْلَمُ بِقَتْلِ أَخُوَيْهِ يَزِيدَ وَمُحَمَّدٍ، فَأَتَاهُ أَخُوهُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنُ الْمُهَلَّبِ، وَقَالَ لَهُ: مَا تَصْنَعُ وَقَدْ قَتَلَ يَزِيدَ وَمُحَمَّدٌ، وَقَبِلَهُمَا قَتَلَ حَيِّبٍ، وَقَدْ انْهَزَمَ النَّاسُ!

وَقَدْ رَوَى أَنَّهُ لَمْ يَأْتِهِ بِالْخَبَرِ عَلَى وَجْهِهِ، وَخَافَ أَنْ يُخْبِرَهُ بِذَلِكَ فَيَسْتَقْتَلَ وَيُقَتَلَ، فَقَالَ لَهُ: إِنَّ الْأَمِيرَ قَدْ انْحَدَرَ إِلَى وَاسِطٍ، فَاقْتَصَرَ أَثَرُهُ، فَانْحَدَرَ الْمَفْضِلُ حِينَئِذٍ، فَلَمَّا عَلِمَ بِقَتْلِ إِخْوَتِهِ حَلَفَ أَلَّا يَكْلِمَ أَخَاهُ عَبْدِ الْمَلِكِ أَبَدًا: وَكَانَتْ عَيْنُ الْمَفْضِلِ قَدْ أَصِيبَتْ مِنْ قَبْلِ فِي حَرْبِ الْخَوَارِجِ، فَقَالَ: فَضَحَنِي عَبْدُ الْمَلِكِ فَضَحَهُ اللَّهُ! مَا عَذْرِي إِذَا رَأَى النَّاسُ فَقَالُوا: شَيْخُ أَعُورٍ مَهْزُومٍ، أَلَا صَدَقْتَنِي فَقَتَلْتَنِي! ثُمَّ قَالَ:

وَلَا خَيْرَ فِي طَغْنِ الصَّنَادِيدِ بِالْقَنَاءِ وَلَا فِي لِقَاءِ النَّاسِ بَعْدَ يَزِيدَ

فَلَمَّا اجْتَمَعَ مَنْ بَقِيَ مِنْ آلِ الْمُهَلَّبِ بِالْبَصْرَةِ بَعْدَ الْكُسْرَةِ، أَخْرَجُوا عَدِيَّ بْنَ أَرْطَاةَ أَمِيرَ الْبَصْرَةِ مِنَ الْحَبْسِ، فَقَتَلُوهُ وَحَمَلُوا عِيَالَهُمْ فِي السَّفَنِ الْبَحْرِيَّةِ، وَلَجَّحُوا فِي الْبَحْرِ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مُسْلِمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بَعْثًا عَلَيْهِ قَائِدٌ مِنْ قَوَّاهُ، فَأَدْرَكَهُمْ فِي قَنْدَائِيلَ، فَحَارِبَهُمْ وَحَارِبُوهُ، وَتَقَدَّمَ

بنو المهلب بأسيا فهم، فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم، وهم: المفضل بن المهلب، وزيد بن المهلب، ومروان بن المهلب، وعبد الملك بن المهلب، ومعاوية بن يزيد بن المهلب، والمنهال بن أبي عيينة بن المهلب، وعمرو والمغيرة ابنا قيصة بن المهلب. وحملت رؤوسهم إلى مسلمة بن عبد الملك، وفي أذن كل واحد منهم رقعة فيها اسمه، واستؤسر الباقون في الوقعة، فحملوا إلى يزيد بن عبد الملك بالشام، وهم أحد عشر رجلاً، فلما دخلوا عليه قام كثير بن أبي جمعة، فأنشد:

حَلِيمٌ إِذَا مَا نَالَ عَاقِبَ مُجَمِلًا أَشَدَّ الْعِقَابِ أَوْ عَفَا لَمْ يُثَرِّبِ
فَعَفُوا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَجِسْبَةً فَمَا تَأْتِيهِ مِنْ صَالِحٍ لَكَ يَكْتَبِ
أَسَاؤُوا فَإِنْ تَصَفَّحَ فَإِنَّكَ قَادِرٌ وَأَفْضَلُ حِلْمٍ حَسْبُهُ حِلْمٌ مَغْضَبِ

فقال يزيد: أظنت^(١) بك الرحم يا أبا صخر! لولا أنهم قدحوا في الملك لعفوت عنهم، ثم أمر بقتلهم فقتلوا، وبقي منهم صبي صغير، فقال: اقتلوني فلست بصغير، فقال يزيد بن عبد الملك: انظروا هل أنبت! فقال: أنا أعلم بنفسي، قد احتلمت ووطئت النساء فاقتلوني، فلا خير في العيش بعد أهلي! فأمر به فقتل.

قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: وأسماء الأسارى الذين قتلوا صبراً - وهم أحد عشر مهلياً: المَعَارِكُ وعبد الله والمغيرة والمفضل والمنجاب بنو يزيد بن المهلب. وذريد والحجاج وغسان وشبيب والفصل بنو المفضل بن المهلب لصلبه. والفصل بن قيصة بن المهلب. قال: ولم يبق بعد هذه الوقعة الثانية لأهل المهلب باقية إلا أبو عيينة بن المهلب. وعمر بن يزيد بن المهلب، وعثمان بن المفضل بن المهلب، فإنهم لحقوا برثيل، ثم أمِنُوا بعد ذلك.

وقال الرضي الموسوي رحمه الله تعالى:

أَلَا لِيْلَهُ بِأَوْدَةِ الظَّلَالِ وَعَزَمَ لَا يُرَوِّغُ بِالْمِثَابِ
وَكُلَّ مَشْتَرِ الْجُرْقَيْنِ يَهْوِي هَوِيَّ الْمَصْلَكَاتِ إِلَى الرِقَابِ
أَعَانِيْبُهُ عَلَى بُغْدِ التَّنَائِي فَيَعْمِدُنِي عَلَى قُرْبِ الْإِيَابِ
رَأَيْتُ الْعَجْزَ يَخْضَعُ لِلْيَالِي وَيَرْضَى عَنْ نَوَائِبِهَا الْغَضَابِ
وَأَمَلُ أَنْ تَطَاوَعَنِي اللَّيَالِي وَيَنْشَبُ فِي الْمُنَى ظَفَرِي وَنَابِي
وَلَوْ لَا صَوْلَةُ الْأَقْدَارِ دُونِي فَجَمْتُ عَلَى الْعُلَا مِنْ كُلِّ بَابِ

(١) أظنت: صرحت. القاموس، مادة (أظط).

وقال أيضاً:

لا يُبِيدُ الهمومَ إلا غلامٌ
ما يُذِلُّ الزَّمانُ الفقيرُ حُرّاً

وقال أيضاً رحمه الله تعالى:

وَلَسْتُ أَضِلُّ فِي طَرِيقِ الْمَعَالِي
وَدُونَ الْمَجْدِ رَأْيٌ مُسْتَطِيلٌ
وَيُفْجِئُنِي الْبِعَادُ كَأَنِّ قُلُوبِي
فَرِدَ نَهْيُ الْعِلَاءِ بِلا رَقِيبٍ
وَلَا تُفَرِّكُ قَفَقَعَةُ الْأَعَادِي
وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالدُّنْيَا وَلَكِنْ

وقال حارثة بن بدر الغداني:

أَهَانُ وَأَقْصَى ثُمَّ يَنْتَصِحُونَنِي
رَأَيْتُ أَكْفَ الْمُصَلِّتِينَ عَلَيْكُمْ
مَتَى تَسْأَلُونِي مَا عَلَيَّ وَتَمْنَعُوا الـ
وقال بعض الخوارج:

تُعَيِّرُنِي بِالْحَرْبِ عِرْسِي وَمَا ذَرْتُ
لَحَا اللَّهَ قَوْماً يَفْعُدُونَ وَعِنْدَهُمْ
وقال الأعشى:

أَبَا الْمَوْتِ تَحْشَتُنِي عِبَادُ وَإِنَّمَا
وَمَا مَوْتُهُ إِنْ مِثْلُهَا غَيْرُ عَاجِزٍ
وقال آخر:

فَلَا أَسْمَعَنَّ فِيكُمْ بِأَمْرِ مُضِيمٍ
فَإِنَّ السِّنَانَ يَرْكَبُ الْمَرْءُ حَذَاهُ
ومثله:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تُنْصَفْ أَخَاكَ وَجَدْتَهُ

يَرْكَبُ الْهَوْلَ وَالْحُسَامُ رَدِيفُ
كَيْفَمَا كَانَ فَالشَّرِيفُ شَرِيفُ

وَنَارُ الْعِزِّ عَالِيَةُ الشُّعَاعِ
وَيَبَاعُ غَيْرُ مَجْبُوبِ السُّدَّاعِ
يَحْدُثُ عَنْ عَدِيِّ بْنِ الرَّقَّاعِ
وَشَمَّرَ فِي الْأُمُورِ بِسَلَا نِزَاعِ
فَذَاكَ الْمُخَرَّجُ خَرٌّ مِنَ الْيَفَاعِ^(١)
تُخَيِّرُ الْقَطُوفُ عَلَى الْوَسَاعِ

وَمَنْ ذَا الَّذِي يُعْطِي نَصِيحَتَهُ قَسَراً
مَلَأَ وَكَفَى مِنْ عَطَائِكُمْ وَصَفِراً
لِذِي لِي، لَا أَسْتَطِيعُ فِي ذَلِكَ صَبْراً

بَأْتِي لَهَا فِي كُلِّ مَا أَمَرْتُ ضِدَّ
سُيُوفٍ وَلَمْ يَعْصِبْ بِأَيْدِيهِمْ قِدَّ

رَأَيْتُ مَنَايَا الْقَوْمِ يَسْقَى دَلِيلُهَا
بِعَارٍ إِذَا مَا غَالَتِ النَّفْسُ غَوْلُهَا

وَضِيمٌ وَلَا تَسْمَعُ بِهِ هَامَتِي بَغْدِي
مِنَ الضِّيمِ، أَوْ يَعْدُو عَلَى الْأَسَدِ الْوَرْدِ

عَلَى طَرَفِ الْهَجْرَانِ إِنْ كَانَ يَغْفُلُ

(١) اليفاع: ما ارتفع من الأرض. اللسان، مادة (يفع).

وَتَرْكَبُ حَدَّ السَّيْفِ مِنْ أَنْ تُضَيِّمَهُ
وقال آخر:

كَرِهُوا الْمَوْتَ فَاسْتُجِيعَ جَمَاهُمْ
أَمِنَ الْمَوْتَ تَهْرَبُونَ فَلِنْ أَلِ
وقال بشامة بن الغدير:

وَإِنَّ الَّتِي سَامَكُمُ قَوْمَكُمُ
أَخْزَيْتُ الْحَيَاةَ وَكَرِهَ الْمَمَاتَ
فَلِنْ لَمْ يَكُنْ غَيْرُ أَحَدَاهُمَا
وَلَا تَقْفُدُوا وَبِكُكُمْ مِنْنَا
فَمُ جَعَلُوها عَلَيْكُمْ عُذُولاً
فَكَلَّا أَرَاهُ طَعَاماً وَبَيْلاً
فَسِيرُوا إِلَى الْمَوْتِ سَيْرَ جَمِيلٍ
كَفَى بِالْحَوَادِثِ لِلْمَرْءِ عُزُولاً

قال يزيد بن المهلب في حرب جرجان لأخيه أبي عيينة: ما أحسن منظرٍ رأيت في هذه الحرب؟ قال: سيف بن أبي سبرة ويضته، وكان عبد الله بن أبي سبرة حمل على غلام تركي قد أفرج الناس له، وصدوا عنه لبأسه وشجاعته، فتضاربا ضربتين، فقتله ابن أبي سبرة بعد أن ضربه التركي في رأسه، فنشب سيفه في بيضة ابن أبي سبرة، فعاد إلى الصف وسيفه مصبوغ بدم التركي وسيف التركي ناشب في بيضته كجزء منها يلمع، فقال الناس: هذا كوكب الذنب، وعجبوا من منظره.

وقال هذبة بن خشرم:

وَإِنِّي إِذَا مَا الْمَوْتُ لَمْ يَكْ دُونَهُ
وَلَكِنِّي أَغْطِي الْحَفِيفَةَ حَقُّهَا
وقال آخر:

إِنِّي أَنَا الْمَرْءُ لَا يُغْضِي عَلَى تِرَةٍ
أَلْقَى الْمَنِيَّةَ خَوْفًا أَنْ يَقَالَ فَشَى
وقال آخر:

قَوْضُ خِيَامِكَ وَالتَّوَسُّمُ بَلَدًا
أَوْ شِدَّةُ بَيْهَسٍ فَمَسَى
تنأى عن الغاشيك بالظلم
أَنْ يَتَّقُوكَ بِصَفْحَةِ السُّلَمِ

استنصر سبيع بن الخطيم التيمي من بني تيم اللات بن ثعلبة زيد الفوارس الضبي فنصره،

فقال:

نَبَّهْتُ زَيْدًا فَلَمْ أَفْزَعْ إِلَى وَكَلٍ رَثَّ السِّلَاحَ وَلَا فِي الْحَيِّ مَغْمُورٍ
سَأَلْتُ عَلَيْهِ شِعَابُ الْحَيِّ حِينَ دَعَا أَنْصَارَهُ بِوَجْهِهِ كَالذَّنَانِيرِ
وَقَالَ أَبُو طَالِبٍ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ:

كَذَبْتُمْ وَبَيْتَ اللَّهِ تُخْلِي مُحَمَّدًا وَلَمَّا نَطَاعِنُ دُونَهُ وَنُنَاضِلِ
وَنُنْصُرُهُ حَتَّى نُصْرِعَ حَوْلَهُ وَنَذْهَلَ عَنْ أَبْنَائِنَا وَالْحَلَائِلِ

لما برز عليّ وحمزة وعبيدة عليه السلام يوم بَدْرَ إِلَى عُتْبَةَ وَشَيْبَةَ وَالْوَلِيدَ، قَتَلَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْوَلِيدَ، وَقَتَلَ حَمْزَةُ شَيْبَةَ، عَلَى اخْتِلَافٍ فِي رَوَايَةِ ذَلِكَ: هَلْ كَانَ شَيْبَةُ قَرْنَةً أَمْ عُتْبَةُ؟ وَتَجَالَدَ عُبَيْدَةُ وَعُتْبَةُ بِسَيْفِهِمَا، فَجَرَحَ عُبَيْدَةُ عُتْبَةَ فِي رَأْسِهِ، وَقَطَعَ عُتْبَةُ سَاقَ عُبَيْدَةَ، فَكَرَّ عَلِيٌّ وَحَمْزَةُ عَلَيْهِمَا السَّلَامَ عَلَى صَاحِبَيْهِمَا، فَاسْتَنْقَذَاهُ مِنْ عُتْبَةَ، وَخَبَطَاهُ بِسَيْفَيْهِمَا حَتَّى قَتَلَاهُ وَاحْتِمَلَا صَاحِبَيْهِمَا، فَوَضَعَاهُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْعَرِيشِ، وَهُوَ يَجُودُ بِنَفْسِهِ، وَإِنْ مَخَّ سَاقُهُ لَيْسِيلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ كَانَ أَبُو طَالِبٍ حَيًّا لَعَلِمَ أَنِّي أَوْلَى مِنْهُ بِقَوْلِهِ:

كَذَبْتُمْ وَبَيْتَ اللَّهِ تُخْلِي مُحَمَّدًا وَلَمَّا نَطَاعِنُ دُونَهُ وَنُنَاضِلِ
وَنُنْصُرُهُ حَتَّى نُصْرِعَ حَوْلَهُ وَنَذْهَلَ عَنْ أَبْنَائِنَا وَالْحَلَائِلِ
فَبَكَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي يَا اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعَصَابَةُ لَا تُعْبَدُ فِي الْأَرْضِ»^(١).

لما قدم جيش الحرّة إلى المدينة، وعلى الجيش مُسْلِمُ بْنُ عَقْبَةَ الْمُرِّي، أَبَاحَ الْمَدِينَةَ ثَلَاثًا، وَاسْتَعْرَضَ أَهْلَهَا بِالسَّيْفِ جَزْرًا كَمَا يَجْزُرُ الْقَضَابُ الْغَنَمَ، حَتَّى سَاخَتْ الْأَقْدَامُ فِي الدَّمِ، وَقَتَلَ أَبْنَاءَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَذُرِّيَّةَ أَهْلِ بَدْرٍ، وَأَخَذَ الْبَيْعَةَ لِيَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ عَلَى كُلِّ مَنْ اسْتَبَقَاهُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، وَعَلَى أَنَّهُ عَبْدٌ قَنٌّ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ. هَكَذَا كَانَتْ صُورَةُ الْمُبَايَعَةِ يَوْمَ الْحَرَّةِ، إِلَّا عَلِيٌّ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فَإِنَّهُ أَعْظَمُهُ وَأَجْلَسُهُ مَعَهُ عَلَى سَرِيرِهِ، وَأَخَذَ يَبِيعُهُ عَلَى أَنَّهُ أَخُو أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ وَابْنُ عَمِّهِ، دَفْعًا لَهُ عَمَّا بَايَعَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، وَكَانَ ذَلِكَ بَوْصَاةً مِنْ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ لَهُ، فَهَرَبَ عَلِيٌّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ رَحِمَهُ اللَّهُ

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي الْجِهَادِ وَالسَّيْرِ، بَابُ: الْإِمْدَادُ بِالْمَلَائِكَةِ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ (١٧٦٣)، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ بَابُ: وَمِنْ سُورَةِ الْأَنْفَالِ (٣٠٨١)، وَأَحْمَدُ فِي مُسْنَدِ الْعَشْرَةِ الْمُبَشِّرِينَ بِالْجَنَّةِ، بَابُ: أَوَّلُ مُسْنَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (٢٠٨).

تعالى إلى أخواله من كُندة، فحمّوه من مُسلم بن عقبة، وقالوا: لا يبايع ابنُ أختنا إلا على ما يبيع عليه ابنُ عمه عليّ بن الحسين، فأبى مسلم بن عقبة ذلك، وقال: إني لم أفعل ما فعلت إلا بوصاية أمير المؤمنين، ولولا ذلك لقتلته، فإن أهل هذا البيت أجدرُ بالقتل، أو لأخذت بيعته على ما أخذت عليه بيعة غيره. وسَفَر السُّفراء بينه وبينهم، حتى وقع الاتفاق على أن يبايع ويقول: أنا أبايع لأمير المؤمنين يزيد بن معاوية، وألتزم طاعته، ولا يقول غير ذلك. فقال عليّ بن عبد الله بن العباس:

أبى العباسُ رأسُ بني قصي وأخوالي المُلوك بَنُو وَلِيعة
هُمُ منعموا ذِماري يوم جاءت كتائبُ مُسرفٍ وبَنُو اللَّكِيعة^(١)
أراد بيّ السّي لا عِرْ فيها فحالت دونه أيدٍ مَنِيعة

مُسرف كناية عن مُسلم، وأم عليّ بن عبد الله بن العباس زُرعة بنت مشرَح بن معدي كَرَب بن وليعة بن شُرَخيّل بن معاوية بن كُندة.

قال الحُصين بن الحمام:

وَلَسْتُ بِمَبْتَاعِ الحَيَاةِ بِسَبَّةٍ وَلَا مُرْتَقِي مِنْ خَشْيَةِ المَوْتِ سُلْمًا
تَأَخَّرْتُ أَسْتَبْقِي الحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْ لِنَفْسِي حَيَاةً مِثْلَ أَنْ أَتَقَدَّمَ
فَلَسْنَا عَلَى الْأَعْقَابِ تَذْمَى كُلُّوْمُنَا وَلَكِنْ عَلَى أَقْدَامِنَا تَقْطُرُ الدِّمَاءُ
نَفْلَقُ هَامًا مِنْ رَجَالٍ أَعَزَّةٍ عَلَيْنَا، وَهُمْ كَانُوا أَعَقَّ وَأَظْلَمًا
أَبَى لَابِنِ سَلَمَى أَنَّهُ غَيْرُ خَالِدٍ مُلَاقِي المَنَايَا أَيَّ صَرْفٍ تَيَمَّمَا
ابن سلمى يعني نفسه، وسلمى أمه.

وقال الطرمّاح بن حكيم:

وَمَا مُنِعَتْ دَارٌ وَلَا عَرٌّ أَهْلُهَا مِنَ النَّاسِ إِلَّا بِالْقَنَاءِ وَالْقَنَابِلِ
وقال آخر:

وإن السّي حدثتها في أنوفنا وأعناقنا من الأباء كما هميا
وقال آخر:

فإن تَكُنِ الأَيَّامُ فِينَا تَبَدَّلَتْ ببؤسِي ونُغمِي والحَوَادِثُ تَفَعَّلْ
فَمَا لِيُنْتِ مِنْ قَنَاءٍ صَلِيبَةٍ وَلَا ذَلِّثْنَا لِلتّي ليس تَجْمَلْ

(١) الذمار: هو كل ما يلزم الرجل حفظه وحياطته وحمايته والدفع عنه وإن ضيعه لزمه اللوم. اللسان، مادة (ذمر).

وَلَكِنْ رَحَلْنَاهَا نُفُوساً كَرِيماً تَحْمِلُ مَا لَا يَسْتَطَاعُ فَتَحْمِلُ
وقال آخر:

إِذَا جَانِبٌ أَعْيَاكَ فَاعْمِدْ لَجَانِبٍ فَإِنَّكَ لَا قِيَّ فِي الْبِلَادِ مَعُولَا
وقال أبو النشاش:

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَسْرَحْ سَوَاماً وَلَمْ يُرَخَّ سَوَاماً وَلَمْ تَغْلُظْ عَلَيْهِ أَقَارِبُهُ
فَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ لِلْفَتَى مِنْ قُعُودِهِ عَدِيماً وَمِنْ مَوْلَى تَدِبُ عَقَارِبُهُ
وَلَمْ أَرْ مِثْلَ الْهَمِّ ضَاغِجَةً الْفَتَى وَلَا كَسَوَادِ اللَّيْلِ أَخْفَقَ طَالِبُهُ
فَيْشْ مَعْدِماً أَوْ مِثْ كَرِيماً فَإِنِّي أَرَى الْمَوْتَ لَا يَنْجُو مِنَ الْمَوْتِ هَارِبُهُ

وفد يحيى بن عروة بن الزبير على عبد الملك، فجلس يوماً على بابه ينتظر إذنه، فجري ذكر عبد الله بن الزبير، فقال منه حاجب عبد الملك، فلطم يحيى وجهه حتى أذمى أنفه، فدخل على عبد الملك ودمه يجري من أنفه، فقال: مَنْ ضربك؟ قال: يحيى بن عروة، قال: أدخله - وكان عبد الملك متكئاً فجلس - فلما دخل قال: ما حملك على ما صنعت بحاجبي؟ قال: يا أمير المؤمنين، إن عتي عبد الله كان أحسن جواراً لعمتك منك لنا، والله إن كان ليوصي أهل ناحيته أن لا يسمعوها قذعاً^(١)، ولا يذكركم عندها إلا بخير، وإن كان ليقول لها: مَنْ سب أهلك فقد سب أهله، فأنا والله المعتم المخول، تفرقت العرب بين عتي وخالي، فكنت كما قال الأول:

يَذَاهُ أَصَابَتْ هَذِهِ خَشَفَ هَذِهِ فَلَمْ تَجِدِ الْآخِرَى عَلَيْهَا مُقَدِّمًا
فرجع عبد الملك إلى متكئته، ولم يزل يُعرف منه الزيادة في إكرام يحيى بعدها.

وأم يحيى هذه ابنة الحكم بن أبي العاص عمّة عبد الملك بن مروان.

وقال سعيد بن عمر الحرشي أمير خراسان:

فَلَسْتُ لِعَامِرٍ إِنْ لَمْ تَرَوْنِي أَمَامَ الْخَيْلِ أَطْعَنُ بِالْعَوَالِي وَأَضْرِبُ هَامَةً
وَأَضْرِبُ هَامَةَ الْجَبَّارِ مِنْهُمْ بِمَا ضَيَّ الْغَرْبُ حُدُوثَ الصَّقَالِ
فَمَا أَنَا فِي الْحُرُوبِ بِمُسْتَكِينٍ وَلَا أَخْشَى مِصَاوِلَةَ الرِّجَالِ
أَبَى لِي وَالِدِي مِنْ كُلِّ ذِمٍّ وَخَالِي حِينَ يُذَكِّرُ خَيْرُ خَالِ

(١) القذع: الفحش من الكلام الذي يقبح ذكره. اهل لسان العرب، مادة (قذع).

قال عبد الله بن الزبير لما خطب حين أتاه نعي مُصْعَب: أما بعد، فإنه أتانا من العراق خبرٌ أفرحنا وأحزننا، أتانا خبرٌ قتل المصعب، فأما الذي أحزننا فلوعة يجدها الحميم عند فراق حميمه ثم يرعوي بعدها ذو اللَّبِّ إلى حسن الصبر وكرم العزاء.

وأما الذي أفرحنا، فإنَّ ذلك كان له شهادة، وكان وله خيرة، إنا والله ما نموت حبجاً^(١) كما يموت آل أبي العاص، ما نموت إلا قتلاً قَعْصاً بالرماح، وموتاً تحت ظلال السيوف. فإنَّ يهلك المصعب، فإن في آل الزبير لَخَلْفاً.

وخطب مرة أخرى فذكره فقال: لو دُذْتُ والله أنَّ الأرض قاء تُثني عنده حين لفظ غُصَّته وقَضَى نَحْبَهُ.

شعر:

تُخْذِيهِ فَجُرِّيهِ ضُبَاعَ وَأَبْشِرِي بلحم امرئٍ لم يشهد اليوم ناصره
وقال الشَّذاخ بن يعمر الكِنَانِي:

قَاتِلُوا الْقَوْمَ يَا خُزَاعَ وَلَا يَدْخُلُكُمْ مِنْ قِتَالِهِمْ قَتْلُ
الْقَوْمِ أَمْثَالِكُمْ لَهُمْ شَقَرٌ في الرأس لا يُنْشَرُونَ إِنْ قَتَلُوا
وقال يحيى بن منصور الحنفِي:

ولما نأث عَنَّا العَشِيرَةُ كُلُّهَا أَنَحْنَا مُحَالِفْنَا السِّیُوفَ عَلَى الدَّهْرِ
فَمَا أَسْلَمْنَا عِنْدَ يَوْمِ كَرِيهَةٍ وَلَا نَحْنُ أَغْضِيْنَا الْجُفُونَ عَلَى وَثَرِ

قيل لرجل شهد يوم القلَف مع عمر بن سعد: ويحك! أقتلتم ذرية رسول الله ﷺ! فقال: عَضَضْتُ بِالْجَنْدَلِ، إِنَّكَ لَوْ شِهِدْتَ مَا شَهِدْنَا لَفَعَلْتَ مَا فَعَلْنَا، ثَارَتْ عَلَيْنَا عِصَابَةٌ، أَيْدِيهَا فِي مِقَابِضِ سِیُوفِهَا كَالْأَسُودِ الضَّارِيَةِ تَحْطُمُ الْفَرَسَانِ يَمِيناً وَشِمَالاً، وَتُلْقِي أَنْفُسَهَا عَلَى الْمَوْتِ، لَا تَقْبَلُ الْأَمَانَ، وَلَا تَرْغِبُ فِي الْمَالِ، وَلَا يَحُولُ حَائِلُهَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْوُرُودِ عَلَى حِيَاضِ الْمَنِيَةِ، أَوْ الْإِسْتِيلَاءِ عَلَى الْمَلِكِ، فَلَوْ كَفَفْنَا عَنْهَا رَوِيداً لَأَثَّتْ عَلَى نَفُوسِ الْعَسْكَرِ بِحِذَافِيرِهَا، فَمَا كُنَّا فَاعِلِينَ لَا أُمَّ لَكَ!

السَّخَاءُ مِنْ بَابِ الشَّجَاعَةِ، مِنْ بَابِ السَّخَاءِ، لِأَنَّ الشَّجَاعَةَ إِتْفَاقُ الْعَمْرِ وَبِذْلُهُ فَكَانَتْ سَخَاءً، وَالسَّخَاءُ إِقْدَامٌ عَلَى إِتْلَافٍ هُوَ عَدِيلُ الْمَهْجَةِ، فَكَانَ شَجَاعَةً.

(١) قال ابن الأثير: (الحبج بفتح الحاء) هو أكل البعير لحاء العرفج ويسمن عليه وربما بَشِمَ فقتله) اهـ. لسان العرب، مادة (حبج).

أبو تمام في تفضيل الشجاعة على السخاء:

كَمْ بَيْنَ قَوْمٍ إِنَّمَا نَفَقَاتُهُمْ مَالٌ وَقَوْمٌ يُنْفِقُونَ نُفُوسًا
 قيل لشيخنا أبي عبد الله البصري رحمه الله تعالى: أتجد في النصوص ما يدل على تفضيل
 علي عليه السلام بمعنى كثرة الثواب لا بمعنى كثرة مناقبه، فإن ذاك أمر مفروغ منه؟ فذكر حديث
 الطائر المشوي، وأن المحبة من الله تعالى إرادة الثواب. ف قيل له: قد سبقك الشيخ أبو علي
 رحمه الله تعالى إلى هذا، فهل تجد غير ذلك؟ قال نعم قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ
 يُقْتُلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُتِنٌ مَرْصُومٌ﴾^(١)، فإذا كان أصل المحبة لمن ثبت كثبوت
 البنيان المرصوص، فكل من زاد ثباته زادت المحبة له، ومعلوم أن علياً عليه السلام ما قر في زخف
 قط، وفر غيره في غير موطن.

وقال أبو تمام:

السَّيْفُ أَضَدُّ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ
 بِيضُ الصَّفَانِحِ لَا سُودُ الصَّحَائِفِ فِي
 وَالْعِلْمُ فِي شُهْبِ الْأَزْمَاحِ لَامِعَةٌ
 وقال أبو الطيب المتشبي:

حَتَّى رَجَعْتُ وَأَقْلَامِي قَوَائِلُ لِي:
 اكْتُبْ بِنَا أَبَدًا بَعْدَ الْكِتَابِ بِهِ
 أَسْمَعْتَنِي وَدَوَانِي مَا أَشْرْتُ بِهِ
 مَنِ اقْتَضَى بِسُورِ الْهِنْدِيِّ حَاجَتَهُ
 في حَذِّ الْحَذِّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ
 مُتَوْنِهِنَّ جَلَاءَ الشُّكِّ وَالرَّيْبِ
 بَيْنَ الْخَمِيسَيْنِ لَا فِي السَّبْعَةِ الشُّهُبِ
 المجدد للسيف ليس المجدد للقلم
 وإنما نحن للأسياف كالخادم
 فإن غفلت فدائي قللة الفهم
 أجاب كل سؤال عن «هل» بلم

قال عطف بن محمد الألوسي:

أَمْكَابُ الزُّقَرَاتِ مَوْصِلَةٌ
 صَرَفَ مُمُومَكَ تَنْتَدِبُ هِمَامًا
 وَلَيْلَةُ الْمِيلَادِ مَفْرَحَةٌ
 يَزُفُ فِي الْبَلَا تَخْوِضُهَا لَجْجًا
 تَلْتَدُ خُوفِ الْقَطْعِ بِالشُّلَلِ
 فَالْشُّكْرُ يُغْقِبُ نَشْوَةَ الشَّمْلِ
 تُنْسِي الْحَوَامِلَ أَشْهَرَ الْحَبْلِ
 فَالذُّرُّ لَيْسَ يُصَابُ فِي الْوَشْلِ

(١) سورة الصف، الآية: ٤.

واجعل لصبوتك القلباً سَكَنًا
والعيش والوطن الممهد في
واشدُّ عليك وخذ إليك ودغ
وأزم العُدَّة بِكُلِّ صَائِبَةٍ
لَا تَحْسِبِ التَّكَبَّاتِ مَنْقَصَةً
والدُّور أكواراً على الإبل
غَرَبِ الحُسَامِ وَغَارِبِ الجَمَلِ
ضَعَةِ الخُمُولِ وَفَثَرَةِ الكَسَلِ
مَا الرَّمْيُ مَوْقُوفاً عَلَى ثَعْلٍ
قَدْ يُسْتَجَادُ السَّيْفُ بِالْفَلَلِ

وقال عُرْوَةُ بن الورد:

لَحَا اللَّهْ ضَعْلُوكَا إِذَا جَنَّ لَيْلُهُ
يَعُدُّ الْغِنَى مِنْ نَفْسِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ
يَنَامُ عِشَاءً ثُمَّ يُضِيحُ نَاعِيساً
يُعِينُ نِسَاءَ الْحَيِّ مَا يَسْتَمِينُهُ
وَلَكِنْ ضَعْلُوكَا صَفِيحَةً وَجْهَهُ
مِطْلَأٌ عَلَى أَغْدَائِهِ يَزْجُرُونَهُ
وَأَنْ قَعْدُوا لَا يَأْمَنُونَ اقْتِرَابَهُ
فَذَلِكَ إِنْ يَلْقَى الْمِنيَّةَ يَلْقَاهَا
مُصَافِي المُنَاشِ أَلْفَا كُلَّ مَجْزِرٍ
أَصَابَ قِرَاهَا مِنْ صَدِيقٍ مَيَّسِرٍ
يُحْتَ الحَصَا مِنْ جَنْبِهِ الْمُتَعَفِّرِ
وَيُنْسِي طَلِيحاً كَالْبَعِيرِ الْمُخَسِّرِ
كَضَوْءِ شَهَابِ الْقَابِسِ الْمُتَنَوِّرِ^(١)
يَسَاحَتِهِمْ زَجَرَ الْمَنِيحِ الْمُشْهَرِ
تَشَوَّفَ أَهْلُ الْغَائِبِ الْمُتَنَظِّرِ
حَمِيداً وَإِنْ يَسْتَشْفِنِ يَوْمًا فَاجْدِرِ

وقال آخر:

وَلَسْتُ بِمَوْلَى سَوْءَةٍ أَدْعَى لَهَا
وَسِيَانِ عُنْدِي أَنْ أَمُوتَ وَأَنْ أَرَى
وَلَنْ يَجِدَ النَّاسُ الصَّدِيقَ وَلَا الْعِدَا
وَأَنْ نَجَارِي بَابِنَ عَثَمٍ مُخَالِفِ
وَلَسْتُ بِهَيَّابٍ لِمَنْ لَا يَهَابُنِي
إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يُحِبِّكَ إِلَّا تَكْرُهَاً
فَإِنْ لَسَوَاتِ الْأُمُورِ مَوَالِيَاً
كَبَعْضِ رَجَالٍ يُوطِنُونَ الْمُخَازِيَا
أَدِيمِي إِذَا عَدُوا أَدِيمِي وَاهِيَا
نَجَارَ لِنَامٍ فَابْغُنِي مِنْ وَرَائِيَا^(٢)
وَلَسْتُ أَرَى لِلْمَرْءِ مَا لَا يَرَى لِيَا
عِرَاضَ الْعَلُوقِ لَمْ يَكُنْ ذَاكَ بَاقِيَا

(١) القابِس: طالب النار. لسان العرب، مادة (قبس).

(٢) النِّجَار والنُّجَار: الأصل والحسب، واللسان، مادة (نجر).

نهار بن توسة في يزيد بن المهلب:

وَمَا كُنَّا نُوْمِلُ مِنْ أَمِيرٍ كَمَا كُنَّا نُوْمِلُ مِنْ يَزِيدٍ
فَاخْطَا ظَنُّنَا فِيهِ وَقَدْ مَأ زَهْدُنَا فِي مَعَاشِرَةِ الزُّهَيْدِ
إِذَا لَمْ يَمِطْنَا نَصْفًا أَمِيرٌ مَشِينًا نَحْوَ مَشْيِ الْأَسْوَدِ

كان هذبة اليشكري - وهو ابن عم شوذب الخارجي اليشكري - شجاعاً مقداماً، وكان ابن عمه بسطام الملقب شوذباً الخارج في خلافة عمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك، فأرسل إليه يزيد بن عبد الملك جيشاً كثيفاً فحاربه، فانكشفت الخوارج، وثبت هذبة وأبى الفرار، فقاتل حتى قُتل، فقال أيوب بن خولي يرثيه:

يَا هُذْبَ الْهَيْجَا وَيَا هُذْبَ الْبُلْدِي وَيَا هُذْبَ الْخَضَمِ الْأَلْدِي حَارِيهِ
يَا هُذْبَ كَمْ مِنْ مَلَحَمٍ قَدْ أَجَبْتُهُ وَقَدْ أَسْلَمْتُهُ لِلرَّمَاكِ كَتَائِبُهُ
تَزَوَّدَتْ مِنْ دُنْيَاكَ دِرْعًا وَمَغْفَرًا وَعَضْبًا حُسَامًا لَمْ تَخْنِكْ مَضَارِبُهُ
وَأَجْرَدَ مَخْبُوكَ السَّرَاةِ كَأَنَّهُ إِذَا انْفَضَّ وَافَى الرَّيْشَ حُجْنٌ مَخَالِبُهُ

كانت وصايا إبراهيم الإمام وكتبه ترد إلى أبي مسلم بخراسان: إن استطعت ألا تدع بخراسان أحداً يتكلم بالعربية إلا وقتلته فافعل، وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمة فاقتله، وعليك بمضرم، فإنهم العدو القريب الدار، فأبذ خضراهم، ولا تدع على الأرض منهم دياراً.

قال المتنبي:

لَا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الْأَذَى حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَائِبِهِ الدَّمُ
وله:

وَمَنْ عَرَفَ الْأَيَّامَ مَغْرِفَتِي بِهَا وَبِالنَّاسِ رَوَى رُمَحَهُ غَيْرَ رَاجِمٍ
فَلَيْسَ بِمَرْحُومٍ إِذَا ظَفِرُوا بِهِ وَلَا فِي الرَّدَى الْجَارِي عَلَيْهِمْ بَائِمٍ
وقال المتنبي أيضاً:

رِدِّي حَيَاضَ الرَّدَى يَا نَفْسُ وَأَطْرِجِي حَيَاضَ خَوْفِ الرَّدَى لِلشَّاءِ وَالنَّعَمِ
إِنْ لَمْ أَذْرِكْ عَلَى الْأَزْمَاحِ سَائِلَةً فَلَا دُعَيْتُ ابْنَ أُمِّ الْمَجْدِ وَالْكَرَمِ

ومن أباة الضيم قتيبة بن مسلم الباهلي أمير خراسان وما وراء النهر، لم يصنع أحد صنيعه في فتح بلاد الترك، وكان الوليد بن عبد الملك أراد أن ينزع أخاه سليمان بن عبد الملك من العهد بعده، ويجعله في ابنة عبد العزيز بن الوليد، فأجابه إلى ذلك قتيبة بن مسلم وجماعة من الأمراء، فلما مات الوليد قبل إتمام ذلك، وقام سليمان بالأمر بعده - وكان قتيبة أشد الناس في أمر سليمان وخلعه عن العهد - علم أنه سيعزل عن خراسان ويوليها يزيد بن المهلب؛ لو كان بينه وبين سليمان، فكتب قتيبة إليه كتاباً يهته بالخلافة، ويذكر بلاءه وطاعته لعبد الملك وللوليد بعده، وأنه على مثل ذلك إن لم يعزله عن خراسان، وكتب إليه كتاباً آخر يذكره فيه بفتوحه وآثاره، ونكايته في الترك، وعظم قدره عند ملوكهم، وهيبة العجم والعرب له وعظم صيته فيهم، ويذم آل المهلب، ويحلف له بالله: لئن استعمل يزيد بن المهلب على خراسان ليخلعته، وليملأها عليه خيلاً ورجلاً، وكتب كتاباً ثالثاً فيه خلع سليمان، وبعث بالكتب الثلاثة مع رجل من قومه من باهلة يثق به، وقال له: اذفع الكتاب الأول إليه، فإن كان يزيد بن المهلب حاضراً عنده فقرأ الكتاب ثم دفعه إلى يزيد فادفع إليه هذا الثاني، فإن قرأه وألقاه إليه أيضاً فادفع إليه الثالث، وإن قرأ الكتاب الأول ولم يدفعه إلى يزيد، فاحتبس الكتابين الآخرين معك.

فقدّم الرسول على سليمان، ودخل عليه وعنده يزيد بن المهلب، فدفع إليه الكتاب الأول الأول، فقرأ وألقاه إلى يزيد، فدفع إليه الكتاب الثاني، فقرأ وألقاه إلى يزيد أيضاً، فدفع إليه الكتاب الثالث، فقرأه وتغير لونه وطواه، وأمسكه بيده، وأمر بإنزال الرسول وإكرامه، ثم أحضره ليلاً، ودفع إليه جائزته، وأعطاه عهد قتيبة على خراسان، وكان ذلك مكيدة من سليمان يسكنه ليطمئن ثم يعزله، وبعث مع رسوله رسولاً، فلما كان بحلوان بلغه خلع قتيبة سليمان بن عبد الملك، فرجع رسول سليمان إليه، فلما اختلفت العرب على قتيبة حين أبدى صفحته لسليمان، وخلع ربة الطاعة، بايعوا وكيع بن أبي سود التميمي على إمارة خراسان، كانت أمراء القبائل قد تنكرت لقتيبة لإذلاله إياهم، واستهانته بهم واستطالته عليهم، وكرهوا إمارته، فكانتبيعة وكيع في أول الأمر سرّاً، ثم ظهر لقتيبة أمره، فأرسل إليه يدعو، فوجده قد طلاً رجله بمغرة^(١)، وعلق في عنقه خرزاً، وعنده رجلاً يرقيان رجله، فقال للرسول: قد ترى ما برجلي! فرجع وأخبر قتيبة، فأعاده إليه، فقال: قل له ليأتيني محمولاً، قال: لا أستطيع.

فقال قتيبة لصاحب شرطته: انطلق إلى وكيع فأتني به، فإن أبي فاضرب عنقه، وأتني برأسه، ووجهه معه خيلاً. فقال وكيع لصاحب الشرطة: البث قليلاً تلحق الكتاب، وقام فلبس سلاحه، ونادى في الناس فاتوه، فخرج فتلقاء رجل، فقال: ممن أنت؟ فقال: من بني أسد،

(١) المغرة: طين أحمر يصبغ به. اللسان، مادة (مغر).

فقال: ما اسمك؟ فقال ضِرْغام، فقال: ابن مَنْ؟ قال: ابن لَيْث، فتيمن به وأعطاه رايته، وأتاه الناس أرسالاً من كل وجه، فتقدم بهم، وهو يقول:

قَرَمَ إِذَا حُمِّلَ مَكْرُوهَةً شَدَّ الشَّرَاسِيفَ لَهَا وَالْحَزِيمَ^(١)

واجتمع إلى قتيبة أهله وثقاته، وأكثر العرب السُّتْهُمَ له وقلوبهم عليه. فأمر قتيبة رجلاً فنادى: أين بنو عامر؟ وقد كان قتيبة جَفَّاهم في أيام سُلْطَانِهِ - فقال له مَجْفَرُ بْنُ جَزْءِ الْكَلَابِيِّ: نادهم حيث وضعتهم، فقال قتيبة: أنشدكم الله والرحم - وذاك لأن باهلة وعامراً من قيس عيلان - فقال مجفر: أنت قطعتها، قال: فلكم العُتْبَى، فقال مجفر: لا أقالنا الله إذاً، فقال قتيبة:

يَا نَفْسُ صَبْرًا عَلَى مَا كَانَ مِنْ أَلَمٍ إِذْ لَمْ أَجِدْ لِنَفْسُورِ الْعَيْشِ أَقْرَانًا

ثم دعا بيرذون له مَدَرَبَ لِيرْغَبِهِ، فجعل يمنعه الركوب حتى أعيأ. فلما رأى ذلك عاد إلى سريره فجلس، وقال: دعوه، فَإِنَّ هَذَا أَمْرٌ يُرَادُ. وجاء حيان النُّبَطِيُّ - وهو يومئذ أمير الموالي، وعدتهم سبعة آلاف، وكان واجداً على قُتَيْبَةٍ - فقال له عبد الله بن مسلم أخو قتيبة: احمل يا حيان، فقال: لم يأن بعد، فقال له: ناولني قوسك، فقال حيان: ليس هذا بيوم قوس. ثم قال حيان لابنه: إذ رأيته قد حَوَّلَتْ قَلَنْسُوتِي، ومضيت نحو عسكر وكيع، مالت الموالي معه بأسرها، فبعث قتيبة أخاه صالح بن مسلم إلى الناس، فرماه رجل من بني ضَبَّةٍ فأصاب رأسه، فحمل إلى قتيبة ورأسه مائل، فوضعه على مصلاه، وجلس عند رأسه ساعة، وتهايج الناس، وأقبل عبد الرحمن بن مسلم أخو قتيبة نحوه فرماه الغوغاء وأهل السوق فقتلوه، وأشير على قتيبة بالانصراف، فقال: الموتُ أهونُ من الفرار. وأحرق وكيع موضعاً كانت فيه إبل قُتَيْبَةٍ ودوابه، وزحف بمن معه حتى دنا منه، فقاتل دونه رجل من أهله قتالاً شديداً، فقال له قتيبة: انج بنفسك، فَإِنَّ مِثْلَكَ يُضَنُّ بِهِ عَنِ الْقَتْلِ، قال: بشما جَزَيْتُكَ به أيها الأمير إذاً، وقد أطعمتني الجَرْدَقَ^(٢)، وألبستني الثَّمَرِقَ. وتقدم الناس حتى بلغوا قُسطاط قتيبة، فأشار عليه نُصَحَاؤُهُ بالهرب، فقال: إذا لست لمسلم بن عمرو! ثم خرج إليهم بسيفه يجالدهم، فجرح جراحات كثيرة، حتى ارتث وسقط، فأكبوا عليه، فاحترؤا رأسه، وقُتِلَ معه من إخوته عبد الرحمن، وعبد الله، وصالح، والمحسين، وعبد الكريم، ومسلم، وقُتِلَ معه جماعة من أهله وعدة من قتل معه من أهله وإخوته أحد عشر رجلاً. وصعد وكيع بن أبي أسود المنبر وأنشد:

مَنْ يَنْزِلُ الْعَيْرَ يَنْزِلُ نَيْسَاكَ

(١) الشراسيف: جمع شرسوف، وهو غضروف معلق بكل ضلع مثل غضروف الكتف. اللسان، مادة (شرسف).

(٢) الجردق: الرغيف، فارسي معرب. اللسان، مادة (جردق).

إِنْ قَتِيبة أراد قتلي، وأنا قتال الأقران، ثم أنشد:

قَدْ جَرُّونِي ثُمَّ جَرُّونِي مِنْ غُلُوتَيْنِ وَمِنْ أَلْمِيزِينَ
حَتَّى إِذَا شُبْتُ وَشَيَّبُونِي خَلُّوا عَنَانِي ثُمَّ سَيِّبُونِي
حَذَارِ مِنِّي وَتَنَكُّبُونِي فَلَا تُنْسِي رَامَ لِمَنْ يَرْمِينِي

ثم قال: أنا أبو مطرف، يكررها مراراً، ثم قال:

أَنَا ابْنُ خَنْدِفٍ تَنْجِيئِي قِبَائِلَهَا لِلضَّالِّحَاتِ وَعَمِّي قَيْسُ عَيْلَانَا

ثم أخذ بلحيته، وقال: إني لأقتلن ثم لأقتلن ولاصلبن ثم لأصلبن، إن مرزبانكم هذا ابن الزانية، قد أغلى أسعاركم، والله لئن لم يصير القفيز بأربعة دراهم لأصلبته، صلوا على نبيكم.

ثم نزل وطلب رأس قتيبة وخاتمه، فقبل له: إن الأزد أخذته. فخرج مشهراً، وقال: والله الذي لا إله إلا هو لا أبرح حتى أوتي بالرأس، أو يذهب رأسي معه، فقال له الحُصَيْن بن المنذر: يا أبا مطرف فإنك تؤتى به. ثم ذهب إلى الأزد، فأخذ الرأس وأتاه به، فسيّره إلى سليمان بن عبد الملك، فأدخل عليه ومعه رؤوس إخوته وأهله، وعنده الهذيل بن زُقر بن الحارث الكلابي، فقال: أساءك هذا يا هذيل؟ قال: لو ساءني لساء ناساً كثيراً. فقال سليمان: ما أردت هذا كله، وإنما قال سليمان ذلك للهذيل؛ لأن قيس عيلان تجمع كلاباً وباهلة، قالوا: ما ولي خراسان أحد كُتَيْبَة بن مسلم، ولو كانت باهلة في الدناءة والضعة واللوم إلى أقصى غاية، لكان لها بقتيبة الفخر على قبائل العرب.

قال رؤساء خراسان من العجم لما قتل قتيبة: يا معشر العرب، قتلتم قتيبة، والله لو كان مِنَّا ثم مات لجعلناه في تابوت، فكنا نستفتح به إذا غزونا.

وقال الأصمعي: يا معشر العرب، قتلتم قتيبة ويزيد بن المهلب، لقد جئتم شيئاً إذاً فقل له: أيهما كان أعظم عندكم وأهيب؟ قال: لو قتيبة بأقصى حُجْرَة في المغرب مكبلاً بالحديد والقيود، ويزيد معنا في بلدنا وإلينا، لكان قتيبة أهيب في صدورنا وأعظم.

وقال عبد الرحمن بن جمانة الباهلي يرثي قتيبة:

كَانَ أبا حَفْصٍ قُتَيْبَة لَمْ يَسِرْ بِجَيْشٍ إِلَى جَيْشٍ وَلَمْ يَغْلُ مِنْبَرًا
وَلَمْ تَخْفِقِ الرَّايَاتُ وَالْجَيْشُ حَوْلَهُ صُفُوفاً وَلَمْ يَشْهَدْ لَهُ النَّاسُ عَسْكَرًا
دَعَتْهُ الْمَنَايَا فَاسْتَجَابَ لِرَبِّهِ وَرَاحَ إِلَى الْجَنَّاتِ عَفَا مُظْهَرًا
فَمَا رُزِيَ الْإِسْلَامُ بَعْدَ مُحَمَّدٍ بِمِثْلِ أَبِي حَفْصٍ قَبْكَيْهِ عِبْهَرًا
عَبْهَر: أم ولد له.

وفي الحديث الصحيح: «إِنَّ مِنْ خَيْرِ النَّاسِ رَجُلًا مُمْسِكًا بِعِطَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً طَارَ إِلَيْهَا»^(١).

كتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد: واعلم أَنَّ عَلَيْكَ عُيُونًا مِنَ اللَّهِ تَرَعَاكَ وَتَرَاكَ، فإذا لقيت العدوَّ فاحرص على الموت تَوْهَبَ لَكَ الْحَيَاةَ، وَلَا تَغْسِلْ الشَّهَادَةَ مِنْ دِمَائِهِمْ، فَإِنَّ دَمَ الشَّهِيدِ يَكُونُ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

عمر: لَا تَزَالُونَ أَصْحَاءَ مَا نَزَعْتُمْ وَنَزَوْتُمْ. يريد: مَا نَزَعْتُمْ فِي الْقَوَاسِ، وَنَزَوْتُمْ عَلَى الْخَيْلِ.

بعض الخوارج:

وَمَنْ يَخْشَى أَظْفَارَ الْمَنَآيَا فَإِنَّا لَيَسِّنَا لَهُنَّ السَّابِغَاتِ مِنَ الصَّبْرِ
وَأَنَّ كَرِيهَةَ الْمَوْتِ حَذَبٌ مَذَاقُهُ إِذَا مَا مَزَجْنَاهُ بِطَيِّبٍ مِنَ الذُّكْرِ
حض منصور بن عمار في قصصه على الغزو والجهاد، فطرح في المجلس صرة فيها شيء، ففتحت فإذا فيها صغيرتا امرأة، وقد كتبت: رأيتك يا بن عمار تحض على الجهاد، والله إني لا أملك لنفسي مالاً، ولا أملك سوى صغيرتي هاتين، وقد أقيتهما إليك، فتالله إلا جعلتهما قيد فرس غازي في سبيل الله، فلعل الله أن يرحمني بذلك.
فارتج المجلس بالبكاء والفضجيج.

لبعض شعراء العجم:

وَأَسْوَدْنَا لَأْمَرِي وَشَبَّيْتُهُ فِي عُتُقَوَانٍ وَمَاؤُهُ خَضِلٌ^(٢)
رَاضٍ بِنَزْرِ الْمَعَاشِ مُضْطَّهِدٍ عَلَى تَرَاثِ الْأَبَاءِ يَتَّكِلُ
لَا حَفِظَ اللَّهَ ذَاكَ مِنْ رَجُلٍ وَلَا رَعَاهُ مَا أَطْلَتِ الْإِبِلُ
كَلَّا وَرَيْي خَشْيَ تَكُونُ فَنَى قَدْنَه كَشَةُ الْأَسْفَارِ وَالرَّحُلُ
مُشْمُراً يَطْلُبُ الرِّيَاسَةَ أَوْ يُضْرَبُ يَوْماً بِهَيْلِكِهِ الْمَثَلُ
حَتَّى مَتَى تَتَّبِعُ الرُّجَالَ وَلَا تُشْبَعُ يَوْماً، لَأُمُّكَ الْهَبْلُ

(١) أخرجه مسلم في الإمارة، باب: فضل الجهاد والرياط (١٨٨٩)، وابن ماجه في الفتن، باب: العزلة (٣٩٧٧)، وأحمد في باقي مسند المكثرين (٩٤٣٠).
(٢) خضل: ندى يترشش من نداء. اللسان، مادة (خضل).

عبد الله بن ثعلبة الأزدي :

فَلَيْسَ غَمَزْتُ لِأَشْفِيَنَّ النَفْسَ مِنْ تِلْكَ الْمَسَاعِي
وَلَا غَلِمْتُ الْبَطْن أَنَّ الرِّزَادَ لَيْسَ بِمُسْتَطَاعِ
أَمَّا النَّهَارُ فَقَدْ أَرَى قَوْمِي بِمَرْقَبَةٍ يَفْعَالِ
فِي قَرَّةٍ هَلْكَ وَشَوْ لِكَمْ مِثْلِ أَنْيَابِ الْأَفْعَالِ
تَرِدُ السُّبَاغُ مَعِي فَتَحْسِبُنِي السُّبَاغُ مِنَ السُّبَاغِ

مجير الجراد أبو حنبل حارثة بن مر الطائي، أجاز جراداً نزل به ومنع من صيده، حتى طار من أرضه، فسُمي مجير الجراد.

وقال هلال بن معاوية الطائي :

وَبِالْجَبَلِينَ لَنَا مَفْقِلٌ صَعَدْنَا إِلَيْهِ بِضُمِّ الصُّعَادِ
مَلَكْنَاهُ فِي أَوَّلِيَّاتِ الزُّمَانِ نَ مِنْ قَبْلِ نُوحٍ وَمِنْ قَبْلِ عَادِ
وَمِنَّا ابْنُ مُرَّابُو حَنْبَلٍ أَجَارَ مِنَ النَّاسِ رَجُلَ الْجَرَادِ
وَزَيْدُ لَنَا وَلَنَا حَاتِمٌ غِيَاثُ الْوَرَى فِي السَّنِينَ الشَّدَادِ

وقال يحيى بن منصور الحنفي :

وَلَمَّا نَأَتْ عَنَّا الْعَشِيرَةُ كُلُّهَا أَنْخَنَا فَحَالَفْنَا السُّيُوفَ عَلَى الدُّهْرِ
فَمَا أَسْلَمْتَنَا عِنْدَ يَوْمِ كَرِيهَةٍ وَلَا نَحْنُ أَغْضَيْنَا الْجُفُونَ عَلَى وَثْرِ
وقال آخر :

أَرِقْ لَأَرْحَامِ أَرَاهَا قَرِيبَةً لِحَارِ بْنِ كَعْبٍ لَا لَجَرَمٍ وَرَاسِبِ
وَأَنَا نَرَى أَقْدَامَنَا فِي نَعَالِهِمْ وَأَنْفَنَا بَيْنَ اللَّحَى وَالْحَوَاجِبِ
وَأَقْدَامَنَا يَوْمَ الْوَعَى وَإِبَاءَنَا إِذَا مَا أَبَيْنَا لَا تُدِيرُ لِمَا صَبِ

حاصرت الترك مدينة برزعة من أعمال أذربيجان في أيام هشام بن عبد الملك حصاراً شديداً، واستضعفتها وكادت تملكها، وتوجه إليها لمعاونتها سعيد الحرشي من قبل هشام بن عبد الملك في جيوش كثيفة، وعلم الترك بقربه منهم فخافوا، وأرسل سعيد واحداً من أصحابه إلى أهل برزعة سراً يعرفهم وصوله، ويأمرهم بالصبر خوفاً ألا يدركهم. فسار الرجل، ولقيه

قوم من الترك، فأخذوه وسألوه عن حاله، فكتّمهم فعذبوه، أخبرهم وصدقهم فقالوا: إن فعلت ما نأمرك به أطلقناك، وإلا قتلناك، فقال: ما تريدون؟ قالوا: أنت عارف بأصحابك بيرذعة وهم يعرفونك، فإذا وصلت تحت السور فنادهم: إنه ليس خلفي مدد، ولا من يكشف ما بكم، وإنما بعثت جاسوساً. فأجابهم إلى ذلك، فلما صار تحت سورها، وقف حيث يسمع أهلها كلامه، وقال لهم: أتعرفونني؟ قالوا: نعم، أنت فلان ابن فلان، قال: فإن سعيداً الحرشي قد وصل إلى مكان كذا في مائة ألف سيف، وهو يأمركم بالصبر وحفظ البلد، وهو مصبحكم أو ممسيكم، فرفع أهل برذعة أصواتهم بالتكبير، وقتلت الترك ذلك الرجل، ورحلوا عنها ووصل سعيد فوجد أبوابها مفتوحة وأهلها سالمين.

وقال الراجز:

مَنْ كَانَ يَنْوِي أَمْلَهُ فَلَا رَجْعَ فَرَّ مِنَ الْمَوْتِ وَفِي الْمَوْتِ وَقَعَ
أشرف معاوية يوماً فرأى عسكر علي عليه السلام يصفين فهاله، فقال: مَنْ طلب عظيماً خاطر بعظيمته.

وقال الكلجة:

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَغْشِ الْمَكَارَةَ أَوْشَكَتَ حِبَالُ الْهَوَيْنَى بِالْفَتَى أَنْ تَقْطَعَا^(١)

ومن شعر الحماسة:

أَقُولُ لَهَا وَقَدْ طَارَتْ شَعَاعاً مِنْ الْأَبْطَالِ وَيَحَكُّ لَا تُرَاعِي
فإِنَّكَ لَوُ سَأَلْتَ بَقَاءَ يَوْمٍ عَلَى الْأَجْلِ الَّذِي لَكَ لَمْ تُطَاعِي
فصبراً في مجال الموت صبراً فَمَا نَبِلُ الْخُلُودِ بِمُسْتَطَاعِ
وَلَا تُؤْبُ الْبَقَاءَ بِثَوْبٍ عِزٍّ فَيَطْوِي عَنْ أَخِي الْخَنْعِ الْبِرَاعِ^(٢)
سَبِيلُ الْمَوْتِ غَايَةٌ كُلِّ حَيٍّ فَدَاعِيهِ لَأَفْلِ الْأَرْضِ دَاعِ
وَمَنْ لَا يُغْتَبِظُ بِسَامٍ وَيَهْزَمُ وَتُسْلِمُهُ الْمَنُونُ إِلَى انْقِطَاعِ
وَمَا لِلْمَرْءِ خَيْرٌ فِي حَيَاةٍ إِذَا مَا عُذُّ مِنْ سَقَطِ الْمَشَاعِ
ومنه أيضاً:

وفي الشرّ نجاةٌ حين لا يُنْجِيكَ إِحْسَانُ

(١) الهوينى: الرفق والسكينة والوقار. اللسان، مادة (هون).

(٢) البراع: الجان الذي لا عقل له ولا رأي. اللسان، مادة (برع).

ومنه أيضاً:

وَلَمْ نَذَرْ إِنْ جِئْنَا عَنِ الْمَوْتِ جَيْضَةً
وَمِنْهُ أَيْضاً:

وَلَا يَكْشِفُ الْغَمَاءَ إِلَّا ابْنُ حُرَّةٍ
وَمِنْهُ أَيْضاً:

فَلَا تَخْسَبِي أَنِّي تَخَشَعْتُ بِغَدَّكُمْ
وَلَا أَنَّ نَفْسِي يَزْدَهِيهَا وَعِيدُكُمْ
وَمِنْهُ أَيْضاً:

سَأُغِيلُ عَنِّي الْعَارَ بِالسَّيْفِ جَالِباً
وَأَذْهَلُ عَنْ دَارِي وَأَجْعَلُ هَذَمَهَا
وَيَضَعُرُ فِي عَيْنِي تِلَادِي إِذَا انْتَنَتْ
فَإِنْ تَهْدِمُوا بِالْغَدْرِ دَارِي فَلِئِذَا
أَخِي عَزَمَاتٍ لَا يُطِيعُ عَلَى الَّذِي
إِذَا هَمَّ الْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَةً
فَيَا لِرَازِمٍ رَشَّحُوا بِي مُقَدِّمًا
إِذَا هَمَّ لَمْ تُرْدَغْ عَزِيمَةٌ هَمُّهُ
وَلَمْ يَسْتَشِيرْ فِي أَمْرِهِ غَيْرَ نَفْسِهِ
وَمِنْهُ أَيْضاً:

هُمَا خُطَّتَا إِمَّا إِسَارٌ وَمِئَنَةٌ
وَمِنْهُ أَيْضاً:

وَإِنَّا لَقَوْمٌ لَا نَرَى الْقَتْلَ سُبَّةً
يَقْضُرُ حُبُّ الْمَوْتِ أَجَالَنَا لَنَا
وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ حَتَفَ أَنْفِهِ
تَسِيلٌ عَلَى حَدِّ الظُّبَاةِ نُفُوسُنَا
وَمِنْهُ أَيْضاً:

(١) جاض يجيض جيضاً: أي مال وحاد عنه. اللسان، مادة (جيض).

لَا يَرْكَنَنَّ أَحَدٌ إِلَى الْإِخْجَامِ يَوْمَ الْوَعْيِ مُتَخَوِّفًا لِحَمَامِ
فَلَسَقَدْ أَرَاتِي لِلرَّمَّاحِ ذَرِيئَةً مِنْ عَنِّ يَمِينِي تَارَةً وَأَمَامِي
حَتَّى خَضَبْتُ بِمَا تَحْدَرُ مِنْ دَمِي أَكْنَافَ سَرْجِي أَوْ عِنَانِ لِحَامِي
ثُمَّ انصرفت وقد أصبت ولم أصب جَذَعَ الْبَصِيرَةِ قَارِحَ الْأَقْدَامِ
ومنه أيضاً:

وَإِنِّي لَدَى الْحَرْبِ الضَّرُوسِ مُوَكَّلٌ بِأَقْدَامِ نَفْسٍ لَا أُرِيدُ بَقَاءَهَا
مَتَى يَأْتِ هَذَا الْمَوْتُ لَا تُلَفْ حَاجَةً لِنَفْسِي إِلَّا قَدْ قَضَيْتُ قَضَاءَهَا

كتب عبد الحميد بن يحيى عن مروان بن محمد إلى أبي مسلم كتاباً، حُمل على جَمَلٍ لعظمه وكثرته. وقيل: إنه لم يكن في الطول إلى هذه الغاية، وقد حُمل على جمل تعظيماً لأمره وقال لمروان بن محمد: إن قرأه خالياً نَجِبَ^(١) قلبه، وإن قرأه في ملا من أصحابه ثَبَطَهُمْ وخذلهم، فلما وصل إلى أبي مسلم أحرقه بالنار ولم يقرأه، وكتب على بياض كان على رأسه وأعادته إلى مروان:

مَعَ السِّيفِ أَسْطَارَ الْبَلَاغَةِ وَانْتَحَتْ إِلَيْكَ لِبُوثُ الْغَابِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ
فَإِنْ تَقْدَمُوا تُغْوِلْ سَيْوفاً شَحِيذَةً يَهْوَنُ عَلَيْهَا الْعَثْبُ مِنْ كُلِّ عَاتِبِ
ويقال: إن أول الكتاب كان: لو أراد الله بالنملة صلاحاً لما أنبت لها جناحاً. وكتب أبو مسلم إلى نصر بن سيار، وهو أول كتاب صدر عن أبي مسلم إلى نصر، وذلك حين لبس السواد، وأعلن بالدعوة في شهر رمضان من سنة تسع وعشرين ومائة: أما بعد، فإن الله جل ثناؤه ذكر أقواماً فقال: ﴿وَأَنفَسُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أُنْفُسِهِمْ لِيَتَّخِذَ مِنْهُمْ نَذِيرٌ لِّكَوْنِ أَهْدَى مِنْ إِهْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا تَقَوُّرًا ۚ﴾^(٢) أَمْسِكَبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ: فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُلَّتِ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ نَحْدِلَ إِلَّا لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ۚ﴾^(٢)

فلما ورد الكتاب إلى نصر تعاطفه أمره، وكسر له إخذى عينيه، وقال: إن لهذا الكتاب لأخوات، وكتب إلى مروان يستصرخه، وإلى يزيد بن هبيرة يستنجده، فقعدا عنه حتى أفضى ذلك إلى خروج الأمر عن بني عبد شمس.
الرَّضِيُّ الْمَوْسُوِي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

(١) النخب: النزاع، ونخب قلبه: جبن كأنه مترع الفؤاد أي لا فؤاد له. اللسان، مادة (نخب).

(٢) سورة فاطر، الآيتان: ٤٢، ٤٣.

سَأْمُضِي لِئَنِّي لَا عَيْبَ فِيهَا
وَأُظْلَبُ غَايَةً إِنْ طَوَّحْتَ بِي
نَمَانِي مِنْ أَبَاةِ الضَّمِيمِ أَبِي
وَمِنَّا كُلِّ أَغْلَبٍ مُسْتَمِيتٍ
إِذَا مَاضِيَمَ نَمَرَ صَفْحَتَيْهِ
وَنَابَى أَنْ يُنَالِ النُّصْفَ مِنَّا
وَلَوْ كَانَ الْعِدَاءُ يَسُوعُ فِينَا
وَلَهُ:

سَيُقْطَعُكَ الْمَهْدُ مَا تَمْنَى
وَمَا يَنْجِي مِنَ التَّمَرَاتِ إِلَّا
وَيُعْطِيكَ الْمَشَقُّ مَا تَشَاءُ
طَعْنَانُ أَوْ خِرَابُ أَوْ رِمَاءُ

ومن أهل الإباء الذين كرهوا الدنية واختاروا عليها المنيّة، عبد الله بن الزبير، تفرّق عنه - لما حاربه الحجاج بمكة، وحصره في الحرم - عامّة أصحابه، وخرج كثير منهم إلى الحجاج في الأمان، حتى حمزة وخبيب ابناه، فدخل عبد الله على أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق، وكانت قد كُفّت بصرها، وهي عجوز كبيرة، فقال لها: خذني الناس حتى ولدي وأهلي، ولم يبقَ معي إلا من ليس عنده من الدّفْع أكثر من ساعة، والقوم يُعطونني من الدنيا ما سألتُ، فما رأيك؟ فقالت: أنت يا بني أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامضِ له، فقد قُتِلَ أكثر أصحابك، فلا تمكّن من رَقَبَتِكَ يتلاعب بها غلمانُ بني أميّة، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت! أهلكك نفسك، وأهلكك مَنْ قُتِلَ معك، وإن كنت قاتلتَ على الحق، فما وهنَ أصحابُك إلا ضعفت، فليس هذا فعلُ الأحرار ولا أهلِ الدين. وكم خلودك في الدنيا! القتلُ أحسن.

فدنا عبد الله منها فقبل رأسها، وقال: هذا والله رأيي، والله ما ركنْتُ إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضبُ لله تعالى عزّ وجلّ أن تُستحلَّ محارمُه، ولكنني أحببتُ أن أعلم رأيك، فقد زِدْتَنِي بصيرة، فانظري يا أماء، إني مقتول يومي هذا، فلا يشتدّ جَزَعُكَ، وسلّمي لأمر الله، فإن ابنك لم يتعمّد إتيان منكر، ولا عملاً بفاحشة، ولم يَجْزُ في حكم الله، ولم يظلم مسلماً ولا معاهداً، ولا بلغني ظلمٌ عن عامل من عمالي فرضيتُ به بل أنكرته، ولم يكن شيءٌ عندي أثر من رضا الله، اللهم إني لا أقول هذا تزكيةً لنفسي، أنت أعلم بي، ولكنني أقوله تعزيةً لأمي لتسلو عني. فقالت: إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك

حَسَنًا إِنْ تَقْدِمْتَنِي فَاخْرُجْ لَأَنْظُرَ إِلَى مَاذَا يَصِيرُ أَمْرُكَ؟ فَقَالَ: جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا يَا أُمِّي! فَلَا تَدْعِي الدَّعَاءَ لِي حَيًّا وَمَيِّتًا. قَالَتْ: لَا أَدْعُهُ أَبَدًا، فَمَنْ قُتِلَ عَلَى بَاطِلٍ فَقَدْ قَتَلْتَ عَلَى حَقٍّ، ثُمَّ قَالَتْ: اللَّهُمَّ ارْحَمْ طَوْلَ ذَلِكَ الْقِيَامِ فِي اللَّيْلِ الطَّوِيلِ، وَذَلِكَ النَّحِيبَ فِي الظُّلُمَاءِ، وَذَلِكَ الصُّومَ فِي هَوَاجِرِ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، وَيَرِّهْ بِأَبِيهِ وَبِي، اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ لِأَمْرِكَ، وَرَضِيتُ بِمَا قَضَيْتَ فِيهِ، فَأَثْنِي عَلَيْهِ ثَوَابَ الصَّابِرِينَ.

وَقَدْ رُوِيَ فِي قِصَّةِ عَبْدِ اللَّهِ مَعَ أُمَّهُ أَسْمَاءَ رَوَايَةً أُخْرَى، أَنَّهُ لَمَّا دَخَلَ عَلَيْهَا وَعَلَيْهِ الدَّرْعُ وَالْمِغْفَرُ - وَهِيَ عَمِيَاءُ لَا تَبْصُرُ - وَقَفَ فَسَلَّمَ، ثُمَّ دَنَا فَتَنَاولَ يَدَهَا فَقَبَّلَهَا، قَالَتْ: هَذَا وَدَاعٌ فَلَا تَبْعُدْ، فَقَالَ: نَعَمْ، إِنَّمَا جِئْتُ مُوَدَّعًا، إِنِّي لَأَرَى هَذَا الْيَوْمَ آخِرَ أَيَّامِي مِنَ الدُّنْيَا، وَاعْلَمِي يَا أُمِّي أَنِّي إِذَا قَتَلْتُ فَإِنَّمَا أَنَا لَحْمٌ لَا يَضُرُّنِي مَا صَنَعَ بِي، فَقَالَتْ: صَدَقْتَ يَا بَنِي، أَقِمِّي عَلَى بَصِيرَتِكَ، وَلَا تَمَكِّنْ ابْنَ أَبِي عَقِيلٍ مِنْكَ، أَدْنُ مِنِّْي لِأَوْدَعِكَ، فَدَنَا مِنْهَا فَقَبَّلَتْهُ وَعَانَقَتْهُ، فَوَجَدَتْ مَسَّ الدَّرْعِ، فَقَالَتْ: مَا هَذَا صَنَعَ مِنْ يَرِيدٍ مَا تَرِيدُ. فَقَالَ: إِنَّمَا لَبِسْتَهُ لِأَشَدَّ مِنْكَ، قَالَتْ: إِنَّهُ لَا يَشُدُّ مِنِّْي، ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْهَا، وَهُوَ يَقُولُ:

إِنِّي إِذَا أَصْرَفْتُ يَوْمِي أَصْبِرُ إِذْ بَعْضُهُمْ يَعْرِفُ ثُمَّ يَنْكِرُ
وَأَقَامَ أَهْلُ الشَّامِ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْحَرَمِ رَجَالًا وَقَائِدًا، فَكَانَ لِأَهْلِ حَنْصِ الْبَابِ الَّذِي يُوَاجِهُ بَابَ الْكَعْبَةِ، وَلِأَهْلِ دِمَشْقَ بَابَ بَنِي شَيْبَةَ، وَلِأَهْلِ الْأُرْدُنِّ بَابَ الصُّفَا، وَلِأَهْلِ فَلَسْطِينَ بَابَ جُمَحَ، وَلِأَهْلِ قَنْسَرِينَ بَابَ بَنِي سَهْمٍ. وَخَرَجَ ابْنُ الزُّبَيْرِ فَمَرَّةً يَحْمِلُ هَاهُنَا وَمَرَّةً يَحْمِلُ هَاهُنَا، وَكَأَنَّهُ أَسَدٌ لَا يُقَدِّمُ عَلَيْهِ الرِّجَالُ، وَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ زَوْجَتَهُ: أَخْرِجْ فَأَقَاتِلْ مَعَكَ؟ فَقَالَ: لَا، وَأَنْشَدَ:

كُتِبَ الْقَتْلُ وَالْقِتَالُ عَلَيْنَا وَعَلَى الْمُحَصَّنَاتِ جَرُّ الدُّيُولِ
فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ، قَامَ يَصَلِّي إِلَى قَرِيبِ الشَّجَرِ ثُمَّ أَغْفَى مُحْتَبًا بِحِمَائِلِ سَيْفِهِ، ثُمَّ قَامَ فَتَوَضَّأَ وَصَلَّى، وَقَرَأَ: ﴿تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾^(١)، ثُمَّ قَالَ بَعْدَ انْقِضَاءِ صَلَاتِهِ: مَنْ كَانَ عَنِّي سَائِلًا فَإِنِّي فِي الرَّعِيلِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ أَنْشَدَ:

وَلَسْتُ بِمَبْتَاعِ الْحَيَاةِ بِسُبَّةٍ وَلَا مَرْتَقٍ مِنْ خُشْيَةِ الْمَوْتِ سُلْمًا
ثُمَّ حَمَلَ حَتَّى بَلَغَ الْحَجُونَ، فَرُمِيَ بِأَجْرَةٍ، فَأَصَابَتْ وَجْهَهُ قَدَمِي، فَلَمَّا وَجَدَ سَخُونَةَ الدَّمِ يَسِيلُ عَلَى وَجْهِهِ، أَنْشَدَ:

وَلَسْنَا عَلَى الْأَغْقَابِ تَذْمَى كُلُّوْمُنَا وَلَكِنْ عَلَى أَقْدَامِنَا تَقْطُرُ الدَّمَا
ثُمَّ حَمَلَ عَلَى أَهْلِ الشَّامِ فَنَاصَ فِيهِمْ، وَاعْتَوَرَهُ بِأَسْيَافِهِمْ حَتَّى سَقَطَ، وَجَاءَ الْحِجَاجُ فَوَقَفَ

(١) سورة القلم، الآية: ١.

عليه وهو ميت، ومعه طارق بن عمرو، فقال: ما ولدت النساء أذكّر من هذا ويبعث برأسه إلى المدينة، فنصب بها، ثم حمل إلى عبد الملك.

أبو الطيب المتنبي:

أطاعنُ خَيْلاً مِنْ قَوَارِسِهَا الذُّغُرُ وحيداً وما قولي كذا وَمَعِيَ الضُّبُرُ
وَأَشْجَعُ مِنِّي كُلِّ يَوْمٍ سَلَامَتِي وَمَا تَبَيَّنَتْ إِلَّا وَفِي نَفْسِهَا أَمْرُ
تَمَرُّنْتُ بِالْآفَاتِ حَتَّى تَرَكَتُهَا تقول: أَمَاتَ المَوْتُ؟ أَمْ دُجِرَ الذُّغُرُ؟
وَأَقْدَمْتُ إِقْدَامَ الْأَبِيِّ كَأَن لِي سِوَى مُهْجَتِي أَوْ كَانَ لِي جُنْدُهَا وَثُرِي
ذَرِ النَّفْسَ تَأْخُذُ حَظَّهَا قَبْلَ بَيْنِهَا فَمَفْتَرِقُ جَارَانِ دَارَهُمَا الْعَمْرُ
وَلَا تَحْسَبَنَّ الْمَجْدَ زَقَاً وَقَيْنَةً فما المجدُ إِلَّا السَّيْفُ وَالْفَتْكَةُ الْبُكْرُ
وَتَضْرِبُ هَامَاتِ الْمُلُوكِ وَأَنْ تُرَى لَكَ الْهَبَوَاتُ الشُّوْذُ وَالْعَسْكَرُ الْمَجْرُ
وَتَرْكُوكَ فِي الدُّنْيَا دَوِيّاً كَانَمَا تَدَاوَلَ سَمْعَ الْمَرْءِ أُنْمُلُهُ الْعَشْرُ

وقال أبو حيوس:

ولستُ كَمَنْ أَخْنَى عَلَيْهِ زَمَانُهُ فظِلَّ عَلَى أَخْدَائِهِ يَتَعَثَّبُ
تَلَذُّ لُهُ الشُّكُوى وَإِنْ لَمْ يُفْذِ بِهَا صَاحِباً كَمَا يَلْتَذُّ بِالْحَكِّ أَجْرَبُ
ولكنني أَحْمِي ذِمَّارِي بِعِزِّهِ تنوبُ مِنْابَ السَّيْفِ وَالسَّيْفُ مَقْضَبُ
وليس الفتى مَنْ لَمْ تَسْمِ جَسَمَهُ الظُّبَا وَيُحْطَمُ فِيهِ مِنْ قَنَا الْخَطِّ أَكْثَبُ
وله أيضاً:

أَخْفَقَ الْمُتَرَفُّ الْجَنُوحُ إِلَى الْخَفْضِ وفاز الممخاطرُ السِّفْطَامُ
وَإِذَا مَا السُّيُوفُ لَمْ تَشْهَدْ الْحَرَّ بَ فَسَيَّانٍ صَارَمٌ وَكَهَامُ

وممن تقبل مذاهب الأسلاف في إباء الضيم وكرهية الذل، واختار القتل على ذلك وأن يموت كريماً، أبو الحسين زيد بن علي بن الحسين بن أبي طالب عليه السلام، أمه أم ولد، وكان السبب في خروجه وخلعه طاعة بني مروان، أنه كان يخاصم عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام في صدقات علي عليه السلام، هذا يخاصم عن بني حسين، وهذا عن بني حسن، فتنازعا يوماً عند خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم أمير المدينة، فأغلظ كل واحد منهما لصاحبه، فسر خالد بن عبد الملك بذلك، وأعجبه سبابهما، وقال لهما حين

سكننا : اغدوا عليّ ، فلستُ بابن عبد الملك إنّ لم أفصل بينكما غداً ، فباتت المدينة تغلي كالمرجل ، فمن قائل يقول : قال زيد كذا ، وقائل يقول : قال عبد الله كذا . فلما كان الغد جلس خالد في المسجد ، وجمع الناس ، فمن بين شامت ، ومغموم . ودعا بهما وهو يحب أن يتشاما ، فذهب عبد الله يتكلم ، فقال زيد : لا تعجل يا أبا محمد ، اعتق زيد ما يملك إن خاصمك إلى خالد أبداً ، ثم أقبل على خالد ، فقال له : أجمعت ذرية رسول الله ﷺ لأمر ما كان يجمعهم عليه أبو بكر ولا عمر ، فقال خالد : أما لهذا السفية أحد يكلمه !

فتكلم رجل من الأنصار من آل عمرو بن حزم ، فقال : يا بن أبي تراب ، ويا بن حسين السفية ! أما ترى عليك لوالٍ حقاً ولا طاعة ! فقال زيد : اسكت أيها القحطاني ، فإننا لا نجيب مثلك ، فقال الأنصاري : ولم ترغبب عني ؟ فوالله إني لخير منك ، وأبي خير من أبيك ، وأمي خير من أمك ! فتضاحك زيد ، وقال : يا معشر قريش ، هذا الدين قد ذهب ، أفذهبت الأحساب ؟ فتكلم عبد الله بن واقد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، فقال : كذبت أيها القحطاني ، والله لهُوَ خير منك نفساً وأباً وأماً ومختداً ، وتناوله بكلام كثير ، وأخذ كفاً من الحصى ، فضرب به الأرض ، وقال : إنه والله مالنا على هذا من صبر . وقام .

فقام زيد أيضاً ، وشخص من فوره إلى هشام بن عبد الملك ، فجعل هشام لا يأذن له وزيد يرفع إليه القصص ، وكلما رفع إليه قصة كتب هشام في أسفلها : ارجع إلى أرضك ، فيقول زيد : والله لا أرجع إلى ابن الحارث أبداً . ثم أذن له بعد حبس طويل وهشام في جلبة له ، فرقى زيد إليها ، وقد أمر هشام خادماً له أن يتبعه حيث لا يراه زيد ، ويسمع ما يقول . فصعد زيد - وكان بادناً - فوقف في بعض الدرجة ، فسمعه الخادم ، وهو يقول : ما أحب الحياة إلا من ذل ! فأخبر الخادم هشاماً بذلك ، فلما قعد زيد بين يدي هشام وحذته حلف له على شيء ، فقال هشام : لا أصدقك ، فقال زيد : إن الله لا يرفع أحداً عن أن يرضى بالله ، ولم يضع أحداً عن أن يرضى بذلك منه ، قال له هشام : إنه بلغني أنك تذكر الخلافة وتتمناها ، ولست هناك ؛ لأنك ابن أمة ، فقال زيد : إنّ لك جواباً ، قال : تكلم ، قال : إنه ليس أحد أولى بالله ، ولا أرفع درجة عنده من نبي ابتعثه ، وهو إسماعيل بن إبراهيم ، وهو بن أمة ، قد اختاره الله لنبوته ، وأخرج منه خير البشر ، فقال هشام : فما يصنع أخوك البقرة ؟ فغضب زيد ، حتى كاد يخرج من إهابه ، ثم قال : سمّاه رسول الله ﷺ الباقر وتسميه أنت البقرة ! لشد ما اختلفتما ! لتخالفنه في الآخرة ، كما خالفته في الدنيا ، فيرد الجنة ، وترد النار .

فقال هشام : خذوا بيد هذا الأحق المائق فأخرجوه ، فأخذ الغلمان بيده فأقاموه ، فقال هشام : احمِلوا هذا الخائن الأهوج إلى عامله ، فقال زيد : والله لئن حملتني إليه لا أجمع أنا وأنت حيتين ، وليموتن الأعجل منا . فأخرج زيد وأشخص إلى المدينة ، ومعه نفر يسيرونه حتى

طردوه عن حدود الشام، فلما فارقه عدل إلى العراق، ودخل الكوفة، وباع نفسه، فأعطاه البيعة أكثر أهلها، والعامل عليها وعلى العراق يومئذ يوسف بن عمر الثقفي، فكان بينهما من الحرب ما هو مذكور في كتب التواريخ. وخذل أهل الكوفة زيدا، وتخلّف معه ممن تابعه نفر يسير، وأبلى بنفسه بلاءً حسناً وجهاداً عظيماً، حتى أتاه سهم غرب، فأصاب جانب جبهته اليسرى، فثبت في دماغه، فحين نزع منه مات عليه السلام.

عُتِفَ محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب عليه السلام زيدا لما خرج، وحذّره القتل، وقال له: إن أهل العراق خذّلوا أباك علياً وحسناً وحسيناً عليهم السلام، وإنك مقتول، وإنهم خاذلوك، فلم يثن ذلك عزمه. وتمثل:

بَكَرْتُ تُخَوِّفُنِي الْخُثُوفُ كَأَنِّي
فَأَجَبْتُهَا إِنَّ الْمِثْيَةَ مَنَهْلُ
إِنَّ الْمِثْيَةَ لَوْ تَمَثَّلَ مُثَلَّتْ
فَأَقْنِي حَيَاءَكَ لَا أَبَاكَ وَاعْلَمْ
العلويّ البصريّ صاحب الزنج يقول:

وَإِذَا تُنَازَعُنِي أَقُولُ لَهَا قَرِي
مَا قَدْ قَضَى سَيَكُونُ فَاصْطَبِرِي لَهُ
وقال أيضاً:

إِنِّي وَقَوْمِي فِي أَنْسَابِ قَوْمِهِمْ
مَا عُلِقَ السِّيفُ مِنَّا يَا بَنَ عَاشِرَةِ
بعض الطالبين:

وَأَنَا لَتُضْبِحُ أَسْيَافُنَا
مَنْسَابِرُهُنَّ بَطُونُ الْأَكْفِ
بعض الخوارج يصف أصحابه:

وَهُمُ الْأَسْوَدُ لَدَى الْغَرِيرِ بَسَالَةٌ
يَمْضُونَ قَدْ كَسَرُوا الْجُفُونَ إِلَى الدَّعَا
فَكَأَنَّمَا أَعْدَاؤُهُمْ أَحِبَابُهُمْ
يَرُدُّونَ حَزْمَاتِ الْجَامِ وَإِنَّهَا
وَمِنَ الْخُشُوعِ كَأَنَّهُمْ أَخْبَارُ
مُتَبَسِّمِينَ وَفِيهِمْ اسْتَبْشَارُ
فَرَحاً إِذَا خَطَرَ الْقَنَا الْخَطَارُ
تَالَلُوْهُ عِنْدَ نُفُوسِهِمْ لَصِقَارُ

وَلَقَدْ مَضَوْا وَأَنَا الْحَبِيبُ إِلَيْهِمْ وَهُمْ لَدَيَّ أَحْسَبُ أَنْبَرَارُ
قَدَرٌ يَخْلُفُنِي وَيُخْضِرُهُمْ بِهِ يَا لَهْفَ كَيْفَ يَفُوتُنِي الْمَقْدَارُ
وفي الحديث المرفوع «خُلِقَانِ يَحِبُّهُمَا اللَّهُ: الشَّجَاعَةُ وَالسَّخَاءُ»^(١).

كان بشر بن المعتمر من قدماء شيوخنا رحمه الله تعالى يقول بتفضيل علي عليه السلام ويقول: كان أشجعهم وأسخاهم، ومنه سَرَى القول بالتفضيل إلى أصحابنا البغداديين قاطبة، وفي كثير من البصريين.

دخل النضر بن راشد العبدى على امراته في حَرْبِ التُّرْكِ بِخُرَاسَانَ فِي ولاية الجنيد بن عبد الرحمن المري في خلافة هشام بن عبد الملك، والناس يقتتلون، فقال لها: كيف تكونين إذا أُتيتِ بي في لَيْدٍ قَتِيلًا مُضَرَّجًا بِالدَّمَاءِ؟ فَشَقَّتْ جَيْبَهَا، وَدَعَتْ بِالْوَيْلِ، فَقَالَ: حَسْبُكَ! لَوْ أَعُولْتُ عَلَيَّ كُلَّ أَنْثَى لَعَصَبْتَهَا شَوْقًا إِلَى الْجَنَّةِ، ثُمَّ خَرَجَ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، وَحُمِلَ إِلَى امْرَأَتِهِ فِي لَيْدٍ وَدَمُهُ يَقَطِرُ مِنْ خِلَالِهِ.

قال أبو الطيب المتنبي:

إِذَا غَسَامَرْتُ فِي شَرَفٍ مَرُومٍ فَلَا تُقْنَعْ بِمَا دُونَ النُّجُومِ
فَطَعَمُ الْمَوْتِ فِي أَمْرِ حَقِيرٍ كَطَعَمِ الْمَوْتِ فِي أَمْرِ عَظِيمِ
يَرَى الْجُبْنَاءُ أَنَّ الْجُبْنَ حَزْمٌ وَتِلْكَ خَدِيعَةُ الطُّبَعِ اللَّئِيمِ
وَكُلَّ شَجَاعَةٍ فِي الْمَرءِ تُفْنِي وَلَا مِثْلَ الشُّجَاعَةِ فِي الْحَكِيمِ
وقال:

إِذَا لَمْ تَجِدْ مَا يَبْثُرُ الْعُمَرَ قَاعِدًا فَقُمْ وَاطْلُبِ الشَّيْءَ الَّذِي يَبْثُرُ الْعُمَرَ
وقال:

أَهْمُ بِشَيْءٍ وَاللَّيَالِي كَأَنَّهَا تُطَارِدُنِي عَنْ كَوْنِهِ وَأَطَارِدُ
وَجِيداً مِنَ الْخِلَانِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ إِذَا عَظُمَ الْمَطْلُوبُ قَلَّ الْمُسَاعِدُ

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٧٦٥٩) بلفظ: «فالسخاء والسماحة» بدل قوله: «الشجاعة والسخاء».

قيل لأبي مسلم في أيام صباه: نراك تنظر إلى السماء كثيراً كأنك تسترق السمع، أو تنتظر نزول الوحي! قال: لا، ولكن لي همة عالية، ونفس تتطلع إلى معالي الأمور، مع عيش كعيش الهمج والرّعاع، وحال متناهية في الاتضاع. قيل: فما الذي يشفي علتك، ويُرّوي غلتك؟ قال: الملك، قيل: فاطلب الملك، قال: إن الملك لا يطلب هكذا. قيل: فما تصنع وأنت تذوب حسراً، وتموت كمداً؟ قال: سأجعل بعض عقلي جهلاً، وأطلب به ما لا يطلب إلا بالجهل، وأحرس بالباقي ما لا يحرس إلا بالعقل، فأعيش بين تديرِ ضِدِّين، فإن الخمول أخو العُدم، والشهرة أخت الكون.

قال ابن حيّوس:

أموائهم بالذّكر كالأحياء ولحيّهم فُضِّلَ عَلَى الأحياءِ
نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ المروءة وامتَطَوْا بالبأسِ ظَهَرَ العِزَّة القَنَسَاءِ
والعِزُّ لَا يَبْقَى لغير معوِّدٍ أَنْ يَكْشِفَ الغَمَاءَ بالغَمَاءِ
لَا تَخْسِبُ الضُّرَاءُ ضُرَاءَ إِذَا أَفْضَتْ بِصَاحِبِهَا إِلَى السُّرَاءِ
وقال:

وهي الرياسة لا تبوح بسرّها إِلَّا لِأَزْوَاجٍ لَا يُبَاحُ ذِمَارُهَا^(١)
يَحْمِي حِمَاءُ قَلْبِهِ وَلِسَانُهُ وَتَذُودُ عَنْهُ بِمِيتُهُ وَيَسَارُهُ
لَا الْعِذْلُ نَاهِيهِ، وَلَا الْحِرْصُ الَّذِي أَمْرُ النُّفُوسِ بِشُعْهَاطِهَا أَمَارُهُ
فليعلم الساعي ليلبغ ذا المدى أَنَّ الطَّرِيقَ كَثِيرَةٌ أَخْطَارُهُ

كان ثابت قُطْنَةُ فِي خَيْلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سِطَامٍ فِي فَتْحِ شَكْنَدٍ مِنْ بِلَادِ التُّرْكِ فِي أَيَّامِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَاشْتَدَّتْ شَوْكَةُ التُّرْكِ، وَانْحَازَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَاسْتَوْسَرَ مِنْهُمْ خَلْقٌ، فَقَالَ ثَابِتٌ: وَاللَّهِ لَا يَنْظُرُ إِلَيَّ بَنُو أُمَيَّةَ غَدًا مَشْدُودًا فِي الْحَدِيدِ، أَطْلُبُ الْفِدَاءَ، اللَّهُمَّ إِنِّي كُنْتُ ضَيْفَ ابْنِ سِطَامِ الْبَارِحَةِ، فَاجْعَلْنِي ضَيْفَكَ اللَّيْلَةَ، ثُمَّ حَمَلَ وَحَمَلَ مَعَهُ جَمَاعَةً، فَكَسَرْتُهُمُ التُّرْكُ، فَرَجَعَ أَصْحَابُهُ وَثَبَتْ هُوَ، فَرُمِيَ بِرِذْوَنِهِ فَشَبَّ، وَضَرَبَهُ فَأَقْدَمَ، فَصَرَخَ ثَابِتٌ وَارْتُثَّ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ اسْتَجَبْتَ دَعْوَتِي وَأَنَا الْآنَ ضَيْفَكَ، فَاجْعَلْ قِرَائِي الْجَنَّةَ، فَتَزِلْ تَرْكِي فَأَجْهَزَ عَلَيْهِ.

قال يزيد بن المهلب لابنه خالد، وقد أمره على جيش في حرب جرجان: يا بني، إن غلبت على الحياة فلا تُغَلِّبَنَّ على الموت، وإياك أن أراك غداً عندي مهزوماً!

(١) الذُّمَارُ: هو كل ما يلزم الرجل حفظه وحياطته وحمايته والدفع عنه، وإن ضيعه لزمه اللوم. اللسان، مادة (ذمر).

عن النبي ﷺ: «الخير في السيف، والخير مع السيف، الخير بالسيف»^(١)، كما يقال: المنيّة ولا الدنيّة، والنار ولا العار، والسيف ولا الحيف.

قال سيف بن ذي يزن لأنوشيزوان حين أعانه بؤهرز الديلمي ومن معه: أيها الملك، أين تقع ثلاثة آلاف من خمسين ألفاً؟ فقال: يا أعرابي، كثير الحطب يكفيه قليل النار.

لما حبس مروان بن محمد إبراهيم الإمام خرج أبو العباس السفاح، وأخوه أبو جعفر، وعبد الوهاب ومحمد ابنا إبراهيم الإمام، وعيسى وصالح وإسماعيل وعبد الله وعبد الصمد أبناء علي بن عبد الله بن العباس، وعيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، ويحيى بن جعفر بن تمام بن العباس من الحُمَيْمَة من أرض السّراة، يطلبون الكوفة، وقد كان داود بن علي بن عبد الله بن العباس وابنه موسى بن داود بالعراق، فخرجوا يطلبان الشام، فتلقاهما أبو العباس وأهل بيته بدومة الجندل، فسألهم داود عن خروجهم، فأخبروه أنهم يريدون الكوفة ليظهروا بها، ويدّخروا إلى البيعة لأبي العباس. فقال: يا أبا العباس، يظهر أمرك الآن بالكوفة، ومروان بن محمد شيخ بني أمية بحرّان مُطلٌّ على العراق في جيوش أهل الشام والجزيرة، ويزيد بن عمر بن هبيرة شيخ العرب بالعراق في قرّسان العرب! فقال: يا عمّ من أحبّ الحياة ذلّ، ثم تمثّل بقول الأعشى:

فما ميتة إن مثّها غير عاجزٍ بعارٍ إذا ما غالتِ النّفسُ غولُها

فقال داود لابنه موسى: صدّق ابن عمك، ارجع بنا معه، فإنّما أن نهلك أو نموت كراماً.

وكان عيسى بن موسى: يقول بعد ذلك إذا ذكر خروجهم من الحُمَيْمَة يريدون الكوفة: إن ثلاثة عشر رجلاً خرجوا من ديارهم وأهليهم يطلبون ما طلبنا لعظيمة همّهم، كبيرة نفوسهم، شديدة قلوبهم.

أبو الطيب المتنبّي:

وإذا كانتِ النّفوسُ كِبَاراً تعبّت في مرادها الأجسامُ
وله:

إلى أيّ حين أنت في زيّ مُحرّمٍ وحشّي متى في شِقْوَةٍ وإلى كم!

(١) انظر تاريخ الطبري: ٣٠١/٥، وفتوح البلدان: ٤١٤/٢.

وَلَا تَمُتْ تَحْتَ السُّيُوفِ مَكْرَمًا تَمُتْ وَتَقْاسِي الذُّلَّ غَيْرَ مُكْرَمٍ
فِيْثُ وَاثِقًا بِاللَّهِ وَثَبَّةً مَاجِدٍ يَرَى الْمَوْتَ فِي الْهَيْجَا جَنَى النَّحْلِ فِي الْقَمِ
وقال آخر:

إِنْ تَقْتُلُونِي فَأَجَالُ الرُّجَالِ كَمَا حَدَّثْتُ قَتْلَ وَمَا بِالْقَتْلِ مِنْ عَارٍ
وَلَنْ سَلِمْتُ لَوْ قَتِلْتُ بَعْدَهُ فَعَسَى وَكُلَّ شَيْءٍ إِلَى حَدٍّ وَمِقْدَارٍ

خطب الحجاج، فشكا سوء طاعة أهل العراق، فقام إليه جامع المحاربين، فقال: أيها الأمير، دَع ما يباعدهم منك إلى ما يقربهم إليك، والتمس العافية ممن دونك تُعْطَاهَا مِمَّنْ فوقك، فلو أَحْبَبُّوكَ لَأَطَاعُوكَ، إنهم ما شَنُّوكَ^(١) بنسبك ولا لبأوك، ولكن لإيقاعك بغد وعيدك، ووعيدك بعد وَغْدِكَ.

فقال الحجاج: ما أراني أرْدَ بني اللكيسة إلى طاعتي إلا بالسيف، فقال جامع: أيها الأمير، إن السيف إذا لَاقِيَ السيفَ ذهب الخيار، فقال الحجاج: الخيار يومئذٍ لله، فقال: أجل، ولكنك لا تدري لمن يجعله الله، فقال: يا هتاه، إِيهًا فَإِنَّكَ مِنْ مُحَارِبٍ، فقال جامع:
وَلِلْحَرْبِ سُمَيْنَا فَكُنَّا مُحَارِبًا إِذَا مَا أَلْقَنَا أَمْسَى مِنْهُ الطُّغْنُ أَخْمَرَا

ومن الشعر الجيد في تحسين الإباء والحمية والتخريض على النهوض والحرب وطلب الملك والرياسة، قصيدة عُمارة اليمني شاعر المصريين في فخر الدين توران شاه بن أيوب، التي يغريه فيها بالنهوض إلى اليمن، والاستيلاء على مملكها، وصادفت هذه القصيدة محللاً قابلاً، ومَلِكُ توران شاه اليمن بما هَزَّتْ هذه القصيدة من عظمته، وحركت من عزمه، وأولها:

الْعِلْمُ مُذْ كَانَ مُحْتَاجٌ إِلَى الْعَلَمِ وَشَفْرَةُ السَّيْفِ تَسْتَفْنِي عَنِ الْقَلَمِ
وَحَيْرٌ خَيْلِكَ إِنْ غَامَرْتَ فِي شَرْفٍ عَزْمٌ يَفْرُقُ بَيْنَ السَّاقِ وَالْقَدَمِ
إِنَّ الْمَعَالِي عَرُوسٌ غَيْرُ وَاصِلَةٍ مَا لَمْ تَخْلُقْ رِذَائِهَا بِنَضْحِ دَمٍ
فَرَى مَسَامِعَ فَخْرِ الدِّينِ تَسْمَعُ مَا أَمْلَأَهُ خَاطِرُ أَفْكَارِي عَلَى قَلَمِي
فَإِنْ أَصَبْتُ فَلِي حَقُّ الْمَصِيبِ وَإِنْ أَخْطَأْتُ قَضَاكَ فَاغْذِرْني وَلَا تَلُمِ
كَمْ تَتْرِكُ الْبَيْضَ فِي الْأَجْفَانِ ظَامِئَةً إِلَى الْمَوَارِدِ فِي الْأَعْنَاقِ وَالْقِمَمِ

(١) شناه: أبغضه. اللسان، مادة (شناه).

ومقلّة المجد نحو العزم شاخِصّة
فعمّك الملك المنصور سوّمها
واخلّق لنفسك أمراً لا تضاف به
وأنّه المشيرين إن لجث نصيحتهم
واعزّم وصمّم فقد طالت وقد سمّجت
فربّ أمر يهابّ النَّاسُ غايته
فكيف إن نهضت فيما هممت به
لا يدرك المجد إلا كلّ مقتحم
لا ينقض الخطوة الأولى بشانية
كانما السيف أفتاء بقتلهم
ولم يراعوا العثمان ولا عمر
فما تروم سوى فتح صوارمه
حتى كأنّ لسان السيف في يده
هذا ابن تومرت قد كانت بدايته
وقد ترقى إلى أن صار طالعة
وكان أوّل هذا الدين من رجل

فاترك قعودك عن إدراكها وقم
من الفُرات إلى مصر بلا سام
إلى سواك، وأور النار في العلم
أو لا، فأنعم على الغنيان بالصمّم
قضيّة لفظتها السنّ الأمم
والأمر أهون فيه من بدلقم
أشدّ تسير من الخطي في أجم
في موج ملتطم أو فوج مضطرم
ولا يفكر في العقبى من النّدم
في فتح مكة حلّ القتل في الحرم
ولا الحُسين ذمام الأشهر الحرم
يضحكن في كلّ يوم عابس البهم
يروى الشريعة عن عاد وعن إرم
فيما يقول الوريّ لحماً على وضم^(١)
من الكواكب بالأنفاس والكظم
سعى إلى أن دَعَوْهُ سيّد الأمم

- كذب، لم يظهر الدين الحنيف المقدّس على الأديان بسعي البشر، بل بالتأييد الإلهي،
والسر الرباني، صلوات الله وسلامه على القائم به، والمحتلّ له :-

والبدر يبذو هلالاً ثم يكشف بال
والغيث فهو كما قد قيل أوله
تَنُمُو قوى الشيء بالثّذريج إن رزقت
حاسب ضميرك عن رأي أتاك وقُل
أقسمت ما أنت ممّن جُلّ همّته
وإنما أنت مرجو لواحدة
كأنني بالليالي وهي هاتفة
وبالعللا كلما لاقتك قائلة

أنوار ما سترته شملة الظلم
قَطَرٌ ويده خراب السدّ بالقرم
لُظفاً ويقوى شرار النار بالضم
نصيحة ورَدَتْ من غير مُثّهم
ما راق من نعم أورق من نعم
بنى بها الدهر مجدداً غير مُنْهَدِم
قد صمّ سمع رجال دُونها وعمي
أهلاً بِمُنْشِرِ آمالي من الرّمم

(١) الوَضَم: ما وقيت به اللحم عن الأرض من خشب وحصير. القاموس، مادة (وَضَم).

ومن أباة الضَّيِّم الذين اختاروا القتلَ على الأسر، والموت على الدنية، مُضْعَب بن الزبير، كان أميرَ العراقيين من قِبَل عبد الله بن الزبير، وكان قد كَسَرَ جيوش عبد الملك مراراً، وأعياءُ أمره. فخرج إليه من الشام بنفسه، فليِّمَ في ذلك، وقيل له: إِنَّكَ تَغَرَّرَ بنفسك وخلافَتِكَ، فقال: إنه لا يقوم لحَرْب مُضْعَبٍ غيري، هذا أمر يحتاج إلى أن يقومَ به شجاع ذو رأي، وربما بعثت شجاعاً ولا رأي له، أو ذا رأي ولا شجاعة عنده، وأنا بصير بالحرب، شجاع بالسيف. فلما أجمع على الخروج إلى حرب مُضْعَب جاءته امرأته عاتكة بنت يزيد بن معاوية، فالتزمت، وبكت لفراقه، وبكى جواربها حولها، فقال عبد الملك: قاتل الله ابن أبي جُمعة! كأنه شاهد هذه الصورة حيث يقول:

إِذَا هُمْ بِالْأَعْدَاءِ لَمْ يَشْنِ عَزْمَهُ حَصَانٌ عَلَيْهَا نَظْمٌ دُرٌّ يَزِينُهَا
نَهْشُهُ فَلَمَّا لَمْ تَرَ النُّهْيَ عَاقَهُ بَكَتْ فَبَكَى مِمَّا عَرَاهَا قَطِينُهَا

فسار عبدُ الملك حتى إذا كان بمسكن من أرض العراق، وقد دنا منه عسكر مصعب، تقاعد بمُصْعَب أصحابه وقُوداه وخذلوه، فقال لابنه عيسى: الحق بمكة فانج بنفسك، وأخبر عَمَّكَ عبد الله بما صنع أهلُ العراق بي، ودعني فلاني مقتول، فقال: لا تتحدث نساء قريش أني فررت عنك، ولكن أقاتل دونك حتى نقتل، فالفرار عار، ولا عار في القتل، ثم قاتل دونه حتى قُتل. وخفت مَنْ يحامي عن مُصْعَب من أهل العراق، وأيقن بالقتل، فأنفذ عبد الملك إليه أخاه محمد بن مروان، فأعطاه الأمان وولاية العراقيين أبداً ما دام حياً، وألفي ألف درهم صلة، فأبى وقال: إن مثلي لا ينصرف عن هذا المكان إلا غالباً أو مقتولاً، فشَدَّ عليه أهل الشام ورموه بالنبل فأثخنوه، وطعنه زائدة بن قيس بن قدامة السعدي، ونادى: بالثارات المختار! فوقع إلى الأرض، فنزل إليه عبد الملك بن زياد بن قُطَيْبان، فاحتزَّ رأسه، وحمله إلى عبد الملك.

لما حُيِّلَ رأسُ مصعب إلى عبد الملك بكى وقال: لقد كان أحبَّ الناس إلي وأشدَّهم مودة لي، ولكن الملك عقيم.

كتب مصعب إلى سَكِينَةَ بنت الحسين عليها السلام، وكان زوجته لما شخص إلى حرب عبد الملك وهي بالكوفة بعد ليالٍ من فراقها:

وكان عزيزاً أن أبيتَ ويبئسنا حِجَابٌ فَقَدْ أَصْبَحَتْ مِنِّي عَلَى عَشْرِ
وأبكاهُمَا واللَّه للعين فاعلمي إذا ازددت مثليها قَصِرْتُ عَلَى شَهْرِ
وأنكى لقلبي منهما اليومَ أني أخاف بالآ نلتقي آخر الدهرِ

ثم أرسل إليها وأشخصها، فشهدت معه حرب عبد الملك، فدخل عليها يوم قُتل، وقد نزع ثيابه ثم لبس غلالة، وتوشح بثوب واحد، وهو محتضن سيفه، فعلمت أنه غير راجع،

فصاحت: واحزناء عليك يا مصعب! فالتفت إليها، وقال: إن كل هذا في قلبك! قالت: وما أخفي أكثر. قال: لو كنت أعلم هذا لكان لي ولك شأن، ثم خرج فلم يرجع.

فقال عبد الملك يوماً لجلسائه: مَنْ أشجعُ الناس؟ فقالوا: قطري، شبيب، فلان وفلان، قال عبد الملك: بل رجل جَمَعَ بين سُكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة، وأمة الحميد بنت عبد الله بن عامر بن كريز، وقُلابة ابنة زيان بن أنيف الكلبي سيد العرب، وولي العراقين خمس سنين، فأصاب كذا وكذا ألف درهم، وأعطى الأمان على ذلك كله وعلى ولايته وماله فأبى، ومشى بسيفه إلى الموت حتى قُتل، ذاك مصعب بن الزبير، لا مَنْ قطع الجسور مرة ها هنا ومرة ها هنا!

سُئل سالم بن عبد الله بن عمر، أيّ ابني الزبير أشجع؟ فقال: كلاهما جاءه الموت، وهو ينظر إليه. لما وُضِعَ رأس مصعب بين يدي عبد الملك أنشد:

لقد أزدى الفوارس يومَ حُسنِي غلاماً غيرَ مناعِ المتناعِ
ولا فرح بخيرٍ إنْ أتاه ولا هَلِجَ من الحَدَثانِ لآعِ
ولا وقافةً والخيل تزدِي ولا خالٍ كأنبُوبَ البِرَاعِ
كان ابن ظبيان يقول: ما نَدِمْتُ على شيءٍ نَدِمْتُ على ألا أكونَ لَمَّا حَمَلْتُ إلى عبد الملك رأسَ مصعب فسَجَدَ قَتْلُهُ في سَجْدَتِهِ، فأكون قد قتلْتُ مَلِكِي العرب في يومٍ واحد.

قال رجل لعبد الله بن ظبيان: بماذا تحتج عند الله عز وجل غداً، وقد قتلَ مصعباً؟ قال: إن تُرِكَت أحتج كنت أخطب من صعصة بن صوحان!

كان مصعب لما خرج إلى حرب عبد الملك سأل عن الحسين بن علي عليه السلام، وكيف كان قتله؟ فجعل عروة بن المغيرة يحدث عن ذلك، فقال متمثلاً بقوله سليمان بن قتة:

وإنَّ الألى بالظف من آلِ هاشمٍ ناسُوا فسُئِلُوا للكرامِ النَّاسِيا
قال عروة: فعلمت أن مصعباً لا يفر.

لما كان يوم السَّبْخَةِ، وعسكر الحجاج بإزاء شبيب، قال له الناس: أيها الأمير، لو تنحيت عن هذه السبخة، فإنها منتنة الريح! قال: ما تنحونني - والله - إليه أنتن، وهل ترك مصعب لكريم مَقَرًّا! ثم أنشد قول الكلجة:

إذا المرءُ لم يَغْشَى الكَرِيبَةَ أوْشَكَتْ حَبالُ الهَوْنِني بالفتى أنْ تَقْطَعَا

وروى أبو الفرج في كتاب «الأغاني»: خطبة عبد الله بن الزبير في قتل مصعب برواية هي

أتمّ مما ذكرناه نحن فيما تقدم، قال: لما أتى خبر المصعب إلى مكة، أضرب عبد الله بن الزبير عن ذكره أياماً؛ حتى تحدث به جميع أهل مكة في الطريق، ثم صعد المنبر فجلس عليه ملياً لا يتكلم، فنظر الناس إليه، وإن الكآبة على وجهه لبادية، وإن جبينه ليرشح عرقاً، فقال واحد لآخر: ما له لا يتكلم؟ أترأه يهاب النطق؟ فوالله إنه لخطيب. فما تراه يهاب؟ قال: أراه يريد أن يذكر قتل المصعب سيّد العرب، فهو يقطع بذلك. فابتدأ فقال: الحمد لله الذي له الخلق والأمر، ملك الدنيا والآخرة، يعزّ من يشاء، ويذلّ من يشاء، ألا إنّه لا يذلّ من كان الحق معه وإن كان مفرداً ضعيفاً، ولا يعزّ من كان الباطل معه، وإن كان ذا عدد وكثرة. ثم قال: أتانا خبر من العراق، بلد الغدر والشقاق، فساءنا وسرّنا، أتانا أن مصعباً قتل رحمه الله، فأما الذي أحزننا من ذلك فإنّ لفراق الحميم لذعة ولوعة، يجدها حميمه عند المصيبة، ثم يرعوي ذو الرأي والدين إلى جميل الصبر، وأما الذي سرّنا منه فإنّ قتله كان له شهادة وإن الله جاعل لنا وله في ذلك الخيرة ألا إن أهل العراق باعوه بأقل الأثمان وأخسرها وأسلموه إسلام النعم المخطئة فقتل، وإن قُتل لقد قُتل أبوه وعمه وأخوه، وكانوا الخيار الصالحين، وإنا والله ما نموت حتف أنفنا، ما نموت إلا قتلاً قتلاً، وقّعصاً قعصاً، بين قصد الرماح، وتحت ظلال السيوف، ليس كما تموت بنو مروان، والله ما قُتل منهم رجل في جاهلية ولا إسلام، وإنما الدنيا عارية من الملك القهار الذي لا يزول سلطانه، ولا يبيد ملكه، فإن تقبل الدنيا علي لا أخذها أخذ اللثيم البطر، وإن تدبر عني لا أبكي عليها بكاء الخرف المتهتر. ثم نزل.

وقال الطرّمّاح بن حكيم، وكان يرى رأي الخوارج:

وإني لَمُتْنَادُ جَوَادِي فَقَاذِفٌ	به وَيَنْفُسي اليوم إحدى المتالف
لَا كَسِبَ مَالاً أَوْ أَلُوبَ إِلَى غَنَى	مِنْ اللّهِ يَكْفِينِي عِدَاةَ الْخَلَائِفِ
فِيَا رَبِّ إِن حَانَتْ وَفَاتِي فَلَا تَكُنْ	عَلَى شَرْجَعٍ يُعَلِّى بِخُضْرِ الْمَطَارِفِ
وَلَكِنْ قَبْرِي بَطْنُ نَشْرِ مَقْبِلِهِ	بَجَوِّ السَّمَاءِ فِي نَسْرِ عَوَاكِفِ
وَأَمْسِي شَهِيداً ثَاوِيّاً فِي عَصَابَةِ	يُصَابُونَ فِي فَجٍّ مِنَ الْأَرْضِ خَائِفِ
فَوَارِسُ أَشْنَاتٍ يُوَلِّفُ بَيْنَهُمْ	هُدَى اللّهِ نَزَالُونَ عِنْدَ الْمَوَاقِفِ

قال ابن شبرمة: مررت يوماً في بعض شوارع الكوفة، فإذا بنعش حوله رجال، وعليه مطرف خزر أخضر، فسألت عنه فقل: الطرّمّاح، فعلمت أنّ الله تعالى لم يستجب له.

وقال محمد بن هانيء:

ولم أجد الإنسان إلا ابن سفيه
وبالهمة العليا ترقى إلى العلا
ولم يتأخر من أراد تقدماً
الرضي الموسوي رحمه الله تعالى:

ومن أخرته نفسه مات عاجزاً
وله رحمه الله:

ما مقامى على الهوان وعندي
واباء محلق بي عن الضيق
أبو الطيب المتنبى:

تقولين ما في الناس مثلك عاشق
محب كنى بالبيض عن مرقاته
وبالسمر عن سمر القنا غير أنني
عديت فؤاداً لم يبت فيه فضلة
تريدين إدراك المعالي رخيصة
ابن الهبارية: الهمم العلية، والمهج الآية، تقرب المنية، منك أو الأمانة.

أبو تمام:

فتى النكبات من يأوي إذا ما
يثير عجاجة في كل فج
يخوض مع السباع الماء حتى
قلب العزم إن حاولت يوماً
فلم تركب كساجية المهاري
وله أيضاً:

إن خيراً مما رأيت من الصف
غربة تفتدي بغربة قب
عرضي نكبتين ما قتلاً رأ
ح عن النكبات والإغماض
س بن زهير والحارث بن مضا
بأ فخافاً عليه نكت انتفاض

بِ مِنَ الْعَيْشِ لَيْسَ بِالْفَضْفَاضِ
فِي حَدِيثٍ مِنْ ذِكْرِهِ مُسْتَفَاضٍ
وَالْفَيَافِي، كَالْحَيَّةِ النَّضْنَاضِ^(١)
فَتَشْكَةُ مِثْلُ فَتَشْكَةِ الْبَرَّاضِ^(٢)

مَشْرِفِيًّا مِنَ الشُّيُوفِ الْجَدَادِ
رِ نَدِيمِ النُّجُومِ يَرْبُ السُّهَادِ
سِ بِنِ عَمْرٍو وَيُحْتَرِبُ بِنِ عَتُودِ
رَابِعُ الْعَيْسِ وَالذُّجَى وَالْبِيدِ
نَلِ يَوْمًا إِنَّ الْغِنَى بِالْجُدُودِ
سَهْلَتُهُ أَيْدِي الْمَهَارِي الْقُرُودِ

مَنْ أَبَنَّ الْبُيُوتَ أَصْبَحَ فِي نَوْمِ
صَلَتَانِ أَعْدَاؤُهُ حَيْثُ حَلُّوا
وَالْفَتَى مَنْ تَعَرَّقَتْهُ اللَّيَالِي
كُلَّ يَوْمٍ لَهُ بِصَرْفِ اللَّيَالِي
وَلَهُ أَيْضًا:

إِنْ تَرَيْنِي تَرِي حُسَامًا صَفِيلًا
ثَانِي اللَّيْلِ ثَالِثُ الْبِيدِ وَالسَّيْدِ
أَخَذَ هَذَا اللَّفْظَ أَبُو عُبَادَةَ الْبَحْتَرِيُّ فَقَالَ:
يَا نَدِيمِي بِالسَّوَاكِيرِ مِنْ شَمِ
اطْلُبَا ثَالِثًا سِوَايَ فَلَانِي
لَسْتُ بِالْعَاجِزِ الضَّعِيفِ وَلَا الْقَا
وَإِذَا اسْتَصْعَبَتْ مَقَادَةُ أَمْرِ

وَقَالَ الرُّضَيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

تَذِلُّ لَهُ الْجُمَا جُمُ وَالرَّقَابُ
وَيَغْضُ الْمَالِ مَنَقَصَةً وَعَابُ
رِيَا أَرْضِي، وَرِجْلِي وَالرَّكَابُ
كَمَا عَرَفْتُ تَوَقُّلِي الْعِقَابُ
وَعِزُّ الْمَوْتِ مَا عَزَّ الْجَنَابُ
فَلَمْ يَبْقُ الَّذِينَ أَبَوْا وَهَابُوا
عَتِيبَةً يَوْمَ أَقْصَصَهُ ذُؤَابُ
وَمَنْ وَارَى مَعَالِمَهُ الثُّرَابُ
مُسَاوٍ لِلَّذِينَ بَقُوا وَشَابُوا

وَلَمْ أَرَ كَالرَّجَاءِ الْيَوْمَ شَيْنًا
وَيَغْضُ الْعُذْمِ مَأْثَرَةً وَفَخْرُ
بَنَانِي وَالْعَيْنَانِ إِذَا نَبَتْ بِي
وَقَدْ عَرَفْتُ تَوَقُّلِي^(٣) اللَّيَالِي
لَا مَنَعَ جَائِبًا وَأَفِيدَ عِزًّا
إِذَا هَوُلَ دَعَاكَ فَلَا تَهَبُهُ
كُلَيْبٍ عَاقَصَتْهُ يَدٌ وَأَوْدَى
سِوَاءَ مَنْ أَقْلَ الثُّرُبِ مِثْنًا
وَإِنَّ مُزَايِلَ الْعَيْشِ اغْتَرَبَاطًا

(١) حية نضناض: تحرك لسانها، ويقال للقلق الذي لا يثبت في مكانه لشدة ونشاطه: كالحية نضناض. اللسان، مادة (نضض).

(٢) البرَّاض: الذي يأكل كل شيء من ماله ويفسده. اللسان، مادة (برض).

(٣) التوقل: الإسراع في الصعود. اللسان، مادة (صعد).

وَأَوْلْنَا الْعَنَاءَ إِذَا طَلَعْنَا إِلَى كَمْ ذَا التَّرَدُّدِ فِي الْأَمَانِي
وَلَا نَفْعَ يُثَارُ وَلَا قَتَامٌ^(١) وَلَا طَمَعَنْ يُشَبُّ وَلَا ضِرَابُ
وَلَا خَيْلٌ مُعَقَّدَةُ النُّوَاصِي يَمْوجُ عَلَى شَكَايِمِهَا^(٢) اللَّعَابُ
عَلَيْهَا كُلُّ مُلْتَهَبِ الْحَوَاشِي يُصِيبُ مِنَ الْعَدُوِّ وَلَا يُصَابُ
سَأْخَطُبُهَا بِحَدِّ السَّيْفِ فِعْلًا إِذَا لَمْ يُغْنِ قَوْلٌ أَوْ خَطَابُ
وَأَخْذُهَا وَإِنْ رَغِمَتْ أَنْفُ مَغَالِبَةٌ وَإِنْ ذَلَّتْ رِقَابُ

فقد سليمان بن عبد الملك يعرض ويفرض، فأقبل فتى من بني عيس وسيم، فأعجبه، فقال: ما اسمك؟ قال: سليمان، قال: ابن من؟ قال: ابن عبد الملك، فأعرض عنه، وجعل يفرض لمن دونه، فعلم الفتى أنه كره موافقة اسمه واسم أبيه، فقال: يا أمير المؤمنين لا عدمت اسمك، ولا شقي اسم يوافق اسمك! فأفرض، وإنما أنا سيف بيدك، إن ضربت به قطعت، وإن أمرتني أطعت، وسهّم في كنانتك، اشتد إن أرسلت، وأنفذ حيث وجهت. فقال له سليمان، وهو يروّزه ويختبره: ما قولك يا فتى، لو لقيت عدوا؟ قال: أقول: حسبي الله ونعم الوكيل. قال سليمان: أكنت مكتفياً بهذا لو لقيت عدوك دون ضرب شديد؟ قال الفتى: إنما سألتني يا أمير المؤمنين: ما أنت قائل فأخبرتكم، ولو سألتني: ما أنت فاعل لأنبأكم، إنه لو كان ذلك لضربت بالسيف حتى يتعقف، ولطعنت بالرمح حتى يتقصّف، ولعلمت إن أملت فإنهم بالمون، ولرجوت من الله ما لا يرجون. فأعجب سليمان به وألحقه في العطاء بالأشراف، وتمثل:

إِذَا مَا اتَّقَى اللَّهُ الْفَتَى ثُمَّ لَمْ يَكُنْ عَلَى أَهْلِهِ كَلًّا فَقَدْ كَمَلَ الْفَتَى
السَّرَّ تَحْتَ قَوْلِهِ: «ثُمَّ لَمْ يَكُنْ عَلَى أَهْلِهِ كَلًّا»، يقال في المثل: «لا تكن كلاً على أهلك فتهلك».

عدي بن زيد:

فَهَلْ مِنْ خَالِدٍ إِمَّا هَلَكْنَا وَهَلْ بِالْمَوْتِ يَا لِلنَّاسِ عَارًا

(١) القتام: الغبار. اللسان، مادة (قتم).

(٢) الشكيم والشكيمة: في اللجام: الحديد المترضة في فم الفرس التي فيها الفأس. اللسان، مادة (شكم).

الرضي الموسوي رحمه الله تعالى:

إِذَا لَمْ يَكُنْ إِلَّا الْحَمَامُ فَلَانِي
وَأَلْبَسُهَا حَمْرَاءَ تَضْفُو ذُيُولَهَا
فَمِنْ قَبْلُ مَا اخْتَارَ ابْنُ الْأَشْعَثِ عَيْشَهُ
فَطَارَ ذَمِيمًا قَدْ تَقَلَّدَ عَارَهَا
وَجَاءَهُمْ يَجْرِي الْبَرِيدُ بِرَأْسِهِ
وَقَدْ حَاصَ مِنْ خَوْفِ الرَّدَى كُلِّ حَيْصَةٍ
وَهَذَا يَزِيدُ بْنُ الْمَهْلَبِ نَافَرَتْ
فَقَالَ وَقَدْ عَنِ الْفِرَارِ أَوْ الرَّدَى:
وَمَا غَمَرَاتُ الْمَوْتِ إِلَّا أَنْغِمَاسَةٌ
رَأَى أَنْ هَذَا السَّيْفُ أَهْوَنُ مَخْمَلًا
وَمَا قَلَّدَ الْبَيْضَ الْمَبَاتِيرَ عُنُقَهُ
فَعَاثَ الدَّنَايَا وَامْتَطَى الْمَوْتَ شَامَخًا
وَقَدْ خَلَقَتْ خَوْفَ الْهَوَانِ بِمُضْغَبٍ
عَلَى حِينَ أَغْطَوْهُ الْأَمَانَ فَعَاثَهُ
وَفِي خِذْرِهِ غُرَاءٌ مِنْ آلِ طَلْحَةَ
تَحَبَّبُ أَيَّامَ الْحَيَاةِ وَإِنَّهَا
فَقَارَتْهَا وَالْمُلْكُ لَمَّا رَأَاهَا
وَلَمَّا آخَ الْحَوْفَزَانُ^(٢) مِنَ الرَّدَى
وَعَادَرَهَا شَنْعَاءُ إِنْ ذُكِرَتْ لَهُ
كَذَاكَ تُنِيبِي بَعْدَ الْبَفَرَارِ أُمِّيَّةً
وَسَلَّ لَهَا سَلَّ الْحُسَامِ ابْنُ مَعْمَرٍ
يُرَدِّدُ ذِكْرِي كُلَّ نَجْدٍ وَغَائِرٍ

سَأَكْرِمُ نَفْسِي عَنْ مَقَالِ اللَّوَائِمِ
مِنَ الدَّمِ بُغْدًا عَنْ لِبَاسِ الْمَلَاوِمِ
عَلَى شَرَفٍ عَالٍ رَفِيعِ الدُّعَائِمِ
بِشَرِّ جَنَاحٍ يَوْمَ دَيْرِ الْجَمَاجِمِ
وَلَمْ يُغْنِ إِيغَالٌ بِهِ فِي الْهَزَائِمِ
فَلَمْ يَنْجُ وَالْأَقْدَارُ ضَرْبَةً لَا زِمَ
بِهِ الذَّلُّ أَعْرَاقُ الْجُدُودِ الْأَكَارِمِ
لِحَا اللَّهِ أَخْزَى ذُكْرَةً فِي الْمَوَاسِمِ
وَلَا فِي الْمَنَایَا غَيْرَ تَهْوِيمِ نَائِمِ
مِنَ الْعَارِ يَبْقَى وَسْمُهُ فِي الْمَخَاطِمِ
سِوَى الْخَوْفِ مِنْ تَقْلِيدِهَا بِالْأَدَامِ
بِمَارِنٍ عِزٍّ لَا يَذُلُّ لِخَاطِمِ
قَوَادِمِ آبَاءِ كِرَامِ الْمَقَادِمِ
وَتُخَيَّرَ فَاخْتَارَ الرَّدَى غَيْرَ نَادِمِ
عَلَاقَةُ قَلْبٍ لِلنَّدِيمِ الْمُخَالِمِ^(١)
لَاغْذَبُ مِنْ طَعْمِ الْخُلُودِ لَطَاعِمِ
يَجْرَانِ إِذْلالِ النُّفُوسِ الْكَرَائِمِ
خَذَاهُ الْمَخَازِي رُمُحُ قَيْسِ بْنِ عَاصِمِ
مِنَ الْعَارِ طَاطَا رَأْسَ خُزْيَانَ وَاجِمِ
بِشَقِيقَةٍ لَوْثَاءٍ مِنْ آلِ دَارِمِ
فَنَكَّرَ عَلَى أَهْقَابِ نَابٍ بِصَارِمِ
وَأَلْجَمَ خَوْفِي كُلَّ بَاغٍ وَظَالِمِ

(١) المخالمة: المصادقة والمغازلة. اللسان، مادة (خلم).

(٢) الحوفزان: اسم رجل وهو الحارث بن شريك الشيباني، لقب بذلك لأن قيس بن عاصم التميمي حفزه بالرمح - أي طعنه - حين خاف أن يفوتخ فخرج من تلك الحفرة فسمي بتلك الحفرة حوفزاناً. اللسان، مادة (حفر).

وَمَهَّدَنِي الْأَعْدَاءُ فِي الْمَهْدِ لَمْ يَجُنْ تُهَوِّضِي وَلَمْ تُقْطَعْ عَقُودُ تَمَائِمِي
وَعِنْدِي يَوْمٌ لَوْ يَزِيدُ وَمُسْلِمٌ بَدَا لَهُمَا لاسْتَضَفِرَا يَوْمٌ وَاقِمٌ^(١)
عَلَى الْعِزِّ مَثَلُ لَا مِثْلَهُ مُسْتَكِينَةٌ تُزِيلُ عَنِ الدُّنْيَا بِشَمِّ الْمَرَاغِمِ
وَنَحَاطِرُ عَلَى الْجُلَى خِطَارُ ابْنِ حُرَّةٍ وَإِنْ زَاخَمَ الْأَمْرُ الْعَظِيمُ فَرَاخِمِ

ومن أباة الضيم ومؤثري الموت على الحياة الذليلة محمد وإبراهيم، ابنا عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام. لما أحاطت عساكر عيسى بن موسى بمحمد وهو بالمدينة، قيل له: انج بنفسك، فإن لك خيلاً مضمرّة ونجائب سابقة، فاقعد عليها، والتحق بمكة أو باليمن. قال: إني إذا لعبداً وخرج إلى الحرب يباشرها بنفسه وبمواليه، فلما أمسى تلك الليلة وأيقن بالقتل، أشير عليه بالاستتار، فقال: إذن يستعرض عيسى أهل المدينة بالسيف، فيكون لهم [يوم] كيوم الحرية، لا والله لا أحفظ نفسي بهلاك أهل المدينة، بل أجعل دمي دون دمائهم. فبذل له عيسى الأمان على نفسه وأهله وأمواله، فأبى ونهّد إلى الناس بسيفه، لا يقاربه أحد إلا قتله، لا والله ما يبقي شيئاً، وإن أشبهه خلق الله به فيما ذكر هو حمزة بن عبد المطلب. ورَمَى بالسُّهَامِ، ودَهَمَتِ الخيل، فوقف إلى ناحية جدار، وتحاماه الناس فوجد الموت، فتعامل على سيفه فكسره، فالزيدية تزعم أنه كان سيف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذا الفقار.

وروى أبو الفرج الأصفهاني في كتاب «مقاتل الطالبين» أن محمداً عليه السلام، قال لأخته ذلك اليوم: إني في هذا اليوم على قتال هؤلاء، فإن زالت الشمس، وأمطرت السماء فإني مقتول، وإن زالت الشمس ولم تُمطر السماء، وهبت الريح، فإني أظفر بالقوم، فأججي التناير، وهيتي هذه الكتب - يعني كتب البيعة الواردة عليه من الآفاق - فإن زالت الشمس، ومطرت السماء فاطرّجي هذه الكتب في التناير، فإن قدرتم على بدني فخذوه، وإن لم تقدروا على رأسي فخذوا سائر بدني، فأثوا به ظلة بني بليّة على مقدار أربعة أذرع أو خمسة منها، فاحفروا لي حفيرة، وادفوني فيها. فمطرت السماء وقت الزوال، وقتل محمد عليه السلام، وكان عندهم مشهوراً أن آية قتل النفس الزكية أن يسيل دم بالمدينة حتى يدخل بيت عاتكة، فكانوا يعجبون كيف يسيل الدم حتى يدخل ذلك البيت! فأمطرت السماء ذلك اليوم، وسال الدم بالمطر حتى دخل بيت عاتكة، وأخذ جسده، فحفّر له حفيرة في الموضع الذي حدّه لهم، فوقعوا على صخرة فأخرجوها، فإذا فيها مكتوب: «هذا قبر الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام»، فقالت زينب أخت محمد عليه السلام: رحم الله أخي، كان أعلم حيث أوصى أن يدفن في هذا الموضع.

(١) واقم: أطم من أطام المدينة. اللسان، مادة (وقم).

وروى أبو الفرج، قال: قَدِمَ على المنصور قادم، هَرَبَ محمدا فقال له: كَذَبْتَ! إنا أهل البيت لا نفر.

وأما إبراهيم عليه السلام، فروى أبو الفرج عن المفضل بن محمد الضبي، قال: كان إبراهيم بن عبد الله بن الحسن متوارياً عندي بالبصرة، وكنت أخرج وأتركه، فقال لي: إذا خرجت ضاق صدري، فأخرج إلي شيئا من كتبك أنفرج به، فأخرجت إليه كتباً من الشعر، فاختر منها القصائد السبعين التي صدرت بها كتاب «المفضليات»، ثم أتممت عليها باقي الكتاب.

فلما خرج خرجت معه، فلما صار بالمزبد، مزبد سليمان بن علي، وقف عليهم، وأمنهم واستسقى ماء، فأتي به فشرب، فأخرج إليه صبيان من صبيانهم فضمتهم إليه، وقال: هؤلاء والله مِنَّا ونحن منهم، لحمنا ودمنا، ولكن آباءهم انتزوا على أمرنا، وابتزوا حقوقنا، وسفكوا دماءنا، ثم تمثل:

مَهْلًا بَنِي عَمَّنَا ظَلَمْتَنَا إِنْ بَنَّا سَوْرَةً مِنَ الْغَلَقِ^(١)
لَمْثَلِكُمْ نَحْمِلُ السِّيفَ وَلَا تُغَمِّرُ أَحْسَابُنَا مِنَ الرُّقَى
إِنِّي لَأَتِمِّي إِذَا انْتَمَيْتُ إِلَى عِزُّ عَزِيزٍ وَمَفْشَرٌ صُدُقِ
بِإِضْ سَبَاطٍ كَانَ أَغْيُنَهُمْ تُكْحَلُ يَوْمَ الْهِيَاجِ بِالْغَلَقِ

فقلت له: ما أجود هذه الأبيات وأفحلها! فلَمَنْ هي؟ فقال: هذه يقولها ضرار بن الخطاب الفهري يوم عبر الخندق على رسول الله ﷺ، وتمثل بها علي بن أبي طالب يوم صفين، والحسين يوم الطف، وزيد بن علي يوم السبحة، ويحيى بن زيد يوم الجوزجان، فتطيرت له من تمثله بأبيات لم يتمثل بها أحد إلا قُتِل. ثم سرنا إلى باخمرى، فلما قرب منها أتاه نعي أخيه محمد، فتغير لونه وجرح بريقه، ثم أجهش باكياً، وقال: اللهم إن كنت تعلم أن محمداً خرج يطلب مرضاتك، ويؤثر أن تكون كلمتك العليا، وأمرُك المتبع المطاع فاغفر له وارحمه، وارض عنه، واجعل ما نقلته إليه من الآخرة خيراً مما نقلته عنه من الدنيا، ثم انفجر باكياً ثم تمثل:

أَبَا الْمُنَازِلِ يَا خَيْرَ الْفَوَارِسِ مَنْ يُفَجِّعُ بِمِثْلِكَ فِي الدُّنْيَا فَقَدْ فُجِّعَا
اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي لَوْ خَشِيتُهُمْ أَوْ آتَسَ الْقَلْبُ مِنْ خَوْفٍ لَهُمْ فَرَعَا
لَمْ يَقْتُلُوكَ وَلَمْ أُسْلِمِ أَخِي لَهُمْ حَتَّى نَعِيشَ جَمِيعاً، أَوْ نَمُوتَ مَعَا

(١) الفلق: ضيق الصدر وقلة الصبر. اللسان، مادة (غلق).

قال المفضل: فجعلت أعزّيه وأعاتبه على ما ظهر من جَزَعه، فقال: إني والله في هذا، كما قال دُرَيْد بن الصَّمَّة:

يقولُ ألا تَبْكِي أَخَاكَ وَقَدْ أَرَى مكانَ البُكَاءِ، لكن بُنِيتُ على الصَّبْرِ
لمقتلِ عبدِ الله والهالكِ الذي على الشَّرَفِ الأعلى قتيلِ أبي بكرٍ
وعبدِ يغوثٍ تحجلُ الظَّيْرَ حَوْلَهُ وجلَّ مصاباً جَثُوَ قَبْرِ عَلَى قَبْرِ
فإِنا ترينَا لا تزال دماؤنا لدى وَاثِرٍ يَسْعَى بها آخرَ الدَّهْرِ
فإِنا لِلْخَمِّ السَّيْفِ غَيْرَ نَكِيرَةٍ ونُلْجِئُهُ طَوْرًا، وليس بذي نُكْرٍ
يُغَارُ علينا وَاثِرِينَ فَيُشْتَفَى بِنَا إِنْ أَصَبْنَا أو نُغَيِّرُ عَلَى وَثِرٍ
بِذَاكَ قَسَمْنَا الدَّهْرَ شَطْرَيْنَ بَيْنَا فما يَنْقُضِي إلا ونَحْنُ عَلَى شَطْرِ

قال المفضل: ثم ظهرت لنا جيوش أبي جعفر مثل الجراد، فتمثل إبراهيم عليه السلام قوله:

إن يقتلونني لا تُصِيبَ أرماحهم ثأري ويسعى القوم سَفِيًّا جَاهِدًا
نبئت أن بني جَذِيمَةٍ أَجْمَعَت أَمْرًا تَدْبُرُهُ لَتَقْتُلَ خَالِدًا
أرمي الطريق وإن رُصِدْتُ بِضَيْقِهِ وَأَنَا زِلُّ البَطَلِ الْكُومِيِّ الْحَارِدَا

فقلت له: مَنْ يقول هذا الشعر يا بن رسول الله؟ فقال: يقوله خالد بن جعفر بن كلاب يوم شَغَبَ جَبَلَةَ، وهذا اليوم الذي لَقِيتُ فيه قيسَ تميمًا. قال: وأقبلت عساكر أبي جعفر، فطعن رجلًا وطعنه آخر، فقلت له: أَتُبَاشِرُ القتالَ بنفسك؟ وإنما العسكرُ منوط بك، فقال: إليك يا أَخَا بني ضَبَّة، فإني لكما قال عُوفٍ القَوَافِي:

أَلَمْتُ سُمْعَادَ وَالْمَاءِهَا أَحَادِيثَ نَفْسٍ وَأَحْلَامُهَا
مُعْجَبَةً مِنْ بَنِي مَالِكٍ تَطَاوَلُ فِي الْمَجْدِ أَغْلَامُهَا
وَأَنَّ لَنَا أَصْلَ جُرْثُومَةٍ تَرُدُّ الْحَوَادِثَ أَيَامُهَا
تَرَدُّ الْكُتَيْبَةَ مَفْلُولَةً بِهَا أَفْنُهَا وَبِهَا ذَامُهَا^(١)

والتحمت الحرب واشتدت، فقال: يا مفضل، احكني بشيء، فذكرت أبياتاً لعوفٍ القوافي لما كان ذكره هو من شعره، فأنشدته:

أَلَا أَيُّهَا النَّاهِي قَسْرَارَةَ بَعْدَمَا أَجَدْتُ لَسِيرٍ، إِنَّمَا أَنْتَ ظَالِمٌ
أَبَى كُلُّ حُرٍّ أَنْ يَسْبِيتَ بِوَثْرِهِ وَتَمْنَعُ مِنْهُ النَّوْمُ إِذْ أَنْتَ نَائِمٌ
أَقُولُ لِفَتَيَانٍ كَرَامٍ تَرَوَّحُوا عَلَى الْجُرْدِ فِي أَفْوَاهِهِنَّ الشَّكَايُمُ

(١) الأفن: النقص، اللسان، مادة (أفن). والدام: العيب. اللسان، مادة (ذيم).

قفوا وقفَةً من يحي لا يَخْزَ بعدها وَمَنْ يُخْزِرُمْ لا تَتَّبِعُهُ اللّوَاهِم
وهل أنت إن باعدت نفسك عنهم لتسلم فيما بعد ذلك سالم
فقال: أعد، وتبينت من وجهه أنه يستقتل، فانتهيت وقلت: أو غير ذلك؟ فقال: لا، بل
أعد الأبيات، فأعدتها، فتمطى في ركائيه فقطعهما، وحمل فغاب عني، وأتاه سهم عائر فقتله،
وكان آخر عهدي به عليه السلام.

قلت: في هذا الخبر ما يحتاج إلى تفسير، أما قوله:

إِنْ بَنَّا سُورَةً مِنَ الْفَلَقِ

فالفلق: الضجر وضيق الصدر والحدة، يقال: احتد فلان فنشب في جدته وغلق.
والسورة: الوثوب، يقال: إن لغضبه لسورة، وإنه لسوار، أي وثاب معربد. وسورة الشراب:
وثوبه في الرأس، وكذلك سورة السم، وسورة السلطان: سطوته واعتداؤه.

وأما قوله: «المثلکم نحمل السيوف» فمعناه أن غيركم ليس بكفء لنا لنحمل له السيوف
وإنما نحملها لكم، لأنكم أكفأونا، فنحن نحاربكم على الملك والرياسة وإن كانت أحسابنا
واحدة، وهي شريفة لا مغمز فيها.

والرقق، بفتح الراء: الضعف، ومنه قول الشاعر:

لَمْ تَلْقَ فِي عَظْمِهَا وَفَنَاءً وَلَا رَقَقاً

وقوله:

تُكْحَلُ يَوْمَ الْهَيَاجِ بِالْمَلَقِ

فالعلق الدم، يريد أن عيونهم حُمِرَ لشدة الغيظ والغضب، فكانها كُحِلَتْ بالدم.
وقوله: «لكن بنيت على الصبر»، أي خلقت وبنيت بنية تقتضي الصبر، والشرف الأعلى:
العالي، وبنو أبي بكر بن كلاب، من قيس عيلان، ثم أحد بني عامر بن صعصعة.
وأما قوله:

إِنْ يَفْئُلُونِي لَا تُصِيبْ أَرْمَاحَهُمْ

فمعناه أنهم إن قتلوني ثم حاولوا أن يصيبوا رجلاً آخر مثلي يصلح أن يكون لي نظيراً، وأن
يجعله دمه بواء لدمي، وسعوا في ذلك سعيًا جاهدًا، فإنهم لم يجدوا ولم يقدرُوا عليه.
وقوله: «أرمي الطريق...» البيت، يقول: أسلك الطريق الضيق، ولو جعل عليّ فيه الرصد
لقتلي.

والحارد: المنفرد في شجاعته، الذي لا مثل له.

شريعة الفرات بين معاوية وعلي عليه السلام

فأما حديث الماء وغلب أصحاب معاوية على شريعة الفرات بصفين، فنحن نذكره من كتاب «صفين» لنصر بن مزاحم.

قال نصر: كان أبو الأعور السلمي على مقدمة معاوية، وكان قد نأوش مقدمة علي عليه السلام وعليها الأشر النخعي مناوشة ليست بالعظيمة، وقد ذكرنا ذلك فيما سبق من هذا الكتاب، وانصرف أبو الأعور عن الحرب راجعاً، فسبق إلى الماء فغلب عليه في الموضع المعروف بقناصرين إلى جانب صفين، وساق الأشر يتبعه، فوجده غالباً على الماء، وكان في أربعة آلاف من مستبصري أهل العراق، فصدّموا أبا الأعور وأزالوه عن الماء، فأقبل معاوية في جميع الفيلق بقضه وقضيضه^(١)، فلما رأهم الأشر انحاز إلى علي عليه السلام، وغلب معاوية وأهل الشام على الماء، وحالوا بين أهل العراق وبينه، وأقبل علي عليه السلام في جموعه، فطلب موضعاً لعسكره، وأمر الناس أن يضعوا أثقالهم، وهم أكثر من مائة ألف فارس، فلما نزلوا تسرع فوارس من فوارس علي عليه السلام على خيولهم إلى جهة معاوية يتطاعنون ويرمون بالسهام، ومعاوية بعد لم ينزل، فتناوشهم أهل الشام القتال، فاقتلوا هرباً.

قال نصر: فحدثني عمر بن سعد، عن سعد بن طريف، عن الأصمغ بن ثباتة: فكتب معاوية إلى علي عليه السلام: عافانا الله وإياك.

ما أحسن العدل والإنصاف من عمل وأقبح القبيح ثم النفس في الرجل وكتب بعده:

أربط جمارك لا تنزع سوتته إذا برّد وقيد القيير مكرّوب
ليست ترى السيّد زيدا في نفوسهم كما يراه بنو كوز ومرهوب
إن تسألوا الحق نعط الحق سائله والذرع مخقبة والسيف مقروب
أو تأنفون فلنا مفسر أنف لا نطعم الضيم إن التّم مشروب

فأمر علي عليه السلام أن يوزع الناس عن القتال، حتى أخذ أهل الشام مصافهم ثم قال: أيها الناس، إن هذا موقف، من نطف فيه نطف يوم القيامة، ومن قلج فيه فلج يوم القيامة، ثم قال لما رأى نزول معاوية بصفين:

لقد أتانا كاشراً عن نأيه يهْمَطُ الناس على اعتزابه^(٢)
فليأتينا الدفربما أتى به

(١) بقضه وقضيضه: أي بأجمعه. اللسان، مادة (قضض).

(٢) همط فلان الناس يهملهم: ظلمهم حقهم. اللسان، مادة (همط).

قال نصر: وكتب علي عليه السلام إلى معاوية جواب كتابه، أما بعد:

فَإِنَّ لِلْحَرْبِ عُرَاماً شَرّاً إِنَّ عَلَيْهَا قَائِداً عَشْنَزّاً^(١)
يُنْصِفُ مَنْ أَخْجَرَ أَوْ تَنَمَّرَا عَلَى نَوَاجِيهَا مِرْجَا زَمْجَرَا
إِذَا وَنِينَ سَاعَةً تَفْشَمَرَا

وكتب بعده:

أَلَمْ تَرَ قَوْمِي إِنْ دَعَاهُمْ أَخُوهُمْ أَجَابُوا، وَإِنْ يَغْضَبُ عَلَى الْقَوْمِ يَغْضَبُوا
هُمْ حَفَظُوا غَيْبِي كَمَا كُنْتُ حَافِظاً لِقَوْمِي أُخْرَى مِثْلَهَا إِنْ يُغَيَّبُوا
بَنُو الْحَرْبِ لَمْ تَقْعُدْ بِهِمْ أُمَّهَاتُهُمْ وَأَبَاؤُهُمْ أَبَاءَ صِدْقٍ فَأَنْجَبُوا
قال: قد تراجع الناس كل من الفريقين إلى معسكرهم، وذهب شباب من الناس إلى أن
يستقوا فمنعهم أهل الشام. قلت: في هذه الألفاظ ما ينبغي أن يشرح.

قوله: «فاقتتلوا هويّاً»، بفتح الهاء، أي قطعة من الزمان، وذهب هوي من الليل، أي فريق
منه. والتفش: كثرة الكلام والدعاوي، وأصله من تفش الصوف.

والسوية: كساء محشو بشمام^(٢) ونحوه، كالبرذعة. وكرب القيد، إذا ضيقه على المقيد، وقيد
مكروب، أي ضيق. يقول: لا تنزع برذعة حمارك عنه واربطه وقيد، وإلا أعيد إليك وقيد ضيق.
وهذا مثل ضربته لعلي عليه السلام، يأمره فيه بأن يردع جيشه عن التسرع والعجلة في الحرب.

وزيد المذكور في الشعر، هو زيد بن حصين بن ضرار بن عمرو بن مالك بن زيد بن كعب بن
بجالة بن ذهل بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبة بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن
معد بن عدنان، وهو المعروف بزيد الخيل، وكان فارسهم. وبنو السيد من ضبة أيضاً وهم بنو
السيد بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبة بن أد بن طابخة، إلى آخر النسب، وبنو السيد بنو عم
زيد الفوارس، لأنه من بني ذهل بن مالك، وهؤلاء بنو السيد بن مالك، وبينهم عداوة النسب،
يقول: إن بني السيد لا يروون زيدا في نفوسهم كما تراه أهله الأذنون منه نسباً، وهم بنو كوز
وبنو مرهوب، فأما بنو كوز فإنهم بنو كوز بن كعب بن بجالة بن ذهل بن مالك. وأما بنو
مرهوب، فإنهم بنو مرهوب بن عبيد بن هاجر بن كعب بن بجالة بن ذهل بن مالك، يقول: نحن
لا نعظم زيدا ولا نعتقد فيه من الفضيلة ما يعتقده أهله وبنو عمه الأذنون، والمثل لعلي عليه السلام،
أي نحن لا نرى في علي ما يراه أهل العراق من تعظيمه وتبجيله.

(١) العشنزر: الشديد الخلق العظيم من كل شيء. اللسان، مادة (عشزر).

(٢) الشمام: نبت ضعيف له خوص أو شبيه بالخوص. وربما حشي به وسد به خصاص البيوت.
اللسان، مادة (ثم).

وقوله:

وَالدَّرْعُ مُحَقَّبَةٌ وَالسَّيْفُ مَقْرُوبٌ

أي والدرع بحالها في حِقَابِهَا، وهو ما يشد به في غلافها، والسيف بحاله أي في قرابه، وهو جَفْنُهُ، يقال: حَقَبْتُ الدَّرْعَ وقربت السيف، كلاهما ثلاثيان، يقول: إن سألتكم الحق أعطيناكموه من غير حاجة إلى الحرب، بل نجيبكم إليه والدروع بحالها لم تلبس، والسيوف في أجفانها لم تشهر. وأما إثبات النون في «تأنفون» فإن الأصوب حذفها لعطف الكلمة على المجزوم قبلها، ولكنه استأنف ولم يعطف، كأنه قال: أو كنتم تأنفون، يقول: وإن أنفتم وأيتم إلا الحرب، فإننا نأنف مثلكم أيضاً، لا نطعم الضيم ولا نقبله. ثم قال: إن السّم مشروب، أي أن السّم قد نشربه ولا نشرب الضيم، أي نختر الموت على الضيم والذلة. ويروي:

وإن أنفتم فإن معشر أنف لا نطعم الضيم إن الضيم مرهوب

والشعر لعبد الله بن عَنَمَة الضبي، من بني السَّيِّد، ومن جملة:

وقد أروح أمام الحَيِّ يقدمني صافي الأديم كَمَيْت اللَّوْنُ مَنْشُوبٌ

مُحَنَّبٌ مثل شاة الرِّئِلِ مُخْتَفِزٌ بالقُضْرَيْنِ عَلَى أَوْلَاهِ مَضْبُوبٌ^(١)

يَبْذُ مَلْجَمَهُ هَادِلَهُ تَلْعُ كأنه من جُذُوعِ الْعَيْنِ مَشْدُوبٌ^(٢)

فذاك دُخْرِي إذا ما خيلهم رَكَّضَتْ إِلَى الْمَثُوبِ أو مَقَاءِ سُرْحُوبِ^(٣)

فأما قوله عليه السلام: «هذا موقفٌ مَنْ نَطَفَ فيه نَطَفَ يوم القيامة»، أي مَنْ تَلَطَّخَ فيه بعيب من فرار أو نكول عن العدو. يقال: نَطَفَ فلان بالكسر إذا تَدَنَسَ بعيب. ونَطَفَ أيضاً إذا فسد، يقول: مَنْ فسد حاله اليوم في هذا الجهاد فسدت حاله غداً عند الله.

قوله: «مَنْ قَلَجَ فيه» بفتح اللام، أي مَنْ ظَهَرَ وفاز، وكذلك يكون غداً عند الله، يقال: قَلَجَ زيدٌ على خصمه بالفتح، يَفْلُجُ، بضم اللام، أي ظَهَرَ حَجَّتُهُ عليه، وفي المثل: من يأت الحَكَمَ وحده يَفْلُجُ.

قوله: «يَهْمَطُ الناسُ»، أي يقهرهم ويخبطهم، وأصله الأخذ بغير تقدير.

(١) معنَّب: التحنُّب في الخيل بعد ما بين الرجلين من غير فحج وهو مدح، وقيل: اعوجاج في الساقين. اللسان، مادة (حنب). محتفز: أي تدفع الحزام بمرققيها من شدة جريها، اللسان، مادة (حفز).

(٢) مشدوب: فرس مشذب: إذا كان طويلاً ليس بكثير اللحم، اللسان. مادة (شذب).

(٣) السرحوب: الطويل الحسن الجسم. اللسان، مادة (سرحب).

وقوله: «على اعتزابه» أي على بعده عن الإمارة والولاية على الناس. والعَرَام بالضم: الشراسة والهوج. والعشتر: الشديد القوي.

وأحجر: ظلم الناس حتى ألجأهم إلى أن دخلوا حجرهم أو بيوتهم. وتَنَمَّر، أي تنكر حتى صار كالنمر. يقول: هذا القائد الشديد القوي ينصف مَنْ يظلم الناس ويتنكر لهم، أي ينصف منه، فحذف حرف الجر كقوله: «وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ»^(١). أي من قومه. والمِزَج، بكسر الميم: السريع النفوذ، وأصله الرمح القصير، كالْمِزَج، بكسر الميم: السريع النفوذ، وأصله الرمح القصير، كالْمِزَاق.

ورجل زمجر، أي مانع حوزته، والميم زائدة. ومن رواها «زَمْخَرًا» بالخاء، عَنَى به المرتفع العالي الشأن، وجعل الميم زائدة أيضاً، من زَخَرَ الوادي، أي علا وارتفع.

وَعَشَمَ السيل: أقبل، والغشمة: إثبات الأمر بغير تثبيت، يقول: إذا أبطأ ساقهن سَوْقاً عنيفاً.

والآيات البائية لربيعة بن مرقوم الطائي.

قال نصر: حدثنا عمر بن سعد، عن يوسف بن يزيد، عن عبد الله بن عوف بن الأحمر، قال: لما قدمنا على معاوية وأهل الشام بصفيين، وجدناهم قد نزلوا منزلاً اختاروه مستويًا بساطاً واسعاً، وأخذوا الشريعة فهي في أيديهم، وقد صفت عليها أبو الأعور الخيل والرجالة، وقدم الرامية ومعهم أصحاب الرماح والذرق، وعلى رؤوسهم البيض، وقد أجمعوا أن يمنعونا الماء، ففرغنا إلى أمير المؤمنين عليه السلام فأخبرناه بذلك، فدعا صَعْصَعَةَ بن صُوحَانَ فقال: انت معاوية وقل له: إنا سِرْنَا إليك مسيرنا هذا وأنا كَرِهٌ لِقِتَالِكُمْ قبل الإعذار إليكم، وإنك قدمت خيلك، فقاتلتنا قبل أن نقاتلك، وبدأتنا بالحرب، ونحن مِمَّنْ رأينا الكُفَّ حتى ندعوك ونحتج عليك، وهذه أخرى قد فعلتموها، قد حُلُثْنا بين الناس وبين الماء، فخل بينهم وبينه حتى ننظر فيما بيننا وبينكم، وفيما قدمنا له قدمتم له، وإن كان أحب إليك أن ندع له، وندع الناس يقتتلون حتى يكون الغالب هو الشارب، فَعَلْنَا.

فلما مضى صَعْصَعَةُ برسالتِهِ إلى معاوية، قال معاوية لأصحابه: ما ترون؟ فقال الوليد بن عُقْبَةَ: أمنعهم الماء كما منعوه ابن عفان، حَصَرُوهُ أربعين يوماً يمنعونه بَرْدَ الماء ولين الطعام، اقتلهم عطشاً، قتلهم الله!

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٥.

وقال عمرو بن العاص: خَلَّ بين القوم وبين الماء، فإنهم لن يعطشوا وأنت رَيَّان، ولكن لغير الماء فانظر فيما بينك وبينهم. فأعاد الوليد مقالته.

وقال عبد الله بن سعيد بن أبي سَرْح - وكان أخا عثمان من الرضاعة - : امنعهم الماء إلى الليل، فإنهم إن لم يقدرُوا عليه رجعوا، وكان رجوعُهُم هزيمتهم، امنعهم الماء منعهم الله يوم القيامة! فقال صعصعة بن صُوحان: إنما يمنعه الله يوم القيامة الفَجْرة الكفرة، شَرِبَ الخمر، ضَرَبَكَ وضَرَبَ هذا الفاسق - يعني الوليد بن عتبة.

فتواثبوا إليه يشتمونه ويتهدّدونه، فقال معاوية: كَفُّوا عن الرجل، فإنما هو رسول.

قال عبد الله بن عوف بن أحمر: إن صعصعة لما رجع إلينا حدّثنا بما قال معاوية، وما كان منه وما ردّه عليه، قلنا: وما الذي ردّه عليك معاوية؟ قال: لما أردتُ الانصراف من عنده، قلت: ما ترد عليّ؟ قال: سيأتيكم رأيي، قال: فوالله ما راعنا إلا تسوية الرجال والصُّفوف والخيَل. فأرسل إلى أبي الأعور: امنعهم الماء، فازدلفنا والله إليهم فارتمينا وأطلعنا بالرماح، واضطربنا بالسيوف، فطال ذلك بيننا وبينهم حتى صار الماء في أيدينا فقلنا: لا والله لا نسقيهم. فأرسل إلينا عليّ عليه السلام أن خذوا من الماء حاجتكم، وارجعوا إلى معسكركم، وخلّوا بينهم وبين الماء، فإن الله قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم.

وروى نصر بن محمد بن عبد الله، قال قام ذلك اليوم رجل من أهل الشام من السُّكون، يعرف بالشَّليل بن عمر إلى معاوية، فقال:

اشمّع اليوم ما يَقُول الشَّليلُ	إن قولي قولٌ له تأويلُ
امنّع الماء من صحابِ عليّ	أن يذوقوه، فالشَّليل ذليلُ
واقْتُل القوم مِثْلَ ما قُتِلَ الشَّيب	خ صدى فالقصاصُ أمرٌ جميلُ
إننا والذي تُساق له البُذ	نُ هذابا كأنهنّ الفَيُول
لو عَلِيّ وصحبه وردوا الما	ه ذقتموه حتى تقولوا
قد رَضِينا بأمرِكُم علينا	بمَد ذاك الرُّضَا جِلادٌ ثَقِيلُ
فامنّع القوم ماءكم، ليس لَلْقَو	م بقاء وإن يكن فقليلُ

فقال معاوية: أمّا أنت فتدري ما تقول - وهو الرأي - ولكنّ عمراً لا يدري. فقال عمرو: خَلَّ بينهم وبين الماء، فإن علياً لم يكن ليظماً وأنت رَيَّان، وفي يده أعتة الخيل، وهو ينظر إلى الفرات حتى يشرب أو يموت، وأنت تعلم أنّه الشجاع المُطرق ومعه أهل العراق وأهل الحجاز، وقد سمعته أنا مراراً وهو يقول: لو استمكنْتُ من أربعين رجلاً يعني في الأمر الأول!

وَرَوَى نَصْرٌ، قَالَ: لَمَّا غَلَبَ أَهْلُ الشَّامِ عَلَى الْفُرَاتِ، فَرَحُّوا بِالْغَلْبَةِ، وَقَالَ مُعَاوِيَةُ: يَا أَهْلَ الشَّامِ، هَذَا وَاللَّهِ أَوَّلُ الظُّفَرِ، لَا سَقَانِي اللَّهُ وَلَا أَبَا سَفِيَّانٍ إِنْ شَرِبُوا مِنْهُ أَبَدًا حَتَّى يُقْتَلُوا بِأَجْمَعِهِمْ عَلَيْهِ. وَتَبَاشَرَ أَهْلُ الشَّامِ، فَقَامَ إِلَى مُعَاوِيَةَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ هَمْدَانِي، نَاسِكٌ يَتَأَلَّهُ وَيَكْثُرُ الْعِبَادَةَ، يَعْرِفُ بِمَعْرِي بْنِ أَقْبَلٍ، وَكَانَ صَدِيقًا لِعَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ وَأَخًا لَهُ، فَقَالَ: يَا مُعَاوِيَةُ، سُبْحَانَ اللَّهِ! لَأَنْ سَبَقْتُمُ الْقَوْمَ إِلَى الْفُرَاتِ فَغَلِبْتُمُوهُمْ عَلَيْهِ، تَمْنَعُونَهُمُ الْمَاءَ! أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ سَبَقُوكُمْ إِلَيْهِ لَسَقَوْكُمْ مِنْهُ. أَلَيْسَ أَعْظَمُ مَا تَتَالَوْنَ مِنَ الْقَوْمِ أَنْ تَمْنَعُوهُمْ الْفُرَاتَ فَيَنْزِلُوا عَلَى قُرْضَةٍ أُخْرَى وَيَجَاوِزُوكُمْ بِمَا صَنَعْتُمْ! أَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّ فِيهِمُ الْعَبْدَ وَالْأَمَةَ وَالْأَجِيرَ وَالضَّعِيفَ، وَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ. هَذَا وَاللَّهِ أَوَّلُ الْجُورِ! لَقَدْ شَجَعْتَ الْجَبَانَ، وَنَصَرْتَ الْمُرْتَابَ وَحَمَلْتَ مَنْ لَا يَرِيدُ قِتَالَكَ عَلَى كِتْفَيْكَ. فَأَغْلَظَ لَهُ مُعَاوِيَةُ، وَقَالَ لِعَمْرٍو: اكْفِنِي صَدِيقَكَ. فَاتَاهُ عَمْرٍو فَأَغْلَظَ لَهُ، فَقَالَ الْهَمْدَانِي فِي ذَلِكَ شِعْرًا:

لَعَمْرُ أَبِي مُعَاوِيَةَ بْنِ حَرْبٍ	وَعَمْرٍو، مَا لِدَائِهِمَا دَوَاءٌ
سِوَى طَلْفٍ يَحَارُّ الْعَقْلَ فِيهِ	وَضَرْبٍ حِينَ تَخْتَلِطُ الدُّمَاءُ
وَلَسْتُ بِتَابِعِ دِينَ ابْنِ هُنْدٍ	طَوَالَ الذَّمِّ مَا أَرْسَى جِرَاءُ
لَقَدْ ذَهَبَ الْعِتَابُ فَلَا عِتَابَ	وَقَدْ ذَهَبَ الْوَلَاءُ فَلَا وَلَاءُ
وَقَوْلِي فِي حَوَادِثِ كُلِّ خَطْبٍ:	عَلَى عَمْرٍو وَصَاحِبِهِ الْعَفَاءُ
أَلَا لَهِ دَرْكُ يَابِسٍ هَنْدٍ	لَقَدْ بَرِحَ الْخَفَاءُ فَلَا خَفَاءُ
أَتَحْمُونَ الْفُرَاتَ عَلَى رِجَالٍ	وَفِي أَيْدِيهِمُ الْأَسْلُ الْظَّمَاءُ
وَفِي الْأَغْنَاكِ أُنْيَافٌ جِدَادُ	كَأَنَّ الْقَوْمَ عِنْدَهُمْ نِسَاءُ
أَتَرْجُو أَنْ يَسْجَاوَرُكُمْ عَلَيَّ	بَلَا مَاءٍ وَلِسْلَاحِزَابٍ مَاءُ
دَعَاهُمْ دَعْوَةً فَاجَابَ قَوْمٌ	كَجُرْبِ الْإِبِلِ خَالَطَهَا الْهِنَاءُ ^(١)

قَالَ: ثُمَّ سَارَ الْهَمْدَانِي فِي سَوَادِ اللَّيْلِ حَتَّى لَحِقَ بِعَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قَالَ: وَمَكَثَ أَصْحَابُ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَغِيرَ مَاءٍ، وَاعْتَمَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَا فِيهِ أَهْلُ الْعِرَاقِ:
قَالَ نَصْرٌ: وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، عَنِ الْجَرَجَانِيِّ، قَالَ: لَمَّا اعْتَمَ عَلِيٌّ بِمَا فِيهِ أَهْلُ الْعِرَاقِ مِنَ الْعَطَشِ، خَرَجَ لَيْلًا قَبْلَ رَايَاتِ مَذْجِجٍ، فَإِذَا رَجُلٌ يَنْشُدُ شِعْرًا:
أَيْمَنْعُنَا الْقَوْمُ مَاءَ الْفُرَاتِ وَفِينَا الرِّمَاحُ وَفِينَا الْحَجَفُ

(١) الهناء: ضرب من القطران، اللسان، مادة (هنا).

وَفِينَا السُّيُوفُ وَفِينَا الرُّغْفُ
وَفِينَا عَلَيَّ لَهُ سَورَةٌ
وَنَحْنُ الَّذِينَ غَدَاةَ الزُّبَيْرِ
فَمَا بَالُنَا أَمْسِ أَسَدَ الْعَرِينِ
فَمَا لِلْعِرَاقِ وَمَا لِلْحِجَازِ
وَتُورُوا عَلَيْهِمْ كَبُزْلِ الْجَمَالِ
فَأَمَّا تَفُوزُوا بِمَاءِ الْفُرَاتِ
وَأَمَّا تَمُوتُوا عَلَى طَاعَةِ
وَأَلَا فَانْتُمْ عَبِيدُ الْعَصَا

قال: فحرك ذلك علياً عليه السلام، ثم مضى إلى رايات كئيدة، فإذا إنسان يُنشد إلى جانب منزل الأشعث، وهو يقول:

لَيْنَ لَمْ يُجَلَّ الْأَشْعَثُ الْيَوْمَ كُرْبَةً
فَنَشْرَبَ مِنْ مَاءِ الْفُرَاتِ بِسَيْفِهِ
فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَجْمَعْ لَنَا الْيَوْمَ أَمْرَنَا
فَمَنْ ذَا الَّذِي تُثْنِي الْخَنَاصِرُ بِأَسْمِهِ
وَقُلْ مِنْ بَقَاءِ بَعْدَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ
مَلُّمُوا إِلَى مَاءِ الْفُرَاتِ وَدُونَهُ
وَأَنْتَ أَمْرٌ مِنْ غَضَبَةٍ يَمْنِيَّةٍ
مِنْ الْمَوْتِ فِيهَا لِلنَّفُوسِ تَعْنَتُ
فَهَبْنَا أَنْاساً قَبْلَ ذَاكَ فَمُوتُوا
وَتَنْفُسُ الَّتِي فِيهَا عَلَيْكَ الْمَذَلَّةُ
سِوَاكَ وَمَنْ هَذَا إِلَيْهِ التُّلُفُ
نَظَلَّ خُفُوتاً وَالْعَدُوُّ يُصَوِّتُ
صُدُورُ الْعَوَالِي وَالصَّفِيحُ الْمَشْتَتُ
وَكُلَّ أَمْرٍ مِنْ سِنْخٍ جِينِ يَنْبُتُ^(١)

قال: فلما سمع الأشعث قول الرجل، قام فأتى علياً عليه السلام، فقال: يا أمير المؤمنين، أيمعننا القوم ماء الفرات وأنت فينا، والسيوف في أيدينا خل عنا وعن القوم، فوالله لا نرجع حتى نرده أو نموت، ومروا بالأشتر فليعمل بخيله، ويقف حيث تأمره. فقال علي عليه السلام: ذلك إليكم.

فَرَجَعَ الْأَشْعَثُ فَنَادَى فِي النَّاسِ: مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْمَاءَ أَوِ الْمَوْتَ فَمِيعَادُهُ مَوْضِعَ كَذَا، فَلَاتِي

(١) بزل: بزل البعير فطرنه به أي انشق وذلك في السنة التاسعة، اللسان مادة (بزل)، الذميل: ضرب من سير الإبل وقيل هو السير اللين، اللسان، مادة (ذمل)، القطف: ضرب من مشي الخيل، والقطاف تقارب الخطو في سرعة، من القطف وهو القطع، اللسان، مادة (قطف).

(٢) السنخ: الأصل من كل شيء، اللسان العرب، مادة (سنخ).

ناهض. فاتاه اثنا عشر ألفاً من كِنْدَة وأفناء قحطان، واضمى سيوفهم على عواتقهم، فشذ عليه سلاحه ونهض بهم، حتى كاد يخالط أهل الشام، وجعل يُلقِي رمحه، ويقول لأصحابه: بأبي وأمي أنتم! تقدموا إليهم قَابَ رُمحِي هذا. فلم يزل ذلك دأبه حتى خالط القوم، وحسر عن رأسه، ونادى: أنا الأشعث بن قيس! خَلُّوا عن الماء. فنادى أبو الأعور: أما والله حتى لا تأخذنا وإياكم السيوف. فقال الأشعث: قد والله أظنّها دَنَتْ مِنّا ومنك. وكان الأشعث قد تعالَى بخيله حيث أمره عليّ، فبعث إليه الأشعث: أقِمْ الخيل، فأقحمها حتى وضعت سنانكها في الفرات، وأخذت أهل الشام السيوف، فولوا مدبرين.

قال نصر: وحدثنا عمرو بن شمر، عن جابر، عن أبي جعفر وزيد بن الحسن، قال: فنَادَى الأشعث عمرو بن العاص، فقال: ويحك يا بن العاص! خَلْ بيننا وبين الماء، فوالله لئن لم تفعل لتأخذنا وإياكم السيوف. فقال عمرو: والله لا نخلي عنه حتى تأخذنا السيوف وإياكم، فيعلم ريتنا أينما أصبر اليوم. فترجل الأشعث والأشتر، وذو البصائر من أصحاب عليّ عليه السلام. وترجل معهما اثنا عشر ألفاً، فحملوا على عمرو وأبي الأعور ومن معهما من أهل الشام، فأزالوهم عن الماء، حتى غمست خيل عليّ عليه السلام سنانكها في الماء.

قال نصر: فروى عمر بن سعد أن علياً عليه السلام قال ذلك اليوم: هذا يوم نصرتم فيه بالحبيّة.

قال نصر: وحدثنا عمرو بن شمر، عن جابر، قال: سمعت تميم الناجي يقول: سمعت الأشعث يقول: حال عمرو بن العاص بيننا وبين الفرات، فقلت له: ويحك يا عمرو! أما والله إن كنت لأظن لك رأياً، فإذا أنت لا عقل لك. أترانا نخليك والماء، تربث يداك! أما علمت أنا معشر عرب ثكلتك أمك وهبلك! لقد رُمّت أمراً عظيماً. فقال لي عمرو: أم والله لتعلمن اليوم أنا سنفي بالعهد، ونُحكِم العَقْد، ونلقاكم بصبر وجَد. فنَادَى به الأشتر: يا بن العاص، أما والله لقد نزلنا هذه الفُرْضة، وإنا لنريد القتال على البصائر والدين، وما قتالنا سائر اليوم إلا حمية.

ثم كبر الأشتر وكبرنا معه وحملنا، فما ثار الغبار حتى انهزم أهل الشام.

قالوا: فلقِي عمرو بن العاص بعد انقضاء صيفين الأشعث، فقال له: يا أخا كِنْدَة، أما والله لقد أبصرت صواب قولك يوم الماء، ولكن كُنْتُ مقهوراً على ذلك الرأي، فكابرْتُك بالتهَدّد والوعيد، والحرب خُدعة.

قال نصر: ولقد كان من رأي عمرو التَّخْلِيَة بين أهل العراق والماء. ورجع معاوية بأخرة إلى قوله بعد اختلاط القوم في الحرب، فإن عمراً - فيما روينا - أرسل إلى معاوية: أن خَلْ بين

القوم وبين الماء، أترى القوم يموتون عطشاً وهم ينظرون إلى الماء فأرسل معاوية إلى يزيد بن أسد القسري: أن خلّ بين القوم وبين الماء يا أبا عبد الله، فقال يزيد - وكان شديد العثمانية - : كلاً والله لنقتلنهم عطشاً كما قتلوا أمير المؤمنين.

قال: فحدثنا عمرو بن شمر، عن جابر، قال: خطب عليّ عليه السلام يوم الماء فقال: «أما بعد، فإن القوم قد بدؤوكم وفاتحوكم بالبغي، واستقبلوكم بالعدوان، وقد استطعموكم القتال حيث منعوكم الماء، فأقروا على مذلة وتأخير مهلة...»، الفصل إلى آخره.

قال نصر: وكان قد بلغ أهل الشام أن علياً عليه السلام جعل للناس إن فتح الشام أن يقسم بينهم التبر والذهب - وهما الأحمران - وأن يعطي كلّ منهم خمسمائة كما أعطاهم بالبصرة، فنادى ذلك اليوم منادي أهل الشام: يا أهل العراق، لماذا نزلتم بعجاج من الأرض؟ نحن أزد شنوءة لا أزد عمان، يا أهل العراق:

لا خَمْسَ إِلَّا جَنْدَلُ الْأَحْرَبِ وَالْخَمْسُ قَدْ تُجَشَّمُكَ الْأَمْرَيْنِ

قال نصر: فحدثني عمرو بن شمر، عن إسماعيل السدي، عن بكر بن تغلب، قال: حدثني من سمع الأشعث يوم الفرات - وقد كان له غناء عظيم من أهل العراق، وقتل رجالاً من أهل الشام بيده، وهو يقول: واللّه إن كنت لكارهاً قتال أهل الصلاة، ولكن معي من هو أقدم مني في الإسلام، وأعلم بالكتاب والسنة، فهو الذي يسحق نفسه.

قال نصر: وحمل ظبيان بن عُمارة التميمي على أهل الشام، وهو يقول:

مَلْ لَكَ يَا ظَبْيَانُ مِنْ بَقَاءٍ فِي سَاكِنِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ مَاءٍ
لَا وَاللّهِ الْأَرْضُ وَالسَّمَاءُ فَاضْرِبْ وَجْهَهُ الْخُذْرُ الْأَعْدَاءُ
بِالسَّيْفِ عِنْدَ خَمْسِ الْهَيْجَاءِ حَتَّى يَجِيبُوكَ إِلَى السُّوَاءِ
قال: فَضَرَبَهُمْ وَاللّهِ حَتَّى خَلَّوْا لَهُ الْمَاءَ.

قال نصر: ودعا الأشتر بالحارث بن همام النخعي، ثم الصهباني، فأعطاه لواءه، وقال له: يا حارث، لولا أنني أعلم أنك تصبر عند الموت لأخذت لوائي منك، ولم أخبك بكرامتي، فقال: والله يا مالك لأسرتك أو لأموتن، فاتبعني. ثم تقدّم باللواء وارتجز، فقال:

يَا أَخَا الْخَيْرَاتِ يَا خَيْرَ النَّخَعِ وَصَاحِبَ النَّضَرِ إِذَا عَمَّ الْفَزَعُ
وَكَاثِفَ الْخَطْبِ إِذَا الْأَمْرُ وَقَعَ مَا أَنْتَ فِي الْحَرْبِ الْعَوَانِ بِالْجَذَعِ
قَدْ جَزَعَ الْقَوْمُ وَعُمُوا بِالْجَزَعِ وَجُرُّعُوا الْغَيْظَ وَغَضُّوا بِالْجُرْعِ
إِنْ تَسْقِنَا الْمَاءَ فَلَيْسَتْ بِالْبِدَعِ أَوْ نَعْطِشَ الْيَوْمَ فَجُنْدٌ مُقْتَطَعٌ
مَا شِئْتَ خُذْ مِنْهَا وَمَا شِئْتَ قَدْغِ

فقال الأشتر: اذُنْ مَنِي يَا حَارِثُ، فَلَنَا مِنْهُ قَبْلُ رَأْسِهِ، فَقَالَ: لَا يَتَّبِعُ رَأْسَهُ الْيَوْمَ إِلَّا خَيْرٌ،
ثُمَّ صَاحَ الْأَشْتَرُ فِي أَصْحَابِهِ: فَذَنِّكُمْ نَفْسِي، أَشَدُّوا شِدَّةَ الْمَحْرَجِ الرَّاجِي لِلْفَرَجِ، فَإِذَا نَالْتُمْ
الرِّمَاحَ فَالْتَوُوا فِيهَا، فَإِذَا عَضْتُمْ السِّيفَ فَلْيَعْضُ الرَّجُلُ عَلَى نَوَاجِذِهِ، فَإِنَّهُ أَشَدُّ لَشَوْنِ
الرَّأْسِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلُوا الْقَوْمَ بِهَامِكِهِمْ.

قَالَ: وَكَانَ الْأَشْتَرُ يَوْمَئِذٍ عَلَى قَرَسٍ لَهُ مَخْذُوفٌ أَذْهَمَ، كَأَنَّهُ حَلَكُ الْغُرَابِ، وَقَتْلُ بِيَدِهِ مِنْ
أَهْلِ الشَّامِ مِنْ فَرَسَانِهِمْ وَصَنَادِيدِهِمْ سَبْعَةٌ: صَالِحُ بْنُ فَيْرُوزَ الْعُكِّيَّ، وَمَالِكُ بْنُ أَذْهَمَ السُّلَمَانِيَّ،
وَرِيَّاحُ بْنُ عَتِيكَ الْغَسَانِيَّ، وَالْأَجْلَحُ بْنُ مَنْصُورَ الْكِنْدِيَّ - وَكَانَ فَارِسُ أَهْلِ الشَّامِ - وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ
وَضَّاحِ الْجُمَحِيِّ، وَزَامِلُ بْنُ عُبَيْدِ الْحَزَامِيِّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ رَوْضَةَ الْجَمَحِيِّ.

قَالَ نَصْرٌ: فَأُولَ قَتِيلَ قَتْلِهِ الْأَشْتَرُ بِيَدِهِ ذَلِكَ الْيَوْمَ صَالِحُ بْنُ فَيْرُوزَ، ارْتَجَزَ عَلَى الْأَشْتَرِ وَقَالَ
لَهُ:

يَا صَاحِبَ الطَّرْفِ الْحَصَانِ الْأَذْهَمِ أَقْدِمْ إِذَا شِئْتَ عَلَيْنَا أَقْدِمِ
أَنَا ابْنُ ذِي الْعِزِّ وَذِي الثُّكْرِ سَبِّدْ عَكَ كُلَّ عَكَ فَاغْلِمِ
قَالَ: وَكَانَ صَالِحٌ مَشْهُورًا بِالشَّدَةِ وَالْبَاسِ، فَارْتَجَزَ عَلَيْهِ الْأَشْتَرُ، فَقَالَ لَهُ:

أَنَا ابْنُ خَيْرِ مَذْجِ مَرْكَبَا وَخَبِرُهَا نَفْسًا وَأَمَّا وَأَبَا
أَلَيْتُ لَا أَرْجِعُ حَتَّى أَضْرِبَا بِسَيْفِي الْمَصْفُولِ ضَرْبًا مُفْجِبَا

ثُمَّ شَدَّ عَلَيْهِ فَقَتَلَهُ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ مَالِكُ بْنُ أَذْهَمَ السُّلَمَانِيَّ - وَهُوَ مِنْ مَشْهُورِيهِمْ أَيْضًا - فَحَمَلَ
عَلَى الْأَشْتَرِ بِالرَّمْحِ، فَلَمَّا رَهَقَهُ التَّوَى الْأَشْتَرُ عَلَى فَرَسِهِ وَمَارَ السِّنَانُ فَأَخْطَاهُ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى
فَرَسِهِ، وَشَدَّ عَلَى الشَّامِيِّ فَقَتَلَهُ طَعْنًا بِالرَّمْحِ، ثُمَّ قَتَلَ بَعْدَهُ رِيَّاحُ بْنُ عَقِيلٍ وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ وَضَّاحٍ،
ثُمَّ بَرَزَ إِلَيْهِ زَامِلُ بْنُ عَقِيلٍ - وَكَانَ فَارِسًا - فَطَعَنَ الْأَشْتَرَ فِي مَوْضِعِ الْجَوْشَنِ^(١) فَصَرَعَهُ عَنْ
فَرَسِهِ، وَلَمْ يَصْبِ مَقْتَلًا، وَشَدَّ عَلَيْهِ الْأَشْتَرُ بِالسَّيْفِ رَاجِلًا فَكَشَفَ قَوَائِمَ فَرَسِهِ، وَارْتَجَزَ عَلَيْهِ
فَقَالَ:

(١) الجوشن: الصدر، وقال الجوهري الجوشن الدرع. اللسان، مادة (جشن).

لَا بُدَّ مِنْ قَتْلِي أَوْ مِنْ قَتْلِكَ قَتَلْتُ مِنْكُمْ أَرْبَعًا مِنْ قَبْلِكَ
كُلُّهُمْ كَانُوا حُمَاةً مِثْلَكَ

ثم ضربه بالسيف وهما راجلان فقتله، ثم خرج إليه محمد بن روضة، فقال وهو يضرب في أهل العراق ضرباً منكراً:

يَا سَاكِنِي الْكُوفَةِ يَا أَهْلَ الْفَتَنِ يَا قَاتِلِي عُثْمَانَ ذَاكَ الْمُؤْتَمَنِ
أَوْرَثَ قَلْبِي قَتْلَهُ طُولَ الْحَزَنِ أَضْرِبُكُمْ وَلَا أَرَى أَبَا حَسَنِ
فَشَدَّ عَلَيْهِ الْأَشْتَرُ قَتْلَهُ، وَقَالَ:

لَا يَبْعِدُ اللَّهُ سِوَى عُثْمَانَ وَأَنْزَلَ اللَّهُ بِكُمْ هَوَانًا
وَلَا يُسَلِّي عَنْكُمْ الْأَخْرَانَا

ثم برز إليه الأجلح بن منصور الكندي - وكان من شجعان العرب وفُرسانها - وهو على فرس له اسمه لاحق، فلما استقبله الأشتر، كره لقاءه واستحيا أن يرجع عنه، فتضاربا بسيفيهما، فسبقه الأشتر بالضربة فقتله، فقالت أخته تربيته:

أَلَا فَايُكِي أَخَا ثِقَةٍ فَقَدْ وَاللَّهِ أَنْكِسْنَا
لِقَتْلِ الْمَاجِدِ الْقَمَقَا م لَا مِثْلَ لَهُ فِينَا^(١)
أَتَانَا الْيَوْمَ مَقْتَلُهُ فَقَدْ جُزَّتْ نَوَاصِينَا
كَرِيمُ الْجِدِّ الْجَدِّيِّ بِنِ يَشْفِي مِنْ أَعَادِينَا
شَفَانَا اللَّهُ مِنْ أَهْلِ الْـ حَرَاقٍ فَقَدْ أَبَادُونَا
أَمَّا يَخْشَوْنَ رِيَّهْمُ وَلَمْ يَرْعَوْا لَهُ دِينَا

قال: وبلغ شعرها علياً عليه السلام فقال: أما إنهنَّ ليس بملكهنَّ ما رأيتنَّ من الجزع، أما إنهنَّ قد أضروا بنسائهنَّ، فتركوهنَّ أيامي حزاني بائسات. قاتل الله معاوية! اللهم حمِّله آثامهم وأوزاراً وأثقالاً مع أثقاله! اللهم لا تعفُ عنه!

قال نصر: وحدثنا عمرو بن شمر، عن جابر، عن الشعبي، عن الحارث بن أدهم، وعن صعصعة، قال: أقبل الأشتر يوم الماء، فضرب بسيفه جمهور أهل الشام حتى كشفهم عن الماء، وهو يقول:

(١) القمقام: السيد الكثير الخير الواسع الفضل. اللسان، مادة (قمم).

لَا تَذْكُرُوا مَا قَدْ مَضَى وَفَاتَا وَاللَّهِ رَيْسِي الْبَاعِثُ الْأَمْوَثَا
مِنْ بَعْدِ مَا صَارُوا كَذَا رُفَاتَا لَا وَرِدَنَ خَيْلِي الْفُرَاتَا
شُعْتُ النَّوَاصِي أَوْ يَقَالَ مَاتَا

قال: وكان لواء الأشعث بن قيس مع معاوية بن الحارث، فقال له الأشعث: لله أبوك، ليست النخع بخير من كئدة، قدّم لواءك فإنّ الحظّ لمن سبق. فتقدم لواء الأشعث، وحملت الرجال بعضها على بعض، وحمل في ذلك اليوم أبو الأعور السلمي، وحمل الأشرّ عليه، فلم ينتصف أحدهما من صاحبه، وحمل شرحبيل بن السمط على الأشعث، فكانا كذلك، وحمل خوشب ذو ظليم على الأشعث أيضاً، وانفصلا ولم ينل أحدهما من صاحبه أمراً، فما زالوا كذلك حتى انكشف أهل الشام عن الماء، وملك أهل العراق المشرعة.

قال نصر: فحدثنا محمد بن عبد الله، عن الجرجاني، قال: قال عمرو بن العاص لمعاوية لما ملك أهل العراق الماء، ما ظنّك يا معاوية بالقوم إن منعوك اليوم الماء كما منعتهم أمس! أترك تضاربهم عليه كما ضاربوك عليه! ما أغنى عنك أن تكشف لهم السوء. فقال معاوية: دع عنك ما مضى، فما ظنّك بعليّ؟ قال: ظني أنه لا يستحلّ منك ما استحلت منه، وأنّ الذي جاء له غير الماء. قال: فقال له معاوية قولاً أغضبه، فقال عمر:

أمرّك أمراً فسَخُفْتُهُ وَخَالَسَنِي ابْنُ أَبِي سَرْحَةَ
وَأَغْمَضْتَ فِي الرَّأْيِ إِغْمَاضَةً وَلَمْ تَرَفِ فِي الْحَرْبِ كَالْفُسْحَةِ
فَكَيْفَ رَأَيْتَ كِبَاشَ الْوِرَاقِ أَلَمْ يَنْطَحُوا جَمْعَنَا نَظْحَةً
فَإِنْ يَنْطَحُونَا غَدًا مِثْلَهَا نَكُنْ كَالزَّبِيرِيِّ أَوْ طَلْحَةَ
أَظُنُّ لَهَا الْيَوْمَ مَا بَعْدَهَا وَمِيعَادَ مَا بَيْنَنَا ضُبْحَةَ
وَإِنْ أُخْرَوْهَا لِمَا بَعْدَهَا فَقَدْ قَدَّمُوا الْخَبْطَ وَالنَّفْحَةَ
وَقَدْ شَرَبَ الْقَوْمُ مَاءَ الْفِرَاتِ وَقَلْدَكَ الْأَشْتَرُ الْفَضْحَةَ

قال نصر: فقال أصحاب عليّ عليه السلام له: امنعهم الماء يا أمير المؤمنين كما منعوك. فقال: لا، خلّوا بينهم وبينه، لا أفعل ما فعله الجاهلون، سنعرض عليهم كتاب الله، وندعوهم إلى الهدى، فإن أجابوا وإلا ففي حدّ السيف ما يغني إن شاء الله.

قال: فوالله ما أمسى الناس حتى رأوا سقّاتهم وسقاة أهل الشام ورواياهم وروايا أهل الشام يزدحمون على الماء، ما يؤذي إنساناً إنساناً^(١).

(١) انظر بحار الأنوار للمجلسي: ٤٤٣/٣٢.

٥٢ - ومن خطبة له عليه السلام، وقد تقدم مختارها برواية،
ونذكر ما نذكره هنا برواية أخرى، لتغاير الروایتين

الأصل: أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ تَصَرَّمَتْ وَأَذْنَتْ بَانْقِضَاءٍ، وَتَنَكَّرَ مَعْرُوفُهَا وَأَذْبَرَتْ حَدَاءَ، فَهِيَ تَحْفِزُ بِالْفَنَاءِ سُكَّانَهَا، وَتَخْدُو بِالمَوْتِ جِيرَانَهَا، وَقَدْ أَمَرُ فِيهَا مَا كَانَ حُلُوءًا، وَكَدِيرَ مِنْهَا مَا كَانَ صَفُوءًا، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا سَمَلَةٌ كَسَمَلَةِ الْإِدَاوَةِ، أَوْ جُرْعَةٌ كَجُرْعَةِ الْمَقْلَةِ، لَوْ تَمَرَّزَهَا الصُّدَيَّانُ لَمْ يَنْقُغ. فَأَرْزَمُوا عِبَادَ اللَّهِ الرَّحِيلَ عَنْ هَذِهِ الدَّارِ الْمَقْدُورِ عَلَى أَهْلِهَا الزَّوَالِ، وَلَا يَغْلِبَنَّكُمْ فِيهَا الْأَمَلُ، وَلَا يَطُولَنَّ عَلَيْكُمْ فِيهَا الْأَمَدُ. فَوَاللَّهِ لَوْ حَنَنْتُمْ حِينَئِذٍ الْوُلَّهِ الْعِجَالِ، وَدَعَوْتُمْ بِهَدِيلِ الْحَمَامِ، وَجَارْتُمْ جُؤَارَ مُتَبَلِّغِي الرُّهْبَانِ، وَخَرَجْتُمْ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، التَّمَّاسَ الْقُرْبَةَ إِلَيْهِ فِي ارْتِفَاعِ دَرَجَةِ عِنْدَهُ، أَوْ خُفْرَانَ سَيِّئَةِ اخْصَتْهَا كُتُبُهُ، وَحَفِظَتْهَا رُسُلُهُ لَكَانَ قَلِيلًا فِيمَا أَرْجُو لَكُمْ مِنْ ثَوَابِهِ، وَأَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ عِقَابِهِ. وَبِاللَّهِ لَوْ أَنْمَأَتْ قُلُوبُكُمْ أَنْبِيَاءًا، وَسَأَلَتْ هَيُونُكُمْ - مِنْ رَغْبَةٍ إِلَيْهِ أَوْ رَهْبَةٍ مِنْهُ - دَمًا، ثُمَّ هَمَّرْتُمْ فِي الدُّنْيَا - مَا الدُّنْيَا بَاقِيَةٌ - مَا جَزَتْ أَعْمَالُكُمْ - وَلَوْ لَمْ تَبْقُوا شَيْئًا مِنْ جُهْدِكُمْ - أَنْعَمَهُ عَلَيْكُمْ الْعِظَامُ، وَهَذَا إِيَّاكُمْ لِلْإِيمَانِ.

الشرح: تَصَرَّمَتْ: انقطعت وفنيت، وَأَذْنَتْ بَانْقِضَاءٍ: أعلمت بذلك، أَذْنَتْ بِكَذَا، أَي أَعْلَمَتْهُ. وَتَنَكَّرَ مَعْرُوفُهَا: جُهِلَ مِنْهَا مَا كَانَ مَعْرُوفًا.

وَالْحَدَاءُ: السريعة الذهاب، وَرَجِمَ حَدَاءً: مقطوعة غير موصولة. وَمِنْ رَوَاهُ «جَدَاءُ» بِالْجِيمِ، أَرَادَ مَنْقُطَةَ الدَّرِّ وَالْخَيْرِ.

وَتَحْفِزُ بِالْفَنَاءِ سُكَّانَهَا: تُعَجِّلُهُمْ وَتُسَوِّقُهُمْ. وَأَمَرُ الشَّيْءِ: صار مُرًّا. وَكَدِيرُ الْمَاءِ، بِكَسْرِ الدَّالِ، وَيَجُوزُ كَثُرَ بَضْمِهَا. وَالْمَصْدَرُ مِنَ الْأَوَّلِ كَدَرًا، وَمِنْ الثَّانِي كُدُورَةٌ.

وَالسَّمَلَةُ، بِفَتْحِ الْمِيمِ: البقية من الماء تبقى في الإناء.

وَالْمَقْلَةُ، بِفَتْحِ الْمِيمِ وَتَسْكِينِ الْقَافِ: حصاة القَسَمِ الَّتِي تَلْقَى فِي الْمَاءِ لِيَعْرِفَ قَدْرَ مَا يُسْقَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، وَذَلِكَ عِنْدَ قَلَةِ الْمَاءِ فِي الْمَفَاوِزِ، قَالَ:

قَذَفُوا سَيْدَهُمْ فِي وَرْطَةٍ قَذَفَكَ الْمَقْلَةُ وَسَطَ الْمَعْتَرِكِ

وَالْتَمَرَّزَ: تَمَضَّصَ الشَّرَابَ قَلِيلًا قَلِيلًا. وَالصُّدَيَّانِ: الْعِطْشَانِ.

ولم ينفع: لم يزو، وهذا يمكن أن يكون لازماً، ويمكن أن يكون متعدياً، تقول: نفع الرجل بالماء، أي روى وشفى غليله، ينفع. ونفع الماء الصدى ينفع، أي سكنه. فأزمعوا الرحيل، أي اعزموا عليه، يقال: أزمعت الأمر، ولا يجوز أزمعت على الأمر، وأجازة الفراء.

قوله: «المقدور على أهلها الزوال»، أي المكتوب، قال:

واعلم بأن ذا الجلال قد قَدَّرَ في الصحف الأولى الذي كان سطر أي كتب. والوَلَه العجال: الثوق الوالهة الفاقدة أولادها، الواحدة عَجُول، والوَلَه: ذهاب العقل وفقد التمييز.

وهذيل الحمام: صوت نوحه. والجوار: صوت مرتفع، والمتبئل: المنقطع عن الدنيا. وانماث القلب، أي ذاب. وقوله: «ولو لم تبقوا شيئاً من جهدكم» اعتراض في الكلام. وأنعمه، منصوب؛ لأنه مفعول «جزت».

وفي هذا الكلام تلويح وإشارة إلى مذهب البغداديين من أصحابنا في أن الثواب على فعل الطاعة غير واجب، لأنه شكر النعمة، فلا يقتضي وجوب ثواب آخر، وهو قوله عليه السلام: «لو انماث قلوبكم انميائاً...»، إلى آخر الفصل.

وأصحابنا البصريون لا يذهبون إلى ذلك، بل يقولون: إن الثواب واجب على الحكيم سبحانه لأنه قد كلفنا ما يشق علينا، وتكليف المشاق كإنزال المشاق، فكما اقتضت الآلام والمشاق النازلة بنا من جهته سبحانه أعواضاً مستحقة عليه تعالى عن إنزالها بنا؛ كذلك تقتضي التكليفات الشاقة ثواباً مستحقاً عليه تعالى عن إلزامه إيانا بها، قالوا: فأما ما سلف من نعمه علينا فهو تفضل منه تعالى، ولا يجوز في الحكمة أن يتفضل الحكيم على غيره بأمر من الأمور ثم يلزمه أفعالاً شاقة ويجعلها بإزاء ذلك التفضل، إلا إذا كان في تلك الأمور منافع عائدة على ذلك الحكيم، فكان ما سلف من المنافع جارية مجرى الأجرة، كمن يدفع درهماً إلى إنسان ليخيط له ثوباً، والبارئ تعالى منزّه عن المنافع، ونعمه علينا منزّهة أن تجري مجرى الأجرة على تكليفنا المشاق.

وأيضاً فقد يتساوى اثنان من الناس في النعم المنعم بها عليهما، ويختلفان في التكليف، فلو كان التكليف لأجل ما مضى من النعم لوجب أن يقدر بحسبها. فإن قيل: فعلى ماذا يُحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام وفيه إشارة إلى مذهب البغداديين؟

قيل: إنه عليه السلام لم يصرح بمذهب البغداديين، ولكنه قال: لو عبدتموه بأقصى ما ينتهي

الجُهد إليه ما وفيتم بشكر أنعمه ، وهذا حقٌ غيرٌ مختلف فيه ، لأنَّ نعم الباري تعالى لا تقوم العباد بشكرها ، وإن بالغوا في عبادته والخضوع له والإخلاص في طاعته ، ولا يقتضي صدق هذه القضية وصحتها صحة مذهب البغداديين في أنَّ الثواب على الله تعالى غير واجب ، لأنَّ التكليف إنما كان باعتبار أنه شكر النعمة السالفة .

أشعار في ذم الدنيا

فأما ما قاله الناس في ذم الدنيا وغرورها وحوادثها وخطوبها وتنكرها لأهلها ، والشكوى منها ، والعتاب لها والموعظة بها ، وتصرمها وتقلبها فكثير ، من ذلك قول بعضهم :

هِيَ الدُّنْيَا تَقُولُ بِمَلٍّ فِيهَا حَذَارٌ مِنْ بَطْشِي وَتَشْكِي
فَلَا يَغْرُزُكُمْ حُسْنُ ابْتِسَامِي فَقُولِي مُضْجِكَ وَالْفِعْلُ مُبْكِي
وقال آخر :

تَنْحُ عَنْ الدُّنْيَا وَلَا تَطْلُبَنَّهَا وَلَا تَخْطُبَنَّ قَسَالَةَ مَنْ تُنَاكِحُ
فَلَيْسَ يَفِي مَرْجُوها بِمَخُوفِهَا وَمَكْرُوهُهَا إِمَّا تَأْمَلْتِ رَاجِحُ
لَقَدْ قَالَ فِيهَا الْقَائِلُونَ فَأَكْثَرُوا وَعِنْدِي لَهَا وَصْفٌ لَعْمُكَ صَالِحُ
سُلاَفٌ ، قُصَّارَاهَا دُعَافٌ ، وَمَرْكَبٌ شَهِيٌّ إِذَا اسْتَلْذَذْتَهُ فَهُوَ جَائِعٌ^(١)
وَشَخْصٌ جَمِيلٌ يُعْجِبُ النَّاسَ حُسْنُهُ وَلَكِنْ لَهُ أَعْمَالٌ سُوءٌ قَبَائِحُ
وقال أبو الطيب :

أَبْدًا تَسْتَرِدُّ مَا تَهَبُ الدُّنْيَا فَيَا لَيْتَ جُودَهَا كَانَ بُخْلًا
وَفِي مَفْشُوقَةٍ عَلَى الْقَدْرِ لَا تَحْفَظُ عَهْدًا وَلَا تَتِمُّ وَضْلًا
كُلُّ دَمْعٍ يَسِيلُ مِنْهَا عَلَيْهَا وَيَفُكُ الْيَدَيْنِ عَنْهَا تُخْلَى
شَيْمُ الْغَانِيَاتِ فِيهَا وَلَا أَذْ رِي لَذَا أَنْتَ اسْمَهَا النَّاسُ أَمْ لَا
وقال آخر :

إِنَّمَا الدُّنْيَا عَوَارٍ وَالسَّوَارِي مُسْتَرْدَّةٌ
شِدَّةٌ بِمَعْدٍ رَخَاءٍ وَرَخَاءٌ بِمَعْدٍ شِدَّةٌ
وقال محمد بن هاني المغربي :

وَمَا النَّاسُ إِلَّا ظَاعِنٌ قُودَعٌ وَثَارٍ قَرِيحٍ الْجَفْنِ يَبْكِي لِرَاحِلِ

(١) الذعاف: السُّم. القاموس المحيط، مادة (ذعف).

ولا نَحْنُ إِلَّا كَالْقُرُونِ الْآوَائِلِ
وَنَبْكِي مِنَ الدُّنْيَا عَلَى غَيْرِ طَائِلٍ
وَلَا أَجَلَ نَخْشَاهُ إِلَّا كَعَاجِلِ

فَمَا الدَّهْرُ إِلَّا كَالزَّمَانِ الَّذِي مَضَى
نُسَاقُ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى غَيْرِ دَائِمٍ
فَمَا عَاجِلٌ نَرْجُوهُ إِلَّا كَأَجَلٍ
قَالَ ابْنُ الْمُظَفَّرِ الْمَغْرِبِيِّ:

وَنَعَمَةٌ مُسْتَفَارَةٌ
وَمَكْسَبٌ وَتَجَارَةٌ
فَخَفْتُ عَلَيْهَا الْخُسَارَةَ
وَطَلِبْتُ بِهَا عَرْفَ وَشَارَةَ
نَ لَا يَفِي بِشَرَارَةِ

دُنْيَاكَ دَارُ غُرُورٍ
وَدَارُ أَكْثَرِ وَشَرْبٍ
وَرَأْسُ مَالِكَ نَفْسٍ
وَلَا تُبَيِّنُهَا بِأَكْلٍ
فَإِنْ مُلِكَ سَلِيمًا

وقال أبو العتاهية:

وَحُبُّكَ لِلدُّنْيَا هُوَ الْفَقْرُ وَالْعَدَمُ
إِذَا صَحَّحَ الثَّقَوَى وَإِنْ حَاكَ أَوْ حَجَمَ

أَلَا إِنَّمَا التَّقْوَى هِيَ الْبِرُّ وَالْكَرَمُ
وَلَيْسَ عَلَى عَبْدٍ تَقِي غَضَاظَةً
وَقَالَ أَيْضًا:

طَوَالَ أَيَّ أَمَالٍ
مُلِحَّهَا أَيَّ إِقْبَالٍ
فِإِرَاقِ الْأَهْلِ وَالْمَالِ
عَلَى حَالٍ مِنْ الْحَالِ

تَعَلَّقْتُ بِأَمَالٍ
وَأَقْبَلْتُ عَلَى الدُّنْيَا
أَيَّامًا تَجْهَرُ لِـ
فَلَا يَدُ مِنَ الْمَوْتِ
وَقَالَ أَيْضًا:

مَا بِهَذَا يُؤْذِنُ الزَّمَنُ
بِبَلَامَانَا طَقَّ لَسِينُ
لَا مَرِيءَ فِيهَا وَلَا حَزَنُ
كُلَّنَا بِالْمَوْتِ مُرْتَهَنُ
حَظُّهَا مِنْ مَالِهَا الْكَفَنُ
مِنْهُ إِلَّا ذِكْرُهُ الْحَسَنُ

مَكَّنْ يَبْقَى لَهُ سَكَنُ
نَحْنُ فِي دَارٍ يُخْبِرُنَا
دَارُ سُوءٍ لَمْ يَسُدْ قَرْخُ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْفُسُنَا
كُلَّ نَفْسٍ عِنْدَ مَوْتِهَا
إِنْ مَالَ الْمَرءِ لَيْسَ لَهُ
وَقَالَ أَيْضًا:

وَأَيُّ بَنِي آدَمَ خَالِدًا!

أَلَا إِنَّنَا كُلُّنَا بَائِدُ

وَيَذُوهُمْ كَمَا كَانَ مِنْ رِيْهِمْ
فَوَاعَجَبًا كَيْفَ يَغْصِي الْإِلَـ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ
وَقَالَ الرُّضِي الْمَوْسَوِي :

يَا أَمَّنَ الْأَيَّامِ بِأَيِّزِ صَرْفِهَا
تُحَذُّ مِنْ ثَرَايِكَ مَا اسْتَظَلَّغَتْ فِائِمَا
لَمْ يَفْضِ حَقُّ الْمَالِ إِلَّا مَغْشَرُ
تَحْتُو عَلَى عَيْبِ الْغِنَى يَدُ الْغِنَى
الْمَالُ مَا أَلْمَزُو مَا بَلَغَتْ بِهِ
مَا كَانَ مِنْهُ قَاضِيًا عَنْ قُوَّتِهِ
مَالِي إِلَى الدُّنْيَا الدُّنْيَا حَاجَةٌ
طَلَّقَتْهَا أَلْفًا لِأَخِيْسَمَ دَاءُهَا
وَتَبَاتُهَا مَرْهُوبَةٌ، وَعِدَاتُهَا
أَمْ الْمَصَائِبُ لَا تَزَالُ تَرُوعُنَا
إِنِّي لَأَعْجَبُ لِلَّذِينَ تَمْسِكُوا
كَنْزُوا الْكُنُوزَ وَأَعْقَلُوا شَهَوَاتِهِمْ
أَتَرَاهُمْ لَمْ يَفْلَحُوا أَنْ التَّقَى
وَقَالَ آخَرُ :

هَذِهِ الدُّنْيَا إِذَا صَرَفَتْ
وَإِذَا مَا أَقْبَلَتْ لِمَعْمٍ
وَإِذَا مَا أَدْبَرَتْ لِذِكْرِي
فَهِيَ كَالسُّدُولَابِ دَائِرَةٌ
فِي زَمَانٍ صَارَ ثَقْلُهَا
فَالذُّنَابِي فِيهِ نَاصِيَةٌ
فَاضْبِرِّي يَا نَفْسُ وَاخْتِمِ لِي
وَقَالَ أَبُو الطَّيِّبِ :

نُعِدُّ الْمَشْرِفِيَّةَ وَالْعَوَالِي

وَكُلُّ إِلَى رِيْهِ عَائِدُ
أَمْ كَيْفَ يَسْجَعُهُ الْجَاحِدُ
تَسْدَلُ عَلَى أَنَّهُ السَّوَّاحِدُ

وَأَعْلَمُ بِأَنَّ الظَّالِمِينَ جُنَاتُ
شُرَكَائِكَ الْأَيَّامِ وَالسُّورَاتُ
نَظَرُوا الزَّمَانَ بِعَيْتٍ فِيهِ فَعَاثُوا
وَالْفَقْرُ عَنْ عَيْبِ الْفَتَى بَحَاثُ
الشَّهَوَاتِ أَوْ دُفِعَتْ بِهِ الْأَحْدَاثُ
فَلِيَعْلَمَنَّ بِأَنَّهُ مِيرَاثُ
فَلْيَجْنِ سَاحِرَ كَيْدِهَا النُّفَاثُ
وَطَلَّاقُ مَنْ عَزَمَ الطَّلَاقَ ثَلَاثُ
مَكْذُوبَةٍ، وَحِبَالُهَا أَنْكَاثُ
مِنْهَا دُكُورُ خَوَادِثٍ وَإِنَاثُ
بِحَبَائِلِ الدُّنْيَا وَهِيَ رِثَاثُ
فَالْأَرْضُ تَشْبَعُ وَالْبَطُونُ غِرَاثُ
أَزْوَادُنَا، وَدِيَارُنَا الْأَجْدَاثُ

وَجَهَهَا لَمْ تَنْفَعِ الْحَيْلُ
بَصْرَتُهُ كَيْفَ يَفْتَعِلُ
غَابَ عَنْهُ السَّهْلُ وَالْجَبَلُ
تَرْتَقِي طُورًا وَتَسْتَفِلُ
أَسَدًا وَاسْتَذَابَ الْحَمَلُ
وَالنُّوَاصِي خُشَعُ ذُلُّ
إِنَّ نَفْسَ الْحَرِّ تَخْتَمِلُ

وَتَقْتُلُنَا الْمَمْنُونُ بِلَا قِتَالِ

وَمَا يُنَجِّينَ مِنْ حَبِّ اللَّيَالِي
وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى الْوَصَالِ!
نَصِيبُكَ فِي مَنَامِكَ مِنْ خِيَالِ
قُودِي فِي غَشَاءٍ مِنْ زَبَالِ
تَكَسَّرَتِ النُّصَالُ عَلَى النُّصَالِ
لَأَنِّي مَا أَتَّفَقْتُ بِأَنْ أَبَالِي
أَوْ أَخْرُنَا عَلَى هَامِ الْأَوَالِي
كَحِيلٍ فِي الْجَنَادِلِ وَالرَّمَالِ
وَيَا لِي كَانَ يُفَكِّرُ فِي الْهُزَالِ

وَنَرْتَبِطُ السَّوَابِقَ مُقَرَّبَاتِ
وَمَنْ لَمْ يَغْشَقِ الدُّنْيَا قَدِيمًا
نَصِيبُكَ فِي حَيَاتِكَ مِنْ حَبِيبِ
رَمَائِي الدُّفْرُ بِالْأَرْزَاءِ حَتَّى
فَصِرْتُ إِذَا أَصَابَتْنِي سِهَامُ
وَمَنْ قَمَا أَبَالِي بِالرَّزَايَا
يُدْفَنُ بَغْضُنَا بَغْضًا وَيَمْشِي
وَكَمْ عَيْنٍ مُقْبِلَةً النُّوَاجِي
وَمُغْضٍ كَانَ لَا يُغْضِي لَخَطْبِ

وقال أبو العتاهية في أرجوزته المشهورة في ذم الدنيا وفيها أنواع مختلفة من الحكمة:

مَمْرُوجَةُ الصُّفْرِ بِالْوَانِ الْقَدَى
لِذَا نَتَاجُ، وَلِذَا نَتَاجُ
يَخْبُثُ بَغْضٌ وَيَطِيبُ بَغْضٌ
خَيْرٌ وَشَرٌّ وَمَا هُذَانِ
بَيْنَهُمَا بَوْنٌ بَعِيدٌ جَدًّا
وَجَدْتُهُ أَنْتَنَ شَيْءٍ رِيحًا
مَا أَكْثَرَ الْقُوتَ لِمَنْ يَمُوتُ!!
مَنْ أَتَقَى اللَّهَ رَجَا وَخَافَا
إِنْ كُنْتَ أَخْطَأْتُ فَمَا أَخْطَأَ الْقُدْرُ
مَا أَطْوَلَ اللَّيْلَ عَلَى مَنْ لَمْ يَنْمِ
وَحَيْرُ دُخْرِ الْمَرْءِ حُسْنُ فِعْلِهِ
وَرَبَّ جَسَدٍ جَرَّةُ السُّمِّ زَاخُ
مُبْلَغُكَ الشَّرَّ كِبَاغِيهِ لَكَا
مَفْسَدَةُ الْمَرْءِ أَيْ مَفْسَدَةُ
قَدْ يَسُوهُنَ الرَّأْيَ الْأَصِيلَ شَكُّهُ
نَقْصَ عَيْشَانَا عَمَّا فَنَاهُ

مَا زَالَتِ الدُّنْيَا لَنَا دَارَ أَدَى
الْخَيْرُ وَالشَّرُّ بِهَا أَزْوَاجُ
مَنْ لَكَ بِالْمَخْضِ وَلَيْسَ مَخْضُ
لِكُلِّ إِنْسَانٍ طَبِيعَتَانِ
وَالْخَيْرُ وَالشَّرُّ إِذَا مَا عُدَا
إِنَّكَ لَوْ تَسْتَنَشِقُ الشَّجِيحَا
حَسْبُكَ مِمَّا تَبْتَغِيهِ الْقُوتُ
الْفَقْرُ فِيمَا جَاوَزَ الْكَفَافَا
هِيَ الْمَقَادِيرُ فَلِمَنِي أَوْ قَلْزُ
لِكُلِّ مَا يُوْذِي وَإِنْ قَلَّ الْمِ
مَا انْتَفَعَ الْمَرْءُ بِمِثْلِ عَقْلِهِ
إِنَّ السُّفْسَادَ ضِدُّهُ السُّوْلُحُ
مَنْ جَعَلَ النَّمَامَ عَيْنًا هَلَكَا
إِنَّ الشُّبَابَ وَالْفَرَاغَ وَالْجِدَّةُ
يُغْنِيكَ عَنْ كُلِّ قَبِيحٍ تَرْكُهُ
مَا عَيْشُ مَنْ أَقْبَهُ بَقَا

قَدْ سَرَّنا إِلَهَ بِغَيْرِ حَمْدِهِ
إِلَّا لَأَمْرِ شَأْنُهُ عَجِيبُ
وَأَوْسَطُ وَأَضْعَفُ وَأَكْبَرُ
أَضْعَفُهُ مَتَّصِلُ بِأَكْبَرِهِ
وَسَاوِسُ فِي الصَّدْرِ مِنْكَ تَغْتَلِبُ
حَتَّى كَأَنِّي حَائِرٌ مَبْهُوثُ
وَالضَّمْتُ إِنْ ضَاقَ الْكَلَامُ أَوْسَعُ

وَالْحَادِثَاتُ لَنَا بِهَا قَرَصُ
لَمْ يَبْدُ مِنْهُ لَنَا ظَرْ شَخْصُ
وَزِيَادَةُ الدُّنْيَا هِيَ السُّقُوصُ
عَنْ دُخْرِ كُلِّ نَفْسٍ فَخْصُ

زَادَ فِيهِمْ لِي مِنَ الْإِبْلَاحِ
كَغَفَافِ قُرْبٍ بِقَدْرِ الْبَلَاغِ
وَشَبَابِي وَصَحْتِي وَقَرَاغِي
وَعَلَى نَفْسِهِ بَغَى كُلُّ بَاغِ
حَائِلٌ بَيْنَهُ وَيَيْنَ الْمَسَاغِ

يَا رَبُّ مَنْ أَشْخَطْنَا بِجُهِدِهِ
مَا تَطْلُعُ الشَّمْسُ وَلَا تَغِيبُ
لِكُلِّ شَيْءٍ قَدَرٌ وَجَوْهَرُ
وَكُلِّ شَيْءٍ لَاحِقٌ بِجَوْهَرِهِ
مَنْ لَكَ بِالْمَخْضِ وَكُلُّ مُنْتَزِجِ
عَجِبْتُ وَاسْتَغْرَقَنِي السُّكُوثُ
إِذَا قَضَى اللَّهُ فَكَيْفَ أَضْنَعُ
وقال أيضاً :

كُلُّ عَلَى الدُّنْيَا لَهُ جِرْصُ
وَكُلُّ مَنْ وَارَوْهُ فِي جَدِّ
يَهْوَى مِنَ الدُّنْيَا زِيَادَتَهَا
لِيَدِ الْمَنِيَّةِ فِي تَلْقَفِهَا
وقال أيضاً :

أَبْلَغُ الدَّفْرِ فِي مَوَاعِظِهِ بَلْ
أَيَّ عَيْشٍ يَكُونُ أَطْيَبُ مِنْ عَيْشِ
غَضَبْتَنِي الْأَيَّامُ أَهْلِي وَمَالِي
صَاحِبُ الْبَغْيِ لَيْسَ يَسْلَمُ مِنْهُ
رُبُّ ذِي نَعْمَةٍ تَعْرِضُ مِنْهَا

وقال ابن المعتز :

أَقْلَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مَسَرَّاتِي
وَأَغْلَقْتُ بَابَهَا مِنْ دُونِ حَاجَاتِي

قَدْ مَالَهُ، لَكِنْ لِلْمَخَالِقِ الشُّكْرَا
فَيَا حَبِذاً مِنِّي لِمَنْ سَكَنَ الْقَبْرَا
وَكَانَ اتِّقَاتِي الشَّرَّ يُغْرِي بِي الشَّرَا

حَمْدًا لِرَبِّي وَذَمًّا لِلزَّمَانِ فَمَا
كَفَتَ يَدِي أَمْلِي عَنْ كُلِّ مُطْلَبِ
وله أيضاً :

السَّ تَرَى يَا صَاحَ مَا أَعْجَبَ الدَّفْرَا
لَقَدْ حَبَّبَ الْمَوْتَ الْبَقَاءُ الَّذِي أَرَى
وَسُبُّحَانَ رَبِّي رَاضِيًا بِقَضَائِهِ
وله :

قُلْ لِدُنْيَاكَ: قَدْ تَمَكَّنْتُ مِنِّْي
وَاخْرُقِي كَيْفَ شِئْتَ خَرَقَ جَهُولِ
وَقَالَ أَبُو الْعَلَاءِ الْمَعَرِّي:

وَالدُّفْرُ إِبْرَامُ وَنَقْضُ وَتَفْ
لَوْ قَالَ لِي صَاحِبُهُ سَمُّهُ
وَقَالَ آخَرُ:

وَالدُّفْرُ لَا يَبْقَى عَلَى خَالَةٍ
وَقَالَ أَبُو الطَّيِّبِ:

فَمَا لِي وَلِلدُّنْيَا طَلَابِي نَجْوَمُهَا
وَقَالَ آخَرُ:

لَعَمْرُكَ مَا الْإِيَّامُ إِلَّا مُسْعَارَةٌ
وَقَالَ آخَرُ:

لَعَمْرُكَ مَا الْإِيَّامُ إِلَّا كَمَا تَرَى
الْوَزِيرُ الْمُهَلَّبِي:

أَلَا مَوْتُ يُبَاعُ فَأَشْتَرِيهِ
أَلَا رَجِمَ الْمُهَيِّمُ نَفْسَ خُرٍّ
وَلَهُ:

أَشْكُو إِلَى اللَّهِ أَخْدَانًا مِنَ الزَّمَنِ
لَمْ يَبْقَ بِالْعَيْشِ لِي إِلَّا مَرَارَتُهُ
لَا تَحْسَبَنَّ نِعْمًا سَرَّتْكَ صُحْبَتُهَا
عَبِيدُ اللَّهِ بَنُ عَبْدِ اللَّهِ بَنِ طَاهِرٍ:

أَلَا أَيُّهَا الدُّفْرُ الَّذِي قَدْ مَلَلْتُهُ
فَقَدْ وَجَلَّ لِلَّهِ حَبِّبَتْ جَاهِدًا
وَلَهُ:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الدُّفْرَ يَهْدِمُ مَا بَنَى
فَمَنْ سَرُّهُ إِلَّا يَرَى مَا يَسُوءُهُ
الْبَحْتَرِي:

فَأَفْعَلِي مَا أَرَدْتَ أَنْ تَفْعَلِي بِي
إِنْ عِنْدِي لَكَ اصْطِبَارٌ لَيْبِ

رِيْقٌ وَجَمْعٌ وَتَهَارٌ وَلَيْلُ
مَا جَزَتْ عَنْ نَاجِيَةٍ أَوْ بِدِيلُ

لَا بُدَّ أَنْ يُذِيرَ أَوْ يُفْسِدَ

وَمَسْعَايَ مِنْهَا فِي شَدُوقِ الْأَرَاقِمِ

فَمَا اسْطَغْتِ مِنْ مَعْرُوفِهَا فَتَزَوَّدِ

رَزِيَّةً مَالٍ، أَوْ فِرَاقُ حَبِيبِ

فَهَذَا أَلْعَيْشُ مَا لَا خَيْرَ فِيهِ
تَصَدَّقْ بِالْمَمَاتِ عَلَى أَخِيهِ

يَبْرِيْنِي مِثْلَ بَرِي الْقِدْحِ بِالسَّفَنِ
إِذَا تَذَوَّقْتُهُ، وَالْحَلْوُ مِنْهُ فَنِي
إِلَّا مِفَاتِيحَ أَبْوَابٍ مِنَ السَّحَرَنِ

سَأَلْتُكَ إِلَّا مَا سَلَلْتَ حَيَاتِي
إِلَيَّ - عَلَى كُرْهِ الْمَمَاتِ - مَمَاتِي

وَيَسْلُبُ مَا أُعْطِيَ وَيُفْسِدُ مَا أَسْدَى
فَلَا يَتَّخِذْ شَيْئًا يَخَافُ لَهُ فَقْدًا

كَانَ اللَّيَالِي أَغْرِيَتْ حَدِيثًا ثَانِيًا
وَمَنْ عَرَفَ الْآيَامَ لَمْ يَرِ خَفَضُهَا
أَبُو بَكْرٍ الْخَوَارِزْمِيّ:

مَا أَثْقَلَ الدَّفْرَ عَلَى مَنْ رَكِبَهُ
حَدَّثَنِي عَنْهُ لِسَانُ التَّجْرِيدِ
لَا تَشْكُرِ الدَّفْرَ لِخَيْرِ سَبَبِهِ
فَلِإِنَّهُ لَمْ يَتَعَمَّدْ بِالْهَبَةِ
وَأَنْمَا أَخْطَأَ فِيكَ مَذْهَبَهُ
كَالسَّيْلِ قَدْ يَسْقِي مَكَانًا أُخْرَبَهُ
وَالسُّمُّ يَسْتَشْفِي بِهِ مَنْ شَرِبَهُ

وقال آخر:

يَسْعَى الْفَتَى فِي صَلَاحِ الْعَيْشِ مُجْتَهِدًا
وَالدَّفْرُ مَا عَاشَ فِي إِفْسَادِهِ سَاعِي
آخر:

يَغُرُّ الْفَتَى مَرُّ اللَّيَالِي سَلِيمَةً
وَمَنْ بِهِ عَمَّا قَلِيلٍ عَوَائِرُ
آخر:

إِذَا مَا الدَّفْرُ جَرَّ عَلَى أَنْاسٍ
فَقُلْ لِلشَّامِتِينَ بِنَا أَفِيْقُوا
آخر:

قُلْ لِمَنْ أَتَكَرَّ حَالًا مُتَكَرِّرَةً
لَيْسَ بِالْمُنْكَرِ مَا أَتَكَرَّرَتْهُ
ابن الرومي:

سَكَنَ الزَّمَانُ وَتَخَتَّ سَكْنَتُهُ
كَأَلْفُ مَوَانٍ تَرَاهُ مُتَبَطِّحًا
أَبُو الطَّيِّبِ:

إِنَّا لَفِي زَمَنِ تَرَكُ الْقَبِيحِ بِهِ
ذِكْرُ الْفَتَى عُمُرَهُ الثَّانِي وَحَاجَتُهُ
وقال آخر:

مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ إِحْسَانٌ وَإِجْمَالُ
مَا قَاتَهُ، وَفُضُولُ الْعَيْشِ أَشْغَالُ

جَارَ الزَّمَانُ عَلَيْنَا فِي تَصَرُّفِهِ
عِنْدِي مِنَ الدَّهْرِ مَا لَوْ أَنَّ أَيْسَرَهُ
آخِرُ:

هَذَا الزَّمَانُ الَّذِي كُنَّا نَحَافِزُهُ
إِنْ دَامَ هَذَا وَلَمْ تَعْقِبْ لَهُ غَيْرُ
آخِرُ:

يَا زَمَانًا أَلْبَسَ الْآخِرَ
لَسْتُ عِنْدِي بِزَمَانٍ
أَجُنُّونَ مَا نَرَاهُ
الرَضِيِّ الْمَوْسَوِيِّ:

تَأْبَى اللَّيَالِي أَنْ تُدِيمَا
وَالْمَسَرَّةَ بِالْإِقْبَالِ يَنْبُ
فَإِذَا انْقَضَى إِقْبَالُهُ
وَهَوَ الزَّمَانُ إِذَا نَبَا
كَالرَّيْحِ تَرْجِعُ عَاصِفًا
أَبُو عَثْمَانَ الْخَالِدِي:

أَلِفْتُ مِنْ حَادِثَاتِ الدَّهْرِ أَكْبَرَهَا
تَزِيدُنِي قِسْوَةَ الْأَيَّامِ طِيبَ نَشَأَ
السَّرِيِّ الرَّقَاءُ:

تَنَكَّدَ هَذَا الدَّهْرُ فِيمَا يَرُومُهُ
فَسِيرُ الَّذِي تَرْجُوهُ سِيرٌ مَقِيدٌ
ابْنُ الرُّومِيِّ:

أَلَا إِنَّ فِي الدُّنْيَا عَجَائِبَ جَمَّةً
إِذَا ذَلَّ فِي الدُّنْيَا الْأَعْزَاءُ وَاكْتَسَتْ
هُنَاكَ فَلَا جَادَتْ سَمَاءٌ بِصَوْبِهَا

وَأَيُّ حُرٍّ عَلَيْهِ الدَّهْرُ لَمْ يَجُرْ
يُلْقَى عَلَى الْفَلَكَ الدُّوَارِ لَمْ يَذُرْ

فِيمَا يَحْدُثُ كَغَبِّ وَابْنِ مَسْعُودٍ
لَمْ يُبْنِكْ مَبِيتٌ، وَلَمْ يُفْرَخْ بِمَوْلُودٍ

رَارَ ذُلًّا وَمَهَانَةً
إِسْمًا أَنْتَ زَمَانُهُ
مِنْكَ يَبْدُو أَمْ مَجَانُهُ

يُؤَسَّأُ لَخُلُقِي أَوْ نَعِيمَا
لُغٌ وَادِعَا خَطَرًا جَسِيمَا
رَجِعُ الشَّفِيعُ لَهُ خَصِيمَا
سَلَبَ الَّذِي أُعْطِيَ قَدِيمَا
مِنْ بَعْدِ مَا بَدَأَتْ نَسِيمَا

فَمَا أَحَادِي عَلَى أَحْدَاثِهَا الطُّغَرِ
كَأَنَّنِي الْمِسْكُ بَيْنَ الْفُجْرِ وَالْحَجَرِ

عَلَى أَنَّهُ فِيمَا نَحَافِزُهُ نَذْبُ
وَسِيرُ الَّذِي نَخْشَى غَوَائِلُهُ وَثَبُ

وَأَعَجَبُهَا أَلَا يَشِيبُ وَلِيدُهَا
أَذِلُّهَا عِزًّا وَسَادَ مَسُودُهَا
وَلَا أَمْرَعَتْ أَرْضٌ، وَلَا اخْضَرَّ عُودُهَا^(١)

(١) المربع الخصيب. القاموس المحيط، مادة (مرع).

أرى الناس مخسوفاً بهم غير أنهم
وما الخسف أن يلقى أسافل بلدة
السري الرفاء :

لنا من الدهر خضم لا نطالبه
يرتد عنه جريحاً من يسالمة
ولو أمئت الذي تجني أراقمه
أبو فراس بن حمدان :

نصفحت أحوال الزمان ولم يكن
أكل خليل هكداً غير منصف
ابن الرومي :

رأيت الدهر يرفع كل وغد
كمثل البخر يفرق فيه حي
أو الميزان يخفض كل وافي
ابن نباتة :

وأضفر عيب في زمانك أنه
وكيف يسر الحر فيه بمطلب
به العلم جهل ، والعفاف فسوق
وما فيه شيء بالسرور حقيقاً

أبو العتاهية :

لتجذبني يد الدنيا بقوتها
لله دنيا أناس دائبين لها
كسائمات رواج تبغني سينا
وله أيضاً :

أنساك مخياك المماتا
وثقت بالدنيا واثت
وعزمت ونك على الحيا
يا من رأى أبويه - فيمن قد
هل فيهما لك عبرة
فطلبت في الدنيا الثباتا
تري جماعتها شتاتا
وطولها عزماء بتاتا
رأى - كأننا قماماتا
أم خلت أن لك انفلاتا

ومن الذي طلب الثقل
كلُّ ثَصْبُحُه المنيّة
وله:

أرى الدُّنيا لمن هي في يديه
تُهينُ المَكْرِمِينَ لها بِضَغْرِ
إذا اسْتَفْنَيْتَ عَنْ شَيْءٍ قَدْعَهُ
وله:

أَلَمْ تَرَ رَبَّ الدُّهْرِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ
أَيَا بَانِي الدُّنْيَا لَغَيْرِكَ تَبْتَنِي
أَرَى الْمَرْءَ وَثَاباً عَلَى كُلِّ فُرْصَةٍ
يُنَازِلُ مَا لَا يَمْلِكُ الْمَلِكُ غَيْرُهُ
وَأَيَّ امْرِئٍ فِي غَايَةِ لَيْسَ نَفْسِهِ
وله:

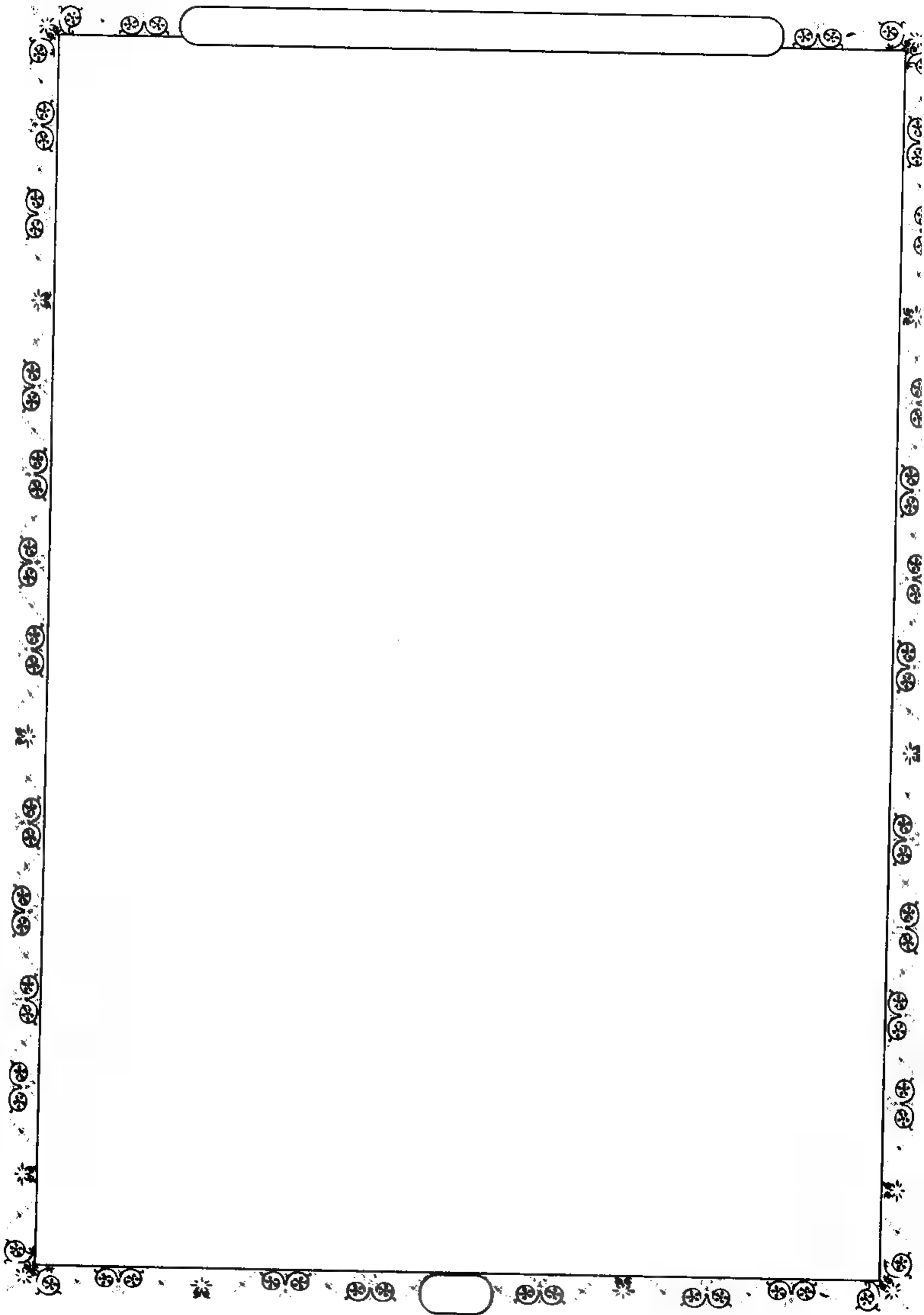
سَلِ الْإِيَّامَ عَنْ أَمَمٍ تَقْضَتْ
تَرُومُ الْخُلْدَ فِي دَارِ الثُّفَانِي
لَأَمْرِ مَا تَصْرُمَتِ اللَّيَالِي
تَنَامُ وَلَمْ تَنْمِ عَنْكَ الْمَنَائِي تَنْبُةً
إِلَى دِيَانِ يَوْمِ الدِّينِ نَمَضِي
حَسْبُنَا اللَّهُ وَحْدَهُ، وصلواته على خيرته من خلقه سيدنا محمد وآله الطاهرين.

تم الجزء الثالث

ويليه الجزء الرابع وأوله في ذكر يوم النحر وصفة الأضحية

شرح نهج البلاغة

الجزء الرابع



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد العدل الحكيم، وصلى الله على رسوله الكريم

ومنها في ذكر يوم النحر وصفة الأضحية

الأصل: وَمِنْ تَمَامِ الْأَضْحِيَّةِ اسْتَشْرَافُ أُذُنِهَا، وَسَلَامَةُ عَيْنِهَا، فَإِذَا سَلِمَتِ الْأُذُنُ وَالْعَيْنُ سَلِمَتِ الْأَضْحِيَّةُ وَتَمَّتْ، وَلَوْ كَانَتْ عَضْبَاءَ الْقُرْنِ تَجُرُّ رِجْلَهَا إِلَى الْمَنَسْكِ.
قال الرضوي رحمه الله: وَالْمَنَسْكِ هَاهُنَا: الْمَذْبَحُ.

الشرح: الأضحية: ما يذبح يوم النحر، وما يجري مجراه أيام التشريق من النعم. واستشراف أذنها: انتصابها وارتفاعها، أذن شرفاء أي متصبية.

والعضباء: المكسورة القرن. والتي تجرّ رجلها إلى المنسك، كناية عن العرجاء، ويجوز المنسك، بفتح السين وكسرهما.

رأي الفقهاء في وجوب الأضحية

واختلف الفقهاء في وجوب الأضحية، فقال أبو حنيفة: هي واجبة على المقيمين من أهل الأمصار، ويعتبر في وجوبها النصاب، وبه قال مالك والثوري، إلا أن مالكا لم يعتبر الإقامة. وقال الشافعي: الأضحية سنة مؤكدة، وبه قال أبو يوسف ومحمد وأحمد.

واختلفوا في العمياء، هل تجزىء أم لا؟ فأكثر الفقهاء على أنها لا تجزىء، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الفصل يقتضي ذلك، لأنه قال: إذا سلمت العين سلمت الأضحية، فيقتضي أنه إذا لم تسلم العين لم تسلم الأضحية. ومعنى انتفاء سلامة الأضحية انتفاء أجزائها. وحكي عن بعض أهل الظاهر أنه قال: تجزىء العمياء.

وقال محمد بن النعمان المعروف بالمفيد رضي الله تعالى عنه، أحد فقهاء الشيعة في كتابه المعروف «بالمقنعة» إن الصادق عليه السلام سئل عن الرجل يهدي الهدي أو الأضحية وهي سمينة، فيصيبها مرض، أو تفقا عينها أو تنكسر، فتبلغ يوم النحر وهي حية، أتجزىء عنه؟ فقال: نعم^(١).

(١) وسائل الشيعة: ١٤/١٣٥ رقم ١٨٨٠٦.

فأما الأذن، فقال أحمد: لا يجوز التضحية بمقطوعة الأذن، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يقتضي ذلك. وقال سائر الفقهاء. تجزىء إلا أنه مكروه.

وأما العضباء، فأكثر الفقهاء على أنها تجزىء، إلا أنه مكروه، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يقتضي ذلك، وكذلك الحكم في الجُلحاء، وهي التي لم يخلق لها قرن، والقُضماء: وهي التي انكسر غلاف قرنها، والشرفاء: وهي التي انتقبت أذنها من الكتي، والخرقاء: وهي التي شقت أذنها طولاً.

وقال مالك: إن كانت العضباء يخرج من قرنها دم لم تجزىء.

وقال أحمد والنخعي: لا تجوز التضحية بالعضباء.

فأما العرجاء التي كنى عنها بقوله: «تجر رجلها إلى المنسك»، فأكثر الفقهاء على أنها لا تجزىء، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يقتضي أنها تجزىء. وقد نقل أصحاب الشافعي عنه في أحد قوله أن الأضحية إذا كانت مريضة مرضاً يسيراً أجزأت.

وقال الماوردي من الشافعية في كتابه المعروف بـ«الحاوي»^(١): إن عجزت عن أن تجر رجلها خِلْقَةً أجزأت، وإن كان ذلك عن مرض لم تجزىء.

٥٣ - ومن كلام له عليه السلام في ذكر البيعة

الأصل: تَدَاكُّوْا عَلَيَّ تَدَاكَ الْإِبِلِ الْهَيْمَ يَوْمَ وَرْدِهَا، وَقَدْ أَرْسَلَهَا رَاحِيَهَا، وَخُلِعَتْ مَثَانِيهَا، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُمْ قَاتِلِي، أَوْ بَعْضُهُمْ قَاتِلُ بَعْضٍ لَدَيَّ. وَقَدْ قَلْبْتُ هَذَا الْأَمْرَ بَطْنَهُ وَظَهْرَهُ حَتَّى مَنَعَنِي النَّوْمَ، فَمَا وَجَدْتُنِي يَسْمَعُنِي إِلَّا قِتَالُهُمْ أَوْ الْجُحُودُ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَانَتْ مُعَالَجَةُ الْقِتَالِ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مُعَالَجَةِ الْعِقَابِ، وَمَوَاتُ الدُّنْيَا أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مَوَاتِ الْآخِرَةِ.

الشرح: تَدَاكُّوْا: ازدحموا. والهِيم: العطاش. ويوم وَرْدِهَا: يوم شربها الماء. والمثاني: الجبال، جمع مَثْنَاءَ ومِثْنَاءَ بالفتح والكسر، وهو الحبل.

(١) «الحاوي الكبير في الفروع»: للقاضي أبي الحسن علي بن محمد الماوردي البصري الشافعي، المتوفى سنة (٤٥٠هـ)، وهو كتاب عظيم في عشر مجلدات، ويقال: إنه ثلاثون مجلداً، لم يؤلف مثله في المذهب. «كشف الظنون» (١/٦٢٨).

وجهاد البغاة واجب على الإمام، إذا وجد أنصاراً، فإذا أخلّ بذلك أخلّ بواجب، واستحق العقاب. فإن قيل: إنه عليه السلام قال: «لم يسعني إلا قتالهم أو الجحود بما جاء به محمد ﷺ» فكيف يكون تارك الواجب جاحداً لما جاء به النبي ﷺ؟
 قيل: إنه في حكم الجاحد، لأنه مخالف وعاصٍ، لا سيما على مذهبنا في أن تارك الواجب يخلد في النار وإن لم يجحد النبوة.

بيعة علي عليه السلام

اختلف الناس في بيعة أمير المؤمنين عليه السلام، فالذي أكثر الناس وجمهور أرباب السير أن طلحة والزبير بايعاه طائعين غير مكرهين، ثم تغيرت عزائمهما، وفسدت نيّاتهما، وغدرًا به.
 وقال الزبيريون، منهم عبد الله بن مصعب، والزبير بن بكار وشيعتهم ومن وافق قولهم من بني تميم بن مرة، أرباب العصبية لطلحة: إنهما بايعا مكرهين، وإن الزبير كان يقول: بايعت واللج على قتي، واللج سيف الأشر، وقفي لغة هذليّة، إذا أضافوا المقصور إلى أنفسهم قلبوا الألف ياء، وأدغموا إحدى الياءين في الأخرى، فيقولون: قد وافق ذلك هوي، أي هوائي، وهذه عصي، أي عصاي.

وذكر صاحب كتاب «الأوائل»^(١) أن الأشر جاء إلى علي عليه السلام حين قتل عثمان، فقال: قم فبايع الناس، فقد اجتمعوا لك، ورغبوا فيك، والله لئن نكلت عنها لتعصرن عليها عينيك مرة رابعة، فجاء حتى دخل بئر سكن، واجتمع الناس، وحضر طلحة والزبير، لا يشكان أن الأمر شوري، فقال الأشر: أنتظرون أحداً قم يا طلحة فبايع، فتعاس، فقال: قم يا بن الصغبة - وسل سيفه - فقام طلحة يجرّ رجله، حتى بايع، فقال قائل: أول من بايعه أشل لا يتم أمره، ثم لا يتم، قال: قم يا زبير، والله لا ينازع أحد إلا وضربت قرطه بهذا السيف، فقام الزبير فبايع، ثم انثال الناس عليه فبايعوا.

وقيل: أول من بايعه الأشر، ألقى خميصاً كانت عليه، واخترط سيفه، وجذب يد علي عليه السلام فبايعه وقال للزبير وطلحة: قوما فبايعا، وإلا كتتما الليلة عند عثمان، فقاما يعثران في ثيابهما لا يرجوان نجاة، حتى صَفَقَا بأيديهما على يده، ثم قام بعدهما البصريّون، وأولهم عبد الرحمن بن عديس البلوي، فبايعوا. وقال له عبد الرحمن:

(١) «أوائل الأدلة في أصول الدين» للشيخ الإمام أبي القاسم عبيد الله بن أحمد البلخي المتوفى سنة (٣١٩هـ). «كشف الظنون» (١/٢٠٠).

خُذْهَا إِلَيْكَ وَاعْلَمْ أَنَّ أَبَا حَسَنٍ أَنَا نَائِمٌ الْأَمْرَ إِمْرَارَ الرَّسَنِ
وقد ذكرنا نحن في شرح الفصل الذي فيه أن الزبير أقر بالبيعة، وادعى الوليعة أن بيعة أمير
المؤمنين لم تقع إلا عن رضا جميع أهل المدينة، أولهم طلحة والزبير، وذكرنا في ذلك ما يبطل
رواية الزبير.

وذكر أبو مخنف في كتاب «الجمال»^(١) أَنَّ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرِينَ اجْتَمَعُوا فِي مَسْجِدِ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيَنْظُرُوا مَنْ يُولُونَهُ أَمْرَهُمْ، حَتَّى غَصَّ الْمَسْجِدُ بِأَهْلِهِ، فَاتَّفَقَ رَأْيُ عِمَارِ وَأَبِي
الْهِثَمِ بْنِ التَّيْهَانِ وَرِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ وَمَالِكِ بْنِ عَجْلَانَ وَأَبِي أَيُّوبَ خَالِدِ بْنِ يَزِيدَ عَلَى إِقْعَادِ أَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ ﷺ فِي الْخِلَافَةِ، وَكَانَ أَشَدَّهُمْ تَهَالُكًا عَلَيْهِ عِمَارٌ، فَقَالَ لَهُمْ: أَيُّهَا الْأَنْصَارُ، قَدْ سَارَ
فِيكُمْ عِثْمَانُ بِالْأَمْسِ بِمَا رَأَيْتُمُوهُ، وَأَنْتُمْ عَلَى شَرَفٍ مِنَ الْوُقُوعِ فِي مِثْلِهِ إِنْ لَمْ تَنْظُرُوا لِأَنْفُسِكُمْ،
وَإِنَّ عَلِيًّا أَوْلَى النَّاسِ بِهَذَا الْأَمْرِ، لِفَضْلِهِ وَسَابِقَتِهِ، فَقَالُوا: رَضِينَا بِهِ حِينَئِذٍ، وَقَالُوا بِأَجْمَعِهِمْ
لِبَقِيَةِ النَّاسِ مِنَ الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرِينَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّا لَنْ نَأْذُوكُمْ خَيْرًا وَأَنْفُسَنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَإِنْ
عَلِيًّا مَنْ قَدْ عَلِمْتُمْ، وَمَا نَعْرِفُ مَكَانَ أَحَدٍ أَحْمَلَ لِهَذَا الْأَمْرِ مِنْهُ، وَلَا أَوْلَى بِهِ. فَقَالَ النَّاسُ
بِأَجْمَعِهِمْ: قَدْ رَضِينَا، وَهُوَ عِنْدُنَا مَا ذَكَّرْتُمْ وَأَفْضَلَ. وَقَامُوا كُلُّهُمْ، فَأَتَوْا عَلِيًّا ﷺ،
فَاسْتَخْرَجُوهُ مِنْ دَارِهِ، وَسَلَّوْهُ بِسَطْرِ يَدِهِ، فَقَبَضُوهَا فَتَدَاكُّوا عَلَيْهِ تَدَاكُّ الْإِبِلِ الْهَيْمِ عَلَى وَرْدِهَا،
حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا، فَلَمَّا رَأَى مِنْهُمْ مَا رَأَى، سَأَلَهُمْ أَنْ تَكُونَ بَيْعَتُهُ فِي الْمَسْجِدِ ظَاهِرَةً
لِلنَّاسِ. وَقَالَ: إِنْ كَرِهَنِي رَجُلٌ وَاحِدٌ مِنَ النَّاسِ لَمْ أَدْخُلْ فِي هَذَا الْأَمْرِ.

فنهض الناس معه حتى دخل المسجد، فكان أول من بايعه طلحة. فقال قبيصة بن ذؤيب
الأسدي: تخوفت ألا يتم له أمره، لأن أول يد بايعته سلاء، ثم بايعه الزبير، وبايعه المسلمون
بالمدينة إلا محمد بن مسلمة، وعبد الله بن عمر، وأسامة بن زيد، وسعد بن أبي وقاص،
وكعب بن مالك وحسان بن ثابت، وعبد الله بن سلام.

فأمر بإحضار عبد الله بن عمر، فقال له: بايع قال: لا أباع حتى يبايع جميع الناس، فقال
له ﷺ: فأعطني حِمْلًا أَلَا تَبْرَحُ، قَالَ: وَلَا أُعْطِيكَ حِمْلًا، فَقَالَ الْأَشْتر: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟
إِنَّ هَذَا قَدْ أَمِنَ سَوْطَكَ وَسَيْفَكَ، فَدَعْنِي أَضْرِبُ عُنُقَهُ، فَقَالَ: لَسْتُ أُرِيدُ ذَلِكَ مِنْهُ عَلَى كُرْهِهِ،
خَلَّوْا سَبِيلَهُ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ: لَقَدْ كَانَ صَغِيرًا وَهُوَ سَيِّءُ الْخُلُقِ، وَهُوَ فِي كِبَرِهِ
أَسْوَأُ خُلُقًا. ثُمَّ أَتَى بِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ، فَقَالَ لَهُ بَايِعْ، فَقَالَ: يَا أَبَا الْحَسَنِ خَلَّنِي، فَإِذَا لَمْ يَبْقَ
غَيْرِي بِبَايَعَتِكَ، فَوَاللَّهِ لَا يَأْتِيكَ مِنْ قِبَلِي أَمْرٌ تَكْرَهُهُ أَبَدًا، فَقَالَ: صَدَقَ، خَلَّوْا سَبِيلَهُ. ثُمَّ بَعَثَ
إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمَةَ، فَلَمَّا أَتَاهُ قَالَ لَهُ: بَايِعْ، قَالَ: إِنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمَرَنِي إِذَا اخْتَلَفَ

(١) «الجمال»: لأبي مخنف لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف إمامي من أهل الكوفة، عالم بالسير
والأخبار، المتوفى سنة (١٥٧هـ). «الأعلام للزركلي» (٥/٢٤٥).

الناس وصاروا هكذا - وشبك بين أصابعه - أن أخرج بسيفي فأضرب به عرض أحد فإذا تقطع أتيت منزلي، فكنت فيه لا أبرحه حتى تأتيني يد خاطية، أو منية قاضية. فقال له عليه السلام: فانطلق إذا، فكن كما أمرت به.

ثم بعث إلى أسامة بن زيد، فلما جاء قال له: بايع، فقال: إني مولاك ولا خلاف مني عليك، وستأتيك بيعتي إذا سكن الناس. فأمره بالانصراف، ولم يبعث إلى أحد غيره. وقيل له: ألا تبعث إلى حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن سلام! فقال: لا حاجة لنا فيمن لا حاجة له فينا.

فأما أصحابنا فإنهم يذكرون في كتبهم أن هؤلاء الرهط إنما اعتذروا بما اعتذروا به. لما ندبهم إلى الشخوص معه لحرب أصحاب الجمل، وأنهم لم يتخلفوا عن البيعة، وإنما تخلفوا عن الحرب.

وروى شيخنا أبو الحسين رحمه الله تعالى في كتاب «الغرر» أنهم لما اعتذروا إليه بهذه الأعذار، قال لهم: ما كل مفتون يعائب، أعندكم شك في بيعتي؟ قالوا: لا، قال: فإذا بايعتم فقد قاتلتم. وأعفاهم من حضور الحرب.

فإن قيل: رويت أنه قال: إن كرهني رجل واحد من الناس لم أدخل في هذا الأمر، ثم رويت أن جماعة من أعيان المسلمين كرهوا ولم يقف مع كراهتهم.

قيل: إنما مراده عليه السلام أنه متى وقع الاختلاف قبل البيعة نفضت يدي عن الأمر ولم أدخل فيه، فأما إذا بويع ثم خالف ناس بعد البيعة، فلا يجوز له أن يرجع عن الأمر ويتركه؛ لأن الإمامة تثبت بالبيعة، وإذا ثبتت لم يجز له تركها.

وروى أبو مخنف عن ابن عباس، قال: لما دخل علي عليه السلام المسجد، وجاء الناس لبايعوه خفت أن يتكلم بعض أهل الشنآن لعلي عليه السلام ممن قتل أباه أو أخاه، أو ذا قرابته في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله، فيزهده علي في الأمر ويتركه، فكنت أرصد ذلك وأتخوفه، فلم يتكلم أحد حتى بايعه الناس كلهم راضين مسلمين غير مكرهين.

لما بايع الناس علياً عليه السلام، وتخلف عبد الله بن عمر، وكلمه علي عليه السلام في البيعة فامتنع عليه، أتاه في اليوم الثاني، فقال: إني لك ناصح، إن بيعتك لم يرض بها كلهم؛ فلو نظرت لدينك ورددت الأمر شورى بين المسلمين! فقال علي عليه السلام: ويحك! وهل ما كان عن طلب مني له! ألم يبلغك صنيعهم؟ قم عني يا أحمق، ما أنت وهذا الكلام! فلما خرج أتى علياً في اليوم الثالث آت، فقال: إن ابن عمر قد خرج إلى مكة يفسد الناس عليك، فأمر بالبغت في

أثره، فجاءت أم كلثوم ابنته، فسألته وضربت إليه فيه، وقالت: يا أمير المؤمنين، إنما خرج إلى مكة ليقيم بها، وإنه ليس بصاحب سلطان ولا هو من رجال هذا الشأن، وطلبت إليه أن يقبل شفاعتها في أمره، لأنه ابنُ بعلها. فأجابها وكفَّ عن البعثة إليه، وقال: دعوه وما أرادته^(١).

٥٤ - ومن كلام له عليه السلام وقد استبطا أصحابه إذنه لهم في القتال بصفين

الأصل: أَمَّا قَوْلُكُمْ: أَكُلْ ذَلِكَ كَرَاهِيَةَ الْمَوْتِ! فَوَاللَّهِ مَا أَبَالِي، دَخَلْتُ إِلَى الْمَوْتِ أَوْ خَرَجَ الْمَوْتُ إِلَيَّ. وَأَمَّا قَوْلُكُمْ شَكًّا فِي أَهْلِ الشَّامِ! فَوَاللَّهِ مَا دَفَعْتُ الْحَرْبَ يَوْمًا إِلَّا وَأَنَا أَظْمَعُ أَنْ تَلْحَقَ بِي طَائِفَةٌ فَتَهْتَدِيَ بِي، وَتَعْشُوَ إِلَى ضَوْفِي، فَهُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَهَا عَلَى ضَلَالِهَا، وَإِنْ كَانَتْ تَبُوءُ بِأَثَامِهَا.

الشرح: من رواه: «أَكُلْ ذَلِكَ» بالنصب فمفعول فعل مقدر، أي تفعل كل ذلك، وكراهية منصوب؛ لأنه مفعول له ومن رواه «أَكُلْ ذَلِكَ» بالرفع أجاز في «كراهية» الرفع والنصب، أما الرفع فإنه يجعل «كل» مبتدأ، وكراهية خبره، وأما النصب فيجعلها مفعولاً له كما قلنا في الرواية الأولى، ويجعل خبر المبتدأ محذوفاً، وتقديره: أَكُلْ هَذَا مَفْعُولاً! أَوْ تَفْعَلُهُ كَرَاهِيَةَ لِلْمَوْتِ! ثم أقسم أنه لا يبالي أتعرض هو للموت حتى يموت، أم جاءه الموت ابتداء من غير أن يتعرض له. وعشا إلى النار يَعْشُو: استدلَّ عليها ببصر ضعيف، قال:

مَتَى تَأْتِيهِ تَعْشُوَ إِلَى ضَوْفِ نَارِهِ تَجِدُ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرَ مُوقِدٍ

وهذا الكلام استعارة، شبه مَنْ عساه يلحق به من أهل الشام بمن يعشو ليلاً إلى النار، وذلك لأن بصائر أهل الشام ضعيفة، فهم من الاهتداء بهداء عليه السلام كمن يعشو ببصر ضعيف إلى النار في الليل، قال: ذاك أحب إلي من أن أقتلهم على ضلالهم، وإن كنت لو قتلتهم على هذه الحالة لبأثوا بأثامهم، أي رجعوا، قال سبحانه: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾^(٢) أي ترجع.

بعض ما جاء من أخبار في يوم صفين

لما ملك أمير المؤمنين عليه السلام الماء بصفين ثم سمح لأهل الشام بالمشاركة فيه والمساهمة،

(١) انظر الغدير للأميني: ٢٥/١٠.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٢٩.

رجاء أن يعطفوا إليه، واستمالة لقلوبهم وإظهاراً للمعدلة وحسن السيرة فيهم، مكث أياماً لا يُرسل إلى معاوية، ولا يأتيه من عند معاوية أحد، واستبطأ أهل العراق إذنه لهم في القتال، وقالوا: يا أمير المؤمنين، خَلَفْنَا ذُرَارِيَنَا ونساءنا بالكوفة، وجئنا إلى أطراف الشام لنَتَّخِذَهَا وطناً، ائذن لنا في القتال، فَإِنَّ النَّاسَ قد قالوا. قال لهم عليه السلام: ما قالوا؟ فقال منهم قائل: إِنَّ النَّاسَ يظنون أنك تكره الحرب كراهيةً للموت، وإن من الناس من يظن أنك في شكٍّ من قتال أهل الشام. فقال عليه السلام: وَمَتَى كُنْتُ كَارِهاً للحرب قطاً! إِنَّ من العجب حُبِّي لها غلاماً وَيَقَعاً، وكراهيتي لها شيخاً بعد نفاذِ العمر وقرب الوقت! وأما شُكِّي في القوم فلو شككت فيهم لشككت في أهل البصرة، والله لقد ضربتُ هذا الأمرَ ظهراً وِطناً، فما وجدت يسعني إلا القتال أو أن أعصي الله ورسوله، ولكني أستاذني بالقوم، عسى أن يهتدوا أو تهتدي منهم طائفة، فإن رسول الله ﷺ قال لي يوم خيبر: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك بمائة طلعت عليه الشمس»^(١).

قال نصر بن مزاحم: حدثنا محمد بن عبيد الله عن الجرجاني، قال: فبعث علي عليه السلام إلى معاوية بشير بن عمرو بن مَخْصَنٍ الأنصاري، وسعيد بن قَيْسِ الهمداني وشَبَّثَ بن الرُّبَيْعِ التميمي، فقال: اتتوا هذا الرجل، فادعوه إلى الله عز وجل، وإلى الطاعة والجماعة، وإلى اتباع أمر الله سبحانه. فقال له شَبَّثُ: يا أمير المؤمنين، ألا تطيعه في سلطان توليه إياه، ومنزلة يكون له بها أثرٌ عندك إن هو بايعك؟ فقال: اتتوه الآن والقُوَّةُ واجتجوا عليه، وانظروا ما رأيته في هذا.

فأتوه فدخلوا عليه، فحمد أبو عمرو بن مَخْصَنٍ الله وأثنى عليه، وقال: أما بعد يا معاوية فإن الدنيا عنك زائلة، وإنك راجع إلى الآخرة، وإن الله مجازيك بعملك ومحاسبك بما قدَّمت يداك، وإني أنشدك الله ألا تفرِّق جماعة هذه الأمة، وألا تسفك دماءها بينها. فقطع معاوية عليه السلام وقال: فهلاً أوصيت صاحبك! فقال: سبحانه الله! إن صاحبي لا يوصي، إن صاحبي ليس مثلك، صاحبي أحقُّ الناس بهذا الأمر في الفضل والدين والسابقة في الإسلام والقربة من الرسول.. فقال معاوية: فتقول ماذا؟ قال: أدعوك إلى تقوى ربك، وإجابة ابن

(١) أخرجه البخاري، في الجهاد والسير، باب: فضل من أسلم على يديه رجل (٣٠٠٩)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب: فضل علي بن أبي طالب (٢٤٠٦)، وأبو داود في العلم، باب: فضل نشر العلم (٣٦٦١)، وأحمد في باقي مسند الأنصار، باب: حديث أبي مالك سهل بن سعد الساعدي (٢٢٣١٤).

عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق، فإنه أسلم لك في دينك، وخير لك في عاقبة أمرك. قال: وَيُقَلِّدُ دَمَ عَثْمَانَ! لا والرحمن لا أفعل ذلك أبداً.

فذهب سعيد بن قيس يتكلم، فبدره شَبِثُ بن الرِّبَيعي، فحمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا معاوية، قد فهمتُ ما رَدَدْتَ علي ابنِ مِخْصَن، إنه لا يخفي علينا ما تقرّ وما تطلب، إنك لا تجد شيئاً تستغوي به الناس، ولا شيئاً نستميل به أهواءهم، وتستخلص به طاعتهم إلا أن قلتَ لهم: قُتِلَ إِمَامُكُمْ مَظْلُوماً، فَهَلُمُّوا نَطْلُبْ بَدَمَهُ، فَاسْتَجَابَ لَكَ سَفْهَاءُ طَلْغَامِ رُدَّالٍ، وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّكَ أَبْطَأْتَ عَنْهُ بِالنَّصْرِ، وَأَحْبَبْتَ لَهُ الْقَتْلَ، لِهَذِهِ الْمَنْزِلَةِ الَّتِي تَطْلُبُ، وَرَبِّ مَبْتِغِ أَمْرٍ، وَطَالِبِ لِهَ يَحُولُ اللهُ دُونَهُ، وَرَبِّمَا أَوْتَى الْمَتَمَنِّي أَمْنِيَّتَهُ، وَرَبِّمَا لَمْ يُؤْتِهَا، وَوَالله مَا لَكَ فِي وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا خَيْرٌ، وَالله لئن أَخْطَاكَ مَا تَرْجُوا إِنَّكَ لَشَرُّ الْعَرَبِ حَالاً، وَلئن أَصَبْتَ مَا تَتَمَنَّا لَا نَصِيْبُهُ حَتَّى تَسْتَحِقَّ صَلَی النَّارِ، فَاتَّقِ الله يَا مُعَاوِيَةَ، وَدَعْ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ، وَلَا تَنَازِعِ الْأَمْرَ أَهْلَهُ.

فحمِد معاوية الله وأثنى عليه، وقال:

أما بعد فإنَّ أَوَّلَ مَا عَرَفْتُ بِهِ سَفْهَكَ وَخَفَةَ جِلْمِكَ قَطْعُكَ عَلَيَ هَذَا الْحَسِيبِ الشَّرِيفِ سَيِّدِ قَوْمِهِ مِنْطَقَهُ. ثُمَّ عَتَبْتُ بَعْدُ فِيمَا لَا عِلْمَ لَكَ بِهِ، وَلَقَدْ كَذَّبْتَ وَلَوَّمْتَ أَيُّهَا الْأَعْرَابِيُّ الْجِلْفُ الْجَافِي فِي كُلِّ مَا وَصَفْتَ وَذَكَرْتَ. انصرفوا من عندي فإنه ليس بيني وبينكم إلا السيف. وغضب فخرج القوم وشبَّث يقول: أعلينا تُهَوِّلُ بالسيف! أما والله لنعجلنَّه إليك، فأتوا علياً عليه السلام، فأخبروه بالذي كان من قوله، وذلك في شهر ربيع الآخر.

قال نصر: وَخَرَجَ قَرَاءُ أَهْلِ الْعِرَاقِ، وَقَرَاءُ أَهْلِ الشَّامِ فَعَسَكُرُوا نَاحِيَةَ صِفِّينِ ثَلَاثِينَ أَلْفًا.

قال: وَعَسَكَرَ عَلِيٌّ عليه السلام عَلَى الْمَاءِ، وَعَكَسَرَ مُعَاوِيَةُ فَوْقَهُ عَلَى الْمَاءِ أَيْضاً، وَمَشَتْ الْقُرَاءُ فِيمَا بَيْنَ عَلِيٍّ عليه السلام وَمُعَاوِيَةَ، مِنْهُمْ عَبِيدَةُ السَّلْمَانِيِّ، وَعَلْقَمَةُ بْنُ قَيْسِ النَّخَعِيِّ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عَتَبَةَ، وَعَامِرُ بْنُ عَبْدِ الْقَيْسِ - وَقَدْ كَانَ فِي بَعْضِ تِلْكَ السَّوَاوِحِلِ - فَانصَرَفَ إِلَى عَسْكَرِ عَلِيٍّ عليه السلام، فَدَخَلُوا عَلَى مُعَاوِيَةَ فَقَالُوا: يَا مُعَاوِيَةَ، مَا الَّذِي تَطْلُبُ؟ قَالَ: أَطْلُبُ بَدَمَ عَثْمَانَ، قَالُوا: مَتَى تَطْلُبُ بَدَمَ عَثْمَانَ؟ قَالَ: أَطْلُبُهُ مِنْ عَلِيٍّ، قَالُوا: وَعَلِيٌّ قَتَلَهُ؟ قَالَ: نَعَمْ هُوَ قَتَلَهُ، وَأَوَى قَتْلَهُ، فَانصَرَفُوا مِنْ عِنْدِهِ فَدَخَلُوا عَلَى عَلِيٍّ عليه السلام، فَقَالُوا: إِنَّ مُعَاوِيَةَ يَزْعُمُ أَنَّكَ قَتَلْتَ عَثْمَانَ، قَالَ: اللَّهُمَّ لَكَذِبَ فِيمَا قَالَ، لَمْ أَقْتُلْهُ.

فرجعوا إلى معاوية فأخبروه، فقال لهم: إنه إن لم يكن قتله بيده فقد أمر ومالاً، فرجعوا إلى عليٍّ فقالوا: إن معاوية يزعم أنك إن لم تكن قتلت بيدك، فقد أمرت ومالاً على قتل عثمان، فقال: اللَّهُمَّ لَكَذِبَ فِيمَا قَالَ، فرجعوا إلى معاوية، فقالوا: إن علياً يزعم أنه لم يفعل، فقال معاوية: إن كان صادقاً فليُقِذْنَا مِنْ قَتْلَةِ عَثْمَانَ، فإنهم في عسكره وجنده وأصحابه وعُضْدُهُ

فرجعوا إلى علي عليه السلام، فقالوا: إن معاوية يقول لك: إن كنت صادقاً فادفع إلينا قتلة عثمان أو مكناً منهم، فقال لهم: إن القوم تأولوا عليه القرآن، ووقعت الفرقة، فقتلوه في سلطان، وليس على ضربهم قود، فخصم علي معاوية.

قلت: على ضربهم ما هنا، على مثلهم، يقال: زيد ضرب عمرو ومن ضرب، أي مثله ومن صنفه، ولا أدري لم عدل عليه السلام عن الحجة بما هو أوضح من هذا الكلام، وهو أن يقول: إن الذين باشروا قتله بأيديهم كانوا اثنين وهما قتيبة بن وهب وسودان بن حمران، وكلاهما قتل يوم الدار، قتلها عبيد عثمان، والباقون الذين هم جندي وعصدي كما تزعمون، لم يقتلوا بأيديهم، وإنما أغروا به، وحصلوه وأجلبوا عليه، وهجموا على داره، كمحمد بن أبي بكر والأشتر وعمرو بن الحقيق وغيرهم، وليس على مثل هؤلاء قود -.

قال نصر: فقال لهم معاوية: إن كان الأمر كما تزعمون، فلم ابتز الأمر دوننا على غير مشورة منا ولا ممن ها هنا معنا؟ فقال علي عليه السلام: إن الناس تبع المهاجرين والأنصار وهم شهود للمسلمين في البلاد على ولايتهم وأمرائهم، فرضوا بي وبايعوني، ولست أستحل أن أدع ضرب معاوية يحكم بيده على الأمة ويركبهم ويشق عصاهم.

فرجعوا إلى معاوية فأخبروه بذلك، فقال: ليس كما يقول، فما بال من ها هنا من المهاجرين والأنصار لم يدخلوا في هذا الأمر ويؤامروا فيه!

فانصرفوا إلى علي عليه السلام، فأخبروه بقوله: فقال: ويحكم! هذا للبدرتين دون الصحابة، ليس في الأرض بذري إلا وقد بايعني وهو معي، أو قد قام ورضي، فلا يفرنكم معاوية من أنفسكم ودينكم.

قال نصر: فتراسلوا بذلك ثلاثة أشهر: ربيع الآخر، وجُماديين، وهم مع ذلك يفرعون الفرعة فيما بينهما، فيزحف بعضهم إلى بعض، وتحجز القراء بينهم.

قال: فزعوا في ثلاثة أشهر خمساً وثمانين فرعة، كل فرعة يزحف بعضهم إلى بعض، وتحجز القراء بينهم لا يكون بينهم قتال.

قال نصر: وخرج أبو أمامة الباهلي وأبو الدرداء، فدخلا على معاوية - وكانا معه - فقالا: يا معاوية، علام تقاتل هذا الرجل؟ فوالله لهو أقدم منك إسلاماً، وأحق بهذا الأمر، وأقرب من رسول الله ﷺ، فعلام تقاتله؟ فقال: أقاتله على دم عثمان، وأنه آوى قتله، فقولوا له: فليقتلنا من قتله وأنا أول من بايعه من أهل الشام.

فانطلقوا إلى علي عليه السلام فأخبروه بقول معاوية، فقال: إنما يطلب الذين ترون، فخرج

عشرون ألفاً أو أكثر متسربلين الحديد، لا يرى منهم إلا الحَدَق، فقالوا: كُلُّنا قتله، فإن شاؤوا فَلَيُرْمُوا ذلك منا. فرجع أبو أمامة وأبو الدرداء فلم يشهدا شيئاً من القتال.

قال نصر: حتى إذا كان رجب، وخشي معاوية أن يتابع القراء علياً عليه السلام، أخذ في المكر، وأخذ يحتال للقراء لكيما يُحجموا ويكفوا حتى ينظروا.

قال: فكتب في سهم: مِنْ عبد الله الناصح، إني أخبركم أن معاوية يريد أن يُفَجِّر عليكم الفرات فيغرقكم، فخذوا حذرکم. ثم رمى بالسهم في عسكر علي عليه السلام، فوقع السهم في يد رجل فقراء ثم أقرأه صحبه، فلما قرأه وقرأته الناس وأقرأه مَنْ أَقْبَلَ وأدبر، قالوا: هذا أخ لنا ناصح، كتب إليكم يخبركم بما أراد معاوية، فلم يزل السهم يُقرأ ويرتفع حتى رُفِعَ إلى علي عليه السلام، وقد بعث معاوية مائتي رجل من العَمَلَة إلى عاقول من النهر، بأيديهم المرور والزبل يحفرون فيها بحيال عسكر علي عليه السلام. فقال علي عليه السلام: ويحكم! إن الذي يعالج معاوية لا يستقيم له، ولا يقوى عليه، إنما يريد أن يُزيلكم عن مكانكم، فانهوا عن ذلك، فقالوا له: لا ندعهم والله يحفرون، فقال علي عليه السلام: لا تكونوا ضغفي، ويحكم! لا تغلبوني على رأيي. فقالوا: والله لنترحلن، فإن شئت فارتحل، وإن شئت فأقم، فارتحلوا وصعدوا بعسكرهم ملياً، وارتحل علي عليه السلام في أخريات الناس، وهو يقول:

فَلَوْ أَنِّي أَطَعْتُ عَصَمْتُ قَوْمِي إِلَى رُكْنِ الْيَمَامَةِ أَوْ شَمَامِ
وَلَكِنِّي مَتَى أَبْرَمْتُ أَمْرًا مُنِيْتُ بِخُلْفِ آرَاءِ الطُّغَمَاءِ

قال: وارتحل معاوية حتى نزل معسكر علي عليه السلام الذي كان فيه، فدعا علي عليه السلام الأشر، فقال: ألم تغلبني على رأيي أنت والأشعث! فدونكما. فقال الأشعث: أنا أكفيك يا أمير المؤمنين، سأداوي ما أفسدت اليوم من ذلك، فجمع كِنْدَةَ فقال لهم: يا معشر كِنْدَةَ، لا تفضوني اليوم ولا تُخزوني، فإني إنما أقارع بكم أهل الشام، فخرجوا معه رجالة يمشون، وييده رمح له يلقيه على الأرض، ويقول: امشوا قيد رمحي هذا، فيمشون، فلم يزل يقيس لهم الأرض برمحه، ويمشون معه رجالة حتى لقي معاوية وسط بني سُليم واقفاً على الماء، وقد جاءه أداني عسكره، فاقتتلوا قتالاً شديداً على الماء ساعة، وانتهى أوائل أهل العراق فنزلوا، وأقبل الأشر في خيل من أهل العراق، فحمل على معاوية، والأشعث يحارب في ناحية أخرى، فانهاز معاوية في بني سُليم، فردّ وجوه إبله قدر ثلاثة فراسخ، ثم نزل ووضع أهل الشام، والأشعث يهدير ويقول: أرضيتك يا أمير المؤمنين! ثم تمثل بقول طرفة بن العبد:

فَفِدَاءِ لِبَنِي سَفْدِ عَلِيٍّ مَا أَصَابَ النَّاسَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍ
مَا أَقْلَتِ قَدَمَايَ إِنَّهُمْ نَعَمَ السَّاعُونَ فِي لَحْيِ الشُّطْرِ
وَلَقَدْ كُنْتُ عَلَيْكُمْ عَاتِباً فَعَقَّبْتُمْ بِذُنُوبٍ غَيْرِ مُرَّ

كنت فيكم كالمغطي رأسه فانجلى اليوم قناعي وخُمِرَ
سَادراً أَحَسِبَ غِيَّيَ رَشْداً فتنَاهِيْتُ وقد صابت بِقُرٍّ^(١)
وقال الأشر: يا أمير المؤمنين، قد غلب الله لك على الماء، فقال علي عليه السلام: أنتما كما
قال الشاعر:

تَلَاقِيْنَ قَيْساً وَأَشْيَاعَهُ قِيُوقَدٍ لِلْحَرْبِ نَاراً قَنَاراً
أَخُو الْحَرْبِ إِنْ لَقِيتَ بَارِزاً سَمّاً لِلْعَلَا وَأَجَلَ الْخِطَارَا
قال نصر: فكان كل واحد من علي ومعاوية يُخرج الرجل الشريف في جماعة، فيقاتل مثله،
وكانوا يكرهون أن يتزاحفوا بجميع الفيلق مخافة الاستتصال والهلاك، فاقتل الناسُ ذا الحجة
كله، فلما انقضى تداعوا إلى أن يكف بعضهم عن بعض إلى أن ينقضي المحرم، لعل الله أن
يُجزِي صلحاً أو إجماعاً، فكف الناس في المحرم بعضهم عن بعض.

قال نصر: حدثنا عمر بن سعد، عن أبي المجاهد عن المحل بن خليفة، قال: لما تواذعوا
في المحرم، اختلفت الرسل فيما بين الرجلين رجاء الصلح، فأرسل علي عليه السلام إلى معاوية
عدي بن حاتم الطائي وشبث بن ربعي التميمي ويزيد بن قيس وزياد بن خَصَفَة، فلما دخلوا
عليه، حمِد الله تعالى عدي بن حاتم الطائي، وأثنى عليه، ثم قال:

أما بعد، فإننا أتيناك لندعوك إلى أمر يجمع الله فيه كلمتنا وأمتنا، ويحقن به دماء المسلمين.
ندعوك إلى أفضل الناس سابقة، وأحسنهم في الإسلام آثاراً، وقد اجتمع إليه الناس، وقد
أرشدهم الله بالذي رأوا وأتوا، فلم يبق أحدٌ غيرك وغير من معك، فأنته يا معاوية من قبل أن
يصيبك الله وأصحابك بمثل يوم الجمل.

فقال له معاوية: كأنك إنما جئت مُهدداً، ولم تأت مصلحاً! هيهات يا عدي! إني لابن
حرب! ما يُقنعُ لي بالشَّنان. أما والله إنك من المجلبين على عثمان، وإنك لمن قتلت، وإني
لأرجو أن تكون ممن يقتله الله.

فقال له شبث بن ربعي وزياد بن خَصَفَة، وتنازعا كلاماً واحداً: أتيناك فيما يصلحنا وإياك،
فأقبلت تضرب لنا الأمثال، دع ما لا ينفع من القول والفعل، وأجبتنا فيما يعمننا وإياك نفعه.

وتكلم يزيد بن قيس الأرحبي، فقال: إنا لم نأتك إلا لنبلغك ما بعثنا به إليك، ولنؤدِّي عنك
ما سمعنا منك، ولم ندع أن ننصح لك، وأن نذكر ما ظننا أن لنا عليك به حجة، أو أنه راجع

(١) السادر: المتحير. القاموس المحيط، مادة (سدر).

بك إلى الألفة والجماعة إنَّ صاحبنا مَنْ قد عَرَفَتْ وعرف المسلمون فضله، ولا أظنه يخفى عليك، إنَّ أهل الدين والفضل لا يعدُّونك بعليٍّ، ولا يميلون بينك وبينه، فاتق الله يا معاوية ولا تخالف علياً، فإننا والله ما رأينا رجلاً قط أعمل بالتقوى، ولا أزهّد في الدنيا، ولا أجمع لخصال الخير كلّها منه.

فحمد الله معاوية وأثنى عليه، وقال: أما بعد. فإتكم دعوتكم إلى الجماعة والطاعة، فأما الجماعة التي دعوتكم إليها فنيعةً هي! وأما الطاعة لصاحبكم فإننا لا نراها، إنَّ صاحبكم قتل خليفتنا، وفرّق جماعتنا، وآوى ثأرنا وقتلنا، وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله، فنحن لا نردّ ذلك عليه أرايتم قتلةً صاحبنا! ألسنتم تعلمون أنهم أصحابُ صاحبكم، فليدفعهم إلينا فلنقتلهم به، ونحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة.

فقال له شُبَّان بن ربعي: أيسرك بالله يا معاوية أن أمكنت من عمار بن ياسر فقتلته! قال: وما يمنعني من ذلك! والله لو أمكنتي صاحبكم من ابن سُمَيّة ما قتلت به عثمان، ولكني كنت أقتله بنائل مولى عثمان!

فقال شُبَّان: وإله السماء ما عدلتَ معدلاً، ولا والذي لا إله إلا هو، لا تصل إلى قتل ابن ياسر حتى تُنذَر الهامُ عن كواهل الرجال، وتضيق الأرض والفضاء عليك برُخبها.

فقال معاوية: إنه إذا كان ذلك كانت عليك أضيق.

ثم رجع القوم عن معاوية، فبعث إلى زياد بن خَصَفَة من بينهم، فأدخل عليه، فحمد معاوية الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد يا أخا ربيعة، فإن علياً قطع أرحامنا، وقتل إمامنا، وآوى قتلةً صاحبنا، وإنّي أسألك النصرَ بأسرتك وعشيرتك، ولك عليّ عهد الله وميثاقه إذا ظهرت أن أولئك أيّ المصرين أحببت.

قال أبو المجاهد: فسوّعت زياد بن خَصَفَة يحدث بهذا الحديث.

قال: فلما قضى معاوية كلامه، حَدِثَ الله وأثنت عليه، ثم قلت: أما بعد، فإنّي لعلّى بينة من ربي وبما أنعم عليّ، فلن أكون ظهيراً للمجرمين، ثم قمت.

فقال معاوية لعمر بن العاص - وكان إلى جانبه - ما لهم عَصَبهم الله ما قلبهم إلا قلب رجل واحد!

قال نصر: وحدثنا سليمان بن أبي راشد، عن عبد الرحمن بن عبيد أبي الكنود، قال: بعث معاوية حبيب بن مسلمة الفهريّ إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وبعث معه شُرَحْبِيل بن السَّمَط ومعن بن يزيد بن الأخنس السلمي، فدخلوا على عليّ عليه السلام فتكلم حبيب بن مسلمة، فحمد الله وأثنى عليه، وقال:

أما بعد فإن عثمان بن عفان كان خليفة مهدياً، يعمل بكتاب الله ويُثيب إلى أمر الله،

فاستقلتم حياتهم، واستبطأتم وفاتهم. فعدوتم عليه فقتلتموه، فادفع إلينا قتلة عثمان نقتلهم به، فإن قلت: إنك لم تقتله، فاعتزل أمر الناس، فيكون أمرهم هذا شوري بينهم، يولي الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم.

فقال له علي: وما أنت لا أم لك والولاية والعزل والدخول في هذا الأمر اسكت فإنك لست هناك، ولا بأهل لذلك! فقام حبيب بن مسلمة وقال: أما والله لتريتي حيث تكره. فقال عليه السلام: وما أنت! ولو أجلبت بخيلك ورجلك. اذهب فصوب وصعد ما بدا لك، فلا أبقي الله عليك إن أبقيت!

فقال شرحبيل بن السمط: إن كلمتك، فلعمري ما كلامي لك إلا نحو كلام صاحبي، فهل لي عندك جواب غير الجواب الذي أجبت به؟ فقال: نعم، قال: فقله، فحمد الله علي عليه السلام، وأثنى عليه، ثم قال:

أما بعد، فإن الله سبحانه بعث محمداً صلى الله عليه فأنقذ به من الضلالة، ونعش به من الهلكة، وجمع به بعد الفرقة، ثم قبضه الله إليه، وقد أدى ما عليه، فاستخلف الناس أبا بكر، ثم استخلف أبو بكر عمر، فأحسننا السيرة، وعدلنا في الأمة، ووجدنا عليهما أن توليا الأمر دوننا، ونحن آل الرسول، وأحق بالأمر، فغفرنا ذلك لهما، ثم ولي أمر الناس عثمان، فعمل بأشياء عابها الناس عليه، فسار إليه ناس فقتلوه، ثم أتاني الناس وأنا معتزل أمرهم، فقالوا لي: بايع، فأبيت عليهم، فقالوا لي: بايع، فإن الأمة لا ترضى إلا بك، وإنا نخاف إن لم تفعل أن يفرق الناس، فبايعتهم فلم يرعني إلا شقاق رجلين قد بايعا، وخلاف معاوية إياي الذي لم يجعل الله سابقة في الدين، ولا سلف صدق في الإسلام، طليق ابن طليق، وحزب من الأحزاب، لم يزل لله ولرسوله وللمسلمين عدواً هو وأبوه حتى دخلوا في الإسلام كارهين مكرهين، فيا عجباً لكم، ولإجلابكم معه، وانقيادكم له، وتدعون آل بيت نبيكم الذين لا ينبغي لكم شقاقهم ولا خلافهم، ولا تعدلوا بهم أحداً من الناس، إني أدعوكم إلى كتاب ربكم وسنة نبيكم، وإمارة الباطل، وإحياء معالم الدين، أقول قولي هذا وأستغفر الله لنا ولكل مؤمن ومؤمنة، ومسلم ومسلمة.

فقال له شرحبيل ومغن بن يزيد: أتشهد أن عثمان قتل مظلوماً؟ فقال لهما: إني لا أقول ذلك، قالوا: فمن لم يشهد أن عثمان قتل مظلوماً، فنحن براء منه! ثم قاما فانصرفا. فقال علي عليه السلام: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتُ وَلَا تَسْمِعُ الْقَبْرَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدْيِينَ﴾ (٨٠) وَمَا أَنْتَ بِهَدَى الْعُنَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٨١) (١).

ثم أقبل على أصحابه، فقال: لا يكن هؤلاء في ضلالتهم بأولى بالجد منكم في حقكم وطاعة إمامكم. ثم مكث الناس متوابعين إلى انسلاخ المحرم، فلما انسلاخ المحرم واستقبل الناس صفراً من سنة سبع وثلاثين، بعث علي عليه السلام نقرأ من أصحابه، حتى إذا كانوا من معسكر معاوية بحيث يسمعونهم الصوت، قام مرثد بن الحارث الجشمي، فنادى عند غروب الشمس: يا أهل الشام إن أمير المؤمنين علياً وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يقولون لكم: إنا لم نكف عنكم شكاً في أمركم، ولا إبقاء عليكم، وإنما كففتنا عنكم خروج المحرم، وقد انسلاخ، وإنا قد نبذنا إليكم على سواء، إن الله لا يحب الخائنين.

قال: فتحاجز الناس وثاروا إلى أمرائهم.

قال نصر: فأما رواية عمرو بن شمر، عن جابر، عن أبي الزبير أن نداء مرثد بن الحارث الجشمي، كانت صورته: يا أهل الشام، ألا إن أمير المؤمنين يقول لكم: إني قد استدثمتكم واستأنيت بكم، لتراجعوا الحق، وتثوبوا إليه، واحتججت عليكم بكتاب الله، ودعوتكم إليه، فلم تتناهوا عن طغيان، ولم تجيبوا إلى حق، وإني قد نبذت إليكم على سواء، إن الله لا يحب الخائنين.

قال: فثار الناس إلى أمرائهم ورؤسائهم.

قال نصر: وخرج معاوية وعمرو بن العاص يكتبان الكتاب، ويغيبان العساكر، وأوقدوا النيران، وجاؤوا بالشموع، ويات علي عليه السلام تلك الليلة كلها، يعبي الناس، ويكتب الكتاب، ويدور في الناس ويحرضهم.

قال نصر: حدثنا عمر بن سعد، بإسناده عن عبد الله بن جندب، عن أبيه أن علياً عليه السلام كان يأمرنا في كل موطن لقينا معه عدوه، فيقول:

لا تقاتلوا القوم حتى يبدؤوكم، فهي حجة أخرى لكم عليهم، فإذا قاتلتموهم فهزمتموهم فلا تقتلوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تكشفوا عورة، ولا تُمثلوا بقتيل، فإذا وصلتم إلى رجال القوم فلا تهتكوا سترأ، ولا تدخلوا داراً إلا بإذن، ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم إلا ما وجدتم في عسكرهم، ولا تهيجوا امرأة، وإن شتمن أعراضكم، وتناولن أمراءكم وصلحاءكم، فإنهن ضعاف القوى والأنفس والعقول، ولقد كنّا وإنا لنؤمر بالكف عنهن ومن مشركات، وإن كان الرجل ليتناول المرأة في الجاهلية بالهراوة أو الحديد فيعير بها عقبه من بعده.

قال نصر: وحدثنا عمر سعد، عن إسماعيل بن يزيد - يعني ابن أبي خالد - عن أبي صادق، أن علياً عليه السلام حرض الناس في حروبه، فقال:

عباد الله، اتقوا الله وغضوا أبصاركم، واخفضوا الأصوات، وأقلوا الكلام، ووطنوا أنفسكم على المنازلة والمجاوله والمبارزة والمعانقة، واثبتوا: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَزَعَّوْا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ اللهم ألهمهم الصبر، وأنزل عليهم النصر، وأعظم لهم الأجر.

قال نصر: وكان ترتيب عسكر علي عليه السلام، بموجب ما رواه لنا عمرو بن شمر عن جابر، عن محمد بن علي، وزيد بن حسن، ومحمد بن عبد المطلب: أنه جعل على الخيل عمار بن ياسر، وعلى الرجال عبد الله بن بُذيل بن ورقاء الخزاعي، ودفع اللواء إلى هاشم بن عُثبة بن أبي وقاص الزهري، وجعل على الميمنة الأشعث بن قيس، وعلى الميسرة عبد الله بن العباس، وجعل على رجال الميمنة سليمان بن صُرد الخزاعي، وعلى رجال الميسرة الحارث بن مرة العبدي، وجعل القلب مضر الكوفة والبصرة، وجعل على ميمنة القلب اليمن وعلى ميسرته ربيعة، وعقد ألوية القبائل، فأعطاهما قوماً منهم بأعيانهم، وجعلهم رؤساءهم وأمرأهم، وجعل على قريش وأسد وكنانة عبد الله بن عباس، وعلى كندة حُجر بن عدي الكندي، وعلى بكر البصرة الحُصين بن المنذر الرقاشي، وعلى تميم البصرة الأحنف بن قيس، وعلى خزاعة عمرو بن الحقيق، وعلى بكر الكوفة نُعيم بن هُبيرة، وعلى سغد البصرة وريابها جارية بن قدامة السعدي، وعلى بجيلة رفاعه بن شداد، وعلى ذهل الكوفة رُوَيْمًا الشيباني - أو يزيد بن رُويم - وعلى عمرو البصرة وحَنظَلَتِهَا أَغْيَنُ بن ضُبَيْعَةَ، وعلى قُضَاعَةَ وطِيءَ عدي بن حاتم الطائي، وعلى لهازم الكوفة عبد الله بن حَجَل العجلي، وعلى تميم الكوفة عُمير بن عطار، وعلى الأزْد واليمن جُنْدَب بن زهير، وعلى ذهل البصرة خالد بن المعمر السدوسي، وعلى عمرو الكوفة وحَنظَلَتِهَا شَبَث بن رِئَعِي، وعلى هَمْدَان سعيد بن قيس، وعلى لهازم البصرة حُرَيْث بن جابر الجعفي، وعلى سعد الكوفة وريابها الطُّفَيْل أبا صُرَيْمَةَ، وعلى مَذْجَج الأشر بن الحارث النَّخَعِي، وعلى عبد القيس الكوفة صُغْصَعَةَ بن صُوحَانَ، وعلى عبد القيس البصرة عمرو بن حنظلة، وعلى قيس الكوفة عبد الله بن الطُّفَيْل الْبَكَّائِي، وعلى قريش البصرة الحارث بن نوفل الهاشمي وعلى قيس البصرة قبيصة بن شداد الهلالي، وعلى اللقيف من القواصي القاسم بن حَنظَلَةَ الْجُهَنِي.

وأما معاوية فاستعمل على الخيل عُبيد الله بن عمر بن الخطاب، وعلى الرجال مسلم بن عقبة المَزْنِي، وجعل على الميمنة عبد الله بن عمرو بن العاص، وعلى الميسرة حبيب بن مسلمة

الفهري، وأعطى اللواء عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وجعل على أهل دمشق - وهم القلب - الضحاك بن قيس الفهري، وعلى أهل جنص - وهم الميمنة - ذا الكلاع الحميري، وعلى أهل قنسرين - وهم في الميمنة أيضاً - زُفر بن الحارث الكلابي، وعلى أهل الأردن - وهم الميسرة - سفيان بن عمرو أبا الأعور السلمي، وعلى أهل فلسطين - وهم في الميسرة أيضاً - مسلمة بن مخلد، وعلى رجالة أهل دمشق بسر بن أبي أرضاة العامري بن لؤي بن غالب، وعلى رجالة أهل حمص حوشباً ذا ظليم، وعلى رجالة قيس طريف بن حابس الألهماني، وعلى رجالة الأردن عبد الرحمن بن قيس القيني، وعلى رجالة أهل فلسطين الحارث بن خالد الأزدي، وعلى رجالة قيس دمشق همام بن قبيصة، وعلى قضاة جنص وإيادها بلال بن أبي فبيرة الأزدي، وحاتم بن المعتمر الباهلي، وعلى رجالة الميمنة حابس بن سعيد الطائي، وعلى قضاة دمشق حسان بن بخدل الكلب، وعلى قضاة عباد بن يزيد الكلب، وعلى كئدة دمشق حسان بن حوي السكسكي، وعلى كئدة جنص يزيد بن هبيرة السكوني، وعلى سائر اليمن يزيد بن أسد البجلي، وعلى حمير وحضرموت اليمان بن غفير وعلى قضاة الأردن حبيس بن دلجة القيني، وعلى كنانة فلسطين شريكاً الكناني، وعلى مذحج الأردن المخارق بن الحارث الزبيدي، وعلى جذام فلسطين ولحمها نائل بن قيس الجذامي، وعلى همدان الأردن حمزة بن مالك الهمداني، وعلى الخثعم بن عبد الله الخثعمي، وعلى غسان الأردن يزيد بن الحارث، وعلى جميع القواصي القعقاع بن أبرهة الكلاعي، أصيب في المبارزة أول يوم تراءت فيه الفئتان.

قال نصر: فأما رواية الشعبي التي رواها عنه إسماعيل بن أبي عميرة، فإن علياً عليه السلام بعث على ميمنته عبد الله بن بُذيل بن وِزقاء الخُزاعي، وعلى ميسرته عبد الله بن العباس، وعلى خيل الكوفة الأشتر، وعلى البصرة سهل بن حنيف، وعلى رجالة الكوفة عمار بن ياسر، وعلى رجالة أهل البصرة قيس بن سعد - وكان قد أقبل من مصر إلى صُفّين - وجعل معه هاشم بن عُتبة، وجعل مسعود بن فدكي التميمي على قراء أهل البصرة، وأما قراء أهل الكوفة فصاروا إلى عبد الله بن بُذيل، وعمار بن ياسر.

قال نصر: وأما ترتيب عسكر الشام - فيما رواه لنا عمر بن سعد، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن القاسم مولى يزيد بن معاوية - فإن معاوية بعث على ميمنته ذا الكلاع، وعلى ميسرته حبيب بن مسلمة الفهري، وعلى مقدمته من يوم أقبل من دمشق أبا الأعور السلمي، وكان على خيل دمشق كلها عمرو بن العاص، ومعه خيول أهل الشام بأسرها، وجعل مسلم بن عُبّة المُرّي على رجالة دمشق، والضحاك بن قيس على سائر الرجالة بعد.

قال نصر: وتبايع رجال من أهل الشام على الموت وتحالفوا عليه وعقلوا أنفسهم بالعمائم، وكانوا صُفوفاً خمسة معقلين، كانوا يخرجون فيصطفون أحد عشر صفّاً، ويخرج أهل العراق فيصطفون أحد عشر صفّاً أيضاً.

قال نصر: فخرجوا أول يوم من صفر من سنة سبع وثلاثين، وهو يوم الأربعاء، فاقتتلوا، وعلى من خرج يومئذ من أهل الكوفة الأشتر، وعلى أهل الشام حبيب بن مسلمة فاقتتلوا قتالاً شديداً جُلَّ النهار، ثم تراجعوا وقد انتصف بعضهم من بعض. ثم خرج في اليوم الثاني هاشم بن عُتبة في خيل ورجال حسن عددها وعُدتها، فخرج إليه من أهل الشام أبو الأعور السلمي، فاقتتلوا يومهم ذلك، تحمّل الخيل على الخيل والرجال على الرجال. ثم انصرفوا وقد صبر القوم بعضهم لبعض، وخرج في اليوم الثالث عمار بن ياسر، وخرج إليه عمرو بن العاص، فاقتتل الناس كأشدّ قتال كان، وجعل عمار يقول: يا أهل الشام، أتريدون أن تنظروا إلى من عادى الله ورسوله وجاهدتهما، وبغى على المسلمين، وظاهر المشركين. فلما أراد الله أن يظهر دينه، وينصر رسوله أتى إلى النبي رسول الله ﷺ فأسلم، وهو والله فيما يرى راهب غير راغب. ثم قبض الله ورسوله، وإنا والله لنعرفه بعداوة المسلم، ومودة المجرم! ألا وإنه معاوية، فقاتلوه والعنوه، فإنه ممن يطفى نور الله، ويظاهر أعداء الله.

قال: وكان مع عمار زياد بن النضر على الخيل، فأمره أن يحمل في الخيل، فحمل فصبروا له، وشدّ عمار في الرّجالة، فأزال عمرو بن العاص عن موقفه، وبارز يومئذ زياد بن النضر أخاً له من بني عامر يعرف بمعاوية بن عمرو العقيلي، وأمهما هند الزبيدية، فانصرف كل واحد منهما عن صاحبه بعد المبارزة سالماً، ورجع الناس يومهم ذلك.

قال نصر: وحدثني أبو عبد الرحمن المسعودي قال: حدثني يونس بن الأرقم، عمّن حدثه من شيوخ بكر بن وائل، قال: كنا مع عليّ عليه السلام بصيفين، فرفع عمرو بن العاص شقة خميصية سوداء في رأس رُمح، فقال ناس: هذا لواء عقده له رسول الله ﷺ، فلم يزالوا يتحدثون حتى وصل ذلك إلى عليّ عليه السلام، فقال: أتدرون ما أمر هذا اللواء! إنّ عدوّ الله عمراً أخرج له رسول الله ﷺ هذه الشقة، فقال: من يأخذها بما فيها؟ فقال عمرو: وما فيها يا رسول الله؟ قال: «فيها ألا تقاتل بها مسلماً، ولا تقرّبها من كافر»^(١)، فأخذها، فقد والله قرّبها من المشركين، وقاتل بها اليوم المسلمين، والذي فلق الحبة، ويرى النّسمة، ما أسلموا ولكنهم استسلموا وأسرّوا الكفر، فلما وجدوا عليه أعواناً أظهروه.

(١) ذكره الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٣/٦٨).

وروى نصر، عن أبي عبد الرحمن المنعودي، عن يونس بن الأرقم، عن عوف بن عبد الله، عن عمرو بن هند البجلي، عن أبيه، قال: لما نظر علي عليه السلام إلى رايات معاوية وأهل الشام، قال: والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، ما أسلموا ولكن استسلموا، وأسرفوا الكفر، فلما وجدوا عليه أعواناً، رجعوا إلى عدواتهم لنا، إلا أنهم لم يتركوا الصلاة.

وروى نصر، عن عبد العزيز بن سياه، عن حبيب بن أبي ثابت، قال: لما كان قتال صفين، قال رجل لعمار: يا أبا اليقظان، ألم يقل رسول الله ﷺ: «قاتلوا الناس حتى يُسلموا، فإذا أسلموا حَصَمُوا مَنِي دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ»^(١)؟ قال: بلى، ولكن والله ما أسلموا، ولكن استسلموا، وأسروا الكفر حتى وجدوا عليه أعواناً.

وروى نصر، عن عبد العزيز بن حبيب بن أبي ثابت، عن منذر الثوري، قال: قال محمد بن الحنفية: لما أتاهم رسول الله ﷺ من أعلى الوادي ومن أسفله، وملا الأودية كتائب - يعني يوم فتح مكة - استسلموا حتى وجدوا أعواناً^(٢).

وروى نصر، عن الحكم بن ظهير عن إسماعيل، عن الحسن، قال: وحدثنا الحكم أيضاً عن عاصم بن أبي النجود، عن زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم معاوية بن أبي سفيان يخطب على منبري فاضربوا عنقه»، فقال الحسن: فوالله ما فعلوا ولا أفلحوا^(٣).

٥٥ - ومن كلام له عليه السلام يذكر حروبه مع الرسول

الأصل: وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نَقْتُلُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا وَإِخْوَانَنَا وَأَعْمَامَنَا، مَا يَزِيدُنَا ذَلِكَ إِلَّا إِيْمَانًا وَتَسْلِيمًا، وَمُضِيًّا عَلَى اللَّقْمِ، وَصَبْرًا عَلَى مَضْضِ الْأَلَمِ، وَجِدًّا فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ. وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا وَالْآخَرُ مِنْ عَدُوِّنَا يَتَصَاوِلَانِ

(١) أخرج نحوه البخاري في الإيمان، باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة (٢٥)، ومسلم في الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله (٢١)، والترمذي في التفسير، باب: سورة الغاشية (٣٣٤١)، والنسائي في الجهاد، باب: الجهاد (٣٩٧٥).

(٢) انظر وقعة صفين لابن مزاحم: ٢١٦.

(٣) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٣٤٣).

تَصَاوُلَ الْفَخْلَيْنِ، يَتَخَالَسَانِ أَنْفُسَهُمَا، أَيُّهُمَا يَسْقِي صَاحِبَهُ كَأْسَ الْمَنُونِ، فَمَرَّةً لَنَا مِنْ عَدُوِّنَا، وَمَرَّةً لِعَدُوِّنَا مِنَّا، فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ صِدْقَنَا أَنْزَلَ بِعَدُوِّنَا الْكَبْتَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا النَّصْرَ، حَتَّى اسْتَقَرَّ الْإِسْلَامُ مُلْقِيًا جِرَانَهُ، وَمُتَبَوِّيًا أَوْطَانَهُ.

وَلَعَمْرِي لَوْ كُنَّا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ، مَا قَامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ، وَلَا أَخْضَرَ لِلْإِيمَانِ عُودٌ. وَأَيْمُ اللَّهِ لَتَحْتَلِبُنَّهَا دَمًا، وَلَتَسْبِغُنَّهَا نَدْمًا!

الشرح: لَقَمُ الطريق: الجادة الواضحة منها. والمَضَض: لدغ الألف وبِرْحَاوَهُ. والتَّصَاوُل: أن يحمل كل واحد من القرنين على صاحبه. والتخالس: التسالب والانتهاج. والكبت: الإذلال. وجِرَان البعير: مقدّم عنقه. وتَبَوَّات المنزل: نزله. ويقال لمن أسرف في الأمر: لَتَحْتَلِبَنَّ دَمًا، وأصله الناقة يُقَرَط في حَلْبِهَا فيحلب الحالب الدم. وهذه ألفاظ مجازية من باب الاستعارة، وهي:

قوله: «استقرّ الإسلام ملقياً جِرَانَهُ»، أي ثابتاً متمكناً، كالبعير يلقي جِرَانَهُ على الأرض.

وقوله: «متبوّياً أوطانه»، جعله كالجسم المستقرّ في وطنه ومكانه.

وقوله: «ما قام للدين عمود»، جعله كالبيت القائم على العُمد.

وقوله: «ولا اخضرّ للإيمان عود»، جعله كالشجرة ذات الفروع والأغصان.

فأما قتلهم الأقارب في ذات الله فكثير، قتل عليّ عليه السلام الجُمّ الغفير من بني عبد مناف وبني عبد الدار في يوم بَدْر وأُحُد، وهم عشيرته وبنو عَمِّهِ، وقَتَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَوْمَ بَدْرٍ خَالَه الْعَاصِ بْنِ هِشَامِ بْنِ الْمَغِيرَةِ، وَقَتَلَ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلِبِ شَيْبَةَ بْنَ رِبِيعَةَ يَوْمَ بَدْرٍ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّهِ، لَأَنَّهُمَا ابْنَا عَبْدِ مَنْفٍ، وَمِثْل ذَلِكَ كَثِيرٌ مَذْكُورٌ فِي كِتَابِ السِّيَرَةِ.

وَأَمَّا كَوْنُ الرَّجُلِ مِنْهُمْ وَقِرْنُهُ يَتَصَاوِلَانِ وَيَتَخَالَسَانِ، فَإِنَّ الْحَالِ كَذَلِكَ كَانَتْ، بَارِزَ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْوَلِيدَ بْنَ عُثْبَةَ، وَبَارِزَ طَلْحَةَ بْنَ أَبِي طَلْحَةَ، وَبَارِزَ عُمَرَو بْنَ عَبْدِوَدٍّ، وَقَتَلَ هُوَلَاءُ الْأَقْرَانَ مَبَارِزَةً، وَبَارِزَ كَثِيرًا مِنَ الْأَبْطَالِ غَيْرِهِمْ وَقَتَلَهُمْ، وَبَارِزَ جَمَاعَةً مِنْ شُجْعَانَ الصَّحَابَةِ جَمَاعَةً مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَمِنْهُمْ مَنْ قُتِلَ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَتَلَ وَكُتِبَ الْمَغَازِي تَتَضَمَّنُ تَفْصِيلَ ذَلِكَ.

وهذا الكلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام في قصة ابن الحضرميّ حيث قدم البصرة من قبل معاوية، واستنهض أمير المؤمنين عليه السلام أصحابه إلى البصرة، فتقاعدوا.

قال أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال الثَّقَفِيّ في كتاب «الغارات»:

حدثنا محمد بن يوسف، قال: حدثنا الحسن بن علي الزعفرانيّ، عن محمد بن عبد الله بن

عثمان، عن ابن أبي سيف، عن يزيد بن حارثة الأزدي، عن عمرو بن محسن، أن معاوية لما أصاب محمد بن أبي بكر بمصر وظهر عليها، دعا عبد الله بن عامر الحضرمي، فقال له: سر إلى البصرة، فإن جل أهلها يرون رأينا في عثمان، ويعظمون قتله، وقد قتلوا في الطلب بدمه، فهم موتورون خنقون^(١) لما أصابهم، ودوا لو يجدون من يدعوهم ويجمعهم وينهض بهم في الطلب بدم عثمان، واحذر ربيعة، وأنزل في مضر، وتودد الأزدي، فإن الأزدي كلها معك إلا قليلاً منهم، وإنهم إن شاء الله غير مخالفين.

فقال عبد الله بن الحضرمي له: أنا سهم في كنانتك، وأنا من قد جربت، وعدو أهل حربك، وظهيرك على قتلة عثمان، فوجهني إليهم متى شئت. فقال: اخرج غداً إن شاء الله. فودعه وخرج من عنده.

فلما كان الليل جلس معاوية وأصحابه يتحدثون، فقال لهم معاوية: في أي منزل ينزل القمر الليلة؟ فقالوا: بسعد الذابح، فكره معاوية ذلك، وأرسل إليه ألا تبرح حتى يأتبك أمري. فأقام.

ورأى معاوية أن يكتب إلى عمرو بن العاص وهو يومئذ بمصر، عامله عليها، يستطلع رأيه في ذلك، فكتب إليه، وقد كان تسمى بإمرة المؤمنين بعد يوم صيفين، وبعد تحكيم الحكيم: من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص:

سلام عليك، أما بعد، فلاني قد رأيت رأياً هممت بإمضائه، ولم يخذلني عنه إلا استطلاع رأيك، فإن توافقتني أحمد الله وأمضه، وإن تخالفني فلاني استخير الله وأستهديه. إني نظرت في أمر أهل البصرة فوجدت معظم أهلها لنا ولياً ولعلي وشيعته عدواً، وقد أوقع بهم علي الوقعة التي علمت، فأحقاد تلك الدماء ثابتة في صدورهم لا تبرج ولا تريم، وقد علمت أن قتلنا ابن أبي بكر، ووقعنا بأهل مصر قد أطفأت نيران أصحاب علي في الأفاق، ورفعت رؤوس أشياعنا أينما كانوا من البلاد، وقد بلغ من كان بالبصرة على مثل رأينا من ذلك ما بلغ الناس، وليس أحد ممن يرى رأينا أكثر عدداً، ولا أضرب خلافاً على علي من أولئك، فقد رأيت أن أبعث إليهم عبد الله بن عامر الحضرمي، فينزل في مضر ويتودد الأزدي، ويحذر ربيعة، ويبتغي دم ابن عفان، ويذگرهم وقعة علي بهم، التي أهلكك صالح إخوانهم وأبنائهم. فقد رجوت عند ذلك أن يفسد علي وشيعته ذلك الفرج من الأرض، ومتى يؤثروا من خلفهم وأمامهم يضل سعيهم، ويبطل كيدهم. فهذا رأيي. فما رأيك؟ فلا تحبس رسولي إلا قدر مضى الساعة التي ينتظر فيها جواب كتابي هذا. أرشدنا الله وإياك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

(١) الحق: شدة الاغتيال. اللسان، مادة (حق).

فكتب عمرو بن العاص إلى معاوية:

أما بعد، فقد بلغني رسولك، وكتابك، فقرأتَه وفهمتُ رأيك الذي رأيته، فعجبت له، وقلت: إن الذي ألقاه في روعك، وجعله في نفسك هو الشائر بآبن عفان، والطالب بدمه، وإنه لم يك منك ولا مِنّا منذ نهضنا في هذه الحروب وياديننا أهلها، ولا رأى الناس رأياً أضَرَ على عدوك. ولا أسرَ لوليك مِن هذا الأمر الذي ألهمته فامض رأيك مسدداً، فقد وَجَّهْتَ الصليب الأريب الناصح غير الظنين والسلام.

فلما جاءه كتاب عمرو دعا ابن الحضرمي - وقد كان ظنَّ حين تركه معاوية أياماً لا يأمره بالشخص، أن معاوية قد رجع عن إشخاصه إلى ذلك الوجه - فقال: يا ابن الحضرمي، سرّ على بركة الله إلى أهل البصرة فانزل في مُضَر، واخذِر ربيعة، وتودّد الأزد، وانع ابن عفان، وذكّرهم الوقعة التي أهلكتهم، ومنّ لمن سمع وأطاع دُنيا لا تَفنى، وأثرة لا يَفْقدها حتى يَفْقدها أو تَفْقده.

فودعه ثم خرج من عنده، وقد دفع إليه كتاباً، وأمره إذا قَدِم أن يقرأه على الناس.

قال عمرو بن محصن: فكنْتُ معه حين خرج، لما خرجنا سرنا ما شاء الله أن نسير، فسَنَح لنا ظبي أغضب عن شمائلنا، فنظرت إليه، فوالله لرأيتُ الكراهية في وجهه، ثم مضينا حتى نزلنا البصرة في بني تميم، فسمعَ بِقُدُومنا أهلُ البصرة، فجاءنا كلٌّ مَنْ يرى رأي عثمان، فاجتمع إلينا رؤوس أهلها، فحمد الله ابنُ الحضرمي وأثنى عليه، ثم قال:

أما بعد، أيها الناس، فإن إمامكم إمام الهدى عثمان بن عفان، قتله عليّ بن أبي طالب ظُلماً، فطلبتم بدمه، وقاتلتم مَنْ قَتَله، فجزاكم الله مِنْ أهل مصر خيراً، وقد أصيبَ منكم الملاء الأخيار، وقد جاءكم الله بإخوان لكم، لهم بأسٌ يُتَّقَى، وعدد لا يُحصى، فَلَقُوا عدوكم الذين قتلوكم، فبلغوا الغاية التي أرادوا صابرين، ورجعوا وقد نالوا ما طلبوا، فمالثوهم وساعدوهم، وتذكروا ثأركم لتشفوا صدوركم من عدوكم.

فقام إليه الضحّاك بن عبد الله الهلالي، فقال: قَبِّحَ الله ما جئتنا به، وما دعوتنا إليه! جئتنا والله بمثل ما جاء به صاحبك طلحة والزبير، أتينا وقد بايعنا علياً، واجتمعنا له، فكلمتنا واحدة ونحن على سبيل مستقيم، فدعوانا إلى الفرقة، وقاما فينا بزُخرف القول، حتى ضربنا بعضنا بعض عُدواناً وظُلماً، فاقتلنا على ذلك، وإيم الله، ما سلّمنا من عظيم وبال ذلك، ونحن الآن مجمعون على بَيْعة هذا العبد الصالح الذي أقال العشرة، وعفا عن المسيء وأخذ بيعة غائبنا وشاهدنا. أفأمرنا الآن أن نختلج أسياقتنا من أعمادها، ثم يضرب بعضنا بعضاً، ليكون معاوية أميراً، وتكون له وزيراً، ونعدي بهذا الأمر عن عليّ! والله ليومٌ من أيام عليّ مع رسول الله ﷺ خيرٌ من بلاء معاوية وآل معاوية لو بقوا في الدنيا، ما الدنيا باقية.

فقام عبد الله بن خازم السلمي، فقال للضحاك: اسكت، فلست بأهل أن تتكلم في أمر العامة. ثم أقبل على ابن الحضرمي، فقال: نحن يدك وأنصارك، والقول ما قلت: وقد فهمنا عنك، فدعنا أنى شئت! فقال الضحاك لابن خازم: يا بن السوداء: والله لا يعز من نصرت، ولا يذل بخذلانك من خذلت، فتشاتما.

قال صاحب كتاب الغارات: والضحاك هذا هو الذي يقول:

يا أبهذا السائلي عن نسبي بين ثقيف وهلال منصبي
أمي أسماء وضحاك أبي

قال: وهو القائل في بني العباس:

ما ولدت من ناقة لفحل في جبل نعلمه وسهل
كسنة من بطن أم الفضل أكرم بها من كهلة وكهل
عم النبي المصطفى ذي الفضل وخاتم الأنبياء بعد الرسل

قال: فقام عبد الرحمن بن عمير بن عثمان القرشي ثم التيمي، فقال: عباد الله، إنا لم ندعوكم إلى الاختلاف والفرقة، ولا نريد أن تقتلوا ولا تتنازروا، ولكننا إنما ندعوكم إلى أن تجمعوا كلمتكم، وتوازروا إخوانكم الذين هم على رأيكم، وأن تلتزموا شعبتكم وتصلحوا ذات بينكم، فمهلاً مهلاً! رحمكم الله! استمعوا لهذا الكتاب، وأطيعوا الذي يقرأ عليكم.

ففضوا كتاب معاوية وإذا فيه: من عبد الله معاوية أمير المؤمنين، إلى من قرىء كتاب هذا عليه من المؤمنين والمسلمين من أهل البصرة:

سلام عليكم. أما بعد، فإن سفك الدماء بغير حلها، وقتل النفوس التي حرم الله قتلها هلاك موبق، وخسران مبین، لا يقبل الله ممن سفكها صرفاً ولا عدلاً، وقد رأيتم رحمكم الله آثار ابن عفان وسيرته، وحبه للعافية، ومعدته، وسده للشغور، وإعطاءه في الحقوق، وإنصافه للمظلوم، وحبه للضعيف، حتى توثب عليه المتوثبون، وتظاهر عليه الظالمون، فقتلوه مسلماً محرماً، ظمآن صائماً، لم يسفك فيهم دماً، ولم يقتل منهم أحداً ولا يطلبونه بضربة سيف ولا سوط، وإنما ندعوكم أيها المسلمون إلى الطلب بدمه، وإلى قتال من قتله، فإننا وإياكم على أمر هدى واضح، وسبيل مستقيم. إنكم إن جامعتونا طفت النائرة^(١)، واجتمعت الكلمة، واستقام أمر هذه الأمة، وأقر الظالمون المتوثبون الذين قتلوا إمامهم بغير حق، فأخذوا بجرائرهم وما قدمت

(١) النائرة: نارت النائرة: أي هاجمت الحصانجة، اللسان، مادة (نار).

أيديهم . إنَّ لكم أنْ أعملَ فيكم بالكتاب ، وأنْ أعطيكم في السَّنة عطاءً ، ولا أحتملَ فضلاً من فينكم عنكم أبداً . فسارعوا إلى ما تُدعون إليه رحمكم الله ! وقد بعثتُ إليكم رجلاً من الصالحين ، كان من أمتاء خليفتم المظلوم ابن عفان وعماله وأعوانه على الهدى والحق ، جعلنا الله وإياكم ممَّن يجيب إلى الحق ويعرفه ، ويُنكر الباطل ويَجْجِده ، والسلام عليكم ورحمة الله .

قال : فلما قُرِئ عليهم الكتاب ، قال معظمهم : سمعنا وأطعنا .

قال : وروى محمد بن عبد الله بن عثمان ، عن عليّ ، عن أبي زهير ، عن أبي منقر الشيباني ، قال : قال الأحنف لما قرئ عليهم كتاب معاوية : أمّا أنا فلا ناقةَ لي في هذا ولا جمل . واعتزل أمرهم ذلك .

وقال عمرو بن مرجوم ، من عبد القيس : أيها الناس ، الزموا طاعتكم ، ولا تنكّلوا بيعتكم ، فتقع بكم واقعة وتصيبكم قارعة ، ولا يكن بعدها لكم بقية ، ألا إني قد نصحتُ لكم ، ولكن لا تحبون الناصحين .

قال إبراهيم بن هلال : وروى محمد بن عبد الله عن ابن أبي سيف ، عن الأسود بن قيس ، عن ثعلبة بن عباد ، أن الذي كان سَدَّدَ لمعاوية رأيه في تسريح ابن الحضرمي كتاب كتبه إليه عباس بن ضحّاك العبديّ ، وهو ممن كان يرى رأي عثمان ، ويخالف قومه في حبهم عليّاً ﷺ ونصرتهم إياه ، وكان الكتاب :

أما بعد ، فقد بلغنا وقعتك بأهل مصر ، الذين بَغَوْا على إمامهم ، وقتلوا خليفتهم طمَعاً وبَغْياً ، فقرّت بذلك العيون ، وشُغيت بذلك النفوس ، وبردت أفئدة أقوام كانوا لقتل عثمان كارهين ، ولعدوّه مفارقين ، ولكن موالين ، وبك راضين ، فإن رأيت أن تبعث إلينا أميراً طيباً ذكياً ذا عفاف ودين ، إلى الطلب بدم عثمان فَعَلْتُ ، فإني لا أخال الناس إلا مجتمعين عليك ، وإن ابن عباس غائب عن مصر . والسلام .

قال : فلما قرأ معاوية كتابه قال : لا عزمُ رأياً سوى ما كتب به إليّ هذا ، وكتب إليه جوابه :

أما بعد ، فقد قرأت كتابك ، فعرفت نصيحتك ، وقبِلت مشورتك ، رحمك الله وسددك ، أثبت هداك الله على رأيك الرشيد ، فكأنك بالرجل الذي سألت قد أتاك ، وكأنك بالجيش قد أطلّ عليك فسررت وحييت ، والسلام .

قال إبراهيم: وحدثنا محمد بن عبد الله، قال: حدثني علي بن أبي سيف عن أبي زهير قال: لما نزل ابن الحضرمي في بني تميم أرسل إلى الرؤوس فاتوه، فقال لهم: أجيبيوني إلى الحق، وانصروني على هذا الأمر.

قال: وإن الأمير بالبصرة يومئذ زياد بن عبيد قد استخلفه عبد الله بن عباس، وقدم على علي عليه السلام إلى الكوفة يعزيه عن محمد بن أبي بكر، قال: فقام إليه ابن ضحّاك، فقال: إي والذي له أسعى، وإياه أخشى، لتصرتك بأسياقنا وأيدينا.

وقام المثنى بن مخزومة العبدي فقال: لا والذي لا إله إلا هو، لئن لم ترجع إلى مكانك الذي أقبلت منه لنجاهدتك بأسياقنا وأيدينا، ونبالنا وأسنّة رماحنا. نحن ندع ابن عم رسول الله ﷺ، وسيد المسلمين، وندخل في طاعة حزب من الأحزاب طاغ! والله لا يكون ذلك أبداً حتى نسير كتيبة، ونفلق السيوف بالهام.

فأقبل ابن الحضرمي على صبرة بن شيمان الأزدي فقال: يا صبرة، أنت رأس قومك، وعظيم من عظماء العرب، وأحد القلبة بدم عثمان، رأينا رأيك، ورأيك رأينا، وبلاء القوم عندك في نفسك وعشيرتك ما قد ذقت ورأيت، فانصرتني وكُن من دوني. فقال له: إن أنت أتيتني فتزلت في داري نصرتك ومنعتك. فقال: إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن أنزل في قومه من مضر، فقال: اتبع ما أمرك به.

وانصرف من عنده، وأقبل الناس إلى ابن الحضرمي، وكثر تبعه، ففرع لذلك زياد وهالة وهو في دار الإمارة، فبعث إلى الحضّيين بن المنذر ومالك بن مسمع، فدعاهما، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد فإنكم أنصار أمير المؤمنين وشيعته وثقته، وقد جاءكم هذا الرجل بما قد بلغكم، فأجيروني حتى يأتيني أمر أمير المؤمنين ورأيه.

فأما مالك بن مسمع، فقال: هذا أمر فيه نظر، أرجع إلى من ورائي، وانظر واستشير في ذلك.

وأما الحضّيين بن المنذر فقال، نعم، نحن فاعلون، ولن نخذلك ولن نسلمك.

فلم ير زياد من القوم ما يطمئن إليه، فبعث إلى صبرة بن شيمان الأزدي، فقال: يا بن شيمان، أنت سيد قومك، وأحد عظماء هذا المضر، فإن يكن فيه أحد هو أعظم أهله فأنت ذاك، أفلا تجبرني وتمنعني، وتمنع بيت مال المسلمين! فإنما أنا أمين عليه. فقال: بلى، إن تحملت حتى تنزل في داري منعك، فقال: إني فاعل.

فارتحل ليلاً حتى نزل دار صبرة بن شيمان، وكتب إلى عبد الله بن عباس - ولم يكن معاوية ادعى زياداً بعد، لأنه إنما ادّعاء بعد وفاة علي عليه السلام:

للامير عبد الله بن عباس من زياد بن عبيد.

سلام عليك، أما بعدُ فإنَّ عبد الله بن عامر بن الحضرمي أقبل من قِبَل معاوية حتى نزل في بني تميم، ونعى ابن عَفَّان، ودعا إلى حرب، فبايعه جُلُّ أهل البصرة، فلما رأيت ذلك استجرتُ بالأزد، بصَبْرَةَ بن شَيْمان وقومه لنفسِي ولبيت مال المسلمين، ورحلتُ من قصر الإمارة فنزلت فيهم، وإنَّ الأزد معي، وشيعة أمير المؤمنين من قُرسان القبائل تختلف إليّ وشيعة عثمان تختلف إليّ ابن الحضرمي، والقصر خالٍ منّا ومنهم، فارفع ذلك إلى أمير المؤمنين، ليَرى فيه رأيه، وأعجل إليّ بالذي ترى أن يكون منه فيه. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

قال: فرفع ذلك ابنُ عباس إلى عليّ عليه السلام، وشاع في الناس بالكوفة ما كان من ذلك، وكانتُ بنو تميم وقيس، ومن يرى رأي عثمان قد أمرُوا ابن الحضرمي أن يسير إلى قصر الإمارة حين خَلَّاه زياد، فلما تهيأ لذلك ودعا أصحابه، ركبَت الأزد، وبعثت إليه وإليهم: إنا والله لا نَدْعُكم تاتونَ القصر فتُزَلون فيه مَنْ لا تُرَضَى، ومن نحن له كارهون، حتى يأتيَ رجل لنا ولكم رضا، فأبى أصحابُ ابن الحضرمي إلا أن يسيروا إلى القصر، وأبت الأزد إلا أن يمنعوهم. فركب الأحنف، فقال لأصحاب ابن الحضرمي: إنكم والله ما أنتم أحقَّ بقصر الإمارة من القوم، وما لكم أن تؤمروا عليهم مَنْ يكرهونه، فانصرفوا عنهم: ففعلوا، ثم جاء إلى الأزد، فقال: إنه لم يكن ما تكرهون، ولا يُؤْتَى إلا ما تُحبُّون، فانصرفوا رحمكم الله ففعلوا.

قال إبراهيم، وحدثنا محمد بن عبد الله بن أبي سيف، عن الكلبي، أن ابن الحضرمي لما أتى البصرة، ودخلها نزل في بني تميم في دار سبيل، ودعا بني تميم وأخلاقاً مُضَرَّ، فقال زياد لأبي الأسود الدؤلي: أما ترى ما صَفَى أهلُ البصرة إلى معاوية، وما في الأزد لي مطمع، فقال: إن كنتَ تركتهم لم ينصروك، وإن أصبحت فيهم منعوك.

فخرج زيادُ من ليلته، فأتى صَبْرَةَ بن شَيْمان الحُدَاني الأزدِي، فأجاره، وقال له حين أصبح: يا زياد، إنه ليس حسناً بنا أن تقيم فينا مختفياً أكثر من يومك هذا، فأعد له منبراً وسريراً في مسجد الحُدَّان، وجعل له شُرْطاً، وصلى بهم الجمعة في مسجد الحُدَّان.

وغلب ابنُ الحضرمي على ما يليه من البصرة وجباها، وأجمعت الأزد على زياد، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

يا معشر الأزد، إنكم كنتم أعدائي فأصبحتم أوليائي، وأولى الناس بي. وإنني لو كنت في بني تميم وابنُ الحضرمي فيكم لم أطمع فيه أبداً وأنتم دوني، فلا يطمع ابنُ الحضرمي فيّ وأنتم دوني، وليس ابنُ أكلة الأكباد في بقية الأحزاب وأولياء الشيطان بأذنِي إلى الغلبة من أمير

المؤمنين في المهاجرين والأنصار، وقد أصبحت فيكم مضموناً، وأمانة مؤداة، وقد رأينا وثقتكم يوم الجمل، فاصبروا مع الحق صبركم مع الباطل، فإنكم لا تُحمدون إلا على النجدة، ولا تُعذرون على العجب.

فقام شيمان أبو صبرة - ولم يكن شهد يوم الجمل، وكان غائباً - فقال: يا معشر الأزد، ما أبقت عواقب الجمل عليكم إلا سوء الذكر، وقد كنتم أمس على عليّ عليه السلام، فكونوا اليوم له، واعلموا أن إسلامكم له ذل، وخذلانكم إياه عار، وأنتم حيّ مضمركم الصبر وعاقبتكم الوفاء، فإن سار القوم بصاحبهم فسيروا بصاحبكم، وإن استمدوا معاوية، فاستمدوا علياً عليه السلام، وإن وادعوكم فوادعوه.

ثم قام صبرة ابنه، فقال: يا معشر الأزد، إنا قلنا يوم الجمل: نمنع مضرنا، ونطيع أمنا نطلب دم خليفتنا المظلوم، فجددنا في القتال، وأقمنا بعد انهزام الناس، حتى قُتل منا من لا خير فينا بعده، وهذا زياد جاركم اليوم، والجار مضمون، ولسنا نخاف من عليّ ما نخاف من معاوية، فهبوا لنا أنفسكم، وامنعوا جاركم أو فأبلغوه مأمته.

ف قالت الأزد: إنما نحن لكم تبع فأجيروه. فضحك زياد، وقال: يا صبرة، اتخشون ألا تقوموا لبني تميم! فقال صبرة: إن جاؤونا بالأحنف جتناهم بأبي صبرة، وإن جاؤونا بالحباب جنت أنا، وإن كان فيهم شباب كثير. فقال زياد: إنما كنت مازحاً.

فلما رأت بنو تميم أن الأزد قد قامت دون زياد بعثت إليهم: أخرجوا صاحبكم ونحن نخرج صاحبنا، فأبى الأميرين غلب - عليّ أو معاوية - دخلنا في طاعته، ولا نهلك عامتنا.

فبعث إليهم أبو صبرة: إنما كان هذا يُرجى عندنا قبل أن نجيره، ولعمري ما قُتل زياد وإخراجه إلا سواء، وإنكم لتعلمون أنا لم نُجره إلا كرمًا، فآلهوا عن هذا.

قال: وروى أبو الكنود أن شُبث بن ربعي قال لعليّ عليه السلام: يا أمير المؤمنين، ابعث إلى هذا الحي من تميم، فاذعهم إلى طاعتك، ولزوم بيعتك، ولا تسلط عليهم أزد عُمان البُعداء البغضاء، فإن واحداً من قومك خير لك من عشرة من غيرهم.

فقال له مُخَنَف بن سليم الأزدي: إن البعيد البغيض، من عصي الله وخالف أمير المؤمنين، وهم قومك، وإن الحبيب القريب من أطاع الله ونصر أمير المؤمنين وهم قومي، واحدهم خير لأمير المؤمنين من عشرة من قومك.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: مه! تناهوا أيها الناس، وليردعكم الإسلام ووقاره عن التباغي والتهاذي، ولتجتمع كلمتكم، ولتؤموا دين الله الذي لا يقبل من أحد غيره، وكلمة الإخلاص التي هي قوام الدين، وحجة الله على الكافرين، واذكروا إذ كنتم قليلاً من مشركين متباغضين

متفرقين. فألف بينكم بالإسلام فكثرت، واجتمعتم وتحاببتم. فلا تفرقوا بعد إذ اجتمعتم، ولا تتباغضوا بعد إذ تحاببتم، وإذا رأيتم الناس بينهم النائرة وقد تداعوا إلى العشائر والقبائل، فاقصدوا لهمهم ووجوههم بالسيف حتى يفرعوا إلى الله، وإلى كتابه وسنة نبيه، فأما تلك الحمية من خطرات الشياطين فانتهاها عنها، لا أبا لكم تفلحوا وتتجحوا!!

ثم إنه عليه السلام دعا أعيان بن ضبيعة المجاشعي، وقال: يا أعيان، ألم يبلغك أن قومك وثبوا على عاملي مع ابن الحضرمي بالبصرة، يذعون إلى فراقني وشقاقي ويساعدون الضلال القاسطين علي! قال: لا تُسأ يا أمير المؤمنين، ولا يكن ما تكره. ابعثن إليهم، فانا لك زعيم بطاعتهم وتفريق جماعتهم، ونقي ابن الحضرمي من البصرة أو قتله.

قال: فاخرج الساعة.

فخرج من عنده ومضى حتى قدم البصرة.

هذه رواية ابن هلال صاحب كتاب الغارات.

وروى الواقدي أن علياً عليه السلام استفر بن تميم أياماً لينهض منهم إلى البصرة من يكفيه أمر ابن الحضرمي، ويرد عادية بني تميم الذين أجاروه بها، فلم يجبه أحد، فخطبهم، وقال: أليس من العجب أن ينصرني الأزدي، وتخذلني مضرا وأعجب من ذلك تقاعد تميم الكوفة بي، وخلاف تميم البصرة علي، وأن استنجد بطائفة منها، تشخص إلى إخوانها فتدعوهم إلى الرشاد، فإن أجابت وإلا فالمنازمة والحرب. فكأنني أخاطب صماً بكماً لا يفقهون حواراً، ولا يجيبون نداء، كل هذا جنباً عن البأس، وحُباً للحياة، لقد كنا مع رسول الله ﷺ نقتل آباءنا وأبناءنا... الفصل إلى آخره.

قال: فقام إليه أعيان بن ضبيعة المجاشعي، فقال: أنا - إن شاء الله - أكفيك يا أمير المؤمنين هذا الخطب، وأتكفل لك بقتل ابن الحضرمي، أو إخراجه عن البصرة، فأمره بالتهيؤ للشخص، فشخص حتى قدم البصرة^(١).

قال إبراهيم بن هلال: فلما قدمها دخل على زياد وهو بالأزد مقيم، فرحب به وأجلسه إلى

جانبه، فأخبره بما قال له علي عليه السلام، وما ردّ عليه، وما الذي عليه رأيه، فإنه إذ يكلمه جاءه كتاب من علي عليه السلام فيه:

من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى زياد بن عبيد:

سلام عليك، أما بعد، فإنني قد بعثت أعين بن ضبيعة، ليفرق قومه عن ابن الحضرمي، فأرقت ما يكون منه، فإن فعل وبلغ من ذلك ما يظن به، وكان في ذلك تفريق تلك الأوياش^(١) فهو ما نحب، وإن ترامت الأمور بالقوم إلى الشقاق والعصيان، فانبذ بمن أطاعك إلى من عصاك، فجاهدهم، فإن ظهرت فهو ما ظننت، وإلا فطاولهم وما طلهم، فكان كتاب المسلمين قد أطلت عليك، فقتل الله المفسدين الظالمين، ونصر المؤمنين المحققين، والسلام.

فلما قرأه زياد أقرأه أعين بن ضبيعة، فقال له: إني لأرجو أن يكفى هذا الأمر إن شاء الله. ثم خرج من عنده، فأتى رَحْله، فجمع إليه رجالاً من قومه، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا قوم، على ماذا تقتلون أنفسكم، وتُهريقون دماءكم على الباطل مع السفهاء الأشرار وإني والله ما جئتكم حتى عيّيت إليكم الجنود، فإن تنيبوا إلى الحق يقبل منكم، ويكف عنك وإن أبيتم فهو والله استئصالكم وبواركم.

فقالوا: بل نسمع ونطيع. فقال: انهضوا الآن على بركة الله عز وجل فنهض بهم إلى جماعة ابن الحضرمي، فخرجوا إليه مع ابن الحضرمي فصاقوه وواقفهم عامة يومه يُناشدتهم الله، ويقول: يا قوم لا تنكثوا بيعتكم، ولا تخالفوا إمامكم، ولا تجعلوا على أنفسكم سيلاً، فقد رأيتم وجربتم كيف صنع الله بكم عند نكثكم بيعتكم وخلافكم. فكفوا عنه، ولم يكن بينه وبينهم قتال، وهم في ذلك يشتمونه وينالون منه، فانصرف عنهم وهو منهم منتصف. فلما أوى إلى رحله تبعه عشرة نفر يظن الناس أنهم خوارج، فضربوه بأسيا فهم وهو على فراشه، ولا يظن أن الذي كان يكون، فخرج يشتد غريباناً، فلحقوه في الطريق فقتلوه، فأراد زياد أن يناهض ابن الحضرمي حين قتل أعين بجماعة من معه من الأزد وغيرهم من شيعة علي عليه السلام، فأرسل بنو تميم إلى الأزد، والله ما عرضنا لجاركم إذ أجرتموه، ولا لِمَالٍ هُوَ لَهُ، ولا لأحد ليس على رأينا، فما تريدون إلى حُرْبنا وإلى جارنا! فكان الأزد عند ذلك كرهت قتالهم.

فكتب زياد إلى علي عليه السلام: أما بعد يا أمير المؤمنين، فإن أعين بن ضبيعة قدِم علينا من قبلك بجد ومناصحة وصدق ويقين، فجمع إليه من أطاعه من عشيرته، فحثهم على الطاعة والجماعة، وحذرهم الخلاف والفرقة، ثم نهض بمن أقبل معه إلى من أدبر عنه، فواقفهم عامة النهار، فهال أهل الخلاف تقدّمه، وتصدّع عن ابن الحضرمي كثير ممن كان يريد نصرتَه، فكان

(١) الأوياش من الناس الأخلاط، والضروب المتفرقون. اللسان، مادة (ويش).

كذلك حتى أمسى، فأتى في رَحْله فيئته نفر من هذه الخارجة المارقة، فأصيب رحمه الله تعالى، فأردت أن أناهض ابن الحضرمي عند ذلك، فحدث أمر، قد أمرت صاحب كتابي هذا أن يذكره لأمير المؤمنين، وقد رأيت إن رأى أمير المؤمنين ما رأيت، أن يبعث إليهم جارية بن قدامة، فإنه نافذ البصيرة، ومطاع في العشيرة، شديد على عدو أمير المؤمنين، فإن يقدم يفرق بينهم بإذن الله. والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

فلما جاء الكتاب، دعا جارية بن قدامة، فقال له: يا بن قدامة، تمنع الأزد عاملي وبيت مالي، وتشاقتني مضر وتنابدني! وبنا ابتدأها الله تعالى بالكرامة، وعرفها الهدى، وتداغوا إلى المعشر الذين حادوا الله ورسوله، وأرادوا إطفاء نور الله سبحانه، حتى علث كلمة الله، وهلك الكافرون.

فقال: يا أمير المؤمنين، ابعثني إليهم، واستعن بالله عليهم. قال: قد بعثتك إليهم، واستعنت بالله عليهم.

قال إبراهيم: فحدثنا محمد بن عبد الله، قال: حدثني ابن أبي السيف، عن سليمان بن أبي راشد، عن كعب بن قعين، قال خرجت مع جارية من الكوفة إلى البصرة في خمسين رجلاً من بني تميم، ما كان فيهم يمانئ غيري، وكنت شديد التشيع، فقلت لجارية: إن شئت كنت معك، وإن شئت ملئت إلى قومي! فقال: بل معي، فوالله لو دذت أن الطير والبهاائم تنصرني عليهم، فضلاً عن الإنس.

قال: وروى كعب بن قعين أن علياً عليه السلام كتب مع جارية كتاباً، وقال: اقرأه على أصحابك، قال: فمضينا معه، فلما دخلنا البصرة، بدأ بزياد، فرحب به وأجلسه إلى جانبه، وناجاه ساعة وساءله، ثم خرج فكان أفضل ما أوصاه به أن قال: احذر على نفسك، واتق أن تلقى ما لقي صاحبك القادم قبلك.

وخرج جارية من عنده، فقام في الأزد، فقال: جزاكم الله من حيي خيراً! ما أعظم غناءكم، وأحسن بلاءكم، وأطوعكم لأميركم! لقد عرفتم الحق إذ ضيعة من أنكره، ودعوتكم إلى الهدى إذ تركه من لم يعرفه. ثم قرأ عليهم وعلى من كان معه من شيعة علي عليه السلام وغيرهم - كتاب علي عليه السلام، فإذا فيه:

من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى من قرأ عليه كتابي هذا من ساكني البصرة من المؤمنين والمسلمين:

سلام عليكم، أما بعد فإن الله حليم ذو أناة، لا يَعْجَلُ بالعقوبة قبل البينة، ولا يؤخذ المذنب عند أول وهلة، ولكنه يقبل التوبة، ويستديم الأناة، ويرضى بالإنابة، ليكون أعظم للحنة، وأبلغ في المعذرة، وقد كان من شقاق جُلُكُم أيها الناس ما استحققتُم أن تعاقبوا عليه، فغفوت عن مجرمكم، ورفعت السيف عن مُذبركم، وقبلت من مُقبلكم، وأخذت ببعثكم، فإن تَفُوا ببيعتي، وتقبلوا نصيحتي، وتستقيموا على طاعتي، أعمل فيكم بالكتاب والسنة وقصد الحق، وأقيم فيكم سبيل الهدى، فوالله ما أعلم أن والياً بعد محمد ﷺ أعلم بذلك مني، ولا أعمل بقولي. أقول قولي هذا صادقاً، غير ذام لمن مضى، ولا منقصاً لأعمالهم، وإن خبطت بكم الأهواء المُردية، وسَفَه الرأي الجائر إلى منابذتي، تريدون خلافي! فهذا أنا ذا قرئت جيادي، ورَحَلت ركابي، وإيم الله لنن أَلْجَأْتموني إلى المسير إليكم لأوقعن بكم وقعة، لا يكون يوم الجمل عندها إلا كلغة لاقق، وإني لظان ألا تجعلوا - إن شاء الله - على أنفسكم سيلاً. وقد قدمت هذا الكتاب إليكم حجة عليكم ولن أكتب إليكم من بعده كتاباً، إن أنتم استفتشتُم نصيحتي، ونابذتُم رسولي، حتى أكون أنا الشاخص نحوكم، إن شاء الله تعالى. والسلام.

قال: فلما قرىء الكتاب على الناس قام صبرة بن شيمان، فقال: سمعنا وأطعنا، ونحن لمن حارب أمير المؤمنين حرب، ولمن سالم سلم، إن كَفَيْتَ يا جارية قومك بقومك فذاك وإن أحييت أن تنصرك نصرناك.

وقام وجوه الناس فتكلموا بمثل ذلك ونحوه، فلم يأذن لأحد منهم أن يسير معه، ومضى نحو بني تميم.

فقام زياد في الأزد، فقال:

يا معشر الأزد، إن هؤلاء كانوا أمس سلماً، فأصبحوا اليوم حرباً، وإنكم كنتم حرباً فأصبحتم سلماً، وإني والله ما اخترتكم إلا على التجربة، ولا أقمت فيكم إلا على الأمل، فما رضيتم أن أجزتموني، حتى نصبتُم لي منبراً وسريراً، وجعلتُم لي شرطاً وأهواناً، ومنادياً وجمعة، فما فقدت بحضرتكم شيئاً إلا هذا الدرهم، لا أجبيه اليوم، فإن لم أجبه اليوم أجبه غداً إن شاء الله. واعلموا أن حربكم اليوم معاوية أيسر عليكم في الدنيا والدين من حربكم أمس علياً، وقد قدم عليكم جارية بن قدامة، وإنما أرسله علي ليصدع أمر قومه، والله ما هو بالأمير المطاع، ولو أدرك أمله في قومه لرجع إلى أمير المؤمنين أو لكان لي تبعاً، وأنتم الهامة العظمى، والجُمرة الحامية، فقدّموه إلى قومه، فإن اضطر إلى نصركم فسيروا إليه، إن رأيتم ذلك.

فقام أبو صبرة شيمان فقال: يا زياد، إني والله لو شهدت قومي يوم الجمل، رجوت ألا يقاتلوا علياً، وقد مضى الأمر بما فيه. وهو يوم بيوم، وأمر بأمر، والله إلى الجزاء بالإحسان

أسرع منه إلى الجزاء بالسيء، والتوبة مع الحق، والعفو مع الندم، ولو كانت هذه فتنة لدعونا القوم إلى إبطال الدماء، واستئناف الأمور، ولكنها جماعة دماؤها حرام، وجروحها قصاص، ونحن معك نحب ما أحبت.

فعجب زياد من كلامه، وقال: ما أظن في الناس مثل هذا.

ثم قام صبرة ابنه، فقال: إنا والله ما أصبنا بمصيبة في دين ولا دنيا كما أصبنا أمس يوم الجمل، وإنا لنترجو اليوم أن نُمَحَّص ذلك بطاعة الله وطاعة أمير المؤمنين، وأما أنت يا زياد، فوالله ما أدركت أملك فينا، ولا أدركنا أملنا فيك دون ردك إلى دارك، ونحن رادوك إليها غداً إن شاء الله تعالى، فإذا فعلنا فلا يكن أحد أولى بك مِنّا، فإنك إلا تفعل لم تأت ما يشبهك، وإنا والله نخاف من حرب علي في الآخرة، ما لا نخاف من حرب معاوية في الدنيا، فقدم هواك وآخر هوانا، فنحن معك وطوعك.

ثم قام خنقر الحماني، فقال: أيها الأمير، إنك لو رضيت مِنّا بما ترضى به من غيرنا، لم نرض ذلك لأنفسنا، سِرُّنا إلى القوم إن شئت، وإيّم الله ما لقينا قوماً قط إلا اكتفينا بعفونا دون جهدنا، إلا ما كان أمس.

قال إبراهيم: فأما جارية، فإنه كلم قومه فلم يجيبوه، وخرج إليه منهم أوياش فناوشوه بعد أن شتموه وأسمعوه، فأرسل إلى زياد والأزد، يستصرخهم، ويأمرهم أن يسيروا إليه، فسارت الأزد بزياد، وخرج إليهم ابن الحضرمي، وعلى خيله عبد الله بن خازم السلمي، فاقتلوا ساعة، وأقبل شريك بن الأعور الحارثي - وكان من شيعة علي عليه السلام - وصديقاً لجارية بن قدامة - فقال: ألا أقاتل معك عدوك؟ فقال: بلى، فما لبث بنو تميم أن هزموهم واضطروهم إلى دار سنبل السعدي، فحصرُوا ابن الحضرمي وحدثوه، فأتى رجل من بني تميم، ومعه عبد الله بن خازم السلمي، فجاءت أمه وهي سوداء حبشية اسمها عجلي، فنادته، فأشرف عليها، فقالت: يا بُني، انزل إلي، فأبى فكشفت رأسها وأبدت قناعها، وسأله النزول فأبى، فقالت: والله لتنزلن أو لاتعرين، وأهوت بيدها إلى ثيابها، فلما رأى ذلك نزل، فذهبت به، وأحاط جارية وزياذ بالدار، وقال جارية: علي بالنار، فقالت الأزد: لسنّا من الحريق بالنار في شيء، وهم قومك وأنت أعلم، فحرّق جارية الدار عليهم، فهلك ابن الحضرمي في سبعين رجلاً، أحدهم عبد الرحمن بن عمير بن عثمان القرشي التيمي، وسُمّي جارية منذ ذلك اليوم محرّقا، وسارت الأزد بزياد حتى أوطنوه قصر الإمارة، ومعه بيت المال، وقالت له: هل بقي علينا من جوارك شيء؟ قال: لا، قالوا: فبرئنا منه؟ فقال: نعم، فانصرفوا عنه، وكتب زياد إلى أمير المؤمنين عليه السلام:

أما بعد، فإن جارية بن قدامة العبد الصالح قديم من عندك، فناهض جَمْع ابن الحضرمي بمن

نصره وأعانه من الأزدي، ففضّه واضطره إلى دارٍ من دور البصرة في عدد كثير من أصحابه، فلم يخرج حتى حكم الله تعالى بينهما، فقتل ابن الحضرمي وأصحابه، منهم من أحرق بالنار، ومنهم من ألقى عليه جدار، ومنهم من هُدم عليه البيت من أعلاه، ومنهم من قُتل بالسيف، وسلم منهم نفر أنابوا وتابوا، فصَفَح عنهم، وبعداً لمن عصى وغوى! والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

فلما وصل كتاب زياد قرأه عليّ عليه السلام على الناس، وكان زيد قد أنقذه مع ظئيان بن عُمارة، فسرّ عليّ عليه السلام بذلك وسرّ أصحابه، وأثنى على جارية وعلى الأزدي، وذمّ البصرة فقال: إنها أول القرى خراباً، إما غرقاً وإما حرقاً، حتى يبقى مسجدها كجَوْجُزٍ سفينة. ثم قال لظئيان: أين منزلك منها؟ فقال: مكان كذا، فقال: عليك بضواحيها.

وقال ابن العرندس الأزدي يذكر تحريق ابن الحضرمي، ويعير تميمًا بذلك:

رَدَدْنَا زِيَادًا إِلَى دَارِهِ وَجَارُ تَمِيمٍ يَنَادِي الشُّجْبَ
لِحَا اللَّهِ قَوْمًا شَرُّوا جَارَهُمْ لَعَمْرِي لَبِئْسَ الشَّوَاءُ الشُّصْبُ
يَنَادِي الْخَنَاقَ وَأَبْنَاءَهَا وَقَدْ شَيَّطُوا رَأْسَهَا بِاللَّهَبِ
وَالْخَنَاقَ لِقَبِ قَوْمِ بَنِي تَمِيمٍ.

٥٦ - ومن كلام له عليه السلام لأصحابه يخبر عن رجل يامر بسبه

الأصل: أما إنه سيظهر عليكم بعدي رجلٌ رُحِبَ البُلْعُومُ، مُنْدَحِقُ البَطْنِ، يَأْكُلُ مَا يَجِدُ، وَيَطْلُبُ مَا لَا يَجِدُ، فَاثْلُوه - وَلَنْ تَقْتُلُوهُ. أَلَا وَإِنَّهُ سَيَأْمُرُكُمْ بِسَبِيّ الْبَرَاءَةِ مِنِّي، فَأَمَّا السَّبُّ فُسْبُونِي. فَإِنَّهُ لِي زَكَاةٌ وَلَكُمْ نَجَاةٌ، وَأَمَّا الْبَرَاءَةُ فَلَا تَتَّبِعُوا مِنِّي، فَإِنِّي وَلِذَلِكَ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَسَبَقْتُ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْهَجْرَةِ.

الشرح: مُنْدَحِقُ البطن: بارزها، والدُّحُوقُ من النوق: التي يخرج رَجْمُهَا عند الولادة. وسيظهر: سيغلب. ورُحِبَ البُلْعُومُ: واسع.

وكثير من الناس يذهب إلى أنه عليه السلام عني زياداً، وكثير منهم يقول: إنه عني الحجاج. وقال قوم: إنه عني المغيرة بن شعبة، والأشبه عندي أنه عني معاوية، لأنه كان موصوفاً بالنهم وكثرة الأكل، وكان بطيناً، يقعد بطنه إذا جلس على فُحْذِيهِ، وكان معاوية جواداً بالمال والصلات،

وبخيلاً على الطعام، يقال: إنه مازح أعرابياً على طعامه، وقد قُدم بين يديه خروف، فأمعن الأعرابي في أكله، فقال له: ما ذنبه إليك، أنطحك أبوه؟ فقال الأعرابي: وما حنوك عليه؟ أَرْضَعْتَ أُمَّهُ!

وقال لأعرابي يأكل بين يديه، وقد استعظم أكله: ألا أبغيك سيكينا؟ فقال: كل امرئ سيكينه في رأسه، فقال: ما اسمك؟ قال: لقيم، قال: منها أتيت.

كان معاوية يأكل فيكثر، ثم يقول: ارفعوا، فوالله ما شبع ولكن ملئت وتعبت. تظاهرت الأخبار أن رسول الله ﷺ دَعَا عَلَى معاوية لَمَّا بَعَثَ إِلَيْهِ يَسْتَدْعِيهِ، فوجده يأكل، ثم بعث فوجده يأكل، فقال: «اللهم لا تُشَبِّعْ بَطْنَهُ»^(١)، قال الشاعر:

وَصَاحِبُ لِسِي بَطْنُهُ كَأَلْهَائِهِ كَأَنَّ فِيهِ أَخْشَاءَهُ مُعَاوِيَةَ

وفي هذا الفصل مسائل:

الأولى: في تفسير قوله عليه السلام: «فاقتلوا ولن تقتلوه» فنقول: إنه لا تنافي بين الأمر بالشيء والإخبار عن أنه لا يقع، كما أخبر الحكيم سبحانه عَنْ أَنَّ أَبَا لَهَبٍ لَا يُؤْمِنُ وَأَمْرُهُ بِالْإِيمَانِ، وكما قال تعالى: «فَتَسْمِنُوا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ مُصْدِقِينَ»^(٢)، ثم قال: «وَلَا يَسْتَوُونَ أَهْدَاءً»^(٣)، وأكثر التكليفات على هذا المنهاج.

أهل العدل والمجبرة وبعض المسائل الكلامية

واعلم أن أهل العدل والمجبرة لم يختلفوا في أنه تعالى قَدْ يَأْمُرُ بِمَا يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَقَعُ، أو يخبر عن أنه لا يقع، وإنما اختلفوا: هل يصح أن يريد ما يعلم أنه لا يقع، أو يخبر عنه أنه لا يقع؟ فقال أصحابنا: يصح ذلك، وقال المجبرة: لا يصح، لأنَّ إرادة ما يعلم المرید أَنَّهُ لَا يَقَعُ قضية متناقضة، لأن تحت قولنا: «أراد» مفهوم أن ذلك المراد مما يمكن حصوله، لأنَّ إرادة المحال مستنعة. وتحت قولنا: «إنه يعلم أنه لا يقع» مفهوم أن ذلك المراد مما لا يمكن حصوله، لأننا قد فرضنا أنه لا يقع وما لا يقع لا يمكن حصوله مع فرض كونه لا يقع، فقال لهم أصحابنا: هذا يلزمكم في الأمر، لأنكم قد أجزتم أن يأمر بما يعلم أنه لا يقع، فقالوا في الجواب: نحن عندنا أنه يأمر بما لا يريد، فإذا أمر بما يعلم أنه لا يقع، أو يخبر عن أنه لا

(١) أخرج نحوه مسلم في البر والصلة والآداب، باب: من لعنه النبي أو سبه أو دعا عليه وليس هو أهلاً لذلك (٢٦٠٤).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٩٤.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٩٥.

يقع، كان ذلك الأمر أمراً عارياً عن الإرادة، والمحال إنما نشأ من إرادة ما علم المرید أنه لا يقع، وما هنا لا إرادة.

فقیل لهم: هب أنکم ذهبتُم إلى أن الأمر قد یغری من الإرادة مع کونه أمراً، أستم تقولون: إن الأمر یدلّ علی الطلب، والطلب شیء آخر غیر الإرادة! وتقولون: إن ذلك الطلب قائم بذات الباری، فنحن نلزمکم فی الطالب القائم بذات الباری، الذي لا یجوز أن یغری الأمر منه ما ألزمتونا فی الإرادة.

ونقول لکم: کیف یجوز أن یطلب الطالب ما یعلم أنه لا یقع! ألیس تحت قولنا: طلب مفهوم، أن ذلك المطلوب مما یمکن وقوعه! فالحال فی الطلب کالحال فی الإرادة، خذو النعل بالنعل. ولنا فی هذا الموضع أبحاث دقیقة ذکرناها فی کتبنا الکلامیة.

معاویة یأمر بسب علی عليه السلام

المسألة الثانیة: فی قوله عليه السلام: «یأمرکم بسبی والبراءة منی»، فنقول: إن معاویة أمر الناس بالعراق والشام وغیرهما بسب علی عليه السلام والبراءة منه.

وخطب بذلك علی منابر الإسلام، وصار ذلك سنة فی أيام بنی أمیة إلى أن قام عمر بن عبد العزیز رضي الله تعالى عنه فأزاله. وذكر شیخنا أبو عثمان الجاحظ أن معاویة کان یقول فی آخر خطبة الجمعة: اللهم إنّ أبا تراب ألحد فی دینک، وصدّ عن سبیلک فآلعه لعناً وبیلاً، وعذبه عذاباً ألیماً. وكتب بذلك إلى الآفاق، فكانت هذه الکلمات یُشار بها علی المنابر، إلى خلافة عمر بن عبد العزیز.

وذكر أبو عثمان أيضاً أنّ هشام بن عبد الملك لما حجّ خطب بالموسم، فقام إليه إنسان، فقال: یا أمیر المؤمنین، إن هذا یومٌ كانت الخلفاء تستحبّ فیہ لعنّ أبي تراب، فقال: اكفف، فما لهذا جئنا.

وذكر المبرّد فی «الکامل»^(١) أن خالد بن عبد الله القسریّ لما کان أمیر العراق فی خلافة هشام، کان یلعن علیاً عليه السلام علی المنبر، فیقول: اللهمّ العن علی بن أبی طالب بن عبد المطلب بن هشام، صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم علی ابنته، وأبا الحسن والحسین! ثم یقبل علی الناس، فیقول هل کُنیت!.

وروی أبو عثمان أيضاً أنّ قوماً من بنی أمیة قالوا لمعاویة: یا أمیر المؤمنین، إنک قد بلغت

(١) «الکامل فی اللغة»: لأبی العباس محمد بن یزید المعروف بالمبرّد، المتوفی سنة (٢٨٥)، «كشف الظنون» (١/١٣٨٢).

ما أملت، لو كفت عن لعن هذا الرجل! فقال: لا والله حتى يربو عليه الصغير، ويهرم عليه الكبير، ولا يذكر له ذاكراً فضلاً!

وقال أبو عثمان أيضاً: وما كان عبد الملك - مع فضله وأناته وسداده ورُجحانه - ممن يخفى عليه فضل علي عليه السلام. وأن لعنه على رؤوس الأشهاد وفي أعطاف الخطب، وعلى صَهوات المنابر مما يعود عليه نقصه، ويرجع إليه وهنه، لأنهما جميعاً من بني عبد مناف، والأصل واحد، والجراثومة منبت لهما، وشرف علي عليه السلام وفضله عائد عليه، ومحسوب له، ولكنه أراد تشييد الملك وتأكيده ما فعله الأسلاف، وأن يقرّر في أنفس الناس أن بني هاشم لا حظ لهم في هذا الأمر، وأن سيدهم الذي به يصلون، ويفخروه يفخرون، هذا حاله وهذا مقداره، فيكون من يتيمي إليه ويذلي به عن الأمر أبعد، وعن الوصول إليه أشحط وأنزح.

وروى أهل السيرة أن الوليد بن عبد الملك في خلافته ذكر علياً عليه السلام، فقال: لعنه الله - بالجر - كان لص ابن لص.

فعجب الناس من لعنه فيما لا يلحن فيه أحد، ومن نسبته علياً عليه السلام إلى اللصوصية وقالوا: ما ندري أيهما أعجب! وكان الوليد لحناً.

وأمر المغيرة بن شعبة - وهو يومئذ أمير الكوفة من قبل معاوية - حُجّر بن عدي أن يقوم في الناس، فليعلن علياً عليه السلام، فأبى ذلك، فتوعده، فقام فقال: أيها الناس، إن أميركم أمرني أن ألعن علياً فآلعنوه فقال أهل الكوفة: لعنه الله، وأعاد الضمير إلى المغيرة بالنية والقصد.

وأراد زياد أن يعرض أهل الكوفة أجمعين على البراءة من علي عليه السلام ولعنه وأن يقل كل من امتنع من ذلك، ويخرب منزله، فضربه الله ذلك اليوم بالطاعون، فمات - لا رحمه الله - بعد ثلاثة أيام، وذلك في خلافة معاوية.

وكان الحجاج - لعنه الله - يلعن علياً عليه السلام، ويأمر بلعنه. وقال له متعرض به يوماً وهو راكب: أيها الأمير، أن أهلي عَقُونِي فستؤني علياً، فغير اسمي، وصلني بما أتبلغ به فلاني فقير. فقال: للطف ما توصلت به قد سئيتك كذا، ووليتك العمل الفلاني فاشخص إليه.

فأما عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فإنه قال: كنت غلاماً أقرأ القرآن على بعض ولد عتبة بن مسعود، فمر بي يوماً وأنا ألعب مع الصبيان، ونحن نلعن علياً، فكره ذلك ودخل المسجد، فتركت الصبيان وجئت إليه لأدرس عليه وزدي، فلما رأيته قام فصلّى وأطال في الصلاة - شبه المعرض عني - حتى أحسست منه بذلك، فلما انقضى من صلاته كَلَحَ في وجهي، فقلت له: ما بال الشيخ؟ فقال لي: يا بني، أنت اللاعن علياً منذ اليوم؟ قلت: نعم، قال: فمتى علمت أن الله سيخط على أهل بدر بعد أن رضي عنهم! فقلت: يا أبت، وهل كان علي من أهل

بدرا فقال: ويحك! وهل كانت بدر كلها إلا له! فقلت: لا أعود، فقال: الله أنك لا تعود! قلت: نعم فلم ألعنه بعدها. ثم كنت أحضر تحت منبر المدينة، وأبي يخطب يوم الجمعة - وهو حينئذ أمير المدينة - فكنت أسمع أبي يمر في خطبه تهدير شقاشقه، حتى يأتي إلى لعن علي عليه السلام فيجمنجمن. ويعرض له من الفهاهة والحصر ما الله عالم به، فكنت أعجب من ذلك، فقلت له يوماً: يا أبت، أنت أفصح الناس وأخطبهم، فما بالي أراك أفصح خطيب يوم حقلك، حتى إذا مررت بلفن هذا الرجل، صرخت ألكن علياً! فقال: يا بني، إن من ترى تحت منبرنا من أهل الشام وغيرهم، لو علموا من فضل هذا الرجل ما يعلمه أبوك لم يتبعنا منهم أحد. ففقت كلمته في صدري، مع ما كان قاله لي معلمي أيام صغري، فأعطيت الله عهداً، لئن كان لي في هذا الأمر نصيب لأغيرته، فلما من الله علي بالخلافة أسقطت ذلك، وجعلت مكانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالنُّجُورِ وَالْبَنِي يُعِظُكُم لَمَلَكُكُمْ تَذَكُّرُونَ﴾^(١)، وكتب به إلى الآفاق فصار سنة.

وقال كثير بن عبد الرحمن يمدح عمر ويذكر قطعه السب:

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف
وكفرت بالعفو الذنوب مع الذي
ألا إنما يكفي الفتى بعد زيفه
وما زلت تواقاً إلى كل غاية
فلما أتاك الأمر عفواً ولم يكن
تركك الذي يفنى لأن كان بائداً
وقال الرضي أبو الحسن رحمه الله تعالى:

يأبى عبد العزيز لو بكيت المع
غير أنني أقول إنك قد طب
أنت نزهتنا عن السب والقذ
ولو أنني رأيت قبرك لاشتعب
وقليل أن لو بذلت دماء ال
دبر سمنان: فيك ماوى أبي حف
دبر سمنان، لا أغيبك غيب
ين فشى من أمية لبكيتك
ك وإن لم يطب ولم يرك بيثك
ف، فلو أمكن الجزاء جزيتك
يث من أن أرى وما حيتك
بدن صرفاً على الذرا وسقيتك
ص بودي لو أنني أويثك
خير ميث من آل مروان ميثك

أنت بالذِّكرِ بينَ عَيْنِي وَقَلْبِي إن تدانيكَ مِنْكَ أوْ إنْ نَأيُكَ
وَإِذَا حَرَّكَ الْحَشَا خَاطِرُ مَنْ كَ تَوَقَّعْتُ أَنِّي قَدْ رَأَيْتُكَ
وَعَجِيبَ أَنِّي قَلَيْتُ بَنِي مَرْ وَإنْ طَرَأَ وَأَنِّي مَا قَلَيْتُكَ
قَرَّبَ الْعَدْلُ مِنْكَ لِمَا نَآى الْجَوْ رُبُّهُمْ فَاجْتَوَيْتُهُمْ وَاجْتَبَيْتُكَ
فَلَوْ أَنِّي مَلَكَتُ دَفْعاً لِمَا نَا بَكَ مِنْ طَارِقِ الرَّدَى لَفَدَيْتُكَ

روى ابن الكلبي، عن أبيه، عن عبد الرحمن بن السائب، قال: قال الحجاج يوماً لعبد الله بن هانيء، وهو رجل من بني أود - حي من قحطان - وكان شريفاً في قومه، قد شهد مع الحجاج مشاهد كلها، وكان من أنصاره وشيعته: والله ما كافأتك بعداً ثم أرسل إلى أسماء بن خارجة سيد بني فزارة: أن زوج عبد الله بن هانيء بابتك، فقال: لا والله ولا كرامة! فدعا بالسياط، فلما رأى الشر قال: نعم أزوجه، ثم بعث إلى سعيد بن قيس الصمداني رئيس اليمانية: زوج ابنتك من عبد الله بن أود، فقال: ومن أود! لا والله لا أزوجه ولا كرامة! فقال: علي بالسيف، فقال: ذهني حتى أشاور أهلي، فشاورهم، فقالوا: زوجة ولا تعرض نفسك لهذا الفاسق، فزوجه. فقال الحجاج لعبد الله: قد زوجتُك بنت سيد همدان، وعظيم كهلان وما أود هناك فقال: لا تقل أصلح الله الأمير ذاك! فإن لنا مناقب ليست لأحد من العرب، قال: وما هي؟ قال: ما سب أمير المؤمنين عبد الملك في نادٍ لنا قط، قال: منقبة والله، قال: وشهد منا صفين مع أمير المؤمنين معاوية سبعون رجلاً، ما شهد منا مع أبي تراب إلا رجل واحد، وكان والله ما علمته امرأ سوء، قال: منقبة والله، قال: ومنا نسوة نذرنا: إن قتل الحسين بن علي على أن تنحر كل واحدة عشر قلائص، ففعلن، قال: منقبة والله، قال: وما منا رجل عرض عليه شتم أبي تراب ولعنه إلا فعل وزاد ابنه حسناً وحسيناً وأمهما فاطمة، قال: منقبة والله، قال: وما أحد من العرب له من الصباحة والملاحاة ما لنا، فضحك الحجاج، وقال: أما هذه يا أبا هانيء فدعها. وكان عبد الله دميماً شديداً الأذمة مجدوراً، في رأسه عَجَر، مائل الشِّدْق، أحول، قبيح الوجه، شديد الحول.

وكان عبد الله بن الزبير يُغضض علياً عليه السلام، ويتقصيه وينال من عرضه.

وروى عمر بن شبة وابن الكلبي والواقدي وغيرهم من رواة السير، أنه مكث أيام ادعائه الخلافة أربعين جمعة لا يصلي فيها على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقال: لا يمنعني من ذكره إلا أن تسمع رجال بآنافها.

وفي رواية محمد بن حبيب وأبي عبيدة معمر بن المثنى: أَنَّ لَهُ أَهْلًا سَوْءٌ يُنْفِصُونَ رُؤُوسَهُمْ عِنْدَ ذِكْرِهِ.

وروى سعيد بن جبيرة أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ قَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ: مَا حَدِيثُ أَسْمَعِهِ عَنْكَ؟ قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَأْنِيْبِي وَذَمِّي فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «بِئْسَ الْمَرْءُ الْمُسْلِمُ يَشْبَعُ وَيَجُوعُ جَارُهُ»^(١)، فَقَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: إِنِّي لَأَكْثَمُ بِغَضِّكُمْ أَهْلَ هَذَا الْبَيْتِ مِنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ.

وروى عمر بن شبة أيضاً عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: خَطَبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ، فَنَالَ مِنْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ، فَجَاءَ إِلَيْهِ وَهُوَ يَخْطُبُ، فَوَضَعَ لَهُ كُرْسِيًّا، فَقَطَعَ عَلَيْهِ خُطْبَتَهُ، وَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ، شَاهَتِ الرُّجُوءُ أَنْ تُنْقَضَ عَلَيَّ وَأَنْتُمْ حُضُورًا إِنَّ عَلِيًّا كَانَ يَدُ اللَّهِ عَلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ، وَصَاعِقَةٌ مِنْ أَمْرِهِ أَرْسَلَهُ عَلَى الْكَافِرِينَ وَالْجَا حِدِينَ لِحَقِّهِ، فَقَتَلَهُمْ بِكَفَرِهِمْ فَشَتَّوْهُ وَأَبْغَضَوْهُ، وَأَضْمَرُوا لَهُ الشَّنْفَ^(٢) وَالْحَسَدَ، وَابْنُ عَمِّهِ ﷺ حَتَّى بَعْدُ لَمْ يَمِتْ، فَلَمَّا نَقَلَهُ اللَّهُ إِلَى جَوَارِهِ، وَأَحَبَّ لَهُ مَا عِنْدَهُ، أَظْهَرَتْ لَهُ رِجَالُ أَحْقَادِهَا، وَشَفَّتْ أَضْغَانَهَا، فَمِنْهُمْ مَنْ ابْتَزَّ حَقَّهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ ائْتَمَرَ بِهِ لِيَقْتُلَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ شَتَّمَهُ وَقَذَفَهُ بِالْأَبَاطِيلِ، فَإِنْ يَكُنْ لَذَرِيَّتِهِ وَنَاصِرِي دَعْوَتِهِ دَوْلَةٌ تَنْشُرُ عِظَامَهُمْ، وَتَحْفِرُ عَلَى أَجْسَادِهِمْ، وَالْأَبْدَانُ مِنْهُمْ يَوْمئِذٍ بِأَلِيَّةٍ، بَعْدَ أَنْ تَقْتُلَ الْأَحْيَاءَ مِنْهُمْ، وَتَذَلَّ رِقَابُهُمْ، فَيَكُونُ اللَّهُ عِزَّ اسْمِهِ قَدْ عَذَّبَهُمْ بِأَيْدِينَا وَأَخْزَاهُمْ، وَنَصَرْنَا عَلَيْهِمْ، وَشَفَّاءَ صُدُورِنَا مِنْهُمْ، إِنَّهُ وَاللَّهُ مَا يَشْتَمُ عَلِيًّا إِلَّا كَافِرٌ يُسِرُّ شَتْمَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيَخَافُ أَنْ يَبُوحَ بِهِ، فَيَكُنِيَ بِشْتَمِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْهُ. أَمَّا إِنَّهُ قَدْ تَخَطَّتِ الْمَنِيَّةُ مِنْكُمْ مَنْ أَمْتَدَّ عَمْرَهُ، وَسَمِعَ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيهِ: «لَا يَحِبُّكَ إِلَّا مُؤْمِنٌ وَلَا يُبْغِضُكَ إِلَّا مُنَافِقٌ»، وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيْ مُنْقَلَبِ بِنْقَلِبُونَ»^(٣)، فَعَادَ ابْنُ الزُّبَيْرِ إِلَى خُطْبَتِهِ، وَقَالَ: عَذَرْتُ بَنِي الْفَوَاطِمِ يَتَكَلَّمُونَ، فَمَا بَالِ ابْنِ أُمِّ حَنِيفَةَ! فَقَالَ مُحَمَّدٌ: يَا بَنَ أُمِّ رُومَانَ، وَمَا لِي لَا أَتَكَلَّمُ! وَهَلْ فَاتَنِي مِنَ الْفَوَاطِمِ إِلَّا وَاحِدَةً وَلَمْ يَفْتَنِي فَخْرُهَا، لِأَنَّهَا أُمُّ أَخَوِي أَنَا ابْنُ فَاطِمَةَ بِنْتِ عِمْرَانَ بْنِ عَائِذِ بْنِ مَخْزُومٍ، جَدَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَأَنَا ابْنُ فَاطِمَةَ بِنْتِ أَسَدِ بْنِ هَاشِمٍ، كَافِلَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَالْقَائِمَةُ مَقَامَهُ، أَمَّا وَاللَّهُ لَوْلَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ مَا تَرَكْتُ فِي بَنِي أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعِزَّى عِظْمًا إِلَّا هَشَمْتُهُ! ثُمَّ نَامَ فَانْصَرَفَ.

(١) أَخْرَجَ نَحْوَهُ الْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» (٢١٦٦)، وَابْنُ أَبِي حَتْمٍ فِي «الْسنن الكبرى» (٣/١٠)، وَأَبُو يَعْلَى فِي «مُسْنَدِهِ» (٢٦٩٩)، وَالتَّطْبِرَانِيُّ فِي «الكبير» (٧٥١).

(٢) الشَّنْفُ شِدَّةُ الْبَغْضَةِ. اللَّسَانُ، مَادَّةُ (شَنَفَ).

(٣) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي الْمُنَاقِبِ، بَابُ: مُنَاقِبُ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ (٣٧٣٦)، وَاحْمَدُ فِي مُسْنَدِ الْعَشْرَةِ الْمُبَشِّرِينَ فِي الْجَنَّةِ، بَابُ: وَمَنْ مُسْنَدُ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ (٧٣٣)، دُونَ قَوْلِهِ: «وَسَيَعْلَمُ... إلخ».

الأحاديث الموضوعة في ذم علي عليه السلام

وذكر شيخنا أبو جعفر الإسكافي رحمه الله تعالى - وكان من المتحققين بموالاته علي عليه السلام، والمبالغين في تفضيله، وإن كان القول بالتفضيل عاماً شائعاً في البغداديين من أصحابنا كافة، إلا أن أبا جعفر أشدّهم في ذلك قولاً، وأخلصهم فيه اعتقاداً - أن معاوية وضع قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في علي عليه السلام، تقتضي الطعن فيه والبراءة منه، وجعل لهم على ذلك جُعلاً يُرَغَّبُ في مثله، فاختلفوا ما أرضاه، منهم أبو هريرة وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة، ومن التابعين عروة بن الزبير.

روى الزهري أن عروة بن الزبير حدثه، قال: حدثني عائشة، قال: كنتُ عند رسول الله إذ أقبل العباس وعلي، فقال: يا عائشة، إن هذين يموتان على غير ملتي - أو قال ديني^(١).

وروى عبد الرزاق عن معمر، قال: كان عند الزهري حديثان عن عروة عن عائشة في علي عليه السلام، فسألتُه عنهما يوماً، فقال: ما تصنع بهما، ويحدثهما الله أعلم بهما، إنني لأتُهمهما في بني هاشم.

قال: فأما الحديث الأول فقد ذكرناه، وأما الحديث الثاني فهو أن عروة زعم أن عائشة حدثته، قالت: كنت عند النبي ﷺ إذ أقبل العباس وعلي، فقال: «يا عائشة، إن سرّك أن تنظري إلى رجلين من أهل النار فانظري إلى هذين قد طلعا»، فنظرت، فإذا العباس وعلي بن أبي طالب^(٢).

وأما عمرو بن العاص، فروى عنه الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما مسنداً متصلاً بعمرو بن العاص، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء إنما وليي الله وصالح المؤمنين»^(٣).

وأما أبو هريرة، فروى عنه الحديث الذي معناه أن علياً عليه السلام خطب ابنة أبي جهل في حياة رسول الله ﷺ، فأسخطه، فخطب على المنبر، وقال: «لاها الله لا تجتمع ابنة وليي الله وابنة عدو الله أبي جهل! إن فاطمة بضعة مني، يؤفيني ما يؤفيها، فإن كان علي يريد ابنة أبي جهل

(١) أخرجه المجلسي في البحار: ٤٠٢/٣٠، والعسكري في أحاديث عائشة: ٣٧٤/١.

(٢) أخرجه المجلسي في البحار: ٤٠٢/٣٠.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب، باب: تبل الرحم ببلالها، ومسلم في الإيمان، باب: موالات المؤمنين (٢١٥) دون قوله: «طالب».

فليفارق ابنتي، وليفعل ما يريد^(١)، أو كلاماً هذا معناه، والحديث مشهور من رواية الكرايسي.

قلت: هذا الحديث أيضاً مخرج في صحيحي مسلم والبخاري عن المشور بن مخزومة الزهري، وقد ذكره المرتضى في كتابه «المسمى تنزيه الأنبياء والأئمة» وذكر أنه رواية حسين الكرايسي، وأنه مشهور بالانحراف عن أهل البيت عليهم السلام، وعدواتهم والمناصبه لهم، فلا تقبل روايته.

ولشياع هذا الخبر وانتشاره ذكره مروان بن أبي حفصة في قصيدة يمدح بها الرشيد، ويذكر فيها ولد فاطمة عليهم السلام ويُنحى عليهم، ويذمهم، وقد بالغ حين ذمّ علياً عليه السلام ونال منه، وأولها:

سلام على جمل، وهيئات من جمل ربا حبّذا جمل وإن صرمت حبلي
يقول فيها:

عليّ أبوكم كان أفضل منكم أباء ذوو الشورى وكانوا ذوي الفضل
وساء رسول الله إذا ساء بسنته بخرطبته بنت اللعين أبي جهل
فدّم رسول الله صهر أبيكم على منبر بالمنطق الصادع الفضل
وحكم فيها حاكمين أبوكم هما خلعا خلع ذي النعل للنعل
وقد باعها من بعده الحسن ابنه فقد أبطلت دعوكم الرثة الحبلي
وخلّيتُموها وهي في غير أهلها وطالبتموها حين صارت إلى أهل

وقد روي هذا الخبر على وجوه مختلفة، وفيه زيادات متفاوتة، فمن الناس من يروي فيه: «مهما ذمنا من صهر فلانا لم ندّم صهر أبي العاص بن الربيع»، ومن الناس من يروي فيه: «ألا إن بني المغيرة أرسلوا إلى عليّ ليزوجوه كريمتهم...» وغير ذلك.

وعندي أن هذا الخبر لو صحّ لم يكن على أمير المؤمنين فيه غضاضة ولا قذح، لأن الأمة مجمعة على أنه لو نكح ابنة أبي جهل، مضافاً إلى نكاح فاطمة عليها السلام لجاز، لأنه داخل تحت عموم الآية المبيحة للنساء الأربع، فابنة أبي جهل المشار إليها كانت مسلمة، لأن هذه

(١) أخرج نحوه البخاري في المناقب، باب: مناقب قرابة رسول الله ﷺ (٣٧١٤)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب: فضائل فاطمة بنت النبي ﷺ (٢٤٤٩)، والترمذي في المناقب، باب: فضل فاطمة بنت محمد ﷺ (٣٨٦٧)، وأبو داود في النكاح، باب: ما يكره أن يجمع بينهن من النساء (٢٠٧١).

القصة كانت بعد فتح مكة، وإسلام أهلها طوعاً وكرهاً، ورواة الخبر موافقون على ذلك، فلم يبق إلا أنه إن كان هذا الخبر صحيحاً فإن رسول الله ﷺ لما رأى فاطمة عليها السلام قد غارت، وأدركها ما يدرك النساء، عاتب علياً عليه السلام عتاب الأهل، وكما يستثبت الوالد رأي الولد، ويستعطفه إلى رضا أهله وصلاح زوجته. ولعلّ الواقع كان بعض هذا الكلام فحرف وزيد فيه. ولو تأملت أحوال النبي ﷺ مع زوجاته، وما كان يجري بينه وبينهن من الغضب تارة، والصلح أخرى، والسخط تارة والرضا أخرى، حتى بلغ الأمر إلى الطلاق مرة، وإلى الإيلاء مرة، وإلى الهجر والقطيعة مرة، وتدبرت ما ورد في الروايات الصحيحة مما كُنَّ يلقينه عليه السلام به، ويُسمغنه إياه، لعلمت أنّ الذي عاب الحسدة والشائنون علياً عليه السلام به بالنسبة إلى تلك الأحوال قطرة من البحر المحيط، ولو لم يكن إلا قصة مارية وما جرى بين رسول الله ﷺ وبين تينك امرأتين من الأحوال والأقوال، حتى أنزل فيهما قرآن يُتلى في المحارب، ويكتب في المصاحف، وقيل لهما ما لا يقال للإسكندر ملك الدنيا لو كان حياً، منابذاً الرسول ﷺ: ﴿وَأَن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾^(١)، ثم أردف بعد ذلك بالوعيد والتخويف: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَنَّ﴾^(٢) الآيات بتمامها، ثم ضرب لهما مثلاً امرأة نوح وامرأة لوط اللتين خانتا بعليهما، فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً، وتمام الآية معلوم. فهل ما روي في الخبر من تعصب فاطمة على علي عليه السلام وغيرها من تعريض بني المغيرة له بنكاح عقيلتهم، إذا قُوبِسَ إلى هذه الأحوال وغيره مما كان يجري إلا كنسبة التأفيف إلى حرب البسوس! ولكن صاحب الهوى والعصية لا علاج له.

ثم نعود إلى حكاية كلام شيخنا أبي جعفر الإسكافي رحمه الله تعالى. قال أبو جعفر: وروي الأعمش، قال: لما قدم أبو هريرة العراق مع معاوية عام الجماعة، جاء إلى مسجد الكوفة، فلما رأى كثرة من استقبله من الناس جثا على ركبتيه، ثم ضرب صلته مراراً، وقال: يا أهل العراق، أتزعمون أنني أكذب على الله وعلى رسله، وأحرق نفسي بالنارا والله لقد سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَرَمًا، وَإِنَّ حَرَمِي بِالْمَدِينَةِ، مَا بَيْنَ عَيْرٍ إِلَى ثَوْرٍ، فَمَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسُ أَجْمَعِينَ»^(٣)، وأشهد بالله أن علياً أحدث فيها: فلما بلغ معاوية قوله أجازته وأكرمه وولاه إمارة المدينة.

قلت: أما قوله: «ما بين عَيْرٍ إِلَى ثَوْرٍ»، فالظاهر أنه غلط من الراوي، لأن ثوراً بمكة وهو

(١) سورة التحريم، الآية: ٤. (٢) سورة التحريم، الآية: ٥.

(٣) أخرجه البخاري في الفرائض، باب: من تبرأ من مواليه (٦٧٥٥)، ومسلم في العتق باب: تحريم تولي العتيق غير مواليه (١٣٧٠)، والترمذي في الولاء والهيبة، باب: ما جاء فيمن تولي غير مواليه (٢١٢٧)، وأحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة باب: ومن مسند علي بن أبي طالب (٦١٦).

جبل يقال له: ثور أطلح، وفيه الغار الذي دخله النبي ﷺ وأبو بكر، وإنما قيل: «أطلح» لأن أطلح بن عبد مناف بن أَد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن عدنان كان يسكنه. وقيل: اسم الجبل أطلح، فأضيف «ثور» إليه، وهو ثور بن عبد مناف، والصواب: «ما بين غير إلى أحد».

فأما قول أبي هريرة: «إِنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَحَدُ فِي الْمَدِينَةِ»، فحاش الله! كان علي عليه السلام أتقى الله من ذلك، والله لقد نصر عثمان نصراً لو كان المحصور جعفر بن أبي طالب لم ييذل له إلا مثله.

قال أبو جعفر: وأبو هريرة مدخول عند شيوخنا غير مرضي الرواية، ضربه عمر بالذرة، قد أكثر من الرواية وأخر بك أن تكون كاذباً على رسول الله ﷺ!.

وروى سفيان الثوري عن منصور، عن إبراهيم التيمي، قال: كانوا لا يأخذون عن أبي هريرة إلا ما كان من ذكر جنة أو نار.

وروى أبو أسامة عن الأعمش، قال: كان إبراهيم صحيح الحديث، فكنت إذا سمعت الحديث أتيتُه فعرضته عليه، فأتيته يوماً بأحاديث من حديث أبي صالح عن أبي هريرة، فقال: دعني من أبي هريرة، إنهم كانوا يتركون كثيراً من حديثه.

وقد روي عن علي عليه السلام أنه قال: ألا إن أكذب الناس - أو قال: أكذب الأحياء - علي رسول الله ﷺ أبو هريرة الدؤسي.

وروى أبو يوسف، قال: قلت لأبي حنيفة: الخبر يجيء عن رسول الله ﷺ، يخالف قياسنا ما تصنع به؟ قال: إذا جاءت به الرواة الثقات حملنا به وتركنا الرأي، فقلت: ما تقول في رواية أبي بكر وعمر؟ قل: ناهيك بهما! فقلت: علي وعثمان، قال: كذلك، فلما رأي أني أعذ الصحابة قال: والصحابة كلهم عدول ما عدا رجلاً، ثم عذ منهم أبا هريرة وأنس بن مالك.

وروى سفيان الثوري، عن عبد الرحمن بن القاسم، عن عمر بن عبد الغفار، أن أبا هريرة لما قديم الكوفة مع معاوية، كان يجلس بالعشيات بباب كئدة، ويجلس الناس إليه، فجاء شاب من الكوفة، فجلس إليه، فقال: يا أبا هريرة، أنشدك الله، أسمعت رسول الله ﷺ يقول لعلي بن أبي طالب: «اللهم والي من والاه وعاد من عاداه»! فقال: اللهم نعم، قال: فأشهد بالله، لقد واليت عدوه، وعاديت وليه! ثم قام عنه.

وروت الرواة أن أبا هريرة كان يواكل الصبيان في الطريق، ويلعب معهم. وكان يخطب وهو أمير المدينة، فيقول: الحمد لله الذي جعل الدين قياماً، وأبا هريرة إماماً، يضحك الناس بذلك. وكان يمشي وهو أمير المدينة في السوق، فإذا انتهى إلى رجل يمشي أمامه، ضرب برجليه الأرض، ويقول: الطريق الطريق! قد جاء الأمير! يعني نفسه.

قلت قد ذكر ابن قتيبة هذا كله في كتاب «المعارف» في ترجمة أبي هريرة، وقوله فيه حجة لأنه غير متمم عليه.

قال أبو جعفر: وكان المغيرة بن شعبة يلعن علياً عليه السلام لعناً صريحاً على منبر الكوفة، وكان بلغه عن علي عليه السلام في أيام عمر أنه قال: لئن رأيت المغيرة لأرجمته بأحجاره - يعني واقعة الزنى بالمرأة التي شهد عليه فيها أبو بكر، ونكل زياد عن الشهادة - فكان يُبغضه لذلك ولغيره من أحوال اجتمعت في نفسه.

قال: وقد تظاهرت الرواية عن عروة بن الزبير أنه كان يأخذه الزمع عند ذكر علي عليه السلام فيسبه ويضرب بإحدى يديه على الأخرى، ويقول: وما يفني أنه لم يخالف إلى ما نُهي عنه، وقد أراق من دماء المسلمين ما أراق!

قال: وقد كان في المحدثين من يُبغضه عليه السلام، ويروي فيه الأحاديث المنكرة، منهم حريز بن عثمان، كان يُبغضه وينتقصه، ويروي فيه أخباراً مكذوبة. وقد روى المحدثون أن حريزاً رثي في المنام بعد موته، ف قيل له: ما فعل الله بك؟ قال: كاد يغفر لي لولا بغض علي.

قلت: قد روى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري في كتاب «السقيفة» قال: حدثني أبو جعفر بن الجنيّد، قال: حدثني إبراهيم بن الجنيّد، قال: حدثني محفوظ بن المفضل بن عمر، قال: حدثني أبو البهلول يوسف بن يعقوب، قال: حدثنا حمزة بن حسان - وكان مولى لبني أمية، وكان مؤذناً عشرين سنة، وحجّ غير حجة، وأثنى أبو البهلول عليه خيراً - قال: حضرت حريز بن عثمان، وذكر علي بن أبي طالب، فقال: ذاك الذي أحلّ حرم رسول الله ﷺ، حتى كاد يقع.

قال محفوظ: قلت ليحيى بن صالح الوحاظي: قد رويت عن مشايخ من نظراء حريز! فما بالك لم تحمل عن حريز! قال: إني أتيتُه فناولني كتاباً، فإذا فيه: حدثني فلان عن فلان أن النبي ﷺ لما حضرته الوفاة أوصى أن تُقطع يد علي بن أبي طالب عليه السلام، فرددت الكتاب، ولم أستحل أن أكتب عنه شيئاً.

قال أبو بكر: وحدثني أبو جعفر، قال: حدثني إبراهيم، قال: حدثني محمد بن عاصم، صاحب الخانات، قال: قال لنا حريز بن عثمان: أنتم يا أهل العراق تحبون علي بن أبي طالب عليه السلام ونحن نبغضه، قالوا: لم؟ قال: لأنه قتل أجدادي.

قال محمد بن عاصم: وكان حريز بن عثمان نازلاً علينا.

قال أبو جعفر رحمه الله تعالى: وكان المغيرة بن شعبة صاحب دنيا، يبيع دينه بالقليل النزر

منها ويُرضي معاوية بذكر علي بن أبي طالب عليه السلام ، قال يوماً في مجلس معاوية: إن علياً لم يُنكح رسول الله ابته حباً، ولكنه أراد أن يكافىء بذلك إحسان أبي طالب إليه.

قال: وقد صبح عندنا أن المغيرة لعنه على منبر العراق مرات لا تحصى، ويروى أنه لما مات ودفنوه، أقبل رجل راكب ظليماً، فوقف قريباً منه ثم قال:

أمن رَسَمِ دارٍ من مغيرة تعرفُ عليها زواني الإنس والجن تُغزِفُ
إن كنتَ قد لاقيتَ فرعونَ بَعْدَنا وهامان فاعلم أن ذا العرش منصفُ
قال: فطلبوه فغاب عنهم ولم يَرَوْا أحداً، فعلموا أنه من الجن.

قال: فأما مروان بن الحكم فأحقر وأقل من أن يذكر في الصحابة الذين قد غمضناهم وأوضحنا سوء رأينا فيهم، لأنه كان مجاهراً بالإلحاد هو وأبوه الحكم بن أبي العاص، وهما الطريدان اللعينان، كان أبوه عدو رسول الله صلى الله عليه وآله يحكيه في منبته، ويغمز عليه عينه، ويُذليح له لسانه ويتهم به، ويتهاون عليه^(١)، هذا وهو في قبضته وتحت يده، وفي دار دغوته بالمدينة، وهو يعلم أنه قادر على قتله أي وقت شاء من ليل أو نهار، فهل يكون هذا إلا من شائء شديد البغضة، ومستحکم العدو، حتى أفضى أمره إلى أن طرده رسول الله صلى الله عليه وآله عن المدينة، وسيره إلى الطائف!

وأما مروان ابنه فأخبث عقيدة، وأعظم إلحاداً وكفراً، وهو الذي خطب يوم وصل إليه رأس الحسين عليه السلام إلى المدينة، وهو يومئذ أميرها وقد حمل الرأس على يديه فقال:

يا حَبْذا برْدُك في اليَدَيْنِ وَخُمْرةٌ تُجْري على الخَدَيْنِ
كأَنَّما بِتَ بمسجدين

ثم رمى بالرأس نحو قبر النبي، وقال يا محمد، يوم بيوم بدر. وهذا القول مشتق من الشعر الذي تمثل به يزيد بن معاوية وهو شعر ابن الزُبَيْرِ يوم وصل الرأس إليه.

والخبر مشهور.

قلت: هكذا قال شيخنا أبو جعفر، والصحيح أن مروان لم يكن أمير المدينة يومئذ بل كان أميرها عمرو بن سعيد بن العاص، ولم يحمل إليه الرأس، وإنما كتب إليه عبيد الله بن زياد يبشّره بقتل الحسين عليه السلام، فقرأ كتابه على المنبر، وأنشد الرجز المذكور، وأوماً إلى القبر قائلاً: يوم بيوم بدر، فانكر عليه قوله قوم من الأنصار. ذكر ذلك أبو عبيدة في كتاب «المثالب».

(١) تهافت به: تضاحك، والمهاتفة الملاعبة أيضاً. اللسان، مادة (هف).

قال: وروى الواقدي: أن معاوية لما عاد من العراق إلى الشام بعد بيعة الحسن عليه السلام واجتماع الناس إليه خطب فقال: أيها الناس، إن رسول الله ﷺ قال لي: «إِنَّكَ سَتَلِي الْخِلاَفَةَ مِنْ بَعْدِي، فَاخْتَرِ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ، فَإِنَّ فِيهَا الْأَبْدَالَ»^(١)، وقد اخترتكم، فاعنوا أبا تراب. فلعنوه، فلما كان من الغد كتب كتاباً، ثم جمعهم فقرأ عليهم، وفيه: هذا كتاب كتبته أمير المؤمنين معاوية، صاحب وحي الله الذي بعث محمداً نبياً، وكان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، فاصطفى له من أهله وزيراً كاتباً أميناً، فكان الوحي ينزل على محمد وأنا أكتبه، وهو لا يعلم ما أكتب، فلم يكن بيني وبين الله أحد من خلقه. فقال له الحاضرون كلهم: صدقت يا أمير المؤمنين.

قال أبو جعفر: وقد روى أن معاوية بذل لِسَمُرَةَ بن جُنْدَب مائة ألف درهم حتى يروى أن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ»^(٢) وَإِذَا تَوَلَّى سَكَتٌ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسَدَ فِيهَا رَيْبُكَ فَالْحَرْتُ وَالْشَّلُّ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ»^(٣)، وأن الآية الثانية نزلت في ابن ملجم، وهي قوله تعالى: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ أَتَيْنَكَ مِنْهَا مَذْكَاةً أَلْوَى»^(٤)، فلم يقبل، فبذل له مائتي ألف درهم فلم يقبل، فبذل له ثلاثمائة ألف فلم يقبل، فبذل له أربعمائة ألف فقبل، وروى ذلك.

قال: وقد صح أن بني أمية منعوا من إظهار فضائل علي عليه السلام، وعاقبوا على ذلك الراوي له، حتى إن الرجل إذا روى عنه حديثاً لا يتعلق بفضله بل بشرائع الدين لا يتجاسر على ذكر اسمه، فيقول: عن أبي زئب.

وروى عطاء، عن عبد الله بن شداد بن الهاد، قال: وددت أن أترك فأحدث بفضائل علي بن أبي طالب عليه السلام يوماً إلى الليل، وأن عُنُقِي هذه ضربت بالسيف.

قال: فالأحاديث الواردة في فضله لو لم تكن في الشهرة والاستفاضة وكثرة النقل إلى غاية بعيدة، لا نقطع نقلها للخوف والتقية من بني مروان مع طول المدة، وشدة العداوة، ولولا أن لله تعالى في هذا الرجل سرّاً يعلمه من يعلمه لم يُرو في فضله حديث، ولا عُرفَتْ له منقبة، ألا ترى أن رئيس قرية لو سخط على واحد من أهلها، ومنع الناس أن يذكروه بخير وصلاح لحمل ذكره، ونسي اسمه، وصار وهو موجود معدوماً، وهو حي ميتاً هذه خلاصة ما ذكره شيخنا أبو جعفر رحمه الله تعالى في هذا المعنى في كتاب التفضيل.

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٢١٥/٣٣.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ٢٠٤، ٢٠٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٠٧.

فصل في ذكر المنحرفين عن علي عليه السلام

وذكر جماعة من شيوخنا البغداديين أن عدة من الصحابة والتابعين والمحدثين كانوا منحرفين عن علي عليه السلام، قائلين فيه السوء، ومنهم من كتم مناقبه وأعان أعداءه ميلاً مع الدنيا، وإيثاراً للعاجلة، فمنهم أنس بن مالك، ناشد علي عليه السلام الناس في رَحْبَةِ القصر - أو قال رَحْبَةِ الجامع بالكوفة - : أيكم سمع رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلَيْ مَوْلَاهُ»^(١)؟ فقام اثنا عشر رجلاً فشهدوا بها، وأنس بن مالك في القوم لم يقم، فقال له: يا أنس، ما يمنعك أن تقوم فتشهد، ولقد حضرتها فقال: يا أمير المؤمنين، كبرْتُ ونسيت، فقال: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ كَاذِباً فَارْمِهِ بِهَا بِيضَاءَ لَا تَوَارِيهَا الْعِمَامَةُ. قال طلحة بن عَمِير: فوالله لقد رأيتُ الوَضَحَ به بعد ذلك أبيض بين عينيه. وروى عثمان بن مُطَرِّف أن رجلاً سأل أنس بن مالك في آخر عمره عن علي بن أبي طالب، فقال: إني أليْتُ أَلَا أَكْتُمُ حَدِيثاً سَنَلْتُ عَنْهُ فِي عَلِيٍّ بَعْدَ يَوْمِ الرَّحْبَةِ، ذَاكَ رَأْسُ الْمُتَّقِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، سَمِعْتُهُ وَاللَّهِ مِنْ نَبِيِّكُمْ^(٢).

وروى أبو إسرائيل عن الحكم عن أبي سليمان المؤذن، أن علياً عليه السلام نَشَدَ النَّاسَ مَنْ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلَيْ مَوْلَاهُ»، فَشَهِدَ لَهُ قَوْمٌ، وَأَمْسَكَ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمٍ، فَلَمْ يَشْهَدْ - وَكَانَ يَعْلَمُهَا - فَدَعَا عَلِيٌّ عليه السلام عَلَيْهِ بِذَهَابِ الْبَصْرِ فَعَمِيَ، فَكَانَ يَحْدُثُ النَّاسَ بِالْحَدِيثِ بَعْدَمَا كُفِّ بَصْرُهُ.

قالوا: وَكَانَ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ الْكَنْدِيُّ وَجَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيُّ يُبْغِضَانِهِ، وَهَدَمَ عَلِيٌّ عليه السلام دَارَ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ. قَالَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ جَرِيرٍ: هَدَمَ عَلِيٌّ دَارَنَا مَرَّتَيْنِ. وَرَوَى الْحَارِثُ بْنُ حَصِينٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَفَعَ إِلَى جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ نَعْلَيْنِ مِنْ نَعَالِهِ، وَقَالَ: «احْتَفِظْ بِهِمَا، فَإِنْ ذَهَبَتْهُمَا ذَهَابَ دِينُكَ»^(٣)، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْجَمَلِ ذَهَبَتْ إِحْدَاهُمَا، فَلَمَّا أَرْسَلَهُ عَلِيٌّ عليه السلام إِلَى مَعَاوِيَةَ ذَهَبَتِ الْأُخْرَى، ثُمَّ فَارَقَ عَلِيٌّ وَاعْتَزَلَ الْحَرْبَ.

(١) أخرجه الترمذي في المناقب، باب: مناقب علي بن أبي طالب (٣٧١٣)، وابن ماجه في المقدمة، باب: فضل علي بن أبي طالب (١٢١)، وأحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة، باب: ومن مسند علي بن أبي طالب (٦٤٢).

(٢) أخرجه المجلسي في البحار: ٣٧/٢٠٠.

(٣) أخرجه الأمدي في المسح في وضوء الرسول: ١٤٥.

وروى أهل السيرة أن الأشعث خطب إلى علي عليه السلام ابنته، فزبره، وقال: يا بن الحائك، أغرك ابن أبي قحافة!

وروى أبو بكر الهذلي عن الزهري، عن عبيد الله بن عدي بن الخيار بن نوفل بن عبد مناف، قال: قام الأشعث إلى علي عليه السلام، فقال: إن الناس يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إليك عهداً لم يعهده إلى غيرك، فقال: إنه عهد إلي ما في قراب سيفي، لم يعهد إلي غير ذلك. فقال الأشعث: هذه إن قلتها فهي عليك لا لك، دغها ترحل عنك، فقال له: وما علمك بما علي مما لي! منافق ابن كافر، حائك ابن حائك! إني لأجد منك بنة الغزل. ثم التفت إلى عبيد الله بن عدي بن الخيار، فقال: يا عبيد الله، إنك لتسمع خلافاً وترى عجباً، ثم أنشد:

أصبحت هزءاً لراعِي الضأن أتبعه ماذا يريبك مني راعي الضأن!

وقد ذكرنا في بعض الروايات المتقدمة أن سبب قوله: «هذه عليك لا لك»، أمر آخر، والروايات تختلف. وروى يحيى بن عيسى الرملي، عن الأعمش: أن جريراً والأشعث خرجا إلى جبّان الكوفة، فمرّ بهما ضبّ يعدو، وهما في ذمّ علي عليه السلام، فنادياه: يا أبا جسل، هلم يدك نبايعك الخلافة، فبلغ علياً عليه السلام قولهما، فقال: أما إنهما يحشران يوم القيامة وإمامهما ضبّ.

وكان أبو مسعود الأنصاري منحرفاً عنه عليه السلام. روى شريك، عن عثمان ابن أبي زُرعة، عن زيد بن وهب، قال: تذاكرنا القيام إذا مرّت الجنازة عند علي عليه السلام، فقال أبو مسعود الأنصاري: قد كنا نقوم، فقال علي عليه السلام: ذاك وأنتم يومئذ يهود.

وروى شعبة، عن عبيد بن الحسن، عن عبد الرحمن بن معقل، قال: حضرت علياً عليه السلام، وقد سأله رجل عن امرأة تُوفّي عنها زوجها وهي حامل، فقال: تتربّص أبعد الأجلين، فقال رجل: فإن أبا مسعود يقول: وضعها انقضاء عدتها، فقال علي عليه السلام: إن فروجاً لا يعلم، فبلغ قوله أبا مسعود، فقال: بلى، والله إني لأعلم أن الآخر شرّ.

وروى المنهال، عن نعيم بن دجاجة، قال: كنت جالساً عند علي عليه السلام. وإذا جاء أبو مسعود، فقال علي عليه السلام: جاءكم فروج، فجاء فجلس، فقال له علي عليه السلام: بلغني أنك تُفتي الناس، قال: نعم، وأخبرهم أن الآخر شرّ، قال: فهل سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً؟ قال: نعم، سمعته يقول: «لا يأتي على الناس سنة مائة وعلى الأرض عين تطرف»^(١)، قال:

(١) أخرجه أحمد في مسند العشرة المبشرين في الجنة، باب: ومن مسند علي بن أبي طالب (٧١٦)، بلفظ: «لا يأتي على الناس مائة سنة»، والحاكم في «المستدرک» (٨٥٢٠).

أخطأت استك الحفرة، وغلطت في أول ظنك، إنما عني مَنْ حضره يومئذ، وهل الرخاء إلا بعد المائة!

وروى جماعة من أهل السير أن علياً عليه السلام كان يقول عن كعب الأحبار: إنه لكذاب، وكان كعب منحرفاً عن علي عليه السلام. وكان النعمان بن بشير الأنصاري منحرفاً عنه، وعدواً له، خاض الدماء مع معاوية خوفاً، وكان من أمراء يزيد ابنه حتى قتل وهو على حاله.

وقد روى أن عمران بن الحصين كان من المنحرفين عنه عليه السلام، وأن علياً عليه السلام سبّره إلى المدائن، وذلك أنه كان يقول: إن مات علي فلا أدري ما موته، وإن قتل فعسى أنني إن قتل رجوت له. ومن الناس من يجعل عمران في الشيعة.

وكان سُمرة بن جندب من شرطة زياد، روى عبد الملك بن حكيم عن الحسن، قال: جاء رجل من أهل خراسان إلى البصرة، فترك ماله كان معه في بيت المال، وأخذ براءة، ثم دخل المسجد فصلى ركعتين، فأخذه سُمرة بن جندب، واتهمه برأي الخوارج، فقدمه فضرب عنقه، وهو يومئذ على شرطة زياد، فنظروا فيما معه فإذا البراءة بخط بيت المال، فقال أبو بكر: يا سُمرة، أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾^(١) فقال: أخوك أمرني بذلك.

وروى الأعمش، عن أبي صالح، قال: قيل لنا: قد قديم رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، فأتيناه فإذا هو سُمرة بن جندب، وإذا عند إحدى رجله خمر، وعند الأخرى ثلج، فقلنا: ما هذا؟ قالوا: به الثُّغُرس، وإذا قوم قد أتوه، فقالوا يا سُمرة، ما تقول لربك غداً؟ تؤتى بالرجل فيقال لك: هو من الخوارج فتأمر بقتله، ثم تؤتى بآخر فيقال لك: ليس الذي قتلت به خارجي، ذاك فتى وجدناه ماضياً في حاجته، فشبّه علينا، وإنما الخارجيّ هذا، فتأمر بقتل الثاني! فقال سُمرة: وأي بأس في ذلك! إن كان من أهل الجنة مضى إلى الجنة، وإن كان من أهل النار مضى إلى النار.

وروى واصل مولى أبي عيينة، عن جعفر بن محمد بن علي عليه السلام عن آبائه، قال: كان لسُمرة بن جندب نخل في بستان رجل من الأنصار، فكان يؤذيه، فشكا الأنصاري ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فبعث إلى سُمرة، فدعاه فقال له: بع نخلك من هذا، وخذ ثمنه، قال: لا

أفعل، قال: فخذ نخلاً مكان نخلك، قال: لا أفعل، قال: فاشتر منه بستانه، قال: لا أفعل، قال: فاترك لي هذا النخل ولك الجنة، قال: لا أفعل، فقال عليه السلام: «لأنصاري: اذهب فاقطع نخله، فإنه لا حق له فيه»^(١).

وروى شريك قال: أخبرنا عبد الله بن سعد عن حُجر بن عدي، قال: قدمت المدينة فجلست إلى أبي هريرة، فقال: ممن أنت؟ قلت: من أهل البصرة، قال: ما فعل سُمرة بن جندب؟ قلت: هوجي، قال: ما أحد أحب إليّ طول حياة منه. قلت: ولم ذلك؟ قال: إن رسول الله ﷺ قال لي وله ولحذيفة بن اليمان: «أخركم موتاً في النار»^(٢)، فسبقنا حذيفة، وأنا الآن أتمنى أن أسبقه، قال: فبقي سُمرة بن جندب حتى شهد مقتل الحسين.

وروى أحمد بن بشير عن مسعر بن كدام، قال: كان سُمرة بن جندب أيام مسير الحسين عليه السلام إلى الكوفة على شُرطة عبيد الله زياد، وكان يحرض الناس على الخروج إلى الحسين عليه السلام وقتاله.

ومن المنحرفين عنه، المبغضين له عبد الله بن الزبير، وقد ذكرناه آنفاً، كان عليّ عليه السلام يقول: ما زال الزبير منّا أهل البيت حتى نشأ ابنه عبد الله، فأفسده^(٣).

وعبد الله هو الذي حمل الزبير على الحرب، وهو الذي زين لعائشة مسيرها إلى البصرة، وكان سبّاباً فاحشاً، يُبغض بني هاشم، ويلعن ويسبّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام. وكان عليّ عليه السلام يقنّت في صلاة الفجر وفي صلاة المغرب، ويلعن معاوية، وعمرأ، والمغيرة، والوليد بن عقبة، وأبا الأعور، والضحاك بن قيس، ويُسّر بن أرطاة، وحبيب بن مسلمة، وأبا موسى الأشعري، ومروان بن الحكم، وكان هؤلاء يقتشون عليه ويلعنونه.

وروى شيخنا أبو عبد الله البصري المتكلم رحمه الله تعالى، عن نصر بن عاصم الليثي، عن أبيه، قال: أتيت مسجد رسول الله ﷺ، والناس يقولون: نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله! فقلت: ما هذا؟ قالوا: معاوية قام الساعة، فأخذ بيد أبي سفيان، فخرجا من المسجد،

(١) أخرج البيهقي نحوه في «السنن الكبرى» (١١٥٥٦)، وابن عبد البر في التمهيد (٢٨٢/٢٢).

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٢٠٦)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٩٠/٨).

(٣) أخرجه ابن الأثير في «أسد الغابة»: ١٦٢/٣، وابن قتيبة في الإمامة السیاسة: ٢٨/١.

فقال رسول الله ﷺ: «لعن الله التابع والمتبوع، رب يوم لأمتي من معاوية ذي الأستاه»^(١)، قالوا: يعني الكبير العَجَز.

وقال: روى العلاء بن حريز القشيري أن رسول الله ﷺ قال لمعاوية: «التخذن يا معاوية البذعة سنة، والقبح حسناً، أكلك كثير، وظلمك عظيم»^(٢).

قال: وروى الحارث بن حَصِيرَة، عن أبي صادق، عن ربيعة بن ناجذ، قال: قال عليّ ﷺ: نحن وآل أبي سفيان قوم تعادوا في الأمر، والأمر يعود كما بدأ.

قلت: وقد ذكرنا نحن في تلخيص نقض «السفيانية» ما فيه كفاية في هذا الباب.

وروى صاحب كتاب الغارات عن أبي صادق، عن جندب بن عبد الله، قال: ذكر المغيرة بن شعبة عند عليّ ﷺ وجده مع معاوية، قال: وما المغيرة! إنما كان إسلامه لفجرة وغذرة غدرها بنفر من قومه فتك بهم، وركبها منهم، فهرب منهم، فأتى النبي ﷺ كالعائد بالإسلام، والله ما رأى أحد عليه منذ ادعى الإسلام خضوعاً ولا خشوعاً، ألا وإنه يكون من ثقيف فراعنة قبل يوم القيامة يجانبون الحق، ويسعرون نيران الحرب ويوازرون الظالمين، ألا إن ثقيفاً قوم غدر، لا يوفون بعهد، يبغضون العرب كأنهم ليسوا منهم، ولرب صالح قد كان منهم فمنهم عروة بن مسعود وأبو عبيد بن مسعود المستشهد يوم قسّ الناطف، وإن الصالح في ثقيف لغريب.

قال شيخنا أبو القاسم البلخي: من المعلوم الذي لا ريب فيه لاشتهار الخبر به، وإطباق الناس عليه، أن الوليد بن عُقبة بن أبي مُعَيْط كان يُبَغِضُ علياً ويشتمه، وأنه هو الذي لاحاه في حياة رسول الله ﷺ ونابذه، وقال له: أنا أثبت منك جناناً، وأحد سنناً، فقال له عليّ ﷺ: اسكت يا فاسق، فأنزل الله تعالى فيهما: «أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ»^(٣) الآيات المتلوة، وسمى الوليد بحسب ذلك في حياة رسول الله ﷺ الفاسق، فكان لا يُعرَفُ إلا بالوليد الفاسق.

وهذه الآية من الآيات التي نزل فيها القرآن بموافقة عليّ ﷺ، كما نزل في مواضع

(١) أخرجه العلامة المجلسي في بحار الأنوار: ١٩١/٣٣.

(٢) أخرجه العلامة المجلسي في بحار الأنوار: ١٩١/٣٣.

(٣) سورة السجدة، الآية: ١٨.

بموافقة عمر، وسماء الله تعالى فاسقاً في آية أخرى، وهو قوله تعالى: ﴿إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ مِّنْ بَنِيكَ فَتَنِيْنًا﴾^(١)، وسبب نزولها مشهور، وهو كذبه على بني المصطلق، وادّعاؤه أنهم منعوا الزكاة وشهروا السيف، حتى أمر النبي ﷺ بالتجهز للمسير إليهم، فأنزل الله تعالى في تكذيبه وبراءة ساحة القوم هذه الآية.

وكان الوليد مذموماً معيباً عند رسول الله ﷺ يشنؤه ويُعرض عنه، وكان الوليد يُبغض رسول الله ﷺ أيضاً ويشنؤه، وأبو عُقبة بن أبي مُعيط هو العدو الأزرق بمكة، والذي كان يؤذي رسول الله ﷺ في نفسه وأهله، وأخباره في ذلك مشهورة، فلما ظفر به يوم بدر ضرب عنقه. وورث ابنه الوليد الشنآن والبغضة لمحمد وأهله، فلم يزل عليهما إلى أن مات.

قال الشيخ أبو القاسم: وهو أحد الصبية الذين قال أبو عُقبة فيهم، وقد قُدم ليضرب عنقه: مَنْ للصبيّة يا محمد؟ فقال: «النار، اضربوا عنقه».

قال: وللوليد شعر يقصد فيه الردّ على رسول الله ﷺ حيث قال: «إن تولوها علياً، تجدوه هادياً مهدياً»^(٢). قال: وذلك أن علياً عليه السلام لما قُتل قصد بنوه أن يُخفّوا قبره خوفاً من بني أمية أن يحدثوا في قبره حدثاً، فأوهموا الناس في موضع قبره تلك الليلة - وهي ليلة دفعه - إيهامات مختلفة، فشذّوا على جمل تابوتاً موثقاً بالحبال، يفوح منه روائح الكافور، وأخرجوه من الكوفة في سواد الليل صحبة ثقاتهم، يُوهمون أنهم يحملونه إلى المدينة فيدفنونه عند فاطمة عليها السلام، وأخرجوا بغلاً وعليه جنازة مغطاة، يوهمون أنهم يدفنونه بالحيرة، وحفروا حفائر عدّة، منها بالمسجد، ومنها بركة القصر، قصر الإمارة، ومنها في حجرة من دور آل جعدة بن هبيرة المخزومي، ومنها في أصل دار عبد الله بن يزيد القسري بحذاء باب الوراقين مما يلي قبلة المسجد، ومنها في الكُناسة، ومنها في الثوبة، فعمي على الناس موضع قبره، ولم يعلم دفنه على الحقيقة إلا بنوه والخوادم المخلصون من أصحابه، فإنهم خرجوا به عليه السلام وقت السحر في الليلة الحادية والعشرين من شهر رمضان، فدفنوه على النجف، بالموضع المعروف بالغري، بوصاة منه عليه السلام إليهم في ذلك، وعهد كان عهد به إليهم، وعمي موضع قبره على الناس، واختلفت الأراجيف في صبيحة ذلك اليوم اختلافاً شديداً، وافتרכת الأقوال في موضع قبره الشريف وتشعبت، وادّعى قوم أن جماعة من طييء وقعوا على جمل في تلك الليلة، وقد أضلّه أصحابه ببلادهم، وعليه صندوق، فظنّوا فيه مالاً، فلما رأوا ما فيه خافوا أن يُطلبوا به، فدفنوا الصندوق بما فيه، ونحروا البعير وأكلوه، وشاع ذلك في بني أمية وشيعتهم، واعتقدوه حقاً، فقال الوليد بن عُقبة من أبيات يذكره عليه السلام فيها:

(١) سورة الحجرات، الآية: ٦.

(٢) أخرجه الجوهر في السقيفة وفدك: ٧٦.

فإن يك قد ضلّ البعير بحمله فَمَا كَانَ مَهْدِيّاً وَلَا كَانَ هَادِيّاً

وروى الشيخ أبو القاسم البلخي أيضاً، عن جرير بن عبد الحميد، عن مغيرة الضبي، قال: مرّ ناس بالحسن بن علي عليه السلام، وهم يريدون عيادة الوليد بن عقبة، وهو في علة له شديدة، فأتاه الحسن عليه السلام معهم عائداً، فقال للحسن: أتوب إلى الله تعالى مما كان بيني وبين جميع الناس، إلا ما كان بيني وبين أهلك، فإني لا أتوب منه.

قال شيخنا أبو القاسم البلخي: وأكّد بغضه له ضربه إياه الحدّ في ولاية عثمان، وعزله عن الكوفة.

وقد اتفقت الأخبار الصحيحة التي لا ريب فيها عند المحدثين، على أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «لَا يُبْغِضُكَ إِلَّا مُنَافِقٌ، وَلَا يُحِبُّكَ إِلَّا مُؤْمِنٌ»^(١).

قال: وروى حبة العُرني، عن علي عليه السلام أنه قال: إن الله عز وجل أخذ ميثاق كل مؤمن على حُبِّي وميثاق كل منافق على بغضي، فلو ضربت وجه المؤمن بالسيف ما أبغضني، ولو صبيت الدنيا على المنافق ما أحببني^(٢).

وروى عبد الكريم بن هلال، عن أسلم المكي، عن أبي الطفيل، قال: سمعت علياً عليه السلام، وهو يقول: لو ضربت خياشيم المؤمنين بالسيف ما أبغضني ولو نثرت على المنافق ذهباً وفضة ما أحببني، إن الله أخذ ميثاق المؤمنين بحُبِّي، وميثاق المنافقين ببغضي، فلا يُبْغِضُني مؤمن، ولا يُحِبُّني منافق أبداً^(٣).

قال الشيخ أبو القاسم البلخي: وقد روى كثير من أرباب الحديث عن جماعة من الصحابة، قالوا: ما كنّا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله إلا ببغض علي بن أبي طالب^(٤).

ذكر إبراهيم بن هلال صاحب كتاب «الفارات» فيمن فارق علياً عليه السلام والتحق بمعاوية يزيد بن حُجّة التيمي، من بني تيم بن ثعلبة بن بكر بن وائل، وكان عليه السلام قد استعمله على الرّي ودُسْتَبِي، فكسر الخوارج، واحتجن المال لنفسه، فحبسه علي عليه السلام، وجعل معه سعداً مولاه، فقرب يزيد ركائبه، وسعد نائم، فالتحق بمعاوية، وقال:

خَادَعْتُ سَعْدًا وَارْتَمَتْ بِي رِكَائِبِي إِلَى الشَّامِ وَاخْتَرْتُ الَّذِي هُوَ أَفْضَلُ

(١) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: الدليل على أن حب الأنصار وعلي بن أبي طالب من الإيمان (٧٨)، والنسائي، في كتاب: الإيمان وشرائعه، باب: علامة الإيمان (٥٠١٨).

(٢) انظر بشارة المصطفى: ١٧٢، وبتأنيع المودة: ١٥٢/١.

(٣) أخرجه المجلسي في البحار: ٢٩٥/٣٩.

(٤) أخرجه المحب الطبري في ذخائر العقبى: ٩١، والحاكم في المستدرک: ١٢٩/٣.

وغادرتُ سعداً نائماً في عباءة وسعدٌ غلامٌ مُستَهَامٌ مُضَلَّلٌ
ثم خرج حتى أتى الرِّقَّةَ، وكذلك كان يصنع مَنْ يفارق علياً عليه السلام، يبدأ بالرِّقَّةَ حتى يستأذن
معاوية في القدوم عليه، وكانت الرِّقَّةُ والرُّها وقرقيسيا وحرَّان من حيز معاوية، وعليها
الضحاك بن قيس، وكانت هيت وعانات ونصيبين ودارا وآمد وسنجار من حيز علي عليه السلام،
وعليها الأشتر، وكانا يقتتلان في كل شهر.

وقال يزيد بن حُجَّية وهو بالرِّقَّة يهجو علياً عليه السلام :

يا طولَ لَيْلِي بِالرُّقَاتِ لَمْ أَنْمُ مِنْ غَيْرِ عَشْقِي صَبَتْ نَفْسِي وَلَا سَقَمُ
لَكِنْ لَذَكْرِ أَمُورٍ جَمَّةٍ طَرَقَتْ أَخَشَى عَلَى الْأَضَلِّ مِنْهَا زَلَّةُ الْقَدَمِ
أَخَشَى عَلَيَّا عَلَيْهِمْ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ مِثْلَ الْعَقُورِ الَّذِي عَفَى عَلَى إِرَمِ
وبعد ذلك ما لا نذكره.

قال إبراهيم بن هلال: وقد كان زياد بن خُصَفة التيمي، قال لعلي عليه السلام يوم هرب يزيد بن
حُجَّية: ابعثني يا أمير المؤمنين في أثره أردّه إليك، فبلغ قوله يزيد بن حُجَّية، فقال في ذلك:

أبلغ زياداً أنني قد كفيتهُ أُمُورِي وَخَلَّيْتُ الَّذِي مُوَاعَاتِبُهُ
وَبَابٌ شَدِيدٌ مُوثِقٌ قَدْ فَتَحْتُهُ عَلَيْكَ، وَقَدْ أَغَيْتُ عَلَيْكَ مَذَاهِبُهُ
هُبِلْتُ أَمَا تَرْجُو غِنَائِي وَمَشْهَدِي إِذِ الْخَصَمُ لَمْ يُوجَدْ لَهُ مَنْ يُجَادِبُهُ
فَأَقْسِمُ لَوْلَا أَنَّ أَمْسَكَ أُمَّنَا وَأَنْكَ مَوْلَى مَا طَفِقْتُ أَعَاتِبُهُ
وَأَقْسَمُ لَوْ أَدْرَكْتَنِي مَا رَدَّدْتَنِي كَلَانَا قَدْ اصْطَفَتْ إِلَيْهِ جَلَابِبُهُ

قال ابن هلال: وكتب إلى العراق شعراً يذم فيه علياً عليه السلام، ويخبره أنه من أعدائه فدعا
عليه وقال لأصحابه عَقِيبَ الصَّلَاةِ: ارفعوا أيديكم فادعُوا عليه، فدعا عليه وأمن أصحابه.

قال أبو الصلت التيمي: كان دعاؤه عليه: اللهم إن يزيد بن حُجَّية هرب بمال المسلمين
ولحق بالقوم الفاسقين، فاكفينا مكره وكيدَه واجزه جزاء الظالمين.

قال: ورفع القومُ أيديهم يؤمنون، وكان في المسجد عِفاق بن شَرَحْبِيل بن أبي رهم التيمي
شيخاً كبيراً، وكان يعدّ ممن شهد على حُجْر بن عديّ حتى قتله معاوية، فقال عِفاق: على مَنْ
يدعو القوم؟ قالوا: على يزيد بن حُجَّية، فقال: تربت أيديكم! أعلّى أشرافنا تدعون! فقاموا إليه
فضربوه حتى كاد يهلك. وقام زياد بن خُصَفة - وكان من شيعة علي عليه السلام - فقال: ادعوا ابن
عَمِي، قال علي عليه السلام: دعوا للرُّجُل ابن عمه، فتركه الناس، فأخذ زياد بيده فأخرجه من
المسجد، وجعل يمشي معه يمسح التراب عن وجهه، وعِفاق يقول: والله لا أحبك ما سمعت
ومشيت، والله لا أحبك ما اختلفت الدِّرة والجِّرة، وزِيَاد يقول: ذلك أضرت لك، ذلك شرُّ لك.

وقال زياد بن خَصَفَة يذكر ضرب الناس عِفَاقاً :

دعوت عِفَاقاً لِلْهُدَى فاستغشني
وولّى قَرِيْناً قَوْلُهُ وَهُوَ مُغْضَبٌ
ولولا دفاعي عن عِفَاقٍ ومشهدي
هوت بِعِفَاقٍ - عَوْضٌ - عَنَقَاءُ مُغْرِبٌ
أنبئه أن الهدى في اتباعنا
فيأبى، ويُضْربُه المراء فيشغِبُ
فإن لا يشايغنا عِفَاقُ فإننا
على الحق ما غنى الحَمَامُ المطرِبُ
سَيُغْنِي الإله عن عِفَاقٍ وَسَغِيهِ
إذا بعثت للناس جِأواء تُخَرِبُ
قبائل من حَبِيْنٍ معدٍّ ومثلها
يمانية لا تنشني حين تُنْدَبُ
لَهُمْ عَدَدٌ مِثْلُ التراب وطاعة
تودّ، وبأس في السوغي لا يؤنّب

فقال له عِفَاقُ : لو كنت شاعراً لأجبتك، ولكني أخبركم عن ثلاث خصال كنّ منكم، والله ما أرى أن تُصيبوا بعدهنّ شيئاً مما يسركم :

أما واحدة، فإنكم سرّتم إلى أهل الشام حتى إذا دخلتم عليهم بلادهم قاتلتموهم، فلما ظنّ القوم أنكم لهم قاهرون رفعوا المصاحف، فسجّروا بكم فردّوكم عنهم، فلا والله لا تدخلونها بمثل ذلك الجِدِّ والحدِّ والعدد الذي دخلتم به أبداً.

وأما الثانية، فإنكم بعثتم حَكَمًا وبعث القوم حَكَمًا، فأما حَكَمُكم فخلعكم، وأما حَكَمُهم فأثبتهم، فرجع صاحبهم يُدْعَى أمير المؤمنين، ورجعتم متلاعنين متباغضين، فوالله لا يزال القوم في علاء، ولا تزالون في سيفال.

وأما الثالثة، فإنه خالفكم قُرَاؤُكم وقُرسانكم فعذّوْتم عليهم فذبّحتموهم بأيديكم، فوالله لا تزالون بعدها متضعفين.

قال : وكان يمرّ عليهم بعد، فيقول : اللهم إني منهم بريء، ولا بن عفان وليّ! فيقولون : اللهم إنا لعلّ أولياء، ومن ابن عفان برآء، ومنك يا عِفَاقُ !

قال : فأخذ لا يُقْلِع، فدعوا رجلاً منهم له سجاعة كسجاعة الكهان، فقالوا : ويحك ! أما تكفيننا بسجّعتك وخطبك هذا ! فقال : كفيتكم، فمرّ عِفَاقُ عليهم، فقال كما كان يقول : فلم يمهله أن قال له : اللهم اقتل عِفَاقاً، فإنه أسرّ نفاقاً، وأظهر شقاقاً، ويبنّ فراقاً، وتلون أخلاقاً.

فقال عِفَاقُ : ويُحكّم ! من سلّط عليّ هذا ؟ قال : الله بعثني إليك، وسلّطني عليك لأقطع لسانك، وأنصّل سينامك، وأطرد شيطانك.

قال : فلم يك يمرّ عليهم بعد، إنما يمرّ على مزينة.

وممن فارقه عليه السلام عبد الله بن عبد الرحمن بن مسعود بن أوس بن إدريس بن مُعْتَبِ الثقفِي،

شهد مع علي عليه السلام صفين، وكان في أول أمره مع معاوية، ثم صار إلى علي عليه السلام، ثم رجع بعد إلى معاوية، وكان علي عليه السلام يسميه الهجتنع، والهجتع: الطويل.

ومنهم القعقاع بن شور، استعمله علي عليه السلام على كسكر، فنقم منه أموراً، منها أنه تزوج امرأة فأصدقها مائة ألف درهم، فهرب إلى معاوية.

ومنهم النجاشي الشاعر من بني الحارث بن كعب، كان شاعر أهل العراق بصفين، وكان علي عليه السلام يأمره بمحاربة شعراء أهل الشام، مثل كعب بن جعيل وغيره، فشرب الخمر بالكوفة، فحذّه علي عليه السلام، فغضب ولحق بمعاوية، وهجا علياً عليه السلام.

حدث ابن الكلبي عن عوانة، قال: خرج النجاشي في أول يوم من شهر رمضان، فمرّ بابي سَمال الأسدي، وهو قاعد بفناء داره، فقال له: أين تريد؟ قال: أردت الكُناسة، فقال: هل لك في رؤوس وأليات قد وُضعت في الثُّور من أول الليل، فأصبحت قد أينعت وقد تهرأت؟ قال: ويحك! في أول يوم من رمضان! قال: دعنا مما لا نعرف، قال: ثم مه، قال: أسقيك من شراب كالورس، يُطَيّب النفس، ويجري في العرق، ويزيد في الطّرق، يهضم الطعام، ويسهل للفم^(١) الكلام، فنزل، فتغديا، ثم أتاه بنبذ فشرباه، فلما كان آخر النهار علت أصواتهما، ولهما جارٌّ من شيعة علي عليه السلام، فأتاه فأخبره بقصتهما، فأرسل إليهما قوماً فأحاطوا بالدار، فاما أبو سَمال فوثب إلى دور بني أسد فأفلت، وأخذ النجاشي فأتى علياً عليه السلام به، فلما أصبح أقامه في سراويله، فضربه ثمانين، ثم زاده عشرين سوطاً، فقال: يا أمير المؤمنين، أما الحد فقد عرفته، فما هذه العِلاوة؟ قال: لجراءتك على الله، وإفطارك في شهر رمضان. ثم أقامه في سراويله للناس، فجعل الصبيان يصيحون به: خري النجاشي، خري النجاشي! وجعل يقول: كلا إنها يمانية وكاؤها شعر.

قال: ومرّ به هند بن عاصم السلولي، فطرح عليه مطرفاً، فجعل الناس يمرّون به ويطرحون عليه المطارف، حتى اجتمعت عليه مطارف كثيرة، فمدح بني سلول فقال:

إذا الله حيّاً صالحاً من عباده	تقيّاً فحيّاً الله هند بن عاصم
وكلّ سلوليّ إذا ما دعوتّه	سريع إلى داعي العلا والمكارم
هم البيض أقداماً وديباج أوجه	جلوها إذا اسودت وجوه الملانم

(١) القدم من الناس: العبي عن الحجة والكلام مع ثقل ورخاوة وقلة فهم. اللسان، مادة (قدم).

ولا يأكل الكلب السُّرُوقَ نَعَالَهُمْ ولا يبتغي المَخَّ الذي في الجماجمِ
ثم لحق معاوية، وهجا علياً عليه السلام، فقال:

أَلَا مَنْ مَبْلَغُ عَنِّي عَلِيًّا بَأَنِّي قَدْ أَمِنْتُ فَلَا أَخَافُ
عَمِدْتُ لِمُسْتَقَرِّ الْحَقِّ لَمَّا رَأَيْتُ أُمُورَكُمْ فِيهَا اخْتِلَافُ

وروى عبد الملك بن قُريب الأصمعي، عن ابن أبي الزناد، قال: دخل النجاشي على معاوية، وقد أذن للناس عامة، فقال لحاجبه: ادعُ النجاشي، والنجاشي بين يديه، ولكن اقتحمته عينه، فقال: هأنذا النجاشي بين يديك يا أمير المؤمنين، إن الرجال ليست بأجسامها، إنما لك من الرجل أصغراه: قلبه ولسانه، قال: ويحك! أنت القائل:

وَنَجَى ابْنُ حَرْبٍ سَبَّحَ ذُو عُلَالَةٍ أَجَشَّ هَزِيمٌ وَالرُّمَاحُ دَوَانِي
إِذَا قُلْتُ أَطْرَافَ الرِّمَاحِ تُنُوشُهُ مَرَّتَهُ بِالسَّاقَانِ وَالسَّقَدَمَانِ
ثم ضرب بيده إلى قُذِيه، فقال: ويحك! إن مثلي لا تعدُّو به الخيل، فقال: يا أمير المؤمنين، إني لم أخذك، إنما عنيت عُتْبَةً.

وروى صاحب كتاب «الغارات» أن علياً عليه السلام لما حدَّ النجاشي غضبت اليمانية لذلك، وكان أخضهم به طارق بن عبد الله بن كعب التهدي، فدخل عليه، فقال: يا أمير المؤمنين، ما كنا نرى أن أهل المعصية والطاعة، وأهل الفرقة والجماعة عند ولاية العدل ومعادن الفضل سيان في الجزاء، حتى رأينا ما كان من صنيعك بأخي الحارث، فأوغرث صدورنا، وشئت أمورنا، وحملتنا على الجادة التي كنا نرى أن سبيل من ركبها النار. فقال علي عليه السلام: ﴿وَلَهَا لَكِبْرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾^(١)، يا أخا نهد، وهل هو إلا رجل من المسلمين انتهك حرمة من حُرِّمَ الله، فأقمنا عليه حداً كان كفارته! إن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾^(٢) قال: فخرج طارق من عنده، فلقبه الأشر، فقال: يا طارق، أنت القائل لأمير المؤمنين: «أوغرث صدورنا، وشئت أمورنا»؟ قال طارق: نعم، أنا قائلها، قال: والله ما ذاك كما قلت، إن صدورنا له لسامعة، وإن أمورنا له لجامعة. فغضب طارق وقال: ستعلم يا أشر أنه غير ما قلت، فلما جئته الليل فمس هو والنجاشي إلى معاوية، فلما قدما عليه، دخل آذنه فأخبره بقدميهما. وعنده وجوه أهل الشام، منهم عمرو بن مرة الجهني وعمرو بن صيفي وغيرهما، فلما دخلا نظر إلى طارق، وقال: مرحباً بالمورق غصنه، والمعرق أصله، المسود غير المسود، من رجل كانت منه هفوة ونبوة، باتباعه صاحب الفتنة، ورأس الضلالة والشبهة، الذي اغترز في ركاب الفتنة حتى استوى على رجليها، ثم أوجف في عثرة

(٢) سورة المائدة، الآية: ٨.

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٥.

ظَلَمْتُهَا وَتَبِهَ ضَلَالَتَهَا، وَاتَّبَعَهُ رَجْرَجَةٌ مِنَ النَّاسِ، وَأَشْبَابَةٌ مِنَ الْحُثَالَةِ لَا أَفْئِدَةَ لَهُمْ: ﴿أَفَلَا يَنْدَبُونَ الْقُرَّاءَ أَتَرَى عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا﴾ (١).

فَقَامَ طَارِقٌ، فَقَالَ: يَا مُعَاوِيَةُ إِنِّي مُتَكَلِّمٌ فَلَا يَسْخَطُكَ، ثُمَّ قَالَ: وَهُوَ مُتَكَيِّءٌ عَلَى سَيْفِهِ: إِنَّ الْمَحْمُودَ عَلَى كُلِّ حَالٍ رَبٌّ عَلا فَوْقَ عِبَادِهِ، فَهُمْ مِنْهُ بِمَنْظَرٍ وَمَسْمَعٍ، بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ، يَتْلُو كِتَابًا لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِهِ وَلَا يَخْطُهُ بِيَمِينِهِ، إِذَا لَارْتَابَ الْمَبْطُلُونَ، فَعَلِيهِ السَّلَامُ مِنْ رَسُولٍ كَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ بَرًّا رَحِيمًا! أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مَا كُنَّا نُوضِّعُ فِيهَا أَوْضَعْنَا فِيهِ بَيْنَ يَدَيِ إِمَامٍ تَقِيٍّ عَادِلٍ، مَعَ رِجَالٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَتْقِيَاءَ مُرْشِدِينَ، مَا زَالُوا مَنَارًا لِلْهُدَى، وَمَعَالِمَ لِلدِّينِ، خَلَفْنَا عَنْ سَلَفٍ مُهْتَدِينَ، أَهْلَ دِينٍ لَا دُنْيَا، كُلِّ الْخَيْرِ فِيهِمْ، وَاتَّبَعَهُمْ مِنَ النَّاسِ مُلُوكٌ وَأَقْبَالٌ، وَأَهْلُ بِيُوتَاتٍ وَشُرَفٍ، لَيْسُوا بِنَاكِثِينَ وَلَا قَاسِطِينَ، فَلَمْ يَكُنْ رَغْبَةً مِّنْ رَّغْبِ عَنْهُمْ وَعَنْ صَحْبَتِهِمْ إِلَّا لِمَرَارَةِ الْحَقِّ حَيْثُ جُرْعُوهَا، وَلَوْعُورَتِهِ حَيْثُ سَلَكُوهَا، وَغَلَبَتْ عَلَيْهِمْ دُنْيَا مُؤَثِّرَةٌ، وَهُوَ مُتَّبِعٌ، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا، وَقَدْ فَارَقَ الْإِسْلَامَ قَبْلَنَا جَبَلَةٌ بَنَ الْأَيَّامِ فِرَارًا مِنَ الضَّيْمِ، وَأَنْفًا مِنَ الدَّلَّةِ، فَلَا تَفْخَرُونَ يَا مُعَاوِيَةُ، إِنْ شَدَدْنَا نَحْوَكُمْ الرِّحَالَ وَأَوْضَعْنَا إِلَيْكُمْ الرِّكَابَ. أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ لِي وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ.

فَعُظِّمَ عَلَى مُعَاوِيَةَ مَا سَمِعَهُ وَغَضِبَ، لَكِنَّمَا أَمْسَكَ، وَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، إِنَّا لَمْ نُرِدْ بِمَا قُلْنَا أَنْ نُورِدَكَ مَشْرَعَ ظُلْمٍ، وَلَا أَنْ نُصْـدِّقَكَ عَنْ مَكْرَعٍ رِيٍّ، وَلَكِنَّ الْقَوْلَ قَدْ يَجْرِي بِصَاحِبِهِ إِلَى غَيْرِ مَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنَ الْفِعْلِ، ثُمَّ أَجْلَسَهُ مَعَهُ عَلَى سَرِيرِهِ، وَدَعَا لَهُ بِمَقْطَعَاتٍ وَيُرُودٍ فَصَّبَهَا عَلَيْهِ، وَأَقْبَلَ نَحْوَهُ بِوَجْهِهِ يَحْدِثُهُ حَتَّى قَامَ.

وَقَامَ مَعَهُ عَمْرُو بْنُ مَرْوَةَ وَعَمْرُو بْنُ صَيْفِيٍّ الْجَهَنِّيَّانِ، فَأَقْبَلَا عَلَيْهِ بِأَشَدِّ الْعَنَابِ وَأَمْضَاهُ، يُلُومَانِهِ فِي خُطْبَتِهِ، وَمَا وَاجَهُ بِهِ مُعَاوِيَةُ.

فَقَالَ طَارِقٌ: وَاللَّهِ مَا قُمْتُ بِمَا سَمِعْتُمَا حَتَّى تُخَيِّلَ لِي أَنَّ بَطْنَ الْأَرْضِ خَيْرٌ لِّي مِنْ ظَهَرِهَا عِنْدَ سَمَاعِي مَا أَظْهَرَ مِنَ الْعَيْبِ وَالنَّقْصِ لِمَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَا زَهَتْ بِهِ نَفْسُهُ، وَمَلَكَهُ عَجْبُهُ، وَعَابَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَاسْتَنْقَصَهُمْ، فَقُمْتُ مَقَامًا أَوْجِبُ اللَّهُ عَلَيَّ فِيهِ إِلَّا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا، وَأَيُّ خَيْرٍ فِيمَنْ لَا يَنْظُرُ مَا يَصِيرُ إِلَيْهِ غَدًا! فَبَلَغَ عَلِيًّا ﷺ قَوْلُهُ، فَقَالَ: لَوْ قُتِلَ النَّهْدِيُّ يَوْمَئِذٍ لَقُتِلَ شَهِيدًا.

وَقَالَ مُعَاوِيَةُ لِلْهَيْشَمِ بْنِ الْأَسْوَدِ أَبِي الْغُرَيَّانِ - وَكَانَ عُثْمَانِيًّا، وَكَانَتْ أُمْرَاتُهُ عُلُوبَةً الرَّأْيِ،

(١) سورة محمد، الآية: ٢٤.

تكتب بأخبار معاوية في أعتة الخيل وتدفعها إلى عسكر عليّ عليه السلام بصيغين فيدفعونها إليه - فقال معاوية بعد التحكيم: يا هيثم، أهل العراق كانوا أنصح لعليّ في صيغين أم أهل الشام لي؟ فقال: أهل العراق قبل أن يضرّبوا بالبلاء كانوا أنصح لصاحبهم، قال: كيف قلت ذلك؟ قال: لأن القوم ناصحوه على الدين. وناصحك أهل الشام على الدنيا، وأهل الدين أضبر، وهم أهل بصيرة، وإنما أهل الدنيا أهل طمع، ثم والله ما لبث أهل العراق أن نبذوا الدين وراء ظهورهم، ونظروا إلى الدنيا، فالتحقوا بك.

فقال معاوية: فما الذي ينفع الأشعث أن يقدم علينا، فيطلب ما قبلنا؟ قال: إن الأشعث يكرم نفسه أن يكون رأساً في الحرب، وذنباً في الطمع.

ومن المفارقين لعليّ عليه السلام أخوه عقيل بن أبي طالب، قدّم على أمير المؤمنين بالكوفة يسترفده، فعرض عليه عطاءه، فقال: إنما أريد من بيت المال، فقال: تقيم إلى يوم الجمعة، فلما صلى عليه السلام الجمعة، قال له: ما تقول فيمن خان هؤلاء أجمعين؟ قال بش الرجل! قال: فإنك أمرتني أن أخونهم وأعطيك، فلما خرج من عنده شخص إلى معاوية، فأمر له يوم قدومه بمائة ألف درهم، وقال له: يا أبا يزيد، أنا خير لك أم عليّ؟ قال: وجدت عليّاً أنظر لنفسه منه لي، ووجدتك أنظر لي منك لنفسك.

وقال معاوية لعقيل: إن فيكم يا بني هاشم لينا، قال: أجل إن فينا لينا من غير ضعف، وعزاً من غير عُنف، وإن لينكم يا معاوية عُذر، وسلمكم كُفر. فقال معاوية: ولا كل هذا يا أبا يزيد.

وقال الوليد بن عُقبة لعقيل في مجلس معاوية: غلبك أخوك يا أبا يزيد على الثروة! قال: نعم، وسبقني وإياك إلى الجنة، قال: أما والله إن شدّته لمضمومان من دم عثمان، فقال: وما أنت وقريش! والله ما أنت فينا إلا كنطيع التيس. فغضب الوليد وقال: والله لو أن أهل الأرض اشتركوا في قتله لأرهقوا صُغُوداً، وإن أخاك لأشدّ هذه الأمة عذاباً، فقال: صه! والله إنا لنرغب بعيد من عيده عن ضجة أيبك عُقبة بن أبي مُعيط.

وقال معاوية يوماً - وعنده عمرو بن العاص، وقد أقبل عقيل: لأضحكتك من عقيل فلما سلّم قال معاوية: مرحباً برجل عمّه أبو لهب، فقال عقيل: وأهلاً برجل عمته: ﴿حَالَةَ الْحَطَبِ لَا فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَمٍ﴾^(١)، لأن امرأة أبي لهب أم جميل بنت حرب بن أمية.

(١) سورة المسد، الأيتان: ٤، ٥.

قال معاوية: يا أبا يزيد ما ظنك بعمك أبي لهب! قال: إذا دخلت النار فخذ على يسارك تجده مفترشاً عمّتك حمالة الحطب، أفناكح في النار خير أم منكوح! قال: كلاهما شر، والله.

وممن فارقه عليه السلام حنظلة الكاتب، خرج هو وجريز بن عبد الله البجلي من الكوفة إلى قرقيسيا، وقالوا: لا نقيم ببلدة يُعاب فيها عثمان.

وممن فارقه وائل بن حجر الحضرمي، وخبره مذكور في قصة بشر بن أرطاة.

وروى صاحب كتاب «الغارات» عن إسماعيل بن حكيم، عن أبي مسعود الجريزي، قال: كان ثلاثة من أهل البصرة يتواضلون على بغض علي عليه السلام: مطرف بن عبد الله بن الشخير، والعلاء بن زياد، وعبد الله بن شقيق.

قال صاحب كتاب «الغارات»: وكان مطرف عابداً ناسكاً، وقد روى هشام بن حسان عن ابن سيرين: أن عمار بن ياسر دخل على أبي مسعود وعنده ابن الشخير، فذكر علياً بما لا يجوز أن يُذكر به، فقال عمار: يا فاسق وإنك لها هنا فقال أبو مسعود: أذكرك الله يا أبا اليقظان في ضيقي! قال: وأكثر مبغضيه عليه السلام أهل البصرة كانوا عثمانية، وكانت في أنفسهم أحقاد يوم الجمل، وكان هو عليه السلام قليل التآلف للناس، شديداً في دين الله، لا يبالي مع علمه بالدين، واتباعه الحق من سخط ومن رضي.

قال: وقد روى يونس بن أرقم، عن يزيد بن أرقم، عن أبي ناجية، مولى أم هانئ، قال: كنت عند علي عليه السلام، فأتاه رجل عليه زي السفر. فقال: يا أمير المؤمنين، إني أتيتك من بلدة ما رأيت لك بها محباً، قال: من أين أتيت؟ قال: من البصرة، قال: أما إنهم لو يستطيعون أن يحبوني لأحبوني، إني وشيعتي في ميثاق الله لا يزداد فينا رجل ولا ينقص إلى يوم القيامة.

وروى أبو غسان البصري، قال: بنى عبيد الله بن زياد أربعة مساجد بالبصرة تقوم على بغض علي بن أبي طالب والوقعة فيه: مسجد بني عدي، ومسجد بني مجاشع، ومسجد كان في العلافين على فُرْضة البصرة، ومسجد في الأزد.

ومما قيل عنه إنه يبغض علياً عليه السلام وينقه، الحسن بن أبي الحسن البصري أبو سعيد، وروى عنه حماد بن سلمة أنه قال: لو كان علي يأكُل الحَشَفَ^(١) بالمدينة لكان خيراً له مما دخل فيه. ورواه عنه أنه كان من المخذلين عن نصرته.

وروى عنه أن علياً عليه السلام رآه وهو يتوضأ للصلاة - وكان ذا وسوسة - فصبت على أعضائه ماء كثيراً، فقال له: أرقت ماء كثيراً يا حسن، فقال: ما أراق أمير المؤمنين من دماء المسلمين أكثرًا قال: أو ساءك ذلك؟ قال: نعم. قال: فلا زلت مسوياً.

قالوا: فما زال الحسن عابساً قاطعاً مهموماً إلى أن مات.

فأما أصحابنا فإنهم يدفعون ذلك عنه وينكروونه ويقولون: إنه كان من مُحِبِّي علي بن أبي طالب عليه السلام والمُعْظَمِينَ له.

وروى أبو عمر بن عبد البر المحدث في كتابه المعروف: «الاستيعاب في معرفة الصحابة»^(٢) أن إنساناً سأل الحسن عن علي عليه السلام، فقال: كان والله سهماً صائباً من مرامي الله على عَدُوِّهِ، ورباني هذه الأمة وذا فضلها، وذا سابقتها، وذا قرابتها من رسول الله ﷺ، لم يكن بالنُّؤْمَةِ عن أمر الله، ولا بالملومة في دين الله، ولا بالسُرُوقَةِ لِمَالِ الله أعطى القرآن عزائمه ففازَ منه برياض مُونِقة، ذلك علي بن أبي طالب يالْكَمَ!

وروى الواقدي، قال: سئل الحسن عن علي عليه السلام - وكان يظن به الانحراف عنها ولم يكن كما يظن - فقال: ما أقول فيمن جَمَعَ الخصال الأربع: ائتمانه على براءة، وما قال له الرسول في غزاة تبوك، فلو كان غير النبوة شيء يفوته لاستثناه، وقول النبي ﷺ «الثقلان كتاب الله وعِثْرَتِي»^(٣)، وإنه لم يؤمر عليه أمير قط وقد أُمِرَت الأمراء على غيره.

وروى أبان بن عياش، قال: سألت الحسن البصري عن علي عليه السلام، فقال: ما أقول فيه! كانت له السابقة، والفضل والعلم والحكمة والفقه والرأي والصُّحبة والنُّجدة والبلاء والزهد والقضاء والقراءة، إن علياً كان في أمره علياً، رحم الله علياً، وصلى عليه! فقلت: يا أبا سعيد، أتقول: «صلى عليه» لغير النبي؟ فقال: ترخِّم على المسلمين إذا ذكروا، وصل على النبي وعلى خير آله. فقلت: أهو خيرٌ من حمزة وجعفر؟ قال: نعم، قلت: وخيرٌ من فاطمة وابنيها؟ قال:

(١) الحشف: اليابس الفاسد من التمر، وقيل: الضعيف الذي لا نوء له كالشيص. اللسان، مادة (حشف).

(٢) «الاستيعاب في معرفة الأصحاب»: للحافظ أبي عمر يوسف بن عبد الله المعروف بابن عبد البر المتوفى سنة (٤٦٣هـ). «كشف الظنون» (١/٨١).

(٣) أخرجه السيد شرف الدين في «أبو هريرة»: ١٢٣.

نعم، والله إنه خير آل محمد كلهم، ومن يشك أنه خير منهم، وقد قال رسول الله ﷺ: «وأبوهما خير منهما»^(١) ولم يجزِ عليه اسمُ شريك، ولا شرب خمر، وقد قال رسول الله ﷺ: لفاطمة عليها السلام: «زوجتك خير أمتي»^(٢)، فلو كان في أمته خيرٌ منه لاستثناه، ولقد آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه، فأخى بين عليّ ونفسه، فرسول الله ﷺ خيرُ الناس نفساً، وخيرُهم أخاً. فقلت: يا أبا سعيد، فما هذا الذي يقال عنك إنك قلته في عليّ؟ فقال: يا بن أخي، أحقُّ دمي من هؤلاء الجبابرة، ولولا ذلك لثألت بي الخشب.

قال شيخنا أبو جعفر الإسكافي رحمه الله تعالى، ووجدته أيضاً في كتاب «الغارات» لإبراهيم بن هلال الثقفي: وقد كان بالكوفة من فقهاء من يعادي علياً ويُبغضه، مع غلبة التشيع على الكوفة، فمنهم مرةُ الهمداني.

وروى أبو نعيم الفضل بن دكين عن فطر بن خليفة، قال: سمعت مرةً يقول: لأن يكون عليّ جَمَلاً يَسْتَقِي عليه أهله خير له مما كان عليه.

وروى إسماعيل بن بهرام، عن إسماعيل بن محمد، عن عمرو بن مرة، قال: قيل لمرة الهمداني: كيف تخلّفت عن عليّ؟ قال: سَبَقْنَا بحسناته، وابتُلِينَا بسيئاته.

قال إسماعيل بن بهرام: وقد روينا عنه أنه قال أشدُّ فُحْشاً من هذا، ولكننا نتورّع عن ذكره. وروى الفضل بن دكين، عن الحسن بن صالح، قال: لم يصل أبو صادق عليّ مرةً الهمداني.

قال الفضل بن دكين: وسمعتُ أن أبا صادق قال في أيام حياة مرة: والله لا يظلّني ولياء سَقَف بيت أبداً.

قال: ولما مات لم يحضره عمرو بن شرحبيل، قال: لا أحضره لشيء كان في قلبه على عليّ بن أبي طالب.

قال إبراهيم بن هلال: فحدثنا المسعودي، عن عبد الله بن ثُمير بهذا الحديث. قال: ثم كان عبد الله بن ثُمير يقول - وكذلك أنا، والله لو مات رجلٌ في نفسه شيء على عليّ عليه السلام لم أحضره، ولم أصل عليه.

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه رقم: ١١٨.

(٢) أخرجه الشيخ الأميني في الغدير: ٩٥/٣.

ومنهم الأسود بن يزيد ومسروق بن الأجدع، روى سلمة بن كهيل: أنهما كانا يمشيان إلى بعض أزواج رسول الله ﷺ، فيقعان في علي ﷺ، فأما الأسود فمات على ذلك، وأما مسروق فلم يمُت حتى كان لا يصلي الله تعالى صلاة إلا صلى بعدها على علي بن أبي طالب ﷺ، لحديث سمعه من عائشة في فضله.

وروى أبو نعيم الفضل بن دكين، عن عبد السلام بن حرب، عن ليث بن أبي سليم، قال: كان مسروق يقول: كان علي كحاطب ليل، قال: فلم يمُت مسروق حتى رجع عن رأيه هذا.

وروى سلمة بن كهيل، قال: دخلت أنا وزبيد اليمامي على امرأة مسروق بعد موته، فحدثتنا، قالت: كان مسروق والأسود بن يزيد يُقرطان في سب علي بن أبي طالب، ثم ما مات مسروق حتى سمعته يصلي عليه، وأما الأسود فمضى لشأنه. قال: فسألناها: لم ذلك؟ قالت: شيء سمعه من عائشة تزويه عن النبي ﷺ، فيمن أصاب الخوارج.

وروى أبو نعيم، عن عمرو بن ثابت، عن أبي إسحاق، قال: ثلاثة لا يؤمنون على علي بن أبي طالب، مسروق، ومرة، وشريح.

وروى أن الشعبي رابعهم.

وروى عن هيثم، عن مجالد، عن الشعبي، أن مسروقاً ندم على إبطائه عن علي بن أبي طالب ﷺ.

وروى الأعمش، عن إبراهيم التيمي، قال: قال علي ﷺ لشريح، وقد قضى قضية نقم عليه أمرها: والله لأنفيك إلى بانيقيا شهرين تقضي بين اليهود، قال: ثم قتل علي ﷺ ومضى دهر، فلما قام المختار بن أبي عبيد قال لشريح: ما قال لك أمير المؤمنين ﷺ يوم كذا؟ قال: إنه قال لي كذا، قال: فلا والله لا تقعد، حتى تخرج إلى بانيقيا تقضي بين اليهود. فسيره إليها فقضى بين اليهود شهرين.

منهم أبو وائل شقيق بن سلمة، كان عثمانياً يقع في علي ﷺ. ويقال: إنه كان يرى رأي الخوارج، ولم يختلف في أنه خرج معهم، وأنه عاد إلى علي ﷺ مئيباً مقلعاً.

روى خلف بن خليفة، قال: قال أبو وائل: خرجنا أربعة آلاف، فخرج إلينا علي، فما زال يكلمنا حتى رجع منا ألفان.

وروى صاحب كتاب «الغارات»، عن عثمان بن أبي شيبة، عن الفضل بن دكين، عن سفيان الثوري، قال: سمعت أبا وائل يقول: شهدت صفين وبنس الصفوف كانت!

قال: وقد روى أبو بكر بن عياش، عن عاصم بن أبي النجود، قال: كان أبو وائل عثمانياً، وكان زراً بن حبيش علويًا.

ومن المبغضين القالين: أبو بُرْدة بن أبي موسى الأشعري، ورث البغضة له، لا عن كلاله. وروى عبد الرحمن بن جندب، قال: قال أبو بُرْدة لزياد: أشهد أن حُجْر بن عدي قد كفر بالله كفره أضلَع، قال عبد الرحمن: إنما عني بذلك نسبة الكفر إلى علي بن أبي طالب عليه السلام لأنه كان أضلع.

قال: وقد روى عبد الرحمن المسعودي، عن ابن عياش المتوفى، قال: رأيت أبا بُرْدة قال لأبي العادية الجُهني قاتل عمار بن ياسر: أنت قتلت عمار بن ياسر؟ قال: نعم، قال: ناولني يدك، فقبلها، وقال: لا تمسك النار أبداً.

وروى أبو نُعيم عن هشام بن المغيرة، عن الغضبان بن يزيد، قال: رأيت أبا بُرْدة قال لأبي العادية قاتل عمار بن ياسر: مرحباً بأخي هاهنا! فأجلسه إلى جانبه.

ومن المنحرفين عنه عليه السلام أبو عبد الرحمن السلمي القاري، روى صاحب كتاب «الغارات» عن عطاء بن السائب، قال: قال رجل لأبي عبد الرحمن السلمي: أنشدك بالله، إن سألتك لتخبرني؟ قال: نعم، فلما أكد عليه قال: بالله هل أبغضت علياً إلا يوم قسم المال في الكوفة فلم يصلك ولا أهل بيتك منه شيء! قال: أما إذ أنشدتني بالله، فلقد كان كذلك.

قال: وروى أبو عمر الضرير، عن أبي عوانة، قال: كان بين عبد الرحمن بن عطية وبين أبي عبد الرحمن السلمي شيء في أمر علي عليه السلام، فأقبل أبو عبد الرحمن على حيان فقال: هل تذري ما جرأ صاحبك على الدماء؟ يعني علياً، قال: «وما جرأه إلا أبا لغيرك! قال: حدثنا أن رسول الله ﷺ قال لأهل بدر: «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»^(١)، أو كلاماً هذا معناه.

وكان عبد الله بن عُكَيْم عُثْمَانِيًّا، وكان عبد الرحمن بن أبي ليلى عَلَوِيًّا، فروى موسى الجهني، عن ابنة عبد الله بن عُكَيْم، قالت: تحدثا يوماً، فسمعت أبي يقول لعبد الرحمن: أما إن صاحبك لو صَبَرَ لأتاه الناس.

وكان سهم بن طريف عُثْمَانِيًّا، وكان علي بن ربيعة عَلَوِيًّا، فضرب أمير الكوفة على الناس

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: الجاسوس (٣٠٠٧)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أهل بدر (٢٤٩٤).

بعثاً، وضرب على سهم بن طريف معهم، فقال سهم لعلي بن ربيعة: اذهب إلى الأمير فكلّمه في أمري ليُغفِرَني، فأتى علي بن ربيعة الأمير، فقال: أصلحك الله! إن سهماً أعمى فأغفِه، قال: قد أعفِيتُه، فلما التقيا قال: قد أخبرت الأمير أنك أعمى، وإنما عنيت عمى القلب.

وكان قيس بن أبي حازم يُبغِض علياً عليه السلام، روى وكيع، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، قال: أتيت علياً عليه السلام ليكلم لي عثمان في حاجة، فأبى فأبغضته.

قلت: وشيوخنا المتكلمون - رحمهم الله - يُسقطون روايته عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إنكم لتروُنَ ربكم كما تروُنَ القمر ليلة البدر»^(١)، ويقولون: إنه كان يُبغِض علياً عليه السلام، فكان فاسقاً، ونقلوا عنه أنه قال: سمعت علياً عليه السلام يخطب على المنبر، ويقول: «انفروا إلى بقية الأحزاب»، فدخل بغضه في قلبي.

وكان سعيد بن المسيّب منحرفاً عنه عليه السلام، وجبّه عمر بن علي عليه السلام في وجهه بكلام شديد.

روى عبد الرحمن بن الأسود، عن أبي داود الهمداني، قال: شهدت سعيد بن المسيّب - وأقبل عمر بن علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال له سعيد: يا بن أخي، ما أراك تكثر غشيان مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما يفعل إخوانك وبنو أعمامك! فقال عمر: يا بن المسيّب، أكلما دخلت المسجد أجيء فأشهدك! فقال سعيد: ما أحب أن تغضب، سمعت أباك يقول: إن لي من الله مقاماً لهو خيرٌ لبني عبد المطلب ممّا على الأرض من شيء. فقال عمر: وأنا سمعت أبي يقول: ما كلمة حكمة في قلب منافق فيخرج من الدنيا، حتى يتكلم بها، فقال سعيد: يا بن أخي، جعلتني منافقاً! قال: هو ما أقول لك. ثم انصرف.

وكان الزهريّ من المنحرفين عنه عليه السلام.

وروى جرير بن عبد الحميد، عن محمد بن شيبه، قال: شهدت مسجد المدينة، فإذا الزهريّ وعُروة بن الزبير جالسان يذكران علياً عليه السلام، فنالا منه، فبلغ ذلك علي بن

(١) أخرجه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب: فضل صلاة الفجر (٥٧٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١٨١).

الحسين عليه السلام فجاء حتى وقف عليهما، فقال: أما أنت يا عروة، فإن أبي حاكم أباك إلى الله، فحكم لأبي علي إليك، وأما أنت يا زهري، فلو كنت بمكة لأريتك كبراً إليك.

وقد روي من طرق كثيرة، أن عروة بن الزبير كان يقول: لم يكن أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله عليه يزهر إلا علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد.

وروي عاصم بن أبي عامر البجلي، عن يحيى بن عروة، قال: كان أبي إذا ذكر علياً نال منه.

وقال لي مرة: يا بني، والله ما أحجم الناس عنه إلا طلباً للدنيا، لقد بعث إليه أسامة بن زيد أن ابعث إلي بعتائي، فوالله إنك لتعلم أنك لو كنت في قم أسد لدخلت معك. فكتب إلي: إن هذا المال لمن جاهد عليه، ولكن لي مالا بالمدينة فأصبت منه ما شئت.

قال يحيى: فكنت أعجب من وصفه إياه بما وصفه به، ومن عيبه له وانحرافه عنه.

وكان زيد بن ثابت عثمانياً شديداً في ذلك الوقت، وكان عمرو بن ثابت عثمانياً، من أعداء علي عليه السلام ومبغضيه، وعمرو بن ثابت هو الذي روى عن أبي أيوب الأنصاري حديث: «سنة أيام من شوال».

روي عن عمرو أنه كان يركب ويدور القرى بالشام ويجمع أهلها، ويقول: أيها الناس، إن علياً كان رجلاً منافقاً، أراد أن ينخس برسول الله صلى الله عليه وآله ليلة العقبة، فآلعه، فبلغه أهل تلك القرية، ثم يسير إلى القرية الأخرى، فيأمرهم بمثل ذلك، وكان في أيام معاوية.

وكان مكحولاً من المبغضين له عليه السلام، روى زهير بن معاوية عن الحسن بن الحر، قال: لقيت مكحولاً، فإذا هو مطبوع - يعني مملوءاً - بغضاً لعلي عليه السلام - فلم أزل به حتى لان وسكن.

وروي المحدثون عن حماد بن زيد، أنه قال: أرى أن أصحاب علي أشد حباً له من أصحاب العجل لعجلهم. وهذا كلام شنيع.

وروي عن شبابة بن سوار أنه ذكر عنده ولد علي عليه السلام، وطلبهم الخلافة فقال: والله لا يصلون إليها أبداً، والله ما استقامت لعلي، ولا فرح بها يوماً، فكيف تصير إلى ولده هيهات هيهات! لا والله لا يذوق طعم الخلافة من رضي بقتل عثمان.

وقال شيخنا أبو جعفر الإسكافي: كان أهل البصرة كلهم يُبغضونه، وكثير من أهل الكوفة وكثير من أهل المدينة، وأما أهل مكة فكلهم كانوا يُبغضونه قاطبةً، وكانت قريش كلها على خلافه، وكان جمهور الخلق مع بني أمية عليه.

وروى عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، قال: سمعت علياً عليه السلام، وهو يقول: ما لقي أحد من الناس ما لقيت ا ثم بكى عليه السلام.

وروى الشعبي، عن شريح بن هانئ، قال: قال علي عليه السلام: اللهم إني أستعديك على قريش، فإنهم قطعوا رجلي، وأصغوا إنائي، وصغفروا عظيم منزلتي، وأجمعوا على منازعتي^(١).

وروى جابر عن أبي الطفيل، قال: سمعت علياً عليه السلام، يقول: اللهم إني أستعديك على قريش، فإنهم قطعوا رجلي، وغصبوني حقي، وأجمعوا على منازعتي أمراً كنت أولى به ثم قالوا: إن من الحق أن نأخذه، ومن الحق أن نتركه.

وروى المسيب بن نجيبة الفزاري، قال: قال علي عليه السلام: من وجدتموه من بني أمية في ماء فغفلوا على صماخه، حتى يدخل الماء في فيه^(٢).

وروى عمرو بن دينار، عن ابن أبي مليكة، عن المسور بن مخرمة، قال: لقي عبد الرحمن بن عوف عمر بن الخطاب، فقال: ألم تكن نقراً من جملة القرآن: قاتلوهم في آخر الأمر كما قاتلتموه في أوله؟ قال: بلى، ولكن ذاك إذا كان الأمراء بني أمية والوزراء بني مخزوم!

وروى أبو عمر النهدي، قال: سمعت علي بن الحسين يقول: ما بمكة والمدينة عشرون رجلاً يحبنا.

وروى سفيان الثوري، عن عمرو بن مرة، عن أبي البخترى، قال: أثنى رجل على علي بن أبي طالب في وجهه - وكان يُبغضه - فقال علي: أنا دون ما تقول، وفوق ما في نفسك^(٣).

وروى أبو غسان النهدي، قال: دخل قوم من الشيعة على علي عليه السلام في الرحبة، وهو على حصير خلق، فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: حبك يا أمير المؤمنين، قال: أما إنه من أحبني رأيي حيث يحب أن يراني، ومن أبغضني رأيي حيث يكره أن يراني، ثم قال: ما عبد الله أحد قبلي

(١) انظر الإمامة السياسة لابن قتيبة: ١٧٦/١.

(٢) انظر الغارات للثقي: ٥٧١/٢.

(٣) أخرجه المجلسي في البحار: ٣٢٧/١.

إلا نبيه عليه السلام. ولقد هَجَم أبو طالب علينا وأنا وهو ساجدان، فقال: أو فعلتموها! ثم قال لي وأنا غلام: ونحك، انصر ابن عمك! ونحك لا تخذله، وجعل يحثني على مؤازرته ومكانفته، فقال له رسول الله ﷺ: «أفلا تصلي أنت معنا يا عم!» فقال: لا أفعل يا ابن أخي، لا تعلوني استي. ثم انصرف^(١).

وروى جعفر بن الأحمر، عن مسلم الأعور، عن حبة العُرني، قال: قال علي عليه السلام: مَنْ أَحَبَّنِي كَانَ مَعِي، أَمَا أَنْتَ لَوْ صُنِمَتِ الدَّهْرُ كُلُّهُ، وَقَمَتِ اللَّيْلُ كُلُّهَا، ثُمَّ قُتِلَتْ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ - أَوْ قَالَ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ - لَمَا بَعَثَكَ اللَّهُ إِلَّا مَعَ هَوَاكَ بِالْغَا مَا بَلَغَ، إِنَّ فِي جَنَّةٍ فِي جَنَّةٍ، وَإِنْ فِي نَارٍ فِي نَارٍ.

وروى جابر الجعفي، عن علي عليه السلام أنه قال: مَنْ أَحَبَّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ فَلَيْسَتْ عِدَّةٌ لِلْبَلَاءِ^(٢).
وروى أبو الأحوص، عن أبي حنّان عن علي عليه السلام: يَهْلِكُ فِي رَجُلَانِ، مُحِبٌّ غَالٍ، وَمُبْغِضٌ قَالٍ^(٣).

وروى حماد بن صالح عن أيوب، عن كهَمَس، أَنَّ عَلِيًّا عليه السلام قَالَ: يَهْلِكُ فِي ثَلَاثَةٍ: اللَّاعِنُ وَالْمُسْتَمْعُ الْمَقْرُ، وَحَامِلُ الْوِزْرِ، وَهُوَ الْمَلِكُ الْمَتَرَفُ، الَّذِي يُتَقَرَّبُ إِلَيْهِ بِلَعْنَتِي وَيُبْرَأُ عَنْهُ مِنْ دِينِي، وَيُنْتَقَصُ عَنْهُ حَسْبِي، وَإِنَّمَا حَسْبِي حَسَبُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَدِينِي دِينُهُ، وَيَنْجُو فِي ثَلَاثَةٍ: مَنْ أَحَبَّنِي، وَمَنْ أَحَبَّ مُحِبِّي، وَمَنْ هَادَى عَدُوِّي، فَمَنْ أَشْرَبَ قَلْبُهُ بِغَضِي أَوْ أَلْبَ عَلَى بَغْضِي، أَوْ انْتَقَصَنِي، فَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ وَخَصْمُهُ؟ وَاللَّهُ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ^(٤).

وروى محمد بن الصُّلْت، عن محمد بن الحنفية، قال: مَنْ أَحَبَّنَا نَفَعَهُ اللَّهُ بِحَبْنَا، وَلَوْ كَانَ أَسِيرًا بِالذُّيْلِ^(٥).

وروى أبو صادق، عن ربيعة بن ناجد، عن علي عليه السلام، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِيكَ لَشَبَهًا مِنْ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، أَحَبَّهُ النَّصَارَى حَتَّى أَنْزَلَتْهُ بِالْمَنْزِلَةِ الَّتِي لَيْسَتْ لَهُ، وَأَبْغَضَتْهُ الْيَهُودُ حَتَّى بَهَتْ أُمَّهُ»^(٦).

وَرَوَى صَاحِبُ كِتَابِ «الْفَارَاتِ» حَدِيثَ الْبَرَاءَةِ عَلَى غَيْرِ الْوَجْهِ الْمَذْكُورِ فِي كِتَابِ «نَهْجِ الْبَلَاغَةِ»، قَالَ: أَخْبَرَنَا يَوْسُفُ بْنُ كَلِيبٍ الْمَسْعُودِيُّ، عَنْ يَحْيَى بْنِ سَلِيمَانَ الْعَبْدِيِّ، عَنْ أَبِي

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده: ٢٦.

(٢) انظر الفارات للثقفى: ٥٨٨/٢. (٣) المصدر السابق.

(٤) أخرجه المجلسي في البحار: ٢٩٦٠/٣٩.

(٥) انظر الفارات: ٥٩٠/٢.

(٦) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة: ٤٧٠ رقم ١٠٠٣.

مريم الأنصاري، عن محمد بن علي الباقر عليه السلام، قال: خطب علي عليه السلام على منبر الكوفة، فقال: سيعرض عليكم سبّي، وستذبحون عليه، فإن عرض عليكم سبّي فسبوني، وإن عرض عليكم البراءة مني، فإني على دين محمد صلى الله عليه وآله؟ ولم يقل: «فلا تبرؤوا مني»^(١).

وقال أيضاً: حدثني أحمد بن مفضل، قال: حدثني الحسن بن صالح، عن جعفر بن محمد عليه السلام، قال: قال علي عليه السلام: والله لتذبحن علي سبّي - وأشار بيده إلى خلقه - ثم قال: فإن أمرؤكم بسبّي فسبوني، وإن أمرؤكم أن تبرؤوا فإني على دين محمد صلى الله عليه وآله. ولم ينههم عن إظهار البراءة^(٢).

وروى شيخنا أبو القاسم البلخي رحمه الله تعالى، عن سلمة بن كهيل، عن المسيب بن نجبة، قال: بينا علي عليه السلام يخطب إذ قام أعرابي، فصاح: وامظلمتاه! فاستدناه علي عليه السلام. فلما دنا قال له: إنما لك مظلمة واحدة، وأنا قد ظلمت عدد المدر والوبر وفي رواية عباد بن يعقوب، أنه دعاه فقال له: ويحك! وأنا والله مظلوم أيضاً، هات فلندع على من ظلمنا.

وروى سدير الصيرفي، عن أبي جعفر محمد بن علي، قال: اشتكى علي عليه السلام شكاة، فعاده أبو بكر وعمر، وخرجا من عنده، فأتيا النبي صلى الله عليه وآله، فسألهما: «من أين جئتما؟» قالا: «هنا عليا»، قال: «كيف رأيتماه؟» قال: رأيناه ويخاف عليه مما به، فقال: «كلا إنه لن يموت حتى يوسع غدراً وبغياً، وليكونن في هذه الأمة عبرة يعتبر به الناس من بعده»^(٣).

وروى عثمان بن سعيد، عن عبد الله بن الغنوي، أن علياً عليه السلام خطب بالرحبة، فقال: أيها الناس، إنكم قد أبيتم إلا أن أقولها! ورب السماء والأرض، إن من عهد النبي الأمي إلي: «إن الأمة ستفدر بك بعدي».

وروى هيثم بن بشير، عن إسماعيل بن سالم مثله، وقد روى أكثر أهل الحديث هذا الخبر بلفظ أو قريب منه.

وروى أبو جعفر الإسكافي أيضاً أن النبي صلى الله عليه وآله دخل على فاطمة عليها السلام، فوجد علياً نائماً، فذهبت تنبهه، فقال: «دعيه فرب سهر له بعدي طويل، ورب جفوة لأهل بيتي من أجله شديدة» فبكت، فقال: «لا تبكي فإنكما معي، وفي موقف الكرامة عندي»^(٤).

(١) أخرجه الثقيفي في الغارات: ٨٥/١.

(٢) أخرجه النووي في مستدرک الوسائل: ٢٧١/١٢.

(٣) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣١٨/٣١.

(٤) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٦٥/٢٨.

وروى الناس كافة أن رسول الله ﷺ قال له: «هذا وليي وأنا وليه عادت من عاداء، وسالمت من سالمه»^(١)، أو نحو هذا اللفظ.

وروى أيضاً محمد بن عبيد الله بن أبي رافع، عن زيد بن علي بن الحسين ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «عدوك عدوي وعدوي عدو الله عز وجل»^(٢).

وروى يونس بن حباب، عن أنس بن مالك، قال: كنا مع رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب معنا، فمرنا بحديقة، فقال علي: يا رسول الله، ألا ترى ما أحسن هذه الحديقة! فقال: «إن حديقتك في الجنة أحسن منها»، حتى مررنا بسبع حدائق، يقول علي ما قال، ويجيبه رسول الله ﷺ بما أجابه. ثم إن رسول الله ﷺ وقف فوقفنا، فوضع رأسه على رأس علي وبكى، قال علي: ما يبكيك يا رسول الله؟ قال: «ضغائن في صدور قوم لا يُبدونها لك حتى يفقدوني»، فقال: يا رسول الله، أفلا أضع سيفي على عاتقي فأبيد خضراءهم! قال: «بل تصبر»، قال: فإن صبرت! قال: «تلاقي جهداً»، قال: أفني سلامة من ديني؟ قال: «نعم»، قال: فإذا لا أبالي^(٣).

وروى جابر الجعفي، عن محمد بن علي ﷺ، قال: قال علي ﷺ: ما رأيت منذ بعث الله محمداً ﷺ رخاء، لقد أخافتني قريش صغيراً، وأنصبتني كبيراً، حتى قبض الله رسوله، فكانت الطامة الكبرى، والله المستعان على ما تصفون!

وروى صاحب كتاب «الغارات» عن الأعمش، عن أنس بن مالك، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: سيظهر على الناس رجل من أمتي، عظيم السرم^(٤)، واسع البلعوم، يأكل ولا يشبع، يحمل وزر الثقلين، يطلب الإمارة يوماً، فإذا أدركتموه فابقروا بطنه، قال: وكان في يد رسول الله ﷺ قضيب، قد وضع طرفه في بطن معاوية^(٥).

قلت: هذا الخبر مرفوع مناسب لما قاله علي ﷺ في «نهج البلاغة»، ومؤكد لاختيارنا أن المراد به معاوية، دون ما قاله كثير من الناس أنه زياد والمغيرة.

وروى جعفر بن سليمان الضبعي، عن أبي هارون العبدى، عن أبي سعيد الخدري قال: ذكر رسول الله ﷺ يوماً لعلي ما يلقي بعده من العنت فأطال، فقال له ﷺ: أنشدك الله

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (١٠٧/٥)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٢١٨٣).

(٢) أخرجه الشيخ النمازي في مستدرک سفينة البحار ٣٨٣/٧.

(٣) أخرجه الشيخ عبد الله الحسن في المناظرات في الإمامة: ٤٧.

(٤) السرم: الدبر. اللسان، مادة (سرم).

(٥) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٢١٧/٣٣.

وَالرَّحْمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَمَّا دَعَوْتَ اللَّهُ أَنْ يَقْبِضَنِي إِلَيْهِ قَبْلَكَ! قَالَ: كَيْفَ أَسْأَلُهُ فِي أَجَلٍ مُؤَجَّلٍ! قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَعَلَامَ أَقَاتِلُ مَنْ أَمَرْتَنِي بِقِتَالِهِ؟ قَالَ: «عَلَى الْحَدِّثِ فِي الدِّينِ»^(١).

وَرَوَى الْأَعْمَشُ، عَنْ عِمَارِ الدُّهَمِيِّ، عَنْ أَبِي صَالِحِ الْحَنْفِيِّ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: قَالَ لَنَا يَوْمًا: لَقَدْ رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَنَامِ، فَشَكُوتُ إِلَيْهِ مَا لَقِيتُ حَتَّى بَكَيْتُ، فَقَالَ لِي: «انْظُرْ»، فَنَظَرْتُ فَإِذَا جَلَامِيدٌ، وَإِذَا رَجُلَانِ مُصْقَدَانِ - قَالَ الْأَعْمَشُ: هُمَا مُعَاوِيَةُ وَعُمَرُو بْنُ الْعَاصِ - قَالَ: فَجَعَلْتُ أَرْضِخُ رُؤُوسَهُمَا ثُمَّ تَعُودُ، ثُمَّ أَرْضِخُ ثُمَّ تَعُودُ، حَتَّى انْتَبَهْتُ.

وَرَوَى نَحْوُ هَذَا الْحَدِيثِ عُمَرُو بْنُ مُرَّةٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَمَةَ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَشَكُوتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: هَذِهِ جَهَنَّمُ فَاَنْظُرْ مَنْ فِيهَا، فَإِذَا مُعَاوِيَةُ وَعُمَرُو بْنُ الْعَاصِ مُعَلَّقَيْنِ بِأَرْجُلِهِمَا مِنْكَسِينَ، تُرْضِخُ رُؤُوسَهُمَا بِالْحِجَارَةِ - أَوْ قَالَ: تُشَدِّخُ.

وَرَوَى قَيْسُ بْنُ الرَّبِيعِ، عَنْ يَحْيَى بْنِ هَانِيٍّ الْمُرَادِيِّ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ قَوْمِهِ يُقَالُ لَهُ زِيَادُ بْنُ فُلَانٍ، قَالَ: كُنَّا فِي بَيْتٍ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَحْنُ شِيعَتُهُ وَخَوَاصُّهُ، فَالْتَفَتَ فَلَمْ يَنْكُرْ مِنَّا أَحَدًا، فَقَالَ: إِنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ سَيُظْهِرُونَ عَلَيْكُمْ فَيَقْطَعُونَ أَيْدِيَكُمْ وَيَسْمُلُونَ أَعْيُنَكُمْ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَّا: وَأَنْتَ حَيٌّ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: أَهَازُنِي اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ، فَالْتَفَتَ فَإِذَا وَاحِدٌ يَبْكِي، فَقَالَ لَهُ: يَا بَنَ الْحَمِقَاءِ، أَتُرِيدُ اللَّذَاتِ فِي الدُّنْيَا وَالدرجات فِي الْآخِرَةِ! إِنَّمَا وَعَدَ اللَّهُ الصَّابِرِينَ.

وَرَوَى زُرَّارَةُ بْنُ أَعْيَنٍ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: كَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا صَلَّى الْفَجْرَ لَمْ يَزَلْ مُعَقِّبًا إِلَى أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ، فَإِذَا طَلَعَتْ اجْتَمَعَ إِلَيْهِ الْفُقَرَاءُ وَالْمَسَاكِينُ وَغَيْرُهُمْ مِنَ النَّاسِ، فَيُعَلِّمُهُمُ الْفَقْهَ وَالْقُرْآنَ، وَكَانَ لَهُ وَقْتُ يَقُومُ فِيهِ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ، فَيَقَامُ يَوْمًا فَمَرَّ بِرَجُلٍ، فَرَمَاهُ بِكَلِمَةٍ هُجْرٍ - قَالَ: لَمْ يَسْمَعْ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَرَجَعَ عَوْدَهُ عَلَى بَدَنِهِ حَتَّى صَعِدَ الْمَنْبِرَ، وَأَمَرَ فَنُودِيَ: الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ! فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَصَلَّى عَلَى نَبِيِّهِ ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ وَلَا أَعَمَّ نَفْعًا مِنْ جِلْمِ إِمَامٍ وَفَقْهِهِ، وَلَا شَيْءٌ أَبْغَضَ إِلَى اللَّهِ وَلَا أَعَمَّ ضَرَرًا مِنْ جَهْلِ إِمَامٍ وَخُرْقَةٍ، أَلَا وَإِنَّهُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَاعْظَمَ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، أَلَا وَإِنَّهُ مَنْ أَنْصَفَ مِنْ نَفْسِهِ لَمْ يَزِدْهُ اللَّهُ إِلَّا عِزًّا أَلَا وَإِنَّ الذَّلَّ فِي طَاعَةِ اللَّهِ أَقْرَبُ إِلَى اللَّهِ مِنَ التَّعَزُّرِ فِي مَعْصِيَتِهِ. ثُمَّ قَالَ: أَيُّنَ الْمُتَكَلِّمِ آتِفًا؟ فَلَمْ يَسْتَطِعِ الْإِنْكَارَ، فَقَالَ: هَازِنًا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ: أَمَا إِنِّي لَوْ أَشَاءُ لَقُلْتُ، فَقَالَ: إِنْ تَعَفَّ وَتَصَفَّحَ، فَأَنْتَ أَهْلُ ذَلِكَ، قَالَ: قَدْ عَفُوتُ وَصَفَّحْتُ، فَقِيلَ لِمُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَا أَرَادَ أَنْ يَقُولَ؟ قَالَ: أَرَادَ أَنْ يَنْسِبَهُ.

وَرَوَى زُرَّارَةُ أَيْضًا، قَالَ: قِيلَ لَجَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنْ قَوْمًا هَازِنًا هَازِنًا يَنْتَقِصُونَ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: بِمَ يَنْتَقِصُونَهُ لَا أَبَالَهُمْ! وَهَلْ فِيهِ مَوْضِعٌ نَقِصَةٌ! وَاللَّهِ مَا عَرَضَ لِعَلِيٍّ أَمْرَانِ قَطُّ

(١) أَخْرَجَهُ الْعَلَامَةُ الْمَجْلِسِيُّ فِي الْبَحَارِ: ٧٩/٢٨.

كلاهما لله طاعة إلا عَمِلَ بأشدهما وأشقهما عليه، ولقد كان يعمل العمل كأنه قائم بين الجنة والنار، ينظر إلى ثواب هؤلاء فيعمل له، وينظر إلى عقاب هؤلاء فيعمل له، وإن كان ليقوم إلى الصلاة، فإذا قال: وجَّهت وجهيَ تغيّر لونه، حتى يعرف ذلك في وجهه، ولقد أعتق ألف عبد من كد يده، كلّ منهم يعرق فيه جبينه، وتحفى فيه كفّه، ولقد بُشِّرَ بعين نبعت في ماله مثل مثل عنق الجزور، فقال: بَشِّر الوارث بِشَرٍّ، ثم جعلها صدقة على الفقراء والمساكين وابن السبيل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ليصرف الله النار عن وجهه، ويصرف وجهه عن النار^(١).

وروى القنّاد، عن أبي مريم الأنصاري، عن عليّ عليه السلام: لا يحبني كافر ولا ولد زنى.
وروى جعفر بن زياد، عن أبي هارون العبديّ، عن أبي سعيد الخدريّ، قال: كنا بنور إيماننا نحبّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فمن أحبّه عرفنا أنه منا^(٢).

سب عليّ عليه السلام عند الإكراه زكاة له

المسألة الثالثة: في معنى قوله عليه السلام: «فسبوني»، فإنه لي زكاة، ولكم نجاة» فنقول: إنه أباح لهم سبّه عند الإكراه، لأن الله تعالى قد أباح عند الإكراه التلفظ بكلمة الكفر فقال: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْهِرَ وَآلِهَتْهُ مُظْمِنٌ﴾^(٣)، والتلفظ بكلمة الكفر أعظم من التلفظ بسبّ الإمام.

فأما قوله: «فإنه لي زكاة ولكم نجاة»، فمعناه أنكم تنجون من القتل إذا أظهرتم ذلك، ومعنى الزكاة يحتمل أمرين: أحدهما: ما ورد في الأخبار النبوية أن سبّ المؤمن زكاة له وزيادة في حسناته.

والثاني: أن يريد به أن سبّهم لي لا ينقص في الدنيا من قدري، بل أزيد به شرفاً وعُلوّ قدر، وشياع ذكر، وهكذا كان، فإن الله تعالى جعل الأسباب التي حاول أعداؤه بها الغض منه عللاً لانتشار صيته في مشارق الأرض ومغاربها.

وقد لمح هذا المعنى أبو نصر بن نباتة، فقال للشريف الجليل محمد بن عمر العلويّ:
وأبوك الوصيّ أوّل من شا دَمَنار الهدى وصامَ وصَلَّى
نشرت حبله قريش فأعطته إلى صُبْحَةِ القيامة فتلا
واحتذيت أنا حذوه، فقلت لأبي المظفر هبة الله بن موسى الموسويّ رحمه الله تعالى: في قصيدة أذكر فيها أباه:

(١) أخرجه المجلسي في البحار: ١١٤/٤٠.

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق: ٣٣/٤٢، والمجلسي في البحار: ٢٩٦/٣٩.

(٣) سورة النحل، الآية: ١٠٦.

أَمَّكَ الدرة التي أنجبت من
وأبوك الإمام موسى كظيم
وأبوه تاج الهدى جعفر الصا
وأبوه محمد باقر المعلم
وأبوه السجادة أتقى عباد ال
والحسين الذي تخير أن يفضي
وأبوه الوصي أول من طأ
طأ منث مجده قريش فأعطته
أخملت صيته قطار إلى أن
وأبو طالب كفيل أبي الق
ولشيخ البطحاء تاج معد
وأبو عمر الغلا هاشم الجور
وأبوه الهمام عبد مناف
ثم زيد - أعني قصي الذي لم
نسب إن تلقى المحض
وإذا أظلمت مناسخة الآن
يسال له مجدة على قدم
وذكرنا ها هنا ما قبل المعنى وما بعده، لأن الشعر حديث، والحديث - كما قيل - يأخذ
بعضه برقاب بعض، ولأن ما قبل المعنى وما بعده مكمل له، وموضح مقصده.
فإن قلت: أي مناسبة بين لفظ «الزكاة» وانتشار الصيت والسمع؟
قلت: لأن الزكاة هي النماء والزيادة، ومنه سميت الصدقة المخصوصة زكاة لأنها تنمي
المال المزكي، وانتشار الصيت نماء وزيادة.

معنى السب والبراءة

المسألة الرابعة: أن يقال: كيف قال عليه السلام: «فأما السب فُسبوني فإنه لي زكاة ولكم نجاة،
وأما البراءة فلا تبرؤوا مني»؟ وأي فرق بين السب والبراءة؟ وكيف أجاز لهم السب ومنعهم عن
التبرؤ، والسب أفحش من التبرؤ.
والجواب، أما الذي يقوله أصحابنا في ذلك فإنه لا فرق عندهم بين سبه والتبرؤ منه، في

أنهما حرام وفسق وكيرة، وأن المكره عليهما يجوز له فعلهما عند خوفه على نفسه، كما يجوز له إظهار كلمة الكفر عند الخوف.

ويجوز ألا يفعلهما وإن قتل، إذا قصد بذلك إعزاز الدين، كما يجوز له أن يسلم نفسه للقتل ولا يظهر كلمة الكفر إعزازاً للدين، وإنما استفحش عليه السلام البراءة لأن هذه اللفظة ما وردت في القرآن العزيز إلا عن المشركين، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١)، وقال تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ (٢)، فقد صارت بحسب العرف الشرعي مطلقة على المشركين خاصة، فإذا نُحْمِلَ هذا النهي على ترجيح تحريم لفظ البراءة على لفظ السب، وإن كان حكمهما واحداً، ألا ترى أن إلقاء المصحف في القدر أفحش من إلقاء المصحف في دَنِّ الشراب، وإن كان جميعاً محرّمين، وكان حكمهما واحداً!

فأما الإمامية فتروي عنه عليه السلام أنه قال: إذا عُرِضْتُمْ على البراءة منا فمدّوا الأعناق. ويقولون: إنه لا يجوز التبرؤ منه، وإن كان الحالف صادقاً، وإن عليه الكفارة.

ويقولون إن حكم البراءة من الله تعالى ومن الرسول ومنه عليه السلام، ومن أحد الأئمة عليهم السلام، حكم واحد.

ويقولون: إن الإكراه على السب يُبيح إظهاره، ولا يجوز الاستسلام للقتل معه، وأما الإكراه على البراءة، فإنه يجوز معه الاستسلام للقتل ويجوز أن يظهر التبرؤ، والأولى أن يستسلم للقتل.

علي عليه السلام يقول: إني ولدت على الفطرة

المسألة الخامسة: أن يقال كيف علّل نهيهم على البراءة منه عليه السلام، بقوله: «إني ولدت على الفطرة»، فإن هذا التعليل لا يختص به عليه السلام، لأن كل أحد يولد على الفطرة، قال النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، وإنما أبواه يهودانه وينصرانه» (٣).

والجواب، أنه عليه السلام علّل نهيهم عن البراءة منه بمجموع أمور وعمل، وهي كونه ولد على الفطرة، وكونه سبق إلى الإيمان والهجرة، ولم يعمل بأحد هذا المجموع، ومراده هنا بالولادة على الفطرة أنه لم يولد في الجاهلية، لأنه ولد عليه السلام لثلاثين عاماً مضت من عام الفيل، والنبي ﷺ أُرْسِلَ لأربعين سنة مضت من عام الفيل، وقد جاء في الأخبار الصحيحة

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣.

(١) سورة التوبة، الآية: ١.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب: الجنائز، باب: ما قيل في أولاد المشركين (١٣٨٥)، ومسلم، كتاب:

القدر، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة (٢٦٥٨).

أنه ﷺ مكث قبل الرسالة سنين عشرين يسمع الصوت ويرى الضوء، ولا يخاطبه أحد، وكان ذلك إرهاباً لرسالته ﷺ فحكم تلك السنين العشر حكم أيام رسالته ﷺ : فالمولود فيها إذا كان في حجره وهو المتولي لتربيته مولود في أيام كأيام النبوة، وليس بمولود في جاهلية محضة، ففارقت حاله حال من يدعى له من الصحابة مماثلته في الفضل. وقد روى أن السنة التي ولد فيها عليّ ﷺ هي السنة التي بدى فيها برسالة رسول الله ﷺ، فأسمع الهتاف من الأحجار والأشجار، وكشف عن بصره، فشاهد أنواراً وأشخاصاً، ولم يخاطب فيها بشيء. وهذه السنة هي السنة التي ابتدأ بها بالتبثّل والانقطاع والعزلة في جبل حراء، فلم يزل به حتى كُوِّشِف بالرسالة، وأنزل عليه الوحي، وكان رسول الله ﷺ يتيمّن بتلك السنة ويولادة عليّ ﷺ فيها، ويسمّيها سنة الخير وسنة البركة، وقال لأهله ليلة ولادته، وفيها شاهد ما شاهد من الكرامات والقدرة الإلهية، ولم يكن من قبلها شاهد من ذلك شيئاً: «لقد وُلِدَ لَنَا اللَّيْلَةُ مَوْلُودٌ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيْنَا بِهِ أَبْوَاباً كَثِيرَةً مِنَ النِّعَةِ وَالرَّحْمَةِ»، وكان كما قال صلوات الله عليه، فإنه ﷺ كان ناصرهم والمحامي عنهم وكاشف الغمّاء عن وجّهه، ويسيفه ثبّت دين الإسلام، ورست دعائمه، وتمهّدت قواعده ﷺ.

وفي المسألة تفسير آخر، وهو أن يعني بقوله ﷺ : «فإني ولدتُ على الفطرة»، أي على الفطرة التي لم تتغيّر ولم تحلّ، وذلك أن معنى قول النبي ﷺ : «كلّ مولود يولد على الفطرة» أن كلّ مولود فإنّ الله تعالى قد هيّأه بالعقل الذي خلقه فيه ويصنّعه الحواس والمشاعر لأن يعلم التوحيد والعذل، ولم يجعل فيه مانعاً يمنعه من ذلك، ولكن التربية والعقيدة في الوالدين والإلف لا اعتقادهما وحسن الظنّ فيهما يصدّه عما فطر عليه، وأمير المؤمنين ﷺ دون غيره، وُلِدَ على الفطرة التي لم تحلّ ولم يصدّه عن مقتضاها مانع، لا من جانب الأبوين ولا من جهة غيرهما، وغيره ولد على الفطرة، ولكنه حال عن مقتضاها، وزال عن موجبها.

ويمكن أن يفسر بأنه ﷺ أراد بالفطرة العِصْمَةُ، وأنه منذ ولد لم يواقع قبيحاً، ولا كان كافراً طرفة عين قط، ولا مخطئاً ولا غالطاً في شيء من الأشياء المتعلقة بالدين. وهذا تفسير الإمامية.

المحققون من أهل السيرة: عليّ ﷺ أول من أسلم

المسألة السادسة: أن يقال: كيف قال: «وسبقتُ إلى الإيمان»، وقد قال قوم من الناس: إن أبا بكر سبّقه، وقال قوم: إن زيد بن حارثة سبّقه؟

والجواب، أن أكثر أهل الحديث وأكثر المحقّقين من أهل السيرة روّوا أنه ﷺ أول من أسلم، ونحن نذكر كلام أبي عمر يوسف بن عبد البرّ، المحدث في كتابه المعروف «بالاستيعاب».

قال أبو عمر في ترجمة علي عليه السلام: المروي عن سلمان وأبي ذر والمقداد وخباب وأبي سعيد الخدري وزيد بن أسلم أن علياً عليه السلام أول من أسلم، وفضله هؤلاء على غيره.

قال أبو عمر: وقال ابن إسحاق: أول من آمن بالله وبمحمد رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو قول ابن شهاب، إلا أنه قال: «من الرجال بعد خديجة».

قال أبو عمر: وحدثنا أحمد بن محمد، قال: حدثنا أحمد بن الفضل، قال: حدثنا محمد بن جرير، قال: حدثنا علي بن عبد الله الدهقان، قال: حدثنا محمد بن صالح، عن سماك بن حرب، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: لعلي عليه السلام أربع خصال، ليست لأحد غيره: هو أول عربي وعجمي صلى مع رسول الله ﷺ، وهو الذي كان معه لواؤه كل زحف، وهو الذي صبر معه يوم قرعته غيره، وهو الذي غسله وأدخله قبره.

قال أبو عمر: وروى عن سلمان الفارسي أنه قال: أول هذه الأمة وروداً على نبيها ﷺ الحوض، أولها إسلاماً: علي بن أبي طالب. وقد روي هذا الحديث مرفوعاً عن سلمان عن النبي ﷺ، أنه قال: «أول هذه الأمة وروداً علي الحوض أولها إسلاماً: علي بن أبي طالب».

قال أبو عمر: ورفعه أولى، لأن مثله لا يُذكر بال رأي.

قال أبو عمر: فأما إسناد المرفوع، فإن أحمد بن قاسم، قال: حدثنا قاسم بن أصبغ قال: حدثنا بن الحارث بن أبي أسامة، قال: حدثني يحيى بن هاشم، قال: حدثنا سفيان الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن أبي صادق، عن حنش بن المعتمر، عن عليم الكندي، عن سلمان الفارسي، قال: قال رسول الله ﷺ: «أولكم وارداً علي الحوض أولكم إسلاماً، علي بن أبي طالب»^(١).

قال أبو عمر: وروى أبو داود الطيالسي، قال: حدثنا أبو عوانة، عن أبي بلج، عن عمرو بن ميمون، عن ابن عباس أنه قال: أول من صلى مع النبي ﷺ بعد خديجة علي بن أبي طالب^(٢).

قال أبو عمرو: وحدثنا عبد الوارث بن سفيان، قال: حدثنا قاسم بن أصبغ، قال: حدثنا أحمد بن زهير بن حرب، قال: حدثنا الحسن بن حماد، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بلج عن عمرو بن ميمون، عن ابن عباس، قال: كان علي أول من آمن من الناس بعد خديجة.

قال أبو عمر: هذا الإسناد لا مطعن فيه لأحد، لصحته وثقة نقله، وقد عارض ما ذكرنا في

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٢٣٩/٣٨.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٦١٧٤).

باب أبي بكر الصديق، عن ابن عباس: والصحيح في أمر أبي بكر أنه أول من أظهر إسلامه، كذلك قاله مجاهد وغيره، قالوا: ومنعه قومه.

قال أبو عمر: اتفق ابن شهاب، وعلي بن محمد بن عقیل، وقتادة، وابن إسحاق على أن أول من أسلم من الرجال علي، واتفقوا على أن خديجة أول من آمن بالله ورسوله وصدقه فيما جاء به، ثم علي بعدها.

وروي عن أبي رافع مثل ذلك.

قال أبو عمر: وحدثنا عبد الوارث، قال: حدثنا قاسم، قال: حدثنا أحمد بن زهير، قال: حدثنا عبد السلام بن صالح، قال: حدثنا عبد العزيز بن محمد الدراودي، قال: حدثنا عمر مولى حفرة، قال: سئل محمد بن كعب القرظي عن أول من أسلم: علي أم أبي بكر؟ فقال: سبحان الله! علي أولهما إسلاماً، وإنما شُبّه علي الناس، لأن علياً أخفى إسلامه من أبي طالب، وأسلم أبو بكر، فأظهر إسلامه.

قال أبو عمر: ولا شك عندنا أن علياً أولهما إسلاماً، ذكر عبد الرزاق في جامعه، عن مَعمر، عن قتادة، عن الحسن وغيره قالوا: أول من أسلم بعد خديجة علي بن أبي طالب عليه السلام.

وروي معمر، عن عثمان الجزري، عن مِقْسَم، عن ابن عباس، قال: أول من أسلم علي بن أبي طالب.

قال أبو عمر: وروي ابن فضيل عن الأجلح، عن حبة بن جوين العرنبي، قال: سمعت علياً عليه السلام يقول: لقد عبت الله قبل أن يعبد أحد من هذه الأمة خمس سنين.

قال أبو عمر: وروي شعبة، عن سلمة بن كهيل، عن حبة العرنبي، قال: سمعت علياً يقول: أنا أول من صلى مع رسول الله ﷺ.

قال أبو عمر: وقد روى سلم بن أبي الجعد، قال: قلت لابن الحنفية: أبو بكر كان أولهما إسلاماً؟ قال: لا.

قال أبو عمر: وروي سالم الملائتي، عن أنس بن مالك، قال: استنبي النبي ﷺ يوم الإثنين، وصلى علي يوم الثلاثاء.

قال أبو عمر: وقال زيد بن أرقم: أول من آمن بالله بعد رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب.

قال: وقد روى حديث زيد بن أرقم من وجوه، ذكرها النسائي وأسلم بن موسى وغيرهما، منها ما حدثنا به عبد الوارث، قال: حدثنا قاسم، قال: حدثنا أحمد بن زهير، قال: حدثنا علي بن الجعد، قال: حدثنا شعبة، قال: أخبرني عمرو بن مرة، قال: سمعت أبا حمزة

الأنصاري قال: سمعت زيد بن أرقم يقول: أول من صلى مع رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب.

قال أبو عمر: وحدثنا عبد الوارث، حدثنا قاسم، حدثنا أحمد بن زهير بن حرب، حدثنا أبي، قال: حدثنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد، قال: حدثنا ابن إسحاق قال: حدثنا يحيى بن أبي الأشعث، عن إسماعيل بن إلياس بن عفيف الكندي، عن أبيه، عن جده، قال: كنت امرأ تاجراً، فقدمت الحج، فأتيت العباس بن عبد المطلب لأبتاع منه بعض التجارة - وكان امرأ تاجراً - فوالله إني لعنده بمنى. إذ خرج رجل من خباء قريب منه، فنظر إلى الشمس، فلما رآها قد مالت قام يصلي، ثم خرجت امرأة من ذلك الخباء الذي خرج منه ذلك الرجل، فقامت خلفه تصلي، ثم خرج غلام حين رآه الحق الحلم من ذلك الخباء، فقام معه يصلي، فقلت للعباس: ما هذا يا عباس؟ قال: هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، ابن أخي، قلت: من هذه المرأة؟ قال: امرأته خديجة بنت خويلد، قلت: ما هذا الفتى؟ قال: علي بن أبي طالب ابن عمه، قلت: ما هذا الذي يصنع؟ قال: يصلي، وهو يزعم أنه نبي، ولم يتبعه على أمره إلا امرأته وابن عمه هذا الغلام، وهو يزعم أنه سيفتح على أمته كنوز كسرى وقيصر، قال: فكان عفيف الكندي يقول - وقد أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه: لو كان الله رزقني الإسلام يومئذ كنت أكون ثانياً مع علي.

قال أبو عمر: وقد ذكرنا هذا الحديث من طرق في باب عفيف الكندي من هذا الكتاب.

قال أبو عمر: ولقد قال علي عليه السلام: صليت مع رسول الله ﷺ كذا وكذا، لا يصلي مع غيري إلا خديجة.

فهذه الروايات والأخبار كلها، ذكرها أبو عمر يوسف بن عبد البر في الكتاب المذكور وهي كما تراها تكاد تكون إجماعاً.

قال أبو عمر: وإنما الاختلاف في كمية سنة ﷺ يوم أسلم، ذكر الحسن بن علي الحلواني في كتاب «المعرفة» له، قال، حدثنا عبد الله بن صالح، قال: حدثنا الليث بن سعد، عن أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن، أنه بلغه أن علياً والزبير أسلما وهما ابنا ثمانين سنين. كذا يقول أبو الأسود يقيم عروة، وذكره أيضاً ابن أبي خيثمة عن قتيبة بن سعيد، عن الليث بن سعد، عن أبي الأسود، وذكره عمر بن شبة، عن الحزامي، عن أبي وهب، عن الليث، عن أبي الأسود، قال الليث: وهاجرا وهما ابنا ثمان عشرة سنة.

قال أبو عمر: ولا أعلم أحداً قال بقول أبي الأسود هذا.

قال أبو عمر: وروى الحسن بن علي الحلواني، قال: حدثنا عبد الرزاق، قال: حدثنا معمر، عن قتادة، عن الحسن، قال: أسلم علي وهو ابن خمس عشرة سنة.

قال أبو عمر: وأخبرنا أبو القاسم خلف بن قاسم بن سهل، قال: حدثنا أبو الحسن علي بن محمد بن إسماعيل الطوسي، قال: أخبرنا أبو العباس محمد بن إسحاق بن إبراهيم السراج، قال: حدثنا محمد بن مسعود، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر، عن قتادة، عن الحسن، قال: أسلم علي - وهو أول من أسلم - وهو ابن خمس عشرة سنة، أو ست عشرة سنة.

قال أبو عمر: قال ابن وضاح: وما رأيت أحداً قط أعلم بالحديث من محمد بن مسعود، ولا بالرأي من سحنون.

قال أبو عمر: قال ابن إسحاق: أول ذكر آمن بالله ورسوله علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو يومئذ ابن عشر سنين.

قال أبو عمر: والروايات في مبلغ سنه عليه السلام مختلفة، قيل: أسلم وهو ابن ثلاث عشرة سنة. وقيل: ابن اثني عشرة سنة. وقيل، ابن خمس عشرة سنة. وقيل: ابن ست عشرة، وقيل: ابن عشر. وقيل: ابن ثمان.

قال أبو عمر: وذكر عمر بن شبة، عن المدائني، عن ابن جعدة، عن نافع، عن ابن عمر قال: أسلم علي وهو ابن ثلاث عشرة سنة.

قال: وأخبرنا إبراهيم بن المنذر الحرامي، قال: حدثنا محمد بن طلحة، قال: حدثني جدي إسحاق بن يحيى، عن طلحة، قال: كان علي بن أبي طالب عليه السلام والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص أعماراً واحدة.

قال: وأخبرنا عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن، قال: حدثنا إسماعيل بن علي الخطيبي، قال: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال: حدثني أبي، قال: حدثنا حُجَيْنُ أبو عمر، قال: حدثنا حَبَّان، عن معروف، عن أبي معشر، قال: كان علي عليه السلام وطلحة والزبير في سن واحدة.

قال: وروى عبد الرزاق، عن الحسن وغيره: أن أول من أسلم بعد خديجة علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو ابن خمس عشرة سنة، أو ست عشرة.

قال أبو عمر: وروى أبو زيد عمر بن شبة، قال: حدثنا شريح بن النعمان، قال: حدثنا الفُرات بن السائب، عن ميمون بن مهران، عن ابن عمر، قال: أسلم علي وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة.

قال أبو عمر: هذا أصح ما قيل في ذلك والله أعلم.

انتهى حكاية كلام أبي عمر في كتاب «الاستيعاب».

واعلم أن شيوخنا المتكلمين لا يكادون يختلفون في أن أول الناس إسلاماً علي بن أبي طالب ﷺ، إلا من عساه خالف في ذلك من أوائل البصريين، فأما الذي تقررت المقالة عليه الآن فهو القول بأنه سبق الناس إلى الإيمان، لا تكاد تجد اليوم في تصانيفهم وعند متكلميهم والمحققين منهم خلافاً في ذلك.

واعلم أن أمير المؤمنين ﷺ ما زال يدعي ذلك لنفسه، ويفتخر به، ويجعله في أفضليته على غيره، ويصرح بذلك، وقد قال غير مرة: أنا الصديق الأكبر، والفاروق الأول أسلمت قبل إسلام أبي بكر، وصليت قبل صلاته.

وروى عنه هذا الكلام بعينه أبو محمد بن قتيبة في كتاب «المعارف» وهو غير متهم في أمره.

ومن الشعر المروي عنه ﷺ في هذا المعنى الآيات التي أولها:

محمد النبي أخي وصهري وحمزة سيد الشهداء عمي
من جملتها:

سبقتمكم إلى الإسلام طراً غلاماً ما بلغت أوان حليمي
والأخبار الواردة في هذا الباب كثيرة جداً لا يتسع هذا الكتاب لذكرها، فلتقلب من مظانها.

ومن تأمل كتب السير والتواريخ عَرَفَ مِنْ ذلك ما قلناه.

فأما الذاهبون إلى أن أبا بكر أقدمهما إسلاماً فتفر قليلون، ونحن نذكر ما أورده ابن عبد البر أيضاً في كتاب «الاستيعاب» في ترجمة أبي بكر.

قال أبو عمر: حدثني خالد بن القاسم، قال: حدثنا أحمد بن محبوب، قال: حدثنا محمد بن عبدوس، قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، قال: حدثنا شيخ لنا، قال: أخبرنا مجالد، عن الشعبي، قال: سألت ابن عباس - أو سئل: - أي الناس كان أول إسلاماً؟ فقال: أما سمعت قول حسان بن ثابت:

إذا تذكّرت شجواً من أخي ثقة فاذكّر أخاك أبا بكر بما فعلا
خير البرية أنقاماً وأعدلاًها بعد النبي وأفاماً بما حملا
والثاني التالي المحمود مشهده وأول الناس منهم صدق الرسلا
ويروى أن النبي ﷺ قال لحسان: «هل قلت في أبي بكر شيئاً؟»، قال: نعم، وأنشده هذه الآيات، وفيها بيت رابع:

وثاني اثنين في الغار المنيف وقد طاف العدو به إذ صعدوا الجبلا

فُسِّرَ بذلك رسول الله ﷺ، وقال: «أحسنَت يا حسان»^(١)، وقد روى فيها بيت خامس:
وَكَاَنَّ حُبَّ رَسُولِ اللَّهِ قَدْ عَلِمُوا مِنْ الْبِرِّ لَمْ يَغْدِلْ بِهِ رَجُلًا
وقال أبو عمر: وروى شعبة، عن عمرو بن مرة، عن إبراهيم النخعي، قال: أول من أسلم أبو بكر.

قال: وروى الجريري، عن أبي نصر، قال: قال أبو بكر لعلي عليه السلام: أنا أسلمت قبلك، في حديث ذكره فلم ينكره عليه.

قال أبو عمر: وقال فيه أبو مخجن الثقفى:

وَسُمِّيتَ صِدِّيقاً وَكُلُّ مُهَاجِرٍ سِوَاكَ يَسْمَى بِاسْمِهِ غَيْرُ مَنْكِرٍ
سَبَقْتَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ شَاهِدٌ وَكُنْتَ جَلِيساً بِالْعَرِيشِ الْمُشْهَرِ
وَبِالْفَارِ إِذْ سُمِّيتَ نَحْلًا وَمُصَاحِباً كُنْتَ رَفِيقاً لِلنَّبِيِّ الْمُطْهَرِ

قال أبو عمر: وروينا من وجوه، عن أبي أمامة الباهلي، قال: حدثني عمرو بن عبسة، قال: أتيت رسول الله ﷺ، وهو نازل بعكاظ، فقلت: يا رسول الله، من أتبعك على هذا الأمر؟ فقال: حرّ وعبد: أبو بكر وبلال. قال: فأسلمت عند ذلك، وذكر الحديث^(٢).

هذا مجموع ما ذكره أبو عمر بن عبد البر في هذا الباب في ترجمة أبي بكر، ومعلوم أنه لا نسبة لهذه الروايات إلى الروايات التي ذكرها في ترجمة علي عليه السلام الدالة على سبقه، ولا ريب أن الصحيح ما ذكره أبو عمر أن علياً عليه السلام كان هو السابق، وأن أبا بكر هو أول من أظهر إسلامه، فظن أن السبق له.

وأما زيد بن حارثة، فإن أبا عمر بن عبد البر، رضي الله تعالى عنه ذكر في كتاب «الاستيعاب»، أيضاً في ترجمة زيد بن حارثة، قال: ذكر معمر بن شبة في جامعه عن الزهري أنه قال: ما علمنا أحداً أسلم قبل زيد بن حارثة.

قال عبد الرزاق: وما أعلم أحداً ذكره غير الزهري.

ولم يذكر صاحب «الاستيعاب» ما يدل على سبق زيد إلا هذه الرواية، واستغربها، فدل مجموع ما ذكرناه أن علياً عليه السلام أول الناس إسلاماً، وأن المخالف في ذلك شاذ، والشاذ لا يعتد به.

(١) أخرج بنحوه: الحاكم في «المستدرک» (٤١٤ ط)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٥٦٢)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣٦٩/٦).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٤١٩ ط)، والنسائي، كتاب: المواقيت، باب: إياحة الصلاة إلى أن يصلي الصبح (٥٨٤)، وابن ماجه، كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في أي ساعات الليل أفضل (١٣٦٤).

علي عليه السلام من السابقين إلى الهجرة

المسألة السابعة: أن يقال: كيف قال: «إنه سبق إلى الهجرة» ومعلوم أن جماعة من المسلمين هاجروا قبله، منهم عثمان بن مظعون وغيره، وقد هاجر أبو بكر قبله، لأنه هاجر في صحبة النبي ﷺ، وتخلف علي عليه السلام عنهما، فبات على فراش رسول الله ﷺ، ومكث أياماً يرثي الودائع التي كانت عنده، ثم هاجر بعد ذلك؟

والجواب، أنه عليه السلام لم يقل: «وسبقت كل الناس إلى الهجرة»، وإنما قال: «وسبقت» فقط، ولا يدل ذلك على سبقه للناس كافة، ولا شبهة أنه سبق معظم المهاجرين إلى الهجرة، ولم يهاجر قبله أحد إلا نفر يسير جداً.

وأيضاً فقد قلنا إنه علل أفضليته وتحريم البراءة منه مع الإكراه بمجموع أمور: منها ولادته على الفطرة، ومنها سبقه إلى الإيمان، ومنها سبقه إلى الهجرة، وهذه الأمور الثلاثة لم تجتمع لأحد غيره، فكان بمجموعها متميزاً عن كل أحد من الناس.

وأيضاً فإن اللام في «الهجرة» يجوز ألا تكون للمعهود السابق، بل تكون للجنس، وأمير المؤمنين عليه السلام سبق أبا بكر وغيره إلى الهجرة التي قبل هجرة المدينة، فإن النبي ﷺ هاجر عن مكة مراراً يطوف على أحياء العرب، وينتقل من أرض قوم إلى غيرها، وكان علي عليه السلام معه دون غيره.

أما هجرته إلى بني شيبان، فما اختلف أحد من أهل السيرة أن علياً عليه السلام كان معه هو وأبو بكر، وأنهم غابوا عن مكة ثلاثة عشر يوماً وعادوا إليها، لما لم يجدوا عند بني شيبان ما أرادوه من النضرة.

وروي المدائني في كتاب «الأمثال» عن المفضل الضبي، أن رسول الله ﷺ لما خرج عن مكة يعرض نفسه على قبائل العرب، خرج إلى ربيعة، ومعه علي عليه السلام وأبو بكر، فدخلوا إلى مجلس من مجالس العرب، فتقدم أبو بكر - وكان نسابه - فسلم فردوا عليه، فقال: ممن القوم؟ قالوا: من ربيعة، قال: أين هامتها، أم من لهازمها؟ قالوا: من هامتها العظمى، فقال: من أي هامتها العظمى أنتم؟ قالوا: من ذهل الأكبر، قال: أفمنكم عوف الذي يقال له: لا حرّ بوادي عوف؟ قالوا: لا، قال: أفمنكم بسطام ذو اللواء ومنتهى الأحياء؟ قالوا: لا، قال: أفمنكم جساس حامي الذمار ومانع الجار؟ قالوا: لا، قال: أفمنكم الحوقزان، قاتل الملوك وسالبها أنفسها؟ قالوا: لا، قال: أفمنكم المزدلف صاحب العمامة الفردية؟ قالوا: لا، قال: أفأنتم أخوال الملوك من كئدة؟ قالوا: لا، قال: فلستم إذن ذهلاً الأكبر، أنتم ذهل الأصغر. فقام إليه غلام - بقل وجهه، اسمه دغفل - فقال:

إن علي سألنا أن نسأله والعيب لا تعرفه أو تحمله

يا هذا، إنك قد سألتنا فأجبتناك، ولم نكتفك شيئاً، فممن الرجل؟ قال: من قريش قال: بخ
بخ! أهل الشرف والرياسة، فمن أي قريش أنت؟ قال: من تيم بن مرة، قال: أمكنت والله
الرامي من الثغرة، أمينكم قصي بن كلاب الذي جمع القبائل من فهر فكان يدعى مجتمعا؟ قال:
لا، قال: أمينكم هاشم الذي هشم لقومه الشريد؟ قال: لا، قال: أمينكم شيبة الحمد، مطعم
طير السماء؟ قال: لا، قال: أمين المفيضين بالناس أنت؟ قال: لا، قال: أمين أهل الندوة
أنت؟ قال: لا، قال: أمين أهل الرقادة أنت؟ قال: لا، قال: أمين أهل الحجابة أنت؟ قال:
لا، قال: أمين أهل السقاية؟ قال: لا، قال: فاجتذب أبو بكر زمام ناقته، ورجع إلى
رسول الله ﷺ هارباً من الغلام، فقال: دغفل:

صَادَفَ دَرَّةَ النَّسِيلِ دَرَّةً يَصْدَعُ

أما والله لو ثبت لأخبرتُك أنك من زَمَعَاتِ قريش، فتبسم رسول الله ﷺ. وقال
عليه السلام لأبي بكر: لقد وقعت يا أبا بكر من الأعرابي على باقة، قال: أجل: إن لكل طامة
طامة والبلاء موكل بالمنطق، فذهبت مثلاً.

وأما هجرته ﷺ إلى الطائف، فكان معه علي عليه السلام وزيد بن حارثة في رواية أبي الحسن
المدائني، ولم يكن معهم أبو بكر. وأما رواية محمد بن إسحاق، فإنه قال: كان معه زيد بن
حارثة وخذه، وغاب رسول الله ﷺ عن مكة في هذه الهجرة أربعين يوماً، ودخل إليها في
جوار مطعم بن عدي.

وأما هجرته ﷺ إلى بني عامر بن صعصعة وإخوانهم من قيس عيلان، فإنه لم يكن معه إلا
علي عليه السلام وخذه، وذلك عقيب وفاة أبي طالب، أوحى إليه ﷺ: اخرج منها، فقد مات
ناصرك، فخرج إلى بني عامر بن صعصعة، ومعه علي عليه السلام وخذه، فعرض نفسه عليهم
وسألهم النصر، وتلا عليهم القرآن فلم يجيبوه، فعادا عليهما السلام إلى مكة، وكانت مدة غيبته
في هذه الهجرة عشرة أيام، وهي أول هجرة هاجرها ﷺ بنفسه.

فأما أول هجرة هاجرها أصحابه ولم يهاجر بنفسه فهجرة الحبشة، هاجر فيها كثير من
أصحابه ﷺ إلى بلاد الحبشة في البحر، منهم جعفر بن أبي طالب عليه السلام، فغابوا عنه سنين،
ثم قدم عليه منهم من سلم وطالت أيامه وكان قدوم جعفر عليه عام فتح خيبر^(١)، فقال ﷺ:
«ما أدري بأيهما أنا أسر، أبقدوم جعفر أم بفتح خيبر!».

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٤٢٤٩)، والطبراني في «الكبير» (١٤٦٩)، والبيهقي في «السنن
الكبرى» (١٠١/٧)، و«شعب الإيمان» (٨٩٦٨).

٥٧ - ومن كلام له عليه السلام كلم به الخوارج

الأصل: أصابكم حاصِبٌ، وَلَا بَقِيَ مِنْكُمْ آيْرٌ. أَبْعَدَ إِيْمَانِي بِاللّٰهِ، وَجِهَادِي مَعَ رَسُولِ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ، أَشْهَدُ عَلَى نَفْسِي بِالْكَفْرِ! لَقَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ. فَأُوْبُوا شَرَّ مَا بٍ، وَارْجِعُوا عَلَى آثِرِ الْأَغْقَابِ. أَمَّا إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي ذُلًّا شَامِلًا، وَسَيْفًا قَاطِعًا، وَآثَرَةً يَتَّخِذُهَا الظَّالِمُونَ فِتْنَةً سُنَّةً.

قال الرضوي رحمه الله: قوله عليه السلام: «وَلَا بَقِيَ مِنْكُمْ آيْرٌ»، يُرْوَى عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ: أَحَدُهَا أَنْ يَكُونَ كَمَا ذَكَرْنَاهُ: «آيْرٌ» بِالرَّاءِ، مِنْ قَوْلِهِمْ: رَجُلٌ آيْرٌ، لِلَّذِي يَأْبُرُ النَّخْلَ، أَيْ يُضْلِحُهُ.

وَيُرْوَى: «آيْرٌ» بِالثَّاءِ، بِثَلَاثِ نَقَطٍ، يُرَادُ بِهِ الَّذِي يَأْبُرُ الْحَدِيثَ، أَيْ يَرْوِيهِ وَيَحْكِيهِ وَهُوَ أَصْحُ الْوُجُوهِ عِنْدِي، كَأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: لَا بَقِيَ مِنْكُمْ مُخْبِرٌ.

وَيُرْوَى: «آيْرٌ» بِالزَّايِ الْمُعْجَمَةِ، وَهُوَ الْوَائِبُ، وَالْهَالِكُ أَيْضًا يُقَالُ لَهُ: آيْرٌ. الشَّرْحُ: الْحَاصِبُ: الرِّيحُ الشَّدِيدَةُ الَّتِي تُثِيرُ الْحَصْبَاءَ، وَهُوَ صَغَارُ الْحَصَى، وَيُقَالُ لَهَا أَيْضًا حَصْبَةٌ. قَالَ لَيْدٌ:

جَرَّتْ عَلَيْهَا إِذْ خَوَتْ مِنْ أَهْلِهَا أَذْيَالُهَا كُلُّ عُوفٍ خَصْبَةٍ
فَأَمَّا التفسيرات التي فسّر بها الرضوي رحمه الله تعالى قوله عليه السلام: «آيْرٌ» فيمكن أن يزداد فيها، فيقال: يجوز أن يريد بقوله: «وَلَا بَقِيَ مِنْكُمْ آيْرٌ» أي نَمَامٌ يَفْسُدُ ذَاتَ الْبَيْنِ، وَالْمُشْبِرَةُ: النَمِيْمَةُ، وَأَبْرُ فُلَانٍ، أَيْ نَمٌّ، وَالْأَبْرُ أَيْضًا: مَنْ يَبْغِي الْقَوْمَ الْغَوَائِلَ خَفِيَّةً، مَاخُوذٌ مِنْ أَبْرَثَ الْكَلْبِ إِذَا أَطْعَمْتَهُ الْإِبْرَةَ فِي الْخَبْزِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «الْمُؤْمِنُ كَالْكَلْبِ الْمَأْبُورِ»^(١)، وَيجوز أن يكون أصله «هاير»، أَيْ مَنْ يَضْرِبُ بِالسِّيفِ فَيَقْطَعُ، وَأَبْدَلَتِ الْهَاءَ هَمْزَةً، كَمَا قَالُوا فِي: «آلِ أَهْلِ»، وَإِنْ صَحَّتِ الرِّوَايَةُ الْآخَرَى «آثِرٌ» بِالثَّاءِ بِثَلَاثِ نَقَطٍ، فَيُمْكِنُ أَنْ يَرِيدَ بِهِ سَاجِي بَاطِنِ خُفِّ الْبَعِيرِ، وَكَانُوا يُسَجُّونَ بَاطِنَ الْخُفِّ بِحَدِيدَةٍ لِيَقْتَصِرَ أَثَرُهُ، رَجُلٌ آثِرٌ وَبَعِيرٌ مَأْثُورٌ.

(١) لم أجده في كتب الحديث، وقد ذكره ابن منظور في لسان العرب، مادة (أبر)، وكذلك أبو بكر الرازي في «مختار الصحاح»، مادة (أبر).

وقوله ﷺ: «فأوبوا شرّ مآب»، أي ارجعوا شرّ مرجع. والأعقاب: جمع عَقِب بكسر القاف، وهو مؤخر القدم، وهذا كله دعاء عليهم، قال لهم أولاً: أصابكم حاصِب وهذا من دعاء العرب، قال تميم بن أبي مُقبل:

فَإِذَا خَلْتُ مِنْ أَمْلِيهَا وَقَطِينَهَا فَاصَابَهَا الْحَضْبَاءُ وَالسَّفْهَانُ

ثم قال لهم ثانياً: «لا بقي منكم مخبر». ثم قال لهم ثالثاً: «ارجعوا شرّ مرجع»، ثم قال لهم رابعاً: «عودوا على أثر الأعقاب»: وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَنُرِذُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ فَدَدْنَاهُ لِلَّهِ﴾^(١)، والمراد انعكاس حالهم، وعودهم من العزّ إلى الذلّ، ومن الهداية إلى الضلال. وقوله ﷺ: «وأثرة يتخذها الظالمون فيكم سنة» فالأثرة هنا الاستبداد عليهم بالفيء والغنائم وإطراح جانبهم، وقال النبي ﷺ: «لأنصار: «ستلقون بعدي أثره فاصبروا حتى تلقوني»^(٢).

الخوارج: رجالهم وحروبهم

واعلم أن الخوارج على أمير المؤمنين ﷺ كانوا أصحابه وأنصاره في الجمل وصفين قبل التحكيم، وهذه المخاطبة لهم، وهذا الدعاء عليهم، وهذا الإخبار عن مستقبل حالهم، وقد وقع ذلك، فإن الله تعالى سلط على الخوارج بعده الذلّ الشامل، والسيف القاطع، والأثرة من سلطان، وما زالت حالهم تضحّل، حتى أفناهم الله تعالى وأفنى جمهورهم، ولقد كان لهم من سيف المهلب بن أبي صفرة وبينه الحنف القاضي، والموت الزوام. ونحن نذكر من أخبار الخوارج وحروبهم ما هنا طرفاً.

عروة بن حدير

فمنهم عروة بن حدير أحد بني ربيعة بن حنظلة من بني تميم، ويعرف بعروة بن أدية وأدية مدة له جاهلية، وكان له أصحاب وأتباع وشيعة، فقتله زياد في خلافة معاوية صبراً.

نجدة بن عويمر الحنفي

ومنهم نجدة بن عويمر الحنفي، كان من رؤسائهم، وله مقالة مفردة من مقالة الخوارج وله نباع وأصحاب، وإليهم أشار الصلّتان العبديّ بقوله:

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧١.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب: قول النبي ﷺ: «لأنصار: «اصبروا حتى تلقوني على الحوض» (٣٧٩٢)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب: إعطاء المؤلف قلوبهم على الإسلام (١٠٦١).

أرى أمة شَهَرَتْ سِيْفُهَا
بِنَجْدِيَّةٍ أَوْ خَرْوَرِيَّةٍ
فَمَلَّتْنَا أَتْنَا مُسْلِمُونَ
أَشَابَ الصَّغِيرَ وَأَفْنَى الْكَبِيرِ
إِذَا لَيْلَةٌ أَهْرَمَتْ يَوْمَهَا
نُروُحٌ وَنَفْدٌ لِحَاجَاتِنَا
تَمُوتُ مَعَ الْمَرْءِ حَاجَاتُهُ
وَكَانَ نَجْدَةٌ يَصْلِي بِمَكَّةَ بِحِذَاءِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّيْبِرِ فِي جَمْعِهِ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ يَطْلُبُ الْخِلَافَةَ، فَيَمْسُكُهَا عَنْ الْقِتَالِ مِنْ أَجْلِ الْحَرَمِ.

وقال الراعي يخاطب عبد الملك:

إِنِّي خَلَفْتُ عَلَى يَمِينٍ بَرَّةٍ
مَا إِنْ أَتَيْتُ أَبَا تُحَيْبٍ وَأَفْدَأَ
وَلَمَّا أَتَيْتُ نُجَيْدَةَ بْنَ عُؤَيْمِرٍ
مِنْ نِعْمَةِ الرَّحْمَنِ لَا مِنْ حِيلَتِي
وَأَسْتَوْلَى نَجْدَةً عَلَى الْيَمَامَةِ، وَعَظُمَ أَمْرُهُ، حَتَّى مَلَكَ الْيَمَنَ وَالطَّائِفَ وَحُمَانَ وَالْبَحْرَيْنِ
وَوَادِي تَمِيمٍ وَعَامَرَ، ثُمَّ إِنْ أَصْحَابُهُ تَقَمَّوْا عَلَيْهِ أَحْكَاماً أَحْدَثَهَا فِي مَذْهَبِهِمْ، وَمِنْهَا قَوْلُهُ: إِنْ
الْمَخْطِئُ، بَعْدَ الْجِتْهَادِ مَعْذُورٌ، وَإِنْ الدِّينُ أَمْرَانِ: مَعْرِفَةُ اللَّهِ وَمَعْرِفَةُ رَسُولِهِ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ
فَالنَّاسُ مَعْذُورُونَ بِجَهْلِهِ، إِلَى أَنْ تَقُومَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ، فَمَنْ اسْتَحْلَ مَحْرَماً مِنْ طَرِيقِ الْجِتْهَادِ
فَهُوَ مَعْذُورٌ، حَتَّى إِنْ مَنْ تَزَوَّجَ أُخْتَهُ أَوْ أُمَّهُ مُسْتَحْلًا لِذَلِكَ بِجَهَالَةٍ فَهُوَ مَعْذُورٌ وَمُؤْمِنٌ، فَخَلَعُوهُ
وَجَعَلُوا اخْتِيَارَ الْإِمَامِ إِلَيْهِ، فَاخْتَارَ لَهُمْ أَبَا قُدَيْكٍ، أَحَدَ بَنِي قَيْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ، فَجَعَلَهُ رَئِيسَهُمْ. ثُمَّ
أَنْ أَبَا قُدَيْكٍ أَنْفَذَ إِلَى نَجْدَةٍ بَعْدَ مَنْ قَتَلَهُ، ثُمَّ تَوَلَّاهُ بَعْدَ قَتْلِهِ طَوَائِفٌ مِنْ أَصْحَابِهِ بَعْدَ أَنْ تَفَرَّقُوا
عَلَيْهِ، وَقَالُوا: قَتَلَ مَظْلُوماً.

ومنهم المستورد بن سعد أحد بني تميم، كان ممن شهد يوم النخيلة ونجا بنفسه فيمن نجا
من سيف علي عليه السلام، ثم خرج بعد ذلك بمدة على المغيرة بن شعبة، وهو والي الكوفة
لمعاوية بن أبي سفيان في جماعة من الخوارج، فوجه المغيرة إليه معقل بن قيس الرياحي، فلما
توافقا دعاه المستورد إلى المبارزة، وقال له: علام تقتل الناس بيني وبينك؟ فقال معقل:
النصف سألت، فأقسم عليه أصحابه، فقال: ما كنت لأبي عليه، فخرج إليه فاختلفا ضربتين،

خَرَّ كُلٌّ وَاحِدٌ مِنْهُمَا مِنْ ضَرْبَةِ صَاحِبِهِ قَتِيلًا. وَكَانَ الْمُسْتَوْدِعُ نَاسِكًا كَثِيرَ الصَّلَاةِ، وَلَهُ آدَابٌ وَحُكْمٌ مَأْثُورَةٌ.

وَمِنْهُمْ حَوْثَرَةُ الْأَسَدِيِّ، خَرَجَ عَلَى مَعَاوِيَةَ فِي عَامِ الْجَمَاعَةِ فِي عِصَابَةٍ مِنَ الْخَوَارِجِ فَبَعَثَ إِلَيْهِ مَعَاوِيَةَ جَيْشًا مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ، فَلَمَّا نَظَرَ حَوْثَرَةُ إِلَيْهِمْ، قَالَ لَهُمْ: يَا أَعْدَاءَ اللَّهِ، أَنْتُمْ بِالْأَمْسِ تَقَاتِلُونَ مَعَاوِيَةَ لَتَهْدُوا سُلْطَانَهُ، وَأَنْتُمْ الْيَوْمَ تَقَاتِلُونَ مَعَهُ لَتَشْدُوا سُلْطَانَهُ! فَلَمَّا التَحَمَّتِ الْحَرْبُ قَتَلَ حَوْثَرَةُ، قَتَلَهُ رَجُلٌ مِنْ طَيْءٍ، وَفَقِّتَ جَمُوعَهُ.

وَمِنْهُمْ قُرَيْبُ بْنُ مَرَّةَ الْأَزْدِيِّ، وَزَخَّافُ الطَّائِي، كَانَا عَابِدِينَ مُجْتَهِدِينَ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ فَخَرَجَا فِي أَيَّامِ مَعَاوِيَةَ فِي إِمَارَةِ زِيَادٍ، وَاخْتَلَفَ النَّاسُ، أَيُّهُمَا كَانَ الرَّئِيسَ؟ فَاعْتَرَضَا النَّاسَ فَلَقِبَا شَيْخًا نَاسِكًا مِنْ بَنِي ضُبَيْعَةَ مِنْ رِبِيعَةَ بْنِ نَزَارٍ فَقَتَلَاهُ - وَكَانَ يُقَالُ لَهُ رُؤْيَةُ الضُّبَيْعِيِّ - وَتَنَادَى النَّاسُ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي قَطِيعَةَ، مِنَ الْأَزْدِ، وَفِي يَدِهِ السِّيفُ، فَنَادَاهُ النَّاسُ مِنْ ظُهُورِ الْبُيُوتِ الْحَرُورِيَّةِ: ائْتِ بِنَفْسِكَ، فَنَادَوْهُ: لَسْنَا حَرُورِيَّةً، نَحْنُ الشَّرَطُ فَوْقَ فِقْتَلُوهُ، فَبَلَغَ أَبَا بِلَالٍ مَرْدَاسُ بْنُ أَدِيَّةَ خَبْرَهُمَا، فَقَالَ: قُرَيْبٌ، لَا قَرَبَةَ لِلَّهِ! وَزَخَّافٌ لَا عَفَا لِلَّهِ عَنْهُ! رَكَبَاهَا عَشَوَاءَ مَظْلَمَةٍ - يَرِيدُ اعْتِرَاضَهُمَا النَّاسَ - ثُمَّ جَعَلَا لَا يَمْرَانُ بِقَبِيلَةٍ إِلَّا قَتَلَا مَنْ وَجَدَا، حَتَّى مَرَّ عَلَى بَنِي عَلِيٍّ بْنِ سُودٍ، مِنَ الْأَزْدِ، وَكَانُوا رَمَاةً، كَانَ فِيهِمْ مِائَةٌ يُجِيدُونَ الرَّمِيَّ، فَرَمَوْهُمْ رَمِيًّا شَدِيدًا فَصَاحُوا: يَا بَنِي عَلِيٍّ، الْبَقِيَا، لَا رِمَاءَ بَيْنَنَا. فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَلِيٍّ بْنِ سُودٍ:

لَا شَيْءَ لِلْقَوْمِ سِوَى السَّهَامِ مَشْحُودَةٌ فِي غَلَسِ الظُّلَامِ

فَعَرَّدَ عَنْهُمْ الْخَوَارِجُ، وَخَافُوا الطَّلِبَ، وَاشْتَقَوْا مَقْبَرَةَ بَنِي يَشْكُرَ حَتَّى نَفَذُوا إِلَى مُزَيْنَةَ يَنْتَظِرُونَ مَنْ يَلْحَقُ بِهِمْ مِنْ مُضَرٍّ وَغَيْرِهَا، فَجَاءَهُمْ ثَمَانُونَ، وَخَرَجَتْ إِلَيْهِمْ بَنُو طَاجِيَّةَ، مِنْ بَنِي سُودٍ، وَقِبَائِلُ مِنْ مُزَيْنَةَ وَغَيْرِهَا، فَاسْتَقْتَلَتِ الْخَوَارِجُ، وَحَارَبَتْ حَتَّى قَتَلَتْ عَنْ آخِرِهَا، وَقَتَلَ قُرَيْبٌ وَزَخَّافٌ.

وَمِنْهُمْ أَبُو بِلَالٍ مَرْدَاسُ بْنُ أَدِيَّةَ، وَهُوَ أَخُو عُرْوَةَ بْنِ حُدَيْرٍ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ أَوَّلًا، خَرَجَ فِي أَيَّامِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ، وَأَنْفَذَ إِلَيْهِ ابْنُ زِيَادٍ عَبَّاسُ بْنُ أَخْضَرَ الْمَازَنِيَّ فَقَتَلَهُ وَقَتَلَ أَصْحَابَهُ، وَحُمِلَ رَأْسُهُ إِلَى ابْنِ زِيَادٍ، وَكَانَ أَبُو بِلَالٍ عَابِدًا نَاسِكًا شَاحِرًا، وَمِنْ قَدَمَاءِ أَصْحَابِنَا مَنْ يَدَّعِيهِ، لَمَّا كَانَ يَذْهَبُ إِلَيْهِ مِنَ الْعَدْلِ وَإِنْكَارِ الْمُنْكَرِ، وَمِنْ قَدَمَاءِ الشَّيْعَةِ مَنْ يَدَّعِيهِ أَيْضًا.

نَافِعُ بْنُ الْأَزْرَقِ الْحَنْفِيُّ

وَمِنْهُمْ نَافِعُ بْنُ الْأَزْرَقِ الْحَنْفِيُّ، وَكَانَ شَجَاعًا مُقَدِّمًا فِي فِقْهِ الْخَوَارِجِ، وَإِلَيْهِ تَنَسَّبَ الْأَزَارِقَةُ، وَكَانَ يَفْتِي بِأَنَّ الدَّارَ دَارُ كُفْرٍ، وَأَنَّهُمْ جَمِيعًا فِي النَّارِ، وَكُلٌّ مِنْ فِيهَا كَافِرٌ، إِلَّا مَنْ أَظْهَرَ إِيمَانَهُ، وَلَا يَحِلُّ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَجْبِيُوا دَاعِيًا مِنْهُمْ إِلَى الصَّلَاةِ، وَلَا أَنْ يَأْكُلُوا مِنْ ذَبَائِحِهِمْ

ولا أن يناكحوهم، ولا يتوارث الخارجيّ وغيره، وهم مثل كفّار العرب وعَبْدَةُ الأوثان، لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف والقعد بمنزلتهم، والتقية لا تحلّ، لأن الله تعالى يقول: ﴿إِذَا قُيِّضَتْ لَهُمْ يَحْشُونَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾^(١)، وقال فيمن كان على خلافهم: ﴿يَجْهَدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾^(٢)، ففترّق عنه جماعة من الخوارج، منهم نجدة بن عامر، واحتج نجدة بقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾^(٣)، فسار نجدة وأصحابه إلى اليمامة وأضاف نافع إلى مقالته التي قدّمناها، استحلاله الغدر بأمانه لمن خالفه، فكتب نجدة إليه:

أما بعد، فإنّ عهدي بك وأنت لليتيم كالأب الرحيم، وللضعيف كالأخ البرّ، تعاقد قويّ المسلمين، وتصنع للأخرق منهم، لا تأخذك في الله لومة لائم، ولا ترى معونة ظالم كذلك كنت أنت وأصحابك، أولاً تتذكر قولك: لولا أنّي أعلم أنّ للإمام العادل مثل أجر رعيته ما تولّيت أمر رجلين من المسلمين! فلما شربت نفسك في طاعة ربك ابتغاء مرضاته، وأصبت من الحقّ فضّه، وصبرت على مرّه، تجرّد لك الشيطان، ولم يكن أحد أثقل عليه وطأة منك ومن أصحابك، فاستمالك واستهواك، وأغواك فغويت، وأكفرت الذين علّمهم الله تعالى في كتابه، من قعدة المسلمين وضعفتهم، قال الله عزّ وجلّ، وقوله الحقّ، ووعد الصديق: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾^(٤)، ثم سماهم تعالى أحسن الأسماء فقال: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾^(٥) ثم استحلت قتل الأطفال، وقد نهى - رسول الله ﷺ - عن قتلهم^(٦)، وقال الله جل ثناؤه: ﴿وَلَا تَرْدُوا وَإِذْ يُنذَرُ أُخْرَى﴾^(٧)، وقال سبحانه في القعدة خيراً، فقال: ﴿وَقَضَى اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَتِيلِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٨) فتفضيله المجاهدين على القاعدين لا يدفع منزلة من هو دون المجاهدين، أو ما سمعت قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَتِيلُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ خَيْرٌ أُولَى الْقَرَرِ﴾^(٩) فجعلهم من المؤمنين. وفضل عليهم المجاهدين بأعمالهم ثم إنك لا تؤدي أمانة إلى من خالفك، والله تعالى قد أمر أن تؤدي الأمانات إلى أهلها. فاتق الله في نفسك، وأتق يوماً لا يجزي فيه والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً، فإن الله بالمرصاد، وحكمه العدل، وقوله الفصل. والسلام.

فكتب إليه نافع:

- (٢) سورة المائدة، الآية: ٥٤.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٩١.
(٦) أخرجه أحمد في «مسنده»، (٢٦٨٠).
(٨) سورة النساء، الآية: ٩٥.

- (١) سورة النساء، الآية: ٧٧.
(٣) سورة عافر، الآية: ٢٨.
(٥) سورة التوبة، الآية: ٩١.
(٧) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.
(٩) سورة النساء، الآية: ٩٥.

أما بعد، أتاني كتابك تعظني فيه، وتذكرني وتنصح لي وتزجرني، وتصف ما كنت عليه من الحق، وما كنت أؤثره من الصواب، وأنا أسأل الله أن يجعلني من القوم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه. وعبت علي ما دنت به، من إكفار القعدة وقتل الأطفال، واستحلال الأمانة من المخالفين، وسأفسر لك إن شاء الله...

أما هؤلاء القعدة، فليسوا كمن ذكرت ممن كان على عهد رسول الله ﷺ، لأنهم كانوا بمكة مقهورين محصورين لا يجدون إلى الهرب سبيلاً، ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقاً، وهؤلاء قد تفقهوا في الدين، وقرؤوا القرآن، والطريق لهم نهج واضح. وقد عرفت ما قال الله تعالى فيمن كان مثلهم، إذ قالوا: ﴿كُنَّا مُسْتَظْفِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾^(١) فقال: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾^(٢)، وقال سبحانه: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٣)، وقال: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾^(٤) فخبّر بتعذيرهم، وأنهم كذبوا الله ورسوله، ثم قال: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٥) فانظر إلى أسمائهم وسماتهم.

وأما الأطفال، فإن نوحاً نبي الله كان أعلم بالله مني ومنك، وقد قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾^(٦) إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا^(٧)، فسماهم بالكفر وهم أطفال، وقبل أن يولدوا، فكيف كان ذلك في قوم نوح، ولا تقوله في قومنا، والله تعالى يقول: ﴿أَكْفَرُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾^(٨)، وهؤلاء كمشركي العرب، لا يقبل منهم جزية، وليس يتنا وينهم إلا السيف أو الإسلام.

وأما استحلال أمانات من خالفنا فإن الله تعالى أحل لنا أموالهم، كما أحل دماؤهم لنا، فدماؤهم حلال طلق، وأموالهم فيء للمسلمين، فاتق الله وراجع نفسك، فإنه لا عذر لك إلا بالتوبة، ولن يسعك خذلاننا والقعود عنا وترك ما نهجناه لك من مقاتلتنا، والسلام على من أقر بالحق وعمل به.

وكتب إلى من بالبصرة من المحكمة: أما بعد فإن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون. إنكم لتعلمون أن الشريعة واحدة، والدين واحد، فقيم المقام بين أظهر الكفار ترون الظلم ليلاً ونهاراً، وقد ندبكم الله عز وجل إلى الجهاد، فقال: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾^(٩)، ولم يجعل لكم في التخلف عذراً في حال من الأحوال، فقال: ﴿أَنْفُسُكُمْ خِفَافًا

(٢) سورة النساء، الآية: ٩٧.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٩٠.

(٦) سورة نوح، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

(٨) سورة التوبة، الآية: ٣٦.

(١) سورة النساء، الآية: ٩٧.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٨١.

(٥) سورة التوبة، الآية: ٩٠.

(٧) سورة القمر، الآية: ٤٣.

وَقَالَ^(١) وَإِنَّمَا عَذْر الضَّعَفَاءِ وَالْمَرْضَى، وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ، وَمَنْ كَانَتْ إِقَامَتُهُ لِعِلَّةٍ، ثُمَّ فَضَّلَ عَلَيْهِمْ مَعَ ذَلِكَ الْمَجَاهِدِينَ فَقَالَ: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاتِلُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِ الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٢)، فَلَا تَغْتَرُوا وَتَطْمَثِنُوا إِلَى الدُّنْيَا، فَإِنَّهَا غَرَارَةٌ مَكَّارَةٌ، لَذَّتْهَا نَافَذَةٌ، وَنَعِيمُهَا بَائِدٌ، حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ اغْتِرَارًا، وَأَظْهَرَتْ حَبْرَةً وَأَضْمَرَتْ عَثْرَةً، فَلَيْسَ أَكْلُ مِنْهَا أَكْلَةً تَسْرَهُ، وَلَا شَارِبٌ مِنْهَا شَرِبَةً تَوْفِقُهُ إِلَّا وَدَنَا بِهَا دَرَجَةً إِلَى أَجَلِهِ، وَتَبَاعَدَ بِهَا مَسَافَةٌ مِنْ أَمَلِهِ، وَإِنَّمَا جَعَلَهَا اللَّهُ دَارَ الْمَتْرُودِ مِنْهَا، إِلَى النِّعِيمِ الْمُقِيمِ، وَالْعَيْشِ السَّلِيمِ، فَلَيْسَ يَرْضَى بِهَا حَازِمٌ دَارًا وَلَا حَكِيمٌ قَرَارًا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَتَزَوَّدُوا، فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى، وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ أَهْدَى.

فلما أظهر نافع مقالته هذه، وانفرد عن الخوارج بها، أقام في أصحابه بالأهواز يستعرض الناس، ويقتل الأطفال، ويأخذ الأموال، ويغبي الخراج، وفشا عُمَّاله بالسواد، فارتاع لذلك أهل البصرة، واجتمع منهم عشرة آلاف إلى الأحنف، وسألوه أن يؤمِّرَ عليهم أمير يحميهم من الخوارج، ويجاهد بهم، فأتى عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وهو المسمَّى بَيْتَةَ، فسأله أن يؤمِّرَ عليهم - وبيته يومئذ أمير البصرة من قبل ابن الزبير - فأمر عليهم مسلم بن عبيس بن كُرَيْزٍ، وكان ديناً شجاعاً، فلما خرج بهم من جسر البصرة، أقبل عليهم، وقال: أيها الناس، إني ما خرجت لامتيار ذهب ولا فضة، وإني لأحارب قوماً إن ظفرت بهم فما وراءهم إلا السيوف والرماح، فمن كان شأنه الجهاد، فلينهض، ومن أحب الحياة فليرجع.

فرجع نفر يسير، ومضى الباقيون معه، فلما صاروا بدُولَابٍ خرج إليهم نافع وأصحابه فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى تكسرت الرماح: وعُقرت الخيل: وكثر الجراح والقتل، وتضاربوا بالسيوف والعَمَد، فقتل ابنُ عُبيس أمير أهل البصرة، وقتل نافع بن الأزرق أمير الخوارج: وأدعى قَتْلَهُ سلامة الباهلي، وكان نافع قد استخلف عبيد الله بن بشير بن الماخور السليطي اليربوعي، واستخلف ابن عُبيس الربيع بن عمرو الأجدم القُداني اليربوعي، فكان الرئيسان من بني يَرْبُوعٍ، فاقتتلوا بعد قتل ابن عُبيس ونافع قتالاً شديداً نيفاً وعشرين يوماً، حتى قال الربيع لأصحابه: إني رأيت البارحة كأن يدي التي أصيبت بكابل انحطت من السماء، فاستشلتني، فلما كان الغد قاتلهم إلى الليل. ثم عاودهم القتال، فقتل، فتدافع أهل البصرة الراية، حتى خافوا العَطَبَ، إذ لم يكن لهم رئيس. ثم أجمعوا على الحجاج بن رباب الحميري، فأبأها، فقيل له: ألا ترى رؤساء العرب قد اختاروك من بينهم! فقال: إنها مشؤومة، لا يأخذها أحدٌ إلا قتل، ثم أخذها فلم يَزَلْ يقاتل القوم بدُولَابٍ حتى التقى بعمران بن الحارث الراسبي، وذلك بعد أن اقتتلوا زهاء شهر، فاختلفا ضربتين، فخراً ميتين.

(١) سورة التوبة، الآية: ٤١.

(٢) سورة النساء، الآية: ٩٥.

وقام حارثة بن بدر الغُدانيّ بأمر أهل البصرة بعده، وثبت بإزاء الخوارج يناوشهم القتال مناوشة خفيفة، ويزجي الأوقات انتظاراً لقدم أمير من قبل بيته يلي حرب الخوارج: وهذه الحرب تسمى حرب دُولاب: وهي من حروب الخوارج المشهورة، انتصف فيها الخوارج من المسلمين، وانتصف المسلمون منهم، فلم يكن فيها غالب ولا مغلوب.

عبيد الله بن بشير بن الماحوز اليربوعي

ومنهم عبيد الله بن بشير الماحوز اليربوعي، قام بأمر الخوارج يوم دُولاب بعد قتل نافع بن الأزرق وقام بأمر أهل البصرة عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي، ولأه عبد الله بن الزبير ذلك، ولقيه كتابه بالإمارة وهو يريد الحج، وقد صار إلى بعض الطريق، فرجع فأقام بالبصرة، وولى أخاه عثمان بن عبيد الله بن معمر محاربة الأزارقة، فخرج إليهم في اثني عشر ألفاً، فلقيه أهل البصرة الذين كانوا في وجه الأزارقة، ومعهم حارثة بن بدر الغُدانيّ، يقوم بأمرهم عن غير ولاية، وكان ابن الماحوز حينئذٍ في سوق الأهواز، فلما عبر عثمان إليهم دُجَيْلاً، نهضت إليه الخوارج، فقال عثمان لحارثة: ما الخوارج إلا ما أرى، فقال حارثة: حسبك بهؤلاء! قال: لا جرم لا أتعدى حتى أناجزهم، فقال حارثة: إن هؤلاء القوم لا يقاتلون بالتعسف، فأبق على نفسك وجندك، فقال: أبيت يا أهل العراق إلا جُيئاً وأنت يا حارثة ما علمك بالحرب! أنت والله بغير هذا أعلم - يُعرّض له بالشراب، وكان حارثة بن بدر صاحب شراب - فغضب حارثة، فاعتزل، وحاربهم عثمان يومه إلى أن غربت الشمس، فأجلت الحرب عنه قليلاً، وانهزم الناس، وأخذ حارثة بن بدر الراية، وصاح بالناس: أنا حارثة بن بدر! فثاب إليه قوم فعبر بهم دجياً، وبلغ قتل عثمان البصرة، فقال شاعر من بني تميم:

مضى ابن عُبَيْسٍ صابراً غير عاجزٍ	وأعقَبْنَا هذا الحجازيَّ عثمانُ
فأرْعَدَ مِن قَبْلِ اللِّقَاءِ ابْنُ مَعْمَرٍ	وأبرق، والبرقُ اليمانيُّ خَوَّانُ
فَضَحَّتْ قَرِيشاً غُثَّهَا وَسَمِينَهَا	وقيل بنو تميم بن مرة غُزْلَانُ
فلولا ابنُ بدرٍ للعراقيِّينَ لم يَقمْ	بما قام فيه للعراقيِّينَ إنسانُ
إذا قيل مَنْ حامِي الحقيقة؟ أومات	إليه مَعْدُ بالأكسف وقحطان

ووصل الخبر إلى عبد الله بن الزبير بمكة، فكتب إلى عمر بن عبيد الله بن معمر بعزله وولى الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي المعروف بالقُبَاع البصرة، فقدمها، فكتب إليه حارثة بن بدر يسأله الولاية والمدد، فأراد توليته، فقال له رجل من بكر بن وائل: إن حارثة ليس بذلك، إنما هو صاحب شراب، وكان حارثة مستهتراً بالشراب، معاقراً للخمر، وفيه يقول رجل من قومه:

الْم تَرَ أَنَّ حَارِثَةَ بْنَ بَدْرٍ يُصَلِّي وَهُوَ أَتَقَرُّ مِنْ جَمَارِ
الْم تَرَ أَنَّ لِّلْفَتَيَانِ حَقًّا وَحَقُّكَ فِي الْبَغَايَا وَالْعُقَارِ

فكتب إليه القُبَاع: تُكْفَى حَرْبَهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. فَأَقَام حَارِثَةُ يُدَافِعُهُمْ حَتَّى تَفَرَّقَ أَصْحَابُهُ عَنْهُ وَيَقِي فِي خِفِّ مَنْعِهِمْ، فَأَقَام بِنَهْرِ تَيْرِي، فَعَبِرَتْ إِلَيْهِ الْخَوَارِجُ، فَهَرَبَ مَنْ تَخَلَّفَ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَخَرَجَ يَرْكُضُ حَتَّى أَتَى دُجَيْلًا، فَجَاسَ فِي سَفِينَةٍ، وَأَتْبَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَكَانُوا مَعَهُ فِيهَا، وَوَفَّاهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، عَلَيْهِ سِلَاحُهُ وَالْخَوَارِجُ وَرَاءَهُ، وَقَدْ تَوَسَّطَ حَارِثَةُ دُجَيْلًا، فَصَاحَ بِهِ: يَا حَارِثَةُ، لَيْسَ مِثْلِي بِضَيْعٍ فَقَالَ لِلْمَلَّاحِ: قَرِّبْ، فَقَرَّبَ إِلَى جُرْفٍ، وَلَا قُرْصَةَ هُنَاكَ، فَطَفَّرَ بِسِلَاحِهِ فِي السَّفِينَةِ، فَسَاحَتْ بِالْقَوْمِ جَمِيعًا، وَهَلَكَ حَارِثَةُ.

وروى أبو الفرج الأصفهاني في كتاب «الأغاني الكبير» أن حارثة لما عقدوا له الرئاسة، وسلموا إليه الراية، أمرهم بالثبات، وقال لهم: إذا فتح الله عليكم فللعرب زيادة فريضتين، وللموالي زيادة فريضة، وتذب الناس، فالتقوا وليس بأحد منهم طرُق قد فشت فيهم الجراحات، وما تطلأ الخيل إلا على القتلى، فبيناهم كذلك، إذ أقبل جمعٌ من الشراة من جهة اليمامة، - يقول المكثرون: إنهم مائتان، والمقلون: إنهم أربعون - فاجتمعوا وهم مُريحون مع أصحابهم، فصاروا كوكبة واحدة، فلما رآهم حارثة بن بدر ركض برايته منهزمًا، وقال لأصحابه:

كُزِّنْبُوا وَدَوْلِبُوا أَوْ حَيْثُ شِئْتُمْ فَاذْهَبُوا
وقال:

أَيُّرَ الْجِمَارِ فَرِيضَةً لِعَبِيدِكُمْ وَالْخَصِيَّتَانِ فَرِيضَةً الْأَعْرَابِ
قال: كُزِّنْبُوا، أَيِ اطْلُبُوا كَرْنِي، وَهِيَ قَرْيَةٌ قَرِيبَةٌ مِنَ الْأَهْوَازِ، وَدَوْلِبُوا: اطْلُبُوا دُولَابَ، وَهِيَ ضَيْعَةٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْأَهْوَازِ أَرْبَعَةُ فَرَاسِخَ.
قال: فتتابع الناس على أثره منهزمين، وتبعتهم الخوارج، فألقى الناس أنفسهم في الماء، ففرق منهم بدجيل الأهواز خلق كثير.

ومنهم الزبير بن علي السليطي التميمي، كان على مقدمة ابن الماحوز، وكان ابن الماحوز يخاطب بالخلافة، ويخاطب الزبير بالإمارة. ووصل الزبير بعد هلاك حارثة بن بدر، وهرب أصحابه إلى البصرة، فخافه الناس خوفًا شديدًا، وضحج أهل البصرة إلى الأحنف، فأتى القُبَاع، فقل: أصلح الله الأمير إن هذا العدو قد غلبا على سوادنا وفيتنا، فلم يبق إلا أن يحضرنا في بلدنا حتى نموت هزلاً. قال: فسَمُوا إِلَيَّ رَجُلًا يَلِي الْحَرْبَ، فَقَالَ الْأَحْنَفُ: لَا أَرَى لَهَا رَجُلًا إِلَّا الْمَهْلَبَ بْنَ أَبِي صُفْرَةَ، فَقَالَ: أَوْ هَذَا رَأَى جَمِيعَ أَهْلِ الْبَصْرَةِ؟ اجْتَمِعُوا إِلَيَّ فِي غَدٍ لَأَنْظُرَ.

وجاء الزبير حتى نزل على البصرة، وعَقَدَ الجسرَ ليعبرَ إليها، فخرج أكثرُ أهلِ البصرة إليه، وانضمَّ إلى الزبير جميعُ كُورِ الأهواز وأهلها رغبة ورهبة، فوافاه البصريون في السفن وعلى الدواب، فاسودَّت بهم الأرض، فقال الزبير لما رآهم: أبى قومنا إلا كفرًا، وقطع الجسر، وأقام الخوارج بإزائهم، واجتمع الناس عند القُبَاع، وخافوا الخوارج خوفًا شديدًا، وكانوا ثلاث فرق: سُمِّي قومُ المهلب، وسُمِّي قومُ مالك بن مِسمع، وسُمِّي قومُ زياد بن عمرو بن أشرف العتكي، فاختر القُبَاع ما عند مالك وزياد، فوجدهما مُتتاقِلين عن الحرب، وعاد إليه مَنْ أشار بهما، وقالوا: قد رجَعْنَا عن رأينا، ما نرى لها إلا المهلب، فوجَّه إليه القُبَاع فاتاه، فقال له: يا أبا سعيد، قد ترى ما قد رَهَقْنَا من هذا العدو، وقد أجمع أهلُ مصرِكَ عليك، وقال له الأحنف: يا أبا سعيد، إنا والله ما آثرناكَ، ولكنَّا لم نَرِ مَنْ يقوم مقامك.

ثم قال القُبَاع - وأومأ إلى الأحنف: - إنَّ هذا الشيخَ لم يسمِّك إلا إيثارًا للذين والبقيا وكلُّ مَنْ في مصرِكَ ما ذُ عِيَنَ إليك، راج أن يكشف الله عنه هذه الغمة بك، فقال المهلب: لا حول ولا قوة إلا بالله، إني عند نفسي لدون ما وصفتم، ولست أبى ما دعوتم إليه، لكنَّ لي شروطًا أشرطها، قالوا: قل، قال: على أن أنتخب مَنْ أحببت! قال الأحنف: ذاك لك، قال: ولي إمرة كلِّ بلدٍ أغلب عليه! قالوا: لك ذلك، قال: ولي فيء كلِّ بلدٍ أظفر به! قال الأحنف: ليس ذلك لك ولا لنا، إنما هو فيء للمسلمين، فإن سلبتهم إياه كنت عليهم كعدوهم، ولكن لك أن تعطي أصحابك من فيء كلِّ بلدٍ تغلب عليه ما أحببت، وتُنْفِق منه على محاربة عدوك، فما فَضَّل عنكم كان للمسلمين، فقال المهلب: لا حول ولا قوة إلا بالله! فمنَّ لي بذلك؟ قال الأحنف: نحن وأميرك وجماعة أهلِ مصرِكَ، قال: قد قبلت. فكتبوا بينهم بذلك كتابًا، ووَضِع على يدي الصُّلَّت بن حُرَيْث بن جابر الجعفي، وانتخب المهلب من جميع الأخماس، فبلغت نُخْبَتُهُ اثني عشر ألفًا، ونظروا في بيت المال، فلم يكن إلا مائتي ألف درهم، فعجزت، فبعث المهلب إلى التجار، فقال: إنَّ تجاراتكم منذ حولٍ قد فَسَدَتْ بانقطاع موادِّ الأهواز وفارس عنكم، فهلموا فبيعوني واخرجوا معي أوفكم حقوقكم. فبايعوه وتاجروه، فأخذ منهم المال ما أصلح به عسكروه، واتخذ لأصحابه الخفاتين والرَّائات المحشوة بالصوف، ثم نهض - وكان أكثر أصحابه رَجالة - حتى إذا صار بحذاء القوم أمر بسفن فأصلحت وأحضرت، فما ارتفع النهار حتى فرَغ منها، ثم أمر الناس بالعبور، وأمر عليهم ابنة المغيرة، فخرج الناس، فلما قاربوا الشطَّ خاضت إليهم الخوارج، فحاربوهم وحاربهم المغيرة، ونَصَحهم بالسهام حتى تنَحَّوا، وصار هو وأصحابه على الشطِّ، فحاربوا الخوارج، فكشفوهم وشغلوهم حتى عقد المهلب الجسر وعبر، والخوارج منهزمون، فنهى الناس عن اتباعهم، ففي ذلك يقول شاعر من الأزد: إنَّ العراقَ وأهلَهُ لم يخْبُرُوا مثلَ المهلبِ في الحروب فسَلُوا

امضى وأيمن في اللقاء نقيبةً وأقل تهليلاً إذا ما أحجموا
وأبلى مع المغيرة يومئذ عطية بن عمرو العنبري، من فرسان تميم وشجعانهم. ومن شعر
عطية:

يُدعى رجالاً للقطاء وإنما يُدعى عطية للطعان الأجر
وقال فيه شاعر من بني تميم:

وما فارس إلا عطية فؤقه إذا الحرب أبدت عن نواجذها الفما
به هزم الله الأزارق بغلما أباحوا من المضرين حلاً ومخرماً

فأقام المهلب أربعين ليلة يجبي الخراج بگور دجلة، والخوارج بنهر تيري، والزيبر بن علي منفرد بعسكره عن عسكر ابن الماخوز، ففضى المهلب التجار، وأعطى أصحابه، فأسرع الناس إليه رغبة في مجاهدة العدو وطمعاً في الغنائم والتجارات، فكان فيمن أتاه محمد بن واسع الأزدي وعبد الله بن رباح ومعاوية بن قرة المزني، وكان يقول: لو جاءت الديلم من ها هنا والحرورية من ها هنا لحاربت الحرورية، وجاءه أبو عمران الجوني. وكان يروى عن كعب أن قتل الحرورية يفضل قتل غيرهم بعشرة أبواب.

ثم أتى المهلب إلى نهر تيري، ففتحوا عنه إلى الأهواز، وأقام المهلب يجبي ما حواله من الكور، وقد دس الجواسيس إلى عسكر الخوارج يأتونه بأخبارهم ومن في عسكرهم، وإذا حشوة، ما بين قصاب وحذاء وداعر. فخطب المهلب الناس، وذكر لهم ذلك، وقال: أمثل هؤلاء يغلبونكم على فينكم! ولم يزل مقيماً حتى فهمهم، وأحكم أمرهم وقوى أصحابه، وكثرت الفرسان في عسكره، وتنام أصحابه عشرين ألفاً.

ثم مضى يوم كور الأهواز، فاستخلف أخاه المعمار بن أبي صفرة على نهر تيري، وجعل المغيرة على مقدمته، فسار حتى قاربهم، فناوشهم وناوشوه، فانكشف عن المغيرة بعض أصحابه، وثبت المغيرة نفسه بقية يومه وليلته بوقد النيران، ثم غاداهم فإذا القوم قد أوقدوا النيران في بقية متاعهم، وارتحلوا عن سوق الأهواز، فدخلها المغيرة، وقد جاءت أوائل خيل المهلب، فأقام بسوق الأهواز، وكتب بذلك إلى الحارث القباع كتاباً يقول فيه:

أما بعد، فإننا مذ خرجنا نؤم العدو، في نعم من فضل الله متصلة علينا، ونقم متتابعة عليهم نُقدّم ويحجمون، ونجمل ويرتحلون، إلى أن حللنا سوق الأهواز، والحمد لله رب العالمين، الذي من عنده النصر، وهو العزيز الحكيم.

فكتب إليه الحارث:

هنيئاً لك أخا الأزد الشرف في الدنيا والأجر في الآخرة، إن شاء الله.

فقال المهلب لأصحابه: ما أجفى أهل الحجاز أما ترونه عرف اسمي وكنيتي واسم أبي!

قالوا: وكان المهلب يبتّ الأحراس في الأمن، كما يبتّهم في الخوف، ويؤذكي العيون في الأمصار كما يؤذكيها في الصحاري، ويأمر أصحابه بالتحرز، ويخوفهم البيّات، وإن بُعد منه العدو، ويقول: احذروا أن تُكادوا كما تكيدون، ولا تقولوا: هزمناهم وغلبناهم، والقوم خائفون وجلون، فإن الضرورة تفتح باب الحيلة.

ثم قام فيهم خطيباً، فقال: أيها الناس، قد عرفتم مذهب هؤلاء الخوارج، وأنهم إن قَدَرُوا عليكم فتشؤكم في دينكم، وسفكوا دماءكم، فقاتلوهم على ما قاتلهم عليه أولكم علي بن أبي طالب، لقد لقيهم الصابر المحتسب مسلم بن عبيس، والعجل المفرط عثمان بن عبيد الله، والمعصي المخالف حارثة بن بدر، فقتلوا جميعاً وقتلوا، فالقوهم بحدٍّ وجِدٍّ فإنما هو مهتكم وعبيدكم، وعارٌ عليكم ونقص في أحسابكم وأديانكم أن يغلبكم هؤلاء على فيثكم، ويطاؤوا حريمكم.

ثم سار يريدهم وهم بمناذر الصغرى، فوجه عبيد الله بن بشير بن الماخوز رئيس الخوارج رجلاً يقال له واقد، مولى لآل أبي صفرة من سبي الجاهلية، في خمسين رجلاً، فيهم صالح بن مخراق إلى نهر تيري، وبها المعارك بن أبي صفرة، فقتلوه وصلبوه، فَنِمِيَ الخبر إلى المهلب، فوجه ابنه المغيرة، فدخل نهر تيري، وقد خرج واقد منها، فاستنزل عمه فدفعه، وسكن الناس، واستخلف بها ورجع إلى أبيه، وقد نزل بسُلولاف والخوارج بها، فواقعهم، وجعل على بني تميم الحريش بن هلال، فخرج رجلٌ من أصحاب المهلب، يقال له عبد الرحمن الإسكاف، فجعل يحضّ الناس ويهون أمر الخوارج، ويختال بين الصّفين، فقال رجل من الخوارج لأصحابه: يا معشر المهاجرين، هل لكم في قِتلة فيها الجنة! فحمل جماعة منهم على الإسكاف فقاتلهم وحده فارساً، ثم كَبَّاه فرسه، فقاتلهم راجلاً قائماً وباركاً، ثم كَثُرَتْ به الجراحات فذُتْ بسيفه، ثم جعل يحثو في وجوههم التراب، والمهلب غير حاضر، فقتل، ثم حضر المهلب فأعلم، فقال للحريش ولعطية العنبري: أسلمتُمَا سيدَ أهل العراق، لم تُعيناه ولم تستنقذاه حسداً له، لأنه رجل من الموالي، وويخهما. وحمل رجلٌ من الخوارج على رجل من أصحاب المهلب فقتله، فحمل عليه المهلب فطعنه فقتله، ومال الخوارجُ بأجمعهم على العسكر، فانهزم الناس، وقتل منهم سبعون رجلاً، وثبت المهلب وابنه المغيرة يومئذ، وعرف مكانه.

ويقال: حاص المهلب يومئذ حَيضة. ويقول الأزد: بل كان يرء المنهزمة ويحمي أديارهم، وبنو تميم تزعم أنه قر، وقال شاعرهم:

بِسُلولاف أضفت دماء قومي وطُرت على مُواشكة درور

وقال آخر من بني تميم:

تبعنا الأغور الكذاب طوعاً يُزجّي كل أربعة حماراً
فيا ندمي على تركي عطائي معاينة وأطلبه ضمّاراً
إذا الرحمن يَسر لي قُفولاً فخرق في قسرى سولاف ناراً

قوله: «الأعور الكذاب»، يعني به المهلب، كانت عينه عارث بسهم أصابها، وسمّوه الكذاب، لأنه كان فقيهاً، وكان يتأول ما ورد في الأثر من أن كل كذب يكتب كذباً إلا ثلاثة: الكذب في الصلح بين رجلين، وكذب الرجل لامرأته بوغد، وكذب الرجل في الحرب بتوعد وتهدد. قالوا: وجاء عنه عليه السلام: «إنما أنت رجل فخذل حنّا ما استطعت»^(١). وقال: «إنما الحرب خدعة»^(٢)، فكان المهلب ربما صنع الحديث ليشدّ به من أمر المسلمين ما ضعف، ويضعف به من أمر الخوارج ما اشتدّ، وكان حيّ من الأزد يقال لهم النّذب، إذا رأوا المهلب رائحاً إليهم قالوا: راح ليكذب، وفيه يقول رجل منهم:

أنت الفتى كل الفتى لو كنت تصدق ما تقول

فبات المهلب في ألفين، فلما أصبح رجع بعض المنهزمة، فصاروا في أربعة آلاف، فخطب أصحابه، فقال: والله ما بكم من قلة، وما ذهب عنكم إلا أهل الجبن والضعف والطمع، فإن يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله، فسيروا إلى عدوكم على بركة الله.

فقام إليه الحريش بن هلال، فقال: أنشدك الله أيها الأمير أن تقاتلهم، إلا أن يقاتلوك، فإن في أصحابك جراحاً، وقد أثخنهم هذه الجولة.

فقبل منه، ومضى المهلب في عشرة فأشرف على عسكر الخوارج، فلم ير منهم أحداً يتحرك، فقال له الحريش: ارتحل عن هذا المنزل، فارتحل، فعبر دُجَيْلاً وصار إلى عاقول لا يؤتى إلا من جهة واحدة، فأقام به، وأقام الناس ثلاثاً مستريحين.

وفي يقوم سولاف يقول ابن قيس الرقيات:

ألا طرقت من آل مئة طارقة على أنها معشوقة الدّل عاشقة
تراءت أرض الشّوس بيني وبينها ورستاق سولاف حمّته الأزارقة
إذا نحن شئنا صادفتنا عصابة حرورية فيها من الموت بارقة
أجازت علينا العسكرين كليهما فباتت لنا دُون اللّحاف معانقة

(١) أخرجه ابن هشام في «السيرة النبوية» (٤/١٨٨).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب الحرب خدعة (٣٠٢٩)، ومسلم، كتاب: الزكاة، باب: التحريض على قتل الخوارج (١٠٦٦).

فأقام المهلب في ذلك العاقول ثلاثة أيام ثم ارتحل، والخوارج بسلي وسليبري فنزل قريباً منهم، فقال ابن الماحوز لأصحابه: ما تنتظرون بعدوكم وقد هزمتهم بالأمس، وكسرتهم حدهم! فقال له واقد مولى أبي صفرة: يا أمير المؤمنين، إنما تفرق عنهم أهل الضعف والجبن، وبقي أهل النجدة والقوة، فإن أصبتهم لم يكن ظفراً هيناً، لأنني أراهم لا يُصابون حتى يصيبوا، وإن غلبوا ذهب الدين. فقال أصحابه: نأفق واقد، فقال ابن الماحوز: لا تعجلوا على أخيكم، فإنه إنما قال هذا نظراً لكم.

ثم وجه الزبير بن علي إلى عسكر المهلب، لينظر ما حالهم، فاتاهم في مائتين فحزّهم ورجع. وأمر المهلب أصحابه بالتحارّس، حتى إذا أصبح ركب إليهم في تعبته، فالتقوا بسلي وسليبري، فتصافوا، فخرج من الخوارج مائة فارس، فركّزوا رماحهم بين الصفيين، واتكأوا عليها، وأخرج إليهم المهلب أعدادهم، ففعلوا مثل ما فعلوا، لا يرفعون إلا الصلاة، حتى إذا أمسوا رجع كل قوم إلى معسكرهم، ففعلوا هكذا ثلاثة أيام.

ثم إن الخوارج تطاردوا لهم في اليوم الثالث، فحمل عليهم هؤلاء الفرسان، فجالوا جماعة، ثم إن رجلاً من الخوارج حمل على رجل قطعته، فحمل عليه المهلب قطعته، فحمل الخوارج بأجمعهم، كما صنعوا يوم سولاف فضعضوا الناس، وفقد المهلب وثبت المغيرة في جمع أكثرهم أهل عُمان.

ثم نجم المهلب في مائة، وقد انغمس كُماه في الدم، وعلى رأسه قلنسوة مربعة فوق المغفر محشوة قزاً وقد تمزّقت، وإن حشوها ليططير وهو يلهث، وذلك في وقت الظهر، فلم يزل يحاربهم حتى أتى الليل، وكثر القتلى في الفريقين، فلما كان الغد غاداهم، وقد كان وجه بالأمس رجلاً من طاحية بن سود بن مالك بن فهم، من الأزد من ثقاته وأصحابه، يرّد المنهزمين، فمرّ به عامر بن مسمع فردّه، فقال: إن الأمير أذن لي في الانصراف، فبعث إلى المهلب، فأعلمه، فقال: دعه فلا حاجة لي في مثله من أهل الجبن والضعف. ثم غاداهم المهلب في ثلاثة آلاف، وقد تفرّق عنه أكثر الناس، وقال لأصحابه: ما بكم من قلة! أيعجز أحدكم أن يلقي رمحه ثم يتقدم فيأخذه ففعل ذلك رجل من كندة، واتبه قوم، ثم قال المهلب لأصحابه: أعدوا مخالي فيها حجارة، وارموا بها في وقت الغفلة، فإنها تصدّ الفارس، وتصرع الراجل، ففعلوا. ثم أمر منادياً ينادي في أصحابه، يأمرهم بالجدّ والصبر، ويطمعهم في العدو، ففعل ذلك حتى مرّ ببني العدوية، من بني مالك بن حنظلة، فنادى فيهم فضربوه، فدعا المهلب بسيدهم - وهو معاوية بن عمرو - فعل: يركّله برجله، فقال: أصلح الله الأمير! اعفني من أمّ كيسان - والأزد تسمى الركبة أم كيسان - ثم حمل المهلب وحملوا، واقتتلوا قتالاً شديداً، فجهد الخوارج، ونادى مناد منهم: إلا إن المهلب قد قُتل.

فركب المهلب برذوناً وزداً، وأقبل يرغض بين الضفين، وإن إحدى يديه لفي القباء، وما يشعر لها، وهو يصيح: أنا المهلب! فسكن الناس بعد أن كانوا قد ارتاعوا وظنوا أن أميرهم قد قتل، وكَلَّ الناس مع العَصْر، فصاح المهلب بابنه المغيرة: تقدم، ففعل وصاح بذئوان مولاة: قدم رايتك، ففعل، فقال له رجل من ولده: إنك تغرر بنفسك، فزبره وزجره، وصاح: يا بني سلمة، أمركم فتعصوني! فتقدم وتقدم الناس فاجتلدوا أشد جِلاد، حتى إذا كان مع المساء قتل ابن الماخوز، وانصرف الخوارج ولم يشعر المهلب بقتله، فقال لأصحابه: ابغوا لي رجلاً جَلداً يطوف في القتلى، فأشاروا عليه برجل من جَزَم، وقالوا: إنا لم نر قط رجلاً أشد منه، فجعل يطوف ومعه النيران، فحمل إذا مر بجريح من الخوارج، قال: كافر ورب الكعبة! فأجهز عليه، وإذا مر بجريح من المسلمين أمر بسقيه وحمله، وأقام المهلب يأمرهم بالاحتراس، حتى إذا كان في نصف الليل، وجه رجلاً من اليخمد في عشرة، فصاروا إلى عسكر الخوارج، فإذا هم قد تحمّلوا إلى أَرْجان، فرجع إلى المهلب فأعلمه، فقال لهم: أنا الساعة أشد خوفاً، احذروا الليات.

ويروى عن شعبة بن الحجاج أن المهلب قال لأصحابه يوماً: إن هؤلاء الخوارج قد ينسوا من ناحيتكم إلا من جهة البيت، فإن يكن ذلك فاجعلوا شعاركم: «حَم لا يُنصرون» فإن رسول الله ﷺ كان يأمر بها^(١).

ويروى أنه كان شعار أصحاب علي بن أبي طالب عليه السلام.

فلما أصبح القوم غَدَوْا على القتلى، فأصابوا ابن الماخوز قتيلاً، ففي ذلك يقول رجل من الخوارج:

بِسْلِي وَسَلْبِرِي مَصَارِعَ فَتِيَةٍ كِرَامٍ وَعَقْرِي مِنْ كَمِينٍ وَمِنْ وَرْدٍ^(٢)
وقال آخر:

بِسْلِي وَسَلْبِرِي جَمَاجِمَ فَتِيَةٍ كِرَامٍ وَسَرْعَى لَمْ تَوْشِدْ خَدُودَهَا
وقال رجل من مَوَالِي المهلب: لقد صرعت يومئذ بحجر واحد ثلاثة، رميت به رجلاً فصرعته، ثم رميت به رجلاً فأصبت به أصل أذنه فصرعته، ثم أخذت الحجر وصرعت به ثالثاً، وفي ذلك يقول رجل من الخوارج:

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: الجهاد، باب: ما جاء في الشعار (١٦٨٢)، وأبو داود، كتاب الجهاد، باب: الرجل ينادي بالشعار (٢٥٩٧)، وأحمد في «مسنده» (١٦١٧٩).

(٢) سَلْي وسَلْبِرِي: يقال لهما العاقول، وهي منازل الصغرى كانت بها وقعة بين المهلب والأزارقة. اللسان، مادة (سلل).

أَنَا بِأَحْجَارٍ لَيَقْتُلُنَا بِهَا وَهَلْ يُقْتَلُ الْأَبْطَالُ وَيَنْحَكُ بِالْحَجَرِ!
وقال رجل من أصحاب المهلب في يوم سِلي وسَلْبَرِي وقتل ابن الماحوز:
وَيَوْمَ سَلْيٍ وَسَلْبَرِي أَحَاطَ بِهِمْ مِنْ صَوَاعِقُ لَا تُبْقِي وَلَا تَذُرُ
حَتَّى تَرْكُنَا عُبيدَ اللَّهِ مُنْجِدِلًا كَمَا تَجِدَلُ جَذْعُ مَالٍ مُنْقَعِرُ
ويروى أن رجلاً من الخوارج يوم سِلي حمل على رجل من أصحاب المهلب، فطعنه، فلما خالطه الرَّمح صاح: يَا أَمْتَاهُ! فصاح به المهلب: لَأَكْثَرُ اللَّهُ مِنْكَ فِي الْمُسْلِمِينَ! فضحك الخارجي، وقال:

أُمُّكَ خَيْرٌ لَكَ مِنِّي صَاحِبًا تَسْقِيكَ مَخْضًا وَتُعَلِّ رَائِبًا
وكان المغيرة بن المهلب إذا نظر إلى الرماح قد تشاجرت في وجهه، نكس على قَرَبُوس السَّوْج، وَحَمَلَ مِنْ تَحْتِهَا، فَبَرَاها بِسَيْفِهِ، وَأَثَرُ فِي أَصْحَابِهَا، فَتُخَوِّمِيَتِ الْمِيْمَةُ مِنْ أَجْلِهِ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا تَكُونُ الْحَرْبُ اسْتِعَارًا أَشَدَّ مَا يَكُونُ تَبَسُّمًا. وَكَانَ الْمَهْلَبُ يَقُولُ: مَا شَهِدَ مَعِيَ حَرْبًا قَطُّ إِلَّا رَأَيْتُ الْبُشْرَى فِي وَجْهِهِ.

وقال رجل من الخوارج في هذا اليوم:
فَإِنْ تَكُ قَتَلْتَنِي يَوْمَ سَلْيٍ تَتَابَعْتَ فَكَمْ غَادَرَتْ أَسْيَافُنَا مِنْ قَمَاقِمِ
غَدَاةٍ نَكُرُ الْمَشْرِفِيَّةَ فِيهِمْ بِسُؤْلَاتِ يَوْمِ الْمَازِقِ الْمُتَلَاخِمِ
فكتب المهلب إلى الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة القُبَاع:

أما بعد، فإننا لقينا الأزارقة المارقة بخدّ وجدّ، فكانت في الناس جولة، ثم تاب أهل الحِفاظ، بِنِيَّاتٍ صَادِقَةٍ، وَأَبْدَانٍ شَدَادٍ، وَسُيُوفٍ حِدَادٍ، فَأَعَقَبَ اللَّهُ خَيْرَ عَاقِبَةٍ، وَجَاوَزَ بِالنِّعْمَةِ مَقْدَارَ الْأَمَلِ، فَصَارُوا دَرِيئَةً رَمَاحَنَا، وَضَرَائِبَ سَيُوفِنَا، وَقَتَلَ اللَّهُ أَمِيرَهُمْ ابْنَ الْمَاحُوزِ، وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ آخِرَ هَذِهِ النِّعْمَةِ كَأَوَّلِهَا. وَالسَّلَامُ.

فكتب إليه القُبَاع:
قد قرأت كتابك يا أخا الأزدي، فرأيتك قد وُهِبَ لَكَ شَرَفُ الدُّنْيَا وَعِزُّهَا، وَذُخِرَ لَكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ثَوَابُ الْآخِرَةِ، وَأَجْرُهَا، وَرَأَيْتُكَ أَوْثَقَ حَصُونِ الْمُسْلِمِينَ، وَهَادِ أَرْكَانِ الْمُشْرِكِينَ، وَذَا الرِّيَاسَةِ وَأَخَا السِّيَاسَةِ، فَاسْتَدِمَ اللَّهُ بِشُكْرِهِ، يَتِمُّ عَلَيْكَ نَعْمُهُ. وَالسَّلَامُ.

وكتب إليه أهل البصرة يهتونه، ولم يكتب إليه الأحنف، ولكن قال: اقْرَؤُوا عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقُولُوا:
أَنَا لَكَ عَلَى مَا فَارَقْتُكَ عَلَيْهِ. فَلَمْ يَزَلْ يَقْرَأُ الْكِتَابَ وَيَنْظُرُ فِي تَضَاعِيفِهَا، وَيَلْتَمِسُ كِتَابَ الْأَحْنَفِ فَلَا يَرَاهُ، فَلَمَّا لَمْ يَرَهُ، قَالَ لِأَصْحَابِهِ: أَمَا كَتَبَ أَبُو بَحْرٍ؟ فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ: إِنَّهُ حَمَلَنِي إِلَيْكَ رِسَالَةً، فَأَبْلَغَهُ، فَقَالَ: هَذَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ هَذِهِ الْكِتَابِ.

واجتمعت الخوارج بأرجان، فبايعوا الزبير بن علي، وهو من بني سليط بن يربوع، من رَهْط ابن الماخوز، فرأى فيهم انكساراً شديداً، وضعفاً يتيماً، فقال لهم: اجتمعوا، فاجتمعوا فحمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد رسوله ﷺ، ثم أقبل عليهم فقال: إن البلاء للمؤمنين تمحيص وأجر، وهو على الكافرين عقوبة وخزي، وإن يُصَبَّ منكم أمير المؤمنين، فما صار إليه خير مما خَلَفَ، وقد أصبتم منهم مسلم بن عُبَيْس وربيعة الأجدم والحجاج بن رباب وحارثة بن بدر، وأشجيثم المهلب وقتلتهم أخاه المَعَارِك، والله يقول لإخوانكم المؤمنين: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ تُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾^(١)، فيوم يسلي كان لكم بلاء وتمحيصاً، ويوم سولاف كان لهم عقوبة ونكالا، فلا تُغْلِبَنَّ على الشكر في حينه، والصبر في وقته، وثقوا بأنكم المستخلفون في الأرض، والعاقبة للمتقين.

ثم تحمّل للمحاربة نحو المهلب، فتنفحهم المهلب نفحة فرجعوا وأكثموا للمهلب - في غَمَضٍ من غَمُوض الأرض يقرب من عسكره - مائة فارس ليقتالوه، فسار المهلب يوماً يُطِيف بعسكره، ويتفقد سواده، فوقف على جبل، فقال: إن من التدبير لهذه المارقة أن تكون قد أَكْمَنْتَ في سَفْحِ هذا الجبل كميناً، فبعث المهلب عشرة فوارس، فاطلّوا على المائة، فلما علموا بهم قطعوا القنطرة ونجوا وانكشفت الشمس فصاحوا: يا أعداء الله، لو قامت القيامة لجددنا ونحن في جهادكم.

ثم يش الزبير من ناحية المهلب، فضرب إلى ناحية أصبهان، ثم كرّ راجعاً إلى أرجان وقد جمع جموعاً، وكان المهلب يقول: كأي بالزبير وقد جمع لكم، فلا تُرْهِبُوهم، فتنجب قلوبكم، ولا تغفلوا الاحتراس فيطعموا فيكم. فجاءوه من أرجان، فلقوه مستعداً أخذاً بأفواه الطرق، فحاربهم فظهر عليهم ظهوراً يتيماً، ففي ذلك يقول رجل من بني يربوع:

سَقَى اللّهُ الْمَهْلَبَ كُلَّ غَيْثٍ مِنْ الْوَسْمِيِّ يَنْتَجِرُ انْتِجَارًا

فَمَا وَهَنَ الْمَهْلَبُ يَوْمَ جَاءَتْ عَوَابِسُ خَيْلِهِمْ تَبْغِي الْخَوَارَا

وقال المهلب يومئذ: ما وقفت في مضيق من الحرب إلا رأيت أمامي رجالاً من بني الهُجَيم بن عمرو بن تميم يجالِدُونَ، وكأنّ لحاهم أذنان العقاق وكانوا صبروا معه في غير مواطن.

وقال رجل من أصحاب المهلب من بني تميم:

أَلَا يَا مَنْ لَصَبٌ مُسْتَهَامٌ قَرِيحُ الْقَلْبِ قَدْ مَلَّ الْمَزُونَا

لَهَانَ عَلَى الْمَهْلَبِ مَا لَقِينَا إِذَا مَا رَاحَ مَسْرُورًا بِطِينَا

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٠.

يَجْرُ السَّابِرِيُّ وَتَحْنُ شُعْتُ كَانَ جُلُودَنَا كُسِيَتْ طَحِينًا
وحمل يومئذ الحارث بن هلال على قيس الإكاف، وكان من أنجد قُرَمان الخوارج قطعته
فدقَّ صلبه، وقال:

قيس الإكاف غداة الرُّوعِ يَعْلَمُنِي ثَبِتَ الْمَقَامَ إِذَا لَاقَيْتُ أَقْرَانِي
وقد كان بعض جيش المهلب يوم سَلَى وسَلَبَرِي صاروا إلى البصرة، فذكروا أن المهلب قد
أصيبَ فهِمَ أهل البصرة بالثقل إلى البادية، حتى ورد كتابه بظْفَرِهِ، فأقام الناس، وتراجع مَنْ
كان ذهب منهم، فعند ذلك قال الأحنف: البَصْرَةُ بِصْرَةِ الْمَهْلَبِ. وقدم رجل من كِنْدَةَ يعرف
بابن أَرْقَم، فنعى ابنَ عَمِّ له، وقال: إني رأيت رجلاً من الخوارج، وقد مَكَّنَ رُمَحَهُ مِنْ صُلْبِهِ فَلَمْ
يَنْشَبْ أَنْ قَدَّمَ الْمَنْعِي سَالِمًا، فَقِيلَ لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ: صَدَقَ ابْنُ أَرْقَمَ، لَمَّا أَحَسَسْتُ بِرُمَحِهِ بَيْنَ
كَتِفَيْ صِخْتِ بِهِ: الْبَقِيَّةُ، فَرَفَعَهُ، وَتَلَا: ﴿يَقِيْتُ اللَّهَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١) وَوَجَّهَ
الْمَهْلَبَ بِعَقِبِ هَذِهِ الْوَقْعَةِ رَجُلًا مِنَ الْأَزْدِ، بِرَأْسِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ بَشِيرٍ بْنِ الْمَاخُوزِ إِلَى الْحَارِثِ بْنِ
عُبَيْدِ اللَّهِ، فَلَمَّا صَارَ بِكُرْبُجٍ دِيَارَ لَقِيَّتِهِ إِخْوَةَ عُبَيْدِ اللَّهِ: حَبِيبٌ وَعَبْدُ الْمَلِكِ وَعَلِيٌّ بْنُ بَشِيرٍ
الْمَاخُوزِيُّ فَقَالُوا: مَا الْخَبَرُ؟ وَهُوَ لَا يَعْرِفُهُمْ، فَقَالَ: قَتَلَ اللَّهُ ابْنَ الْمَاخُوزِ الْمَارِقَ، وَهَذَا رَأْسُهُ
مَعِي، فَوُثِّبُوا عَلَيْهِ فَقَتَلُوهُ وَصَلَبُوهُ، وَدَفَنُوا رَأْسَ أَخِيهِمْ عُبَيْدِ اللَّهِ، فَلَمَّا وَلِيَ الْحِجَابَ دَخَلَ عَلَيْهِ
عَلِيٌّ بْنُ بَشِيرٍ، وَكَانَ وَسِيمًا جَسِيمًا، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ فَخَبَّرَهُ، فَقَتَلَهُ وَوَهَبَ ابْنَتَهُ الْأَزْهَرِ وَابْنَتَهُ
لَأَهْلِ الْأَزْدِ الْمَقْتُولِ، وَكَانَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ بَشِيرٍ لَهُمْ مُوَاصِلَةً، فَوَهَبُوهَا لَهَا.

قال أبو العباس محمد بن يزيد المبرد في كتاب «الكامل»: ولم يزل المهلب يقاتل الخوارج
في ولاية الحارث القُبَاعِ، حَتَّى عَزَلَ وَوَلِيَ مُصْعَبُ بْنُ الزَّيْرِ، فَكُتِبَ إِلَى الْمَهْلَبِ أَنْ أَقْدِمَ عَلَيَّ،
وَاسْتَخْلَفَ ابْنُكَ الْمُغِيرَةَ. ففعل بعد أن جمع الناس، وقال لهم: إِنِّي قَدْ اسْتَخْلَفْتُ الْمُغِيرَةَ
عَلَيْكُمْ، وَهُوَ أَبُو صَغِيرِكُمْ رَقَّةً وَرَحْمَةً، وَابْنُ كَبِيرِكُمْ طَاعَةً وَبِرًّا وَتَبَجِيلًا، وَأَخُو مِثْلِهِ مُوَاسَاةً
وَمُنَاصَحَةً، فَلْتَحَسَّنْ لَهُ طَاعَتَكُمْ، وَلِيَلِنْ لَهُ جَانِبُكُمْ، فَوَاللَّهِ مَا أَرَدْتُ صَوَابًا قَطُّ إِلَّا سَبَقَنِي إِلَيْهِ.

ثم مضى إلى مصعب، فكتب مصعب إلى المغيرة بولايته، وكتب إليه: إِنَّكَ إِنْ لَمْ تَكُنْ
كَأَيِّكَ، فَإِنَّكَ كَأَفٍّ لِمَا وَلَيْتَ، فَشَمَّرْ وَاتَّقِرْ، وَجِدَّ وَاجْتَهِدْ.

ثم شَخَّصَ الْمُصْعَبُ إِلَى الْمَزَارِ، فَقَتَلَ أَحْمَرَ بْنَ شَمِيطٍ، ثُمَّ أَتَى الْكُوفَةَ فَقَتَلَ الْمُخْتَارَ، وَقَالَ
لِلْمَهْلَبِ: أَشِيرْ عَلَيَّ بِرَجُلٍ أَجْعَلُهُ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ: اذْكُرْ وَاحِدًا مِنْ ثَلَاثَةِ:

(١) سورة هود، الآية: ٨٦.

محمد بن عمير بن عطار الدارمي، أو زياد بن عمرو بن الأشرف العتكي، أو داود بن قحذم، قال: أو تكفيني أنت؟ قال: أكفيك إن شاء الله. فشخص فولاه الموصل فخرج إليها، وصار مُصعب إلى البصرة لينفر إلى أخيه بمكة. فشاور الناس فيمن يستكفيه أمر الخوارج، فقال قوم: ولّ عبد الله بن أبي بكرة، وقال قوم: ولّ عمر بن عبيد الله بن معمر، وقال قوم: ليس لهم إلا المهلب فاردده إليهم، وبلغت المشورة الخوارج فأداروا الأمر بينهم، فقال قطري بن الفجاءة المازني - ولم يكن أمروه عليهم بقدر - : إن جاءكم عبد الله بن أبي بكرة أتاكم سيّد سَمح كريم جواد مُضِيع لعسكره، وإن جاءكم عمر بن عبيد الله أتاكم فارس شجاع، بطل جاد، يقاتل لدينه ولملكه، وبطبيعة لم أر مثلاً لأحد، فقد شهدته في وقائع، فما تُودّي في القوم لحرب إلا كان أول فارس، حتى يَشُدَّ على قرنه ويضربه، وإن رُدَّ المهلب فهو مَنْ قد عرفتموه، إذا أخذتم بطرف ثوب أخذ بطرفه الآخر، يمدّه إذا أرسلتموه، ويُرسله إذا مددتموه، لا يبدؤكم إلا أن تبدؤوه، إلا أن يرى فرصة فيتهزها، فهو الليث المبرّ، والشعلب الرواغ، والبلاء المقيم.

فولّى مصعبٌ عليهم عمر بن عبيد الله بن معمر، ولّاه فارس، والخوارج بأرجان يومئذٍ وعليهم الزبير بن عليّ السليطي، فشخص إليهم فقاتلهم، وألح عليهم حتى أخرجهم منها فالحقهم بأصبهان، فلما بلغ المهلب أن مصعباً ولّى حرب الخوارج عمر بن عبيد الله، قال: رماهم بفارس العرب وقتّاهم. فجمع الخوارج له، وأعدّوا واستعدّوا، ثم أتوا سابور. فسار إليهم حتى نزل منهم على أربعة فراسخ، فقال له مالك بن أبي حسان الأزدي: إن المهلب كان يُذكي العيون، ويخاف الليّات، ويرتقب الغفلة، وهو على أبعد من هذه المسافة منهم.

فقال عمر: اسكُت، خَلَعَ الله قلبك! أترأى تموت قبل أجلك! وأقام هناك، فلما كان ذات ليلة بيته الخوارج، فخرج إليهم فحاربهم حتى أصبح، فلم يظفروا منه بشيء. فأقبل على مالك بن أبي حسان، فقال: كيف رأيت؟ فقال: قد سلّم الله، ولم يكونوا يطمعون في مثلها من المهلب، فقال: أما إنكم لو ناصحتموني ناصحتكم المهلب، لرجوت أن أنفي هذا العدو ولكنكم تقولون: قرشتي حجازي، بعيد الدار خيرٌ لغيرنا، فتقاتلون معي تعذيراً. ثم زحف إلى الخوارج من غد ذلك اليوم، فقاتلهم قتالاً شديداً، حتى ألجأهم إلى قنطرة، فتكاثف الناس عليها حتى سقطت، فأقام حتى أصلحها، ثم عبّر، وتقدّم ابنه عبيد الله بن عمر - وأمه من بني سَهْم بن عمرو بن هُصَيْن بن كعب - فقاتلهم حتى قُتِل، فقال قطري للخوارج: لا تقاتلوا عَمَر اليوم، فإنه موتور، قد قتلتم ابنه - ولم يعلم عمرُ بقتل ابنه حتى أفضى إلى القوم، وكان معه ابنه النعمان بن عباد - فصاح به عمر: يا نعمان، أين ابني؟ قال احتسبه فقد استشهد صابراً مقبلاً غير مدبر، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون! ثم حَمَلَ على الخوارج حملة لم يُر مثلاً، وحمل أصحابه بحملته، فقتلوا في وجههم ذلك تسعين رجلاً من الخوارج، وحمل على قَطْرِي فضربه

على جبينه ففلقه، وانهزمت الخوارج وانتهبها، فلما استقروا ورأى ما نزل بهم، قال: ألم أشير عليكم بالانصراف! فجعلوه حيثنذ من وجوههم، حتى خرجوا من فارس، وتلقاهم في ذلك الوقت الفُزْر بن مَهْزَم العبدِيّ، فسألوه عن خبره، وأرادوا قتله، فأقبل على قطريّ، وقال: إني مؤمن مهاجر، فسأله عن أقاويلهم فأجاب إليها، فخلّوا عنه، ففي ذلك يقول في كلمة له:

فشدّوا وثاقي ثم ألجؤا خُصُومتي إلى قطريّ ذي الجبين المفلّقي
وحاججّتهم في دينهم فحججّتهم وما دينهم غير الهوى والتخلّقي
ثم رجعوا وتكاثفوا، وعادوا إلى ناحية أَرْجان، فسار إليهم عمر بن عبيد الله، وكتب إلى معصب:

أما بعد، فإني لقيت الأزارقة، فرزق الله عزّ وجلّ عبيد الله بن عمر الشهادة، ووهب له السعادة، ورزقنا بعدُ عليهم الظفر، فتفرقوا شذّر مذر. وبلغني عنهم عودة فيمّنتهم، وبالله استعين، وعليه أتوكل.

فسار إليهم ومعه عطية بن عمرو، ومُجاعة بن سُغْر فالتقوا، فآلح عليهم عمر حتى أخرجهم، وانفرد من أصابه، فعبد إلى أربعة عشر رجلاً من مذكوريهم وشجعانهم، وفي يده عمود. فجعل لا يضرب رجلاً منهم ضربة إلا صرعه، فركض إليه قطريّ على فرس طير وعمر على مَهر، فاستعلاه قطريّ بقوة فرسه، حتى كاد يصرعه، فبصر به مُجاعة، فأسرع إليه فصاحت لخوارج: يا أبا نعام، إنّ عدوّ الله قد رهقك. فانحطّ قطريّ على قُرْبُوسه وطعته مُجاعة، وعلى قطريّ دِزْعان فهتكهما وأسرع السنان في رأس قطريّ، فكشط، جلده ونجا وارتحل القوم إلى صفّهان، فأقاموا بُرْهة، ثم رجعوا إلى الأهواز، وقد ارتحل عمر بن عبيد الله إلى إصطخر، فأمر مُجاعة فجَبى الخراج أسبوعاً، فقال له: كم جيت؟ قال: تسعمائة ألف فقال: هي لك.

وقال يزيد بن الحكم لمُجاعة:

ودَعَاكَ دَعْوَةُ مُرْهَقٍ فَأَجَبْتَهُ عُمَرُ وَقَدْ نَسِيَ الْحَيَاءَ وَضَاعَا
فَرَدَدْتَ عَادِيَةَ الْكُتَيْبَةِ عَنْ فَتَى قَدْ كَادَ يُشْرِكُ لَحْمَهُ أَوْزَاعَا

قال: ثم عُزِل مُصْعَبُ بن الزُّبَيْر، وولّى عبدُ الله بن الزُّبَيْر العراق ابنه حمزة بن عبد الله بن الزُّبَيْر، فمكث قليلاً، ثم أعيد مُصْعَب إلى العراق، والخوارج بأطراف أصبّهان، والوالي عليها عُتَاب بن وَرْقَاء الرِّياحِيّ، فأقام الخوارج هناك يجبون شيئاً من القرى، ثم أقبلوا إلى الأهواز من ناحية فارس، فكتب مُصْعَب إلى عمر بن عبيد الله: ما أنصفتنا! أقمّت بفارس تُجبي لخراج، ومثل هذا العدو يجتاز بك لا تحاربه! والله لو قاتلت ثم هُزمت لكان أغدَر لك!

وخرج مُصْعَب من البصرة يريدهم، وأقبل عمر بن عبيد الله يريدهم، فتنحى الخوارج إلى

السُّوس، ثم أتوا إلى المدائن، ويسطوا في القتل، فجعلوا يقتلون النساء والصبيان، حتى أتوا المذار، فقتلوا أحمر طييء، وكان شجاعاً، وكان من فرسان عبيد الله بن الحر، وفي ذلك يقول الشاعر:

تَرَكَتُمْ فَتَى الْفَتَيَانِ أَحْمَرَ طَيِّئٍ بِسَابَاطٍ لَمْ يَغْطِفْ عَلَيْهِ خَلِيلُ

ثم خرجوا عامدين إلى الكوفة، فلما خالطوا سوادها - وواليها الحارث القباع - تناقل عن الخروج، وكان جباناً، فذممه إبراهيم بن الأشتر، ولامه الناس، فخرج متحاملاً حتى أتى النخيلة، ففي ذلك يقول الشاعر:

إِنَّ الْقُبَاعَ سَارَ سَيْرًا نَكْرًا يَسِيرُ يَوْمًا وَيُقِيمُ عَشْرًا

وجعل يعد الناس بالخروج ولا يخرج، والخوارج يعيشون، حتى أخذوا امرأة، فقتلوا أباهما بين يديها، وكانت جميلة، ثم أرادوا قتلها، فقالت: أتقتلون من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبین! فقال قائل منهم: دعوها، فقالوا: قد فتشك، ثم قدموها فقتلوها.

وقربوا امرأة أخرى وهم بإزاء القباع، والجسر معقود بينهم، فقطعه القباع وهو في ستة آلاف، والمرأة تستغيث به وهي ثقبل، وتقول: علام تقتلونني! فوالله ما فسقت، ولا كفرت ولا زنت، والناس يتفلتون إلى القتال، والقباع يمنعهم.

فلما خاف أن يعصوه أمر عند ذاك بقطع الجسر، فأقام بين دبيري ودبأها خمسة أيام والخوارج بقربه، وهو يقول للناس في كل يوم: إذا لقيتم العدو غداً، فأثبتوا أقدامكم واصبروا فإن أول الحرب الترامي، ثم إشراع الرماح، ثم السلة، فشككت رجلاً أمه فر من الزحف!

فقال بعضهم لما أكثر عليهم: أما الصفة فقد سمعناها، فمتى يقع الفعل؟

وقال الراجز:

إِنَّ الْقُبَاعَ سَارَ سَيْرًا مَلَسًا بَيْنَ دَبَاهَا وَدَبِيرَى خَمْسًا

وأخذ الخوارج حاجتهم، وكان شأن القباع التحصن منهم، ثم انصرفوا ورجع إلى الكوفة، وساروا من فورهم إلى أصبهان، فبعث عتاب بن ورقاء الرياحي إلى الزبير بن علي: أنا ابن عمك، ولست أراك تقصد في انصرافك من كل حرب غيري. فبعث إليه الزبير: إن أدنى الفاسقين وأبعدهم في الحق سواء.

فأقام الخوارج يُغَادُونَ عَتَابَ بْنَ وَرْقَاءَ الْقِتَالِ وَيُرَاوِخُونَهُ، حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْمَقَامُ، وَلَمْ يَظْفَرُوا بِكَبِيرِ شَيْءٍ، فَلَمَّا كَثُرَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ انْصَرَفُوا، لَا يَمْرُونَ بِقَرْيَةٍ بَيْنَ أَصْبَهَانَ وَالْأَهْوَازِ إِلَّا اسْتَبَاحُوهَا، وَقَتَلُوا مَنْ فِيهَا. وَشَاوَرِ الْمُصَعَّبِ النَّاسَ فِيهِمْ، فَاجْمَعَ رَأْيُهُمْ عَلَى الْمَهْلَبِ، فَبَلَغَ الْخَوَارِجُ مُشَاوَرَتَهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ قَطَرِي: إِنَّ جَاءَكُمْ عَتَابُ بْنُ وَرْقَاءَ، فَهُوَ قَاتِلُكَ يَطْلُعُ فِي أَوَّلِ

المِقْنَب ولا يظفر بكثير، وإن جاءكم عمر بن عبيد الله ففارس يُقَدِّم، إما عليه وإمّا لهُ، وإن جاءكم المهلب فرجل لا يُتَاجَزُكم حتى تُتَاجَزوه ويأخذُ منكم ولا يُعطيكم. فهو البلاء الملازم، والمكروه الدائم.

وعزم مُصْعَب على توجّيه المهلب، وأن يشخص هو لحرب عبد الملك. فلما أحسَّ به الزبير خرج إلى الرّي - وبها يزيد بن الحارث بن رويم - فحاربه ثم حصّره، فلما طال عليه الحصار خرج إليه، فكان الظفر للخوارج، فقتل يزيد الحارث بن رويم، ونادى يزيد ابنه حَوْشَبًا، ففرّ عنه وعن أمّه لطيفة وكان عليّ بن أبي طالب عليه السلام دخل على الحارث بن رويم يعود ابنه يزيد، فقال: عندي جارية لطيفة الخدمة أبعث بها إليك، فسماها يزيد لطيفة فقتلت مع بعلها يزيد يومئذ. وقال الشاعر:

مَوَاقِفُنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ كَرِيهَةٌ أَسْرَ وَأَشْفَى مِنْ مَوَاقِفِ حَوْشَبِ
دَعَاهُ أَبَوُهُ وَالرُّمَاحُ شَوَارِعُ فلم يستجِبْ بل رَاغَ تَرَوَاعُ ثَغْلَبِ
وَلَوْ كَانَ شَهْمَ النَّفْسِ أَوْ ذَا حَفِيطَةٍ رَأَى مَا رَأَى فِي الْمَوْتِ عَيْسَى بْنُ مُصْعَبِ
وقال آخر:

نَجَّى حَلِيلَتَهُ وَأَسْلَمَ شَيْخَهُ نَصَبَ الْأَيْمَنَةَ حَوْشَبُ بْنُ يَزِيدِ
قال: ثم انحط الزبير على أصفهان، فحصر بها عتّاب بن ورقاء سبعة أشهر، وعتّاب يُحاربه في بعضهنّ، فلما طال به الحصار قال لأصحابه: ما تنتظرون! والله ما تُؤْتُونَ من قِلّة، وأنكم لقرّسان عشائركم. ولقد حاربتموهم مراراً فانتصفتهم منهم، وما بقيّ مع هذا الحصار إلا أن تُفنى ذخائركم، فيموت أحدكم، فيدفنه أخوه، ثم يموت أخوه فلا يجدُ مَنْ يدفنه، فقاتلوا القوم وبكم قوّة من قبل أن يَضْعُفَ أحدكم عن أن يمشي إلى قِرْنه.

فلما أصبح صلى بهم الصبح، ثم خرج إلى الخوارج وهم غارون، وقد نصبَ لواءَ لجارية له يقال لها ياسمين، فقال: مَنْ أراد البقاء فليُلحِقْ بلواء ياسمين، ومن أراد الجهاد فليخرج معي، فخرج في ألفين وسبعمائة فارس، فلم يشعر بهم الخوارج حتى غشّوهم فقاتلوهم بجدٍّ لم تر الخوارج منهم مثله، فعقروا منهم خلقاً كثيراً وقتل الزبير بن عليّ وانهزمت الخوارج، فلم يتبعهم عتّاب، ففي ذلك يقول القائل:

وَيَسُومُ بِجَيِّ تَلَافِيئِهِ وَلَوْلَاكَ لَا ضَظْلِمَ الْعَسْكَرُ
وقال آخر:

خَرَجْتُ مِنَ الْمَدِينَةِ مُسْتَمِيئاً وَلَمْ أَكُ فِي كَتِيبَةِ يَاسْمِينَا
الْيَسَ مِنْ الْفَضَائِلِ أَنَّ قَوْمِي غَدَاوا مُسْتَلْزِمِينَ مَجَاهِدِينَا

قال: وتزعم الرواة أنهم في أيام حصارهم كانوا يتواقفون، ويحمل بعضهم على بعض وربما كانت مواقفهم بغير حرب، وربما اشتدت الحرب بينهم، وكان رجل من أصحاب عتاب - يقال له: شريح، ويكنى أبا هريرة - إذا تحاجز القوم مع المساء نادى بالخوارج والزبير بن علي:

يَا بَنَ أَبِي السَّاحُوزِ وَالْأَشْرَارِ كَيْفَ تَرَوْنَ يَا كِلَابَ النَّارِ
شَدُّ أَبِي هُرَيْرَةَ الْهَرَارِ يَهْرُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
أَلَمْ تَرَوْا حَيًّا عَلَى الْمِضْمَارِ يُنْمِسِي مِنَ الرَّخْمَنِ فِي جَوَارِ
فغاضهم ذلك، فكمن له عبيدة بن هلال، فضربه بالسيف، واحتمله أصحابه، وظنت الخوارج أنه قد قتل، فكانوا إذا تواقفوا نادوهم: ما فعل الهزار؟ فيقولون: ما به من بأس حتى أبل من علته، فخرج إليهم، فقال: يا أعداء الله، أترون بي بأساً، فصاحوا به: قد كنا نرى أنك قد لحقت بأهلك الهاوية، إلى النار الحامية.

ومنهم قطري بن الفجاءة المازني، قال أبو العباس:

لما قتل الزبير بن علي أدارت الخوارج أمرها، فأرادوا تولية عبيدة بن هلال، فقال: أدلكم على من هو خير لكم مني؟ من يطاعن في قبل، ويحمي في دبر، عليكم بقطري بن الفجاءة المازني. فبايعوه. وقالوا: يا أمير المؤمنين، امض بنا إلى فارس، فقال: إن بفارس عمر بن عبيد الله بن مغم، ولكن نسير إلى الأهواز، فإن خرج مضعب من البصرة دخلناها، فأتوا الأهواز ثم ترفعوا عنها على إيدج - وكان المضعب قد عزم على الخروج إلى باجميرا - وقال لأصحابه: إن قطرياً لمطل علينا، وإن خرجنا عن البصرة دخلها، فبعث إلى المهلب فقال: اكفنا هذا العدو، فخرج إليهم المهلب، فلما أحس به قطري يتم نحو كرمان، وأقام المهلب بالأهواز، ثم كر عليه قطري، وقد استعد، وكانت الخوارج في حالاتهم أحسن حدة ممن يقاتلهم بكثرة السلاح وكثرة الدواب، وحصانة الجن. فحاربهم المهلب، فدفعهم فصاروا إلى رامهرمز، وكان الحارث بن عمية الهمداني قد صار إلى المهلب مراغماً لعتاب بن ورقاء، ويقال: إنه لم يرضه عن قتله الزبير بن علي، وكان الحارث بن عمية، هو الذي قتله وخاض إليه أصحابه، ففي ذلك يقول أعشى همدان:

إِنَّ الْمَكَارِمَ أَكْمَلَتْ أَسْبَابُهَا لَابِنَ اللَّيْثِ الْغُرَمِ مِنْ هَمْدَانَ
لِلْفَارِسِ الْحَامِي الْحَقِيقَةِ مُعْلِمًا زَادَ الرَّفَاقَ وَفَارِسَ الْفُرْسَانَ
الْحَارِثُ بْنُ عَمِيرَةَ اللَّيْثِ الَّذِي يَحْمِي الْعِرَاقَ إِلَى قُرَى نَجْرَانَ

وَذَ الْأَزَارِقُ لَوِ يَصَابُ بِطَعْنَةٍ وَيَمُوتُ مِنْ فَرَسَانِهِم مَائَتَانِ
 قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ: وَخَرَجَ مُصْعَبٌ إِلَى بَا جَمِيرًا، ثُمَّ أَتَى الْخَوَارِجَ خَبْرُ مَقْتَلِهِ بِمَسْكِنٍ، وَلَمْ
 يَأْتِ الْمَهْلَبُ وَأَصْحَابُهُ، فَتَوَاقَفُوا يَوْمًا بِرَأْمَهْرْمَزَ عَلَى الْخَنْدَقِ، فَنَادَاهُمُ الْخَوَارِجُ: مَا تَقُولُونَ فِي
 مُصْعَبٍ؟ قَالُوا: إِمَامٌ هَدَى، قَالُوا: فَمَا تَقُولُونَ فِي عَبْدِ الْمَلِكِ؟ قَالُوا: ضَالٌّ مُضَلٌّ، فَلَمَّا كَانَ
 بَعْدَ يَوْمَيْنِ أَتَى الْمَهْلَبُ قَتْلُ الْمُصْعَبِ، وَأَنَّ أَهْلَ الْعِرَاقِ قَدْ اجْتَمَعُوا عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ، وَوَرَدَ
 عَلَيْهِ كِتَابُ عَبْدِ الْمَلِكِ بِوِلَايَتِهِ، فَلَمَّا تَوَاقَفُوا نَادَاهُمُ الْخَوَارِجُ: مَا تَقُولُونَ فِي الْمُصْعَبِ؟ قَالُوا:
 لَا نَخْبِرُكُمْ، قَالُوا: فَمَا تَقُولُونَ فِي عَبْدِ الْمَلِكِ؟ قَالُوا: إِمَامٌ هَدَى، قَالُوا: يَا أَعْدَاءَ اللَّهِ، بِالْأَمْسِ
 ضَالٌّ مُضَلٌّ، وَالْيَوْمَ إِمَامٌ هَدَى! يَا عِيْدَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ.

وَرَوَى أَبُو الْفَرَجِ الْأَصْفَهَانِيُّ فِي كِتَابِ «الْأَغَانِي الْكَبِيرِ»^(١)، قَالَ: كَانَ الشُّرَاةُ وَالْمُسْلِمُونَ فِي
 حَرْبِ الْمَهْلَبِ وَقَطْرِيٍّ يَتَوَاقَفُونَ وَيَتَسَاءَلُونَ بَيْنَهُم عَنْ أَمْرِ الدِّينِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، عَلَى أَمَانٍ وَسُكُونٍ،
 وَلَا يَهَيِّجُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَتَوَاقَفَ يَوْمًا عُبَيْدَةُ بْنُ هِلَالٍ الْيَشْكُرِيُّ، وَأَبُو حُرَابَةَ التَّمِيمِيُّ، فَقَالَ
 عُبَيْدَةُ: يَا أَبَا حُرَابَةَ، إِنِّي أَسْأَلُكَ عَنْ أَشْيَاءَ، أَفْتَصِدُقُنِي عَنْهَا فِي الْجَوَابِ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنْ ضَمَنْتَ
 لِي مِثْلَ ذَلِكَ، قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ، قَالَ: فَسَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ، قَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي أَيْمَتِكُمْ؟ قَالَ:
 يَبِيحُونَ الدَّمَ الْحَرَامَ، قَالَ: وَيَحْكُ! فَكَيْفَ فَعَلُهُمْ فِي الْمَالِ؟ قَالَ: يَجْبُونَهُ مِنْ غَيْرِ حِلٍّ وَيُنْفِقُونَهُ فِي
 غَيْرِ وَجْهِهِ، قَالَ: فَكَيْفَ فَعَلُهُمْ فِي الْيَتِيمِ؟ قَالَ: يَظْلِمُونَهُ مَالَهُ، وَيَمْنَعُونَهُ حَقَّهُ وَيَنْتَكِبُونَ أُمَّهَ، قَالَ:
 وَيَحْكُ يَا أَبَا حُرَابَةَ! أَمِثْلَ هَؤُلَاءِ تَتَّبِعُ؟ قَالَ: قَدْ أَجَبْتُكَ، فَاسْمَعْ سَوْأَلِي وَدَعْ عِتَابِي عَلَى رَأْيِي،
 قَالَ: سَلْ، قَالَ: أَيُّ الْخَمْرِ أَطْيَبُ، خَمْرُ السَّهْلِ أَمْ خَمْرُ الْجَبَلِ؟ قَالَ: وَيَحْكُ! أَمِثْلِي يُسْأَلُ عَنْ
 هَذَا قَالَ: قَدْ أَوْجِبْتُ عَلَى نَفْسِكَ أَنْ تَجِيبَ، قَالَ: أَمَّا إِذَا أَيْتَ، فَلِأَنَّ خَمْرَ الْجَبَلِ أَقْوَى وَأَسْكِرُ،
 وَخَمْرُ السَّهْلِ أَحْسَنُ وَأَسْلَسُ، قَالَ: فَأَيُّ الزَّوَانِي أَفْرَهُ^(٢)؟ أَزَّوَانِي رَأْمَهْرْمَزَ، أَمْ زَّوَانِي أَرْجَانَ؟
 قَالَ: وَيَحْكُ! إِنَّ مِثْلِي لَا يُسْأَلُ عَنْ هَذَا، قَالَ: لَا بَدَّ مِنَ الْجَوَابِ أَوْ تَغْدِرُ.

قَالَ: أَمَّا إِذَا أَيْتَ فزَّوَانِي رَأْمَهْرْمَزَ أَرْقَ أَبْشَارًا، وَزَّوَانِي أَرْجَانَ أَحْسَنَ أَبْدَانًا. قَالَ: فَأَيُّ
 الرَّجُلَيْنِ أَشْعَرُ، جَرِيرٌ أَمْ الْفَرْزْدَقُ؟ قَالَ: عَلَيْكَ وَعَلَيْهِمَا لَعْنَةُ اللَّهِ، قَالَ: لَا بَدَّ أَنْ تَجِيبَ، قَالَ:
 أَتَيْهِمَا الَّذِي يَقُولُ:

وَطَوَى الطَّرَادُ مَعَ الْقِيَادِ بِطَوْنِهَا طَلَى الشَّجَارَ بِحَضْرَمَوْتَ بُرُودًا

(١) «الْأَغَانِي»: لِأَبِي الْفَرَجِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ الْأَصْبَهَانِيِّ الْمُتَوَفَى سَنَةَ (٣٥٦هـ)، وَهُوَ كِتَابٌ لَمْ يُؤَلَفْ
 مِثْلُهُ اتِّفَاقًا. «كَشَفُ الظُّنُونِ» (١/١٢٩).

(٢) الْفَارَهَةُ: الْجَارِيَةُ الْمَلِيحَةُ، وَالْقَتِيَّةُ، وَالشَّدِيدَةُ الْأَكْلُ. الْقَامُوسُ، مَادَّةُ (فَرَهُ).

قال: جرير، قال: فهو أشعرهما.

قال أبو الفرج: وقد كان الناسُ تجادلوا في أمر جرير والفرزدق في عسكر المهلب، حتى توائبوا، وصاروا إليه محكّمين له في ذلك، قال: أتريدون أن أحكم بين هذين الكلبيين المتهارشين، فيمضغاني! ما كنت لأحكم بينهما، ولكني أدلكم على من يحكم بينهما، ثم يهون عليه سبابهما، عليكم بالشراة، فاسألوههم إذا تواقفتم، فلما تواقفوا سأل أبو خزابة عبدة بن هلال عن ذلك، فأجابه بهذا الجواب.

وروى أبو الفرج أن امرأة من الخوارج كانت مع قطري بن الفجاءة، يقال لها أم حكيم وكانت من أشجع الناس وأجملهم وجهاً، وأحسنهم بالدين تمسكاً، وخطبها جماعة منهم فردتهم ولم تجبهم، فأخبر من شاهدها في الحرب أنها كانت تحمل على الناس وترتجز فتقول: **أَحْمِلُ رَأْسًا قَدْ سَيَّمْتُ خَمْلَهُ وَقَدْ مَلِئْتُ دَفْنَهُ وَغَسَلَهُ**
أَلَا فَتْسِي يَخْمِلُ عَنِّي ثِقْلَهُ
والخوارج يقدونها بالآباء والأمهات، فما رأينا قبلها ولا بعدها مثلاً.

وروى أبو الفرج، قال: كان عبدة بن هلال، إذا تكافت الناس ناداهم، ليخرج إلي بعضكم، فيخرج إليه فتیان من عسكر المهلب، يقول لهم: أيما أحب إليكم؟ أقرأ عليكم القرآن أم أنشدكم الشعر؟ فيقولون له: أما القرآن فقد عرفناه مثل معرفتك، ولكن تنشدنا، فيقول: يا فسقة، قد والله علمت أنكم تختارون الشعر على القرآن ثم لا يزال يُنشدُهم ويستنشدُهم حتى يملّوا ويفترقوا.

قال أبو العباس: وولى خالد بن عبد الله بن أسيد فقدم فدخل البصرة، فأراد عزل المهلب، فأشير عليه بالآ لا يفعل، وقيل له: إنما أمن أهل هذا المضر، لأن المهلب بالأهواز وعمر بن عبيد الله بفارس، فقد تنحى عمر، وإن نحييت المهلب لم تأمن على البصرة. فأبى إلا عزله، فقدم المهلب البصرة، وخرج خالد إلى الأهواز، فاستصحبه، فلما صار بكرّيج دينار لقيه قطري، فمنعه حظ أثقاله، وحاربه ثلاثين يوماً.

ثم أقام قطري بإزائه، وخندق على نفسه، فقال المهلب لخالد: إن قطرياً ليس بأحق بالخندق منك، فعبر دُجَيْلاً إلى شق نهر تيرى، واتبعه قطري فصار إلى مدينة نهر تيرى، فبنى سورها، وخندق عليها، فقال المهلب لخالد: خندق على نفسك، فإني لا آمن البيات، فقال:

يا أبا سعيد، الأمر أعجل من ذلك، فقال المهلب لبعض ولده: إني أرى أمراً ضائعاً، ثم قال لزيد بن عمرو: خندق علينا، فخندق المهلب على نفسه، وأمر بسفنه ففرغت، وأبي خالد أن يفرغ سفنه، فقال المهلب لفيروز حصين: صبر معنا، فقال: يا أبا سعيد، إن الحزم ما تقول غير أني أكره أن أفارق أصحابي، قال: فكن بقربنا، قال: أما هذه فتعم.

وقد كان عبد الملك كتب إلى بشر بن مروان يأمره أن يمدّ خالداً بجيش كثيف، أميره عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث: ففعل، فقدم عليه عبد الرحمن، فأقام قطريّ يُغادِيهم القتال ويُراوِحهم أربعين يوماً، فقال المهلب لمولى أبي عيينة: سِرْ إلى ذلك النّاس، فبث عليه كل ليلة، فمتى أحسست خيراً للخوارج، أو حركة أو سهيل خيل، فاعجل إلينا.

فجاءه ليلة، فقال: قد تحرك القوم، فجلس المهلب بباب الخندق، وأعدّ قطريّ سفناً فيها حطب وأشعلها ناراً، وأرسلها على سفن خالد، وخرج في أدبارها حتى خالطهم، لا يمرُّ برجل إلا قتل، ولا بدابة إلا عقرها، ولا بنسطاط إلا هتكه، فأمر المهلب يزيد ابنه، فخرج في مائة فارس. فقاتل، وأبلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث يومئذٍ بلاءً حسناً، وخرج فيروز حصين في مواليه، فلم يزل يرميهم بالنشاب هو ومن معه، فأثر أثراً جميلاً، وضرع يزيد بن المهلب يومئذٍ، وضرع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، فحامي عنهما أصحابهما حتى ركبوا، وسقط فيروز حصين في الخندق، فأخذ بيده رجل من الأزد، فاستنقذه، فوهب له فيروز عشرة آلاف، وأصبح عسكر خالد كأنه حرة سوداء، فجعل لا يرى إلا قتيلاً أو جريحاً، فقال للمهلب: يا أبا سعيد، كدنا نفتضح! فقال: خندق على نفسك، فإن لم تفعل عادوا إليك، فقال: اكفني أمر الخندق، فجمع له الأخماس فلم يبق شريف إلا عمل فيه، فصاح بهم الخوارج: والله لولا هذا الساحر المزوثي، لكان الله قد دمر عليكم - وكانت الخوارج تسمي المهلب الساحر -، لأنهم كانوا يدبرون الأمر فيجدون المهلب قد سبق إلى نقض تدبيرهم.

وقال أعشى همدان لابن الأشعث، يذكره بلاء القحطانية عنده، في كلمة طويلة:

وَيَوْمَ أَهْوَازِكَ لَا تَنْسَهُ لَيْسَ الشُّنَا وَالذُّكْرُ بِالْبَائِدِ

ثم مضى قطريّ إلى كَرْمان، وانصرف خالد إلى البصرة، وأقام قطريّ بِكَرْمان شهراً، ثم عمّد لفارس، فخرج خالد إلى الأهواز ونذب الناس للرحيل، فجعلوا يطلبون المهلب، فقال خالد: ذهب المهلب بحظ هذا المضر، إني قد وليت أخي قتال الأزارقة. فولى أخاه عبد العزيز، واستخلف المهلب على الأهواز في ثلاثمائة، ومضى عبد العزيز والخوارج بدار بجرد وهو في ثلاثين ألفاً، فجعل عبد العزيز يقول في طريقه: يزعم أهل البصرة أن هذا الأمر لا يتم إلا بالمهلب، سيعلمون!

قال صفعب بن يزيد: فلما خرج عبد العزيز عن الأهواز، جاءني كُرْدُوس، حاجب

المهلب، فدعاني، فجئت إلى المهلب وهو في سطح، وعليه ثياب هروية، فقال: يا صفعب، أنا ضائع كأي أنظر إلى هزيمة عبد العزيز، وأخشى أن توافيني الأزارقة ولا جند معي، فابعث رجلاً من قبلك يأتيني بخبرهم سابقاً إليّ به، فوجهت رجلاً من قبلي يقال له عمران بن فلان، وقلت له: اصحب عسكر عبد العزيز، واكتب إليّ بخبر يوم فيوم، فجعلت أورده على المهلب، فلما قاربهم عبد العزيز وقف وقفة، فقال له الناس: هذا منزل، فينبغي أن تنزل فيه أيها الأمير، حتى نطمئن ثم نأخذ أمبتنا، فقال: كلا، الأمر قريب، فنزل الناس عن غير أمره، فلم يستتم النزول، حتى ورد عليه سعد الطلائع في خمسمائة فارس، كأنهم خيط ممدود، فناهضهم عبد العزيز فواقفوه ساعة، ثم انهزموا عنه مكيدة، واتبعهم فقال له الناس: لا تتبعهم، فإننا على غير تعبئة، فأبى، فلم يزل في آثارهم حتى اقتحموا عقبة، فاقتحمها وراءهم والناس ينهونه ويأبى، وكان قد جعل على بني تميم عيس بن طلق الصريمي الملقب عيس الطعان، وعلى بكر بن وائل مقاتل بن مسمع، وعلى شرطة رجلاً من بني ضبيعة بن ربيعة بن نزار. فنزلوا عن العقبة، ونزل خلفهم وكان لهم في بطن العقبة كمين، فلما صاروا من ورائها، خرج عليهم الكمين، وعطف سعد الطلائع، فترجل عيس بن طلق، فقتل وقتل مقاتل بن مسمع، وقتل الضبيعي، صاحب شرطة عبد العزيز، وانحاز عبد العزيز واتبعهم الخوارج فرسخين يقتلونهم كيف شاؤوا، وكان عبد العزيز قد أخرج معه أم حفص بنت المنذر بن الجارود امرأته، فسبوا النساء يومئذ، وأخذوا أسارى لا تحصى، فقدفؤهم في غار بعد أن شدوهم وثاقاً، ثم سدوا عليهم بابه، حتى ماتوا فيه.

وقال بعض من حضر ذلك اليوم: رأيت عبد العزيز، وإن ثلاثين رجلاً ليضربونه بسيوفهم، فما تحيك في جنبه، ونودي على السبي يومئذ، فغولي بأم حفص، فبلغ بها رجل سبعين ألفاً، وكان ذلك الرجل من مجوس كانوا أسلموا، ولحقوا بالخوارج، ففرضوا لكل رجل منهم خمسمائة، فكاد ذلك الرجل يأخذ أم حفص، فشق ذلك على قطري، وقال: ما ينبغي لرجل مسلم أن يكون عنده سبعون ألفاً، إن هذه لفئة! فوثب عليها أبو الحديد العبدى فقتلها: فأتى به قطري، فقال: مهيم يا أبا الحديد! فقال: يا أمير المؤمنين، رأيت المؤمنين تزايدوا في هذه المشركة فخشيت عليهم الفتنة، فقال قطري: أحسنت، فقال رجل من الخوارج:

كفانا فتنه عظمت وجلت بحمد الله سيف أبي الحديد

أهاب المسلمون بها وقالوا على قرط الهوى هل من مزيد!

فزاد أبو الحديد بنصل سيف رقيق الحد فعل فتى رشيد

وكان العلاء بن مطرف السعدي ابن عم عمرو القنا، وكان يحب أن يلقاه في صدر مبارزة، فلحقه عمرو القنا يومئذ، وهو منهزم، فضحك منه وقال متملاً:

تَمَنَّائِي لِيَلْقَانِي لَقِيْطَ أَعَامَ لَكَ ابْنُ صَعْصَعَةَ بْنِ سَعْدٍ
ثم صاح به: انج يا أبا المصدي، وكان العلاء بن مطرف قد حمل معه امرأتين: إحداهما
من بني ضبة، يقال لها أم جميل، والأخرى بنت عمه، يقال لها فلانة بنت عقيل فطلق الضيعة
وحملها أولاً، وتخلص بابنة عمه، فقال في ذلك:

أَلَسْتُ كَرِيماً إِذَا قَوْلُ لِفِثْيَتِي قِفُوا فَاحْمَلُوهَا قَبْلَ بِنْتِ عَقِيلٍ
ولو لم يكن عُودِي نُضَاراً لَأُضْبَحْتُ نَجْرٌ عَلَى الْمُتَنِّينِ أُمِّ جَمِيلٍ

قال الصقعب بن يزيد: وبعثني المهلب لآتيه بالخبر، فصرت إلى قنطرة أزيك على فرس
اشتريته بثلاثة آلاف درهم، فلم أحسن خيراً، فسرت مُهَجَّراً إلى أن أمسيت، فلما أمسينا
وأظلمنا، سمعتُ كلامَ رجل عرفته من الجهاضم، فقلت: ما وراءك؟ قال: الشر، قلت: فأين
عبد العزيز؟ قال: أمامك، فلما كان آخر الليل، إذا أنا بزماء خمسين فارساً معهم لواء، قلت:
لواء من هذا؟ قالوا: لواء عبد العزيز، فتقدمت إليه، فسلمت عليه، وقلت: أصلح الله الأمير لا
يكبرن عليك ما كان، فإنك كنت في شر جند وأخبثه، قال لي: أو كنت معنا؟ قلت: لا ولكن
كأنني شاهد أمرك، ثم أقبلت إلى المهلب وتركته، فقال لي: ما وراءك؟ قلت: ما يسرك هزم
الرجل وقل جيشه، فقال: ويحك وما يسرتي من هزيمة رجل من قريش وقل جيش من المسلمين
قلت: قد كان ذلك، سامك أو سرّك، فوجه رجلاً إلى خالد يخبره بسلامة أخيه. قال الرجل:
فلما خبرت خالداً، قال: كَذَبْتَ وَلُؤْمْتُ، ودخل رجل من قريش فكذبني، فقال لي خالد: والله
لقد هممتُ أن أخرب عتقك، فقلت: أصلح الله الأمير! إن كنت كاذباً فاقتلني وإن كنت صادقاً
فأعطني مطرف هذا المتكلم، فقال خالد: لبس ما أخطرت به دمك فما برحت حتى دخل عليه
بعض الفلّ، وقدم عبد العزيز سوق الأهواز، فأكرمه المهلب وكساه وقدم معه على خالد،
واستخلف المهلب ابنه حبيباً، وقال له: تجسس الأخبار، فإن أحسست بخيل الأزارقة قريباً
منك فانصرف إلى البصرة على نهر تيرى. فلما أحسن حبيب بهم، دخل البصرة، وأعلم خالداً
بدخوله، فغضب وخاف حبيب منه، فاستتر في بني عامر بن صعصعة وتزوج هناك في استتاره
الهلالية، وهي أم ابنه عبّاد بن حبيب. وقال الشاعر لخالد يُقِيلُ رأيهِ:

بَعَثْتُ غَلاماً مِنْ قَرِيشٍ قُروفاً وَتَشَرُّكَ ذَا الرَّأْيِ الْأَصِيلَ الْمَهْلِبَا
أَبَى الدِّمَ وَاخْتَارَ الْوَفَاءَ وَأَحْكَمَتِ قُوءُ، وَقَدْ سَاسَ الْأُمُورَ وَجَرَّبَا
وقال الحارث بن خالد المخزومي:

فَرَّ عَبْدُ الْعَزِيزِ إِذَا رَأَى عَيْسَى وَابْنَ دَاوُدَ نَازِلًا قَطْرِيَا
عَاهَدَ اللَّهُ إِنْ نَجَا مِلْمَنَايَا لِيَعُودَنَّ بَعْدَهَا حُرْمِيَا

يَسْكُنُ الْخَلَّ وَالصُّفَا ح فغورينا مِرَاراً وَمَرَّةً نَجْدِيَا
 حَيْثُ لَا يَشْهَدُ الْقِيَّالُ وَلَا يَسْمَعُ يَوْمًا لَكُرَّ خَيْلٍ دَوِيَا
 وكتب خالد إلى عبد الملك بعذر عبد العزيز، وقال للمهلب: ما ترى أمير المؤمنين صانعاً
 بي؟ قال: بعزلك، قال: أترأه قاطعاً رَحِمِي! قال: نعم، قد آتته هزيمة أمية أخيك ففعل - يعني
 هرب أمية من سجستان - فكتب عبد الملك إلى خالد:

أما بعد، فلاني كنت حَدَّثْتُكَ حَدَثًا فِي أَمْرِ الْمَهْلَبِ، فَلَمَّا مَلَكَتْ أَمْرَكَ، نَبَذْتُ طَاعَتِي
 وَرَامَكَ، وَاسْتَبَدَّتْ بِرَأْيِكَ، قَوْلِيَتِ الْمَهْلَبُ الْجَبَايَةَ، وَوَلِيَتْ أَخَاكَ حَرْبَ الْأَزَارِقَةِ، فَقَبِحَ اللَّهُ
 هَذَا رَأْيًا! أَتَبَعْتُ غُلَامًا غِرًّا لَمْ يَجْرُبِ الْأُمُورَ وَالْحُرُوبَ لِلْحَرْبِ، وَتَتْرَكَ سَيِّدًا شَجَاعًا مَدْبِرًا
 حَازِمًا قَدْ مَارَسَ الْحُرُوبَ فَقَلِجٌ، فَشَعَلْتَهُ بِالْجَبَايَةِ! أَمَا لَوْ كَافَأْتِكَ عَلَى قَدَرِ ذَنْبِكَ لَأَتَاكَ مِنْ
 نَكِيرِي مَا لَا بَقِيَّةَ لَكَ مَعَهُ! وَلَكِنْ تَذَكَّرْتُ رَحِمَكَ فَكَفَّضْتُ عَنْكَ، وَقَدْ جَعَلْتُ عَقُوبَتَكَ عَزْلَكَ.
 والسلام.

قال: وولى بشر بن مروان الإمارة وهو بالكوفة، وكتب إليه:

أما بعد، فإنك آخر أمير المؤمنين، يجمعك ولاية مروان بن الحكم، وإنَّ خالداً لا مجتمع
 له مع أمير المؤمنين دون أمية، فانظر المهلب بن أبي صفرة، فوله حرب الأزارقة، فإنه سيد بطل
 مجرب، وامدده من أهل الكوفة بشمانية آلاف رجل، والسلام.

فشق على بشر ما أمره به في المهلب، وقال: والله لأقتلته، فقال له موسى بن نصير: أيها
 الأمير، إنَّ للمهلب جفاظاً ووفاء وبلاء.

وخرج بشر بن مروان يريد البصرة، فكتب موسى بن نصير وعكرمة بن ربيعة إلى المهلب أن
 يتلقاه لقاء لا يعرفه به، فتلقاه المهلب على بغل، وسلم عليه في غمار الناس، فلما جلس بشر
 مجلسه، قال: ما فعل أميركم المهلب؟ قالوا: قد تلقاك أيها الأمير، وهو شاك.

فهم بشر أن يولي حرب الأزارقة عمر بن عبيد الله بن مغمز، وشدَّ عزمه أسماء بن خارجة،
 وقال له: إنما ولأك أمير المؤمنين لترى رأيك، فقال له عكرمة بن ربيعة: اكتب إلى أمير
 المؤمنين فأعلمه علة المهلب، فكتب إليه بذلك، وأنَّ بالبصرة مَنْ يغني غناه، ووجه بالكتاب
 مع وفد أوفدهم إليه، رئيسهم عبد الله بن حكيم المجاشعي.

فلما قرأ عبد الملك الكتاب خلا بعبد الله، فقال له: إنَّ لك ديناً ورأياً وحزماً، فَمَنْ لِقَاتُ
 هؤلاء الأزارقة؟ قال: المهلب، قال: إنه عليل، قال: ليست عِلَّتُهُ بمانعة، فقال عبد الملك:
 لقد أراد بشر أن يفعل ما فعل خالد، فكتب إليه يعزم عليه أن يولي المهلب الحرب، فوجه إليه،
 فقال: أنا عليل، ولا يمكنني الاختلاف، فأمر بشر بحمل الدواوين إلي، فجعل ينتخب فعزم

عليه بشر بالخروج، فاقطع أكثر نخبته، ثم عزم عليه ألا يقيم بعد الثالثة، وقد أخذت الخوارج الأهواز وخلفوها وراء ظهورهم، وصاروا بالفرات، فخرج المهلب حتى صار إلى شهارطاق، فأتاه شيخ من بني تميم، فقال: أصلح الله الأمير! إن سني ما ترى، فهبني لعيالي، فقال: على أن تقول للأمير إذا خطب فحثكم على الجهاد: كيف تحثنا على الجهاد، وأنت تحبس عنه أشرافنا، وأهل النجدة منا! ففعل الشيخ ذلك، فقال له بشر: وما أنت وذاك ثم أعطى المهلب رجلاً ألف درهم، على أن يأتي بشراً فيقول له: أيها الأمير، أين المهلب بالشرطة والمقاتلة، ففعل الرجل ذلك، فقال له بشر: وما أنت وذاك؟ فقال: نصيحة حضرتي للأمير والمسلمين، ولا أعود إلى مثلها، فأمد به بشر بالشرطة والمقاتلة، وكتب إلى خليفته على الكوفة أن يعقد لعبد الرحمن بن مخنف على ثمانية آلاف، من كل ربيع ألفين، ويوجه بهم مدداً للمهلب.

فلما أتاه الكتاب، بعث إلى عبد الرحمن بن مخنف الأزدي يعقد له، واختار من كل ربيع ألفين، فكان على ربيع أهل المدينة بشر بن جرير بن عبد الله البجلي، وعلى ربيع تميم وهمدان محمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمداني، وعلى ربيع كندة محمد بن إسحاق بن الأشعث بن قيس الكندي، وعلى ربيع مذحج وأسد زحر بن قيس المذحجي، فقدموا على بشر بن مروان، فخلا بعبد الرحمن بن مخنف، وقال له: قد عرفت رأيي فيك، وثقتي بك فكن عند ظنتي بك، وانظر إلى هذا المزوني، فخالفه في أمره، وأقيد عليه رايه.

فخرج عبد الرحمن، وهو يقول: ما أعجب ما طلب مني هذا الغلام يأمرني أن أصغر شأن شيخ من مشايخ أهلي، وسيد من ساداتهم فليحق بالمهلب.

فلما أحس الأزارقة بدنو المهلب منهم انكشفوا عن الفرات، فاتبعهم المهلب إلى سوق الأهواز، فنفاهم عنها، ثم اتبعهم إلى رامهرمز فهزمهم عنها، فدخلوا فارس، وأبلى يزيد ابنه في وقائعه هذه بلاء شديداً، تقدم فيه وهو ابن إحدى وعشرين سنة.

فلما صار القوم إلى فارس، وجه إليهم ابنه المغيرة، فقال له عبد الرحمن بن صالح: أيها الأمير، إنه ليس لك برأي قتل هذه الأكلب، ولئن والله قتلتهم لتعبدن في بيتك، ولكن طاولهم، وكُل بهم. فقال: ليس هذا من الوفاء، فلم يلبث برامهرمز إلا شهراً، حتى أتاه موت بشر بن مروان.

فاضطرب الجند على ابن مخنف، فوجه إلى إسحاق بن الأشعث وابن زحر فاستحلفهما ألا يبرحا، فحلفا له ولم يفيا، وجعل الجند من أهل الكوفة يتسللون حتى اجتمعوا بسوق الأهواز، وأراد أهل البصرة الانسلاخ من المهلب، فخطبهم فقال: إنكم لستم كأهل الكوفة، إنما تذبون عن مصركم وأموالكم وحرَمكم.

فأقام منهم قوم، وتسلل منهم قوم كثير.

وكان خالد بن عبد الله خليفة بشر بن مروان، فوجه مولى له بكتاب منه إلى من بالأهواز، يحلف بالله مجتهداً: لئن لم يرجعوا إلى مراكزهم، وانصرفوا عصاة لا يظفر بأحد إلا قتله. فجاءهم مولا، فجعل يقرأ عليهم الكتاب، ولا يرى في وجوههم قبولاً، فقال: إني أرى وجوهاً ما القبول من شأنها، فقال له ابن زحر: أيها العبد، اقرأ ما في الكتاب، وانصرف إلى صاحبك، فإنك لا تدري ما في أنفسنا. وجعلوا يستحثونه بقراءته، ثم قصدوا قصد الكوفة، فنزلوا النخيلة، وكتبوا إلى خليفة بشر يسألونه أن يأذن لهم في دخول الكوفة، فأبى، فدخلوها بغير إذن.

فلم يزل المهلب ومن معه من قواده وابن مخنف، في عدد قليل، فلم يلبثوا أن ولي الحجاج العراق.

فدخل الكوفة قبل البصرة، وذلك في سنة خمس وسبعين، فخطبهم الخطبة المشهورة وتهذدهم، ثم نزل فقال لوجوه أهلها: ما كانت الولادة تفعل بالعصاة؟ قالوا: كانت تضرب وتحبس، فقال: ولكن ليس لهم عندي إلا السيف، إن المسلمين لو لم يغزوا المشركين لغزاهم المشركون، ولو ساغت المعصية لأهلها، ما قتل عدو، ولا جبي فني، ولا عز دين.

ثم جلس لتوجيه الناس، فقال: قد أجلتكم ثلاثاً، وأقسم بالله لا يتخلف أحد من أصحاب ابن مخنف بعدها إلا قتلته. ثم قال لصاحب حرسه ولصاحب شرطته: إذا مضت ثلاثة أيام فاشحذا سيوفكما. فجاءه عمير بن ضابي البرجمي بابه فقال: أصلح الله الأمير إن هذا أنفيا لكم مني، وهو أشد بني تميم أبداناً، وأجمعهم سلاحاً، وأربطهم جاشاً، وأنا شيخ كبير عليل، واستشهد جلساءه، فقال له الحجاج: إن عذرك لواضح، وإن ضعفك لبين، ولكني أكره أن يجترى بك الناس علي، وبعد، فأنت ابن ضابي صاحب عثمان، وأمر به فقتل، فاحتمل الناس، وإن أحدهم ليُتبع بزاده وسلاحه، ففي ذلك يقول عبد الله بن الزبير الأسدي.

أقول لعبد الله يوم لقيته
أرى الأمر أفسى منصباً متشعباً
تجهز فلما أن تزور ابن ضابي
عميراً، ولما أن تزور المهلبا
هما خطتا خسف نجاؤك منهما
رؤيتك حولياً من الثلج أشهباً
فما إن أرى الحجاج يغمد سيفه
مدى الدهر حتى يترك الطفل أشيباً
فأضحى ولو كانت خراسان دونه
رأها مكان السوق أوهى أقرباً
وهرب سوار بن المضرب السعدي من الحجاج، وقال:

أقاني الحجاج إن لم أرزله
درباً وأترك عند هند فؤادياً
في قصيدة مشهورة له.

فخرج الناس عن الكوفة، وأتى الحجاج البصرة، فكان أشدَّ عليهم إلحاحاً، وقد كان أتاها خبره بالكوفة، فتحمل الناس قبل قدومه. وأتاه رجل من بني يَشْكُر، وكان شيخاً أعور، يجعل على عينه العوراء صوفة، فكان يلْقَبُ ذا الكُرْشَفَةِ، فقال: أصلح الله الأمير! أنِّي قَتَلْتُ وقد عَذَرَنِي بِشَرِّ بَنِي مُرَوَّانَ، وقد رددت العطاء، فقال: إنك عندي لصادق، ثم أمر به فضربت عنقه، ففي ذلك يقول كعب الأشقر - أو الفرزدق.

لَقَدْ ضَرَبَ الْحَجَّاجُ بِالْمِصْرِ ضَرْبَةً تَقَرَّرَ مِنْهَا بَطْنُ كُلِّ عَرِيفٍ

ويروى عن أبي البشر، قال: إنا لتغذى معه يوماً، إذ جاءه رجل من بني سليم برجل يقوده، فقال: أصلح الله الأمير إن هذا عاصي، فقال له الرجل: أنشدك الله أيها الأمير في دمي فوالله ما قَبَضْتُ ديواناً قط، ولا شهدت عكساً قط، وإني لَحَائِكُ، أخذت من تحت الحَفَتِ. فقال: اضربوا عنقه. فلما أحس بالسيف سجد، فلققه السيف وهو ساجد، فأمسكنا عن الأكل، فأقبل علينا، وقال: ما لي أراكم قد صغرت أيديكم، واصفرت وجوهكم، وحَدَّ نظركم من قتل رجل واحد ألا إن العاصي يجمع خلافاً، يُخِلُّ بِمَرْكُزِهِ، وَيَعْصِي أَمِيرَهُ، وَيَغَرُّ الْمُسْلِمِينَ، وَهُوَ أَجِيرٌ لَهُمْ، وَإِنَّمَا يَأْخُذُ الْأَجْرَةَ لِمَا يَعْمَلُ، وَالْوَالِي مَخِيرٌ فِيهِ، إِنْ شَاءَ قَتَلَ وَإِنْ شَاءَ عَفَا. ثم كتب إلى المهلب:

أما بعد، فإن بشراً استكره نفسه عليك، وأراك غتاه عنك، وأنا أريك حاجتي إليك فأرني الجَدَّ في قتال عدوك، وَمَنْ خِفَّتْهُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ مِمَّنْ قَبْلَكَ فاقته، فإني قاتل مَنْ قَبْلِي وَمَنْ كَانَ عِنْدِي مِمَّنْ هَرَبَ عَنْكَ، فَأَعْلِمْنِي مَكَانَهُ، فإني أرى أن آخذ السَّيْفَ بِالسَّيْفِ، وَالْوَلِيَّ بِالْوَلِيِّ. فكتب إليه المهلب:

ليس قبلي إلا مطيع - وإن الناس إذا خافوا العقوبة كثبوا الذنب، وإذا أمِنُوا العقوبة صغروا الذنب، وإذا يَسَّوْا العفو أكفروهم ذلك، فهب لي هؤلاء الذين سميتهم عصاة، فإنهم فُرْسَانُ أَبْطَالٍ، أَرْجُو أَنْ يَقْتُلَ اللَّهُ بِهِمُ الْعَدُوَّ - ونادم على ذنبه. فلما رأى المهلب كثرة الناس عنده قال: اليوم قُوتِلَ هَذَا الْعَدُوَّ.

ولما رأى ذلك قَطْرِي، قال لأصحابه: انهضوا بنا نريد السَّرْدَنَ، فنتحصن فيها، فقال عبيدة بن هلال: أو تاني سائبور، فتأخذ منها ما تريد، وتصير إلى كَرْمَانَ. فأتوا سائبور، وخرج المهلب في آثارهم فأتى أَرْجَانَ، وخاف أن يكونوا قد تحصنوا بالسَّرْدَنَ - وليست بمدينة ولكنها جبال مُحْدِقَةٌ منيعة - فلم يصب بها أحداً، فخرج فعسكر بكَاذِرُونَ، واستعدوا لقتاله فخندق

على نفسه، ووجه إلى عبد الرحمن بن مخنف: خذني على نفسك. فوجه إليه: خنادقنا سيوفنا، فوجه المهلب إليه: إني لا آمن عليك البيات، فقال ابنه جعفر: ذلك أهون علينا من ضرورة جمل، فأقبل المهلب على ابنه المغيرة، فقال: لم يصيروا الرأي، ولم يأخذوا بالوثيقة.

فلما أصبح القوم عاودوه الحرب، فبعث إلى ابن مخنف يستمده، فأمدّه بجماعة، جعل عليهم ابنه جعفر، فجاءوا وعليهم أقيّة يبيض جُدد، فأبْلَوْا يومئذٍ حتى عرف مكانهم المهلب، وأبْلَى بنوه يومئذٍ كِبْلَاء الكوفيين أو أشد.

ثم أتى رئيس من الخوارج، يقال له صالح بن مخراق، وهو يتخبّ قوماً من جَلّة العسكر حتى بلغ أربعمائة، فقال لابنه المغيرة: ما أراه يُعَدّ هؤلاء إلا للبيات.

وانكشفت الخوارج، والأمر للمهلب عليهم، وقد كثر فيهم الجراح والقتل، وقد كان الحجاج يتفقد العصاة، ويوجه الرجال، وكان يحبسهم نهاراً، ويفتح الحبس ليلاً، فيسأل الرجال إلى ناحية المهلب، وكان الحجاج لا يعلم، فإذا رأى إسراعهم تمثّل:

إِنَّ لَهَا لَسَائِقاً عَشْنَزراً إِذَا وَثَبْنَ وَثْبَةً تَفْشَمراً^(١)

ثم كتب الحجاج إلى المهلب يستحثه:

أما بعد، فإنه قد بلغني أنك قد أقبلت على جباية الخراج، وتركت قتال العدو، وإني وليّك وأنا أرى مكان عبد الله بن حكيم المجاشعي. وعباد بن الحصين الحبطي، واخترتك وأنت من أهل عُمان، ثم رجل من الأزدي، فالفهم يوم كذا في مكان كذا، وإلا أشرعت إليك صدر الرمح. فشارو المهلب بنه، فقالوا: أيها الأمير، لا تُغْلِظ عليه في الجواب.

فكتب إليه:

وردة إليّ كتابك، تزعم أنني أقبلت على جباية الخراج، وتركت قتال العدو، ومن عَجَزَ عن جباية الخراج، فهو عن قتال العدو أعجز. وزعمت أنك وليّتي، وأنت ترى مكان عبد الله بن حكيم وعباد بن الحصين، ولو وليّتهما لكانا مستحقّين لذلك لفضلهما وغنائهما وبطشهما. وزعمت أنك اخترتني وأنا رجل من الأزدي، ولعمري إن شراً من الأزدي لقبيلة تنازعتهما ثلاث قبائل، لم تستقرّ في واحدة منهن. وزعمت أنني لم ألقهم يوم كذا في مكان كذا أشرعت إليّ صدر الرمح، لو فعلت لقلبت لك ظهر المِجَن. والسلام.

(١) العشنزر: الشديد الخلق العظيم من كل شيء. اللسان، مادة (عشرز)، وتغشمره: أخذه قهراً. اللسان، مادة (غشمر).

قال: ثم كانت الوقعة بينه وبين الخوارج عقيب هذا الكتاب.

فلما انصرف الخوارج تلك الليلة، قال لابنه المغيرة: إني أخاف البيات على بني تميم، فانهض إليهم فكن فيهم، فأتاهم المغيرة، فقال له الحريش بن هلال: يا أبا حاتم، أخاف الأمير أن يؤتى من ناحيتنا قل له: فليت آمناً، فإننا كافوه ما قيلنا إن شاء الله.

فلما انتصف الليل، وقد رجع المغيرة إلى أبيه، سرى صالح بن مخراق في القوم الذين كان أعداهم للبيات إلى ناحية بني تميم، ومعه عيدة بن هلال، وهو يقول:

إِنِّي لَمُنْذِرٌ لِّلشُّرَاةِ نَارَهَا وَمَانِعٌ مِّنْ أَتَائِهَا دَارَهَا
وَعَايِلٌ بِالسَّيْفِ عَنْهَا عَارَهَا

فوجد بني تميم أيقاظاً متحارسين، وخرج إليهم الحريش بن هلال، وهو يقول:

وَجَدْتُمُونَا وَقُرْأَ أَنْجَادَا لَا كُشْفًا مِّيلًا^(١) وَلَا أَوْغَادَا

ثم حمل على الخوارج، فرجعوا عنه، فاتبعهم ثم صاح بهم: إلى أين يا كلاب النار! فقالوا: إنما أجدت لك ولأصحابك، فقال الحريش: كل مملوك لي حر إن لم تدخلوا النار، ما دخلها مجوسني فيما بين سقوان وخراسان.

ثم قال بعضهم لبعض: نأتي عسكر ابن مخنف، فإنه لا خندق عليه، وقد بعث فرسانهم اليوم مع المهلب، وقد زعموا أنا أهون عليهم من ضرطة جمل. فأتوهم فلم يشعر ابن مخنف وأصحابه، إلا وقد خالطوهم في عسكرهم.

وكان ابن مخنف شريفاً، وفيه يقول رجل من بني عامر لرجل يعاتبه، ويضرب بابن مخنف المثل:

تَرَوْحُ وَتَغْدُو كُلَّ يَوْمٍ مُعْظِماً كَأَنَّكَ فِينَا مِخْنَفٌ وَابْنُ مِخْنَفٍ

فترجل عبد الرحمن تلك الليلة يجالدهم، حتى قتل وقتل معه سبعون رجلاً من القراء فيهم نفر من أصحاب علي بن أبي طالب، ونفر من أصحاب ابن مسعود. وبلغ الخبر المهلب - وجعفر بن عبد الرحمن بن مخنف عند المهلب - فجاءهم مفيشاً فقاتل حتى ارتث، ووجه المهلب إليهم ابنه حبيباً، فكشفهم، ثم جاء المهلب حتى صلى على عبد الرحمن بن مخنف وأصحابه، وصار جندُه في جند المهلب، فضمتهم إلى ابنه حبيب، فغيرهم البصريون، وسموا جعفرأ خضفة الجمل.

وقال رجل منهم لجعفر بن عبد الرحمن بن مخنف:

(١) الكُشْفُ: الذين لا يصدقون القتال، أو الذين ليس معهم تروس. اللسان، مادة (كشف).

تركت أصحابكم تَدْمَى نُحُورَهُمْ وَجِئْتَ تَسْعَى إِلَيْنَا خَضْفَةَ الْجَمَلِ
فَلَا مَ الْمَهْلَبَ أَهْلُ الْبَصْرَةِ، وَقَالَ: بِشَمَا قَلْتُمْ، وَاللَّهِ مَا قَرُّوا وَلَا جَبُنُوا، وَلَكِنْهُمْ خَالَفُوا
أَمِيرَهُمْ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ فِرَارَكُمْ بِذُؤْلَابٍ عَنِّي، وَفِرَارَكُمْ بِذَارِسٍ عَنْ عَثْمَانَ!

ووجه الحجاج البراء بن قبيصة إلى المهلب يستحثه في مناجزة القوم، وكتب إليه: إنك
تحبُّ بقاءهم لتأكلَ بهم، فقال المهلب لأصحابه: حَرِّكُوهُمْ، فخرج فرسان من أصحابه فخرج
إليهم من الخوارج بجمع كثير، فاقتتلوا إلى الليل: فقال لهم الخوارج: وَيْلَكُمْ! أَمَا تَمْلُونُ
فَقَالُوا: لَا، حَتَّى تَمْلُوا، فَقَالُوا: فَمَنْ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: تَمِيم، فَقَالَتِ الْخَوَارِجُ: وَنَحْنُ تَمِيمٌ أَيْضًا،
فَلَمَّا أَمْسَوْا افترقوا، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ خَرَجَ عَشْرَةٌ مِنْ أَصْحَابِ الْمَهْلَبِ، وَخَرَجَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْخَوَارِجِ
عَشْرَةٌ، وَاحْتَفَرَّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ خَفِيرَةً، وَأَثَبَتْ قَدَمِيهِ فِيهَا، كُلَّمَا قَتَلَ رَجُلٌ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ
فَاجْتَرَهُ وَقَامَ مَكَانَهُ حَتَّى أَخْتَمُوا، فَقَالَ لَهُمُ الْخَوَارِجُ: ارْجِعُوا، فَقَالُوا: بَلْ ارْجِعُوا أَنْتُمْ، قَالُوا
لَهُمْ: وَيْلَكُمْ مَنْ أَنْتُمْ! قَالُوا: تَمِيم، قَالُوا: وَنَحْنُ تَمِيمٌ أَيْضًا: فَرَجَعَ الْبَرَاءُ بْنُ قَبِيصَةَ إِلَى
الْحَجَّاجِ فَقَالَ لَهُ: مَهِيمٌ؟ قَالَ: رَأَيْتَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ قَوْمًا لَا يَعِينُ عَلَيْهِمْ إِلَّا اللَّهُ.

وكتب المهلب جواب الحجاج: إِنِّي مَتَّظِرٌ بِهِمْ إِحْدَى ثَلَاثَ: مَوْتًا ذَرِيعًا، أَوْ جُوعًا مُضِرًّا،
أَوْ اخْتِلَافًا مِنْ أَهْوَانِهِمْ.

وكان المهلب لا يتكل في الحراسة على أحد، كان يتولى ذلك بنفسه، ويستعين عليه بولده،
وبمن يحل محلهم في الثقة عنده.

قال أبو حزملة العبدي يهجو المهلب، وكان في عسكره:

عَدِمْتُكَ يَا مُهْلَبُ مِنْ أَمِيرٍ أَمَا تَنْذِي بِمِيتِكَ لِلْفَقِيرِ
بِذُؤْلَابٍ أَضَعْتَ دِمَاءَ قَوْمِي وَطَرْتُ عَسَلَى مُوَأْشِكَةٍ ذُرُورِ
فَقَالَ لَهُ الْمَهْلَبُ: وَيْحَكَ! وَاللَّهِ إِنِّي لِأَقِيكُمْ بِنَفْسِي وَوَلَدِي، قَالَ: جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَ الْأَمِيرِ
فَإِنَّكَ الَّذِي نَكَّرَهُ مِنْكَ، مَا كُلُّنَا يَحِبُّ الْمَوْتَ. قَالَ: وَيْحَكَ! وَهَلْ عَنْهُ مِنْ مُحِيطٍ أَوْ قَالَ: لَا،
وَلَكِنَّا نَكْرَهُ التَّعْجِيلَ، وَأَنْتَ تُقَدِّمُ عَلَيْهِ إِقْدَامًا، قَالَ الْمَهْلَبُ: وَيْلَكَ أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ الْكَلْبَةِ
الْيَرْبُوعِي:

فَقُلْتُ لِكَأْسِ الْجَمِيهَا فَإِنَّمَا نَزَلْنَا الْكَثِيبَ مِنْ زُرُودٍ لِنَفْزَعَا

فَقَالَ: بَلَى، قَدْ سَمِعْتَ، وَلَكِنْ قَوْلِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ:

وَلَمَّا وَقَفْتُمْ غُذُوءَ وَعْدَوْكُمْ إِلَى مَهْجَتِي وَلَيْتُ أَعْدَاءُكُمْ ظَهَرِي

وَطَرْتُ وَلَمْ أَحْفَلْ مَلَامَةً جَاهِلٍ يُسَاقِي الْمَنَايَا بِالرَّدِينِيَّةِ السُّمْرِ^(١)

(١) الردينية: ردينة اسم امرأة، والرماح الردينية منسوبة إليها. اللسان، مادة (ردن).

فقال المهلب: بش حشو الكتيبة أنت والله يا أبا حرملة! إن شئت أذنْتُ لك فانصرفت إلى أهلك. قال: بل أقيم معك أيها الأمير، فوهب له المهلب وأعطاه فقال يمدحه:

يَرَى حَشْماً عَلَيْهِ أَبُو سَعِيدٍ جِلَادَ الْقَوْمِ فِي أَوَّلَى النَّفِيرِ
إِذَا نَادَى الشُّرَاةُ أَبَا سَعِيدٍ مَشَى فِي رِقْلِ مُحْكَمَةِ الْقَتِيرِ

قال: وكان المهلب يقول: ما يسرّني أن في عسكري ألف شجاع مكان بيّس بن ضبيب، فيقال له: أيها الأمير، بيّس ليس بشجاع، فيقول: أجل، ولكنّه سديد الرأي، محكم العقل، وذو الرأي حذر سؤول، فأنا آمن أن يُغْتَل، ولو كان مكانه ألف شجاع لخلت أنهم ينشامون حيث يحتاج إليهم.

قال: ومطرت السماء مطراً شديداً وهم بسابور، وبين المهلب وبين الشراة عقبة، فقال المهلب: مَنْ يكفينَا أمر هذه العقبة الليلة؟ فلم يقم أحد، فلبس المهلب سلاحه، وقام إلى العقبة واتبعه ابنه المغيرة، فقال رجل من أصحابه: دعانا الأمير إلى ضبط العقبة، والحظ في ذلك لنا، فلم نطفه، وليس سلاحه واتبعه جماعة من العسكر، فصاروا إليه، فإذا المهلب والمغيرة ولا ثالث لهما، فقالوا: انصرف أيها الأمير، فنحن نكفيك إن شاء الله، فلما أصبحوا إذ هم بالشراة على العقبة، فخرج إليهم غلام من أهل عُمان على فرس، فجعل يحمل وفرسه تزلق، ويلقاه مُدرك في جماعة معه، حتى ردوهم عن العقبة. فلما كان يوم النحر والمهلب على المنبر يخطب الناس، إذ الشراة قد أكبوا، فقال المهلب: سبحان الله! أفي مثل هذا اليوم! يا مغيرة اكفينهم، فخرج إليهم المغيرة، وأمامه سعد بن نجد القرْدُوسيّ وكان سعد مقدماً في شجاعته، وكان الحجاج إذا ظن برجل أن نفسه قد أعجبتة قال له: لو كنت سعد بن نجد القرْدُوسيّ ما عدا! فخرج أمام المغيرة، ومع المغيرة جماعة من فرسان المهلب، فالتقوا، وأمام الخوارج غلام جامع السلاح، مديد القامة، كربه الوجه، شديد الحملة، صحيح الفروسيّة، فأقبل يحمل على الناس، ويرتجز فيقول:

نَحْنُ صَبَحْنَاكُمْ غَدَاةَ الشُّخْرِ بِالْخَيْلِ أَمْثَالِ الْوُشَيْجِ^(١) تَجْرِي

فخرج إليه سعد بن نجد القرْدُوسيّ، من الأزد، فتجاولا ساعة ثم طعنه سعد فقتله، والتقى الناس، فضرع المغيرة يومئذ، فحامى عليه سعد بن نجد ودينار السجستاني وجماعة من الفرسان، حتى ركب وانكشف الناس عند سقطة المغيرة حتى صاروا إلى المهلب، فقالوا: قُتِل المغيرة، فأتاه ديار السجستاني، فأخبره بسلامته، فأعتق كلّ مملوك كان بحضرته.

قال: ووجه الحجاج الجراح بن عبد الله إلى المهلب يستبطئه في مناجزة القوم، وكتب إليه:

(١) الوشيج: هي عاة الرماح وأحدثها وشيجة. اللسان، مادة (وشج).

أما بعد، فإنك جَبَيْتَ الخراج بالِغِلل، وتحصّلت بالخنادق، وطاولت القوم وأنت أعزُّ ناصراً، وأكثر عدداً، وما أظنّ بك مع هذا معصية ولا جُبناً، ولكنك اتخذتهم أثلاً، وكان بقاؤهم أيسرَ عليك من قتالهم، فناجزهم وإلا أنكرتني، والسلام.

فقال المهلب للجراح: يا أبا عُقبة، والله ما تركتُ حيلة إلا احتلتُها، ولا مكيدة إلا أعملتُها، وما العجبُ من إبطاء الثُّصرة وتراخي الظفر، ولكن العجب أن يكون الرأي لمن يملكه دون مَنْ يُتصره.

ثم ناهضهم ثلاثة أيام، يناديهم القتال، فلا يزالون كذلك إلى العصر. وينصرف أصحابه وبهم قرح، وبالخوارج قرح وقُتل. فقال له الجراح: قد أغذرت. فكتب المهلب إلى الحجاج:

أتاني كتابك تستبطنني في لقاء القوم، على أنك لا تظنّ بي معصية ولا جُبناً، وقد عاتبني معاتبه الجبان، وأوعدتنني وعيدَ العاصي، فسل الجراح. والسلام.

فقال الحجاج للجراح: كيف رأيت أخاك؟ قال: والله أيها الأمير، ما رأيت مثله قط، ولا ظننت أن أحداً يبقى على مثل ما هو عليه، ولقد شهدتُ أصحابه أياماً ثلاثة يَغْدُونَ إلى الحرب، ثم ينصرفون عنها، وهم يتطاعنون بالرماح، ويتجالدون بالسيوف، ويتخابطون بالعمد، ثم يروحون كأن لم يصنعوا شيئاً، رَوَّاح قوم تلك عاداتهم وتجارتهم. فقال الحجاج: لشدّ ما مدحتَه أبا عُقبة! فقال: الحقّ أولى.

وكانت رُكْبُ الناس قديماً من الخشب، فكان الرجل يضرب ركباه فينقطع، فإذا أراد الضرب أو الطعن لم يكن له معتمد، فأمر المهلب بضرب الرُكْب من الحديد: فهو أول من أمر بطبعها، وفي ذلك يقول عمران بن عصام العنزي:

ضَرَبُوا الدَّرَاهِمَ فِي إِمَارَتِهِمْ وَضَرَبَتْ لِاحْدَثَانِ وَالْحَرْبِ
خَلْقاً تَرَى مِنْهَا مَرَايِقَهُمْ كَمُنَاكِبِ الْجِمَالَةِ الْجُرْبِ

قال: وكتب الحجاج إلى عتاب بن وَرْقَاء الرياحي، من بني رياح بن يَرْبُوع - وهو والي اصفهان - يأمره بالمسير إلى المهلب، وأن يضمّ إليه جند عبد الرحمن بن مخنف، فكلُّ بلد يدخلانه من فتوح أهل البصرة فالمهلب أمير الجماعة فيه، وأنت على أهل الكوفة، فإذا دخلتم بلداً فتّحه أهل الكوفة فانت أمير الجماعة، والمهلب على أهل البصرة.

فقدِم عتاب في إحدى جماديتين من سنة ست وسبعين على المهلب، وهو بسابور - وهي من

فتوح أهل البصرة - فكان المهلب أمير الناس وعتاب على أصحاب ابن مخنف، والخوارج بأيديهم كرمان، وهم بإزاء المهلب بفارس، يحاربونه من جميع النواحي.

قال: ووجه الحجاج إلى المهلب رجلين يستحقانه لمناجزة القوم: أحدهما يقال له زياد بن عبد الرحمن، من بني عامر بن صعصعة، والآخر من آل أبي عقيل من روط الحجاج، فضم المهلب زياداً إلى ابنه حبيب، وضم الثقفي إلى ابنه يزيد، وقال لهما: خذا يزيد وحبيباً بالمناجزة، وغادوا الخوارج. فاقتتلوا أشد قتال، فقتل زياد بن عبد الرحمن العامري، وفقد الثقفي. ثم باكروهم في اليوم الثاني، وقد وجد الثقفي، فدعا به المهلب، ودعا بالغداء، فجعل النبل يقع قريباً منهم ويتجاوزهم، والثقفي يعجب من أمر المهلب، فقال الصلتان العبدى:

ألا يا اضبحاني قبل عوق العوائق وقبل اختراط القوم مثل العقائيق
غداة حبيب في الحديد يقرودنا يخوض المنايا في ظلال الخوافيق
حرون إذا ما الحرب طار شرارها وهاج عجاج الشفع فوق المفارق
فمن مبلغ الحجاج أن أمينه زياداً أطاحت رماح الأزارق

فلم يزل عتاب بن رزقاء مع المهلب ثمانية أشهر حتى ظهر شبيب بن يزيد، فكتب الحجاج إلى عتاب يأمره بالمصير إليه ليووجهه إلى شبيب، وكتب إلى المهلب يأمره أن يرزق الجند، فرزق أهل البصرة، وأبى أن يرزق أهل الكوفة، فقال له عتاب: ما أنا ببارح حتى ترزق أهل الكوفة، فأبى، فجرت بينهما غلظة، فقال له عتاب: قد كان يبلغني أنك شجاع، فأيتك جباناً، وكان يبلغني أنك جواد، فأيتك بخيلاً. فقال له المهلب: يا ابن اللخناء^(١)، فقال له عتاب: لكنك مغمم مخول! فغضبت بكر بن وائل للمهلب للحلف، ووثب نعيم بن هبيرة، ابن أخي مصلقة بن هبيرة على عتاب فشتمه، وقد كان المهلب كارهاً للحلف، فلما رأى نصرة بكر بن وائل له سره، واغبط به، فلم يزل يؤكده، وغضبت تميم البصرة لعتاب، وغضبت أزد الكوفة للمهلب، فلما رأى ذلك المغيرة مشى بين أبيه وبين عتاب، وقال لعتاب: يا أبا ورقاء، إن الأمير يصير إلى كل ما تحب، وسأل أباه أن يرزق أهل الكوفة، ففعل فصلح الأمر، فكانت تميم قاطبة وعتاب بن ورقاء يحمدون المغيرة بن المهلب، وكان عتاب يقول: إني لأعرف فضله على أبيه.

وقال رجل من الأزد، من بني إياذ بن سود،

ألا أبليغ أبا ورقاء عنا فلولا أننا كنا غضابا
على الشيخ المهلب إذ جفائنا للاقث خيلكم منا ضرابا

(١) اللخناء: هي التي لم تختن. اللسان، مادة (لخن).

قال: وكان المهلب يقول لبنيه: لا تبدؤوا الخوارج بقتال حتى يبدؤوكم، ويبتغوا عليكم، فإنهم إذا بغوا عليكم نصرتهم عليهم.

فشخص عتاب إلى الحجاج في سنة سبع وسبعين، فوجهه إلى شيب فقتله شيب.

وأقام المهلب على حربهم، فلما انقضى من مقامه ثمانية عشر شهراً اختلفوا وافترقت كلمتهم. وكان سبب اختلافهم أن رجلاً حداداً من الأزارقة، كان يعمل نصالاً مسمومة، فيرمي بها أصحاب المهلب، فرفع ذلك إلى المهلب، فقال: أنا أكفيكموه إن شاء الله، فوجه رجلاً من أصحابه بكتاب وألف درهم إلى عسكري قطري، فقال له: ألق هذا الكتاب في العسكر والدرهم، واحذر على نفسك - وكان الحداد يقال له أبزى - فمضى الرجل، وكان في الكتاب: أما بعد، فإن نصالك قد وصلت إلي، وقد وجهت إليك بألف درهم فاقبضها وزدنا من هذه النصال.

فوقع الكتاب إلى قطري، فدعا بأبزى، فقال: ما هذا الكتاب؟ قال: لا أدري، قال فما هذه الدراهم؟ قال: لا أعلم، فأمر به فقتل. فجاءه عبد ربه الصغير مولى بني قيس بن ثعلبة فقال له: أقتلت رجلاً على غير ثقة ولا تين! قال قطري: فما حال هذه الألف؟ قال: يجوز أن يكون أمرها كذباً، ويجوز أن يكون حقاً، فقال قطري: إن قتل رجل في صلاح الناس غير منكراً، وللإمام أن يحكم بما رآه صلاحاً، وليس للرعية أن تعترض عليه. فتنكر له عبد ربه في جماعة معه، ولم يفارقوه.

وبلغ ذلك المهلب فندس إليهم رجلاً نصرانياً، جعل له جُغلاً يزرع في مثله، وقال له: إذا رأيت قطرياً فاسجد له، فإذا نهاك فقل: إنما سجدت لك، ففعل ذلك النصراني، فقال قطري: إنما السجود لله تعالى، فقال ما سجدت إلا لك، فقال رجل من الخوارج: إنه قد عبدك من دون الله، وتلا: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُّونَ﴾^(١)، فقال قطري: إن النصراني قد عبدوا عيسى ابن مريم، فما ضر عيسى ذلك شيئاً. فقام رجل من الخوارج إلى النصراني فقتله، فأنكر قطري ذلك عليه، وأنكر قوم من الخوارج إنكاره.

وبلغ المهلب ذلك، فوجه إليهم رجلاً يسألهم، فأتاهم الرجل، فقال: أرايتم رجلين خرجا مهاجرين إليكم، فمات أحدهما في الطريق، وبلغ الآخر إليكم فامتحنتموه فلم يجز المحنة، ما تقولون فيهما؟ فقال بعضهم: أما الميت فمؤمن من أهل الجنة، وأما الذي لم يجز المحنة فكافر حتى يجيز المحنة.

وقال قوم آخرون: بل هما كافران حتى يجيز المحنة، فكثر الاختلاف.

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٨.

وخرج قَطْرِيٌّ إلى حدودِ إصطَخْرَ، فأقام شهراً، والقومُ في اختلافهم. ثم أقبل فقال لهم صالح بن مخراق: يا قوم، إنكم أقررتُم عينَ عدوكم، وأطعتموه فيكم بما يظهر من خلافكم، فعودوا إلى سلامة القلوب، واجتماع الكلمة.

وخرج عمرو القنا - وهو من بني سعد بن زيد مناة بن تميم - فنَادَى: يا أيها المجَلُون، هل لكم في الطَّرَادِ فقد طال عهدي به ثم قال:

أَلَمْ تَرَ أَنَا مَذْ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً جَدِيبٌ وَأَعْدَاءُ الْكِتَابِ عَلَى خَفِضٍ

فتهايج القوم، وأسرع بعضهم إلى بعض، وكانت الوقعة، وأبلى يومئذ المغيرة بن المهلب، وصار في وسط الأزارقة، فجعلت الرماح تحطه وترفعه، واعتورث رأسه السيوف، وعليه ساعد حديد، فوضع يده على رأسه، فلم يعمل السيف فيه شيئاً، واستنقذه فرسان من الأزد بعد أن صرع، وكان الذي صرعه عبيدة بن هلال بن يشكر بن بكر بن وائل، وكان يقول يومئذ:

أَنَا ابْنُ خَيْرِ قَوْمِهِ هَلَالٍ شَيْخٌ عَلَى دِينِ أَبِي بِلَالٍ

وَذَاكَ دِينِي أَخْرَ اللَّيَالِي

فقال رجلٌ للمغيرة: كُنَّا نَعْجِبُ كَيْفَ تُضْرَعُ، وَالْآنَ نَعْجِبُ كَيْفَ تَنْجُو وَقَالَ الْمُهَلَّبُ لَبْنِيهِ: إِنَّ سَرَحَكُمْ لِفَارٍ، وَلَسْتُ آمَنُهُمْ عَلَيْهِ، أَفَوَكَلْتُمْ بِهِ أَحَدًا؟ قَالُوا: فَلَمْ يَسْتَمِ الْكَلَامُ حَتَّى أَتَاهُ آتٍ، فَقَالَ: إِنَّ صَالِحَ بْنَ مَخْرَاقٍ قَدْ أَغَارَ عَلَى السَّرْحِ، فَشَقَّ عَلَى الْمُهَلَّبِ، وَقَالَ: كُلُّ أَمْرِ لَا إِلَيْهِ بِنَفْسِي فَهُوَ ضَائِعٌ، وَتَذَمَّرَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ لَهُ بَشْرُ بْنُ الْمَغِيرَةِ: أَرْحَ نَفْسِكَ، فَإِنْ كُنْتَ إِنَّمَا تَرِيدُ مِثْلَكَ فَوَاللَّهِ مَا يَعْدِلُ خَيْرُنَا شَيْئًا نَعْلُكَ، فَقَالَ: خَذُوا عَلَيْهِمُ الطَّرِيقَ، فَبَادَرَ بَشْرُ بْنُ الْمَغِيرَةِ، وَمَدْرَكَ وَالْمُفْضِلُ ابْنَا الْمُهَلَّبِ، فَسَبَقَ بَشْرٌ إِلَى الطَّرِيقِ، فإِذَا رَجُلٌ أَسْوَدُ مِنَ الْأَزَارِقَةِ يَشُلُّ السَّرْحَ، وَهُوَ يَقُولُ:

نَحْنُ قَمَعْنَاكُمْ بِشُلِّ السَّرْحِ وَقَدْ نَكَّأْنَا الْقَرْحَ بَعْدَ الْقَرْحِ

ولحقه المفضل ومدرک، فصاحا برجل من طييء: اكفينا الأسود، فاعتوره الطائي وبشر بن المغيرة فقتلاه، وأسرا رجلاً من الأزارقة من همدان، واستردا السرح.

قال: وكان عِيَّاشُ الْكَنْدِيِّ شَجَاعاً بَشِيراً، فَأَبْلَى يَوْمئِذٍ، فَلَمَّا مَاتَ عَلَى فَرَّاشِهِ بَعْدَ ذَلِكَ قَالَ الْمُهَلَّبُ: لَا وَاللَّهِ نَفْسُ الْجَبَانِ بَعْدَ عِيَّاشٍ! وَقَالَ الْمُهَلَّبُ: مَا رَأَيْتُ تَالِهَ كَهْؤَلَاءِ الْقَوْمِ كَلَّمَا انْتَقَصَ مِنْهُمْ يَزِيدٌ فِيهِمْ!.

ووجه الحجاج رجلين إلى المهلب يستحثانه بالقتال: أحدهما من كلب، والآخر من سليم، فقال المهلب متمثلاً بشعر لأوس بن حجر:

وَمُسْتَعْجِبٌ مِمَّا يَرَى مِنْ أُنَاتِنَا وَلَوْ زَيْتَنُ الشَّهْرِ لَمْ يَتَرَمَّرَمْ

فقال المهلب ليزيد ابنه: حرك القوم، فحركهم فتهايجوا، وذلك في قرية من قرى إصطخر، فحمل رجل من الخوارج على رجل من أصحاب المهلب وطعنه، فشك فخذيه بالسرج، فقال المهلب للسلمي والكلبي: كيف يُقاتل قوم هذا طعنهم! وحمل يزيد عليهم، وقد جاء الرقاد - وهو من فرسان المهلب - وهو أحد بني مالك بن ربيعة، على فرس له أذهب، وبه نيف وعشرون جراحة، وقد وضع عليها القطن، فلما حمل يزيد ولّى الجمع، وحمّاهم فارسان منهم، فقال يزيد لقيس الخشني، مولى العتيك: مَنْ لهذين؟ قال: أنا، فحمل عليهما، فعطف عليه أحدهما فطعنه قيس فصرعه، وحمل عليه الآخر فتعانقا، فسقطا جميعاً إلى الأرض، فصاح قيس الخشني: اقتلونا جميعاً، فحملت خيل هؤلاء وخيل هؤلاء، فحجزوا بينهما، فإذا مُعانيق قيس امرأة، فقام قيس مستخياً، فقال له يزيد: يا أبا بشر، أما أنت فبارزتها على أنها رجل فقال: أرايت لو قُتِلْتُ، أما كان يقال: قتله امرأة! وأبلى يومئذ ابن المنجب السدوسي، فقال غلام له يقال له خلاج: والله لوددنا أنا فضضنا عسكرهم حتى نصير إلى مستقرهم، فاستلب مما هناك جارين. فقال له مولا ابن المنجب: وكيف تمنيت ويحك اثنتين! فقال: لأعطيك إحداهما وأخذ الأخرى، فقال ابن المنجب:

أَخْلَاجُ إِنَّكَ لَنْ تَمَانِقَ طِفْلَةً شَرِقاً بِهَا الْجَادِي كَالْتُمَثَالِ
حَتَّى تَلَاقِي فِي الْكَتِيبَةِ مُغْلِماً عَمَرُوا الْقَنَا وَعَبِيدَةُ بْنُ هَلَالِ
وَتَرَى الْمُقْغَطِرَ فِي الْفَوَارِسِ مُقْلِماً فِي عُضْبَةٍ نَشِطُوا عَلَى الضُّلَالِ
أَوْ أَنْ يَعْلَمَكَ الْمَهْلَبُ غُرُوءَهُ وَتَرَى جِبَالاً قَدْ دَنَتْ لِجِبَالِ
قال: وكان بدر بن الهذيل من أصحاب المهلب شجاعاً، وكان لَحَانَهُ، كان إذا أحس بالخوارج ينادي: «يا خيل الله اركبي»، وإليه يشير القائل:

وَإِذَا طَلَبْتَ إِلَى الْمَهْلَبِ حَاجَةً عَرَضْتُ تَوَابِعَ دُونَهُ وَعَبِيدُ
الْعَبْدُ كَرْدُوسٌ وَيَدْرُ مِثْلُهُ وَصَلَاحُ بَابِ الْأَحْمَرِينَ شَدِيدُ

قال: وكان بشر بن المغيرة بن أبي صفرة أبلى يومئذ بلاء حسناً عُرف مكانه فيه، وكانت بينه وبين المهلب جَفْوَةٌ، فقال لبنيه: يا بني عم، إني قد قصرت عن شكاة العاتب، وجاوزتُ شكاة المستعيب، حتى كاني لا موصول ولا محروم، فاجعلوا لي قُرْجَةً أعيش بها، وهبوني امرأ رجولم نصره، أو خفتم لسانه. فرجعوا له ووصلوه، وكلموا فيه المهلب، فوصله.

وولّى الحجاج كَرْدِماً فارس، ووجهه إليها والحرب قائمة، فقال رجل من أصحاب المهلب:

وَلَوْ رَأَاهَا كَرْدَمٌ لَكَرْدَمًا كَرْدَمَةُ الْغَيْرِ أَحْسَنُ الضُّيْعَمَا

فكتب المهلب إلى الحجاج يسأله أن يتجافى له عن إصطخر ودارا بمجرد لأرزاق الجند، ففعل. وقد كان قطريّ هدم مدينة إصطخر، لأن أهلها كانوا يكتايون المهلب بأخباره، وأراد مثل ذلك بمدينة قسا، فاشتراها منه آزاد مَرْد بن الهريد بمائة ألف درهم فلم يهدمها. فواقعه وجه المهلب فهزمه، فنفاه إلى كِزْمان، وأتبعه المغيرة ابنه، وقد كان دفع إليه سيفاً وجه به الحجاج إلى المهلب، وأقسم عليه أن يتقلده، فدفعه إلى المغيرة بعدما تقلده، فرجع به المغيرة إليه وقد دمّاه، فسر المهلب، وقال: ما يسرني أن يكون كنت دفعته إلى غيرك من ولدي، وقال له: اكفني جباية خراج هاتين الكورتين، وضم إليه الرقاد، فجعلنا ينجيان، ولا يعطيان الجند شيئاً، ففي ذلك يقول رجل من بني تميم في كلمة له:

وَلَوْ عَلِمَ ابْنُ يُوسُفَ مَا يَلَاقِي مِنْ الْأَفَاتِ وَالْكَرْبِ الشَّدَادِ
لَفَاضَتْ عَيْنُهُ جَزَعاً عَلَيْنَا وَأَصْلَحَ مَا اسْتَطَاعَ مِنَ الْفَسَادِ
أَلَا قُلْ لِلْأَمِيرِ جُزَيْتٌ خَيْرٌ أَرْخَنَّا مِنْ مُغِيرَةٍ وَالرُّقَادِ
فَمَا رَزَقَ الْجَنُودَ بِهِمْ قَفِيزاً وَقَدْ سَاسَتْ مَطَامِيرُ الْحَصَادِ
أَي وَقَع فِيهَا السُّوسُ.

قال: ثم حاربهم المهلب بالسَّيرِجان حتى نفاهم عنها إلى جِيفَتْ واتبعهم ونزل قريباً منهم. ثم اختلفت كلمة الخوارج، وكان سبب ذلك أن عبيدة بن هلال اتهم بامرأة رجل نَجَارِ رَاوَه يدخل مراراً إليها بغير إذن، فأتى قَطْرِيّاً فذكروا ذلك له، فقال لهم: إن عبيد من الذين بحيث علمتم، ومن الجهاد بحيث رأيتم، فقالوا: إنا لا نقار على الفاحشة، فقال: انصرفوا ثم بعث إلى عبيدة، فأخبره، وقال له: أنا لا أقار على الفاحشة، فقال: بهتوني يا أمير المؤمنين فما ترى؟ قال: إني جامع بينك وبينهم، فلا تخضع خضوع المذنب، ولا تتطاول تطاول البريء، فجمع بينهم، فتكلموا، فقام عبيدة، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾^(١) حتى تلا الآيات، فبكوا وقاموا إليه فاعتنقوه، وقالوا: استغفر لنا. ففعل، فقال عبدُ رَبِّهِ الصَّغِيرِ مَوْلَى بَنِي قَيْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ: والله لقد خدعكم، فتابع عبدُ رَبِّهِ مِنْهُمْ نَاسٌ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَظْهَرُوا، وَلَمْ يَجِدُوا عَلَى عِبِيدَةَ فِي إِقَامَةِ الْحَدِّ ثَبْتاً.

وكان قَطْرِيٌّ قَدْ اسْتَعْمَلَ رَجُلًا مِنَ الذَّهَاقِينَ، فَظَهَرَتْ لَهُ أَمْوَالٌ كَثِيرَةٌ، فَأَتَوْا قَطْرِيّاً فَقَالُوا: إِنَّ عَمْرَ بْنَ الْخَطَّابِ لَمْ يَكُنْ يُقَارَ عَمَّالُهُ عَلَى مِثْلِ هَذَا، فَقَالَ قَطْرِيٌّ: إِنِّي اسْتَعْمَلْتُهُ وَلَهُ ضِيَاعٌ

وتجارات، فأوغر ذلك صدورهم، وبلغ المهلب ذلك، فقال: اختلافهم أشد عليهم مني، ثم قالوا لقطري: إلا تخرج بنا إلى عدونا؟ فقال: لا، ثم خرج فقالوا: قد كذب وارتد فاتبعوه يوماً، فأحسن بالشر، ودخل داراً مع جماعة من أصحابه، فاجتمعوا عليه وصاحوا: اخرج إلينا يا دابة، فخرج إليهم، فقال: أرجعتم بعدي كفاراً قالوا: أولست دابة قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾^(١)، ولكنك قد كفرت بقولك: «إنا قد رجعنا كفاراً»، فتب إلى الله. فشاور عبدة في ذلك، فقال له: إن تبث لم يقبلوا منك، فقل: إني استفهمت فقلت: «أرجعتم بعدي كفاراً؟» فقال لهم ذلك، فقبلوا منه، فرجع إلى منزله.

ومنهم عبد ربه الصغير، أحد موالي قيس بن ثعلبة.

لما اختلفت الخوارج على قطري بايعه منهم جمع كثير، وكان قطري قد عزم على أن يبايع للمقطر العبدى، ويخلع نفسه، فجعله أمير الجيش في الحرب قبل أن يعهد إليه بالخلافة، فكرهه القوم وأبوه، وقال صالح بن مخراق عنهم وعن نفسه: ابغ لنا غير المقطر، فقال لهم قطري: إني أرى طول العهد قد غيركم، وأنتم بصدد عدو، فاتقوا الله وأقبلوا على شأنكم، واستعدوا للقاء القوم، فقال صالح: إن الناس قبلنا قد سألوا عثمان بن عفان أن يعزل سعيد بن العاص عنهم ففعل. ويجب على الإمام أن يعفي الرعية مما كرهت. فأبى قطري أن يعزل المقطر، فقال له القوم: إنا قد خلعناك وبايعنا عبد ربه الصغير - وكان عبد ربه هذا معلماً كتاب، وكان عبد ربه الكبير بائع رمان: وكلاهما من موالي قيس بن ثعلبة - فانفصل إلى عبد ربه الصغير أكثر من شظيرهم: وجلهم الموالي والعجم، وكان منهم هناك ثمانية آلاف وهم القراء، ثم ندم صالح بن مخراق، وقال لقطري: هذه نفخة من نفخات الشيطان فأعفنا من المقطر، وسرنا إلى عدونا وعدوك، فأبى قطري إلا المقطر، وحمل فتى من الشراة على صالح بن مخراق، فطعنه فأنفذه، وأوجره الرمح.

فنشبت الحرب بينهم، فتهايجوا. ثم انحاز كل قوم إلى صاحبهم، فلما كان الغد اجتمعوا، فاقتتلوا، فأجلت الحرب عن ألفي قتيل، فلما كان الغد عاودوا الحرب، فلم ينتصف النهار حتى أخرجت العجم العرب عن المدينة، فأقام عبد ربه بها، وصار قطري خارجاً من مدينة جيرفت بإزائهم، فقال له عبدة بن هلال: يا أمير المؤمنين، إن أقمتم لم آمن هذه العبيد عليك، إلا أن تخندق على نفسك، فخندق على باب المدينة وجعل يناوشهم، وارتحل المهلب، وكان منهم على ليلة، ورسول الحجاج معه يستحثه، فقال له: أصلح الله الأمير عاجلهم قبل أن

(١) سورة هود، الآية: ٦.

يصطلحوا، فقال المهلب: إنهم لن يصطلحوا، ولكن دَعهم فإنهم سيصبرون إلى حال لا يفلحون معها، ثم دس رجلاً من أصحابه، فقال: انت عسكر قَطْرِي، فقل: إني لم أزل أرى قَطْرِيًا يصيب الرأي، حتى نزل منزله هذا، فظهر خطؤه: أقيم بين المهلب وعبد ربه، يغاديه القتال هذا، ويرأو حه هذا فَنَمِي الكلام إلى قَطْرِي، فقال: صدق: تنحوا بنا عن هذا الموضع، فإن اتبعنا المهلب قاتلناه، وإن أقام على عبد ربه رأيتكم فيه ما تحبون.

فقال له الصلت بن مرة: يا أمير المؤمنين، إن كنت إنما تريد الله فأقدم على القوم، وإن كنت إنما تريد الدنيا فأعلم أصحابك حتى يستأمنوا، ثم قال:

قُلْ لِلْمَجْلِينَ قَدْ قَرَّتْ عِيُونُكُمْ بفرقة القوم والبغضاء والهَرَبِ
كُنَّا أَنَاسًا عَلَى دِينٍ فَغَيَّرْنَا طَوْلَ الْجِدَالِ وَخَلَطَ الْجِدَ بِاللَّعِبِ
مَا كَانَ أَغْنَى رَجَالًا قُلَّ جِيْشُهُمْ عَنِ الْجِدَالِ وَأَغْنَاهُمْ عَنِ الْخُطْبِ
إِنِّي لَأَهْوَنُكُمْ فِي الْأَرْضِ مَضْطَرِيًّا مَالِي سِوَى فَرَسِي وَالرُّمَحِ مِنْ نَشَبِ^(١)
ثم قال: أصبح المهلب يرجو منا ما كنا نطمع منه فيه.

وارتحل قَطْرِي، وبلغ ذلك المهلب، فقال لهزيم بن أبي طخمة المجاشعي: إني لا آمن أن يكون كاذباً بترك موضعه، اذهب فتعرف الخبر، فمضى الهزيم في اثني عشر فارساً، فلم ير في المعسكر إلا عبداً وعِلْجاً مريضين، فسألهما عن قَطْرِي وأصحابه، فقالا: مضوا يرتادون غير هذا المنزل، فرجع هزيم إلى المهلب، فأخبره، فارتحل حتى نزل خندق قَطْرِي، فجعل يقاتل عبد ربه أحياناً بالغداة، وأحياناً بالعشي، فقال رجل من سدوس، يقال له المعتق، وكان فارساً:

لَيْتَ الْحَرَائِرَ بِالْعِرَاقِ شَهِدْتُنَا وَرَأَيْنَا بِالسَّفْحِ ذِي الْأَجْبَالِ
فَنَكَحْنَ أَهْلَ الْجِدَّةِ مِنْ فَرَسَانَا وَالضَّارِبِينَ جَمَاجِمَ الْأَبْطَالِ
ووجه المهلب يزيد ابنه إلى الحجاج يخبره بأنه قد نزل منزل قَطْرِي، وأنه مقيم على عبد ربه، ويسأله أن يوجه في أثر قَطْرِي رجلاً جَلْدًا. فسر بذلك الحجاج سروراً أظهره. ثم كتب إلى المهلب يستحثه لمناجزة القوم مع عبيد بن موهب:

أما بعد، فإنك تتراخى عن الحرب حتى تأتيك رُسُلِي فيرجعون بعذرِكَ، وذلك أنك تُمَسِّك حتى تبرا الجراح، وتُثْسِي القتلى، وتحمل الكالَ ثم تلقاهم، فتحمل منهم ثَقْلَ ما يحتملون منك من وخشة القتل، وألم الجراح، ولو كنت تلقاهم بذلك الجد لكان الداء قد حُسيَم، والقرن قد

(١) النشَب المال. اللسان، مادة (نشَب).

قُصِمَ، ولعمري ما أنت والقوم سواء، لأنَّ مِنْ ورائك رجالاً، وأمامك أموالاً، وليس للقوم إلا ما نعهد، ولا يُذْرِكُ الوجيفُ بالديب، ولا الظفرُ بالتعذير.

فلما ورد عليه الكتاب، قال لأصحابه: يا قوم إن الله قد أراحكم من أمور أربعة: قطري بن الفجاءة، وصالح بن مخراق، وعبيدة بن هلال، وسعد بن الطلائع، وإنما بين أيديكم عبد ربِّه الصغير في خُشار^(١) من خُشار الشيطان، تقتلونهم إن شاء الله تعالى.

فكانوا يتغادون القتال ويتراوحن، فتصيبهم الجراح، ثم يتحاجزون، فكانما انصرفوا عن مجلس كانوا يتحدثون فيه، يضحك بعضهم إلى بعض، فقال عبيد بن موهب للمهلب: قد بان عذرك، فاكتب فإني مخبرُ الأمير.

فكتب إلى الحجاج:

أما بعد، فإني لم أعطِ رُسُلكَ على قول الحقِّ أجراً، ولم أحتج منهم عن المشاهدة إلى تلقين. ذكرتُ أني أجمُّ القوم، ولا بدَّ من وقت راحةٍ يستريح فيه الغالب، ويحتال فيه المغلوب، وذكرتُ أنَّ في الجِمام ما ينسى القتلى، وتبرأ منه الجراح، وهيهات أن يُنسى ما بيننا وبينهم! تأبى ذلك قَتْلِي لم تُجَنِّ، وقروح لم تتقرَّف، ونحن والقوم على حالة، وهم يرقبون مِنَّا حالات، إن طمعوا حاربوا، وإن ملَّوا وقفوا، وإن ينسوا انصرفوا. وعلينا أن نقاتلهم إذا قاتلوا، ونتحرَّز إذا وقفوا، ونطلب إذا هربوا، فإن تركتني والرأي، كان القرنُ مقصوماً والداءُ بإذن الله محسوماً، وإن أعجلتني لم أبغك ولم أعصك، وجعلتُ وجهي إلى بابك وأعوذُ بالله من سخطِ الله ومقتِ الناس.

قال: ولما اشتدَّ الحصار على عبد ربِّه، قال لأصحابه: لا تفتقروا إلى مَنْ ذهب عنكم من الرجال، فإنَّ المسلم لا يفتقر مع الإسلام إلى غيره، والمسلم إذا صحَّ توحيدُه عزَّ برِّه وقد أراحكم الله من غِلْظة قطري، وعجلة صالح بن مخراق ونخوته، واختلاط عبيدة بن هلال، ووكلكم إلى بصائركم، فالتقوا عدوكم بصبر ونية، وانتقلوا عن منزلكم هذا، فمن قُتل منكم قتل شهيداً، ومن سَلِمَ من القتل فهو المحروم.

قال: وورد في ذلك الوقت على المهلب عبيدُ بن أبي ربيعة بن أبي الصُّلت الثَّقَفِي من عند الحجاج، يستحثُّ بالقتال، ومعه أميان، فقال للمهلب: خالفتُ وصيةَ الأمير، وآثرتُ المدافعةَ والمطاولة. فقال له المهلب: والله ما تركتُ جهداً.

فلما كان العشي خرجت الأزارقة، وقد حملوا حريمهم وأموالهم، وخِفَّت متاعهم لينتقلوا،

(١) خشارة الناس سفلتهم. اللسان، مادة (خشر).

فقال المهلب لأصحابه: الزموا مصافكم، وأشرعوا رماحكم، ودعوهم والذهاب فقال له عبيدة بن أبي رييعة: هذا لعمرى أيسر عليك، فغضب وقال للناس: ردوهم عن وجههم، وقال لبيه: تفرقوا في الناس، وقال لعبيدة بن أبي رييعة: كن مع يزيد، فخذ بالمحاربة أشد الأخذ، وقال لأحد الأمينين: كن مع المغيرة، ولا ترخص له في الفتور.

فاقتتلوا قتالاً شديداً، حتى عُقرت الخيل، وصُرع الفرسان، وقُتِلَت الرُجالة، وجعلت الخوارج تقاتل عن القَدَح يؤخذ منها، والسُّوط والعَلَف والحشيش أشد قتال.

وسقط رمحٌ لرجل من مُراد، من الخوارج، فقاتلوا عليه حتى كثر الجراح والقتل، وذلك مع المغرب، والمراد يرتجز، ويقول:

الليل ليل فيه نيل ونيل قَدْ سَالَ بالقوم الشَّراء السَّيلُ

إن جاز للأعداء فينا قَوْلُ

فلما عظم الخطب في ذلك الرمح بعث المهلب إلى المغيرة: خَلْ لهم عن الرمح، عليهم لعنة الله ا فخلوا لهم عنه، ومضت الخوارج، فنزلت على أربعة فراسخ من جبرقت، فدخلها المهلب، وأمر بجمع ما كان لهم من متاع، وما خلفوه من دقيق، وجثم عليه هو والثقيف والأمينان، ثم اتبعهم فوجدهم قد نزلوا على ماء وعين لا يشرب منها أحد إلا قويّ يأتي الرجل بالدلو قد شدّها في طرف رمحه فيستقي بها، وهناك قرية فيها أهلها، فغاداهم القتال، وضمّ الثقيف إلى ابنه يزيد، وأخذ الأمينين إلى المغيرة، فاقتل القوم إلى نصف النهار.

وقال المهلب لأبي علقمة العبدى - وكان شجاعاً، وكان عاتياً هازلاً - : أمددنا يا أبا علقمة بخيل اليخمد، وقل لهم: فليعيرونا جماجمهم ساعة، فقال: أيها الأمير، إن جماجمهم ليست بفخار فتعار، ولا أعناقهم كرادى^(١) فتبت.

وقال لحبيب بن أوس: كُرّ على القوم، فلم يفعل، وقال:

يقول لي الأمير بغير علم نَقَدْتُ حين جَسَدَ به المِرَاسُ

فمالي إن أطعْتُك من حياة ومالي غير هذا الرأس رَاسُ

وقال لمن بن المغيرة بن أبي صُفْرة: احمل، فقال: لا، إلا أن تزوجني ابنتك أم مالك،

فقال: قد زوجتُك، فحمل على الخوارج فكشفهم، وطعن فيهم، وقال:

لَيْتَ مَنْ يَشْتَرِي الحياة بمالٍ مَلَكَةٌ كان عندنا فَيَرانا

نَصِلُ الكُرَّ عند ذاك بطعنٍ إن للموتِ عندنا ألواناً

(١) الكرد: هو أصل العتق. اللسان، مادة (كرد).

قوله : «مَلَكَةٌ» ، أي تزويجاً ونكاحاً .

قال : ثم جال الناس جولةً عند حَمَلَةِ حَمَلَهَا عليهم الخوارج ، فالتفت المهلب ، فقال للمغيرة ابنه : ما فعل الأمين الذي كان معك؟ قال : قُتِلَ وهرب الثقيفي ، فقال ليزيد : ما فعل عبيد بن أبي ربيعة؟ قال : لم أره منذ كانت الجولة ، فقال الأمين الآخر للمغيرة : أنت قتلت صاحبي . فلما كان العشي رجع الثقيفي ، فقال رجل من بني عامر بن صعصعة :

ما زلت يا ثَقَفِي تَخْطُبُ بَيْنَنَا وَتُعْمُنَا بِوَصِيَّةِ السَّحْجَا
حتى إذا ما الموتُ أَقْبَلَ زَاخِراً وَسَقَى لَنَا صِرْفاً بِغَيْرِ مِزَاجِ
وَلَيْتَ يَا ثَقَفِي غَيْرَ مَنَاظِرِ تَنْسَابِ بَيْنَ أَجْزَةِ وَفَجَاجِ
ليست مقارعةُ الكُماةِ لَدَى الوغَى شُرْبُ المُدَامَةِ فِي إِنْاءِ رُجَاجِ

فقال المهلب للأمين الآخر : ينبغي أن تتوجه مع ابني حبيب في ألف رجل ، حتى تبيثوا عسكرهم ، فقال : ما تريد أيها الأمير إلا أن تقتلني كما فعلت بصاحبي ! فضحك المهلب وقال : ذاك إليك . ولم يكن للقوم خنادق ، فكان كلُّ حذراً من صاحبه ، غير أن الطعام والعُدَّة مع المهلب ، وهو في زهاء ثلاثين ألفاً ، فلما أصبح أشرف على وادٍ فإذا هو برجلٍ معه رمح مكسور مخضوب بالدم ، وهو ينشد :

وَإِنِّي لَأَغْفِي ذَا الْخِمَارِ وَصَنَعَتِي إِذَا رَاحَ أَطْوَاءَ بَنِي الْأَصَاغِرِ
أَخَادِعُهُمْ عَنْهُ لِيَفْبُقَ^(١) دُونَهُمْ وَأَعْلَمُ غَيْرَ الظَّنِّ إِنِّي مِفَاوِرُ
كَأَنِّي وَأَبْدَانُ السُّلَاحِ عَشِيَّة يَمْرَبْنَا فِي بَطْنِ فَيْحَانَ طَائِرُ

فقال له : أتميمي أنت؟ قال : نعم ، قال : أحفظني؟ قال : نعم ، قال : أيربوعي؟ قال : نعم ، قال : أين آل نؤيرة؟ قال : نعم ، أنا ولد مالك بن نؤيرة ، قال : قد عرفتكَ بالشعر .

قال أبو العباس : وذو الخمار فرس مالك بن نؤيرة .

قال : فمكثوا أياماً يتحاربون ودوابهم مسرجة ، ولا خنادق لهم ، حتى ضَعُفَ الفريقان فلما كان الليلة التي قُتِلَ فِي صَبِيحَتِهَا عَبْدُ رَبِّهِ ، جمع أصحابه ، فقال : يا معشر المهاجرين ، إن قَطَرِيًّا وَعَبِيدَةً هَرَبَا طَلِبًا لِلْبَقَاءِ ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى الْبَقَاءِ ، فَالْقُوا عَدُوَّكُمْ غَدًا ، فَإِنْ غَلَبَكُمْ عَلَى الْحَيَاةِ ، فَلَا يَغْلِبُنْكُمْ عَلَى الْمَوْتِ ، فَتَلَقُّوا الرِّمَاحَ بِنُحُورِكُمْ ، وَالسُّيُوفَ بِوُجُوهِكُمْ ، وَهَبُوا أَنْفُسَكُمْ لِلَّهِ فِي الدُّنْيَا يَهْبِئُهَا لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ .

فلما أصبحوا ، غَادُوا الْمَهْلَبَ ، فَاقْتَتَلُوا قِتَالاً شَدِيداً أَنْسَى مَا كَانَ قَبْلَهُ ، وَقَالَ رَجُلٌ مِنْ

(١) الفبق : هو شرب العشي . اللسان ، مادة (غبق) .

الأزد، من أصحاب المهلب: مَنْ يُبَايِعُنِي عَلَى الْمَوْتِ؟ فبَايَعَهُ أَرْبَعُونَ رَجُلًا مِنَ الْأَزْدِ، فَضَرَعَ بَعْضَهُمْ، وَقَتَلَ بَعْضَهُمْ، وَجَرَحَ بَعْضَهُمْ.

وقال عبد الله بن رزام الحارثي للمهلب: احملوا، فقال المهلب: أعرابي مجنون - وكان من أهل نَجْرَان - فحمل وخذ، فاخترق القوم حتى خرج من ناحية أخرى، ثم كرّ ثانية ففعل فَعَلَّتْهُ الْأُولَى، وَتَهَايَجَ النَّاسُ، فَتَرَجَّلَتِ الْخَوَارِجُ، وَعَقَرُوا دَوَابَّهُمْ، فَناداهم عمرو القنّا - ولم يترجل هو ولا أصحابه، وهم زهاء أربعمائة - فقال: موتوا على ظهور دوابكم كراماً، ولا تعقروها، فقالوا: إِنَّا إِذَا كُنَّا عَلَى الدَّوَابِّ ذَكَرْنَا الْفِرَارَ، فَاقْتَتَلُوا، وَنادى المهلب بأصحابه: الْأَرْضُ الْأَرْضُ! وَقَالَ لَبْنِيهِ: تَفَرَّقُوا فِي النَّاسِ لِيُرَوْا وَجُوهَكُمْ، وَنادت الخوارج: أَلَا إِنَّ الْعِيَالَ لَمَنْ غَلَبَ، فَصَبَّرَ بَنُو الْمَهْلَبِ، وَقَاتَلَ يَزِيدُ بَيْنَ يَدَيِ أَبِيهِ قِتَالًا شَدِيدًا، أَبْلَى فِيهِ، فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ، يَا بَنِي، إِنِّي أَرَى مَوْطِنًا لَا يَنْجُو فِيهِ إِلَّا مَنْ صَبَرَ، وَمَا مَرَّ بِي يَوْمَ مِثْلٍ هَذَا مِنْذُ مَارَسْتُ الْحُرُوبَ.

وكسرت الخوارج أجفان سيوفها، وتجاوَلُوا، فَأَجَلَّتْ جَوَلَتْهُمْ عَنْ عَبْدِ رَبِّهِ مَقْتُولًا. فَهَرَبَ عَمْرُو الْقَنَّا وَأَصْحَابُهُ، وَاسْتَأْمَنَ قَوْمٌ، وَأَجَلَّتِ الْحَرْبُ عَنْ أَرْبَعَةِ آلَافٍ قَتِيلٍ وَجَرِيحٍ مِنَ الْخَوَارِجِ وَمَأْسُورٍ، وَأَمَرَ الْمَهْلَبُ أَنْ يُدْفَعَ كُلُّ جَرِيحٍ إِلَى عَشِيرَتِهِ، وَظَفِيرَ بَعْسِكَرِهِمْ، فَحَوَى مَا فِيهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى جِيرَفَتٍ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّنَا إِلَى الْخَفْضِ وَالذُّعَى، فَمَا كَانَ عَيْشُنَا ذَلِكَ الْعَيْشَ.

ثم نظر المهلب إلى قوم في عسكره ولم يعرفهم، فقال: مَا أَشَدَّ عَادَةَ السِّلَاحِ! نَاوَلْنِي دِرْعِي، فَلَبِسَهَا ثُمَّ قَالَ: خَذُوا هَؤُلَاءِ، فَلَمَّا صَيَّرَهُمْ إِلَيْهِ، قَالَ: مَا أَنْتُمْ؟ قَالُوا: جِئْنَا لِنَطْلُبَ غِرَّتَكَ لِلْفَتَكِ بِكَ. فَأَمَرَ بِهِمْ فَقَتَلُوا.

ووجه كعب بن معدان الأشقري ومرة بن بليد الأزدي، فوردا على الحجاج، فلما طلعا عليه، تقدم كعب فأنشده:

يَا خَفْصُ إِنِّي عَدَائِي عَنْكُمْ التَّفَرُّ

فقال الحجاج: أَشَاعِرُ أَمْ خَطِيبٌ؟ قَالَ: شَاعِرٌ، فأنشده القصيدة، فأقبل عليه الحجاج وقال: خَبِّرْنِي عَنْ بَنِي الْمَهْلَبِ، قَالَ: الْمَغِيرَةُ سَيِّدُهُمْ وَفَارِسُهُمْ، وَكَفَى يَزِيدُ فَارِسًا شَجَاعًا وَجَوَادُهُمْ وَسَخِيَّهُمْ قَبِيصَةً، وَلَا يَسْتَجِجِي الشَّجَاعُ أَنْ يَفِرَّ مِنْ مُذْرِكٍ، وَعَبْدُ الْمَلِكِ سَمَّ نَاقِعٌ وَحَبِيبُ مَوْتٍ دُعَافٌ، وَمُحَمَّدُ لَيْثٌ غَابٌ، وَكَفَاكَ بِالْفَضْلِ نَجْدَةً! فَقَالَ لَهُ: فَكَيْفَ خَلَفْتَ جَمَاعَةَ النَّاسِ؟ قَالَ: خَلَفْتُهُمْ بِخَيْرٍ، قَدْ أَدْرَكُوا مَا أَمَلُوا، وَأَمِنُوا مَا خَافُوا، قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ بَنُو الْمَهْلَبِ فِيهِمْ؟ قَالَ: كَانُوا حُمَاةَ السَّرْحِ فَإِذَا أَلِيلُوا فُقُورَسَانِ الْبَيَاتِ، قَالَ: فَأَيُّهُمْ كَانَ أَنْجَدُ؟ قَالَ: كَانُوا كَالْحَلْقَةِ الْمَفْرَغَةِ، لَا يُدْرِي أَيْنَ طَرَفَاهَا، قَالَ: فَكَيْفَ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَعَدُوَّكُمْ؟ قَالَ: كُنَّا إِذَا أَخَذْنَا عَفُونًا وَإِذَا أَخَذُوا يَتَسَنَّا مِنْهُمْ، وَإِذَا اجْتَهَدْنَا وَاجْتَهَدُوا طَمَعْنَا فِيهِمْ. قَالَ الْحَجَّاجُ: إِنَّ

العاقبة للمتقين، فكيف أفلتكم قَطْرِي؟ قال: كدناه وظنَّ أن قد كادنا، بأن صرنا منه إلى التي نحَب. قال: فهلا اتبعتموه؟ قال: كان حربُ الحاضر أثرَ عندنا من اتباعِ القُل، قال: فكيف كان المهلبُ لكم وكتتم له؟ قال: كانَ لنا منه شفقةُ الوالد، وله منّا برُّ الولد، قال: فكيف كان اغتباطُ الناس به؟ قال: نشأ فيهم الأمن، وشملهم النُّقل، قال: أكنت أعددت لي هذا الجواب؟ قال: لا يعلم الغيب إلا الله، قال: هكذا والله تكون الرجال! المهلب كان أعلم بذلك حيث بعثك.

هذه رواية أبي العباس.

وروى أبو الفرج في الأغاني أن كعباً لما أوفده المهلب إلى الحجاج أنشده قصيدته التي أولها:

يَا خَفِضْ إِنِّي عَدَانِي عَنْكُمُ السَّفَرُ وَقَدْ سَهَرْتُ وَأَذَى عَيْنِي السُّهَرُ
يذكر فيها حروبَ المهلب مع الخوارج، ويصف وقائعه فيهم في بلد، وهي طويلة، ومن جملتها:

كنا نهون قبل اليوم شأنهم	حتى تفاقم أمر كان يُخْتَفَرُ
لَمَّا وَهَنَّا وَقَدْ خَلُّوا بِسَاحَتِنَا	واستنفر الناس تاراتٍ فما نَفَرُوا
نَادَى امرؤ لا خلافت في عشيرته	عَنهُ، وَلَيْسَ بِهِ عَنْ مِثْلِهِ قِصَرُ
خَبُّوا كَمِينَهُمْ بِالسُّفْحِ إِذْ نَزَلُوا	بِكَازَرُونَ فَمَا عَزُّوا وَلَا نَصَرُوا
بَاتَتْ كِتَابِنَا تُرْدِي مُسْؤِمَةً	حَوْلَ الْمَهْلَبِ حَتَّى نُورَ الْقَمَرُ
هُنَاكَ وَلَوْ خَزَايَا بَغْدَا هُزِمُوا	وَحَالُ دُونِهِمُ الْأَنْهَارُ وَالْجُدُرُ
تَأْبَى عَلَيْنَا حَزَايَا الثُّفُوسِ فَمَا	نُبْقِي عَلَيْهِمْ وَلَا يُبْقُونَ إِنْ قَدَرُوا

فضحك الحجاج، وقال: إنك لمنصف يا كعب، ثم قال له: كيف كانت حالكم مع عدوكم؟ قال: كنا إذا لقيناهم بعفونا وعفوهم يشنا منهم، وإذا لقيناهم بجِدْنَا وجِدَّهم طبعنا فيهم. قال: فكيف كان بنو المهلب؟ قال: حماة الحريم نهاراً، وفُرسان الليل تيقظاً، قال: فأين السَّماع من العيان؟ قال: السماع دون العيان، قال: صفهم لي رجلاً رجلاً. قال: المغيرة فارسهم وسيدهم، نار ذاكية، وصعدة عالية. وكفى بيزيد فارساً شجاعاً ليث غاب، وبحر جَم العُباب. وجوادهم قبيصة، ليث المغار، وحامي الدُّمار، ولا يستحي الشجاع أن يفر من مدرك، وكيف لا يفر من مدرك، وكيف لا يفر من الموت الحاضر، والأسد الخادراً وعبد الملك سَم نافع، وسيف قاطع، وحبيب الموت الذَّعاف، طود شامخ، وبحر باذخ، وأبو عيينة البطل الهمام، والسيف الحسام وكفاك بالمفضل نجدة، ليث هَذَار وبحر مَوَازَا ومحمد ليث

غاب، وحُسام ضرباب: قال: فأَيُّهم أفضل؟ قال: هم كالحلقة المفرغة لا يعرف طرفاها، قال: فكيف جماعة الناس؟ قال: لي أحسن حال، أرضاهم العدل، وأعناهم النقل. قال: فكيف رضاهم بالمهلب؟ قال: أحسن رضا، لا يعدمون منه إشفاق الوالد، ولا يعدم منهم برّ الولد. وذكر تمام الحديث.

وقال: إن الحجاج أمر له بعشرين ألف درهم، وحمله على فرس، وأوفده على عبد الملك، فأمر له بعشرين ألفاً أخرى.

قال أبو الفرج: وكعب الأشقرى من شعراء المهلب ومادحيه، وهو شاعر مجيد. قال عبد الملك بن مروان للشعراء: تشبهوني مرة بالأسد، ومرة بالبازي، ألا قلت كما قال كعب الأشقرى للمهلب وولده:

بَرَاكَ اللَّهُ حِينَ بَرَاكَ بَخْرًا وَقَجَرَ مِنْكَ أَنَهَارًا غَزَارًا
بَنُوكَ السَّابِقُونَ إِلَى الْمَعَالِي إِذَا مَا أَعْظَمَ النَّاسُ الْخِطَارًا
كَأَنَّهُمْ نَجُومٌ حَوْلَ بَذْرِ تَكْمُلُ إِذَا تَكْمُلُ فَاسْتَدَارًا
مُلُوكٌ يَنْزِلُونَ بِكُلِّ ثَغِيرٍ إِذَا مَا الْهَامُ يَوْمَ الرُّوعِ طَارًا
رِزَانٌ فِي الْخُطُوبِ تَرَى عَلَيْهِمُ مِنْ الشَّيْخِ الشَّمَائِلِ وَالنُّجَارًا
نَجُومٌ يُهِنْدَى بِهِمْ إِذَا مَا أَخَوِ الْقَمَرَاتِ فِي الظُّلُمَاءِ حَارًا

قال أبو الفرج، وهذا الشعر من قصيدة لكعب، يمدح بها المهلب، ويذكر الخوارج ومنها:

سَلُّوا أَهْلَ الْأَبَاطِحِ مِنْ قُرَيْشٍ عَنْ الْمَجْدِ الْمُؤْتَلِ أَيْنَ صَارَا
لَقَوْمُ الْأَزْدِ فِي الْغَمَرَاتِ أَمْضَى وَأَوْفَى ذِمَّةً وَأَعَسَرَ جَارَا
هُمْ قَادُوا الْجِيَادَ عَلَى وَجَاهَا مِنْ الْأَمْصَارِ يَقْذِفْنَ الْمِهَارَا
إِلَى كِرْمَانَ يَحْمِلْنَ الْمَنَايَا بِكُلِّ نَبِيَّةٍ يُوقِذْنَ نَسَارَا
شَوَازِبَ مَا أَصَبْنَا الشَّارِ حَتَّى رَدَدَهَا مَكْلَمَةً مَرَارَا
غَدَاةَ تَرْكُنَ مَضْرَعِ عَبْدِ رَبِّ نَشْرُنَ عَلَيْهِ مِنْ رَهْجِ غُبَارَا
وَيَوْمَ الزَّخْفِ بِالْأَهْوَاِ ظَلَمْنَا نُرَوِّي مِنْهُمْ الْأَسْلَ الْجِرَارَا^(١)
فَقَرَّتْ أَعْيُنُ كَانَتْ حَزِينَا قَلِيلًا نَوْمُهَا إِلَّا غَرَارَا
وَلَوْلَا الشَّيْخُ بِالْمِضْرِينَ يَنْفِي عَدُوَّهُمْ قَدْ نَزَلُوا الدِّيَارَا
وَلَكِنْ قَارَعَ الْأَبْطَالُ حَتَّى أَصَابُوا الْأَمْنَ وَاخْتَلَوْا الْقَرَارَا

(١) الأسل: الرماح. اللسان، مادة (أسل).

إِذَا وَمَنُؤُوا وَحَلَّ بِهِمْ عَظِيمٌ يَدُقُّ الْعَظْمَ كَانَ لَهُمْ جُبَارًا
وَمُبْهَمَةٌ يَحِيدُ النَّاسُ عَنْهَا تَشُبُّ الْمَوْتَ شَذْلَهَا إِذَا رَا
شَهَابٌ تَنْجَلِي الظُّلُمَاءِ عَنْهُ يَرَى فِي كُلِّ مُظْلِمَةٍ مَنَارًا
بِرَاكَ اللَّهِ حِينَ بَرَاكَ بِخَرًّا وَفَجَّرَ مِنْكَ أَنْهَارًا غِزَارًا
الآيات المتقدمة.

قال أبو الفرج: وحدثني محمد بن خلف وكيع، بإسناد ذكره، أن الحجاج لما كتب إلى المهلب يأمره بمناجزة الخوارج حيثنذ، ويستبطئه، ويضعفه ويعجزه من تأخير أمرهم ومطاولته لهم، قال المهلب لرسوله قل له: إنما البلاء أن يكون الأمر لمن يملكه، لا لمن يعرفه، فإن كنت نصبتني لحرب هؤلاء القوم - على أن أدبرها كما أرى، فإذا أمكنتني فرصة انتهزتها، وإن لم تمكني توقفت - فأنا أدبر ذلك بما يصلحه، وإن أردت أن أعمل برأيك وأنا حاضر وأنت غائب - فإن كان صواباً فلك، وإن كان خطأ فعلي - فابعث من رأيت مكاني، وكتب من فؤره بذلك إلى عبد الملك، فكتب عبد الملك إلى الحجاج: لا تعارض المهلب فيما يراه، ولا تعجله ودعه يدبر أمره.

قال: وقام كعب الأشقرى إلى المهلب، فأنشده بحضرة رسول الحجاج:

إِنَّ ابْنَ يَوْسُفَ غَرَّهَ مِنْ أَمْرِكُمْ خَفَضَ الْمَقَامَ بِجَانِبِ الْأَمْصَارِ
لَوْ شَهِدَ الصَّفَيْنَ حَيْثُ تَلَاقِيَا ضَاقَتْ عَلَيْهِ رَجِيْبَةُ الْأَقْطَارِ
مِنْ أَرْضِ سَابُورِ الْجُنُودِ وَخَيْلِنَا مِثْلُ الْقِدَاحِ بَرِيْثَتَهَا بِشِفَارِ
مِنْ كُلِّ صَنْدِيدٍ يُرَى بَلْبَانِهِ^(١) وَقَعُ الظُّلْبَاءُ مَعَ الْقَنَا الْخَطَارِ
لَرَأَى مُعَاوَذَةَ الرَّبَاعِ غَنِيْمَةً أَزْمَانَ كَانَ مُحَالِفَ الْإِقْتَارِ
فَدَعَ الْحُرُوبَ لِشَيْبِهَا وَشَبَابِهَا وَعَلَيْكَ كُلَّ غَرِيْرَةٍ وَمِغْطَارِ

فبلغت أبياته الحجاج، فكتب إلى المهلب يأمره بإشخاص كعب الأشقرى إليه، فأعلم المهلب كعباً بذلك، وأوفده إلى عبد الملك من ليلته، وكتب إليه يستوهبه منه، فقدم كعب على عبد الملك برسالة المهلب، فاستنطقه فأعجبه، وأوفده إلى الحجاج، وكتب إليه يقسم عليه أن يصفح، ويعفو عما بلغه من شعره، فلما دخل قال: إيه يا كعب!

لَرَأَى مُعَاوَذَةَ الرَّبَاعِ غَنِيْمَةً

فقال: أيها الأمير، لوددت في بعض ما شاهدته من تلك الحروب، وما أوردناه المهلب من

(١) اللبان: الصدر وقيل: وسطه وقيل: ما بين الثديين، اللسان، مادة (لبن).

خطرهما، أن أنجُوَ منها وأكون حجاجاً أو حائكاً، قال: أولى لك! لولا قَسَمُ أمير المؤمنين ما نفعتك ما تقول، الحق بصاحبك، وردّه إلى المهلب.

قال أبو العباس: وكان كتاب المهلب إلى الحجاج، الذي بشره فيه بالظفر والنصر:
بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الكافي بالإسلام فَقَدْ ما سواه، الحاكم بالآ ينقطع
المزيد من فضله حتى ينقطع الشكر من عباده، أما بعد:

فقد كان من أمرنا ما قد بلغك، وكُنَّا نحن وعدُّونا على حالين مختلفين، يسرنا منهم أكثر
مما يسوءنا، ويسوءهم مِنَّا أكثر مما يسرهم، على اشتداد شوكتهم، فقد كان علا أمرهم حتى
ارتفعت له الفتاة، وتوَمَّ به الرضيع، فانتهزت الفرصة منهم في وقت إمكانها، وأدْنَيْتُ السواد من
السواد، حتى تعارفت الوجوه، فلم نزل كذلك حتى بلغ الكتاب أجله، فَقُطِعَ دابرُ القوم الذين
ظلموا، والحمد لله رب العالمين.

فكتب إليه الحجاج:

أما بعد، فقد فعل الله بالمسلمين خيراً، وأراحهم من بأسِ الجلاّد، وثَقَلَ الجهاد، ولقد
كنت أعلم بما قبلك، فالحمد لله رب العالمين، فإذا وَرَدَ عليك فاقِسم في المجاهدين فيهم
وَنَقِّلِ الناس على قدر بلائهم، وَفَضِّلْ مَنْ رَأَيْتَ تفضيله، وإن كانت بقيت من القوم بقية فخلف
خيلاً تقوم بإزائهم، واستعمل على كِرمَان مَنْ رَأَيْتَ، وَوَلِّ الخيل شَهْماً من ولدك، ولا ترخص
لأحد في اللحاق بمنزلة دون أن تَقْدُم بهم عليّ، وعجل القدوم إن شاء الله.

فولى المهلب يزيد ابنه كرمَان، وقال له: يا بني، إنك اليومَ لست كما كنت، إنما لك من
كرمَان ما فَضَّلَ عن الحجاج، ولن تحتل إلا على ما احتمل عليه أبوك، فأخسِن إلى مَنْ تبعك،
وإن أنكرت من إنسان شيئاً فوجه إليّ، وتفضل على قومك، إن شاء الله.

ثم قدم المهلب على الحجاج، فأجلسه إلى جانبه، وأظهر برّه وإكرامه، وقال: يا أهل
العراق، أنتم عبيدُ قِنٍّ للمهلب، ثم قال: أنت والله كما لقيت:

فَقُلُّدُوا أَمْرَكُمْ لله دَرْكُمْ	رَحِبِ الدَّرَاعِ بِأَمْرِ الْحَرْبِ مُضْطَلِعَا
لا يَطْعَمُ النَّوْمَ إِلَّا رَيْتٌ ^(١) يَبْعُثُهُ	هَمْ يَكَادُ حِشَاءُ يَقْصِمُ الضُّلْعَا
لا مَتَرَفَاً إِنْ رَخَاءَ الْعَيْشِ سَاعِدُهُ	ولا إِذَا عَضَّ مَكْرُوءٌ بِهِ خَشَعَا
ما زال يحلب هذا الذَّهْرَ أَشْطَرُهُ	يَكُونُ مَتَّبِعاً طَوْرًا وَمُتَّبَعَا

(١) الريث: الإبطاء. اللسان، مادة (ريث).

حَتَّى اسْتَمَرَّتْ عَلَى شَرِّ مَرِيرَتِهِ مُسْتَحْكِمِ الرَّأْيِ لَا قَحْماً وَلَا ضَرَعاً
وروى أنه قام إليه رجل فقال: أصلح الله الأمير! والله لكأنني أسمع الساعة قَطَرًا وهو يقول
لأصحابه: المهلب والله كما قال لقيط الإيادي، ثم أنشد هذا الشعر. فسرّ الحجاج حتى امتلأ
سروراً، فقال المهلب: أما والله ما كُنَّا أَشَدَّ من عدونا ولا أَحَدٌ، ولكن دَمَغَ الحقُّ الباطل
وقهرت الجماعة الفتنة، والعاقبة للمتقين، وكان ما كرهناه من المطاولة خيراً لنا مما أحييناه من
المعاجلة.

فقال الحجاج: صدقت، اذكر لي القوم الذين أبْلَوْا، وصف لي بلاءهم، فأمر الناس فكتبوا
ذلك إلى الحجاج، فقال لهم المهلب: ما ذَخَرَ الله لكم خيراً لكم من عاجل الدنيا إن شاء الله،
فذكرهم المهلب على مراتبهم في البلاء، وتفاضلهم في الغناء، وقدم بنو: المغيرة ويزيد،
ومدركاً، وحبيباً، وقبيصة، والمفضل، وعبد الملك، ومحمداً، وقال: والله لو واحد يقدمهم
في البلاء لقدَّمته عليهم، ولولا أن أَظْلِمَهُم لِأَخْرَجْتَهُمْ. فقال الحجاج: صدقت، وما أنت أعلم
بهم مني، وإن حضرت وغيبت إنهم لسيوف من سيوف الله. ثم ذكر معن بن المغيرة والرقاد
وأشباهما.

فقال الحجاج: مَنْ الرُّقَاد؟ فدخل رجل طويل أجناً^(١)، فقال المهلب: هذا فارس العرب
فقال الرُّقَاد للحجاج: أيها الأمير، إني كنت أَقَاتِلُ مَعَ غير المهلب فكنت كبعض الناس، فلما
صرتُ مَعَ مَنْ يُلْزِمُنِي الصبر، ويجعلني أسوأَ نفسه وولده، ويجازيني على البلاء، صرت أنا
وأصحابي فُرْسَاناً.

فأمر الحجاج بتفضيل قوم على قوم على قدرِ بلائهم، وزاد ولد المهلب الفَيْنُ الفَيْنُ، وفعل
بالرُّقَاد وبجماعة شبيهاً بذلك.

وقال يزيد بن حَبْنَاء من الأزارقة:

دَعِيَ اللَّوْمُ إِنَّ الْعَيْشَ لَيْسَ بِدَائِمٍ	ولا تعجلي باللوم يا أم حاصم
فَإِنْ عَجِلْتَ مِنْكَ الْمَلَامَةُ فَاسْمِعِي	مقالةً مَغْنِيَّ بِحَقِّكَ عَالِمٍ
وَلَا تَعْذُلِينَا فِي الْهَدْيَةِ إِنَّمَا	تكون الهدايا من فُضُولِ المغانم
وَلَيْسَ بِمُهْدٍ مَنْ يَكُونُ نَهَارُهُ	جِلاداً، وَيُمَسِّي لَيْلَهُ غَيْرَ نَائِمٍ
يُرِيدُ ثَوَابَ اللَّهِ يَوْمًا بِطُغْنَةٍ	غُمُوسٍ كَشَذَقِ العنبري ابن سالم
أَبَيْتُ وَسِرِّي دِلَاصٌ ^(٢) حَصِينَةٌ	وَمَغْفِرُهَا، وَالسَّيْفُ فَوْقَ الْحَيَازِمِ

(١) الأجنأ: الذي في كاهله الخناء على صدره. اللسان. مادة (جنا).

(٢) دلاص اللين البراق الأملس. مادة (دلس).

حلفتُ بربِّ الواقفينَ عشيَّةً
لقد كانَ في القومِ الذينَ لقيتُهُمُ
تَوَقُّدٌ في أيديهِمُ زاعِبيَّةٌ
وقال المغيرة الحنظلي من أصحاب المهلب:

إني أمرؤٌ كَفَّنِي رَبِّي وأكرَمَنِي
وإنما أنا إنسانٌ أعيشُ كما
ما عاقَنِي عَنْ قُفُولِ الجُنْدِ إذا قَفَلُوا
وَلَوْ أَرَدْتُ قُفُولاً ما تَجَهَّمَنِي
إنَّ المَهْلَبَ إن أَشَقَّ لِرؤُوسِهِ
أنَّهُ الأَرَبُ الَّذِي تُرَجَّى نوافِلُهُ
والقائلُ الفاعِلُ الميمونُ طائره
أزمانَ كَرَمَانَ إذ غَصَّ الحديدُ بِهِمُ
وقال حبيب بن عوف من قواد المهلب:

أبا سعيدٍ جَزَاكَ اللّهُ صَالِحَةً
داوَيْتَ بالحِلْمِ أَهْلَ الجَهْلِ فَأَنقَمَعُوا
وقال عبيدة بن هلال الخارجي يذكر رجلاً من أصحابه:

يَهْوِي فَتَرْفَعُ الرِّمَاحُ كَأَنَّهُ
يَهْوِي صَرِيحاً والرِّمَاحُ تَنُوشُهُ
شِلْوُ تَنَشُّبٍ فِي مَخَالِبِ ضَارٍ
إِنْ الشُّرَاةُ قَصِيرَةُ الأَعْمَارِ

ومنهم شبيب بن يزيد الشيباني، وكان في ابتداء أمره يصحب صالح بن مسرح، أحد
لخوارج الصُّفْريَّة، وكان ناسكاً مصفراً الوجه، صاحب عبادة، وله أصحاب يقرئهم القرآن
يفقههم ويقص عليهم، ويقدم الكوفة، فيقيم بها الشهر والشهرين. وكان بأرض الموصل
الجزيرة، وكان إذا فرغ من التَّحْمِيد والصلاة على النبي ﷺ، ذكر أبا بكر فأتى عليه، وثنى
ثم ذكر عثمان وما كان من أحداثه، ثم علياً عليه السلام وتحكيمه الرجال في دين الله، ويتبرأ
من عثمان وعلي، ثم يدعو إلى مجاهدة أئمة الضلال، وقال: تيسرُوا يا إخواني من دار الفناء
إلى دار البقاء، واللَّحاق بإخواننا المؤمنين، الذين باعُوا الدنيا بالآخرة ولا تجزَعُوا من القتل في
الله، فإنَّ القتلَ أيسرُ من الموت، والموت نازل بكم، مفرق بينكم وبين آبائكم وإخوانكم،

وأبنائكم وحلائلكم ودنياكم، وإن اشتدَّ لذلك جزعُكم، ألا فيبيعوا أنفسكم طائعين وأموالكم، تدخلوا الجنة... وأشباه هذا من الكلام.

وكان فيمن يحضره من أهل الكوفة سُويد والبطين، فقال يوماً لأصحابه: ماذا تنتظرون؟ ما يزيد أئمة الجور إلا عتوا وعلوا، وتباعداً من الحق، وجراءة على الرب، فراسلوا إخوانكم حتى يأتوكم، وننظر في أمورنا ما نحن صانعون. وأي وقت إن خرجنا نحن خارجون. فبينما هو كذلك إذ أتاه المحلل بن وائل بكتاب من شبيب بن يزيد، وقد كتب إلى صالح:

أما بعد، فقد أردت الشخوص، وقد كنت دعوتني إلى أمر أستجيب لك، فإن كان ذلك من شأنك، فإنك شيخ المسلمين، ولم يعدل بك منا أحد، وإن أردت تأخير ذلك أعلمني، فإن الآجال غادية ورائحة، ولا آمن أن تخترمني المنية، ولما أجاهد الظالمين، فيا له غبناً ويا له فضلاً، جعلنا الله وإياكم ممن يريد الله بعلمه ورضوانه والنظر إلى وجهه ومرافقة الصالحين في دار السلام. والسلام عليك.

فأجابه صالح بجواب جميل، يقول فيه: إنه لم يمنعني من الخروج - مع ما أنا فيه من الاستعداد - إلا انتظارك، فأقدم علينا، ثم أخرج بنا، فإنك ممن لا تقضى الأمور دونه، والسلام عليك. فلما ورد كتابه على شبيب، دعا القراء من أصحابه، فجمعهم إليه، منهم أخوه مصاد بن يزيد، والمحلل بن وائل، والصقر بن حاتم، وإبراهيم بن حجر وجماعة مثلهم، ثم خرج حتى قدم على صالح بن مسرح، وهو بدارات أرض الموصل فبث صالح رسله، وواعدهم بالخروج، في هلال صفر ليلة الأربعاء سنة ست وتسعين.

فاجتمع بعضهم إلى بعض، واجتمعوا عنده تلك الليلة، فحدث فرزة بن لقيط، قال: إني لمعهم تلك الليلة عند صالح، وكان رأيي استعراض الناس، لما رأيت من المكر والفساد في الأرض، فقلت: يا أمير المؤمنين، كيف ترى السيرة في هؤلاء الظلمة، أنقتلهم قبل الدعاء، أم ندعوهم قبل القتال؟ فإني أخبرك برأيي فيهم قبل أن تخبرني بذلك، إنا نخرج على قوم طاغين، قد تركوا أمر الله، أو راضين بذلك، فأرى أن نضع السيف، فقال: لا، بل ندعوهم، ولعمري لا يجيبك إلا من يرى رأيك، وليقاتلنك من يُزري عليك، والدعاء أقطع لحجتهم، وأبلغ في الحجة عليهم لك. فقلت: وكيف ترى فيمن قاتلنا فظفرنا به؟ وما تقول في دمانهم وأموالهم؟ فقال: إن قتلنا وغنمنا فلنا وإن تجاوزنا وعفونا فموسع علينا. ثم قال صالح لأصحابه ليلته تلك: اتقوا الله عباد الله، ولا تعجلوا إلى قتال أحد من الناس، إلا أن يكونوا قوماً يريدونكم وينصبون لكم، فإنكم إنما خرجتم غضباً لله حيث انتهكت محارمه، وغصبي في الأرض، وسفكت الدماء بغير حقها، وأخذت الأموال غضباً، فلا تعيُّوا على قوم أعمالاً ثم تعملونها، فإن كل ما أنتم عاملون أنتم عنه مسؤولون، وإن عظمكم رجاله، وهذه دواب

لمحمد بن مروان في هذا الرُستاق^(١)، وابدؤوا بها فاحملوا عليها راجلكم، وتَقَوُّوا بها على عدوكم. ففعلوا ذلك، وتحصن منهم أهل دارا.

وبلغ خبرهم محمد بن مروان وهو يومئذ أمير الجزيرة، فاستخفت بأمرهم، وبعث إليهم عدي بن عميرة في خمسمائة، وكان صالح في مائة وعشرة، فقال عدي: أصلح الله الأمير! تبعني إلى رأس الخوارج منذ عشرين سنة، ومعه رجال سُمُّوا لي كانوا يعارَوننا، وإن الرجل منهم خير من مائة فارس في خمسمائة! فقال له: إني أزيدك خمسمائة، فسر إليهم في ألف فارس.

فسار من حرَّان في ألف رجل، وكأنما يُساقون إلى الموت - وكان عدي رجلاً ناسكاً - فلما نزل دوغان نزل بالناس، وأنفذ إلى صالح بن مسرح رجلاً دسَّه إليه فقال: إن عدياً بعثني إليك يسألك أن تخرج عن هذا البلد، وتأتي بلداً آخر فتقاتل أهله، فإني للقتال كاره، فقال له صالح: ارجع إليه، فقل له: إن كنت ترى رأينا، فأرنا من ذلك ما نعرف، ثم نحن مُذِلُّجون عنك، وإن كنت على رأي الجبابرة وأئمة السوء، رأينا رأينا، فإنا بدأنا بك، وإلا رَحَلْنَا إلى غيرك.

فانصرف إليه الرسول، فأبلغه فقال له عدي: ارجع إليه فقل له: إني والله لا أرى رأيك ولكني أكره قتالك وقتال غيرك من المسلمين.

فقال صالح لأصحابه: اركبوا، فركبوا، واحتبس الرجل عنده، ومضى بأصحابه حتى أتى عدياً في سوق دَوْغَان، وهو قائم يصلي الضحى، فلم يشعر إلا بالخييل طالعة عليهم، فلما دنا صالح منهم، رآهم على غير تعبئة، وقد تناذوا، وبعضهم يجول في بعض، فأمر شبيباً فحمل عليهم في كتيبة، ثم أمر سُويْدًا فحمل في كتيبة، فكانت هزيمتهم، وأتى عدي بدابته فركبها ومضى على وجهه، واحتوى صالح على عسكره وما فيه، وذهب قلُّ عدي حتى لحقوا بمحمد بن مروان، فغضب، ثم دعا بخالد بن جزء السلمي فبعثه في ألف وخمسمائة، ودعا الحارث بن جَفُونَةَ في ألف وخمسمائة، وقال لهما: اخرجا إلي هذه الخارجة القليلة الخبيثة وعَجَلَا الخروج، وأغذا السير فأيكما سبق، فهو الأمير على صاحبه، فخرجا وأغذا في السير، وجعلا يسألان عن صالح، فقيل لهما: توجه نحو أمد، فاتبعاه حتى انتهيا إليه بأمد، فنزلا ليلاً، وخندقا وهما متساندان، كل واحد منهما على جذته، فوجه صالح شبيباً إلى الحارث بن جَفُونَةَ في شطر أصحابه، وتوجه هو نحو خالد السلمي، فاقتلوا أشد قتال اقتله قوم، حتى حَجَزَ بينهم الليل، وقد انتصف بعضهم من بعض.

فتحدث بعض أصحاب صالح، قال: كنا إذا حملنا عليهم استقبلنا رجالهم بالرماح ونَصَحْنَا رُمَاتِهِم بالنبل، وخیلُهم تطاردنا في خلال ذلك، فانصرفنا عند الليل، وقد كرهناهم وكرهونا،

(١) الرستاق: فارسي وهو السواد. اللسان، مادة (رستق).

فلما رجعنا وصلينا وتروحنا وأكلنا من الكسر، دعانا صالح وقال: يا أخلائي، ماذا ترون؟ فقال شبيب: إنا إن قاتلنا هؤلاء القوم وهم معتصمون بخندقهم، لم نلّ منهم طائلاً والرأي أن نرحل عنهم، فقال صالح: وأنا أرى ذلك، فخرجوا من تحت ليلتهم حتى قطعوا أرض الجزيرة، وأرض الموصل، ومضوا حتى قطعوا أرض الدسكرة. فلما بلغ ذلك الحجاج سرح عليهم الحارث بن عميرة في ثلاثة آلاف، فسار وخرج صالح نحو جلولاء وخانقين واتبعه الحارث حتى انتهى إلى قرية يقال لها المديج، وصالح يومئذ في تسعين رجلاً، فعبى الحارث بن عميرة أصحابه ميمنة وميسرة، وجعل صالح أصحابه ثلاثة كرايس وهو في كردوس، وشبيب في ميمنة في كردوس، وسويد بن سليم في ميسرة، في كل كردوس منهم ثلاثون رجلاً، فلما شدّ عليهم الحارث بن عميرة انكشف سويد بن سليم، وثبت صالح فقتل، وضارب شبيب حتى ضرع عن فرسه، فوقع بين رجاله، فجاء حتى انتهى إلى موقف صالح، فوجدّه قتيلاً فنادى: إليّ يا معشر المسلمين! فلاذوا به، فقال لأصحابه: ليجعل كل رجل منكم ظهره إلى ظهر صاحبه، وليطاعن عدوه إذا قدم عليه، حتى ندخل هذا الحصن، ونرى رأينا.

ف فعلوا ذلك حتى دخلوا الحصن، وهم سبعون رجلاً مع شبيب، وأحاط بهم الحارث بن عميرة ممسباً، وقال لأصحابه: أحرقوا الباب، فإذا صار جمرأ فدعوه، فإنهم لا يقدرّون على الخروج حتى نصبح فنقتلهم، ففعلوا ذلك بالباب، ثم انصرفوا إلى معسكرهم.

فقال شبيب لأصحابه: يا هؤلاء، ما تنتظرون! فوالله إن صبحوكم غدوة إنه لهلاككم فقالوا له: مَرْنَا بِأَمْرِكَ، فقال لهم: إن الليل أخفى للويل، بايعوني إن شئتم، أو بايعوا مَنْ شئتم منكم، ثم اخرجوا بنا حتى نشدّ عليهم في معسكرهم، فإنهم آمنون منكم، وإني أرجو أن ينصركم الله عليهم. قالوا: ابسط يدك، فبايعوه، فلما جاؤوا إلى الباب، وجدّوه جمرأ، فاتّوه باللّبود فبلّوها بالماء، ثم ألقيوها عليه وخرجوا، فلم يشعّر الحارث بن عميرة إلا وشبيب وأصحابه يضربونهم بالسيوف في جوف معسكرهم، فضارب الحارث حتى ضرع، واحتمله أصحابه، وانهزموا وغلّوا لهم المعسكر وما فيه، ومضوا حتى نزلوا المدائن، وكان ذلك الجيش أول جيش هزمه شبيب.

ثم ارتفع في أداني أرض الموصل، ثم ارتفع إلى نحو أذربيجان يجبي الخراج، وكان سفيان بن أبي العالية قد أمر أن يحارب صاحب طبرستان، فأمر بالقفول نحو شبيب، وأن يصالح صاحب طبرستان، فصالحه، فأقبل في ألف فارس، وقد ورد عليه كتاب من الحجاج:

أما بعد، فأقم بالدسكرة فيمن معك، حتى يأتيك جيش الحارث بن عميرة. قاتل صالح بن مسرح، ثم سار إلى شبيب حتى تناجزه.

ففعل سفيان ذلك، ونزل إلى الدسكرة حتى أتوه، وخرج مرتحلاً في طلب شبيب فارتفع شبيب عنهم، كأنه يكره قتالهم ولقاءهم، وقد أكرمهم أخاه مصاداً في خمسين رجلاً في هضم من الأرض، فلما رأوا شبيباً جمع أصحابه، ومضى في سفح من الجبل مشرقاً قالوا: هرب عدو الله، واتبعوه. فقال لهم عدي بن عميرة الشيباني: أيها الناس، لا تعجلوا عليهم حتى نضرب في الأرض ونستبرئها، فإن يكونوا أكرموا كميناً حذرنا، وإلا كان طلبهم بين أيدينا لن يفوتنا. فلم يسمعوا منه، فأسرعوا في آثارهم.

فلما رأى شبيب أنهم قد جازوا الكمين، عطف عليهم، فحمل من أمامهم، وخرج الكمين من ورائهم، فلم يقاتل أحد، وإنما كان الهزيمة، وثبت سفيان بن أبي العالية في مائتي رجل، فقاتل قتالاً شديداً حتى انتصف من شبيب، فقال سويد بن سليم لأصحابه: أينكم أحد يعرف أمير القوم ابن أبي العالية؟ فقال له شبيب: أنا من أعرف الناس به، أما ترى صاحب الفرس الأغر الذي دونه المرامية فإنه هو، فإن كنت تريد فأمهله قليلاً.

ثم قال: يا قنّب، اخرج في عشرين، فاتهم من ورائهم. فخرج قنّب في عشرين فارتفع عليهم، فلما رأوه يريد أن يأتيهم من ورائهم، جعلوا يتقصون ويتسللون، وحمل سويد بن سليم على سفيان بن أبي العالية يطأه، فلم تصنع رماحهما شيئاً، ثم اضطربا بسيفيهما، ثم اعتنق كل واحد منهما صاحبه، فوقعا إلى الأرض يعتركان، ثم تحاجزا، وحمل عليهم شبيب، فأنكشف من كان مع سفيان، ونزل غلام له يقال له غزوان عن برذونه، وقال لسفيان: اركب يا مولاي، فركب سفيان، وأحاط به أصحاب شبيب، فقاتل دونه غزوان حتى قتل، وكان معه رايته، وأقبل سفيان منهزماً، حتى انتهى إلى بابل مهزود، فنزل بها، وكتب إلى الحجاج، وكان الحجاج أمر سورة بن أبجر أن يلحق بسفيان، فكاتب سورة سفيان، وقال له: انتظرنني، فلم يفعل وعجل نحو الخوارج، فلما عرف الحجاج خبر سفيان، وقرأ كتابه، قال للناس: من صنع كما صنع هذا وأبلى كما أبلى فقد أحسن. ثم كتب إليه يعذره، ويقول: إذا خفت عليك الوجع فأقبل مأجوراً إلى أهلك. وكتب إلى سورة بن أبجر:

أما بعد يا بن أم سورة، فما كنت خليفاً أن تجترى على ترك عهدي، وخذلان جندي فإذا أتاك كتابي فابعث رجلاً بمن معك صلياً إلى المدائن، فليتنخب من جندها خمسمائة رجل، ثم ليقدم بهم عليك، ثم سرب بهم حتى تلقى هذه المارقة، واحزم أمرك، وكذ عدوك، فإن أفضل أمر الحروب حسن المكيدة. والسلام.

فلما أتى سورة كتاب الحجاج بعث عدي بن عمير إلى المدائن، وكان بها ألف فارس

فانتخب منهم خمسمائة، ثم رحل بهم حتى قدم على سورة ببابل مهروذ، فخرج بهم في طلب شبيب، وخرج شبيب يجول في جوشي، وسورة في طلبه، فجاء شبيب إلى المدائن فتحصن منه أهلها فانتهب المدائن الأولى، وأصاب دواب من دواب الجند، وقتل من ظهر له، ولم يدخل البيوت، ثم أتى فقيلاً له: هذا سورة قد أقبل إليك، فخرج في أصحابه حتى انتهى إلى النهروان، فنزلوا به وتوضئوا وصلوا، ثم أتوا مصارع إخوانهم الذين قتلهم علي بن أبي طالب، فاستغفروا لهم، وتبرؤوا من علي وأصحابه، ويكفوا فاطالوا البكاء، ثم عبروا جسر النهروان، فنزلوا جانبه الشرقي، وجاء سورة حتى نزل بنفطراناً وجاءته عيونه، فأخبروه بمنزل شبيب بالنهروان، فدعا سورة رؤوس أصحابه، فقال لهم: إن الخوارج قلما يلقون في صحراء أو على ظهر إلا انتصفوا، وقد حدثت أنهم لا يزيدون على مائة رجل، وقد رأيت أن أنتخبكم وأسير في ثلاثمائة رجل منكم، من أقويائكم وشجعانكم فأيتهم فإنهم آيسون من ييأتكم، وإني والله أرجو أن يصرعهم الله مصارع إخوانهم في النهروان من قبل، فقالوا: اصنع ما أحببت.

فاستعمل على عسكره حازم بن قدامة، وانتخب ثلاثمائة من شجعان أصحابه، ثم أقبل بهم حتى قرب من النهروان، ويات وقد أذكى الحرس، ثم بيتهم، فلما دنا أصحاب سورة منهم نذروا بهم، فاستووا على خيولهم، وتعبوا تغيبهم، فلما انتهى إليهم سورة وأصحابه أصابوهم وقد نذروا، فحمل عليهم سورة، فصاح شبيب بأصحابه، فحمل عليهم حتى تركوا له القرصة، وحمل شبيب، وجعل يضرب ويقول:

مَنْ يَسْزِئَكَ السَّيْرَ يَسْزِئَكَ نَيْبَاكَ

فرجع سورة مفلولاً، قد هزم فرسانه وأهل القوة من أصحابه، وأقبل نحو المدائن، وتبعه شبيب، حتى انتهى سورة إلى بيوت المدائن، وانتهى شبيب إليهم، وقد دخل الناس البيوت وخرج ابن أبي عصفير، وهو أمير المدائن يومئذ في جماعة، فلقبهم في شوارع المدائن ورماهم الناس بالنبل والحجارة من فوق البيوت.

ثم سار شبيب إلى تكريت، فبينا ذلك الجند بالمدائن إذ أزعج الناس فقالوا: هذا شبيب قد أقبل يريد أن يبيت أهل المدائن، فارتحل عامة الجند، فلاحقوا بالكوفة، وإن شبيباً بتكريت فلما أتى الحجاج الخبر، قال: قبح الله سورة! ضيع العسكر وخرج يبيت الخوارج، والله لأسوءه.

ثم دعا الحجاج بالجزل، وهو عثمان بن سعيد، فقال له: تيسر للخروج إلى هذه المارقة، فإذا لقيتهم فلا تعجل عجلة الخرق الترق^(١)، ولا تحجم إحجام الواني الفرق، أفهمت؟ قال: نعم أصلح الله الأمير قد فهمت، قال: فاخرج وعسكر بذيئ عبد الرحمن حتى يخرج الناس

(١) الترق: الخفة والطيش. اللسان. مادة (نرقة).

يك، فقال: أصلح الله الأمير! لا تبعث معي أحداً من الجُند المهزوم المفلول، فإن الرعب قد دخل قلوبهم، وقد خشيت ألا ينفعك والمسلمين منهم أحد، قال: ذلك لك، ولا أراك إلا قد حسنت الرأي، ووُفِّقت، ثم دعا أصحاب الدواوين، فقال: اضربوا على الناس البعث، أخرجوا أربعة آلاف من الناس، وعَجَّلُوا، فجمعت العُرَفاء، وجلس أصحاب الدواوين، ضَرَبُوا البعث، فأخرجوا أربعة آلاف، فأمرهم بالَّلحاق بالعسكر، ثم نودي فيهم بالرحيل، رتحلوا، ونادى منادي الحجاج: أن بَرِئت الذِّمَّة مِن رجل أصبَّناه من بعث الجَزُل متخلفاً.

فمضى بهم الجَزُل، وقد قَدَّم بين يديه عياض بن أبي لينة الكندي على مقدمته فخرج، حتى إلى المدائن، فأقام بها ثلاثاً، ثم خرج وبعث إليه ابن أبي عصفير بفرس ويزدُون وألفي درهم، ووضع للناس من الحطب والعلف ما كفاهم ثلاثة أيام، وأصاب الناس ما شاؤوا من ذلك.

ثم إنَّ الجَزُل خرج بالناس إثر شبيب، فطلبه في أرض جَوْحَى، فجعل شبيب يُريه الهيبة، فخرج من رُسْتاق إلى رُسْتاق، ومن طَسُوج^(١) إلى طَسُوج ولا يقيم له، يريد بذلك أن يفرق جَزُل أصحابه، ويتعجل إليه فيلقاه في حَدِّ يسير على غير تعب، فجعل الجَزُل لا يسير إلا على يَمِيَّة، ولا ينزل إلا خَنْدَق على نفسه وأصحابه، فلما طال ذلك على شبيب، دعا يوماً أصحابه، ثم مائة وستون رجلاً، هو في أربعين، ومصاد أخوه في أربعين، وسويد بن سليم في أربعين، والمحَلَّل بن وائل في أربعين، وقد آتته عيونه فأخبرته، أنَّ الجَزُل بن سعيد قد نزل ببئر سعد. قال لأخيه وللأمراء الذين ذكرناهم: إني أريد أن آيَّت الليلة هذا العسكر فأتهم أنت يا مصاد من قَبَل حُلوان، وسأتيهم أنا من أمامهم من قَبَل الكوفة، وأتيم أنت يا سُوَيْد من قَبَل المشرق، أتيم أنت يا مجلَّل، من قَبَل المغرب، وليلج كلُّ امرئٍ منكم على الجانب الذي يحمل عليه، لا تقلعوا عنهم حتى يأتكم أمري.

قال فروة بن لقيط: وكنتُ أنا في الأربعين الذين كانوا معه، فقال لجماعتنا: تيسرُوا، وليسرْ امرئٌ منكم مع أميره، ولينظر ما يأمره به أميره فليتبَّعه، فلما قضت دوابنا - وذلك أول ما آتت العيون - خرجنا حتى انتهينا إلى دير الخراة، فإذا القوم عليهم مَسْلحة بن أبي لينة، فما إلا أن رآهم مصاد أخو شبيب حتى حمل عليهم في أربعين رجلاً، وكان شبيب أراد أن يرتفع بهم حتى يأتهم من ورائهم، كما أمره.

فلما لقي هؤلاء قاتلهم، فصبروا له وقاتلوه. ثم إننا دفعنا إليهم جميعاً، فهزمناهم، وأخذوا طريق الأعظم، وليس بينهم وبين عسكرهم بدير يزدجرد إلا نحو ميل، فقال لنا شبيب: اركبوا

(١) الطسوج: الناحية. اللسان، مادة (طسج).

معاشر المسلمين أكتافهم، حتى تدخلوا معهم عسكريهم إن استطعتم، فأتبعناهم ملطين بهم، ملحين عليهم، ما تُرقة عنهم وهم منهزمون، ما لهم همة إلا عسكريهم.

فمنعهم أصحابهم أن يدخلوا عليهم، ورشقوهم بالنبل، وكانت لهم عيون قد أتتهم فأخبرتهم بمكاننا، وكان الجزل قد خندق عليهم وتحرز، ووضع هذه المسلحة الذين لقيناهم بدير الخرارة، ووضع مسلحة أخرى مما يلي حلوان.

فلما اجتمعت المسالحي، ورشقوهم بالنبل، ومنعونا من خندقهم، رأى شبيب أنه لا يصل إليهم، فقال لأصحابه: سيروا ودعوهم، فلما سار عنهم أخذ على طريق حلوان، حتى كان منهم على سبعة أميال، قال لأصحابه: انزلوا فأقضموا دوابكم، وقيلوا وتروحووا، فصلوا ركعتين، ثم اركبوا. ففعلوا ذلك. ثم أقبل بهم راجعاً إلى عسكر الكوفة، وقال: سيروا على تعييتكم التي عبأتكم عليها أول الليل، وأطيقوا بعسكريهم كما أمرتكم. فأقبلنا معه، وقد أدخل أهل العسكر مسالحيهم إليهم، وأمنوا، فما شعروا حتى سمعوا وقع حوافر الخيل، فانتبهنا إليهم قبيل الصبح، وأحطنا بعسكريهم، وصحنا بهم من كل ناحية، فقاتلونا، ورمونا بالنبل، فقال شبيب لأخيه مصاد، وكان يقاتلهم من الجانب الذي يلي الكوفة: خلّ لهم سبيل طريق الكوفة، فخلّ لهم، وقاتلناهم من تلك الوجوه الثلاثة الأخرى إلى الصبح، ثم سرنا وتركناهم، لأننا لم نظفر بهم، فلما سار شبيب سار الجزل في أثره بطلبه، وجعل لا يسير إلا على تعبئة وترتيب، ولا ينزل إلا على خندق، وأما شبيب ففُضرب في أرض جوحى، وترك الجزل، فطال أمره على الحجاج، فكتب إلى الجزل كتاباً قرأه على الناس وهو:

أما بعد، فإني بعثتك في فرسان أهل البصر ووجوه الناس، وأمرتك باتباع هذه المارقة والّا تطلع عنها حتى تقتلها وتفنيها، فجعلت التّعريس في القرى، والتخيم في الخنادق، أهون عليك من المضى لمناقضتهم ومناجزتهم. والسلام.

قال: فشق كتاب الحجاج على الجزل، وأرجف الناس بأمره، وقالوا: سيعزله، فما لبث الناس أن بعث الحجاج سعيد بن المجالد أميراً بدله، وعهد إليه: إذا لقي المارقة أن يزحف إليهم، ولا يناظرهم، ولا يطاولهم، ولا يصنع صنّع الجزل، وكان الجزل يومئذ قد انتهى في طلب شبيب إلى النهروان، وقد لزم عسكريه، وخندق عليهم، فجاء سعيد حتى دخل عسكر أهل الكوفة أميراً، فقام فيهم خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

يا أهل الكوفة، إنكم قد عجزتم ووهنتم، وأغضبتكم عليكم أميركم، أنتم في طلب هذه الأعراب العجف منذ شهرين، قد أخربوا بلادكم، وكسروا خراجكم، وأنتم حذرون في جوف هذه الخنادق لا تُزايِلونها إلا أن يبلغكم أنهم قد ارتحلوا عنكم، ونزلوا بلداً سوى بلدكم اخرجوا على اسم الله إليهم.

ثم خرج وخرج الناس معه، فقال له الجزل: ما تريد أن تصنع؟ قال: أقدم على شبيب وأصحابه في هذه الخيل، فقال له الجزل: أقم أنت في جماعة الناس فارسهم وراجلهم، ولا تفرق أصحابك، ودعني أضحر له، فإن ذلك خير لك وشر لهم. فقال سعيد: بل تقف أنت في الصف، وأنا أضحر له، فقال الجزل: إني بريء من رأيك هذا، سمع الله ومن حضر من المسلمين! فقال سعيد: هو رأيي، إن أصبت فيه، فإله وفقني، وإن أخطأت فيه فأنتم برآء.

فوقف الجزل في صف أهل الكوفة، وقد أخرجهم من الخندق وجعل على ميمنتهم عياض بن أبي لينة الكندي، وعلى يسرتهم عبد الرحمن بن عوف أبا حميد الراسبي، ووقف الجزل في جماعتهم، واستقدم سعيد بن مجالد فخرج وأخرج الناس معه، وقد أخذ شبيب إلى برّاز الروز، فنزل قطفًا، وأمر دهقانها^(١) أن يشوي لهم غنماً، ويعد لهم غداء ففعل، وأغلق مدينة قطفًا، ولم يفرغ الدهقان من طعامه حتى أحاط بها ابن مجالد، فصعد الدهقان، ثم نزل، وقد تغير لونه، فقال شبيب: ما بالك؟ قال: قد جاءك جمع عظيم، قال: أبلغ شواؤك؟ قال: لا، قال: دعه يبلغ، ثم أشرف الدهقان إشرافه أخرى، ثم نزل فقل: قد أحاطوا بالجوسق، قال: هات شواءك، فجعل يأكل غير مكترث بهم، ولا فزع، فلما فرغ قال لأصحابه، قوموا إلى الصلاة، وقام فتوضأ، فصلى بأصحابه صلاة الأولى، ولبس درعه، وتقلد سيفه، وأخذ عموده الحديد، ثم قال: أسرجوا إلى بغلتي، فقال أخوه: أفي مثل هذا اليوم تركب بغلة؟ قال: نعم، أسرجوها، فركبها، ثم قال: يا فلان، أنت على الميمنة، وأنت يا فلان على الميسرة، وأنت يا مصاد - يعني أخاه - على القلب، وأمر الدهقان ففتح الباب في وجوههم.

فخرج إليهم وهو يحكم، وحمل حملة عظيمة، فجعل سعيد وأصحابه يرجعون القهقري، حتى صار بينهم وبين الدّير ميل، وشبيب يصيح: أتاكم الموت الزّوام! فاثبتوا، وسعيد يصيح: يا معشر همدان، إني إلي، أنا ابن ذي مرّان فقال شبيب لمصاد: ويحك! استعرضهم استعراضاً، فإنهم قد تقطعوا، وإني حامل على أميرهم، وأثكلنيك الله إن لم أثكله ولده، ثم حمل على سعيد فعلاه بالعمود، فسقط ميتاً وانهزم أصحابه، ولم يقتل يومئذ من الخوارج إلا رجل واحد.

وانتهى قتل سعيد إلى الجزل، فناداهم: أيها الناس، إني إلي وصاح عياض بن أبي لينة: أيها الناس، إن يكن أميركم هذا القادم هلك، فهذا أميركم الميمون النقيية، أقبلوا إليه، فمنهم من أقبل إليه، ومنهم من ركب فرسه منهزماً، وقاتل الجزل يومئذ قتالاً شديداً حتى صرع، وحامى عنه خالد بن نهيك، وعياض بن أبي لينة، حتى استنقذاه مرتثاً، وأقبل الناس منهزمين حتى دخلوا الكوفة، وأتى بالجزل جريحاً حتى دخل المدائن، فكتب إلى الحجاج:

(١) دهقن الطعام: إله. اللسان، مادة (دهقن).

أما بعد، فإني أخبر الأمير - أصلحه الله - أني خرجتُ فيمن قبلي من الجند الذي وجَّهني فيه إلى عدوه، وقد كنتُ حفظتُ عهدَ الأمير إليّ فيهم ورأيه، فكنتُ أخرجُ إلى المارقين إذا رأيتُ الفرصة، وأحبس الناس عنهم إذا خشيتُ الوُرْطَةَ، فلم أزل كذلك أديرُ الأمر، وأرفقُ في التدبير، وقد أرادني العدو بكل مكيده، فلم يُصِبْ مني غرّة، حتى قدم عليّ سعيد بن مجالد، فأمرته بالتؤدة، ونهيته عن العجالة، وأمرته ألا يقاتلهم إلا في جماعة الناس عامة فعصاني وتعجل إليهم في الخيل، فأشهدتُ الله عليه وأهل المضربين أني بريء من رأيه الذي رأى، وأنّي لا أهوى الذي صنع، فمضى فقتل، تجاوز الله عنه! ودفع الناس إليّ فتزلت ودعوتهم إلى نفسي ورفعتُ رأيتي، وقاتلت حتى صرعت، فحملني أصحابي من بين القتلى، فما أفتت إلا وأنا على أيديهم، على رأس ميلٍ من المعركة، وأنا اليوم بالمدائن، وفي جراحات قد يموت الإنسان من دونها، وقد يعافى من مثلها، فليسأل الأمير أصلحه الله عن نصيحتي له ولجنده، وعن مكايدي عدوه، وعن موقفي يوم البأس، فإنه سيبين له عند ذلك أني صدقته ونصحت له. والسلام.

فكتب إليه الحجاج:

أما بعد، فقد أتاني كتابك وقرأته، وفهمت كل ما ذكرته فيه من أمر سعيد وأمر نفسك وقد صدقتك في نصيحتك لأميرك وخيظتك على أهل مضرك، وشدتك على عدوك، وقد رضى عجلة سعيد وتؤدتك. فأما عجلته فإنها أفضت به إلى الجنة، وأما تؤدتك فإنها لم تدع الفرصة إذا أمكنت حزم، وقد أحسنت وأصبت وأجرت، وأنت عندي من أهل السمع والطاعة والنصيحة، وقد أشخصت إليك حيّان بن أبجر الطبيب ليداويك، ويعالج جراحاتك، وقد بعثت إليك بالفي درهم نفقة تصرفها في حاجتك وما ينوبك. والسلام.

وبعث عبد الله بن أبي عصفير والي المدائن إلى الجزل بألف درهم، وكان يعود ويتعاهد بالالطاف والهدايا.

وأما شيب، فأقبل حتى قطع دجلة عند الكرخ، وأخذ بأصحابه نحو الكوفة. وبلغ الحجاج مكانه بحمام أعين، فبعث إليه سويد بن عبد الرحمن السعدي، فجهزه بالفي فارس منتخبين، وقال له: اخرج إلى شيب فآلقه ولا تتبعه، فخرج بالناس بالسَّبخة، وبلغه أن شيباً قد أقبل، فسار نحوه كأنما يُساق إلى الموت هو وأصحابه، وأمر الحجاج عثمان بن قطن فعسكر بالناس في السَّبخة، ونادى: ألا برئت الذمّة من رجل من هذا الجند، بات الليلة بالكوفة، ولم يخرج إلى عثمان بن قطن بالسَّبخة، فبينما سويد بن عبد الرحمن يسير في الألفين الذين معه، وهو يعيهم ويحرّضهم، إذ قيل له: قد غشيك شيب، فنزل ونزل معه جُلّ أصحابه، وقدم رأيت، فأخبر أن شيباً لما علم بمكانه تركه، ووجد مخاضة فعبّر الفرات، يريد الكوفة من غير الوجه الذي سويد بن عبد الرحمن به، ثم قيل: أما تراهم! فتنادى في أصحابه فركبوا في آثارهم، فأتى

شبيب دار الرزق فنزلها، وقيل له: إن أهل الكوفة بأجمعهم معسكرون، فلما بلغهم مكان شبيب، ما ج الناس بعضهم إلى بعض، وجالوا وهموا بدخول الكوفة، حتى قيل: هذا سويد بن عبد الرحمن في آثارهم قد لحقهم، وهو يقاتلهم في الخيل ومضى شبيب حتى أخذ على شاطئ الفرات، ثم أخذ على الأنبار، ثم دخل دقوقاء، ثم ارتفع إلى أداني أفريجان.

وخرج الحجاج من الكوفة إلى البصرة حيث بعد شبيب، واستخلف على الكوفة عروة بن المغيرة بن شعبة، فما شعر الناس إلا بكتاب من مادارست، دققان بابل مهروز إلى عروة بن المغيرة بن شعبة، أن تاجراً من تجار الأنبار من أهل بلادي أتاني يذكر أن شبيباً يريد أن يدخل الكوفة في أول هذا الشهر المقبل، وأحببت إعلامك [ذلك] لترى رأيك، وإني لم ألبث بعد ذلك إذ جاءني اثنان من جيراني فحدثاني أن شبيباً قد نزل خانيجار.

فأخذ عروة كتابه فأدرجه وسرح به إلى الحجاج إلى البصرة. فلما قرأ الحجاج أقبل جاذاً إلى الكوفة، وأقبل شبيب يسير حتى انتهى إلى قرية خزبي على شاطئ دجلة، فعبرها وقال لأصحابه: يا هؤلاء، إن الحجاج ليس بالكوفة، وليس دون أخذها شيء إن شاء الله. فسيروا بنا، فخرج يبادر الحجاج إلى الكوفة، وكتب عروة إلى الحجاج: إن شبيباً قد أقبل مسرعاً يريد الكوفة، فאלعجل العجل.

فطوى الحجاج المنازل مسابقاً لشبيب إلى الكوفة، فسبقه ونزلها صلاة العصر، ونزل شبيب السبخة صلاة العشاء الآخر، فأصاب هو وأصحابه من الطعام شيئاً يسيراً، ثم ركبوا خيولهم، فدخل شبيب الكوفة في أصحابه حتى انتهى إلى السوق، وشذ حتى ضرب باب القصر بعموده، فحدث جماعة أنهم رأوا أثر ضربة شبيب بالعمود بباب القصر، ثم أقبل حتى وقف عند باب المصطبة، وأنشد:

وَكَاَنَّ حَافِرَهَا بِكُلِّ نَبِيٍّ فَرَّقَ بِكَيْلٍ بِهِ شَجِيحٌ مُغْدِمٌ

ثم أقحم هو وأصحابه المسجد الجامع، ولا يفارقه قوم يصلون فيه، فقتل منهم جماعة ومرو هو بدار حوشب - وكان هو على شرطة الحجاج - فوقف على بابه في جماعة، فقالوا: إن الأمير - يعنون الحجاج - يدعو حوشباً، وقد أخرج ميمون غلامه برذونه ليركب، فكأنه أنكرهم، فظنوا أنه قد اتهمهم فأراد أن يدخل إلى صاحبه، فقالوا له: كما أنت حتى يخرج صاحبك إليك، فسمع حوشب الكلام، فأنكر القوم، وذهب لينصرف فعجلوا نحوه، فأغلق الباب دونه، فقتلوا غلامه ميموناً، وأخذوا برذونه، ومضوا حتى مروا بالجحاف بن نبيط الشيباني، من روط حوشب. فقال له سويد: انزل إلينا، فقال: ما تصنع بنزولي! فقال: انزل إني لم أقضك ثمن البكرة التي ابتعتها منك بالبادية، فقال الجحاف: بش ساعة القضاء هذه وبش المكان لقضاء الدين هذا. ويحك! أما ذكرت أداء أمانتك إلا والليل مظلم، وأنت على

مَنْ فَرَسَكَ! قَبِحَ اللَّهُ يَا سُؤِيدَ دِينًا لَا يَصْلُحُ وَلَا يَتَمُّ إِلَّا بِقَتْلِ الْأَنْفُسِ وَسَفْكَ الدَّمَاءِ. ثُمَّ مَرُّوا بِمَسْجِدِ بَنِي ذُهْلٍ، فَلَقُّوا ذُهْلَ بْنَ الْحَارِثِ، وَكَانَ يَصَلِّي فِي مَسْجِدِ قَوْمِهِ، فَيَطِيلُ الصَّلَاةَ إِلَى اللَّيْلِ، فَصَادَفُوهُ مَنْصَرَفًا إِلَى مَنْزِلِهِ فَقَتَلُوهُ ثُمَّ خَرَجُوا مُتَوَجِّهِينَ نَحْوَ الرَّدْمَةِ، وَأَمَرَ الْحَجَّاجُ الْمَنَادِي: يَا خَيْلَ اللَّهِ ارْكَبِي وَأَبْشِرِي، وَهُوَ فَوْقَ بَابِ الْقَطْرِ، وَهَنَّاكَ مُصْبِحًا مَعَ غَلَامٍ لَهُ قَائِمٌ.

وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ جَاءَ مِنَ النَّاسِ عَثْمَانُ بْنُ قَطَنٍ، وَمَعَهُ مَوَالِيهِ وَنَاسٌ مِنْ أَهْلِهِ، وَقَالَ: أَعْلَمُوا الْأَمِيرَ مَكَانِي، أَنَا عَثْمَانُ بْنُ قَطَنٍ، فَلْيَأْمُرْنِي بِأَمْرِهِ. فَتَادَاهُ الْغَلَامُ صَاحِبُ الْمَصْبَاحِ: قِفْ مَكَانَكَ حَتَّى يَأْتِيكَ أَمْرُ الْأَمِيرِ، وَجَاءَ النَّاسُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَبَاتَ عَثْمَانُ مَكَانَهُ فِيمَنْ اجْتَمَعَ إِلَيْهِ مِنَ النَّاسِ، حَتَّى أَصْبَحَ.

وَقَدْ كَانَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ بَعَثَ مُحَمَّدَ بْنَ مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ عَلَى سِجِسْتَانَ، وَكُتِبَ لَهُ عَهْدُهُ عَلَيْهَا، وَكُتِبَ إِلَى الْحَجَّاجِ: إِذَا قَدِمَ عَلَيْكَ مُحَمَّدُ بْنُ مُوسَى الْكُوفَةَ، فَجَهِّزْ مَعَهُ أَلْفِي رَجُلًا، وَعَجِّلْ سَرَاخَهُ إِلَى سِجِسْتَانَ.

فَلَمَّا قَدِمَ الْكُوفَةَ، جَعَلَ يَتَجَهَّزُ، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ وَنَصَحَاؤُهُ: تَعَجَّلْ أَيُّهَا الرَّجُلُ إِلَى عَمَلِكَ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا يَحْدُثُ، وَعَرَضَ أَمْرُ شَيْبِ بْنِ حَيْثَمٍ وَدُخُولُهُ الْكُوفَةَ، فَقِيلَ لِلْحَجَّاجِ: إِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ مُوسَى إِنْ سَارَ إِلَى سِجِسْتَانَ مَعَ نَجْدَتِهِ وَصِیْهِرِ الْأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدَ الْمَلِكِ، فَلَجَأَ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِمَّنْ تَطْلُبُهُ، مَنَعَكَ مِنْهُ. قَالَ: فَمَا الْحِيلَةُ؟ قَالُوا: أَنْ تَذْكُرَ لَهُ أَنَّ شَيْبًا فِي طَرِيقِهِ وَقَدْ أَعْيَاكَ، وَأَنْكَ تَرْجُو أَنْ يَرِيحَ اللَّهُ مِنْهُ عَلَى يَدِهِ، فَيَكُونَ لَهُ ذِكْرُ ذَلِكَ وَشَهْرَتُهُ.

فَكُتِبَ إِلَيْهِ الْحَجَّاجُ: إِنَّكَ عَامِلٌ عَلَى كُلِّ بَلَدٍ مَرَزْتَ بِهِ، وَهَذَا شَيْبٌ فِي طَرِيقِكَ تَجَاهِدُهُ وَمَنْ مَعَهُ، وَلَكَ أَجْرُهُ وَذِكْرُهُ وَصِيَّتُهُ، ثُمَّ تَمْضِي إِلَى عَمَلِكَ، فَاسْتَجَابَ لَهُ.

وَبَعَثَ الْحَجَّاجُ بَنَ بَشَرَ بْنَ غَالِبِ الْأَسَدِيِّ فِي أَلْفِي رَجُلًا، وَزِيَادَ بْنَ قَدَامَةَ فِي أَلْفَيْنِ، وَأَبَا الضَّرِيرِ مَوْلَى تَمِيمٍ فِي أَلْفٍ مِنَ الْمَوَالِي، وَأَعْيَنَ صَاحِبَ حَمَامٍ أَعْيَنَ مَوْلَى بَشَرَ بْنَ مَرْوَانَ تَمِيمٍ فِي أَلْفٍ مِنَ الْمَوَالِي، وَأَعْيَنَ صَاحِبَ حَمَامٍ أَعْيَنَ مَوْلَى بَشَرَ بْنَ مَرْوَانَ فِي أَلْفٍ، وَجَمَاعَةً غَيْرَهُمْ، فَاجْتَمَعَتْ تِلْكَ الْأَمْوَاءُ فِي أَسْفَلِ الْفَرَاتِ وَتَرَكَ شَيْبُ الْوَجْهَ الَّذِي فِيهِ جَمَاعَةٌ هَوْلَاءُ الْقَوَادِ، وَأَخَذَ نَحْوَ الْقَادِسِيَّةِ، فَوَجَّهَ الْحَجَّاجُ زُخْرَ بْنَ قَيْسٍ فِي جَرِيدَةِ خَيْلٍ، نُقَاوَةً، عَدَّتْهَا وَثَمَانِمِائَةً فَارَسَ، وَقَالَ لَهُ: اتَّبِعْ شَيْبًا حَتَّى تَوَاقِعَهُ حَيْثُمَا أَدْرَكَتَهُ، فَخَرَجَ زُخْرُ بْنُ قَيْسٍ حَتَّى انْتَهَى إِلَى السَّيْلِجِينَ، وَبَلَغَ شَيْبًا مَسِيرَهُ إِلَيْهِ فَأَقْبَلَ نَحْوَهُ فَالْتَقَا، وَقَدْ جَعَلَ زُخْرُ عَلَى مِیْمَنَتِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ كَنَازٍ، وَكَانَ شَجَاعًا، وَعَلَى مِیْسَرَتِهِ عَدِيٌّ بْنُ عَدِيٍّ بْنِ عُمَيْرَةَ الْكَنْدِيِّ، وَجَمَعَ شَيْبُ خَيْلَهُ كُلَّهَا كَبْكَبَةً وَاحِدَةً، ثُمَّ اعْتَرَضَ بِهَا الصَّفَّ يُوجِفُ وَجِيفًا، حَتَّى انْتَهَى إِلَى زُخْرِ بْنِ قَيْسٍ، فَتَزَلَّ زُخْرُ، فَقَاتَلَ حَتَّى صُرِعَ وَانْهَزَمَ أَصْحَابُهُ، وَظَنَّ أَنَّهُ قَدْ قُتِلَ.

فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ وَأَصَابَهُ الْبَرْدُ، قَامَ يَمْشِي حَتَّى دَخَلَ قَرْيَةً، فَبَاتَ بِهَا وَحُمِلَ مِنْهَا إِلَى الْكُوفَةِ،

وبوجهه أربع عشرة ضربة، فمكث أياماً، ثم أتى الحجاج، وعلى وجهه وجراحه القطن، فأجلسه معه على السرير. وقال أصحاب شبيب لشبيب، وهم يظنون أنهم قد قتلوا زحراً: قد هزمنا جندهم، وقتلنا أميراً من أمرائهم عظيماً، فانصرف بنا الآن موفورين. فقال لهم: إن قتلكم هذا الرجل وهزيمتكم هذا الجند قد أربع هؤلاء الأمراء، فاقصدوا بنا قصدهم، فوالله لئن نحن قتلناهم ما دون قتل الحجاج وأخذ الكوفة شيء. فقالوا له: نحن طوع لأمرك ورأيك، فانقض بهم جأداً، حتى أتى ناحية عين التمر، واستخبر عن القوم، فعرف اجتماعهم في رُوذبار في أسفل الفرات، على رأس أربعة وعشرين فرسخاً من الكوفة.

وبلغ الحجاج مسير شبيب إليهم، فبعث إليهم: إن جمعتكم قتال، فأمر الناس زائدة بن قدامة.

فانتهى إليهم شبيب، وفيهم سبعة أمراء، على جماعتهم زائدة بن قدامة، وقد عبي كل أمير أصحابه على حدة، وهو واقف في أصحابه، فأشرف شبيب على الناس، وهو على فرس أغر كُميت^(١)، فنظر إلى تعبيتهم، ثم رجع إلى أصحابه، وأقبل في ثلاث كتائب يزحف بها، حتى إذا دنا من الناس مضت كتيبة فيها سويد بن سليم، فوقفت بإزاء ميمنة زائدة بن قدامة، وفيها زياد بن عمرو العتكي، ومضت كتيبة فيها مصاد أخو شبيب، فوقفت بإزاء الميسرة، وفيها بشر بن غالب الأسدي، وجاء شبيب في كتيبة، حتى وقف مُقابل القوم في القلب، فخرج زائدة بن قدامة يسير في الناس بين الميمنة والميسرة، يحرض الناس، ويقول: عباد الله، إنكم الطيبون لكثيرون، وقد نزل بكم الخبيثون القليلون، فاصبروا جعلت لكم الفداء! إنما هي حملتان أو ثلاث، ثم هو النصر ليس دونه شيء، ألا ترونهم والله لا يكونون مائتي رجل، إنما هم أكلة رأس وهم الشراق المراق، إنما جاؤكم ليُهريقوا دماءكم، ويأخذوا فينكم، فلا يكونوا على أخذهم أقوى منكم على منعه، وهم قليل وأنتم كثير، وهم أهل فرقة وأنتم أهل جماعة، عضواً لأبصار واستقبلوهم بالأسنة، ولا تحملوا عليهم حتى آمركم.

ثم انصرف إلى موقفه، فحمل سويد بن سليم على زيد بن عمرو العتكي، فكشف صفه وثبت زياد قليلاً ثم ارتفع سويد عنهم يسيراً ثم كرّ عليهم ثانية.

فقال فروة بن لقيط الخارجي: اطلعنا ذلك اليوم ساعة فصبروا لنا حتى ظننت أنهم لن يزولوا، وقاتل زياد بن عمرو قتالاً شديداً، ولقد رأيت سويد بن سليم يومئذ وإنه لأشدّ العرب قتالاً وأشجعهم، وهو واقف لا يعرض لهم، ثم ارتفعنا عنهم، فإذا هم يتقوضون، فقال بعض أصحابنا لبعض: ألا ترونهم يتقوضون! احمِلُوا عليهم، فأرسل إلينا شبيب: خلّوهم لا تحملوا.

(١) فرس كُميت: لون ليس بأشقر ولا أدهم. اللسان، مادة (كمت).

عليهم حتى يخفوا، فتركناهم قليلاً، ثم حملنا عليهم الثالثة فانهزموا، فنظرت إلى زياد بن عمرو، وإنه ليضرب بالسيوف، وما من سيف يضرب به إلا نبا عنه، ولقد اعتوره أكثر من عشرين سيفاً وهو مجفف، فما ضره شيء منها، ثم انهزم.

وانتهينا إلى محمد بن موسى بن طلحة أمير سجستان عند المغرب، وهو قائم في أصحابه، فقاتلوا قتالاً شديداً، وصبر لنا.

ثم إن مصاداً حمل على بشر بن غالب في الميسرة فصبر وكرّم وأبلى، ونزل معه رجال من أهل البصرة نحو خمسين، فضاربوا بأسيا فهم حتى قتلوا، ثم انهزم أصحابه فشدّنا على أبي الضريس فهزمناه، ثم انتهينا إلى موقف أعين، ثم شدّنا على أخين، فهزمناهم حتى انتهينا إلى زائدة بن قدامة، فلما انتهوا إليه، نزل ونادى: يا أهل الإسلام، الأرض الأرض! ألا لا يكونون على كفرهم أصبر منكم على إيمانكم. فقاتلوا عامة الليل إلى السحر.

ثم إن شيباً شدّ على زائدة بن قدامة في جماعة من أصحابه، فقتله وقتل ربيعة حوله من أهل الحفاظ، ونادى شبيب في أصحابه: ارفعوا السيف، وأدعوهم إلى البيعة، فدعّوهم عند الفجر إلى البيعة.

قال عبد الرحمن بن جندب: فكنث فيمن تقدّم فبايعه بالخلافة، وهو واقف على فرسٍ أغرٍ كُميت، وخيله واقفة دونه وكل من جاء لبايعه يُزع سيفه عن عاتقه، ويؤخذ سلاحه، ثم يدنو من شبيب فيسلم عليه بإمرة المؤمنين، ثم يبايع، فإنا كذلك إذ أضاء الفجر ومحمد بن موسى بن طلحة في أقصى العسكر مع أصحابه، وكان الحجاج قد جعل موقفه آخر الناس وزائدة بن قدامة بين يديه، ومقام محمد بن موسى مقام الأمير على الجماعة كلها، فأمر محمد مؤذنه فأذن، فلما سمع شبيب الأذان، قال: ما هذا؟ قيل: هذا ابن طلحة لم يبرح، قال: ظننت أن حمقه وخيلاءه سيحملانه على هذا، نَحُوا هؤلاء عَنَّا، وانزلوا بنا فلنصل، فنزل وأذن هو، ثم استقدم فصلّى بأصحابه، وقرا ﴿وَلِلَّهِ الْكَوْكَبُ كُلُّهُمُ لُزُومٌ﴾^(١)، و﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّبِّ﴾^(٢)، ثم سلّم وركب، وأرسل إلى محمد بن موسى بن طلحة: إنك امرؤ مخدوع قد اتقى بك الحجاج المنية، وأنت لي جار بالكوفة، ولك حق فانطلق لما أمرت به، ولك الله ألا أسوءك، فأبى محاربته فأعاد عليه الرسول فأبى إلا قتاله، فقال له شبيب: كأنني بأصحابك لو التقت خلقنا البطان قد أسلموك، وصُرعت مصرع أمثالك، فأطعني وانصرف لشأنك، فإني أنفُسُ بك عن القتل، فأبى وخرج بنفسه، ودعا إلى البراز، فبرز له البطين ثم قعّب بن سويد، وهو يابى إلا شيباً. فقالوا لشبيب: إنّه قد رغب عَنَّا إليك، قال: فما ظنكم بمن يرغب عن الأشراف! ثم برز

(١) سورة الهمزة، الآية: ١.

(٢) سورة الماعون، الآية: ١.

له، وقال له: أنشدك الله يا محمد في دمك، فإن لك جواراً! فأبى إلا قتاله فحمل عليه بعموده الحديد، وكان فيه اثنا عشر رطلاً، فهشم رأسه وبيضته^(١) كانت عليه فقتله ونزل إليه فكفنه ودفنه، وتبع ما غنم الخوارج من عسكره، فبعث به إلى أهله، واعتذر إلى أصحابه، وقال: هو جاري بالكوفة، ولي أن أحب ما غنمت. فقال له أصحابه: ما دون الكوفة الآن أحد يمنعك، فنظر فإذا أصحابه قد قُتِلوا فيهم الجراح، فقال: ليس عليكم أكثر مما قد فعلتم.

وخرج بهم على نَقَرٍ، ثم خرج بهم نحو بغداد، يطلب خانيجار. وبلغ الحجاج أن شيئاً قد أخذ نحو نَقَرٍ، فظن أنه يريد المدائن، وهي باب الكوفة، ومن أخذ المدائن كان ما في يديه من أرض الكوفة أكثر، فهال ذلك الحجاج، وبعث إلى عثمان بن قطن، فسرحه إلى المدائن وولاه منبرها والصلاة ومعونة جوخي كلها، وخراج الأستان، فجاء مسرعاً حتى نزل المدائن وعزل الحجاج ابن أبي عصفير عن المدائن، وكان الجزل مقيماً بها يُداوي جراحاته، وكان ابن أبي عصفير يعود ويكرمه، ويُلطِّفه، فلما قديم عثمان بن قطن لم يكن يتعاهده ولا يُلطِّفه بشيء، فكان الجزل يقول: اللهم زاد ابن أبي عصفير فضلاً وكلاماً، وزد عثمان بن قطن ضيقاً وبخلًا.

ثم إن الحجاج دعا عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، فقال له: انتخب الناس، فأخرج ستمائة من قومه من كِنْدَةَ، وأخرج من سائر الناس ستة آلاف، واستحقه الحجاج على الشخص، فخرج بعسكره بدير عبد الرحمن، فلما استثموا هناك كتب إليهم الحجاج كتاباً قرأ عليهم:

أما بعد فقد اعتدتم عادة الأذلاء، ووليتم الدُّبُر يوم الزُّخف، دأب الكافرين وقد صفحت عنكم مرة بعد مرة، وقارة بعد أخرى، وإنني أقسم بالله قَسْماً صادقاً لئن عُدْتُمْ لذلك لا وقَعَنْ بكم إيقاعاً يكون أشدَّ عليكم من هذا العدو الذي تنهزمون منه في بطون الأودية والشعاب وتستترون منه بأثناء الأنهار والواذ الجبال، فليخف من كان له معقول على نفسه، ولا يجعل عليها سبيلاً، فقد أغدر من أندر. والسلام.

وارتحل عبد الرحمن بالناس حتى مرَّ بالمدائن، فنزل بها يوماً ليشتري أصحابه منها حوائجهم، ثم نادى في الناس بالرحيل، وأقبل حتى دخل على عثمان بن قطن مودعاً، ثم أتى الجزل عائداً، فسأله عن جراحته، وحادثه، فقال الجزل: يا ابن عم، إنك تسير إلى فرسان العرب وأبناء الحرب وأحلاس^(٢) الخيل، والله لكأنما خُلِقُوا من ضلوعها، ثم رُبُّوا على

(١) البيضة: الخوذة. المعجم الوسيط، مادة (بيض).

(٢) الأحلاس: هو الكساء الذي على ظهر البعير تحت القتب، وهم أحلاس الخيل: يريدون لزومهم ظهورها. اللسان، مادة (حلص).

ظهورها، ثم هم أشدّ الأجم، الفارس منهم أشدّ من مائة، إن لم يُبدَأ به بدأ هو، وإن مُجْهِج أقدم، وإنّي قد قاتلتهم وبلوتهم، فإذا أصحرت لهم انتصفوا مِنّي، وكان لهم الفضل عليّ، وإذا خندق أو قاتلت في مضيق نلت منهم ما أحبّ، وكانت لي عليهم، فلا تُلَقِّهُم وأنت تستطيع إلا وأنت في تعبئة أو خندق، ثم ودعه، وقال له: هذه فرسي الفسيفساء خذها فإنها لا تجارى، فأخذها ثم خرج بالناس نحو شبيب، فلما دنا منه ارتفع شبيب عنه إلى دُقُوقاء وشهرزور، فخرج عبد الرحمن في طلبه، حتى إذا كان على تُخوم تلك الأرض أقام، وقال: إنما هو في أرض الموصل، فليقاتل أمير الموصل وأهلها عن بلادهم أو فليدعوا.

وبلغ ذلك الحجاج، فكتب إليه:

أما بعد فاطلب شيباً واسلك في أثره أين سلك حتى تدركه فتقتله أو تنفيه عن الأرض فإنما السلطان سلطان أمير المؤمنين، والجند جندّه. والسلام.

فلما قرأ عبد الرحمن كتاب الحجاج خرج في طلب شبيب، فكان شبيب يدّعه، حتى إذا دنا منه لبيّته فيجده قد خندق وحذر، فيمضي ويتركه، فيتبعه عبد الرحمن فإذا بلغ شيباً أنه قد تحمّل وسار بطلبه كَرّ في الخيل نحوه، فإذا انتهى إليه وجده قد صَفّ خيله ورجاله المرامية فلا يصيب له غِرة ولا غفلة، فيمضي ويدّعه.

ولما رأى شيب أنه لا يصيب غِرتَه، ولا يصل إليه، صار يخرج كلما دنا منه عبد الرحمن، حتى ينزل على مسيرة عشرين فرسخاً، ثم يقيم في أرض غليظة وغِرة، فيجيء عبد الرحمن في ثقله وخيله، حتى إذا دنا من شبيب ارتحل، فسار عشرين أو خمسة عشر فرسخاً، فنزل منزلاً غليظاً خشناً، ثم يقيم حتى يبلغ عبد الرحمن ذلك المنزل، ثم يرتحل فعذب العسكر وشق عليهم، وأخفى دوابهم، ولقوا منه كلّ بلاء.

فلم يزل عبد الرحمن يتبعه، حتى صار إلى خائقين وجلولاء، ثم أقبل على تَامَرَا، فصار إلى البَتّ، ونزل على تُخوم الموصل ليس بينه وبين الكوفة إلا نهر حَوْلَايا، وجاء عبد الرحمن حتى نزل بشرق حَوْلَايا، وهم في راذان الأعلى من أرض جَوْخَى، ونزل في عواقل من النهر ونزلها عبد الرحمن حيث نزلها، وهي تعجبه، يرى أنها مثل الخندق الحصين.

فأرسل شبيب إلى عبد الرحمن أنّ هذه الأيام أيام عيد لنا ولكم، فإن رأيتم أن توادعونا حتى تمضي هذه الأيام فعلتم، فأجابه عبد الرحمن إلى ذلك، ولم يكن شيء أحبّ إلى عبد الرحمن من المطاولة والموادعة، فكتب عثمان بن قُظَن إلى الحجاج:

أما بعد، فلإني أخبرُ الأمير أصلحه الله، أنّ عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث قد حفر جَوْخَى كلها عليه خندقاً واحداً، وخلق شيباً، وكسر خراجها، فهو يأكل أهلها، والسلام.

فكتب إليه الحجاج:

قد فهمت ما ذكرت، وقد لعمرى فعل عبد الرحمن، فسر إلى الناس، فأنت أميرهم وعاجل المارقة حتى تلقاهم، فإن الله إن شاء ناصرهم عليهم، والسلام.

وبعث الحجاج على المدائن مطرف بن المغيرة بن شعبة، وخرج عثمان حتى قدم على عبد الرحمن ومن معه، وهم معسكرون على نهر حولايا، قريباً من البت، وذلك يوم التروية عشاء، فنادى في الناس، وهو على تلعة: أيها الناس، اخرجوا إلى عدوكم. فوثبوا إليه وقالوا: ننشدك الله! هذا المساء قد غشنا، الناس لم يوطنوا أنفسهم على القتال فبت الليلة ثم اخرج على تعبئة، فجعل يقول: لانا جزئهم الليلة، ولتكونن الفرصة لي أولهم، فأتاه عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، فأخذ بعنان بغلته، وناشده الله لما نزل، وقال له عقيل بن شذاد السلولي: إن الذي تريده من مناجزتهم الساعة أنت فاعله غداً، وهو خير لك وللناس، إن هذه ساعة ريح قد اشتدت مساءً، فانزل، ثم أبكر بنا غدوة..

فنزل وسفت عليه الريح، وشق عليه الغبار، فاستدعى صاحب الخراج علوجاً، فبنوا له قبة، فبات فيها، ثم أصبح فخرج بالناس، فاستقبلتهم ريح شديدة وغبرة، فصاح الناس إليه وقالوا: ننشدك الله ألا تخرج بنا في هذا اليوم! فإن الريح علينا، فأقام ذلك اليوم.

وكان شبيب يخرج إليهم، فلما رأهم لا يخرجون إليه أقام، فلما كان الغد خرج عثمان يعبي الناس على أرباعهم، وسألهم: من كان على ميمنتكم وميسرتكم؟ فقالوا: خالد بن نهيك بن قيس الكندي على ميسرتنا، وعقيل بن شذاد السلولي على ميمنتنا، فدعاهما وقال لهما: قفا في مواقفكما التي كنتما بها، فقد وليتكما المجنبتين، فاثبتا ولا تفرا، فوالله لا أزول حتى تزولا نخيل راذان عن أصولها. فقالا: نحن والله الذي لا إله إلا هو لا نفر حتى نظفر أو نقتل، فقال لهما: جزاكم الله خيراً! ثم أقام حتى صلى بالناس الغداة، ثم خرج بالخيال، فنزل يمشي في الرجال، وخرج شبيب ومعه يومئذ مائة وأحد وثمانون رجلاً، فقطع إليهم النهر وكان هو في ميمنة أصحابه، وجعل على الميسرة سويد بن سليم، وجعل في القلب مصاداً أخاه وزحفوا، وكان عثمان بن قطن يقول لأصحابه فيكثر: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تَسْعَوْنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١).

ثم قال شبيب لأصحابه: إني حامل على ميسرتهم، ما يلي النهر، فإذا هزمتها فليحمل صاحب ميسرتي على ميمنتهم، ولا يبرخ صاحب القلب حتى يأتيه أمري، ثم حمل في ميمنة أصحابه مما يلي النهر على ميسرة عثمان بن قطن، فانهزموا، ونزل عقيل بن شذاد مع طائفة من أهل الحفاظ، فقاتل حتى قتل، وقتلوا معه.

(١) سورة الأحزاب، الآية: ١٦.

ودخل شبيب عسكرهم، وحمل سويد بن سليم في ميسرة شبيب على ميمنة عثمان بن قطن فهزمها، وعليها خالد بن نهيك الكندي، فنزل خالد، وقَاتَلَ قتالاً شديداً، فحمل عليه شبيب من ورائه، فلم يَنْشِ حتى علاه بالسيف فقتله، ومشى عثمان بن قطن، وقد نزلت معه العُرفاء والفُرسان وأشرافُ الناس نحو القلب، وفيه أخو شبيب في نحو من ستين رجلاً، فلما دنا منهم عثمان، شدَّ عليهم في الأشراف وأهل الصبر، فضربهم مَصَاد وأصحابه، حتى فَرَّقُوا بينهم، وحمل شبيب من ورائهم بالخيَل، فما شَعَرُوا إِلَّا والرِّمَاح في أكتافهم نَكَبَتْهم لوجوههم، وعطف عليهم سويد بن سليم أيضاً في خيله، وقَاتَلَ عثمان فأحسن القتال.

ثم إن الخوارج شدُّوا عليهم، فأحاطوا بعُثمان، وحَمَلَ عليه مَصَاد أخو شبيب: فضربه ضربةً بالسيف استدار لها، وسقط، وقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾^(١)، فقتل وقُتِل معه العُرفاء ووجوه الناس، وقُتِل مِنْ كِنْدَةَ يومئذٍ مائة وعشرون رجلاً، وقتل مِنْ سائر الناس نحو ألف، ووقع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث إلى الأرض، فعرفه ابن أبي سبرة، فنزل وأركبه، وصار رديفاً له. وقال له عبدُ الرحمن: نادِ في الناس، الحقوا بذيَر ابن أبي مريم، فنَادَى بذلك، وانطلقا ذاهبين، وأمر شبيب أصحابه، فرفعوا عن الناس السيف ودعاهم إلى البيعة، فأتاه مَنْ بَقِيَ من الرجال، فبايعوه، ويات عبدُ الرحمن بدير اليعار، فأتاه فارسان ليلاً، فخلا به أحدهما يناجيه طويلاً، وقام الآخر قريباً منهما، ثم مَضَى ولم يعرفا فتحدث الناس أن المناجِيَّ له كان شبيباً، وأن الذي كان يرقُبهما كان مَصَاداً أخاه، واتهم عبد الرحمن بمكاتبة شبيب من قبل.

ثم خرج عبد الرحمن آخر الليل، فسار حتى أتى دير ابن أبي مريم، فإذا هو بالناس قبَّله قد سَبَقوه، وقد وضع لهم ابن أبي سبرة صُبْرَ الشعر والقَتَّ كأنها القصور، ونحر لهم من الجزور ما شاؤوا، واجتمع الناس إلى عبد الرحمن، فقالوا له: إن علم شبيب بمكانك أتاكَ فكنت له غنيمة، قد تفرَّق الناس عنك، وقُتِل خيارهم، فالحق أيها الرجل بالكوفة.

فخرج وخرج معه الناس، حتى دخل الكوفة مستتراً من الحجاج، إلى أن أخذ له الأمان بعد ذلك.

ثم إن شبيباً اشتدَّ عليه الحرّ وعلى أصحابه، فأتى ماء بهراذان، فصَيَّف بها ثلاثة أشهر وأتاه ناسٌ ممن كان يطلب الدنيا والغنيمة كثير، ولحق به ناسٌ ممن كان يطلبهم الحجاج بمالٍ وتبعة، فمنهم رجل يقال له الحرّ بن عبد الله بن عوف، كان قتل دِقْقَانين من أهل نهر درقيط كانا أساءا إليه، ولحق بشبيب حتى شهد معه موطنه إلى أن هلك، وله مقام عند الحجاج وكلام سليم به من

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

القتل، وهو أن الحجاج بعد هلاك شبيب، أمّن كلّ من خرج إليه ممن كان يطلبهم الحجاج بمال، أو تبعة، فخرج إليه الحرّ فمن خرج، فجاء أهل الدهقانين يستعدّون عليه الحجاج، فأحضره، وقال: يا عدوّ الله، قتلت رجلين من أهل الخراج، فقال: قد كان أصلحك الله مني ما هو أعظم من هذا، قال: وما هو؟ قال: خروجي عن الطاعة، وفراقي الجماعة، ثم إنك أمّنت كلّ من خرج عليك، وهذا أمانني وكتابك لي.

فقال الحجاج: قد لعمري فعلت، ذلك أولى لك! وخلقى سيّله.

ثم لما باخ الحرّ، وسكن عن شبيب خرج من ماء نهر روان في نحو من ثمانمائة رجل فأقبل نحو المدائن، وعليها المطرف بن المغيرة بن شعبة، فجاء حتى نزل قناطر حذيفة بن اليمان فكتب ما ذرأسب وهو عظيم بابل مهروذ إلى الحجاج يخبره خبر شبيب وقدمه إلى قناطر حذيفة، فقام الحجاج في الناس وخطبهم، وقال:

أيها الناس، لتقاتلنّ عن بلادكم وفيكنكم، أو لا بعثنّ إلى قوم هم أطوع وأسمع، وأصبر على البلاء منكم، فيقاتلون عدوكم ويأكلون فيكنكم - يعني جند الشام.

فقام إليه الناس من كلّ جانب، يقولون: بل نحن نقاتلهم، ونغيث الأمير، فليندبنا إليهم فإننا حيث يسره.

وقام إليه زهرة بن حوية - وهو يومئذ شيخ كبير لا يستمّ قائماً، حتى يؤخذ بيده - فقال: أصلح الله الأمير! إنك إنما تبعث الناس متقطعين، فاستنفر إليهم الناس كافة، وابعث عليهم رجلاً متيناً شجاعاً مجرباً، يرى الفرار مضمناً وعاراً، والصبر مجداً وكرماً.

فقال الحجاج: فانت ذاك، فاخرج.

فقال: أصلح الله الأمير! إنما يصلح هذا الموقف رجلٌ يحمل الرمح والدرع، ويهزّ سيف، ويثبت على مثنّ الفرس، وأنا لا أطيق ذلك، فقد ضعفت وضعف بصري ولكن ابعثنني مع أميرٍ تعتمد، فأكون في عسكره، وأشير عليه برأيي.

فقال: جزاك الله عن الإسلام والطاعة خيراً، لقد نصحت وصدّقت، وأنا مخرج الناس كافة، ألا فسيروا أيها الناس.

فانصرف الناس يجهزون ويتشرون، ولا يدرون من أميرهم.

وكتب الحجاج إلى عبد الملك:

أما بعد، فإني أخبر أمير المؤمنين أكرمه الله، أن شبيباً قد شارف المدائن، وإنما يريد الكوفة، وقد عجز أهل العراق عن قتاله في مواطن كثيرة، في كلّها تُقتل أمراؤهم ويُقتل خيولهم أجنادهم، فإن رأى أمير المؤمنين أن يبعث إليّ جنداً من جند الشام ليقاتلوا عدوهم، ويأكلوا لأدهم فعل إن شاء الله.

فلما أتى عبد الملك كتابه بعث إليه سفيان بن الأبرد في أربعة آلاف، وبعث إليه حبيب بن عبد الرحمن الحكمي من مذحج في ألفين وسرّحهم نحوه حين أتاه الكتاب.

وقد كان الحجاج بعث إلى عتاب بن ورقاء الرياحي لياثيه، وكان على خيل الكوفة مع المهلب، ودعا الحجاج أشراف أهل الكوفة، منهم زهرة بن حوية، وقبيصة بن والق، فقال: مَنْ ترون أن أبعث على هذا الجيش؟ قالوا: رأيك أيها الأمير أفضل، قال: إني قد بعثت إلى عتاب بن ورقاء وهو قادم عليكم الليلة، فيكون هو الذي يسير بالناس، فقال زهرة بن حوية: أصلح الله الأميراً وميتهم بخبرهم، لا والله لا يرجع إليك حتى يظفر أو يقتل.

فقال قبيصة بن والق: وإني مشير عليك أيها الأمير برأي اجتهدته، نصيحة لك ولأمير المؤمنين ولعامة المسلمين، إن الناس قد تحدثوا أن جيشاً قد وصل إليك من الشام، لأن أهل الكوفة قد هزموا، وهان عليهم الفرار والعار من الهزيمة، فكأنما قلوبهم في صدور قوم آخرين، فإن رأيت أن تبعث إلى الجيش الذي قد أمددت به من أهل الشام، فليأخذوا حذرهم ولا يشتوا بمنزل إلا وهم يرون أنهم يبيتون، فإن فعلت فإنك إنما تحارب خوفاً قلباً مخللاً مطعناً، إن شياً بينا هو في أرض إذا هو في أخرى، ولا آمن من أن يأتيهم وهم غارون، فإن يهلكوا يهلك العراق كله.

فقال الحجاج: لله أبوك! ما أحسن ما رأيت! وما أصح ما أشرت به! فبعث إليه الجيش الوارد عليه من الشام كتاباً قرؤوه وقد نزلوا هيت، وهو:

أما بعد، فإذا حاذيتم هيت، فدعوا طريق الفرات والأنبار، وخذوا على عين التمر، حتى تقدموا الكوفة، إن شاء الله.

فأقبل القوم سراعاً، وقدم عتاب بن ورقاء في الليلة التي قال الحجاج إنه فيها قادم، فأمره الحجاج، فخرج بالناس، وعسكر بحمام أغين، وأقبل شبيب حتى انتهى إلى كَلْوَاذي، فقطع منها دجلة، وأقبل حتى نزل بهر سير، وصار بينه وبين مطرف بن المغيرة بن شعبة جسر دجلة فقطع مطرف الجسر، ورأى رأياً صالحاً كاذباً شيباً، حتى حبسه عن وجهه، وذلك أنه بعث إليه: أن أبعث إليّ رجالاً من فقهاء أصحابك وقرائهم، وأظهر له أنه يريد أن يدارسهم القرآن وينظر فيما يدعون إليه، فإن وجد حقاً اتبعه، فبعث إليه شبيب رجالاً، فيهم قنّب وسويد والمحلل، ووضاهم ألا يدخلوا السفينة حتى يرجع رسوله من عند مطرف، وأرسل إلى مطرف: أن أبعث إليّ من أصحابك ووجوه قُرسانك بعدة أصحابي، ليكونوا رفناً في يدي حتى ترد علي أصحابي. فقال مطرف لرسوله: القه، وقل له: كيف آمنك الآن على أصحابي إذ أبعثهم إليك، وأنت لا تأمّني على أصحابك! فأبلغه الرسول، فقال: قل له: قد علمت أنا لا نستحل الغدر في ديننا، وأنتم قوم غدر تستحلّون الغدر وتفعلونه. فبعث إليه مطرف جماعة من وجوه

صحابه، فلما صاروا في يد شبيب، سرح إليه أصحابه، فعبّروا إليه السفينة، فأتوه، فمكثوا أربعة أيام يتناظرون، ولم يتفقوا على شيء، فلما تبيّن لشبيب أن مطرّفاً كاده وأنه غير متابع له، عتّى للمسير، وجمّع إليه أصحابه، وقال لهم: إنّ هذا الثقيفي قطعني عن رأيي منذ أربعة أيام، وذلك أنّي هممت أن أخرج في جريدة من الخيل، حتى ألقى هذا الجيش المقبل من الشام، أرجو أن أصادف غرّتهم قبل أن يحذروا، وكنت ألقهم منقطعين عن المصر، ليس عليهم أمير بالحجاج يستندون إليه، ولا لهم مضرّ كالكوكة يعتصمون به، وقد جاءني عيوني أنّ أوائلهم قد غلّوا عَيْنَ الثمر، فهم الآن قد شارفوا الكوفة، وجاءني أيضاً عيون من نحو عتاب أنه نزل حمام أغين بجماعة أهل الكوفة وأهل البصرة، فما أقرب ما بيننا وبينهم! فتيّسروا بنا للمسير في عتاب.

وكان عتاب حينئذٍ قد أخرج معه خمسين ألفاً من المقاتلة، وهذّدهم الحجاج إن هربوا عادة أهل الكوفة، وتوعّدهم، وعرض شبيب أصحابه بالمدائن، فكانوا ألف رجل فخطبهم قال: يا معشر المسلمين، إنّ الله عزّ وجلّ كان ينصركم وأنتم مائة ومائتان، واليوم فأنتم مئون ومئون، ألا وإني مصلّ، ثم سائر بكم إن شاء الله.

فصلّى الظهر، ثم نادى في الناس، فتخلف عنه بعضهم.

قال فروة بن لقيط: فلما جاز ساباط، ونزلنا معه، قصّ علينا، وذكّرنا بأيام الله، وزهّدنا في دنيا، ورغبنا في الآخرة. ثم أذن مؤذنه فصلّى بنا العصر، ثم أقبل حتى أشرف على عتاب بن رقاء، فلما رأى جيش عتاب نزل من ساعته، وأمر مؤذنه، فأذن ثم تقدّم، فصلّى بأصحابه صلاة المغرب، وخرج عتاب بالناس كلهم فعبّاهم، وكان قد خندق على نفسه مذ يوم نزل.

وجعل على ميمنته محمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمداني، قال له: يا ابن أخي ك شريف، فاصبر وصابر، فقال: أما أنا فوالله لأقاتلن ما ثبت معي إنسان.

وقال لقيصة بن والقي التغلبي: اكفني المبصرة، فقال: أنا شيخ كبير، غابتي أنّ أثبت تحت بيتي، أما تراني لا أستطيع القيام إلا أن أقام، وأخي نعيم بن عليم ذو غناء، فابعثه على مبصرة. فبعثه عليها. وبعث حنظلة بن الحارث الرياحي ابن عمه، وشيخ أهل بيته على رجالة، وبعث معه ثلاثة صفوف: صفّ فيه الرجالة ومعهم السيوف، وصفّ هم أصحاب ماح، وصفّ فيه المرامية.

ثم سار عتاب بين الميمنة والمبصرة يمرّ بأهل راية راية، فيحرّض من تحتها على الصبر ومن معه يومئذٍ: إنّ أعظم الناس نصيباً من الجنة الشهداء، وليس الله لأحد أمقت منه لأهل البغي، ترون عدوكم هذا يستعرض المسلمين بسيفه، لا يرى ذلك إلا قربة لهم! فهم شرار أهل أرض، وكلاب أهل النار. فلم يجبه أحد، فقال: أين القصاص يقصّون على الناس

ويحرضونهم؟ فلم يتكلم أحد، فقال: أين من يزوي شعر عترة، فيحرك الناس؟ فلم يجبه أحد ولا رد عليه كلمة، فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله، والله لكأني بكم وقد تفرقتم عن عتاب وتركتموه تسفي في استه الرياح، ثم أقبل حتى جلس في القلب، ومعه زهرة بن حوية، وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث.

وأقبل شبيب في ستمائة، وقد تخلف عنه من الناس أربعمائة، فقال: إنه لم يتخلف عني إلا من لا أحب أن أراه معي، فبعث سويد بن سليم في اثنين إلى الميسرة، وبعث المحلل بن وائل في مائتين إلى القلب، ومضى هو في مائتين إلى الميمنة، وذلك بين المغرب والعشاء الآخرة، حين أضاء القمر، فناداهم: لمن هذه الرايات؟ قالوا: رايات همدان. فقال: رايات طالما نصرت الحق، وطالما نصرت الباطل: لها في كل نصيب، أنا أبو المدلة اثبتوا إن شئتم. ثم حمل عليهم، وهم على مسنة أمام الخندق، ففضهم، وثبت أصحاب رايات قيصة بن والق.

فجاء شبيب فوقف عليه، وقال لأصحابه: مثل هذا قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْتَهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾^(١).

ثم حمل على الميسرة ففضها، وصمد نحو القلب، وعتاب جالس على طنفسة، هو وزهرة بن حوية، فغشيهم شبيب، فانفض الناس عن عتاب وتركوه، فقال عتاب: يا زهرة، هذا يوم كثر فيه العدد، وقل فيه الغناء، لهفي على خمسمائة فارس من وجوه الناس، ألا صابر لعدوه! ألا مواس بنفسه! فمضى الناس على وجوههم، فلما دنا منه شبيب وثب إليه في عصابة قليلة صبرت معه، فقال له بعضهم: إن عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث قد هرب، وانصفق معه ناس كثير، فقال: أما إنه قد قر قبل اليوم، وما رأيت مثل ذلك الفتى، ما يبالي ما صنع ثم قاتلهم ساعة، وهو يقول: ما رأيت كالיום قط موطناً لم أبل بمثله، وأقل ناصراً، ولا أكثر هارباً خاذلاً، فرأه رجل من بني تغلب من أصحاب شبيب - وكان أصاب دماً في قومه، والتحق بشبيب: فقال: إني لأظن هذا المتكلم عتاب بن ورقاء، فحمل عليه فطعنه، فوقع وقيل ووطئت الخيل زهرة بن حوية، فأخذ يذب بسيفه، وهو شيخ كبير لا يستطيع أن ينهض فجاءه الفضل بن عامر الشيباني فقتله، وانتهى إليه شبيب، فوجده صريعاً فعرفه، فقال: من قتل هذا؟ قال الفضل: أنا قتلت، فقال شبيب: هذا زهرة بن حوية، أما والله لئن كنت قتلت على ضلالة، لرب يوم من أيام المسلمين قد حسن فيه بلاؤك، وعظم فيه غناؤك، ولرب خيل للمشركين هزمتها، وسرية لهم ذعرتها، ومدينة لهم فتحتها! ثم كان في علم الله أن تقتل ناصراً للظالمين.

وقتل يومئذ وجوه العرب من عسكر العراق في المعركة: واستمكن شبيب من أهل العسكر،

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٥.

فقال: ارفعوا عنهم السيف، ودعاهم إلى البيعة، فبايعه الناس عامة من ساعتهم واحتوى على جميع ما في العسكر، وبعث إلى أخيه وهو بالمدائن، فأتاه فأقام بموضع المعركة يومين، ودخل سفيان بن الأبرد الكلبى، وحبيب بن عبد الرحمن فيمن معهما إلى الكوفة فشدوا ظهر الحجاج، واستغنى بهم عن أهل العراق، ووصلته أخبار عتاب وعسكره، فصعد المنبر، فقال: يا أهل الكوفة، لا أعز الله من أراد بكم العز، ولا نصر من أراد منكم النصر اخرجوا عنا فلا تشهدوا معنا قتال عدونا، والحقوا بالحيرة، فانزلوا مع اليهود والنصارى، ولا يقاتل معنا إلا من لم يشهد قتال عتاب بن ورقاء.

وخرج شبيب يريد الكوفة، فأنهى إلى سورا، فقال لأصحابه: أيكم يأتيني برأس عاملها، فانتدب إليه قطين، وقنعب، وسويد، ورجلان من أصحاب شبيب، فكانوا خمسة وساروا حتى انتهوا إلى دار الخراج، والعمال فيها، فقالوا: أجيئوا الأمير، فقال الناس: أي أمير؟ قالوا: أمير قد خرج من قبل الحجاج، يريد هذا الفاسق شيباً، فاغتر بذلك عامل سورا فخرج إليهم، فلما خالطهم شهروا السيوف، وحكموا وخبطوه بها حتى قتلوه، وقبضوا ما وجدوا في دار الخراج من مال، ولحقوا بشبيب.

فلما رأى شبيب البدر، قال: أتيتمونا بفتنة المسلمين! هلم يا غلام الحرية، فحرق بها البدر، وأمر أن تنحس الدواب التي كانت البدر عليها، فمرت رائحة، والمال يتناثر من البدر^(١) حتى وردت الصراة، فقال: إن كان بقي شيء فاقدفوه في الماء.

وقال سفيان بن الأبرد للحجاج: ابغثني إلى شبيب أستقبله قبل أن يرد الكوفة، فقال: لا، ما أحب أن نفترق حتى ألقه في جماعتكم، والكوفة في ظهرنا، وأقبل شبيب حتى نزل حمام أعين، ودعا الحجاج الحارث بن معاوية بن أبي زرعة بن مسعود الثقفي فوجهه في ناس لم يكونوا شهدوا يوم عتاب. فخرج في ألف رجل، حتى انتهى إلى شبيب ليدفعه عن الكوفة، فلما رآه شبيب حمل عليه فقتله، وقتل أصحابه. فجاءوا حتى دخلوا الكوفة، وبعث شبيب البطين في عشرة فوارس يرتادون له منزلاً على شاطئ الفرات، في دار الرزق، فوجه الحجاج حوشب بن يزيد، في جمع من أهل الكوفة، فأخذوا بأفواه السكك، فقاتلهم البطيم فلم يقو عليهم، فبعث إلى شبيب، فأمدّه بفوارس من أصحابه، فعقروا فرس حوشب وهزموه، فنجأ بنفسه، ومضى البطين إلى دار الرزق في أصحابه، ونزل شبيب بها، ولم يوجه إليه الحجاج أحداً، فابتنى مسجداً في أقصى السبخة، وأقام ثلاثاً لم يوجه إليه الحجاج أحداً، ولا يخرج إليه من أهل

(١) البدر: جمع بدرة وهي جلد السغلة إذا قطم. اللسان، مادة (بدر).

الكوفة، ولا من أهل الشام أحد، وكانت امرأته غزاة نذرت أن تصلي في مسجد الكوفة ركعتين، تقرأ فيهما بالبقرة وآل عمران.

فجاء شبيب مع امرأته حتى أوقفت بنذرهما في المسجد، وأشير على الحجاج أن يخرج بنفسه إليه، فقال لقتيبة بن مسلم: إني خارج، فاخرج أنت، فارتد لي معسكراً، فخرج وعاد، فقال: وجدت المدي سهلاً، فسر أيها الأمير على اسم الله والطائر الميمون، فخرج الحجاج بنفسه، ومر على مكان فيه كناسة وأقذار، فقال: ألقوا لي هنا بساطاً، فقيل له: إن الموضع قذر، فقال: ما تدعوني إليه أقذر، الأرض تحته طيبة، والسماء فوقه طيبة.

ووقف هناك وأخرج مولى له يعرف بأبي الورد، وعليه تجفاف^(١)، وأحاط به غلمان كثير وقيل: هذا الحجاج، فحمل عليه شبيب فقتله، وقال: إن يكن الحجاج، فقد أرخت الناس منه، ودلف الحجاج نحوه حيثئذ، وعلى ميمته مطر بن ناجية، وعلى ميسرته خالد بن عتاب بن ورقاء، وهو في زهاء أربعة آلاف، فقيل له: أيها الأمير لا نعرف شيباً بمكانك، فتنكر وأخفى مكانه، وتشبه به مولى آخر للحجاج في هيئته وزيه، فحمل عليه شبيب، فضربه بالعمود فقتله، ويقال إنه قال لما سقط: «أخ» بالخاء المعجمة فقال شبيب: قاتل الله ابن أم الحجاج اتقى الموت بالعيد، وذلك أن العرب تقول عند التأوه «أخ» بالخاء المهملة.

ثم تشبه بالحجاج أغين صاحب حمام أعين، ولبس لبسته، فحمل عليه شبيب فقتله، فقال الحجاج: عليّ بالبغل لأركبه، فأتني ببغل محجل، وقيل: أيها الأمير، أصلحك الله! إن الأعاجم كانت تتطير أن تركب مثل هذا البغل في مثل هذا اليوم، فقال: أدنوه مني فإنه أغر محجل، فركبه، ثم سار في الناس يميناً وشمالاً ثم قال: اطرحوا لي عباءة، فطرحته له، فنزل فجلس عليها، ثم قال: اتنوني بكرسي، فأتني به، فقام فجلس عليه ثم نادى أهل الشام، فقال: يا أهل الشام، يا أهل السمع والطاعة، لا يغلبن باطل هؤلاء الأرجاس حنكم، غصوا الأبصار، واجثوا على الركب، واستقبلوا القوم بأطراف الأيئة، فجثوا على الركب، وكأنهم حرة سوداء.

ومنذ هذا الوقت ركبت ربح شبيب، وأذن الله تعالى في إدبار أمره، وانقضاء أيامه فأقبل، حتى إذا دنا من أهل الشام عني أصحابه ثلاثة كراديس، كتيبة معه، وكتيبة مع سويد بن سليم وكتيبة مع المحلل بن وائل، وقال لسويد: احمل عليهم في خيلك، فحمل عليهم فثبتوا له حتى

(١) التجفاف: ما جلل به الغرس من سلاح أو آله تقيه الجراح، وقد يلبسه الإنسان أيضاً. اللسان مادة (جفف).

إذا غشي أطراف أستهم، وثبوا في وجهه، فقاتلهم طويلاً، فصبروا له، ثم طاعنوه، قُدماً قُدماً، حتى الحقوه بأصحابه.

فلما رأى شبيب صبرهم، نادى: يا سويد، احمل في خيلك في هذه الرايات الأخرى لعلك تزيل أهلها، فتأتي الحجاج من ورائه، ونحمل نحن عليه من أمامه. فحمل سويد على تلك الرايات، وهي بين جدران الكوفة، فرمى بالحجارة من سطوح البيوت، ومن أفواه السكك، وانصرف ولم يظفروا.

ورماهم عروة بن المغيرة بن شعبة بالسهم، وقد كان الحجاج جعله في ثلاثمائة رام من أهل الشام رداءً له كي لا يؤتى من ورائه، فصاح شبيب في أصحابه:

يا أهل الإسلام! إنما شريئتم لله، ومن يكن شراؤه لله لم يضره ما أصابه من ألم وأذى لله بكم! الصبر الصبر، شدة كشدايتكم الكريمة في مواطنكم المشهورة.

فشدوا شدة عظيمة، فلم يزل أهل الشام عن مراكزهم، فقال شبيب: الأرض! دبوا ديباً تحت تراسكم، حتى إذا صارت أسيئة أصحاب الحجاج فوقها، فأذلقوها صُعداً، وادخلوا تحتها، واضربوا سوقهم وأقدامهم، وهي الهزيمة بإذن الله. فأقبلوا يدبّون ديباً تحت الجحف: شُداً صُداً، نحو أصحاب الحجاج.

فقال خالد بن عتاب بن ورقاء: أيها الأمير، أنا موتور، ولا أتهم في نصيحتي، فأذن لي متى أتيتهم من ورائهم، فأغير على معسكرهم وثقلهم، فقال: افعل ذلك، فخرج في جنح من واليه وشاكرتيه وبني عمه، حتى صار من ورائهم، فالتقى بمضاد أخي شبيب فقتله، وقتل غزالاً رآه شبيب، وألقى النار في معسكرهم، والتفت شبيب والحجاج، فشهدا النار، فأما الحجاج كبر وكبر أصحابه، وأما شبيب، فوثب هو وكل راجل من أصحابه على خيولهم مرعوبين، مال الحجاج لأصحابه: شُدوا عليهم، فقد أتاهم ما أروعهم، فشُدوا عليهم فهزموهم، وتخلّف شبيب في خاصّة الناس، حتى خرج من الجسر، وتبعه خيل الحجاج وغشيه الثعاس، فجعل يفتق برأسه، والخيول تطلبه.

قال أصغر الخارجي: كنت معه ذلك اليوم، فقلت: يا أمير المؤمنين، التفت فانظر من خلفك، فالتفت غير مكترث، وجعل يخفق برأسه. قال: ودنوا منا، فقلت: يا أمير المؤمنين قد ألقوا القوم منك، فالتفت والله ثانية غير مكترث بهم، وجعل يخفق برأسه، وبعث الحجاج خيلاً كُض تقول: دعوه يذهب في حرق الله، فتركوه وانصرفوا عنه.

ومضى شبيب بأصحابه، حتى قطعوا جسر المدائن، فدخلوا ديراً هناك، وخالد بن عتاب قهرهم، فحصرهم في الدير، فخرج شبيب إليه فهزمه وأصابه نحرًا من فرسخين، حتى ألقى

خالد نفسه في دجلة هو وأصحابه بخيولهم، فمرّ به شبيب، فرآه في دجلة، ولواؤه في يده فقال: قاتله الله فارساً، وقاتل فرسه! فرس هذا أشدّ الناس قوة، وفرسه أقوى فرس في الأرض، وانصرف، فقيل له بعد انصرافه: إنّ الفارس الذي رأيت هو خالد بن عتاب بن ورقاء، فقال: معرق في الشجاعة! لو علمت لأقحمت خلفه، ولو دخل النار.

ثم دخل الحجاج الكوفة بعد هزيمة شبيب، فصعد المنبر، وقال: والله ما قُوتل شبيب قط قبل اليوم، ولّى هارباً، وترك امرأته يُكسر في استنها القصب.

ثم دعا حبيب بن عبد الرحمن فبعثه في أثره في ثلاثة آلاف من أهل اشام، وقال: احذر يّاته، وحيثما لقيته فنازله، فإنّ الله تعالى قد قلّ حدّه، وقصم نابه. فخرج حبيب في أثره حتى نزل الأنبار، وبعث الحجاج إلى العمال: أن دُشُوا إلى أصحاب شبيب، مَنْ جاءنا منكم فهو آمن، فكان كلُّ مَنْ ليست له بصيرة في دين الخوارج، ممن هزّه القتال. وكرهه ذلك اليوم يجيء فيؤمن. وقبل ذلك كان الحجاج نادى يوم هزم شبيب: من جاءنا فهو آمن، فتفرّق عن شبيب ناسٌ كثير من أصحابه.

وبلغ شبيباً منزلاً حبيب بن عبد الرحمن بالأنبار، فأقبل بأصحابه حتى دنا منه، فقال يزيد السكسكي: كنت مع أهل الشام بالأنبار ليلة جاءنا شبيب، فبيّتنا، فلما أمسينا جمّعنا حبيب بن عبد الرحمن، فجعلنا أرباعاً، وجعل على كلّ رُبع أميراً، وقال لنا: لِيَحْمِ كُلُّ رُبعٍ منكم جانبَه فإن قُتل هذا الربع فلا يُعنهم الرُبع الآخر، فإنه بَلّغني أنّ الخوارج منكم قريب، فوَقَلُّوا أَنْفُسَكُمْ على أنكم مَيِّتُونَ فَمَقَاتِلُونَ، قال: فما زِلْنَا على تعيّننا حتى جاءنا شبيب تلك الليلة فبيّتنا، فشدّ على رُبعٍ مِنَّا فصابروهم طويلاً، فما زالت قدُمُ إنسان منهم. ثم تركهم وأقبل إلى ربع آخر فقاتلهم طويلاً فلم يظفر بشيء، ثم طاف بنا يحمل علينا رُبعاً رُبعاً، حتى ذهب ثلاثة أرباع الليل ولصق بنا حتى قلنا: لا يفارقنا، ثم ترجّل فنازلنا راجلاً نَزْالاً طويلاً هو وأصحابه، فسقطت والله بيننا وبينهم الأيدي والأرجل، وفُقيئت الأعين، وكَثُرَت القتلى، فقتلنا منهم نحو ثلاثين وقتلوا مِنَّا نحو مائة، وإيّم الله لو كانوا أكثر من مائتي رجل لأهلكونا، ثم فارقونا وقد مَلَلْنَاهم ومَلَّوْنَا، وكرهناهم وكرهونا، ولقد رأيتُ الرجل مِنَّا يضرب الرجل منهم بالسيف فما يضره من الإعياء والضعف، ولقد رأيتُ الرجل مِنَّا يقاتل جالساً ينفع بسيفه ما يستطيع أن يقوم من الإعياء والبُهر^(١). حتى ركب شبيب، وقال لأصحابه الذين نزلوا معه: اركبوا، وتوجّه بهم مُنْصَرِفاً عنا.

فقال فروة بن لقيط الخارجي - وكان شهد معه مواطنه كلها - قال لنا ليلتئذ، وقد رأى بنا

(١) البهر: الغلبة. اللسان، مادة (بهر).

كآبة ظاهرة، وجراحات شديدة: ما أشد هذا الذي بنا لو كنا نطلب الدنيا وما أيسر هذا في طاعة الله وثوابه! فقال أصحابه: صدقت يا أمير المؤمنين.

قال قُرُوة بن لقيط: وسمعتُه تلك الليلة يحدث سويد بن سليم، ويقول له: لقد قتلت منهم أمس رجُلَيْن من أشجع الناس، خرجت عشية أمس طليعة لكم، فلقيتُ منهم ثلاثة نفر دخلوا قرية يشترون منها حوائجهم، فاشترى أحدهم حاجته، وخرج قبل أصحابه فخرجت معه، فقال لي: أراك لم تشتري علفاً! فقلت: إن لي رُفقاء قد كفوني ذلك، ثم قلت له: أين ترى عدونا هذا نزل؟ فقال: بلغني أنه قد نزل قريباً منا، وإيم الله لو ددْتُ أني لقيتُ شبيبهم هذا قلت: أفتجبت ذلك؟ قال: إي والله، قلت: فخذ جذرك، فأنا والله شبيب، وانتضيتُ السيف فخرّ والله ميتاً فقلت له: ارتفع ويحك! وذهبت أنظر فإذا هو قد مات فانصرفت راجعاً فاستقبلت الآخر خارجاً من القرية، فقال: أين تذهب هذه الساعة التي يرجع فيها الناس إلى معسكرهم؟ فلم أكلّمه، ومضيت، فنفرْتُ بي فرسي، وذهبت تتمطر، فإذا به في أثري حتى لحقني، فعطفت عليه، وقلت: ما بالك؟ قال: أظنك والله من عدونا. قلت أجل والله، قال: إذا لا تبرح حتى أقتلك أو تقتلني، فحملت عليه وحمل عليّ، فاضطربنا بسيفيّنا ساعة، فوالله ما فضلتُه في شدة نفس ولا إقدام، إلا أن سيفي كان أقطع من سيفه فقتلته.

وبلغ شبيباً أن جند الشام الذي مع حبيب حملوا معهم حجراً، وحلفوا لا يفرّون حتى يفرّ هذا الحجر، فأراد أن يكدّ بهم، فعمد إلى أربعة أفراس، وربط في أذناها ترسة، في ذنب كل فرس تُرسين، ثم ندب ثمانية نفر من أصحابه، وغلاماً له يقال له حيّان - كان شجاعاً فاتكاً - وأمره أن يحمل معه إداوة من ماء، ثم سار ليلاً حتى أتى ناحية من عسكر أهل الشام، فأمر أصحابه أن يكونوا في نواحي العسكر الأربع، وأن يكون مع كل رجلين فرس: ثم يلبسوها الحديد حتى تجذّ حرّه، ثم يخلوها في العسكر، وواعدهم ثلعة^(١) قريبة من العسكر، وقال: من نجا منكم، فإن موعدّه الثلعة، فكره أصحابه الإقدام على ما أمرهم، فنزل بنفسه حتى صنّع بالخيال ما أمرهم به، حتى دخلت في العسكر، ودخل هو يتلوها، ويشدّ خلفها شدّاً محكماً فتفرقت في نواحي العسكر، واضطرب الناس، فضرب بعضهم بعضاً، وماجوا، ونادى حبيب بن عبد الرحمن: ويحكم إنها مكيدة! فالزموا الأرض حتى يتبين لكم الأمر، ففعلوا وحصل شبيب بينهم، فلزم الأرض معهم، حتى رآهم قد سكنوا، وقد أصابته ضربة عمود أو هنته.

(١) الثلعة: أرض مرتفعة غليظة يتردد فيها السيل، والثلعة مجرى الماء من أعلى الوادي إلى بطون الأرض. اللسان، مادة (تلع).

فلما هدا الناس ورجعوا إلى مراكزهم فخرج في غمارهم، حتى أتى التلعة، فإذا مولاه حيان، فقال: أفرغ ويحك على رأسي من هذه الإداوة! فلما مَدَّ رأسه لِيَصُبَّ عليه من الماء همَّ حيان بضرب عنقه، وقال لنفسه: لا أجِدُ مكرمة لي، ولا ذِكْراً أَرْفَعُ من هذا في هذه الخلوة، وهو أمانى من الحجاج، فأخذته الرعدة حين همَّ بما همَّ به، فلما أبطأ عليه، قال له: ويحك! ما انتظارك بحلها! ناولنيها، وتناول السكين من مَوْزِجِه فخرقها به، ثم ناوله إياها، فأفرغ عليه من الماء، فكان حيان بعد ذلك يقول: لقد هممت فأخذتني الرعدة فجئت عنه، وما كنتُ أعهد نفسي جَبَاناً.

ثم إن الحجاج أخرج الناس إلى شيب، وقَسَمَ فيهم أموالاً عظيمة، وأعطى الجرْحَى وكلَّ ذي بلاء، وأمر سفيان بن الأبرد أن يسير بهم، فشَقَّ ذلك على حبيب بن عبد الرحمن وقال: تبعث سفيان إلى رجل قد فُلِّتُه، وقتلتُ فرسانه! وكان شيب قد أقام بِكَرْمَانَ حتى جبر واستراش هو وأصحابه، فمضى سفيان بالرجال، واستقبله شيب بِدُجِيلِ الأهواز، وعليه جسر معقود، فعبر إلى سفيان، فوجده قد نزل بالرجال، وجعل مهاصر بن صيفي على خيله وبشر بن حسان الفهري على ميمنته، وعمر بن هبيرة الفزاري على ميسرته، وأقبل شيب في ثلاثة كراديس، هو في كتيبة، وسويد بن سليم في كتيبة، وقَعْنَب في كتيبة، وخلف المحلّل في عسكره، فلما حَمَلَ سُوَيْد وهو في ميمنته على ميسرة سفيان وقَعْنَب وهو في ميسرته على ميمنة سفيان، حَمَلَ هو على سفيان، ثم اضطربوا ملياً، حتى رجعت الخوارج إلى مكانها الذي كانوا فيه.

فقال يزيد السكسكي - وكان ن أصحاب سفيان يومئذ: كَرَّ علينا شيب وأصحابه أكثر من ثلاثين كَرَّةً، ولا يزول من صفِّنا أحدٌ، فقال لنا سفيان: لا تحملوا عليهم متفرقين، ولكن لتزحف عليهم الرجال زحفاً، ففعلنا، وما زلنا نطاعنهم حتى اضطرادناهم إلى الجسر، فقاتلونا عليه أشدَّ قتال يكون لقوم قَط. ثم نزل شيب، ونزل معه نحو مائة رجل، فما هو إلا أن نَزَلُوا حتى أَوْقَعُوا بنا من الضرب والطعن شيئاً ما رأينا مثله قَط، ولا ظننا يكون، فلما رأى سفيان أنه لا يقدر عليهم، ولا يأمن ظفرهم، دعا الرماة فقال: ارشقوهم بالنبل، وذلك عند المساء وكان الالتقاء ذلك اليوم نصف النهار، فرشقهم أصحابه، وقد كان سفيان صفَّهم على جِدةٍ وعليهم أمير، فلما رَشَقُوهم شَدُّوا عليهم، فشَدَدْنَا نحن، وشغلناهم عنهم، فلما رأوا ذلك ركب شيب وأصحابه، وكَرَّوا على أصحاب النبل كَرَّةً شديدة، صرعوا منهم أكثر من ثلاثين رامياً، ثم عطف علينا يُطاعننا بالرماح، حتى اختلط الظلام، ثم انصرف عنا، فقال سفيان بن الأبرد لأصحابه، يا قوم، دعوهم لا تَتَّبِعُوهم، يا قوم دَعُوهم حتى نُصْبِحَهم. قال: فكففنا عنهم وليس شيء أحبَّ إلينا من أن ينصرفوا عنا.

قال فروة بن لقيط الخارجي: فلما انتهينا إلى الجسر، قال شبيب: اعبروا معاشر المسلمين فإذا أصبحنا باكرناهم إن شاء الله تعالى، قال: فعبرنا أمامه، وتخلّف في آخرنا، وأقبل يعبر الجسر، وتحتة حصان جُمُوح، وبين يديه فرس أنثى ماذيانة، فتزا حصانه عليها وهو على الجسر، فاضطربت الماذيانة، وزل حافر فرس شبيب عن حَرَف السفينة، فسقط في الماء، فسمعناه يقول لما سقط: ﴿لَقِضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَأَن مَّقُولًا﴾^(١) واغتمس في الماء ثم ارتفع فقال: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾^(٢) ثم اغتمس في الماء، فلم يرتفع.

هكذا روى أكثر الناس. وقال قوم: إنه كان مع شبيب رجال كثير بايعوه في الوقائع التي كان يهزم الجيش فيها، وكانت بيعتهم إياه على غير بصيرة، وقد كان أصاب عشائهم وساداتهم، فهم منه موتورون، فلما تخلّف في أخريات الناس يومئذ، قال بعضهم لبعض: هل لكم أن نقطع به الجسر، فندرك ثأرنا الساعة! فقالوا: هذا هو الرأي، فقطعوا الجسر، فمالت به السفينة، ففزع حصانه ونقر، فسقط في الماء وغرق.

والرواية الأولى أشهر، فحدث قوم من أصحاب سُفْيَان، قالوا: سمعنا صوت الخوارج يقولون: غرق أمير المؤمنين، فعبّرنا إلى عسكرهم، فإذا هو ليس فيه صافر ولا أثر، فنزلنا فيه، وطلبنا شبيباً حتى استخرجناه من الماء، وعليه الدرع، فيزعم الناس أنهم شقوا بطنه وأخرجوا قلبه فكان مجتمعاً صلباً كالصخرة، وأنه كان يضرب به الأرض فينبو، ويشب قامة الإنسان.

ويحكى أن أم شبيب كانت لا تصدق أحداً نعاها إليها، وقد كان قيل لها مراراً إنه قد قتل فلا قبل، فلما قيل لها: إنه قد غرق بكث، فقيل لها في ذلك، فقالت: رأيت في المنام حين ولدته أنه خرج من فرجي نارٌ ملأت الآفاق، ثم سقطت في ماء فحمدت، فعلمت أنه لا يهلك إلا الفرق.

وهذا آخر الجزء الرابع

من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد

ويتلوه الجزء الخامس إن شاء الله

الفهرس

الموضوع

الصفحة

الجزء الثالث

٥	الحمد لله الواحد العدل الكريم
٥	عود على بدء: بقية رد المرتضى
٩	المطاعن على عثمان والرد عليها
٤٨	أخبار جرير بن عبد الله البجلي ويبعته لعلي عليه السلام
٥٠	بيعة الأشعث لعلي
٥٠	بين علي عليه السلام ومعاوية
٦٠	مضمرقات
٧٥	جرير البجلي يفارق علياً عليه السلام
٤٤ -	ومن كلام له عليه السلام لما هرب مصقلة بن هيرة الشيباني إلى معاوية، وكان قد ابتاع سبي بني ناجية من عامل أمير المؤمنين عليه السلام وأعتقه، فلما طالبه بالمال خاس به وهرب إلى الشام، فقال:
٧٧	من هم بنو ناجية؟
٧٨	أخبار علي بن الجهم
٧٩	نسب مصقلة وخبر بني ناجية مع علي عليه السلام
٨٢	أخبار الخريت بن راشد الناجي
٤٥ -	ومن خطبة له عليه السلام في الزهد وتعظيم الله
٩٧	الموازنة والسجع
٩٨	التحذير من مفاتن الدنيا
٩٩	٤٦ - ومن كلام له عليه السلام عند عزمه على المسير إلى الشام
١٠٦	ما قاله علي عليه السلام يوم خروجه من الكوفة
١٠٧	علي عليه السلام في كربلاء: واهاً لك يا تربة
١٠٨	مفارقة علي عليه السلام والمسير إلى الشام
١٠٩	

- بين محمد بن أبي بكر ومعاوية مؤيد بن عبد الله بن الحسين
- ١١٩ ٤٧ - ومن كلام له عليه السلام في ذكر الكوفة العبد المستعان
- ١٢٤ الكوفة في نظر علي عليه السلام وجعفر بن محمد تأليف سنة ١١٣٠ - ١١٤١
- ١٢٥ ٤٨ - ومن خطبة له عليه السلام عند المسير إلى الشام حق الحكمة في الطريق
- ١٢٦ في الطريق إلى صفين
- ١٢٧ ٤٩ - ومن خطبة له عليه السلام في تمجيد الله تعالى وتحميده
- ١٣٥ مباحث من العلم الإلهي
- ١٣٦ الفصل الأول وهو الكلام في كونه تعالى عالماً بالأمور الخفية
- ١٣٦ الفصل الثاني في تفسير قوله عليه السلام : «وَدَلَّتْ عَلَيْهِ أَعْلَامُ الظُّهُورِ»
- ١٣٨ الفصل الثالث في أن هويته تعالى غير هوية البشر
- ١٣٩ الفصل الرابع في نفي التشبيه عنه تعالى
- ١٣٩ الفصل الخامس في بيان أن الجاحد له مكابر بلسانه ومثبت له بقلبه
- ١٥٠ ٥٠ - ومن خطبة له عليه السلام : في وقوع الفتن
- ١٥١ ٥١ - ومن كلام له عليه السلام لما غلب أصحاب معاوية أصحابه عليه السلام على شريعة الفرات بصفين
- ومنعوهم من الماء
- ١٥٣ أشعار في الإباء والتحريض على الحرب
- ١٥٤ من هم أباء الضيم ؟
- ١٥٧ شريعة الفرات بين معاوية وعلي عليه السلام
- ١٩٩ ٥٢ - ومن خطبة له عليه السلام ، وقد تقدم مختارها برواية ، ونذكر ما نذكره هنا برواية أخرى ، لتغاير
- الروايتين
- ٢١١ أشعار في ذم الدنيا
- ٢١٣

الجزء الرابع

- الحمد لله الواحد العدل الحكيم ، وصلى الله على رسوله الكريم ومنها في ذكر يوم النحر
- وصفة الأضحية
- ٢٢٥ رأي الفقهاء في وجوب الأضحية
- ٢٢٥ ٥٣ - ومن كلام له عليه السلام في ذكر البيعة
- بيعة علي عليه السلام
- ٢٢٧ ٥٤ - ومن كلام له عليه السلام وقد استبطأ أصحابه إذنه لهم في القتال بصفين
- بعض ما جاء من أخبار في يوم صفين
- ٢٣٠ ٥٥ - ومن كلام له عليه السلام بذكر حروبه مع الرسول
- ٢٤٢ ٥٦ - ومن كلام له عليه السلام لأصحابه يخبر عن رجل يأمر بسبه
- ٢٥٦

٢٥٧ أهل العدل والمجبرة وبعض المسائل الكلامية
٢٥٨ معاوية يأمر بسب علي <small>عليه السلام</small>
٢٦٣ الأحاديث الموضوعة في ذم علي <small>عليه السلام</small>
٢٧٠ فصل في ذكر المنحرفين عن علي <small>عليه السلام</small>
٢٩٥ سب علي <small>عليه السلام</small> عند الإكراه زكاة له
٢٩٦ معنى السب والبراءة
٢٩٧ علي <small>عليه السلام</small> يقول: إني ولدت على الفطرة
٢٩٨ المحققون من أهل السيرة: علي <small>عليه السلام</small> أول من أسلم
٣٠٥ علي <small>عليه السلام</small> من السابقين إلى الهجرة
٣٠٧ ٥٧ - ومن كلام له <small>عليه السلام</small> كلم به الخوارج
٣٠٨ الخوارج: رجالهم وحروبهم
٣٠٨ عروة بن حدير
٣٠٨ نجدة بن عويمر الحنفي
٣١٠ نافع بن الأزرق الحنفي
٣١٤ عبيد الله بن بشير بن الماحوز اليربوعي
٣٨٩ الفهرس

